الموسوعة الإسلامية الكبرى

كتاب

قوت القلوب

الكتاب الجامع في التصوف وتربية المريدين

للإمام المحقق

أبي طالب المكي

المتوفى سنة ٣٨٦ هـ

حقق نصوصه وصححها وتوفر على دراستها

دكتور عبد المنعم الحفني

الجزء الثالث



دار الرشاد



الموسوعة الإسلامية الكبرى

كتاب

قوت القلوب

في معاملة المحبوب ، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للإمام المحقّق

أبي طالب المكّي

المتوفى سنة ٣٨٦ هـ

حقق نصوصه وصححها وتوفّر على دراستها

دكتور عبد المنعم الحفني

الجزء الثالث

الناشر : **دار الرشـاد**
١٤ شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : ٣٩٣٤٦٠٥ - ٢٩٩٢٦١٥
رقم الإيداع : ٩٨٧٦ لسنة ١٩٩١
الترقيم الدولى : .I.S.B.N
977 - 00 - 2742 - 1
طبع : **آمــون**
العنوان : ٤ فيروز - متفرع من اسماعيل أباظة
تليفون : ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧

الطبعة الأولى : ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م
غلاف : محمد طنطاوى

الفصل الثانى والثلاثون

شرح مقامات اليقين وأحوال الموقنين

أصول مقامات اليقين التى تُرَدّ إليها فروع أحوال المتقين تسعة هى **التوبة والصبر والرجاء والخوف والزهد والتوكل والرضا والمحبة**، وهذه محبة الخصوص وهى محبة المحبوب.

ذكر فروض التوبة أول مقامات اليقين، وشرح فضائلها ووصف التوابين

قال الله تعالى فى البيان الأوّل من **خطاب العموم** وتوبوا إلى الله أيها المؤمنون لعلكم تفلحون، معناه إرجعوا إليه من هَوى نفوسكم ومن وقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببُغيتكم فى المعاد وكى تبقوا ببقاء الله عز وجل فى نعيم لا زوال له ولانفاد، ولكى تفوزوا وتسعدوا بدخول الجنة وتنجوا من النار فهذا هو الفلاح. وقال فى البيان الثانى من مخاطبته **الخصوص** ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نَصوحا عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيآتكم ويُدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، فنَصُوحاً من النصح جاء على وزن فَعول للمبالغة فى النُصح، وقد قرئت نُصوحا بضم النون فتكون حينئذ مصدر نصَحَتُ له نُصحا ونُصوحا، فمعناه خالصة لله تعالى. وقيل اشتقاقه من االنِصاح وهو الخيط، أى مجردة لاتتعلق بشىء ولايتعلق بها شىء، وهو الاستقامة على الطاعة من غير رَوَغان إلى معصية كما تروغ الثعالب، وأن لايحدّث نفسه بعوْد إلى ذنب متى قدَرَ عليه، وأن يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصا لوجهه كما ارتكبه لأجل هواه، مُجمعاً عليه بقلبه وشهوته، فمتى أتى الله عز وجل بقلب سليم من الهوى وعمل خالصٍ مستقيم على السُنّة فقد خُتِمَ له بحسن الخاتمة، فحينئذ أدركته الحسنى السابقة وهذا هو التوبة النَصوح، وهذا العبد هو التوّاب المتطهر الحبيب، وهذا إخبار عمّن سبقت له من الله الحسنى، ومَنْ تداركه نعمةٌ من ربه رَحمه بها من تلوث السُّوأى، وهو وصف لمن قصده بخطابه إذ يقول فى كتابه إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لاذنب له.

وسئل الحسن عن **التوبة النصوح** فقال هى ندم بالقلب واستغفار باللسان وترك بالجوارح وإضمار أن لايعود إليه. وقال أبو محمد سهل رحمه الله ليس من الأشياء أوجب على هذا الخلق من التوبة، ولاعقوبة أشد عليهم من فقد علم التوبة وقد جهل الناس علم

التوبة. وقال من يقول إن التوبة ليست بفرض فهو كافر، ومن رضى بقوله فهو كافر. وقال **التائب** الذى يتوب عن غفلته فى الطاعات فى كل طرفة ونَفَس. وقد جعل علىّ كرم الله وجهه ترك التوبة مقاما فى العَمَى وقرّنه باتباع الظن ونسيان الذكر، فقال فى الحديث الطويل ومن عَمِىَ نَسِىَ الذكر واتبّع الظن وطلب المغفرة بلا توبة ولااستكانة، **ففرض التوبة** الذى لابد للتائب منه، ولايكون محقا صادقا إلا به، هو الإقرار بالذنب والاعتراف بالظلم، ومَقْت النفس على الهوى، وحل الإصرار الذى كان عَقَدَه على أعمال السيآت، وإطابة الغذاء بغاية مايقدر عليه، لأن الطُعْمَة أساس الصالحين، ثم الندم على مافات من الجنايات. **وحقيقة الندم** إنْ كان حقا إذ لكل حق حقيقة أن لايعاود إلى مثل ماوقع الندم عليه، ثم اعتقاد الاستقامة على الأمر ومجانبة النهى. **وحقيقة الاستقامة** أن لايقابل مااستقبل من عمره بمثل ماوقع الاعوجاج به، وأنْ يتبع سبيل مَنْ أناب إلى الله، وأن لايصحب جاهلا فيُرديه، ثم الاشتغال بإصلاح ماأفسد فى أيام بطالته ليكون من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا ماأفسدوا، فإنّ الله عز وجل لايُصلح عمل المفسدين كما لايضيع أجر المحسنين، ثم الاستبدال بالصالحات من السيآت والصالحات من الحسنات، ليكون ممن تُبدَّل سيآته حسنات لتحققه بالتوبة وحُسن الإنابة، لأن التبديل يكون فى الدنيا، يُبدّل بالأعمال السُّوأى أعمالا حُسنى، بدليل قوله تعالى إن الله لايغيّر مابقوم حتى يغيّروا مابأنفسهم، فإذا غيّر مابهم من سىء حَسَنا بدّل سيآتهم حَسَنات، ثم الندم ودوام الحزن. وحقيقة الندم والحزن على الفوْت أن لايُفرّط ولاينى فى وقت دَرْكه، ولايرجع ولاينثنى فى حيز استبداله. وقال أبو سليمان الدارانى لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلاعلى فوْت مامضى منه فى غير الطاعة، لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف بمن يستقبل مابقى من عمره بمثل مامضى من جهله؟ وقال سهل بن عبد الله التائب لاعيش له إلا الضرورة للقّوام، ويغتم على مامضى، والجد فى الأمر، ومباينة النهى فيما بقى، ولايتم له ذلك إلا باستعمال علم اليقين فى كل شىء، ثم المتابعة بأعمال الصالحات ليكون ممن قال الله تعالى ويدرئون بالحسنة السيئة الآية، أى يدفعون ما سلف من السيآت بما يعملون من الحسنات، وكذلك قال **النبى صلى الله عليه وسلم** فى حديث أبى ذر فإذا عملت سيئة فاعمل بعدها حسنة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية. وفى وصية مُعاذ أتبع السيئة الحسنة تمحها. وليدخل فى الصالحين كما قال الله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلهم فى الصالحين، ثم المسارعة إلى الخيرات إذا قَدِر عليها ليدرك بها ماضيّع

وفات ليكون من الصالحين، وفى هذا المقام يصلح لمولاه فيحفظه ويتولاه كما قال اللّه وهو يتولى الصالحين.

وجُمَل ماعلى العبد فى التوبة وماتعلّق بها عشر خصال، **أولها** فَرْضٌ عليه أن لايعصى اللّه تعالى، **والثانية** إن ابتلى بمعصية لايُصر عليها، والخَصْلة **الثالثة** التوبة إلى اللّه تعالى منها، **والرابعة** الندم على مافَرَط منه، **والخامسة** عقْدُ الاستقامة على الطاعة إلى الموت، **والسادسة** خوف العقوبة، **والسابعة** رجاء المغفرة، **والثامنة** الاعتراف بالذنب، **والتاسعة** اعتقاد أن اللّه قدّر ذلك عليه وأنه عَدّل منه، **والعاشرة** المتابعة بالعمل الصالح ليعمل فى الكفّارات لقوله صلى اللّه عليه وسلم واتْبَع السيئة الحسنة تمحُها، وفى جميع هذه الخصال جُمَل آثار رويناها عن الصحابة والتابعين يكثُر ذكرها.

ويقال إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة وأنك لاتستأخر عنها طَرْفة عين، قال فيبدو للعبد من الأسف والحسرة مالو كانت له الدنيا من أوّلها إلى آخرها لخرج منها على أن يَضُم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها أو يستبدل بها فلا يجد إلى ذلك سبيلا. وهذا تأويل قوله عز وجل وحيل بينهم وبين مايشتهون، قيل التوبة، وقيل الزيادة فى العمر، وقيل حُسن الخاتمة، حيل بينهم وبين ذلك كما فعل بأشياعهم من قبل، أى بنظرائهم وأهل فرقتهم، قال فإذا كل ساعة تمضى على العبد فهى بمنزلة هذه الساعة، قيمتها الدنيا كلها إذا عرف قيمة ذلك، فلذلك قيل ليس لما بقى من عمر العبدقيمة إذا عرف وجه التقدير من اللّه بالتصريف والحكمة.

وقيل فى معنى قوله تعالى من قبل أن يأتى أحدكم **الموت** فيقول رب لولا أخّرتنى إلى أجل قريب، قال الوقت القريب أن يقول العبد عند كشف الغطاء يا ملك الموت أخّرْنى يوما أعبد فيه ربى وأعتب فيه ذنبى وأتزوّد صالحاً لنفسى، فيقول فَنِيَت الأيام فلا يوم، فيقول أخّرْنى ساعة، فيقول فنيت الساعات فلا ساعة، قال فتبلغ الروح الحلقوم فيؤخذ بكَظمه عند الغرغرة، فيغلق باب التوبة ويُحجب عنه وتنقطع الأعمال وتذهب الأوقات وتتصاعد الأنفاس، يشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء فيحتد بصره. فإذا كان فى آخر نَفَس زهقت نفسُه فيدركه ماسبق له من السعادة، فتخرج روحه على التوحيد فذلك حُسن الخاتمة، أويدركه ماسبق له من الشقْوة فتخرج روحه على الشك، فهذا سوء الخاتمة نعوذ باللّه منه، وقيل هذا هو المنافق ويقال المدمن

على المعاصى المُصرِّ عليها. وقد قال الله تعالى إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، قيل قبل الموت، وقبل ظهور آيات الآخرة، وقبل الغرغرة أى تغرغر النفس فى الحُلقوم، لأنه تعالى قد حكم أن التوبة بعد ظهور إعلام الآخرة لاتُقبل، ومنه قوله عز وجل يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل، يعنى من قبل معاينة الآيات، أو كسبَت فى إيمانها خيراً، قيل التوبة هى كسب الإيمان وأصول الخيرات، وقيل الأعمال الصالحة هى مزيد الإيمان وعلامة الإيقان. وقد قيل ثم من يتوبون من قريب أى عن قريب عهدٍ بالخطيئة، لايتمادى فيها ولايتباعد عن التوبة، وتوبته من قريب أن يُعقِبَ الذنبَ عملاً صالحا ولايُردفه ذنبا آخر، وأن يخرج من السيئة إلى الحسنة ولايدخل فى سيئة أخرى.

وقيل أول من يسأل الرجعة من هذه الأمة من لم يكن أدّى زكاة ماله، أو لم يكن حجّ بيت ربه، فذلك تأويل قول الله تعالى فأصدّق وأكنْ من الصالحين. وكان **ابن عباس** رضى الله عنه يقول **هذه الآية من أشد شىء على أهل التوحيد**، هذا لقوله تعالى فى أوّلها يا أيها الذين آمنوا لاتلْهكم أموالُكم ولا أولادكم عن ذكر الله، وقد قيل لايَسأل عبدٌ الرجعة عند الموت وله عند الله عز وجل مثقال ذرة من خير. وروينا بمعناه من كان له فى الآخرة مثقال ذرة من خير لو أن له الدنيا بما فيها أوّلها إلى آخرها لم يُحب أن يعود إلى الدنيا. وقال بعض العارفين إن لله تعالى إلى عبده سرّين يُسرهما إليه يُوجد ذلك بإلهام يُلهمه أحدهما إذا وُلِدَ وخرج من بطن أمه، يقول له عبدى قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر كيف تلقانى كما أخرجتك، وسرٌ عند خروج روحه يقول عبدى ماذا صنعت فى أمانتى عندك، هل حفظتها حتى تلقانى على العهد والرعاية فألقاك بالوفاء والجزاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب، فهذا داخل فى قوله عز وجل والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، وفى قوله تعالى أوفوا بعهدى أوف بعهدكم، عُمر العبد أمانة عنده إن حفظه فقد أدىّ الأمانة، وإنْ ضيّعه فقد خان الله، إن الله لايحب الخائنين. وفى خبر ابن عباس رضى الله عنه من ضيّع فرائض الله عز وجل خرج من أمانة الله، وعند التوبة النصوح تكفير السيآت ودخول الجنات.

وكان بعضهم يقول قد علمت متى يغفر الله لى، قيل ومتى، قال إذا تاب علىّ. وقال آخر أنا مِنْ أن أحرَم التوبة أخوَف منى من أن أحرَم المغفرة، وقال الله تعالى ومَنْ أصْدقُ من الله حديثا فتاب عليكم وعفا عنكم، وقال الله تعالى فى مثله وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو

عن السيآت. وقال بعض العلماء لاتصح التوبة لعبد حتى ينسى شهواته ويكون ذاكراً للحزن لايفارق قلبه، ذاهبا عن الذنب لايخالج سره. وقال بعض علماء الشام لايكون المريد تائبا حتى لايكتب عليه صاحب الشمال معصية عشرين سنة. وقال بعض السلف من علامة صدق التائب فى توبته أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة، وبفرح ركوب الذنب الحزن عليه والسرور بحسن الإنابة. وقال بعض العلماء فى معناه لايكون العبد تائبا حتى يدخل مرارة مخالفة النفس مكان حلاوة موافقتها، وحُدّثنا فى الإسرائيليات أن الله عز وجل قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبدٍ بعد أن اجتهد سنين فى العبادة ولم ير قبول توبته، فقال له وعزّتى وجلالى لو شَفَع فيه أهل السموات والأرض ماقبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه فى قلبه. ومَنْ بقيت حلاوة المعصيّة فى قلبه أو نظر إليها إذا ذكرها بفكره خيف عليه العوْد فيها إلا بشدّة مجاهدة وكراهة لها، ونفْى خاطرها عن سره إذا ذكرها بالخوف والإشفاق منها.

وقال **أبو محمد سهل** أول مايؤمر به المبتدىء المريد التوبة وهو تحويل الحركات المذمومة إلى حركات محمودة، ويلْزِم نفسه الخلوة والصمت. ولاتصح له توبة إلا بأكل الحلال، ولايقدر على الحلال حتى يؤدى حق الله تعالى فى الخلْق وحق الله تعالى فى نفسه. ولايصح له هذا حتى يتبرأ من حركته وسكونه إلاّ بالله تعالى، وحتى لايأمن الاستدراج بأعمال الصالحات. **وحقيقة التوبة** أن يدع ماله حتى لايدخل فيما عليه، ولايكون يُسَوِّف أبدا إنما يلْزِم نفسه الحال فى الوقت.

وحدثونا عن **سَرِىّ السَقَطى** أنه قال من **شرط التوبة** أنه ينبغى للتائب المنيب أنه يبدأ بمباينة أهل المعاصى ثم بنفسه التى كان يعصى الله تعالى لها، ولاينيلها إلا مالا بد منه، ثم الاعتزام على أن لايعود فى معصية أبدا، ويُلْقى عن الناس مؤنته، ويدع كل مايضطره إلى جريرة، لايتبّع هوى ويتّبع من مضى من السلف. وينبغى لأهل التوبة أن يحاسبوا نفوسهم فى كل طَرْفة، ويَدَعوا كل شهوة ويتركوا الفضول - وهى **ستة** أشياء: ترك فضول الكلام، وترك فضول النظر، وترك فضول المشى، وترك فضول الطعام والشراب واللباس. قال لايَقْوَى على ترك الشُبهات إلاّ مَنْ ترك الشهوات.

وسئل **يحيى بن معاذ** رحمه الله كيف يصنع التائب، فقال هو من عُمره بين يومين، يوم مضى ويوم بقى، فيصلحهما بثلاث، أمّا مامضى فالندم والاستغفار، وأمّا مابقى فبترك

التخليط وأهله ولزوم المريدين ومجالسة الذاكرين، والثالثة لزوم تصفية الغذاء والدُؤب على العمل.

ومن علامة **صدق التوبة** رقة القلب وغزارة الدمع، وفى الخبر جالسوا التوّابين فإنهم أرقّ شيء أفئدة. ومنْ التحقق بالتوبة أن يَستعظِم ذنوبه فإنه يقال إن الذنب كلما استعظمه العبد صَغُر عند الله تعالى، ويقال إن استصغار الذنب كبيرة، كما جاء فى الخبر المؤمنُ الذى يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق الذى يرى ذنبه كذُباب مرّ على أنفه فأطاره. وقد روينا فى خبر مرسل ليتق أحدكم أن يؤخذ عند أدنى ذنوبه فى نفسه، وقال بعضهم الذنب الذى لايغفر قول العبد ليت شىء عملته مثل هذا، فهذا كما قال بلال بن سعد لاتنظر إلى صِغَر الخطيئة ولكن انظر إلى مَنْ عصيت. وقد حدثنا عن الله تعالى أنه أوحى إلى بعض أوليائه لاتنظر إلى قلّة الهديّة وانظر إلى عظَمة مُهديها، ولاتنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء مَنْ واجَهْتَه بها، فإنما عظمت الذنوب عن تعظيم المواجَه بها، وكَبُرت فى القلوب لمشاهدة ذى الكبرياء ومخالفة أمره إليها، فلم يصغر ذنب عند ذلك وكانت الصغائر عند الخائفين كبائر. وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى ذلك ومن يُعظّم حرمات الله فهو خير له، ومن يعظم شعائر الله فإنها من تَقْوى القلوب. قيل الحرمات تُعَظّم فى قلبه فلا ينتهكها، ومن هذا قول الصحابة للتابعين إنكم لتَعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشَعْر، كنا نعدها فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم من الموبقات، ليسوا يعنون أن الكبائر التى كانت على عهد النبى صلى الله عليه وسلم صارت بعده صغائر، ولكن كانوا يستعظمون الصغائر لعظمة الله تعالى فى قلوبهم لعظيم نور الإيمان، ولم يكن ذلك فى قلوب من بعدهم. وأوحى الله تعالى إلى بعض أوليائه كم من ذنب رأيته منك قد أهلكتُ بدونه أمة من الأمم، وقد روينا عن أبّان بن إسمعيل عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أهلك الله تعالى أمةً من الامم كانوا يعبثون بذكورهم.

فأمّا نسيانه الذنوب وذكرُها فقد اختلف قول العارفين فى ذلك، فقال بعضهم **حقيقة التوبة** أن تنصب ذنبك بين عينيك. وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وهذان طريقان لطائفتين وحالان لأهل مقامين، فأماّ ذكر الذنوب فطريق المريدين وحال الخائفين، يُستخرج منهم بتذكرها الحزن الدائم والخوف اللازم. وأماّ نسيان الذنوب شُغْلاً عنها بالأذكار وما يستقبل من مزيد الأعمال فطريق العارفين وحال المحبين، ووجهة هؤلاء شهادة التوحيد وهى

مقام فى التّعرّف، ووجهة الأولين مشاهدة التوقيف والتحديد، وهى مقام فى التعريف، ففى أى المقامين أقيم عبدٌ قام بشهادة وُجهته وعَمَل بحكم حالته، ومقام شهادة التوحيد أفضل عند العارفين من مقام مشاهدة التعريف، وإنْ كانت هذه أوسع وأكثر إلاّ أنها فى أصحاب اليمين وفى عموم المقربين. وشهادة التوحيد أضيق وأقل وأهلها أعلى وأفضل، وهى فى المقربين وخصوص العارفين. وقد يعترض المريد بقصة داود عليه السلام فى تَذَكّره ونَوْحه على خطيئته فإن الأنبياء لايُقاس عليهم لمجاوزتهم حدود مَنْ دونهم، وقد يقلبون فى أحوال المريدين ويسلك بهم سبيل المتعلمين، وذلك لأجل الأمة ليكون طريقاً للعالمين.

واعلم أنه لايُؤمَن على ضعيف اليقين قُوَى النفس عند تذكر الذنوب نظر القلب إليها بشهوةٍ أو ميل نفسٍ معها بحلاوة، فيكون ذلك سبب فتنته فيفسد من حيث صلح، كما لايُؤْمَن على معتاد خطيئة بالنظر إلى سببها حركة النفس إليها، وإن كان الأفضل الاتفاق معها مالم يكن الاتفاق معصية لمجاهدة النفس بالصبر عنها، إلاّ أن ذلك غرور فيه خطر، فترك الاجتماع وقطع الأسباب حينئذ أسلم، وما كان أسلم للمريد فهو أفضل. وفى نسيان الذنوب الذكرُ لما يُستَقبل، والانكماش على مايفوت من الوقت خوف فوت الثانى. وقد كان بعض أهل المعرفة يكره للمريد أن يكون وسواسه الجنة أو تذكّر مافيها من النعيم واللباس والأزواج. وقال وأستحبُ للمريد أن يكون وسواسه ذِكْرَ الله تعالى، وخواطره وهممه متعلقةً بالله تعالى لاسواه. قال لأن المريد حديث عهد بتوبة، غير معتاد لطول الاستقامة والعصمة، فإذا تذكّر نعيم الجنة لم آمَن عليه لضعف قلبه أن يشتهى مثله مما يشاهد فى الدنيا من اللباس والطيبات والنكاح، لأن هذا عاجل وذاك آجل، فتطلب نفسه مثل ماتذكرتْ من نعيم الآخرة معجلاً فى الدنيا، قال فإذا كان همُّه الله تعالى كان أبعد له من زينة الدنيا وشهواتها، ولم يجتر العدو بتمثيل ذلك له من العاجل إلى أن يقوى يقينه، وتنتقل عادته، وتدوم عصمته.

وقد اختلف أهل العلم أيضافى عبدٍ ترك ذنبا وعمل فى الاستقامة ونفسُه تنازعه إليه وهو يجاهدها، وفى آخر ترك الذنب وانكمش فى الإصلاح فلم تكن نفسه تطالبه فلا تنازعه إلى الذنب، ولم يكن على قلبه منه ثُقْل ولامجاهدة، أى هذين أفضل؟ فقال بعض علماء أهل الشام، الذى تنازعه نفسه إلى الذنب وهو يجاهدها أفضل، لأن عليه منازعة وله فضل مجاهدة، ومال إلى هذا القول **أحمد بن أبى الحوارى وأصحاب أبى سليمان الدارانى**. وقال علماء

البصرة، الذى سكنت نفسه عن المنازعة بشاهدٍ من شواهد اليقين والطمأنينة، فلم يبق فيه فضلٌ لعوْد، ولا طلب لمعتاد، أفضل. ومال إلى هذا **رياح بن عمرو القيسى** وهو من كبار علماء البصريّين، وقال لو فَتَر هذا لكان هذا أقرب إلى السلامة ولم يؤمَنْ على الآخر الرجوع.

وقد اختلف العلماء أيضا فى عبدين، سئل أحدهما شيئاً من بذْلِ ماله فى سبيل الله فأبت نفسه عليه وثَقُل عليها ذلك، فجاهدها وأخرج ماله. وسئل آخر بذل ماله فبذله مع السؤال طوْعا ولا ثُقْل عليها ولا مجاهدة منه لها، أيهما أفضل؟ فقال قومٌ المجاهد لنفسه أفضل لأنه اجتمع له الإكراه والمجاهدة، فحصل له عملان، وذهب إلى هذا القول **ابن عطاء** وأصحابه؛ وقال آخرون الذى سمحت نفسه بالبذل طوْعا من غير إكراه ولا اعتراض أفضل، قال لأن مقام هذا فى سخاوة النفس والتحقق بالزهد أفضل من جميع أعمال الأول من الإكراه والمجاهدة ومن بذْلِ ماله على ذلك، ولأن الأول وإنْ غلَبَ نفسه فى هذه الكَرّة لا يأمنْ غلبتها له فى كرّة ثانية أوثالثة، إذ ليس السخاء من مقامها لأنها كانت محمولة عليه. وإلى هذا ذهب **الجنيد** رحمه الله، وهو عندى كما قال.

وسئل **أبو محمد سهل** عن الرجل يتوب من الشىء ويتركه ثم يخطر ذلك الشىء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوة، فقال الحلاوة طبع البشرية، ولابد من الطبع، وليس له حيلة إلاّ أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى، وينكره بقلبه ويُلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه، ويدعو الله تعالى أن يُنسيه ذكر ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته. وقال فإنْ هو غَفَل عن الإنكار طَرْفة عين أخافُ عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة فى قلبه، ولكن مع وجدان الحلاوة يُلزم قلبه الإنكار والحزن فإنه لا يضره. وهذا عندى هكذا، لأن التوبة لا تصح مع بقاء الشهوة، ويكون العبد مراداً بالمجاهدة، وهذا حال المريدين. ومحو الشهوات من القلب بدوام التولى وصف العارفين. وربما تَعَلّق بالذنب ذنوب كثيرة هى أعظم منه مثل الإصرار عليه والاغتباط به وتسويف التوبة بعده، ووجد حلاوة الظَفَر بمثاله أو وَجَد الحزن والكراهة على فوْته والسرور بعمله، أو حَمَل غيره عليه إن كان ذنبا بين اثنين، أو إنفاق مال الله سبحانه وتعالى فيه، فهو كُفر النعمة به. وقد قيل من أنفق درهما فى حرام فهو مسرف. ومن ذلك أن يستصغر الذنب ويحتقره فيكون أعظم من اجتراحه، أو يتهاون بستر الله تعالى عليه ويستخف بحلم الله تعالى عنه فيكون ذلك من الاغترار، أو يجهل نعمة الله تعالى عليه فى ستره وإظهار ضده كما قال فى الدعاء المأثور

الذى يُمدّح الله سبحانه وتعالى به – يا مَنْ أظهر الجميل، وستّر على القبيح، ولم يؤاخذ بالجريرة، ولم يهتك الستر. ويقال كل عاص تحت كنف الرحمن فإذا رفع يديه عنه انهتك ستره. ومن ذلك المجاهرة بالذنب والصوْل به والتظاهر، وهذا من الطغيان. وفى الخبر كل الناس مُعافى إلاّ المجاهرين، يبيت أحدهم عن الذنب قد ستره الله تعالى عليه فيصبح فيكشف ستر الله تعالى ويتحدث بذنبه.

وربما سنّ العاصى بالذنب سنّة اتُّبع عليها فتبقى سيآت ذنبه عليه مادام يُعمل به. وقد قيل طوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه ولم يؤاخذ بها بعده، وطوبى لمن لم يَعْدُ ذنبه غيره. وقال بعضهم لا تذنب، فإن كان لابد فلا تَحمِل غيرك على الذنب فتكسب ذنبين. وقد جعل الله تعالى هذا المعنى وصفا من أوصاف المنافقين فى قوله تعالى المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينْهون عن المعروف، فمن حمل أخاه على ذنب معه فقد أمر بالمنكر ونهى عن المعروف. وقال بعض السلف ما انتهك المرء من أخيه حُرمةً أعظم من أن يساعده على معصيته ثم يُهوّنها عليه. وقد يعيش العبد أربعين سنة ثم يموت فتبقى ذنوبه بعده مائة سنة يُعاقَب عليها فى قبره إذا كان قد سنّها سنّاً واتُّبع عليها، إلى أن تندرس أو يموت من كان يعمل بها ثم تسقط عنه ويستريح منها. ويُقال أعظم الذنوب من نثلم من لا يعرفه ولم يره من المتقدمين مثل أن يتكلم فيمن سلف من أهل الدين وأئمة المتقين، فهذه المعانى كلها تدخل على الذنب الواحد وهى أعظم منه. ومن ذلك قوله تعالى ونكتب ما قدّموا وآثارهم، قيل سُننهم التى عُمل بها بعدهم. وفى الخبر من سَنّ سُنّة سيئة فعُمل بها من بعده كان عليه مثل وزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيأ. وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول ويل للعالِم من الاتّباع، يزل زلة فيرجع عنها، ويحتملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق. وقال بعض أهل الأدب مثل زلّة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق الخلق معها. وفى الخبر الإسرائيلى أنّ عالما كان يُضل الناس بالبدع، ثم أدركته توبة فرجع إلى الله تعالى وعمل فى الإصلاح دهراً. فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم قل له إن ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك بالغاً ما بلغ، ولكن كيف بمن أضللتَ من عبادى فأدخلتّهم النار؟

فأما استحلال المعصية أو إحلالها للغير فليس من هذه الأبواب فى شىء، إنما ذلك خروج عن الملّة وتبديل للشريعة، وهو الكفر بالله تعالى كما رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم – ما

آمن بالقرآن من استحل محارمه .- وقد سمّى الله تعالى عَمَلَةَ السوء جَهْلَة، فقال تعالى إنه مَنْ عَمَل منكم سوأ بجهالة، وقال تعالى بل أنتم قوم تجهلون، وقال تعالى بل أنتم قوم مسرفون. ويقال إن العرش يهتز ويغضب الرب تعالى لثلاثة أعمال، لقتل النفس بغير نفس، وإتيان الذَكَر الذكر، وركوب الأنثى الأنثى. وفى خبر لو اغتسل اللوطى بالبحار لم يطهره إلاّ التوبة. ولو لم يكن فى يسير المعصية من الشؤم إلاّ حرمان الطاعة وفقد حلاوة الخدمة ومَقْت المولى لكان هذا من أعظم العقوبات، كما قال وهيب بن الورد وقد سئل هل يجد العاصى حلاوة الطاعة؟ قال لا، ولا من هَمّ بمعصية. ولذلك سمى الله تعالى يَحيَى سيّداً لأنه لم يَهُم بمعصية، فصار علامة السيد بقدر سؤدد مَنْ لا يَهُم بالمعاصى، فصار مَنْ لا يَهُم بالمعاصى سيدا.

وفى خبر مَنْ لبس ثوب شهرة، وفى بعضها من نظر إلى عِطْفَيْه فاختال، أعرض الله تعالى عنه وإن كان عنده حبيبا. كيف وفى المخالفة وجود البُعد والوَحشة والانقطاع من المعاملة. وروينا فى خبر أن آدم عليه السلام لمّا أكل من الشجرة تطايرت الحُلَل عن جسده وبدَت عورته، قال فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه، فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحلّ ميكائيل الإكليل عن جبينه، ونوديا من فوق العرش اهبطا من جوارى فإنه لا يجاورنى من عَصَانى، فالتفت آدم إلى حوّاء باكياً وقال هذا أول شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب!

وروينا أنّ سليمان نبى الله صلى الله عليه وسلم لما عوقب على خطيئته من أجل التمثال الذى عُبِدَ فى داره أربعين يوما، أو قيل بسبب المرأة التى سألته أن يحكم لأبيها على خصمه فقال نعم ولم يفعل، أو قيل بل بسبب أنه أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها فى قلبه، فسُلِبَ ملكُه أربعين يوما فهرب تائها على وجهه، وكان يسأل بكفه فلا يُطعَم، فإذا قال أطعمونى فإنى سليمان بن داود شُجّ وضُرِب. ولقد بلغنى أنه استطعم من بيت فطُرِد وبَزَقت امرأة فى وجهه. وفى رواية قال فأخرجت إليه عجوز جرّة فيها بوْل فصبّته على رأسه، إلى أن خرج له الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين وهى أيام العقوبة. قال فجاءت الطير فعكفت عليه، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله، فلما عرفه الصيادون عَقَروا بين يديه واعتذروا إليه مما كانوا طردوه وشجّوه، فقال لا ألومكم فيما صنعتم قبل، ولا

أحمدكم فيما تصنعون الآن، هذا أمر من السماء فلابد منه. ولقد بلغني أنه كان من مسيره والريح تحمله في جنوده، إذ نظر إلى قميصه نظرة وكان عليه قميصٌ جديد فكأنه أعجبه، فوضعته الريح بالأرض، فقال لها لِمَ فعلت ولم آمرك، قالت إنما نطيعك إذا أطعتَ الله تعالى. وقد قال بعض العلماء في معنى هذا من خاف الله تعالى خافه كل شيء، ومن خاف غير الله تعالى أخافه الله تعالى من كل شيء، فكذلك أيضا من أطاع الله تعالى سخّر له كل شيء، ومن عصاه سخّره لكل شيء، أو سلّط عليه كل شيء.

وفي الخبر إن العبد لَيُحرَم الرزق بالذنب يصيبه وقد قيل الرزق من الحرام من قلة التوفيق للأعمال الصالحة. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه ولو لم يكن من بركة التوبة والعلم والاستقامة على الطاعة، إلاّ أنّ كل ما يصيب العبد فهو خير له، إنْ كان سعةً فهو رفق من الله تعالى به عليه ولطف له منه، وإنْ كان ضيقاً فهو اختيار من الله تعالى وخيرةٌ للعبد، ويجد حلاوة ذلك ولذته لأنه في سبيله وقد أصابه وهو مقيم على طاعته، ولو لم يكن من شؤم الناس ووجد النقص لمخالطتهم إلاّ أن المعصية معهم أشد، وهي بهم أعظم لتعلق المظالم في أمر الدنيا وشأن الدين، وكل من قلّت معارفه قلّت معهم خطاياه.

وقال بعض السلف ليست اللعنة سواداً في الوجة ونقصاً في المال، إنما اللعنة أنْ لا يخرج من ذنب إلاّ وقع في مثله أو شر منه، وذلك أن اللعنة هي الطرد والبُعد فإذا طُرِد من الطاعة فلم تُيَسّر له بَعُدَ عن القربات فلم يوفق لها فقد لُعِن. وقد قيل في معنى الخبر الذي رأيناه آنفا إنّ العبد ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه قبل أن يُحرم الحلال ولا يوفق له بوقوعه في المعصية. وقيل يحرم مجالسة العلماء ولا ينشرح قلبه لصُحبة أهل الخير. وقيل يمقته الصالحون وأهل العلم بالله تعالى فيعرضون عنه. وقيل يُحرم العلم الذي لا صلاح للعمل إلاّ به لأجل إقامته على الجهل. ولا تنكشف له الشبهات بإقامته على الشهوات، بل تلتبس عليه الأمور فيتحيّر فيها بغير عصمة من الله تعالى، ولايوفق للأصوب والأفضل. وقد كان الفضيل يقول ماأنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك أورثتك ذلك. ويقال نسيان القرآن بعد حفظه من أشد العقوبات، والمنع من تلاوته وضيق الصدر بقراءته والاشتغال عنه بضده عقوبة الإصرار. وقال بعض صوفية أهل الشام نظرتُ إلى غلام نَصْراني حسن الوجه فوقفت أنظر

اليه فمر بى ابن الجلاّء الدّمشقى فأخذ بيدى فاستحييت منه، فقلتُ يا أبا عبد الله سبحان الله، تعجبتُ من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة، كيف خُلقت للنار؟ فغمز يدى وقال لتجدن عقوبته بعد حين، قال فعوقبت بعد ثلاثين سنة. وقال بعضهم إنى لأعرف عقوبة ذنبى فى سوء خُلُق حمارى، وقال آخر أعرف العقوبة حتى فى نار بيتى.

والعقوبة موضوعها الشدة والمشقة، فعقوبة كل عبد من حيث يُشتد عليه، فأهل الدنيا يعاقبون بحرمان رزق الدنيا من تعذُّر الإكساب وإتلاف الأموال، وأهل الآخرة يُعاقَبون بحرمان رزق الآخرة من قلة التوفيق للأعمال الصالحات وتعذر فتوح العلوم الصادقة، ذلك تقدير العزيز العليم. وكان أبو سليمان الدارانى يقول **الاحتلام عقوبة**. وقال لايفوت أحداً صلاةٌ فى جماعة إلاّ بذنب يُحدثه. فدقائق العقوبات على قدر ترافع الدرجات. وقد جاء فى الأخبار ماأنكرتم من زمانكم فبما غيّرتم من أعمالكم. وفى الخبر يقول الله عز وجل أدنى ماأصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتى أنْ أحرمه لذيذ مناجاتى، فهذه عقوبة أهل المعاملات. ولو ظهر تغيّر القلب عند المعصية على وجه العاصى لاسوّد وجهه، ولكن الله تعالى سلّم بِحلِمه وسَتَرَه فغطّى ذلك فى القلب مع تأثيره فيه. وحجابُه لصاحبه وقسوتُه عن الذكْر وعن طلب الخير والبرّ والمسارعة إلى الخير هو من أكبر العقوبات. ويقال إن العبد إذا عصى اظلّم قلبه ظُلمة يثور على القلب منها دخان يشهده الإيمان، فهو مكان حزن العبد الذى تسوءه سيئته، ويكون ذلك الدخان حجابا له عن العلْم والبيان كما تحجب السحابة الشمس فلاتُرى، ويكون غُلفا يجده فى نفسه للخَلْق، فإذا تاب العبد وأصلح انكشف الحجاب فيظهر الإيمان فيأمر بالعلم كما تبرز الشمس من تحت الحجاب. ومن هذا قوله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون، قيل هو الذنب على الذنب حتى يسوّد القلب ويصير الإيمان تحت الحجاب فلا يَعرف معروفا ولايُنكر منكرا، وعندها يُنكّس أعلاه أسفله إذا استكمل سواده، فحينئذ مَرَدَ على النفاق فأملس فيه واطمأنّ به وثَبتَ، إلى أن ينظر الله تعالى إليه فيعطف بفضله عليه. وقد كان الحسن رضى الله عنه يقول إن بين العبد وبين ربه عز وجل حداً من المعاصى معلوماً إذا بلغه العبد طُبِعَ على قلبه فلم يوفقه بعدها للخير. وفى حديث ابن عمر الطابع معلق بقائمة العرش، فإذا انتُهكت الحُرمات واستُحلّت المحارم أرسل الله تعالى الطابع فطَبع على القلوب بما فيها. وفى حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة فكلما أذنب ذنبا انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فتشدُ على القلب فذلك هو القُفل. ويقال لكل ذنب

نبات ينبت على القلب فإذا كثرت الذنوب قام النبات حول القلب مثل الكُم للثمرة، فانضم على القلب فذلك هو الغلاف. ويقال إنه الكِنان أحد الأكنة التى ذكر الله تعالى أن القلب لايسمع معها ولايفقه.

ولكل ذنب عقوبة إلا أن يعفو الله، والعقوبة ليست على قدر الذنب ولامن حيث يعلم العبد، لكنها على تقدير المشيئة وعن سابق علم الربوبية، فربما كانت فى قلب وهى من أمراض القلوب، وربما كانت فى الجسد، وقد تكون فى الأموال والأهل، وتكون فى سقوط الجاه والمنزلة من عيون علماء الإسلام والمؤمنين، وقد تكون مؤجلة فى الآخرة وهذه أعظم العقوبات، وهى لأهل الكبائر من الموبقات الذين ماتوا عن غير توبة، ولأهل الإصرار والعزة والاستكبار، لأنها إذا كانت فى الدنيا كانت يسيرة على قدر الدنيا، وإذا تأخرت كانت عظيمة على قدر الآخرة. وفى الخبر إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً عجّل له عقوبة ذنبه، وإذا أراد به شراً أخّره حتى يُوافى به الآخرة.

واعلم أن الغَمّ على مايفوُت من الدنيا والهَمّ بالحرص عليها من العقوبات، والفرح والسرور بما نال من الدنيا مع مَنْ لايبالى ماخرج من دينه، من العقوبات. وقد يكون دوام العوافى واتساع الغنى من عقوبات الذنوب إذا كانا سببيْن إلى المعاصى، وقد تكون عقوبة الذنب ذنبا مثله وأعظم منه، كما يكون مثوبة الطاعة طاعة مثلها أو أفضل منها. وفى أحد الوجوه من معنى قوله تعالى وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون، قال الغنى والعافية. كما يكون الفقر والسَقَم برحمة من الله تعالى إذا كانا سببا للعصمة، وهُمَا أمهات المعاصي إذا كانا سببيْن لها ومطَرِّقيْن إليها.

واعلم أن الحِلْم لايرفع العقوبة ولكن يؤخرها، ومن شأن الحليم أن لايعجّل بالعقوبة، وقد يعاقب بعد حين. وروينا فى معنى قوله تعالى فلما نسوْا ماذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء، أى الرُخَص والرَغَد، حتى إذا فرحوا بما أوتو أخذناهم بغتة، قيل بعد ستين سنة. وفى الخبر من الذنوب ذنوب لايُكفّرها إلا الهَمّ بطلب المعيشة. وفى لفظ آخر لايكفرها إلاّ الهموم والأحزان. والاهتمام بالمباحات من حاجات الدنيا للفقراء كفارات، وهو على مايفوت من قُرُبات الآخرة للمؤمنين درجات، وهو على حب الدنيا والجمع منها والحرص عقوبات. وقال بعض السلف كفى به ذنبا لايُستغفر منه حبُ الدنيا. وفى حديث عائشة رضى الله عنها إذا

كثرت ذنوب العبد ولم يكن له من الأعمال مايكفرّها أدخل الله عز وجل عليه الغموم والهموم فتكون كفارةً لذنوبه. ويقال إن الهَمّ الذى يعرض للقلب لايعرف العبد سبب ذلك فهو كفاّرات الهَمّ بالخطايا. ويقال هو حُزن العقل عند تذكره الوقوف والمحاسبة لأجل جنايات الجسد، فيلزم العقل ذلك الهم، فيظهر على العبد منه كأنه لايعرف سبب غّمه.

فإذا أتْبع العبد الذنب بالذنب ولم يجعل بين الذنبين توبةً خيف عليه الهلَكة لأن هذا حال **المُصرّ**، ولأنه قد شَرَد عن مولاه بترك رجوعه إليه ودوام مقامه مع النفس على هواه، وهذا **مقام المَقْت فى البُعد**. وأفضل مايعمله العبد قطع شهوات النفس أحلى مايكون عنده الهوى، إذ ليس لشهواتها آخِر يُنتظَر، كما ليس لبدايتها أوّل يُرتسَم، فإنْ لم يقطع ذلك لم يكن له نهاية، فإنْ شُغِل بما يَستأنف من مزيد الطاعة وَجَد حلاوةَ العبادة، وإلاّ أخذ نفسه بالصبر والمجاهدة فهذا طريق الصادقين من المريدين. وقيل فى قوله تعالى استعينوا بالله واصبروا، أى استعينوا به على الطاعة واصبروا على المجاهدة فى المعصية. وقال علىٌّ كرّم الله وجهه أعمال البرّ كلها إلى جنب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كَتفْلة إلى جنب البحر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى جنب الجهاد فى سبيل الله تعالى كَتفْلة فى جنب بحر، والجهاد فى سبيل الله تعالى إلى مجاهدة النفس عن هواها فى اجتناب النَهْى كتفلة فى جنب بحر لُجّى. وعلى هذا معنى الخبر الوارد رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر – مجَاهدة النفس.

وكان سهل بن عبد الله يقول **الصبر** تصديق الصدق، وأفضل منازل الطاعة صبرٌ على معصية، ثم الصبر على الطاعة. وقد روينا فى الإسرائيليات أن رجلا تزوّج امرأة فى بلدة وأرسل عبده يحملها إليه، فراودته نفسه وطالبته بها، فجاهدها واستعصم بالله، قال فنبّأه الله تعالى فكان نبياً فى بنى إسرائيل. وفى بعض قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام بأىّ شىء أطلَعَك الله تعالى على علم الغيب؟ فقال بترك المعاصى لأجل الله تعالى. فالجزاء من الله تعالى يجعله غاية العطاء لا على قدر العمل، لكن إذا عمل له عبدٌ شيئاً لأجله أعطاه أجره بغير حساب.

ولا يتخذ التائب عادةً من ذنب فيتعذر بها توبته، فإن **العادة** جندٌ من جنود الله تعالى لولاها لكان الناس كلُهم تائبين، ولولا الابتلاء لكان التائبون مستقيمين. والعمل فى قطع

المعتاد والصبر على مجاهدة النفس في الهوى إن بُلى به فهذه الخصال من أفضل أعمال المريدين وأزكاها، ومعها تُلهَم النفس المطمئنة رشدها وتقواها، وبها تخرج من وصف الأمّارة بالسوء إلى وصف المُطمئنة إلى أخلاق الإيمان، وهذا أحد المعاني في الخبر الذي رُوى أفضل الأعمال ماأكرهتم عليه النفوس، لأن النفس تكره خلاف الهوى، والهوى هو ضد الحق، والله تعالى يحب الحق، فصار جبار النفس على خلاف الهوى وعلى وفاق الحق، لأن محبة الحق من أفضل الأعمال كما قال تعالى والوزن يومئذ الحق الآية، واستثنى من أهل الخُسر الذين تَوَاصوْا بالحق وتواصوا بالصبر، وهذا **أوّل اليقين**.

وحُدثت عن بعض أهل الاعتبار أنه كان يمشى في الوحل فكان يتقى ويُشمّر ثيابه عن ساقيه ويمشى في جوانب الطريق، إلى أن زلّقت رجلُه في الوحل، فأدخل رجليْه في وسط الوحل وجعل يمشي في المحجة، قال فبكى، فقيل له مايبكيك، فقال هذا مثل العبد لايزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب منها وذنبين، فعندها يخوض الذنوب خوضا.

وعلى العبد أن يتوب من **الغفلة** التي هي كائنة فإذا عرف هذا لم تنقطع أبداً توبته، وقد جعل الله تعالى أهل الغفلة في الدنيا هم أهل الخُسران في العُقبى، فقال عز من قائل وأولئك هم الغافلون، لاجرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون، ولكن غفلة دون غفلة، وخسران دون خسران، ولاتَستحقرَنّ الغفلة فإنها أوّل المعاصي، وهي عند الموقنين أصل الكبائر، وقد جعل عليٌّ كرّم الله وجهه الغفلة إحدى مقامات الكُفر وقرنها بالعَمى والشك، وأمّال صاحبها عن الرُشد ووصفها بالحسرة، فقال في الحديث الذي يُروَى من طريق أهل البيت، فقام عمّار بن ياسر فقال ياأمير المؤمنين أخبرنا عن الكُفر علّى مابُني، فقال على أربع دعائم، على الجفاء والعَمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقّر الحق وجهَر بالباطل ومَقت العلماء، ومن عَمِيَ نسَى الذكر، ومن غفَل حاد عن الرُشد وغرّته الأماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله مالم يكن يحتسب، ومن شكّ تاه في الضلالة.

وقال بعض العلماء من صَدَق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله تعالى سبع مرات لم يُبتل بها. وقال آخر من تاب عن ذنب واستقام سبع سنين لم يرجع إليه أبدا. وقال بعض العلماء كفّارة الذنب المعتاد أن تقدر عليه عدد مأتيته ثم لاتقع فيه، فيكون كُل تَرْكٍ كفارةً لفعل، وهذا حال الأقوياء من التوّابين وليس هو طريق الضعفاء من المريدين، بل حال الضعفاء الهرب

والبُعد. ومن حدّث نفسه بمعصية فى عدمها لم يملك نفسه عند وجودها، فليعملْ المريد فى قطع وساوس النفس بالخطايا وإلاّ وقع فيها، لأن الخواطر تَقْوَى فتكون وسوسة، فإذا كثُرت الوساوس صارت طَرْقاً للعدو بالتزيين والتسويل، فأضرُّ شىء على التائب تمكينه خاطر السوء من قلبه بالإصغاء إليه فإنه يدُبّ فى هلكته. وكل سبب يدعو الى معصية أويذكّر بمعصية فهو معصية، وكل سبب يؤل إلى ذنب ويؤدى إليه فهو ذنب وإن كان مباحا وقطعته طاعة، وهذا من دقائق الأعمال.

وكان يقال من أتى عليه أربعون وهو العمر، وكان مُقيما على الذنب، لم يكدْ يتُبْ منه إلا القليل من المتداركين. وقد روى فى الخبر المُؤمن كلُ مُفْتَن توّاب، وإنّ للمؤمن ذنباً قد اعتاده الفينة بعد الفينة، يعنى حيناً بعد حين. وفى الحديث كل بنى آدم خطّاء، وخير الخطّائين المستغفرون. وفى الخبر الآخر المؤمن واه راقع، فخيرهم من مات على رَقْعه، أى واه بالذنوب راقعٌ بالتوبة والاستغفار. وقد وصف الله تعالى المؤمنين بترك متابعة الذنوب وترادف السيئة بالحسنة فى قوله تعالى ويدرؤن بالحسنة السيئة، وقد جعل هذا من وصف العاملين الذين صبروا فقال تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة، فجعل تعالى لهم صبريْن عن الذنب وعلى التوبة فآتاهم به أجرين، وقد اشترط الله تعالى على التائبين من المؤمنين ثلاث شرائط، وشرط على التائبين من المنافقين أربعة، لأنهم اعتلّوا بالخَلْق فى الأعمال فأشركوهم بالخالق فى الإخلاص، فزاد عليهم الشرط تشديد الشدّة دخولهم فى المَقْت، واعتلّ غيرُهم بوصفه فخفّف عنهم شرطيْن فقال عز وجل إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينّوا، وقوله تعالى تابوا أى رجعوا إلى الحق من أهوائهم، وأصلحوا يعنى ماأفسدوا بنفوسهم وبيّنوا، فيها وجهان، أحدهما بيّنوها ماكانوا كتموا من الحق وأخفوا من حقيقة العلم، وهذا لمن عصى بكتم العلم ولبس الحق بالباطل، وقيل بينّوا حتى تَبَيّن ذلك فيهم فظهرت أحكام التوبة عليهم. وقال فى الشرطين الآخرين المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجدلهم نصيراً إلاّ الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله، لأنهم كانوا يعتصمون بالناس وبالأموال وكانوا يراؤن بالأعمال، فلذلك اشترط عليهم الاعتصام بالله والإخلاص لله عز وجل، فينبغى أن تكون توبة كل عبد عن ضد معاصيه قليلا بقليل أوكثيرا بكثير، ويكون التائب على ضد ماكان أفسد ليكون كما قال الله تعالى إنّا لانضيع أجر المصلحين. ولايكون العبد تائبا حتى يكون مصلحا، ولايكون مصلحا حتى يعمل الصالحات ثم يدخل فى الصالحين. وقد قال الله تعالى وهو يتولى الصالحين، وهذا وصف للتوّاب وهو المتحقق بالتوبة والحبيب لله تعالى، كما قال تعالى إن الله يحب التوّابين أى يتولى الراجعين

إليه من أهوائهم المتطهرين له من المكاره. وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله. وسُئل أبو محمد سهل متى يكون العبد التائب حبيب الله تعالى؟ فقال حتى يكون كما قال الله تعالى التائبون العابدون الآية. ثم قال الحبيب لا يدخل فى شىء لا يحبه الحبيب، وقال لا تصح التوبة حتى يتوب من الحسنات، وقد قال غيره من العارفين **العامة** يتوبون من سيئاتهم، **والصوفية** يُتوبون من حسناتهم، يعنى من تقصيرهم فى أدائها لعظيم ما يشهدون من حق المَلِك العزيز سبحانه وتعالى.

وكان سهل يقول التوبة من أفضل الأعمال، لأن الأعمال لا تصحّ إلاّ بها، ولا تصح التوبة إلا بترك كثير من الحلال مخافة أن يخرجهم إلى غيره، والاستغفار قُوت التوابين ومفزَع الخطائين. قال الله تعالى وهو أصدق القائلين استغفروا ربكم ثم توبوا إليه. وقال تعالى أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه، فابتدىء التوبة بالاستغفار، وعقّبْ الاستغفار بالتوبة، فالاستغفار مع الذنب سؤال الستر من الله تعالى، ومغفرة الله تعالى لعبده فى حال ذنبه ستره عليه وحلمه عنه. ويقال ما من ذنب ستّره الله تعالى على عبده فى الدنيا إلاّ غفره له فى الآخرة،إنّ الله تعالى أكرم من أن يكشف ذنبا كان قد ستره، وما من ذنب كشَفَه الله فى الدنيا إلاّ جعل ذلك عقوبة عبده فى الآخرة، فالله أكرم من أن يُثنّى عقوبته على عبده. وقد روى عن علىّ وابن عباس رضى الله عنهما نحو ذلك، وقد أسنداه من طريق الاستغفار بعد التوبة، وهو سؤال العبد مولاه العفو عن المؤاخذة. ومغفرة الله تعالى لعبده بعد التوبة تكفيره لسيأته وتجاوزه عنها بالعفو الكريم، وهو تبديل السيآت حسنات. كما جاء فى الخبر أن تفسير قول العبد يا كريم العفو، قال هو أنْ عفا برحمته عن السيآت ثم بدّلها بكَرمه حسنات، وقد أحكم اللهّ تعالى ذلك بقوله فاستقيموا إليه واستغفروه، بعد قوله تعالى إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، تتنزلُ عليهم الملائكة أنْ لا تخافوا ولا تحزنوا، أى وَحّدوا الله تعالى ثم استقاموا على التوحيد فلم يشركوا، وقيل استقاموا على السنّة فلم يُحدِثوا، وقيل استقاموا على التوبة فلم يروغوا معها، أن لا تخافوا عقاب الذنوب فقد كفرّها عنكم بالتوحيد، ولا تحزنوا على ما فاتكم من الأعمال فقد تداركها الله تعالى لكم بالتوبة، وبلغكم منازل المُحسنين بالاستقامة، ثم قال تعالى وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون، فى السابق، نحن أولياؤكم أى نليكم ونقرب منكم، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، أى بالتثبيت لكم على الإيمان، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم، أى أجسامكم من النعيم المقيم، ولكم فيها ما توعدون، أى ما تتمنون بقلوبكم من النظر إلى الملك الرحيم.

وفى الخبر التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب وهو مُصرّ عليه كالمستهزىء بآيات الله تعالى. وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولى أستغفر الله باللسان، عن غير توبةٍ ندمٍ بالقلب. وفى خبر الاستغفار باللسان من غير توبة وندم بالقلب توبة الكذّابين. وكانت رابعة تقول استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار. فكم من توبة تحتاج إلى توبة فى تصحيحها والإخلاص من النظر إليها والسكون والإدلال بها، فمن عَقّب السيئات بحسنات، وخَلّط الصالحات بالطالحات، طُمع له فى النجاة ورُجى له الاستقامة قبل الوفاة، قال الله تعالى خَلطوا عملاً صالحا وآخر سيأ عسى الله أن يتوب عليهم، أى يعطف عليهم وينظر إليهم، وقيل خَلطوا عملا صالحا هو الاعتراف بالذنوب والتوبة المستأنفة، وآخر سيأً ما سلَف من الغفلة والجهالة، وقد كان ابن عباس يقول غفور لمن تاب، رحيمٌ حيث رخّص فى التوبة. وقد قال الله تعالى وإنى لغفّار لمن تاب، أى من الشرك، وآمن بالتوحيد، وعمل صالحا أدّى الفرائض واجتنب المحارم، ثم اهتدى كان على السُنّة، وقيل استقام على التوبة، فهذه صفات المؤمنين فلم يردّ الله تعالى المخلصين إلى ماردّ إليه المنافقين وهو التوبة، وكذلك ردّ إليها المشركين إذ لا طريق للكل إلاّ منها، ولا وصول إلى المحبة والرضا إلاّ بها، وقال تعالى فى وصف المنافقين وآخرون مُرْجَوْن لأمر الله إمّا يعذبهم أى مع الإصرار، وإمّا يتوب عليهم أى بالاستغفار. وأحكم ذلك وفصّله بما شرط له، كما قال فى شأن الكافرين فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم.

وقد قَرَن الله تعالى الاستغفار للعباد ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فى الأمة، ورفع العذاب عنهم بوجوده، فضلاً منه ونعمة، وقال وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون. وكان بعض السلف يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وبقى الآخر، فإن ذهب الآخر هلكنا يعنى الذى ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم، والذى بقى الاستغفار. وسئل سهل رحمه الله عن الاستغفار الذى يكفرّ الذنوب فقال أوّل الاستغفار الاستجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة، فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقباله على مولاه وتَرْك الخَلْق، ثم يستغفر من تقصيره الذى هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه، ثم ينقل إلى الانفراد، ثم الثبات، ثم البيان، ثم المعرفة، ثم المناجاة، ثم المُصافاة، ثم محادثة السر وهو الخُلّه، ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه، والذكر قوامه، والرضا زاده، والتفويض مراده، والتوكل صاحبه، ثم ينظر الله تعالى إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه حَمَلة العرش.

وكان بعض السلف يقول العبد لابد له من مولاه على كل حال، وأحسن حاله أن يرجع إليه فى كل شىء إذا عصى، يقول يا رب استُر علّى، فإذا فرغ من المعصية قال يارب تُب علّى، فإذا تاب، قال يارب ارزقنى العصمة، فإذا عمل قال يارب تقبّل منى. ومن أحسن ما يتعقب الذنب من الأعمال بعد التوبة وحل الإصرار مما يُرجى به كفّارة الخطيئة **ثمانية أعمال، أربعة من أعمال الجوارح، وأربعة من أعمال القلوب، فأعمال الجوارح** أن يصلى العبد ركعتين، ثم يستغفر سبعين مرة ويقول سبحان اللّه العظيم وبحمده مائة مرة، ثم يتصدق بصدقة ويصوم يوما، **وأعمال القلوب** هى اعتقاد التوبة منه، وحب الإقلاع عنه، وخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له، ثم يحتسب على اللّه تعالى بحسن ظنه وصدق يقينه كفارة ذنبه، فهذه الأعمال قد وردت بها الآثار أنها المُكَفّرة للزّلل والعثار، وقد يُشترط فى بعضها فيتوضأ ويُسبغ الوضوء ويدخل المسجد فيصلى ركعتين.

ويقال **صدقة الليل** تُكفّر ذنوب النهار، **وصدقة السرّ** تكفر ذنوب الليل. وفى بعض الأخبار إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تُكَفّرها، السر بالسر والعلانية بالعلانية. فأول ما يحب اللّه عز وجل على عبده أن لا يعصيه بنعمه لئلا تكون معصيته كفرانا لنعمته، وجوارح العبد وماله هى من نعم اللّه تعالى عليه، لأن قوام الإنسان بجوارحه، وثبات جوارحه بالحركة، ومنافع الحركة بالعافية، فإذا عصاه بالنعمة فقد بدّلها كفرا، كما قال تعالى بدّلوا نعمة اللّه كفرا، قيل استعانوا بها على معاصيه، ثم توّعد على التبديل بالعقاب الشديد، فقال ومن يبدّل نعمة اللّه من بعد ما جاءته فإن اللّه شديد العقاب، فقد يكون العقاب على تبديل النعمة مُعجّلاً فى الدنيا ويكون مؤجلا فى الآخرة، وقد يكون العقاب فى أسباب الدنيا، وقد يكون فى حرمان أسباب الآخرة لأنهما مآله ومثواه، وقد يكون فيهما معا، وقد تكون نفس المعصية بالنعمة عقوبة. والجهل بالنعمة وتضييع الشكر عليها، واستصغارها والسكون إليها، والتطاول والتفاخر والتكاثر بها، كل هذه الأسباب عقوبات. ثم يُفرض على العبد إذا عصاه الرجوع إلى مولاه وهو التوبة عُقيب وقوفه مع نفسه، وهو موافقة الهوى بالخطيئة، فتأخيره بالتوبة وإصراره على الذنب ذنبان مُضافان إلى الخطيئة، فإذا تاب من ذنبه وأحكم التوبة منه اعتقد الاستقامة على الطاعة ودوام الافتقار إلى اللّه تعالى فى العصمة، ثم يتوب أبدا من الصغائر إلى الهمّ والتمنى، ومن الخوف والطمع فى المخلوق، وهى ذنوب الخصوص، إلى الطرفة والنفس والسكون إلى شىء والراحة بشىء، وهذه ذنوب المقرّبين، حتى لا يبقى على العبد فيما

يعلم مخالفة، وحتى يشهد له العلم بالوفاء. وإنما حُرم بعض التابعين ذلك المزيد ولم يجدوا حلاوة التوبة لتهاونهم بحال الرعاية، وتسامحهم بترك حُسن القيام بشاهد المراقبة، وذلك يكون من قلة إحكام أمر التوبة، ولو قاموا بحكم التوبة من الذنب الواحد وأحكموا حال الصادقين فى التوبة لم يعدموا من الله المزيد لأنهم محسنون فهم فى تجديد، قال الله تعالى سنزيد المحسنين، فإذا رأك مستقيما على التوبة عاملا بالصالحات ولم تجد نفسك على مزيد، بوجْد حلاوة أو حُسن خليقة أو عروض زهد أو خاصية معروفة، فارجع إلى باب المراقبة أو موقف الرعاية فتفقدهما، وأحْكِمْ حالهما فمِنْ قِبَلِهما أُتيت.

وقال بعض العلماء من تاب من تسعة وتسعين ذنبا ولم يتب من ذنب واحد لم يكن عندنا من التائبين. ولا تغفلن عن التفقد وتجديد التوبة أدبار الصلوات، فإنما دخل الخُسران على العمال من حيث لا يعلمون من تركهم التفقد ومحاسبة النفس، وبمسامحتها مما يعملون. واعلم أن حقيقة كل ذنب **عشرة أعمال** لا يكون العبد توّاباً بحبه الله تعالى، ولا تكون توبته نصوحا التى شرطها الله تعالى وفسرتها النبوّة، إلاّ أن يحكم العبد **عشر توبات** من كل ذنب، أولها ترك العوْد إلى فعل الذنب، ثم يتوب من القول به، ثم يتوب من الاجتماع مع سبب الذنب، ثم التوبة من السعى فى مثله، ثم التوبة من النظر إليه، ثم التوبة من الاستماع إلى القائلين به، ثم التوبة من الهمّة، ثم التوبة من التقصير فى حق التوبة، ثم التوبة من أن لا يكون أراد وجه الله تعالى خالصا بجميع ما تركه لأجله، ثم التوبة من النظر إلى التوبة والسكون إليها والإدلال بها، ثم يشهد بعد ذلك تقصيره عن القيام بحق الربوبية لعظيم ما يشهد بالمزيد من الإشراف على التوحيد، من كبير جلال الله تعالى وعظم كبريائه، فتكون توبته بعد ذلك من تقصيره عن القيام بحقيقة مشاهدته، ويكون استغفاره لما ضعف قلبه ونقص همه عن معاينة مشاهدته لعلو مقامه ودوام مزيده وإعلامه.

ولا نهاية لتوبة العارف ولا يكبر عن التوبة نبىٌّ فَمَن دونه، ولكل مقام توبة، ولكل حال من مقامٍ توبة، ولكل مشاهدة ومكاشفة توبة، فهذا حال التائب المُنيب الذى هو من الله تعالى مُقرّب وعنده حبيب، وهذا مقام المختبر بالأشياء، المُبتَلى بها، التوّاب إلى الله تعالى منها. وتوباتُه إلى الله تعالى لا تُستقصى، فهذه **حقيقة التوبة النّصوح**، وصاحبها مسلْمٌ وجهُه لله تعالى، محسنٌ من نفسه مستريح، ودينه عند الله تعالى مستقيم، ومقامه وحاله من الله تعالى سليم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يحب كل مُفْتَنٍ توّاب.

واعلم أن **الذنوب على ستة ضروب** بعضها أعظم من بعض، كل ضرب منها مراتب فى كل مرتبة من المذنبين طبقة، منها **معاص** يعتل بها العبد من معانى صفات الربوبية مثل الكبر والفخر والجبرية وحب الحمد والمدح ووصف العز والغنى، فهذه مهلكات وفيها من العموم طبقات؛ **ومعاص** تكون من معانى أخلاق الشياطين مثل الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد فهذه موبقة وفيها من أهل الدنيا طبقات؛ **ومعاص** تكون من ضد السُنّة وهو ما خالفها إلى بدعة، والأحداث المبتدعة وهى كبائر، منها ما يُذهب الإيمان ويُنبت النفاق، وست من كبائر البدع وهى تَنْقُل عن الملّة، وهى القَدَرية والمُرجئة والرافضية والإباضية والجهمية، والشاطحون من المغالطين وهم الذين لا يقولون بخلْق ولا رَسْم ولا حُكْم فى تعدى الحدود ومجاوزات العلم، فهم زنادقة هذه الأمة، **ومعاص** متعلقة بالخَلْق من طريق المظالم فى الدين والإلحاد بهم عن طريق المؤمنين، وهو ما أضل به عن الهدى، وأزاغ به عن السنن، وحرّفه من الكتاب، وتأوّله من السُنّة، ثم أظهر ذلك ودعا إليه فقُبل منه واتُّبع عليه. وقد قال بعض العلماء لا توبة لهذه المعاصى، كما قال بعضهم عن القاتل لا توبة له، للإخبار بثبوت الوعيد وحق القول عليه، والضرب **الخامس من المعاصى** ما تعلّق بمظالم العباد فى أمر الدنيا، مثل ضرب الإنسان، وشتم الأعراض، وأخذ الأموال، والكذب والبُهتان، فهذه موبقات ولابد فيها من القِصاص للموافقة بين يدىّ الحاكم العادل والقطع منه بقضاء فاصل، إلاّ أنْ يقع استحلال أو يستوهبها الله عز وجل من أربابها فى المال بكرمه، ويعوض المظلومين عليها من جنابه بجوده. وقد جاء فى الخبر الدواوين ثلاثة، ديوان يُغفر، وديوان لا يُغفر، وديوان لا يُترك، فأمّا الديوان الذى يُغفر فذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى، وأمّا الديوان الذى لا يُغفر فالشرك بالله تعالى، وأما الديوان الذى لا يُترك فمظالم العباد أى لا يُترك المطالبة به والمؤاخذة عليه. **والضرب السادس من الذنوب** ما كان بين العبد وبين مولاه من نفسه إلى نفسه، متعلق بالشهوات والجرى فى العادات، وهذه على ضربين كبائر **وصغائر**، فالكبائر ما نُصّ عليه بالوعيد وما وجبت فيه الحدود، والصغائر دون ذلك إلى نظرة وخطْرة. والتوبة النَّصوح تأتى على جميع ذلك بعموم قوله تعالى فتاب عليكم وعفا عنكم، وبإخباره عزّ وجلّ عن حُكمه إذ يقول ثم تاب عليهم ليتوبوا، وبظاهر قوله تعالى إن الذين فَتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا، ومِثْلُه ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا إلى قوله إن ربَك من بَعْدها لغفور رحيم. هكذا قراءة أهل الشام بنصب الفاء والتاء ولأن البُغْية من التوبة إذا كانت غفران الذنب

والزحزحة عن النار، ونحن لا نرى أبدية الوعيد على أهل الكبائر، بل نجعلهم فى مشيئة الله ونُجوِّز تجاوز الله تعالى عنهم فى أصحاب الجنة، كما جاء فى الخبر فى تفسير قوله تعالى فجزاؤه جهنم خالداً فيها، أى إنْ جازاه، وكما روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم من وَعَدَه الله تعالى على عمل ثوابا فهو مُنجزه له، ومن وَعَده على عمل عقابا فهو فيه بالخيار، إن شاء عذّبه، وإن شاء عفا عنه، وكما قال ابن عباس رضى الله عنه يَغفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير.

وقد قال الله تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فلم يجد للمغفرة ذنبا غير الشرك، وترك المسلمين مع سائر الذنوب فى مشيئته، وقد يَحتج مُحتجّ بالخبر المأثور فى ترك قبول توبة المبتدع إن الله تعالى احتّجز التوبة على كل صاحب بدعة، فهذا مخصوص لمن لم يُتب ممن حكِم عليه بدرك الشقاء. ألا تَرَى أنه لم يقل إن الله تعالى احتّجز قبول التوبة عمن تاب، إنما أخبر عن حكم الله تعالى فيمن لم يتب بأن الله تعالى حجب التوبة عنه، فهكذا نقول أيضا إن القاتل إذا كان قد سبق له سوء الخاتمة بأنه يموت على غير توحيد، وكذلك المبتدع إن جُعل اسمه فى أصحاب النار، ثم كان القتل والبدعة علامة ذلك، وسببه أنهما جميعا ممنوعان من التوبة فإنها محتجزة عنهما. وكذلك القول فيمن حقّت عليه كلمة العذاب بسبق سوء الخاتمة، فلو أنه تاب سبعين توبة لم تنقذه من النار، وليست توبته بأكثر من قوله صلى الله عليه وسلم إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها، ولا يبقى بينه وبينها إلاّ شبر، ثم يدركه الشقاء، وفى لفظ آخر ثم يسبق عليه الكتاب بعمل أهل النار فيدخلها، فقد دخلت التوبات فى صالح أعماله الحسنات ثم أحبطَها عنه فى جملة عمله بسبْق الكتاب بالشقاء له. وأمّا مَنْ لم يسبق له سوء الخاتمة، ووَهِب له التوبة النصوح، ولم يدركه الشقاء، فإنها لم تُحتجَز عنه، وإن الله تعالى يعفو عنه بما وهَب له من التوبة، كقوله تعالى فى المنافقين إمّا يعذبُهم وإمّا يتوب عليهم، وليس النفاق دون البدعة، ولا كل المنافقين تاب عليهم ولا جميعهم ختَم لهم به، ولعموم قوله تعالى فتاب عليكم وعفا عنكم، فهذا مجمل فيمن تاب، والخبر مخصوص فيمن لم يتب، ولقوله تعالى ثم تاب عليهم ليتوبوا، ولقوله تعالى عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم.

ثم إن الناس فى التوبة على **أربعة أقسام** فى كل قسم طائفة، ولكل طائفة مقام، منهم

تائب من الذنب مستقيم على التوبة والإنابة، لا يحدّث نفسه بالعوْد إلى معصية أيام حياته، مستبدلٌ بعمل سيأته صالح حسناته، فهذا هو السابق بالخيرات، وهذه هي **التوبة النّصوح**، ونفس هذا هي المطمئنة المرضيّة. والخبر المروى في مثل هذا سيروا سبقَ المفردون المستهترون بذكر الله،وضع الذكر أوزارهم فوردوا القيامة خفافا. والذي يلي هذا في القرب **عبدٌ التوبة ونيّته الاستقامة**، لا يسعى في ذنب لا يقصده ولا ينحوه ولا يهتم به وقد يُبتلى بدخول الخطايا عليه عن غير قصد منه، ويُمتحن بالهَمّ واللّمم فهذا من صفات المؤمنين يرجى له الاستقامة لأنه في طريقها، وهو ممن قال الله تعالى يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللمم، إن ربك واسع المغفرة، وداخل في وصف المتّقين الذين قال الله تعالى فيهم والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظَلموا أنفسهم الآية، ونفس هذا هي اللّوامة التي أقسم الله تعالى بها، وهو من المقتصدين. وهذه الذنوب تدخل على النفوس من معاني صفاتها وغرائز جبِلاّتها وأوائل أنسابها من نبات الأرض وتركيب الأطوار في الأرحام خَلْقاً من بعد خلق، ومن اختلاط الأمشاج بعضها ببعض، ولذلك عقّبه الله تعالى بقوله هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم الآية، فلذلك نهى عن تزكية النفس المُنشأة من الأرض والمركّبة في الأرحام بالأمشاج للاعوجاج، فقال تعالى فلاتزكّوا أنفسكم أي فهذا وصفها عن بدء إنشائها. وكذلك وصَفَ مشيج خليقته بالابتلاء في قوله إنا خلَقنا الإنسان من نُطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا، وشرحُ هذا يطول ويخرج إلى علم تركيبات النفوس ومجبول فطرتها، وقد ذكرنا أصوله في بعض الأبواب من هذا الكتاب. وفي مثل هذا العبد معنى الخبر الذي جاء، المؤمن مُفْتَنٌ توّاب، والمؤمن كالسنبلة تفيء أحيانا وتميل أحيانا، فأزراء هذا العبد على نفسه، ومقتُه لها عن معرفته بها، وتركُ نظره إليه وسكونُه إلى خيرٍ إنْ ظَهَر عليها، يكون من كفّارات ذنوبه لأنه من تدبّر الخطاب في قوله تعالى فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بكم. **والعبد الثالث** هو الذي يقرُب من هذا الثاني في الحال، عبدٌ يذنب ثم يتوب ثم يعود إلى الذنب ثم يحزن عليه بقصدٍ له وسعيٍ فيه وإيثاره إياه على الطاعة، إلاّ أنه يسوّف بالتوبة ويحدّث نفسه بالاستقامة ويحب منازل التوّابين ويرتاح قلبه إلى مقامات الصدّيقين، ولم يأن حينُه ولا ظهر مقامه، لأن الهوى يحركه والعادة تجذبه والغفلة تغمره، إلاّ أنه يتوب خلال الذنوب ويعاود، فتوبة هذا فوْتٌ من وقت إلى وقت، ومثله تُرْجَى له الاستقامة لمحاسن عمله وتكفيرها لسالف سيئته، وقد يُخاف عليه الانقلاب لمداومة خطئه، ونفس هذا هي المُسوِّلة، وهو

ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليه فيستقيم فيلحق بالسابقين، فهذا بين حالين، بين أن يغلب عليه وصف النفس فيحق عليه ما سبق من القول، وبين أن ينظر إليه مولاه نظرة تُجبر له كل كسر ويغني له كل فقر، فيتداركه بمنّةٍ سابقة فتُلحقه بمنازل المقربين، لأنه قد سلك طريقهم بفضله ورحمته، ونيّته الآخرة. والعبد الرابع أسوأ العبيد حالا وأعظمهم على نفسه وبالاً وأقلهم من الله نوالا. عبدٌ يذنب ثم يتبع الذنب مثله أو أعظم منه، ويقيم على الإصرار ويحدّث نفسه به متى قدَر عليه، ولا ينوى توبة ولا يعقد استقامة، ولا يرجو وعداً بحُسن ظنه، ولا يخاف وعيداً لتمكن أمنه، فهذا هو حقيقة الإصرار ومقام بين العُتّو والاستكبار. وفى مثل هذا جاء الخبر هلك المُصرّون قُدُما إلى النار، ونفس هذا هى الأمّارة وروحه أبدا من الخير فرّارة، ويُخاف على مثله سوء الخاتمة لأنه فى مقدماتها وسالك طريقها، ولا يبعد منه سوء القضاء ودرْك الشقاء، ولمثل هذا قيل مَنْ سوّف الله تعالى بالتوبة أكْذَبه، وأنّ اللعنة خروج من ذنب إلى أعظم منه. وهذه الطائفة فى عموم المسلمين وهم فى مشيئة الله من الفاسقين، كما قال تعالى مُرْجَوْن لأمر الله، أى مؤخرون لحكمه إما يعذبهم بالإصرار، وإمّا يتوب عليهم بما سبق من حُسن الاختيار. نعوذ بالله تعالى من عذابه ونسأله نعيما من ثوابه. وهذا آخر كتاب التوبة.

شرح مقام الصبر ووصف الصابرين وهو الثانى من مقامات اليقين

قد جعل الله عز وجل الصابرين أئمة المتقين وتمم كلمته الحسنى عليهم فى الدين فقال تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وقال تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وقال المسيح عليه السلام إنكم لا تدركون ما تحبون إلاّ بصبركم على ما تكرهون، وقال بعض الصحابة ماذا جعل الله تعالى من الشقاء والفضل فى التقى والصبر، وقال ابن مسعود الصبر نصف الإيمان، وقد جعل علىّ كرّم الله وجهه الصبر ركناً من أركان الإيمان وقرَنه بالجهاد والعدل والإيقان، فقال بُنى الإسلام على أربع دعائم، على اليقين والصبر والجهاد والعدل. وقال علىّ كرّم الله وجهه الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، لا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له. ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبر فى العلو والفضل إلى مقام اليقين وقرَنه به، وكذلك قال الله تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا

صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون. وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن من أوتى نصيبه منهما لم يُسال ما فاته، وأخبر عليه السلام أن الصبر كمال العمل والأجر، فقال فى حديث يرويه شهر بن حوْشب الأشعرى عن أبى أُمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال مِنْ أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومَنْ أُعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحب إلىّ من أن يوافينى كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم، ولكنى أخاف أن تُفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه. ثم قرأ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولَيُجزيَن الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

وفى حديث ابن المنكدر عن جابر سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال الصبر والسماحة. وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، وقال عز وجل إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب، فضاعف أجر الصابرين على كل عمل ثم رفع جزاء الصبر فوق كل جزاء فجعله بلا نهاية ولا حد، فدلّ ذلك أنه أفضل المقامات. وكان عمر رضى الله عنه يقول نِعم العِدْلان ونِعْمت العلاوة للصابرين، يعنى بالعِدْلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى، والعلاوة ما يُعلَى به فوق الحِملين على البعير فيكون كعِدلٍ ثالث. وقد أخبر الله تعالى أنه مع الصابرين، ومن كان الله تعالى معه غلب، كما أن من كان معه علا، فقال واصبروا إن الله مع الصابرين. كما قال الله عز وجل وأنتم الأعلوْن والله معكم. واشترط الصبر لإمداده بجنده ولنُصرة تأييده بقوله تعالى بلَى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين.

وكان سهل يقول الصبر تصديق الصدق. وأفضل منازل الطاعة الصبر على المعصية ثم الصبر على الطاعة. وقال فى معنى قوله عز وجل استعينوا بالله واصبروا أى استعينوا بالله على أمر الله واصبروا على أدب الله. وقال لم يمدح الله تعالى أحداً إلاّ مَنْ صبر للبلاء والشدة فبذلك يُثنى عليه. وكان يقول الصالحون فى المؤمنين قليل، والصادقون فى الصالحين قليل، والصابرون فى الصادقين قليل، فجعل الصبر خاصية الصدّق، وجعل الصابرين خصوص الصادقين. وكذلك الله تعالى وهو أصدق القائلين قد رفع الصابرين على الصادقين فى ترتيب المقامات فجعل الصبر مقاماً فى الصدق إنْ كانت الأوصاف المنسوقة نعتاً واحدا

للمسلمين، وكانت الواو للمدح، وإن كانت مقامات فالواو للترتيب، فقد جعل الله الصابرين فوق الصادقين والقانتين، أعني في قوله تعالى إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الآية. وفي حديث عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال أمؤمنون أنتم فسكتوا، فقال عمر رضي الله عنه نعم يا رسول الله، قال وما علامة إيمانكم، قال نشكر في الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ، فقال مؤمنون ورب الكعبة.

والصبر ينقسم على عملين أحدهما لا صلاح للدين إلاّ به، والثاني هو أصل فساد الدين، ثم يتنوع الصبر فيكون صابرا على الذي فيه صلاح الدين فيكمل به إيمانه، ويكون صابرا على الذي فيه فساد الدين فيحسن به يقينه. وروينا في معنى هذا عن عليّ رضي الله عنه أنه لما دخل البصرة واستقام له الأمر دخل جامعها فجعل يُخرج القُصّاص ويقول القِصص بدعة، فانتهى الى حلقة شاب يتكلم على جماعة فاستمع إليه فأعجبه كلامه، فقال يا فتى أسألك عن شيئين فإنْ خرجت منهما تركتُك تتكلم على الناس وإلاّ أخرجتك كما أخرجتُ أصحابك، فقال سَلْ يا أمير المؤمنين، فقال أخبرني ما صلاح الدين وما فساده، قال صلاحه الورع وفساده الطمع، قال صدقت، تكلم، فمثلك يصلح أن يتكلم على الناس. ويقال إن هذا الشاب هو إمامنا في هذا العلم وهو إمام الأئمة **الحسن بن يَسار** مولى الأنصار البَصْرِيّ.

وكان ميمون بن مهران يقول الإيمان والتصديق والمعرفة والصبر واحد.وقال أبو الدرداء رضي الله عنه ذروة الإيمان الصبر للحُكم والرضا بالقدر. واعلم أن **الورع أول الزهد** وهو أول باب من أبواب الآخرة، والطمع أوّل الرغبة وهو باب كبير من أبواب الدنيا، وهو استشعار الطمع من حب الدنيا، وحب الدنيا رأس كل خطيئة. ويقال **أول معصية** عُصى الله تعالى بها الطمع وهو أن آدم عليه السلام طمع في الخلود فأكل الشجرة التي نُهى عنها، وإبليس طمع في إخراج آدم عليه السلام من الجنةفوَسْوَس إليه، فاتفقا في اسم المعصية لربهما تعالى بالطمع، ثم افترقا في المطموع فيه وفي الحكم، فتدورك آدم عليه السلام بحُسن سابقته من الله تعالى وهلَك إبليس بما سبق عليه من الشِّقْوة. **والطمع** هو تصديق الظن ولذلك وصف الله تعالى به عدوه في قوله تعالى ولقد صدق عليهم إبليس ظنه، والظن ضد اليقين ولا يُغنى من الحق شيئاً، وقال الله تعالى في وصف المشركين إنْ نظن إلاّ ظنا وما نحن بمستيقنين.

فمن صبر عن الطمع فى الخلق أخرجه الصبر إلى الورع، ومن صبر عن الورع فى الدين أدخله الصبر فى الزهد، ومن طمع فى تصديق الظن الكاذب أدخله الطمع فى حب الدنيا، ومن استشعر حب الدنيا أخرجه حبها من حقيقة الدين. وقد قال بعض العلماء ما كنّا نعدّ إيمان مَنْ لم يُؤذ فيحتمل الأذى ويصبر عليه إيمانا، وقد فعل الله تعالى ذلك بالمؤمنين اختبارا، وأخبر أن ذلك ليس منه عذابا وإنما هو فتنة لمن أراد فتنته وبلاء من الناس، فصار ذلك فتنة عليهم وابتلاء لهم، وصار رحمة للمُؤذَى وخيرا فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذِى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله له، يعنى فتنة الناس به كعذاب الله تعالى، يعنى إياه أى ليس ذلك عذابا منى إنما هو رحمة باطنة، فهو كقوله تعالى وأما إذا ما ابتلاه فقدَر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا، أى لم أُهِنْك بالفقر كما لم أُكْرِم الآخر بالإكرام والتنعيم. وعلى معنى هذا خاطب نبيّه صلى الله عليه وسلم بالصبر الذى أمره به فقال تعالى واصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود، فسلاه به وفضّله عليه.

وقد روينا فى خبر يؤتى بأشكر أهل الأرض فيُجزيه الله تعالى جزاء الشاكرين، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر فيقول نعم يارب، فيقول الله تعالى كما أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لأُضعِفَنّ لك الأجر عليه فيُعطى أضعاف جزاء الشاكرين. وفى الأخبار ما من عبد إلاّ يُعطى أجره بحساب وَحَدّ إلا الصابرين فإنهم يُجازفون مجازفة بغير ميزان ولا حَدّ. وجاء فى الخبر أن أبواب الجنة مصراعان يأتى عليها زحام كثير إلاّ باب الصبر فإنه مصراع واحد لا يدخل منه إلاّ الصابرون أهل البلاء فى الدنيا واحد بعد واحد. وقد قال الله تعالى فى جزاء المخلصين أولئك لهم رزق معلوم، وقال تعالى فى جزاء الصابرين إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب، وقيل فى التفسير يغرف لهم غرفا، والمعنى فى ذلك أن الصبر أشق شىء على النفس وأكرهه وأمرّه على الطبع وأصعبه، فيه الألم والكَظْم عند الذُل والحلم، ومنه التواضع والكَتْم، وفيه الأدب وحسن الخلق، وبه يكون كفّ الأذى عن الخَلْق واحتمال الأذى من الخَلْق، وهذه من عزائم الأمور التى يضيق منها أكثر الصدور، وفيه إكراه النفوس وحملها على الشدة والبؤس. وقد جاء أفضل الأعمال ما أُكرهت عليه النفوس، ولأجل ذلك اشترط الله تعالى على المتقين والصادقين الصبر فى الشدائد والمكاره، وحقق بالصبر صدقهم وتقواهم وأكمل به وصفهم وأعمال بِرِّهم، فقال تعالى والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون، فمعنى الصبر حبس النفس عن السعى فى هواها.

ثم يتفرع الصبر إلى **معان شتى** من الصبر عن تفاوت الأهواء، والصبر على الثبات فى خدمة المولى، فمن ذلك ما توجب المجاهدة صرف الهمة عنه وتطهير القلب من خطرات الهوى ونزغات الأعداء وتزيين الدنيا. ومن الآفات ما يوجب الصبر كفّ الجوارح عنها وحبس النفس عن المشى فيها. ومن الصبر **حبْس النفْس على الحق** وعكوفها عليها بمعاملة اللسان والقلب والجسم، وبذلك وصف الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحات واشترط لصلاح أعمالهم الصبر، وأخبر أنّ الناس كلهم فى خسران إلاّ منْ كان من أهل الحق والصبر. وعَظّم الصبر فأفرده بإعادة التواصى به، ومن الصبر حبْس النفْس على عبادة الخالق سبحانه وتعالى وصبرها على القناعة وعلى صنع الرازق. ومن الصبر **كفّ الأذى** عن الخلق وهو مقام العادلين يدخل فى قوله تعالى إن الله يأمر بالعدل، ثم **احتمال الأذى** عن الخلق وهو مقام المحسنين يدخل فى قوله والإحسان. ومن الصبر **الصبر على الإنفاق** وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم، **الأقرب** فالأقرب، وهذا مقام المنفقين يدخل فى قوله تعالى وإيتاء ذى القربى. ومنه الصبر فى الفحشاء وهو الأمر الفاحش فى العلم والإيمان، والصبر عن المنكر وهو ما أنكره العلماء، **والصبر عن البغى** وهو التطاول والغلّو ومجاوزة الحد بالكبر والإسراف فى أمور الدنيا. فهذه الآية كلها **جامعة لمعنى الصبر** وهى قطب القرآن، ثلاث منها وهى الأوّل الصبر على العدل والإحسان والإعطاء، وثلاث منها الصبر عن الفحشاء والمنكر والبغى. وكان **ابن مسعود** رضى الله عنه يقول أجمع آية فى كتاب الله عز وجل لأمر ونهى هذه الآية.

وقال الله تعالى نِعْم أجر العاملين الذين صبروا ، فما أنعم أجرهم حتى وصفهم بالصبر، وما أكرم رزقهم حتى مدحهم بالصبر. والصبر يُحتاج إليه قبل العمل ومعه وبعده. يُحتاج **فى أول العمل** أن يصبر على تصحيح النيّة وعزم العقود والوفاء بها حتى تصح الأعمال، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال إنما الأعمال بالنيّات ولكل امرىء ما نوى. وقال الله تعالى وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين. وحقيقة النية الإخلاص. ولأن الله تعالى قدّم الصبر على العمل فقال تعالى إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير. والصبر الثانى فى العمل حتى يتم ويُعمل لقوله تعالى نِعْم أجر العاملين الذين صبروا . **والصبر بعد العمل** هو الصبر على كتمه وترك التظاهر به والنظر إليه ليخلص من السمعة والعُجب فيكمُل ثوابه كما خلُص من الرياء، كما قال الله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تُبطلوا أعمالكم. وقال تعالى فى مثله لا تبطلوا صدقاتكم بالمّن والأذى. وقال بعض السلف لا يتم المعروف إلاّ بثلاث: تعجيله وتصغيره وكتمه.

ومن الصبر **حبْس النفس عن المكافأة والصبر على الأذى** توكلاً على المولى عز وجل، ومنه قوله تعالى ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون. وهذا **صبر الخصوص**. ومنه قال بعض أهل المعرفة لا يثبت للعبد مقام فى التوكل حتى يُؤذَى ويصبر على الأذى، وقد ذكر الله تعالى فى قوله عز وجل ودع أذاهم وتوكل على الله، وفى قوله تعالى فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون، وهذا هو **أوّل الرضا**. والمقام **الثانى** من الرضا هو **الصبر على الأحكام** وهو صبر أهل البلاء، الأمثل فالأمثل بالانبياء لقوله صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل، ولقوله تعالى فى المُجمل واربك فاصبر، ثم فسّره فى الكلام المفسّر واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا.

ومن الصبر **حبْس النفْس على التقوى**، والتقوى اسم جامع لكل خير، فالصبر معنى داخل فى كل برّ، فإذا جمعهما العبد فهو من المحسنين وما على المحسنين من سبيل، ومنه قوله تعالى إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يُضيع أجر المحسنين، وقال تعالى لتُبلوُن فى أموالكم وأنفسكم ولَتَسمعُن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا، وإن تصبروا وتتقو فإن ذلك من عزم الأمور، أى إن تصبروا على الأذى عن المكافأة وتتقوا عند الابتلاء والمكاره ولاتجاوزوا فإنة أفضل. كما قال تعالى وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، وقوله تعالى ولَمَن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، ثم قال عز وجل ولَمَن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور، قال فالأوّل أعنى المكافأة والانتصار بالحق من العدل، والعدل حَسَن، والثانى أعنى العفو والصبّر من الفضل وهو الإحسان، وهذا مجاز قوله تعالى الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب، فاستماع القول هو العدل، والعدل حَسَن وهو الانتصار، والعفو أحسن وفيه المدح بالهدى والعقل وهذا هو مقام المُخبتين، قيل هم الذين لايظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا، فالمدح بالوصف لأهل هذا المقام هو الإخبات وهو الخشوع والطمأنينة بحُسن الجزاء من الله سبحانه وتعالى فى الآخرة لقرب اللقاء. وسرعة فناء الدنيا أمدح كما قال تعالى وإنّ الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل.

والتقوى والصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر لايتم كل واحد منهما إلاّ بصاحبه. فمن كانت التقوى مقامه كان الصبر حاله، فصار الصبر أفضل الأحوال من حيث كانت التقوى

أعلى المقامات، إذ الأتقى هو الأكرم عند الله تعالى، والأكرم على الله تعالى هو الأفضل. وقد شرّف الله تعالى الصبر بأن أضافه إليه بعد الأمر به فقال واصبر وماصبرك إلاّ بالله، وقال تعالى ولربك فاصبر، وإن كان كل شيء به وكل عمل صالح له. ولايصف الله تعالى عبدا ولايُثنى عليه حتى يبتليه، فإنْ صبر وخرج من البلاء سليما مدحه ووصفه وإلاّ بيّن له كذبه ودعواه. وقيل لسفيان الثورى رضى الله عنه ماأفضل الأعمال قال الصبر عند الابتلاء. وقال بعض العلماء وأى شيء أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى نيّف وتسعين موضعا، ولانعلم شيأ ذكره الله تعالى هذا العدد إلاّ الصبر، فلايطمعن طامع فى مدح الله له وحسن ثنائه عليه قبل أن يبتليه فيصبر له، ولايطمعن أحد فى حقيقة الإيمان وحُسن اليقين قبل أن يمدحه الله تعالى ويُثنى عليه. ولو أظهر الله تعالى على جوارحه سائر الأعمال ثم لم يمدحه بوصف ولم يُثن عليه بخير لم يؤمَن عليه سوء الخاتمة، وذلك أن من أخلاق الله تعالى أنه إذا أحب عبدا ورضى عمله مدحه ووصفه، فمن ابتلاه بكراهة ومشقة أو بهوى وشهوة فصبر لذلك أو صبر على ذلك فإن الله تعالى يمدحه ويُثنى عليه بكرمه وجوده، فيدخل هذا العبد فى أسماء الموصوفين ويصير واحدا من الممدوحين، فعندها يثبت قدمه من الزلل ويختم له بما سبق من صالح العمل.

ومن الصبر **صبر على العوافى** أن لا يجريها فى المخالفه، **والصبر على الغنى** أن لا يبذله فى الهوى، **والصبر على النعمة** أن لا يستعين بها على معصية، فحاجة المؤمن إلى الصبر فى هذه المعانى ومطالبته بالصبر عليهاكحاجته ومطالبته بالصبر على المكاره والفقر وعلى الشدائد والضُرّ، ويقال إن البلاء والفقر يصبر عليهما المؤمن، والعوافى لا يصبر فيها إلاّ صدّيق، وكان سهل يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء، وكذلك قالت الصحابة رضى الله عنهم لما فُتحت الدنيا فنالوا من العيش واتسعوا، قالوا ابتلينا بفتنة الضرّاء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السّراء فلم نصبر، فعظّموا الاختبار بالسّراء وهو ما سّر، على الاختبار بالضرّاء وهو ما ضرّ. وقد قال تعالى الذين ينفقون فى السّراء والضرّاء فمدحهم بوصف واحد فى الحالتين المختلفين لحُسن يقينهم وسخاوة نفوسهم، وحقيقة هذا المعنى قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، لأن فيهما ما يسر ويُشغل عن الذكر، ثم قال عز وجل إن من أزوجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم، لأن فى الأزواج والأولاد ما يُفرَح به فيوافق فيه الهوى ويخالف بوجودهما المولى، فصارا عدويْن فى

العُقبى لما يؤل إليه من شأنهما . ومن هذا الخبر الذى رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم لمّا نظر إلى ابنه الحسن يتعثر فى قميصه فنزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة، أى لما رأيت ابنى هذا لو أملك نفسى أن أخذته، ففى هذا عبرة لأولى الأبصار، وروى عنه فى الحديث أيضا الولَد محزَنة مبْخله مجْبَنة، فهذه **مصادر الحزن والبُخل والجُبن**، أى يحمل حب الأولاد والأموال على ذلك، فمن صبر على السرّاء وهى العوافى والغنى والأولاد وغير ذلك وأخذ الأشياء من حقها ووضعها فى حقها فهو من الصابرين الشاكرين، لا يزيد عليه أهل البلاء والفقر إلاّ بحقيقة الرضا والشكر. وقد جمع الله تعالى بين ما سرّ وضرّ وجعلهما من وصف المتقين، ومدحهم بالإحسان معهما فقال تعالى أُعدت للمتقين الذين ينفقون فى السرّاء والضرّاء، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين.

ومن الصبر كتمان المصائب والأوجاع وترك الاستراحة إلى الشكوى بهما فذلك هو **الصبر الجميل**، قيل هو الذى لا شكوى فيه ولا إظهار. وروينا عن ابن عباس رضى الله عنهما الصبر فى القرآن على **ثلاثة أوجه**: صبر على أداء الفرائض لله تعالى، وصبر عن محارم الله تعالى، وصبر فى المصيبة عند الصدمة الأولى، فمن صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة، ومن صبر على محارم الله تعالى فله ستمائة درجة، ومن صبر فى المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة، وهذا يحتاج إلى تفسير، ولم يُفضّل ابن عباس الصبر على المصيبة لأنه أفضل من الصبر عن المحارم وعلى الفرائض، بل لأن الصبر على ذَيْنك من أحوال المسلمين، والصبر على المصيبة من مقامات اليقين، وإنمّا فضّل المقام فى اليقين على مقام الإسلام. ومن ذلك ما روى من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم أسألك من اليقين ما تُهوّن به علىّ مصائب الدنيا . فأحسن الناس صبراً عند المصائب أكثرهم يقينا ، وأكثر الناس جزعاً وسخطاً فى المصائب أقلهم يقينا . ومثل هذا الخبر الذى رويناه عن سلمة بن وردان عن أنس ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن تَرَك المراء وهو مُحقّ بُنِىَ له بيت فى أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له فى وسط الجنة. ومن ترك الكذب بنى له فى رُبْض الجنة. فقد علمتّ أن ترك الكذب وترك المراء مبطلا أفرضُ وأوجب فينبغى ان

يكونا أفضل، ولكن المعنى فيه أن الكذب والمراء بالباطل يتركه المسلمون، فأما المراء والعبد محق صادق ثم لا يمارى زُهدا فى التظاهر ورغبةً فى الصمت والسلامة فلا يصبر على هذا إلا الموقنون وهم خصوص المؤمنين، فمقامه من اليقين، والزهد وإيثار الخمول والصمت على الكلام والشهوة به أفضل وهو من اليقين، فصار هذا المؤمن بمقامه أفضل من عموم المؤمنين الذين يتركون الكذب والمماراة وإن كانا أفرض وأوجب. فهذا بيان ذلك ومعناه.

ومن الصبر إخفاء أعمال البرّ، ومنْع النفس الفكاهة والتمتع بذكرها، وإخفاء المعروف والصدّقات فإن كتمه من الأدب، مع السلامة فى الإعلان وبَرء الساحة فى الإخبار، ولكن إخفاءه أفضل وأزكى وأحب إلى الله تعالى، بل هى من الذخائر النفيسة عند الله تبارك وتعالى. ومن الصبر صون الفقر وإخفاؤه والصبر على بلاء الله تعالى فى طوارق الفاقات، وهذا حال الزاهدين الراضين. **وأفضل الصبر** الصبر على الله تعالى بالمجالسة له والإصغاء إليه وعكوف الهّم عليه وقوة الوجْد به، وهذا خصوص للمقربين، أو حياءً منه أو حباً له أو تسليماً أو تفويضاً إليه، وهو السكون تحت جريان الأقدار، وشهودُها من الإنعام ومن حُسن تدبير الأقسام فى شهود المسئلة له والحكمة فيها والقصد بالابتلاء بها، وهو داخل فى قوله تعالى ولربك فاصبر، وفى قوله واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا. وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وغيره من الائمة أصبحت ومالى سرور إلاّ فى مواضع القدَر، وروى أيضا إلاّ انتظار القضاء، ويقال من **علامة اليقين** تسليم القضاء بحُسن الصبر والرضا وهو مقام العارفين. وقال سهل فى تأويل قول على رضى الله عنه إن الله تعالى يحب كل عبد نُوَّمة، قال هو الساكن تحت جريان الأحكام، يعنى من غير كراهة ولا اعتراض. فأما اشتراط الصبر فى المصيبة عند الصدمة الأولى فى قول النبى صلى الله عليه وسلم إنما الصبر عند الصدمة الأولى، فلأنه يُقال إن كل شىء يبدو صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر، فاشترط لِعظَم الثواب لها عند أول كُبرها قبل صِغرها، وهى فى صدمة القلب أوّل ما يبغته الشىء فينظر إلى الله تعالى فيستحى فيُحسن الصبر، كما قال فإنك بأعيننا وهذا مقام المتوكلين على الله تعالى.

والصبر أيضا عن إظهار الكرامات وعن الإخبار بكشف القُدرة والآيات داخل فى حُسن الأدب من المعاملات، وهو من معنى الحياء من الله تعالى، وهذا طريق المحبيّن لله تعالى وهو حقيقة الزهد. ومن **فضائل الصبر** حبس النفس عن حب المدح والحمد والرياسة. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا مقطوعا **الصبر فى ثلاث**، الصبر عن تزكية النفس، والصبر عن شكوى المصيبة، والصبر على الرضا بقضاء الله تعالى على خيره وشره. ومن الصبر حبس النفس عن الخمول، والتواضع والذلة إيثاراً للآخرة على الدنيا، وهرباً إلى الله تعالى وتحقيقاً بوصف العبودية، وترك المنازعة والتشبه بمعانى أوصاف الربوية تسليماً للإلهية واستسلاما للأحدية، فلا يُخرجك قلة الصبر عن ذلك إلى الطلب بشىء منه فتزّل قدم بعد ثبوتها، نعوذ بالله من ذلك. ومن الصبر على العيال فى الكسب لهم والإنفاق عليهم والاحتمال للأذى منهم فإن فى العيال طُرقات الى الله تعالى، أدناها الاهتمام بهم، وأعلاها الرضا عن الله تعالى والتوكل عليه فيهم، وأوسطها الإنفاق وحبسُ النفس عليهم.

واعلم أن **أكثر معاصى العباد فى شيئين** قلة الصبر عما يحبون أو قلة الصبر على ما يكرهون، وقد قرن الله تعالى الكراهية بالخير والمحبة بالشر فى قوله تعالى وعسى أن تكرهوا شيأً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيأً وهو شر لكم. وحَدّ الصبر وهو أوّله فريضة بمثل أوّل الإخلاص. والصبر أيضا حيلة من لا حيلة له، لأن الأمر إذا كان بيد غيرك لم يكن إلاّ الصبر عليه، ولأن الشىء إذا كان يأتيك إلاّ قليلا قليلا قليلا وأنت محتاج إليه لم يكن إلا الصبر عليه وإلاّ انقطع ذلك القليل. وأصل قلة الصبر ضعف اليقين بحُسن جزاء من صبرتَ له، لأنه لو قَوِى يقينه كان الأجل من الوعد عاجلا إذا كان الواعد صادقا، فيُحسن صبره لقوّة الثقة بالعطاء. ولا يصبر العبد إلاّ بأحد معنيين. مشاهدة العِوَض وهو أدناهما، وهذا حال المؤمنين ومقام أصحاب اليمين،أو النظر إلى المعوِّض وهو حال الموقنين ومقام المقربين، فمن شهد العوض عُنِيَ بالصبر، ومن نظر إلى المعوِّض حمله النظر.

وقد جعل بعض العارفين الصبر على **ثلاثة معان** وأنه فى أهل **مقامات ثلاث**، فقال أوّله ترك الشكوى، قال وهذه **درجة التائبين**، والثانية الرضا بالمقدور وهذه درجة **الزاهدين**، والثالثة المحبة لما يصنع به مولاه وهذه **درجة الصادقين**. وروينا عن الحسن وغيره الصبر على ثلاثة معان، صبر عن المعصية وهو أفضلها، وصبر على الطاعة، وصبر فى المصائب،

وهذا داخل فى جمل ما فرقناه من معانى الصبر، ومجمل ذلك أن الصبر **فرض وفضل** يُعرف ذلك بمعرفة الأحكام، فما كان أمراً أو إيجابا فالصبر عليه أو عنه فرض، وما كان حثّاً وندباً فالصبر عليه أو عنه فضل.

والتصبّر غير الصبر، وهو مجاهدة النفس وحملها على الصبر رترغيبها فيه، وهو التعمّل للصبر. والتصنّع للصبور بمنزلة التزهّد وهو أن يعمل فى أسباب الزهد ليحصل الزهد، والصبر هو التحقق بالوصف وذلك هو المقام. ولا يُخرج العبد من الصبر كراهة النفْس ولا وجدان المرارة والألم بل يكون حاله الكَظْم عن الشكوى ونفْى السخط لحكم المولى، لأن عدم ذلك وفقده هو الرضا وحقيقة التوكل وهذان من أعلى مقامات اليقين، وفقد مراتب اليقين لا يُخرج عن حدّ الصبر، والذى يخرج عن حَد الصبر ضدّه وهو الجزع ومجاوزة الحد من العلم وإظهار السخط وكثرة الشكوى وظهور الذم والتبرم.

ومن **رياضة النفس على التصبّر** – وهو مقام المتصبّرين وحال ضعفاء المريدين– أن النفس الأمّارة إذا جنحت بك إلى فضول الشهوات أو نازعتك إلى مطالبة متقدم العادات، أن تمنعها حاجتها من كل شىء فيشغلها منع الحاجة وجود الفاقة مما لابد منه عن طلب فضول الشهوات، فإذا رُضتها بالمنع ومنعتها محبوبها بالتصبّر عن الحلال انقادت لك بالصبر عن فضول الشهوات، فتكون تاركةً لشهوةٍ بعوَض عاجل من مُباح، وتكون صابرةً عن فضول شهوة لما منعتها من منال الفاقة، وتاركةً للهوى طمعا فى نوال الحاجة من الغذاء. وهذا من أكبر أبواب الرياضات للنفوس الطامحات، وفيه فضل الأقوياء من المتصبرين الذين لم تستجب لهم نفوسهم بالصبر والصلاة ولم تنقد بالجوع والظمأ، فأما الضعفاء من أهل الطبقة الثالثة لا من الأوّلين أهل الصوْم والصلاة، ولا من هؤلاء، فإنهم لا يصبرون على تصبّر النفس عن الحاجة، كما لا تصبر نفوسهم عن الشهوة، فرياضة هؤلاء لنفوسهم أنْ يقطعوها من كل حرام ومن كل شهوة مهلكة لتسكن نفوسهم بذلك فى حبسها عن المحرمات، وتنقطع شهوتها عما وراء ذلك من الموبقات، فبهذا تطمئن نفوس الضعفاء.

وقد اختلف الناس فى **الصبر والشكر** أيهما أفضل، وليس يمكن الترجيح بين مقامين لأن فى كل مقام طبقةً متفاوتين، والمحققون من أهل المعرفة يقولون إنه لا يجتمع عبدان فى مقام بالسواء، بل لابد من أن يكون أحدهما أعلى بعلم أو عمل أو وجْد أو مشاهدة، وإن كان

الصواب والقصد والأصل واحدا. وأعلى التفاوت مشاهدات الوجه، وقد قال الله تعالى ومَنْ أصدق من الله حديثا - ولكل وجهة هو مولّيها، وقال تعالى قل كلٌ يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا، قيل أقصَد وأقرَب طريقا. وظاهر الكتاب والسنّة يدلان على تفضيل الصبر لقوله تعالى يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا، فالشاكر يؤتى أجره مرة، فأشبَه مقام الصبر مقام الخوف، وأشبَه مقام الشكر مقام الرجاء. وقد قال الله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان. وقد اتفق أهل المعرفة على تفضيل الخوف على الرجاء من حيث اتفقوا على فضل العلم على العمل، فالصبر حال من مقام الخوف، فَقَرُب حال الصابر فى الفضل من مقامه، والشكر حال من مقام الرجاء، كذلك يَقْرُب حال الشاكر من مقامه.

ومن السنّة قوله صلى الله عليه وسلم فى الخبر الذى ذكرناه من قبل مِنْ أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومَنْ أُعطَى حظه منهما لم يبال ما فاته. وذكر الحديث المتقدم فقرَن الصبر باليقين الذى لا شيء أعز منه ولا أجَل، وارتفاع الأعمال وعلو اليقين به. وفى مناجات أيوب عليه السلام ان الله سبحانه وتعالى أوْحى إليه يا أيوب إنى آليت على نفسى لا أنشرنّ للصابرين ديوان توبيخ، ولا نَظَروا إلى حد الصراط، ولا أروعهم نَقْص الميزان. دارهم دار السلام.

بيان آخر من تفضيل الصبر

الصبر حال البلاء والشكر حال النعمة، والبلاء أفضل لأنه على النفس أشق لقول الله تعالى إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب، فالشاكر يوفّى أجره بحساب لأن "إنما" تحقيق للوصف ونفى ما عداه.

ورفع عليّ كرّم الله وجهه الصبر على أربع مقامات اليقين وجعلها دعائمه التى بها يستبين، وجعله فيه فوقها فقال فى حديثه الطويل الذى وصف فيه شُعَب الإيمان: **والصبر على أربع دعائم**، على الشوق والشفقة والزهد والترقب، فمن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات - فجعل هذه المقامات أركان الصبر لأنها توجد عنه وتحتاج إليه فى جميعها، وجعل الزهد أحد أركانه. وقد جعل الله تعالى الصبر حال التقوى ورفع للمتّقين فى الإكرام درجات فقال عز وعلا إنه من يتّق ويصبر، وقال تعالى إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم،

فأكرم وأتقى فوق أن يقال كِرامُكم المتقون، لأن أكرم وأتقى يدل على تفاوت، فمن كان أتقى كان أكرم عند الله سبحانه وتعالى، ومن كان أصبر على ما يوجب التقوى كان أتقى. واعلم أن الصبر سبب دخول الجنة وسبب النجاة من النار، لأنه جاء في الخبر حُفّت الجنة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات، فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ليدخل الجنة، ويحتاج إلى صبر عن الشهوات لينجو من النار. **فأما تفصيل التفضيل فعلى ثلاثة أوجه**، أحدها أن المقامات أعلى من الأحوال، وقد يكون الصبر والشكر حالين وقد يكونان مقامين، فمن كان مقامه الصبر كان حاله الشكر عليه فهو أفضل لأنه صاحب مقام، ومن كان مقامه الشكر كان حاله الصبر عليه، فحاله مزيد لمقامه، فقد صار الصبر مزيداً للشاكر في مقامه. الوجه الثاني من التفضيل المقرّبون أعلى من أصحاب اليمين، فالصابرون من المقربين أفضل من الشاكرين من أصحاب اليمين، والشاكرون من المقربين أفضل من الصابرين من أصحاب اليمين، فإن قيل فإنْ كان الشاكر والصابر من المقربين فأيهما أفضل، قيل فقد قلنا إن اثنين لا يتفقان في مقام من كلِ وجه، لانفراد الوجه بمعاني لطائف اللطيف بمثل ما انفردت الوجوه بلطيف الصنعة مع تشابه الصفات واستواء الأدوات، فأفضلهما حينئذ أعرفهما لأنه أحبهما إلى الله تعالى وأقربهما منه وأحسنهما يقينا لأن اليقين أعز ما أنزل الله تعالى.

ووجه آخر من بيان التفضيل أن الصبر عما يوجب الشكر أفضل، وأن الشكر على ما يوجب الصبر أفضل، فقد يختلف باختلاف الأحوال تفسيره أن الصبر عن حظ النفس وعن التنعم والترفه أفضل إن كان عبداً حاله النعمة، فالصبر عن النعيم والغنى مقام في المعرفة وهو أفضل لأن فيه الزهد المُجمَع على تفضيله. ونقول إن الشكر على الفقر والبلاء والمصائب أفضل إن كان عبداً حاله الجهد والبلاء، فالشكر عليه مقام له في المعرفة فهو حينئذ أفضل لأن فيه الرضا المتفق على فضله.

ونوع آخر من الاستدلال على فضل الصابر وتفضيل الصبر، فإن جملة الصابر العارف أفضل من الشاكر العارف لأن الصبر حال الفقر والشكر حال الغنى، فمن فضّل الشكر على الصبر في المعنى فكأنه قد فضل الغنى على الفقر، وليس هذا مذهب أحد من القدماء إنما هذه طريقة علماء الدنيا طرقوا لنفوسهم بذلك وطرقوا الخلق إلى نفوسهم من ذلك، فإن مَنْ فضّل الغنى على الفقر فقد فضّل الرغبة على الزهد، والعز على الذل، والكبر على التواضع،

وفى هذا تفضيل الراغبين والأغنياء على الزاهدين والفقراء، ويَخرج ذلك إلى تفضيل أبناء الدنيا على أبناء الآخرة. وإنما فضلّنا الصبر على الشكر فى الجملة والمعنى لأن الصبر حال من مقامه البلاء، وأهل البلاء هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء، ولأن الصبر أبعد من أهواء النفوس وأقرب إلى الضُرّ والبؤس، وأشد فى مكاره النفوس، وأنفر لطباعها وأشد مباينة لما يلائمها، فإذا سكنَتْ معه ووجد عندها كان أعجز لوصفها وأعجب فى طمأنينتها، فمدحت بالسكون والطمأنينة وكانت راضية مرضية.

وأيضا فإن الله تعالى أمر بالصبر وبالغ فيه بالمصابرة ووكدّهما بالمرابطة فى قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا، قيل فى أحد الوجوه رابطوا عليهما . فهذه ثلاثة أمور فى مكان واحد بمعنى الصبر، فهذا يدل على تعظيمه للصبر ومحبته تعالى له، فمن وجد منه ذلك كان أشد تعظيما لشعائر الله عز وجل، ومن عظّم شعائر الله فهو أتقى لله تعالى، ومن كان أتقى لله كان أكرم على الله لقوله تعالى ومن يُعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب، ثم قال الله تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم. والصبر أيضا مقام أولى العزم من الرسل الذين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالقدوة بهم، وباهى الله تعالى بهم عبده فقال تعالى فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل. وأيضا فإن العزائم فى الدين أولى من الرُخَص.

وروينا عن سفيان الثورى رضى الله عنه عن حبيب بن أبى ثابت قال سئل مسلم البطين. أيما أفضل الصبر أم الشكر، فقال الصبر، والشكر والعافية أحب إلينا . وقد قيل فى معنى قوله تعالى الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، قيل شدائده وعزائمه لأن إباحة حلال الدنيا حَسَن والزهد فيه أحسن. وقد جعل الله تعالى الصبر من العزائم فى قوله وإن تصبروا فإن ذلك من عزم الأمور. وقد شرّك الله تعالى عباده فى الشكر، وأفرد عز وجل لنفسه تعالى على لسان نبيّه صلى الله عليه وسلم مَنْ لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل، ولم يشرك فى الصبر من خلْقه أحداً فقال تعالى ولربك فاصبر، وقال واصبر لحكم ربك.

واعلم أن الشكر داخل فى الصبر والصبر جامع للشكر، لأن من صبر أن لايعصى الله بنعمة فقد شكرها، ومن أطاع الله فصبّر على نفسه طاعته فقد شكر نعمته. وقد سُئل الجنيد رحمه الله عن غنى شاكر وفقير صابر أيهما أفضل، فقال ليس مدح الغنى للوجود ولامدح

الفقير للعدم، إنما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ماعليهما، فشرْط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتُلذها، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تؤلم صفته وتقبضها وتزعجها، فإذا كان الاثنان قائميْن للّه تعالى بشروط ماعليهما كان الذى آلم صفته وأزعجها أتم حالا ممن متّع صفته ونعّمها، وهذا **كلام الجنيد** رحمه الله. وكان **أبو العباس بن عطاء** قد خالفه فى ذلك فيقال إن الجنيد دعا عليه فلحقه ماأصابه من البلاء، منه قتْلُ أولاده وإتلاف ماله وزوال عقله أربع عشرة سنة، فكان يقول دعوة الجنيد أصابتنى، ورجع عن قوله فى تفضيل الغنِى على الفقر فصار يفضل الفقر ويشرّفه. وأيضا فقد روينا فى الخبر أعرفكم بنفسه أعرفكم بما ابتلاه به منها، وماابتلاها به منه، فأعظم ماابتلانا به محبتنا بها (أى النفس) وابتلاها بعداوتنا، فمَنْ أفضل ممن صبر على مجاهدة عدوّه على أنه مع ذلك عدوّ الله المنازع لصفات الربوبية، ومَنْ أشد بلاءً ممن ابتُلى بعداوتك وابتُلت بمحبته، وأنت فى ذلك تترك محبته لمحبة اللّه تعالى وتصبر على عداوته بدوام مجاهدته لمرضاة اللّه تعالى، فهذا أعدل العدل وأفضل الفضل ولاسبيل إلى ذلك إلاّ بفضل أثرةٍ من اللّه تعالى وحُسن عنايته ودوام نظره، إذ لاتوفيق ولاقوّة ولاصبر إلاّ به سبحانه وتعالى. فاما المسئلة التى سُئل عنها بعض القدماء عن عبديْن ابتُلى أحدهما فصبر، وأنعَم على الآخر فشكر، فقال كلاهما سواء، قال لأن اللّه تعالى أثنى على عبديْن أحدهما صابر والآخر شاكر بثناءٍ واحد، فقال تعالى فى وصف أيوب عليه السلام نِعْم العبد إنه أوّاب، وقال فى وصف سليمان عليه السلام نِعْم العبد إنه أوّاب، ففى قول هذا غفلة عن لطائف الأفهام وذهاب عن حقيقة تدّبر الكلام، إذ عندنا بين ثناء اللّه عز وجل على أيوب فى الفضل على ثنائه على سليمان عليه السلام **ثلاثة عشر معنى**، وشركَةُ سليمان عليه السلام بعد ذلك فى وصفين آخرين. وإفراد أيوب عليه السلام بفضل **ثلاثة عشر معنى**، أول ذلك قوله عز وجل فى أول مدحه «واذكر» فهذه كلمة مباهاة باهى بأيوب عند رسوله المصطفى عليه السلام وشرّفه وفضّله بقوله تعالى واذكر يامحمد فأمره بذكره والاقتداء به كقوله تعالى فاصبر كما صبر أولو العزم من الرُسل، قيل هم أهل الشدة والبلاء، منهم أيوب عليه السلام، قرّضوا بالمقاريض ونُشروا بالمناشير وكانوا سبعين نبيا، وقيل هم إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهؤلاء آباء الأنبياء وأفاضلهم لقوله تعالى واذكر فى الكتاب إبراهيم، ولقوله تعالى واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار، يعنى أصحاب القوّة والتمكن وأهل البصائر واليقين، ثم رفع أيوب إلى مقامهم فضمّه إليهم

وجعله سلوةً له صلى الله عليه وسلم، ثم ذكّره إياه وذكّره به، ثم قال تعالى عبدنا فأضافه إليه عز وجل إضافة تخصيص وتقريب ولم يدخل بينه وبينه لام الملك فيقول عبداً لنا، فألحقه بنظرائه من أهل البلاء فى قوله تعالى واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهم أهل الابتلاء الذين باهى بهم الأنبياء وجعل من ذرياتهم الأصفياء، فأضاف أيوب إليهم فى حسن الثناء وفى لفظ التّذْكرة به فى الثناء، ثم قال إذ نادى ربه فأفرده بنفسه لنفسه وانفرد له فى الخطاب بوصفه، وقال مسّنى الضر وأنت أرحم الراحمين فوصفه بمواجهة التملق له ولطيف المناجاة، وظهر له بوصفه الرحمة، فاستراح إليه به فناداه فشكا إليه واستغاث به، فأشبه مقامه مقام موسى ويونس عليهما السلام فى قولهما سبحانك تُبت إليك، وفى قول الآخر لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، وهذا خطاب المشاهدة ونظرُ المواجهة، ثم وصفه بالاستجابة له وأهلّه لكشف الضُّر عنه وجعل كلامه سبباً لتنفيذ قُدرته ومكانا لمجارى حكمته ومفتاحا لفتح إجابته، ثم قال بعد ذلك كله ووهبنا أهْلَه فزاد على سليمان فى الوصف إذ كان بين من وُهِب لأهله، وبين مَن وُهِب له أهلُه فَضْلٌ فى المدح، لأنه قال فى وصف سليمان ووهبنا لداود سليمان، فأشبه فضْل أيوب فى ذلك على سليمان كفضل موسى على هرون، لأنه قال عز وجل فى مدح موسى عليه السلام وتفضيله على هرون ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا، وكذلك قال فى مدح داود ووهبنا لداود سليمان فوهب لموسى أخاه كما وهب لداود ابنه، وأشبه مقام أيوب فى المباهاة والتذكرة به مقام داود عليه السلام، لأنه قال تعالى فى وصف داود لنبيه عليه السلام فاصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود، وكذلك قال تعالى فى نعت أيوب واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه فقد شبّه أيوب بداود وموسى عليهما السلام فى المعنى ورفعه إليهما فى المقام، وهما فى نفوسنا أفضل من سليمان عليهم السلام، فأشبه أن يكون حال أيوب أعلى من حال سليمان، وعلم الله تعالى المُقَدّم ولكن هكذا أُلقى فى قلوبنا والله أعلم. ثم قال تعالى بعد ذلك كله رحمةً منا فذكر نفسه ووصفه عند عبده تشريفاً له وتعظيما، ثم قال عز وجل وذكرى لأولى الألباب فجعله إماما للعقلاء وقدوةً لأهل الصبر والبلاء، وتذكرةً وسلوةً من الكروب للأصفياء، ثم قال تعالى إنا وجدناه صابرا، فذكر نفسه سبحانه وتعالى ذكراً ثانيا لعبده ووصل اسمه باسمه حباً له وقرباً منه، لأن النون والألف فى وجدنا اسمه تبارك وتعالى، والهاء اسم عبده أيوب صلى الله عليه وسلم، ثم قال صابرا فوصفه بالصبر فأظهر مكانه فى القوة وخَلّقه بخُلُقِه، ثم قال تعالى فى آخر أوصافه نِعْمَ العبد إنه أوّاب، فهذان أوّل وصف

سليمان وآخره ههنا، شَرَكه فى الثناء، وزادَ أيوب بما تقدّم من المدح والوصف الذى لايقوم له شيء فى قوله عز وجل واذكر عبدنا أيوب إلى قوله نِعْمَ العبد إنه أوّاب، عظيمٌ من الفرقان عند أهل الفهم والتبيان، وجعل فى أوّل وصف سليمان أنه وهب لأبيهْ داود عليهما السلام، فصار حَسَنَة من حسنات داود عليه السلام، واشتمل قوله تعالى نِعْم العبد إنه أوّاب على أول وصفه وأوسطه وهو آخر وصف أيوب عليه السلام وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام. وقد روينا فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان مُلْكه، وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه، وفى لفظ آخر يدخل سليمان بن داود الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفا، وقد جاء فى الآثار أنّ أوّل من يدخل الجنة أهل البلاء، إمامُهم أيوب وهو إمام أهل البلاء، وإنّ أبواب الجنة كلها مصراعان إلاّ باب الصبر فإنه مصراع واحد وأوّل من يدخله أهل البلاء، فقد زاد أيوب على سليمان عليهما السلام بعموم هذه الأخبار لأنه سيد أهل البلاء، وتذكرةٌ وعبرةٌ لأولى النُهى، وإمامُ أهل الصبر والضُرّ والابتلاء. ولم نقصد بماذكرناه التفضيل بين الأنبياء لأنّا قد نُهينا عن ذلك فيما روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتفضلّوا بين الأنبياء، ولكن الله تعالى قد أخبرنا أن بعضهم مفضّل على بعض فى قوله ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض، وإنما أظهرنا فضل الثناء المستوْدع فى الكتاب فاستبطنا باطن الوصف المكرّر فى الخطاب فى قصة أيوب على قصة سليمان عليهما السلام بما ظهر لنا من فهم فصل الخطاب وتدبُر معانى الكلام، وعِلْم الله تعالى المُقَدَّم وهو عز وجل أعلم وأحكم. وقد نُدبنا إلى الاستنباط فى قول الرسول عليه السلام اقرؤا القرآن والتمسوا غرائبه، ولأن فى ذلك عزاً لأهل الصبر والبلاء، وتقويةً لقلوبهم، وتعريفاً لسوابغ نِعَم الله تعالى عليهم، وإظهاراً لبواطن النِعَم، وتنبيهاً على لطائف الكَلِم، وتزهيداً فى الدنيا والنفس، وترغيباً فى الآخرة والصبر، وتفضيلاً لطريق أهل البلاء الذين هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء، فجاء من ذلك تفضيل المبتلَى الصابر على بلائه والراضى بحكم مولاه، وتسليما لمرضاته على المُنعَم عليه الشاكر على نعمائه، إذ النعم ملائمة للطبع موافقة للنفس، لايُحتاج معها إلى كَد النفس بالصبر عليها ولاحملها على المشقة فيها بالرضا بها. والبلاء مباين للطبع، نافرةٌ منه النفس، يُحتاج إلى حملٍ عليه ومشقةٍ فيه، وماكرهته النفس فهو خير وأفضل ولاسبيل إليه الا بسكينة من الله تعالى وتصبّر عليه بقوة به عز وجل وعناية منه، واصبر وماصبرك إلا بالله. وهذا آخر شرح مقامات الصبر.

شرح مقام الشكر ووصف الشاكرين وهو الثالث من مقامات اليقين

قال رسول الله تعالى مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم فقرّن الشكر بالإيمان ورفع بوجودهما العذاب، وقال تعالى وسنُجزى الشاكرين. ورُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر. وقال ابن مسعود رضى الله عنه الشكر نصف الإيمان. وقد أمر الله تعالى بالشُكر وقرَنه بالذِكْر فى قوله تعالى فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولاتكفرون. وقد عظّم الذِكْر بقوله ولَذِكر الله أكبر، فصار الشكر أكبر لاقترانه به. ورضا الله تعالى بالشكر مجازاة من عباده لفرط كرمه لأن قوله تعالى فاذكرونى أذكركم واشكروا لى خروج من لفظ المجازاة لتحقيق الأمر وتعظيم الشُكر، لأن الفاء للشرط والجزاء والكاف المتقدمة للتمثيل، فقوله تعالى فاذكرونى متصل بقوله كما أرسلنا فيكم رسولا منكم فاذكرونى واشكروا لى، والمعنى كمثل ماأرسلت فيكم رسولا منكم فاشكروا لى، والعرب تكتفى من مثل بالكاف كما اكتفت من سوف بالسين فى قوله تعالى سنؤتيهم وسنستدرجهم، وهذا تفضيل للشكر عظيم لايعلمه إلا العلماء بالله تعالى.

وقد روينا فى أخبار أيوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه أنى رضيت بالشكر مكافأةً من أوليائى فى كلام طويل، وفى أحد الوجوه من قوله عز وجل لأقعدن لهم صراطك المستقيم، قال طريق الشكر، فلولا أن الشكر طريق يوصل إلى الله تعالى لما عوّل العدو على قَطْعه، ولولا أن الشاكر حبيب رب العالمين مانقضه إبليس اللعين فى قوله تعالى ولاتجد أكثرهم شاكرين. وكذلك قال الله تعالى وقليل من عبادى الشكور، كما قال تعالى ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبّعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين. وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فيه واستثنى فى **خمسة** أشياء، فى الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة، فقال تعالى فسوف يُغنيكم الله من فضله إن شاء، وقال تعالى فيكشف ماتدْعون إليه إن شاء، وقال تعالى يرزق من يشاء ويغفر لمن يشاء، وقال عز وجل ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء، وختم بالمزيد عند الشكر من غير استثناء فقال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم، **فالشاكر** على مزيد، **والشكور** فى نهاية المزيد وهو الذى يكثر شكره على القليل من العطاء ويتكرر منه الشكر والثناء على الشىء الواحد من النعَم، وهذا خلُقٌ من أخلاق الربوبية لأنه سمّاه باسم من أسمائه، والمزيدُ هو إلى المُنعِم يجعله ماشاء، فأفضل المزيد حُسن اليقين ومشاهدة الأوصاف،

وأوّل المزيد شهود النِعَم أنها من المُنعِم بها من غير حَوْل ولاقوّة إلا به عز وجل، وأوسط المَزيد دوام الحال ومتابعة الخدمة والاستعمال. وقد يكون المزيد أخلاقاً، وقد يكون علوما، وقد يكون في الآخرة وتثبيتا عند فراق العاجلة.

وقد جعل الله تعالى الشكر مفتاح كلام أهل الجنة وختام تمنيّهم في قوله تعالى الحمد لله صدَقَنا وعده، وقال تعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين، فلولا أنه أحب الأعمال إليه ماأبقاه عليهم لديه. وروينا في مناجاة أيوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه في صفة الصابرين دارُهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتّهم الشكر، وهو خير الكلام، وعند الشكر أستزيدهم وبالنظر إليّ أُزدهم وهذا غاية الفضل، فأوّل الشكر معرفة النِعَم أنها من المولى وحده لاشريك له فيها ولاظهير له عليها، إذ قد نفى ذلك عن نفسه لأنه هو الأوّل في كل شيء، لاشيء معه ولاظهير له في شيء، إذ قد جعل الضرّاء والسرّاء منه وإليه، جاريين على عباده، فقال تعالى وماله فيهما من شرْك وماله منهم من ظهير، والشرك الخلْط، والظهير المعين، ثم قال تعالى ومابكم من نعمة فمن الله، إذا مسكم الضُرّ فإليه تجأرون، وقال تعالى وإن يمسسك الله بضُرّ فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير، وقال تعالى في جُمَل النعم بعد إضافتها إليه وسخّر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعا منه، وقال تعالى وأسبغ عليكم نِعَمه ظاهرةً وباطنة، فالأسباب مع صحتها والأواسط مع ثبوتها إنما هي حِكمُه وأحكامه، فظروف العطاء وآثار المُعطِي لاتؤثر في الحكم بها والجَعل لها حُكما ولاجَعْلا، يعني لاتحكم ولاتَجعل لأنها محكومات فكيف تَحكم، ومجعولات فكيف تُجعل، لا حاكم إلاّ الله وحده ولايُشرك في حكمه أحداً. وهذا الحرف في مَقْرَآ أهل الشام أبلغ وأوكد لأنه يخرج على الأمر، لأنهم قرؤه بالتاء وجزْم الكاف ولاتشرك في حُكمه أحداً، فالأسباب أحكام وحق وأواسط حِكَمه، فمشاهدة المنعم في النعمة وظهور المُعطِي عند العطاء حتى تُرى النعمة منه والعطاء عنه هو شكر القلب، لأن الشكر عند الشاكرين معرفة القلب ووصفه لاوصف اللسان، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وأمر باقتناء الشكر واتخاذه مالاً في الآخرة عوَضاً من اقتناء الأموال في الدنيا، فقال في حديث ثوبان وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حين نزل في الكنوز مانزل سأله عمر أي المال نتخذ، فقال ليتخذْن أحدكم لسانا ذاكراً وقلباً شاكرا.

وروينا فى أخبار موسى عليه السلام وداود عليه السلام يارب كيف أشكرك وأنا لاأستطيع أن أشكرك إلاّ بنعمة ثانية من نعمك، وفى لفظ آخر وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب علىّ الشكر لك، فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتنى. وفى خبر آخر إذا عرفتَ أن النِعَم منى فقد رضيتُ منك بذلك شكراً. وشكرُ اللسان حُسن الثناء على الله تعالى وكثرة الحمد والمدح له وإظهار إنعامه وإكرامه ونشر أياديه وإحسانه، وأن لايشكو المالك إلى المملوك ولاالمعبود الجليل إلى العبد الذليل.

وفى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل كيف أصبحت، قال بخير فأعاد عليه النبى عليه السلام السؤال ثانية كيف أنت، فقال بخير فأعاد السؤال عليه الثالثة كيف أنت، فقال بخير أحمد الله تعالى وأشكره، فقال هذا الذى أردت منك، يعنى إظهار الحمد والشكر والثناء. وإنما كان السلف يتساءلون عن أحوالهم إذا التقوا ليستخرجوا بذلك حمد الله تعالى وشكره فيكونوا شركاءه فى ذلك لأنهم سبب ذكره لله تعالى، فمن يشكو مولاه ويتكرّه عندك قضاءه، إذا سألتّه عن حاله فلاتسأله فتكون أنت سبب شكواه وشريكه فى جهله. وماأقبح بالعبد أن يشكو المولى الذى ليس كمثله شىء والذى بيده ملكوت كل شىء إلى عبدٍ مملوك لايقدر على شىء.

ومن الشكر أن يشكر الله تعالى على اليسير لأن القليل من الحبيب كثير، ولأن الله تعالى حكيم فمنعهُ حكمة وقدرة، فإذا عَرَف وجه الحكمة فى المنْع مع القُدرة على العطاء عَلِمَ أنه منَعَه ليُعطيه، فثّم صار المنع عطاءً واليسير منه كثيرا، ويعلم أن الذل والصبر عند المنع عز وشرف وهو أفضل وأنفس عند العلماء من التعزز بالعبيد والشرف بهم، وأن الطمع والتذلل إليهم والاستشراف إلى عبدٍ مملوك مثلك ذل ذليل، وحُسن الذل للعزيز كحُسن الذل للحبيب، وقُبح الذل للذليل كقبح الذل للعدو، وقد قال الله تعالى إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه، وقال تعالى فى معناه إن الذين تدْعُون من دون الله عباد أمثالكم، والعبادة هى الخدمة والطاعة بذُل. ولايَحْسُن للعبد المقبل أن يُظهر فقره وفاقته إلى غير مولاه الذى يلى تدبيره ويتولاه، لأنه عليم خبير بحاله يسمعه ويراه فهو أعلم بما يصلحه منه. وقد قال الله تعالى فى معناه ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض، فعلّى الموقن أن يشكر فى القبض والمنع كما يشكر فى العطاء والبسط، ثم يشهد الشاكر بقلبه شهادة

يقين ويعلم أن وصفَه وصفُ العبودية، وحكمَه أحكامُ العبيد محكوم عليه بأحكام الربوبية، وأنه لايستحق على الله شيئاً، وأن الله عز وجل عليه كل شيء فرضي منه بأدنى شيء، ولم ير له على الله تعالى شيئاً فلم يقنع لله تعالى منه بشيء ولم يطالب مولاه بشيء، فكثرة الذكر وحُسن الثناء وجميل النشر للنَعماء وتعديد النعم والآلاء هو شُكر اللسان، لأن معنى الشكر في اللغة هو الكشف والإظهار، يقال كَثَّر وشَكَّر بمعنى إذا كشَف عن ثغره فأظهره فيكون إظهار الشكر وكشفه باللسان ماذكرناه، كما جاء في الخبر ليس شيء من الأذكار يضاعف مايضاعف الحمد. وفي الحديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات، ومن قال لا إله إلاّ الله فله عشرون حسنة، ومن قال الحمد لله كُتبت له ثلاثون حسنة، ليس أن الحمد أعلى من التوحيد ولكن لفضل مقام الشاكر، ولأن الله تعالى افتتح به كلامه في كتابه.

وفي الخبر الحمد رداء الرحمن عز وجل. وفي الخبر أفضل الذكر لا إله إلاّ الله، وأفضل الدعاء الحمد لله رب العالمين. ويكون أيضا ظهور الشُكر وغلبته في القلب شُكر القلب، ويكون شكر الله تعالى لعبده كشفه له ماستره عنه وإظهاره له ماحجبه من العلوم والقَدَر وهو المزيد، فيفيد ذلك حُسن معرفته به سبحانه وتعالى وعلو مشاهدته منه، وكله يرجع إلى معنى الكشف والإظهار.

وأما شُكر الجوارح للمُنعِم المفضل سبحانه وتعالى فهو أن لايعصيه بنعمة من نعمه وأنه يستعين بنعمته على طاعته ولايستعين بها على معاصيه فيكون قد كفرها، كما قال تعالى ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كُفرا، قيل استعانوا بنعمه على معاصيه فالخلق لايقدرون على تبديل نعمة الله عز وجل، ولكن معناه بدّلوا شُكر نعمة الله كفرا وهذا من المضمر معناه لظهور دليله عليه، لأنه أمرهم بالطاعة بالنعم فخالفوه فعصوه بها، فكان ذلك تبديلهم لما أمروا، ومثله قوله تعالى وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون، المعنى شُكر رزقكم تجعلونه تكذيبكم برسل الله تعالى وهذا من المحذوف أيضا، وهي في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم مُظهرة مُفسرة، فقد روينا عنه عليه السلام أنه قرأ وتجعلون شكركم، فهذا ظاهر وبمعناه ومَنْ يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فإن الله شديد العقاب، أي يعاقب من كفر بالنعمة فضيّع شكرها بمعصيته بها، يعاقبه بزوالها، وكذلك قوله تعالى ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد، قيل إن كفرتم النعمة فقد يكون العذاب في الدنيا تبديل النعمة عقوبات وتغييرها هوان ومذلات، وقد يكون العذاب مؤجلا

كقوله تعالى إن عذابها كان غراما، قال طالبهَم على النعم بالشكر فلم يكن عندهم فأغرمهم ثمن النعمة فحبسهم فى جُهنم، وقد قال الله تعالى وأسبغ عليكم نِعَمَه ظاهرة وباطنة، ثم قال وذروا ظاهر الإثم وباطنه، ففيه تنبيه لذوى الألباب الذين وصل لهم القول ليتذكرا أن يذروا ظاهر الإثم، شكر الظاهر النعم، ويذروا باطن الإثم، شكر الباطن النعم، وظاهر النعم عوافى الأجساد ووجود الكفايات من الأموال، وظاهر الإثم أعمال الجوارح من معانى حظوظ النفس، وباطن النعم معافاة القلوب وسلامة العقود، وباطن الإثم أعمال القلوب السيئة مثل الإصرار وسوء الظن ونيّات السوء.

وقال مطرف بن عبد الله لأن أُعافَى فأشكر أحب إلىّ من أن أُبتلَى فأصبر، لأن مقام العوافى أقرب إلى السلامة فلذلك اختار حال الشكر على الصبر لأن الصبر حال أهل البلاء. وقد روينا عن الحسن البصرى معنى ذلك الخبر الذى لاشرّ فيه العافية مع الشكر والصبر عند المصيبة، فكم من مُنعَمٍ عليه غير شاكر، وكم من مُبتَلَى غير صابر. وقد روينا عن النبى صلّى الله عليه وسلم معنى هذا فى قوله وعافيتُك أحب إلىّ، وقال لعلىّ رضى الله عنه حين سمعه يقول فى مرضه اللّهم إنى أسالك الصبر، قال لقد سألت الله تعالى البلاء فسلّه العافية.

ومن الشكر **الأعمال الصالحة**، وبالعمل فسر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم الشكر للمُنعِم، فقال تعالى إعملوا آل داود شكرا، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا عوتب فى اجتهاده وقيامه حتى تورمّت قدماه أفلا أكون عبداً شكوراً، فأخبر أن المجاهدة وحسن المعاملة شكر المستعمِل وجزاء المنعِم. وقد قال بعض العلماء **شكر القلب** المعرفة بأن النِعَم من المنعِم لا غير، **وشكر العمل** كلما وَهَب الله عز وجل لك عملا أحدثْتَ له عملا ثانيا شكراً منك للعمل الأوّل، وعلى هذا يتصل الشكر بدوام المعاملة. **وأوّل الشكر** عند العارفين أن لاتعصيه بنعمة من نعمه فتجعلها فى طاعة الهوى، فأما **شكر الشاكرين** فهو أن تطيعه بكل نعمة فتجعلها فى سبيل المولى وهذا شكر جملة العبد. **وحقيقة الشكر** التقوى وهو اسم يستوعب جمل العبادة التى أمر الله بها عباده فى قوله تعالى ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. ثم عبّر عن حقيقة الشكر بتقواه وأخبر سبحانه وتعالى أن التقوى هو الشكر فقال سبحانه وتعالى فاتقوا الله لعلكم تشكرون.

وفى الشكر **مقامان** عن مشاهدتين، أعلاهما **مقام شكور** وهو الذى يشكر على المكاره

والبلاء والشدائد والأدواء، ولايكون كذلك حتى يشهد ذلك نِعَماً توجب عليه الشكر بصدق يقينه وحقيقة زهده، وهذا مقام فى الرضا وحال من المحبة. وبهذا الوصف ذكر الله تعالى نبيه نوحا عليه السلام فى قوله تعالى إنه كان عبداً شكورا، وفى التفسير إنه كان يشكر الله تعالى على كل حال من خير أو شر أونفع أو ضرّ. وروينا فى الخبر ينادى منادٍ يوم القيامة ليقم الحمادّون فيقوم زُمرة فيُنصب لهم لواء فيدخلون الجنة، قيل ومَن الحمادون، قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال، وفى لفظ آخر على السرّاء والضرّاء. وقد قال بعض العلماء فى قوله تعالى وأسبغ عليكم نِعَمه ظاهرةً وباطنة، قال ظاهرة العوافى والغنى، وباطنه البلوى والفقر، فهذه نعم الآخرة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاعيش إلاّ عيش الآخرة. **والمقام الثانى** من الشكر أن ينظر العبد إلى من هو دُونه ممن فَضُل هو عليه فى أمور الدنيا وأحوال الدين فيعظّم نعمة الله تعالى عليه بسلامة قلبه ودينه وعافيته مما ابتُلى الآخر به، ويعظّم نعمة الدنيا عليه لما آتاه الله تعالى وكفاه فيما أحوج الآخر وألجاه إليه، فيشكر على ذلك ثم ينظر إلى من هو فوقه فى الدين ممن فَضُل عليه بعلم الإيمان وبحسن يقين، فيمقت نفسه ويُزرى عليها وينافس فى مثل مارأى من أحوالِ مَنْ هو فوقه يرغب فيها، فإذا كان كذلك كان من الشاكرين ودخل تحت اسم الممدوحين. وقد روينا معنى ذلك فى حديثٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من نظر فى الدنيا إلى مَنْ هو دونه ونظر فى الدين إلى من هو فوقه كتبه الله تعالى صابرا شاكرا، ومن نظر فى الدنيا إلى من هو فوقه ونظر فى الدين إلى مَنْ هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولاشاكرا. وقد شرحنا هذا فى مقام الرضا فكرهنا إعادته هنا. وكل وصف يكون العبد شاكرا به يكون الشكر مقاماً له فيه، فإنّ كُفْر النعمة يُلزمه بضده لأن الكفر ضد الشكر.

ومن كبائر النعم ثلاث، مَنْ جَهِلها أضاع الشكر عليها، ومعرفتها شكر العارفين، **أولها** استتار الله تعالى بقدرته وعزته عن الأبصار، ولو ظهر للعباد لكانت معاصيهم كُفراً لأنهم لم يكونوا يُنقصون من المعاصى المكتوبة عليهم جناح بعوضة، ولأنه تبارك وتعالى كان يَظهر بوصف لايمتنعون معه عن المعاصى، ووراء هذا سرائر الغيوب. وأيضا لِمَا كان لهم فى الإيمان به من عظيم الدرجات مالهم الآن، لأنهم حينئذ يؤمنون بالشهادة وهم اليوم يؤمنون بالغيب، فرُفعت لهم الدرجات بحسن اليقين، ولذلك مدحهم الله تعالى ووصفهم. **والنعمة الثانية** إخفاء القَدر والآيات عن عموم الخلْق لأنها من سر الغيب وصلاح العبيد واستقامة

الدنيا والدين، ولو ظهرت لهم لكانت خطاياهم الصغائر كبائر مع معاينة الآيات، ولما ضوعفت لهم على أعمالهم الحسنات كمضاعفتها الآن للإيمان بالغيب. **والنعمة الثالثة** تغيب الآجال عنهم إذ لو علموا بها لما كانوا يزدادون ولاينُقصون من أعمالهم الخير والشر ذرة، فكان مع علمهم بالأجل أشد مطالبةً لهم وأوقع للحُجة عليهم، فأخفى ذلك عنهم معذرةً لهم من حيث لايعلمون، ولطفاً بهم ونظراً لهم من حيث لايحتسبون. ثم بعد ذلك من لطائف النعَم شمول ستْره لهم فيَحجُب بعضهم من بعض، وستْرهم عند العلماء والصالحين، ولولا ذلك لما نظروا إليهم، ثم حَجَب الصالحين والأولياء عنهم، ولو أظهر عليهم آيات يُعرَفون بها حتى يكون الجاهلون على يقين من ولاية الله تعالى لهم وقُربهم منه لبَطُل ثواب المحسنين إليهم، ولحرّم قبول عملهم، ولحَبطت أعمال المسيئين إليهم، ففى حَجْب ذلك وستْره ماعمل العاملون لهم فى الخير والشر على الرجاء وحسن الظن بالغيب من وراء حجاب اليقين، وتأخرت عقوبات المؤذيين لهم عن المعاجلة لِمَا ستَر عليهم من عظيم شأنهم عند الله تعالى وجليل قدرهم، ففى ستر هذا نِعَمٌ عظيمة على الصالحين فى نفوسهم من سلامة دينهم وقلة فتنتهم، ونِعَمٌ جليلة عن المنتهكين لحُرمتهم المصغّرين لشعائر الله تعالى من أجلهم إذ كانوا أساءوا إليهم من وراء حجاب، فهذا هو لطفٌ خفى من لطف المُنعم الوّهاب سبحانه وتعالى، كما جاء فى الخبر بقول الله عز وجل من آذى ولياً من أوليائى فقد بارزنى بالمحاربة، ثم أنا الثائر لوليّى لا أكلُ نُصرته إلى غيرى. وعن جعفر الصادق رضى الله عنه فى معنى هذه النعم التى أوجبنا الشكر فى إخفائها، قال إنّ الله تعالى **خبّأ ثلاثاً فى ثلاث، رضاه** فى طاعته فلاتحتقروا منها شيأ لعل رضاه فيه، وخبّأ غضبه فى معاصيه فلا تحتقروا منها شيأ لعل غضبه فيه، وخبأ ولايته فى عباده المؤمنين فلاتحتقروا منهم أحداً لعله ولىٌّ لله تعالى. ويكون مثل ذلك مثل من آذى نبيا وهو لايعلم بنبوّته وأن الله تعالى نبّأة قبل أن يخبره أنه نبى الله ورسوله إليه، فلايكون وزرُه وزرَ من انتهك حُرمة نبىٍ قد أعلمه أنه نبى لعظيم حُرمة النبوّة.

وللشاكرين **طريقان** أحدهما أعلى من الآخر، **أوّلهما** شكر الراجين وهو حُسن المعاملة لما أمِلُوه ورَجوُه من ظواهر النِعَم، فعملوا وجاء إتمامها فكان حالهم المسارعة والمسابقة إلى الأعمال الصالحة شكراً لما ابتدأهم به وخصّهم دون سائر خلقه، **وأعلاهما** شُكر الخائفين وهو خوف سوء الخاتمة والإشفاق من درْك الشقاء بحُكم السابقة نعوذ بالله تعالى منه، فكان خوفهم دليلا على اغتباطهم بموهبة الإيمان، وكان اغتباطهم يدلّ على عظيم قدْر الإسلام فى

قلوبهم ونفيس مكانه عندهم فعظُمت النعمة به عليهم، فمعرفتهم بذلك هو شكرُهم فصار الخوف والإشفاق طريقاً لهم في الشكر للرازق. وقد جعل الله تعالى ذلك نعمة وكل نعمة تقتضى شكراً في قوله تبارك وتعالى، قال رجلان مِنْ الذين يخافون أَنْعَمَ الله عليهما، قال بعض المفسرين أَنْعَمَ الله عليهما بالخوف وهذا أحد وجهى الكلام، ولو لم يشكر العبد مولاه إلاّ أنه تبارك وتعالى على هذه الأوصاف والأخلاق التى هى صفاته وأخلاقه من نهاية الكرم والجود الذى لاغاية له، ومن غاية التفضل والحلم الذى لانهاية، فلّما كان تبارك وتعالى بهذه الأخلاق المرجوّة والصفات الحسنى وجب أن يشكره العبيد لأجله تعالى لا لأجل نعمه وأفعاله، وهذا ذكر المحبين إذ لو كان تعالى على غير هذه الصفات والأخلاق التى عرفه بها العارفون ولا بد لهم منه، أى شىء كان يصنع العباد وأى حيلة كانت لهم؟ فله الحمد كله وله الشكر كله كما هو مستحقه وأهله بحمده لنفسه ولاينبغى إلاّ له سبحانه وتعالى كما ينبغى لكرم وجهه وعزِ جلاله، إذ كان ولم يزل على ماهو الآن ولايزال أبدا على ماكان من الأوصاف والنعوت التامات والأسماء الحسنى والأمثال العُلى، ومعرفة هذا هو شكر العارفين، ومشاهدته هو مقام المقربين، فشُكر هؤلاء الله تعالى لأجل الله تعالى، ودعاء هؤلاء التحميد والتقديس، وأعمالهم الإجلال والتعظيم للأجّل العظيم، وسؤالهم تجلّى الصفات والنصيب من مشاهدة معانى الذات، ووصف هذا لايوصف وشرحه بالمعقول لايُعرف، وهذا داخل فى مشاهدة قوله عز وجل ليس كمثله شىء، وعن هذه المشاهدة اغتبط موسى عليه السلام بالربوبية وأنس بالتقريب فانبسط بالتمكين فقال لى ماليس لك، فقال الله تعالى وماهو، فقال لى مِثلُك وليس لك مِثل نَفسك، فقال عز وجل صدَقتْ، يعنى لى أنت على هذه الأوصاف التى هى غاية الطالبين ولامزيد عليها للراغبين، وليس لك كأنت إذ ليس كمثلِك شىء وأن لا إله إلاّ أنت، فمن غامض النِعَم الشُكر على هذه المعانى.

وما زَوَى عنك وصرَفَه من فضول الدنيا فإنه أقل للشُغل والاهتمام وأيسر للحساب، ثم ابتلى به غيرَك من الدنيا مما شغله به عنه وقطعه دونه، ففى صرف الدنيا عنك وابتلاء غيرك بها نعمتان عليهما شُكران، فإذا رأيت مُبتَلى فى دينه بصفات المنافقين أو مُبتَلى بنفسه بأخلاق المتكبّرين، أو منهما فيما عليه من أفعال الفاسقين، عددَت جميع ذلك نِعَماً من الله تعالى عليك إذ لم يجعلك كذلك لأنك قد كنت أنت ذاك لوْلا فضل الله عليك ورحمته،فقد رَحِمكَ بما صرَف عنك من السوء فذلك من فضل الله تعالى عليك، فمعرفته بذلك شكر منك لله تعالى.

وأكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم، وأصل قلة الشكر الجهل بالنعمة، وسبب الجهل بالنعمة قصور العلم بالله تعالى وطول الغفلة عن المُنعم وترك التفكر فى نِعَمه والتذكّر لآلائه ومنّته سبحانه وتعالى فقد أمر بذلك فى قوله تعالى، واذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون، قيل نِعَمه، وقال المفسرون واذكروا نعمة الله عليكم وماأنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظُكم به، وبمعناه قوله تعالى ولتكملوا العدّة ولتكبّروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون، يعنى على نعمة الهداية وتوفيق الطاعة. فإذا جَهل العبد النعمة لم يعرفها، وإذا لم يعرفها لم يشكر عليها، وإذا لم يشكر عليها انقطع مزيده، ومن انقطع عنه المزيد فهو فى نُقصان مادّعى. وأيضا فإن من لم يشكر النعم لجهله بها لم يُومَن عليه كُفرُها، فإنْ كَفَرَها أدركه العذاب الشديد للوعيد إلاّ أن تَدَاركَه نُعمةٌ من ربه.

وأصول نعم المرافق للأحراث أربعة، أوّلها النُطفة التى أخرجت من خزانة الأرحام جميع البهائم والأنام، ثم الحرْث الذى أخرج من خزانة الأرض جميع الثمر، ثم الماء الذى لنا منه شَراب ومنه شجر، ثم النار التى فيها ضياء ومصالح الأطعمة وبها لأهل البصائر تَذْكرة. وهذه النعم هى التى ذكرها المُنعم فى آخر سورة الواقعة وأضافها إلى نفسه عزّ وجلّ ولم يجعل فيها شريكاً معه وفتح للعباد العمّال أبوابها.

ومن أفضل النعم وأجلها نعمة الإيمان به سبحانه وتعالى، ثم نعمة الرسول، ثم نعمة القرآن، ثم أن جَعَلنا من خير أمة أُخرجت للناس. وقبل ذلك أول نعمة عَقَلناها أن جعلنا موجودين دون سائر المعدومات، ثم جعلنا حيَواناً دون سائر الموَات، ثم جعلنا بشراً دون سائر الحيوان، ثم أن جعلنا ذكوراً دون الإناث، ثم صوّرنا فى أحسن تقويم، ثم عوافى القلوب من الزّيْغ عن السُنّة، ومن الميل إلى دواعى النفس الأمّارة، ثم صحة الأجسام، ثم كشف السِتْر، ثم حُسن الكفاية للحاجة، ثم صنوف ماأظهر من الأزواج للأقوات، ثم تسخير الصَنْعة لنا مما بيّن السماء والارض، فهذه أمهّات النعَم، فكلما كثُرت هذه المعانـــى وحسُنت كثُر الشكر عليهما لعظيم النعم بها، وإنْ تعدّوا نعمة الله لاتُحصوها.

وكان أبو محمد سهل رحمه الله يقول خُصّ بمعرفة النِعَم وبمعرفة عظيم حِلم الله تعالى وسِتْره الصّديقون. وقد قال الله تعالى أصدق القائلين وأحسن الواصفين وإن تعُدّوا نِعَمة الله لاتُحصوها إن الله لغفور رحيم، فتمّت النعمة بوصفيْه اللذين هو لهما أهلٌ من المغفرة

والرحمة. ثم قال أيضا فى مثله إن الإنسان لظلوم كفّار، فكان أعظم للنعمة وأوسع فى الكرم والمِنّة على وصفىّ الإنسان اللذيْن هو أهل لهما من الظُلم والكفر، فهو سبحانه وتعالى أهْلُ التقوى وأهل المغفرة، والعبد أهل لما وصفه به مولاه عز وجل، إلى أن يجود عليه بقديم مابه تولاه، فبنعمته أطاعه العاملون، ومن نعمته جازاهم، وبنعمته عصاه الجاهلون، ومن نعمته ستَر وَحلِمَ عنهم.

ومن النِعَم **إظهار الجميل وستر القبيح** فلا ندرى أى النعمتين أعظم، جميل ماأظهر أو قبيح ماستر. وقد يُمدح اللّه تعالى بالوصفين معا فى الدعاء المأثور يامَنْ أظهرَ الجميل وستر القبيح. ومن النِعْمة **الصحة والفراغ**، هما أوّل نعيم الدنيا وأصول أعمال الآخرة، وبهما تكون المغابنات كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نعمتان مغبونٌ فيهما الناس - الصحة والفراغ. وقال الفضيل بن عيّاض عليكم بمداومة الشُكر على النِعَم فَقلّ نعمةٌ زالت عن قوم فعادت إليهم. وقال بعض السلف النِعَم وحشية فقيّدوها بالشكر. وقد روى فى خبر ماعَظُمت نعمة اللّه تعالى على عبد إلاّ كثُرت حوائج الناس إليه، فمن تهاون بهم عرّض تلك النعمة للزوال وقد قال اللّه تعالى إن اللّه لايغيّر مابقوم حتى يغيّروا مابأنفسهم، قيل لايغيّر نِعَمه عليهم حتى يغيّروها بتضييع الشكر فيعاقبهم بالتغيير، والوجه الآخر لا يغيّر مابهم من عقوبة حتى يغيّروا معاصيهم بالتوبة، فذكر بذلك السبب الأوّل من حكمه، ثم ذكر السبب الثانى من حِكْمته، وهو مُسبب الأسباب للحِكمة والمشيئة.

ويقال إن تحت كل شعرة من جسم العبد نعمة، وبكل عِرق فى جسده نعمتان فى تسكينه وتحريكه، وفى كل عظْم أربع نعم، وبكل مفصل سبع نعم، وفى جسم الإنسان ثلاثمائة وستون مِفْصَلاً، ومثل ذلك من العظام، وفى كل طَرْفة نعمتان، وبكل نَفَس نعمتان، وفى كل دقيقة تأتى عليه من عُمره نِعَمٌ لاتُحصَى، والدقيقة جزء من اثنىْ عشر جزأ من شُعيرة، والشعيرة جزء من اثنى عشر جزأ من ساعة، والأنفاس أربعة وعشرون ألف نَفَس فى اليوم والليلة. وفى أخبار موسى عليه السلام يارب كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان: أنْ ليّنت أصلها وأنْ طَمَنتَ رأسها. وقد روينا فى الأثر من لم يعرف نِعَم اللّه عليه إلاّ فى مَطعمه ومَشربه فقد قل علْمه وحضر عذابه. هذا مع سوابغ العوافى والكفايات والوقايات.

ويقال إنّ فى باطن الجسم من النِعَم سبعة أضعاف النعم التى فى ظاهره، وأن فى القلب

من النعم أضعاف مافى الجسم كله من النعم، وأن نعم الإيمان بالله تعالى واليقين أضعاف نعم الأجسام والقلوب، فهذه كلها نعم مضاعفة علَى نعم مترادفة لايُحصيها إلاّ مَنْ أنعمَ بها، ولايعلمها إلاّ من خَلَقهاـ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، سوّى نعَم المطعم والمشرب والملبس والمنكح من دخول ذلك وخروجه، وكثرة تكرره وتزايده، بأن أدخل مهناه وأخرج أذاه، وبأن طيّب مَدخله ويسّر مَخرجه وبقّى منفعته، وماأحال من صورته وغيّر من صفته فللتزهيد والذلّة والاعتبار والتذكرة، وتلك أيضا نِعَم.

وقد قيل إنّ الرغيف لايستدير حتى يُعمل فيه ثلثمائة وستون صنعة من السماء والأرض ومابينهما من الأجسام والأعراض والأفلاك والرياح والليل والنهار وبنى آدم وصنائعهم والبهائم ومعادن الأرض، أوّلها ميكائيل الذى يكيل الماء من الخزائن فيفرغه على السحاب، ثم السحاب التى تحمله فيرسله، ثم الرياح التى تحمل السحاب والرعد والبرق، والملَكان اللذان يسوقان السحاب، وآخر الخبّاز، فإذا استدار رغيفاً طلب سبعة آلاف صانع، كل صانع أصلٌ من أصول الصنائع. فهذه كلها نِعَم فى حضور رغيف، فكيف بما زاد عليه مما وراءه.

فعلى العبد بكل نعمة شكر، إنْ طولب بشكر نعمةٍ واحدة على حقيقتها هلك إلاّ أنْ تغمده رحمة من ربه فتغمره لتمام النعمة. وروينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول اللّهم إنى أسألك **تمام النعمة**، فقال هل تدرى ما تمام النعمة، قال لا، قال دخول الجنة. وقيل لبعض الحكماء ماالنعيم؟ قال الغنى فإنى رأيت الفقير لاعيْش له، قيل زدنا، قال العافية فإنى رأيت السقيم لاعيْش له، قيل زدنا، قال الأمن فإنى رأيت الخائف لاعيْش له، قيل زدنا، قال الشباب فإنى رأيت الهَرِمَ لاعيْش له، قيل زدنا، قال لاأجد مزيداً. وبعض ماذكره هو أحد الوجوه فى قوله تعالى أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا، قيل الشباب، وقيل الفراغ، وقيل الأمن والصحة. وفى قوله تعالى وعصيتم من بعد ما أراكم ماتُحبون، قيل العوافى والغنى، وبمعناه فى قوله تعالى وأسبغ عليكم نعَمه ظاهرةً وباطنه، قيل ظاهرة العوافى وباطنة البلاوى، لأنها سبب نعيم الآخرة ومزيدها لقوله تعالى ونَقْصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين. وقد جاء فى الخبر من أصبح مُعافى فى بدنه آمناً فى سرْبه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيها. وأنشدتُ فى معناه لبعض أهل القناعة:

إذا القوت تأتّى لك * والصحة والأمن * وأصبحت أخا حُزن * فلا فارقَك الحزن

وأنشد الآخر:

كن وفَلْقة خبز * وكوز ماء وأمن * ألّذ من كل عيش * يحويه سحْب وسجْن

وحدثونا أن عابداً عبد الله تعالى سبعين عاما فأرسل الله تعالى اليه ملَكا يبشرّه بدخول الجنة برحمة الله تعالى، فهجس فى نفسه بل بعملى، فاطّلع الله تعالى على ذلك منه، فأوحى إلى عِرْق ساكنٍ من عروقه أن تحرك عليه، قال فاضطرب لذلك وقلق وانقطعت عبادته وذهبت أعماله شُغلا منه بنفسه، ثم أوحى الله تعالى إلى العرق أنْ اسكُنْ فسكَن، فرجع العبد إلى عبادته، فأوحى الله تعالى إليه إنما قيمة عبادتك عِرْق واحد سكَنَ من عروقك فاعترِفْ.. وروينا معناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصف آخر أنّ رجلا عَبَد الله سبعين عاما، قال فيأمر الله عز وجل به إلى الجنة برحمته، فيقول بلى بعملى، فيقول الله عز وجل أدْخلوا عبدى الجنة بعمله، قال فيمكث فى الجنة سبعين عاما، فيأمر الله تعالى به أن يُخْرَج ويقال له قد استوفيت ثواب عملك، قال فيسقُط فى يديه ويندم، فينظر أقوى شىء كان فى نفسه بينه وبين ربه فإذا هو الرجاء وحُسن الظن، فيقول يارب اتركنى فى الجنة برحمتك لابعملى، قال فيقول الله عز وجل دعوا عبدى فى جنتى برحمتى.

وحُدِّثتُ عن رجل شكا إلى بعض أهل المدينة فقره وأظهر لذلك غمّه، فقيل له أيسرُّك أنك أعمى ولك عشرة آلاف، قال لا، قيل فيسرُّك أنك أخرس ولك عشرة آلاف، قال لا، قال قيل فيسرُك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرة آلاف، قال لا، قيل فيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف، قال لا، قيل أفما تستحى أنْ تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا؟ وهذا كما قال لأن فى الإنسان قِيَمَ هذه الأشياء من الجوارح وزيادة من المال، لأنها ديّات جوارحه لو قطعت. وحدثنى بعض الشيوخ فى معناه أن بعض القرّاء المقربين اشتدّ به الفقر حتى أحزنه وضاق به ذَرْعا، قال فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له تودّ أنّا أنسيناك سورة الأنعام، وأنّ لك ألف دينار، قال لا، قال فسورة هود، قال لا، قال فسورة يوسف، قال لا، قال فمعك قِيَم مائة ألف وأنت تشكو الفقر، فأصبح وقد سرى عنه همّه. وهكذا جاء فى الخبر تغنّوا بالقرآن أى استغنوا به، ومن لم يستغن بآيات الله تعالى فلا أغناه الله عز وجل. وإنّ القرآن هو الغنى الذى لافقر معه ولاغنى بعده، ومَنْ آتاه الله القرآن فظنّ أن أحداً أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله تعالى، وفى لفظ آخر فقد استخّف بما أنزل الله عز وجل. وفى الخبر من لم يتغنّ بالقرآن فليس منا. وفى الخبر المجمل كفَى باليقين غِنىً، **والقرآن هو حق اليقين.**

وروينا عن بعض السلف يقول الله عز وجل إن عبدا أغنيّته عن ثلاث، فقد أتممت عليه نعمتى: عن سلْطان يأتيه، وطبيب يداويه، وعمّا فى يد أخيه. وروينا فى مناجاة أيوب عليه السلام أن الله تبارك وتعالى أوحى إليه مامن عبدٍ لى من الآدميين إلاّ ومعه ملَكَان، فإذا شكر على نعمائى قال الملَكَان اللهّم زده نعماً على نعمه فإنك أهل الشكر والحمد، فكن من الشاكرين قريبا وزدهم شكرا وزدهم من النعماء، وكفى بالشاكرين ياأيوب علو الرتبة عندى وعند ملائكتى، فأنا أشكر شكرهم، وملائكتى تدعو لهم، والبقاع تحبهم، والآثار تبكى عليهم، فكنْ لى ياأيوب شاكراً، ولآلائى ذاكراً، ولاتذكرنى حتى أذكرك. ولاتشكرنى حتى أشكر أعمالك. أنا أُوّفق أوليائى لصالح الأعمال وأشكرهم على ماوفقتُهم، واقتضيهم الشكر ورضيتُ به مكافاةً فرضيتُ بالقليل عن الكثير، وتقبلتُ القليل وجازيتُ عليه بالجزيل. وشر العبيد عندى من لم يشكرنى إلاّ فى وقت حاجته، ولم يتضرع بين يدىّ إلاّ فى وقت عقوبته.

وقد جعل الله تعالى الشاكرين بوصف **الصالحين والمقربين والعالمين**، وهذه الأوصاف **الثلاث** من أعالى مقامات الموقنين فقال عزّ وجلّ وقليلٌ من عبادى الشكور، كما قال الله تعالى إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ماهم، وكما قال فى وصف المقربين ثُلَّةٌ من الأولين وقليلٌ من الآخرين، وكما قال عزّ وجلّ مايعلَمهم إلا قليل. وفى حديث أبى بكر الصّديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم سَلوا الله العافية، وماأُعطى عبد أفضل من العافية إلاّ اليقين، ففضّل العافية على كل عطاء، ورفع اليقين فوق العافية لأن بالعافية يتم نعيم الدنيا، واليقين معه وجود نعيم الآخرة، فلليقين فضْلٌ على العافية كفضل الدوام على الانتقال، والعافية سلامة الأبدان من الأسقام والعِلل، واليقين سلامة الأديان من الزّيْغ والأهواء، فهاتان نعمتان تستوعبان عظيم الشكر من العبد.

ومن أقوى المعانى فى قوله تعالى يوم لاينفع مال ولابنون إلاّ مَنْ أتى الله بقلب سليم، قيل سالمٌ من الشك والشرك، والسالم الصحيح المعافى. وبوجود عافية اليقين فى القلوب عَدِمَ الشك والنفاق وهى أمراض القلوب، كما قال تعالى فى قلوبهم مرض، قيل شك ونفاق. وعافية القلب أيضا من الكبائر كما قال تعالى فيطمع الذى فى قلبه مرض يعنى الرياء. ويقال مامن مصيبة إلاّ ولله تعالى فيها **خمسُ نِعَم**، أوّلها أنها لم تكن فى الدين، ويقال كل مصيبة فى غير الدين فهى طريق من الدين، والثانية أنها لم تكن أكبر منها، والثالثة أنها كانت مكتوبة عليه

لامحالة فقد نفدت واستراح منها، والرابعة أنها عُجِّلت فى الدنيا ولم تُؤجَّل فى الآخرة فتعظُم على مقدار عذاب الآخرة، والخامسة أن ثوابها خير منها فإن المصيبة إذا كانت فى أمر الدنيا فإنها طريق إلى الآخرة.

وعندنا فى قوله تعالى إن الإنسان لظلوم كفّار، قيل ظلوم بالتسخط، كفّار بالمعاصى وبالنعَم. وحُدثتُ أن العباس رضى الله عنه لمّا توفى قعد ابنه عبد الله رضى الله عنه للتعزية، فدخل الناس أفواجا يعزونه فكان فيمن دخل أعرابى فأنشده:

إصبر نكنْ بك صابرين فإنما * صبرُ الرعية بَعدَ صبر الراس

خيرٌ من العباس أجرُك بعده * واللّه خيرٌ منك للعباس

فقال ابن عباس ماعزّانى أحد تعزية الأعرابى واستحسن ذلك. وفى قوله تعالى إن الإنسان لربه لكنود قيل هو الذى يشكو المصائب وينسى النِعَم، ولو علم أن مع كل مُصيبة عشر نعم بحذائها وزيادة قلّت شكواه وبدّلها شكرا.

ثم إن المصائب لاتخلو من ثلاثة أقسام كلها نِعَم من الله تعالى، إما أن تكون درجة وهذا للمقرّبين والمحسنين، وإما أن تكون كفارة وهذا لخصوص أصحاب اليمين وللأبرار، أو تكون عقوبة وهذا للكافة من المسلمين، فتعجيل العقوبة فى الدنيا رحمة ونِعْمة، ومعرفة هذه النعم طريق الشاكرين.

ومن أفضل النِعَم عند العلماء نعمة الإيمان ثم دوامه، لأن دوام الشىء نعمة ثانية، لأنه بحكم ثانٍ عن مشيئة ثانية، لأن الإرادة منه تعالى بُحكم الإظهار لاتوجب دوام الشىء يَظهر بإرادته ثم يتلاشى كأن لم يكن، إلا أنْ يحكم سبحانه وتعالى حُكما ثانياً بنعمة ثانية بالثبات والدوام، إذ لو لم يرد دوام السموات والأرض ما داما، ولو لم يرد دوام ثبات الجبال ماثبتت. كذلك لو لم يرد دوام الإيمان وثباته فى القلوب بعد الكُتب لظهر بالكُتب ثم انمحى ورجع القلب إلى الكفر، ولكنه أنعم نِعَما لاتُحصى بدوامه وثباته فى القلب. ومنه قوله تعالى يمحو الله ما يشاء ويُثبت، أى يمحو ما لا يشاء ثبوته ويثبت ما يحب. ولا يستطيع العبد شكر نعمة الإيمان ومعرفة بداية التفضُّل به، وقديم الإحسان من غير قدَم من العبد ولا استحقاق بل بفضل الله وبرحمته، وهذا أحد الوجوه فى قوله تعالى كلاّ لمّا يقْضِ ما أمره، أى لايقضى العبد أبداً شكر

ماأمره الله تعالى من نعمة الإسلام التى هى أصول النعم فى الدنيا والآخرة، وهى سبب النجاة من النار ومفتاح دخول الجنة، ولا أول للعبد فيها ولا شفيع كان له إلى الله تعالى بها. ثم دوام ذلك وثباته مع الطَّرْف والأنفاس بمَدَدٍ منه نِعَمٌ مترادفة. ومن هذا قوله تعالى كتَب فى قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه، أى قوّاهم بمدد يثبّته ويقوّيه، وهو معنى قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم يامقلّب القلوب، أى عن الإيمان ومقلّبها فى الشك والشرك، ثبتْ قلبى على طاعتك. ومعرفة هذه النعمة اللطيفة العظيمة تَستخرج من القلب خوف سوء الخاتمة لمشاهدة سُرعة تقليب القلب بالمشيئة، وذلك مزيد شكرها، وهذا داخل فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم أحبُوا الله تعالى لما أسدى اليكم من نعَمه، ولما يغذوكم به أيضا، فمن أفضل ماغذّانا به نعمة الإيمان له والمعرفة به، وغذاؤه لنا منه دوام ذلك، ومدده بروح منه، وتثبيتا عليه فى تصريف الأحوال إذ هو أصل الأعمال التى هى مكان النوال، فلو قلّب قلوبنا عن التوحيد كما يُقلّب جوارحنا فى الذنوب، ولو قلّب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلّب نياّتنا فى الأعمال، أى شىء كنا نصنع، وعلى أى شىء كنا نُعوّل، وبأى شىء كنا نطمئن ونرجو؟ فهذا من كبائر النِعم، ومعرفته هو من شكر نعمةِ الإيمان، والجهل بهذا غفلة عن نعمة الإيمان يوجب العقوبة، وادعاء الايمان أنه عن كسب معقول أو استطاعة بقوّة وحول هو كفرُ نعمة الإيمان، وأخاف على من توهم ذلك أن يُسلب الإيمان لأنه بدّل شكر نعمة الله كفراً، وقد جعل الله تعالى الخيرات من كسب الإيمان، وليس لنا فيما يكسبنا الخيرات مكان، بل الله تعالى منّ علينا أن هدانا للإيمان وجعله سببا يكسب لنا بإحسانه الإحسان كما قال تعالى أو كسبَت فى إيمانها خيراً، قيل التوبة، وقيل الصالحات كلها كسب الإيمان.

ومن النعم بعد الإيمان توفيقنا للحسنى وتيسيرنا لليسرى، ثم صرفُ الكفر وأخلاق الكفرة وأعمالهم، ثم تزيين الإيمان وتحبيبُه إليْنا وتكريه الفسوق والعصيان فضلاً منه ونعمة، إلى مالا يُحصى من نعمه، فشكر ذلك لايُقام به إلا بما وَهب أيضا وأنعم به من المعرفة بذلك والمعونة عليه. والحياء من تتابع النعم هو من الشكر، والمعرفة بالتقصير عن الشكر شكر، والاعتذار من قلة الشكر شكر، والمعرفة بعظيم الحِلم وكثيف الستر شكر، والاعتراف بما أعطى من حُسن الثناء وجميل النَشْر أنه من النِعَم من غير استحقاقٍ من العبد بل هو مضافٌ إلى نعمه هو من الشكر، وحُسن التواضع بالنعم والتذلل فيها شكر، وشكر الخَلْق بالدعاء

وحُسن الثناء عليهم لأنهم ظروف العطاء وأسباب المُعطي تخلّقا بأخلاق المولى جلّ وعلا هو من الشكر، وقلة الاعتراض وحُسن الأدب بين يدّى المنعم شكر، وتلقى النعَم بحُسن القبول وتكثير صغيرها وتعظيم حقيرها من الشُكر، لأن طائفةً هلكت باستصغار الأشياء واستحقار وجود المنافع بها جهلاً بحكمة الله تعالى واستصغاراً النِعَمه، فكان ذلك كفراً بالنِعَم.

ومن الناس من يقول إن الصبر أفضل من الشكر. وليس يمكن التفضيل بينهما عند أهل التحصيل من قبَلِ أنّ الشكر مقام الجملة من المؤمنين. والترجيح بين جماعة على جماعة لايصح من قبل تفاوتهم في اليقين في المشاهدات، لأن بعض الصابرين أفضل من بعض الشاكرين لفضل معرفته وحسن صبره، وخصوص الشاكرين أفضل من عموم الصابرين لحُسن يقينه وعلّو مشاهدته، ولكن تفضيل ذلك من طريق الأحوال والمقامات. وإنّا نقول والله أعلم إن الصبر عن النِعَم أفضل لأن فيه الزهد والخوف وهما أعلى المقامات، وإن الشكر على المكاره أفضل لأن فيه البلاء والرضا، وإن الصبر على الشدائد والضرّاء أفضل من الشكر على النعم والسرّاء من قبَلِ أنه أشق على النفس، وإن الصبر مع حال الغنى والمقدرة أنْ يَعْصَى بذلك أفضل من الشكر على النعم من قبَل أن الصبر عن المعاصي بالنعم أفضل من الطاعة بها لمن جاهد نفسه فيها، فإذا شكر على مايصبر عليه فقد صار البلاء عنده نعمة وهذا أفضل لأنها مشاهدة المقرّبين، وإذا صبر عما يشكر عليه من النعم كان أفضل لأنها حال المجاهدة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل، يعني الأقرب شَبَهاً بنا فالأقرب، فرفع أهل البلاء إليه ووصف نفسه به وجعلهم الأمثل فالأمثل منه، فمن كان برسول الله صلى الله عليه وسلم أمثل كان هو الأفضل، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم شاكراً على شدة بلائه، كذلك الشاكر من الصابرين يكون أفضل لشُكره على البلاء إذ هو الأقرب والأمثل بالأنبياء، وكل مقام من مقامات المقربين يحتاج إلى صبر وشكر، وأحدهما لا يتم إلا بالآخر، لأن الصبر يحتاج إلى شكر عليه ليكمُل، والشكر يحتاج إلى صبر عليه ليستوجب المزيد، وقد قرن الله تعالى بينهما ووصف المؤمنين بهما فقال إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور، فذكر الشكر بلفظ المبالغة في الوصف على وزن فعول، كما ذكر الصبر على وزن فعّال وهو وصف للمبالغة أيضا، ولذلك اقتسما الإيمان نصفين كما جاء في الخبر الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله، لأن اليقين أصلهما وهما ثمرتاه عنه يوجدان، لأن الشاكر أيقن بالنعمة أنها من المُنعِم، وأيقن بإنجاز

ماوَعَده من المزيد فشكَر، كما أيقن الصابر بمسّه بالبلاء لأنه هو المُبتلَى، وأيقن بثواب المُبلِي وحُسن ثنائه على الصابرين فصبر، فلا حول ولاقوّة إلا بالله العلى العظيم، فهما حالا الموقن إذ لايخلو فى أدنى وقت من أحد اثنين بليّة وتحيّة، إذ فى كل شىء له آية، فحاله فى البلية الصبر، وحاله فى التحية الشكر، والله يحب الصابرين ويحب الشاكرين. وهذا آخر شرح مقام الشكر والحمد لله رب العالمين.

شرح مقام الرجاء ووصف الراجين وهو الرابع من مقامات اليقين

قال الله تعالى الله لطيف بعباده يرزق من يشاء، وقال جلّت قدرته وكان بالمؤمنين رحيما، وقال تعالى ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا. وروينا فى قراءة النبى صلى الله عليه وسلم ولايبالى إنه هو الغفور الرحيم. وفى الأخبار المشهورة فقبض قبضة فقال هؤلاء فى الجنة ولا أبالى، والمعنى والله أعلم إن رحمتى وسعت كل شىء فليس يضيق هؤلاء عنها ولا أبالى بدخولهم فيها، ويكون هؤلاء أيضا فى الجنة ولاأبالى بأعمالهم السيئة كلها. وقال سبحانه وتعالى فى وصف المتّقين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله. وقال عز وجل فى وصف المتوكلين إلاّ اللمم إن ربك واسع المغفرة، وقال تعالى مخبراً عن الملائكة الحافّين حول عرشه والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض، وأخبر عز وجل أن النار أعدّها لأعدائه وأنه خوّف بها أولياءه فقال تعالى لهم من فوقهم ظُلَل من النار ومن تَحتهم ظلل، ذلك يخوّف الله به عباده، ومثله قوله عز وجل واتقوا النار التى أُعدّت للكافرين، وقال فأنذرتكم ناراً تلّظى لايصلاها إلاّ الأشقى الذى كذّب وتوّلى، وقال تعالى فى عفوه عن الظالمين وإنّ ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم.

وروينا أن النبى عليه السلام لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له أمَا ترضَى وقد أُنزلت عليك هذه الآية وإن ربك لذو مغفرةٍ للناس على ظلمهم، وفى تفسير قوله تعالى ولسوف يُعطيك ربُك فترضى، قال لايرضى محمد صلى الله عليه وسلم أن يدخل واحد من أمتّه النار. وكان أبو جعفر محمد بن علىّ رضى الله عنه يقول أنتم أهل العراق تقولون أرجَى آية فى كتاب الله قوله تعالى ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله الآية، ونحن أهل البيت نقول **أرجَى آية** فى كتاب الله تعالى ولسوف يُعطيك ربك فترضى، وعَدَه ربه عز وجل أن

يُرضيه فى أُمته. وروينا فى تفسير قوله تعالى يوم لايُخزى الله النبى والذين آمنوا معه، أن الله تبارك وتعالى أوّحى إلى نبيّه صلى الله عليه وسلم تريد أن أجعل حساب أمتك إليك، فقال لا يا رب أنت خير لهم منى، قال إذاً لا نخزيك فيهم. وقال سفيان الثورى رضى الله عنه ما أحب أن يُجعل حسابى إلى أبوّى لأنى أعلم أن الله تبارك وتعالى أرحم بى منهما. وروينا فى خبر سلمة بن وردان عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه تعالى فى ذنوب أمته، فقال يارب اجعل حسابهم إلىّ لئلا يطلّع على مساويهم غيرى، فأوحى الله تعالى إليه هُم أمتُك وهُم عبادى وأنا أرحم بهم منك، لا أجعل حسابهم إلى غيرى كيلا تنظر فى مساويهم أنت ولاغيرك.

وقدر روينا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال حياتى خير لكم وموتى خير لكم، أما حياتى فإنى أُبيّن لكم السُنن وأُشرّع الشرائع، وأما موتى فأعمالكم تُعرَض علىّ فما رأيت منها حَسنا حمدتُ الله عز وجل، ومارأيت منها شيأ استغفرت الله عز وجل لكم. وروينا فى الأثر إذا تاب العبد من ذنوبه أنسَى الله عز وجل ملائكته وبقاع الأرض معاصيه وبدّلها حسنات حتى يَرِدَ القيامة وليس شىء يشهد عليه. وكذلك يقال إن المؤمن إذا عصاه ستَرَه الله تعالى عن أبصار الملائكة كيْلا تراه فتشهد عليه. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ياكريم العفو، فقال له جبريل عليه السلام تدرى ماتفسير ياكريم العفو هو أنه عفا عن السيآت برحمته ثم بدّلها حسنات بكرمه. وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول اللّهم إنى أسألك تمام النعمة، فقال هل تدرى ماتمام النعمة، قال لا، قال دخول الجنة. وقد أخبرنا الله تعالى أنه قد أتمّ نعمته علينا برضاه الإسلام لنا، فهذا دليل على دخول الجنة، فقال عز وجل اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا، وقد اشتركنا فى ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن نرْجو المغفرة لذنوبنا بفضله، فقال عز من قائل ليغفر لك الله ماتقدّم من ذنبك وماتأخّر ويتم نعمته عليك. وفى خبر علّى رضى الله عنه مَنْ أذنب ذنبا فستره الله تعالى عليه فى الدنيا فالله تبارك وتعالى أكرم من أن يكشفَ ستره فى الآخرة، ومن أذنب ذنباً فعوقب عليه فى الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يُثْنىّ عقوبته على عبده فى الآخرة، وفى لفظ آخر لايذنب عبد فى الدنيا فيستره الله تعالى عليه إلا غفر له فى الآخرة.

وعن بعض السلف كل عاص فإنه يعصى تحت كنَف الرحمن، والكنف من الإنسان حِضنه

مابين يديه وصدره، قال فمن ألقى عليه كنَفه ستَّر عورته، ومن رفع عنه كنفه افتُضح. ويقال إن من فُضح فى الدنيا بذنب فهو كفَّارته ولايُفضح به فى الآخرة. وفى الخبر إذا أذنب العبد فاستغفر الله يقول الله سبحانه و تعالى لملائكته انظروا إلى عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له رباً يغفر الذنب فيأخذ بالذنب، أُشهدكم أنى قد غفرت له. وفى الحديث إذا أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عَنان السماء غفرتُها له ماستغفرنى ورجانى. وفى حديث آخر لو لقينى عبدى بقُراب الأرض ذنوبا لقيته بقُرابها مغفرة مالم يشرك بى شيأ.

وروينا فى حديث أنس بن مالك الطويل إذا أذنب العبد ذنبا كُتب عليه، فقال الأعرابى فإن تاب، قال مُحِىَ من صحيفته، قال فإن عاد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب عليه، قال الأعرابى فإن تاب، قال محى من صحيفته، قال إلى متى يارسول الله، قال إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله تعالى، وإنّ الله لايمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار، فإذا هَمّ العبد بحسَنة كتبها صاحب اليمين حسَنة قبل أن يعملها، فإذا عملها كتبها عشر حسنات، ثم ضاعفها الله عز وجل إلى سبعمائة ضعف، وإذا همّ بخطيئة لم تُكتب عليه، فإن عَملَها كُتبت خطيئة واحدة ووراءها حُسن عفو الله تعالى.

وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إنى لا أصوم إلاّ الشهر لاأزيد عليه، ولا أصلى إلا الخمس لاأزيد عليهن، وليس لله تبارك وتعالى فى مالى صدقة ولاحج ولاأتطوع، أين أنا إذا مت؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة. قال يا رسول الله معك؟ فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم معى إنْ حفظتَ قلبك من اثنين **الغِلّ والحسد**، ولسانَك من اثنين **الغيبة والكذب**، وعينَك من اثنين **النظر إلى ماحرّم الله تعالى وأنْ تزدرى بهما مُسلما**، دخلتَ معى الجنة على راحتَى هاتين.

وروينا فى الخبر الطويل عن أنس رضى الله عنه أن الأعرابى قال يا رسول الله من يلى حساب الخلق؟ قال الله عز وجل، قال هو بنفسه؟ قال نعم، قال فتبسم الأعرابى، فقال النبى صلى الله عليه وسلم مِمَ ضحكتَ ياأعرابى؟ فقال إن الكريم إذا قدَر عفا، وروى تجاوز، وإذا حاسب سامح، فقال النبى صلى الله عليه وسلم صدَقَ ألاَ ولاكريمَ أكرم من الله عز وجل، هو أكرم الأكرمين، ثم قال عليه السلام فَقهَ الأعرابى.

وفيه أيضا أن الله تبارك وتعالى شرّف الكعبة وعظّمها ولو أن عبداً هدَمها حجراً ثم

أحرقها مابلغ جُرْم من استخفّ بولَىٍ من أولياء الله تعالى، قال الأعرابى مَنْ أولياء الله؟ قال المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى، أمَاَ سمعت الله تعالى يقول الله وَلِىّ الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور. وفى الخبر المُفرد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم المؤمن أفضل من الكعبة، والمؤمن طيّب طاهر، والمؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة. وفى الخبر المشهور عن عبد الله بن عمرو وأبى هريرة رضى الله عنهما وكعب الأحبار أنه نظر إلى الكعبة فقال ماأشرفك وماأعظمك، ولَلْمؤمن أعظم حرمةً عند الله منك. وقد أمر الله سبحانه وتعالى أنبياءه بتطهير بيته لأوليائه إجلالاً لهم فشرّف البيت بهم. وفى الخبر عن الله تعالى من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة، وأنا الثائر لوليى فى الدنيا والآخرة.

وفى أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه تدرى لِمَ فرّقتُ بينك وبين يوسف عليه السلام هذه المدة؟ قال لا، قال لقولك لإخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. لِمَ خفت الذئبَ عليه ولم ترْجُنى له؟ ولِمَ نظرتَ إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له؟ ومِنْ سبق عنايتى بك أنى جعلت نفسى عندك أرحم الراحمين فرجوتنى، ولولا ذلك لكنتُ أجعلُ نفسى عندك أبخل الباخلين. فالرجاء هو اسم لقوّة الطمع فى الشئ بمنزلة الخوف وهو اسم لقوّة الحذَر من الشئ، ولذلك أقام الله تعالي الطمع مقام الرجاء فى التسمية، وأقام الحذَر مقام الخوف فقال عَلَت كلمته يدعون ربهم خوفاً وطمعا، وقال تعالى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، وهو وصف من أوصاف المؤمنين وخلُق من أخلاق الإيمان لا يصح إلاّ به كما لا يصح الإيمان إلا بالخوف، فالرجاء بمنزلة أحد جناحى الطير لا يطير إلا بجناحيه، كذلك لا يؤمن مَنْ لا يخافه. وهو أيضا مقام مِنْ حُسن الظن بالله تعالى وجميل التأميل له، فلذلك أوصى رسول الله صلى اللّ عليه وسلم فقال لا يموتن أحدكم إلا وهو حَسَن الظن بالله تعالى، لأنه قال عن الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء. وكان ابن مسعود رضى الله عنه يحلف بالله تعالى ما أحسن عبدٌ بالله تعالى ظنَه إلاّ أعطاه الله تعالى ذلك، لأن الخير كله بيده، أى فاذا أعطاه حُسن الظن بالله تعالى فقد أعطاه ما يظُنه، لأن الذى حَسّنَ ظنُه به هو الذى أراد أن يحققه له.

وروينا عن يوسف بن أسباط قال سمعت سفيان الثورى رضى الله عنه يقول فى قوله تعالى وأحسنوا إن الله يحب المحسنين، قال أى أحسنوا بالله تعالى الظن. وكذلك دخل رسول

الله صلى الله عليه وسلم على الرجل وهو فى سياق الموت فقال كيف تجدك، فقال أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى، فقال عليه السلام ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموْطن إلاّ أعطاه الله تعالى ما رجا وأمّنه مما يخاف. ولذلك قال عليّ كرّم الله وجهه للرجل الذى أطار الخوف عقله حتى أخرجه إلى القنوط، فقال له يا هذا إياسُك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنبك. صَدَقَ رضى الله عنه لأن الإياس من روح الله تعالى الذى يستريح إليه المكروب من الذنوب، والقنوط من رحمة الله تعالى التي يرجوها المُبْتَلَى بالذنوب، أعظم من ذنوبه وهو أشد من جميع ذنوبه، لأنه قطع بهواه علي صفات الله تعالى المرجّو، فكان ذلك من أكبر الكبائر وإن كانت ذنوبه كبائر. وهكذا جاء فى التفسير ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، قال هو العبد يُذنب الكبائر ويلقى بيده ولا يتوب، ويقول قد هلكت لا ينفعنى عمل، فنهوا عن ذلك. إلاّ أن الرجاء مقام جليل وحال شريف نبيل لا يصلح إلا للكُرماء من أهل العلم والحياء، وهو حال يحول عليهم بعد مقام الخوف يُروّحون به من الكرب ويستريحون إليه من مقارفة الذنب، ومن لم يعرف الخوف لم يعرف الرجاء، ومن لم يقم فى مقام الخوف لم يرُفع إلى مقامات أهل الرجاء على صحة وصفاء.

ورجاء كل عبد من حيث خوفه ومكاشفته عن أخلاق مرجوّة من معنى ما كان كوشف به من صفات مخّوفة، فإن كان أقيم مقام المخوفات من الخلوقات مثل الذنوب والعيوب والأسباب رُفِعَ من حيث تلك المقامات إلى مقامات الرجاء بتحقيق الوعد وغفران الذنب وتشويق الجنان وما فيها من الأوصاف الحسان، وهذه مواجهات أصحاب اليمين. وإنْ كان أقيم مقام مخاوف الصفات عن مشاهدة معانى الذات، مثل سابق العلم وسوء الخاتمة وخفّى المكْر وباطن الاستدراج وبطْش القُدرة وحكُم الكِبر والجبروت، رفع من هذه المقامات إلى مقام المحبة والرضا، فرجا من معانى الأخلاق وأسماء الكرم والإحسان والفضل والعطف واللُطف والامتنان. وليس يصح أن نخبر بكل ما نعلم من شهادة أهل الرجاء في مقامات الرجاء من قبَلِ أنه لا يصلح لعموم المؤمنين، وهو يُفسد من لم يُرزقه أشد الفساد، فليس يصلح بخصوصه، ولا يُجديه، ولا يَستجيب له، ولا يُستخرج إلاّ منْ المحبة، ولا محبة إلاّ بعد نصح القلب من الخوف، وأكثر النفوس لا يصلح إلاّ على الخوف، كعبيد السوء لا يستقيمون إلاّ بالسوْط والعصا، ثم يواجهون بالسيوف صلْتا.

ومن علامة صحة الرجاء فى العبد كون الخوف باطناً فى رجائه، لأنه لما تحقق برجاء شئ خاف فوته لعظَم المرجّو فى قلبه وشدة اغتباطه به، فهو لا ينفك في حال رجائه من خوف فَوْت الرجاء، والرجاء هـو ترويحات الخائفين، ولذلك سمّت العرب الرجاء خوفا لأنهما وصفان لا ينفك أحدهما عن الآخر. ومن مذهبهم أن الشئ اذا كان لازما لشئ أو وصفا له أو سببا منه أنْ يعبروا عنه به، فقالوا مالَكَ لا ترجو كذا، وهم يريدون مالك لا تخاف، وعلى هذه اللغة جاء قول اللّه تعالى مالكم لا ترجون للّه وقارا، أجمعوا على تفسيره مالكم لاتخافون للّه عظمة، وهو أيضا أحد وجهى تفسير قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه أى يخاف من لقائه. ومثل الخوف من الرجاء مثل اليوم من الليلة، لمّا لم ينفك أحدهما عن الآخر جاز أن يُعَبر عن المدة بأحدهما فيقال ثلاثة أيام وثلاث ليال. ومنه قول اللّه تعالى مُخبرا عن قصة واحدة فقال عزوجل آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا، قال تعالى ثلاثة أيام إلا رمزا فلما لم يكن اليوم ينفك عن ليلته، والليلة لا تنفك عن يومها، أخبر عن أحدهما بالآخر لأن أحدهما يشبه الآخر مندرج فيه، ولا يظهر إلاّ أحدهما بحكمة اللّه تعالى وقدرته لتفاوت أحكامه فيهما وافتراق إنعامه بهما، فإذا ظهر النهار اندرج الليل فيه بقدرته تعالى، وإذا ظهر الليل استتر النهار بحكمة اللّه تعالى، وهو حقيقة إيلاجه أحدهما في الآخر وتحقيق تكويره أحدهما على صاحبه، فكذلك حقيقة الرجاء والخوف فى معانى الملكوت، إذا ظهر الخوف كان العبد خائفا وظهرت عليه أحكام الخوف عن مشاهدة التجلى بوصف مخوّف، فسمى العبد خائفاً لغلبته عليه وبَطَنَ الرجاء فى خوفه، وإذا ظهر الرجاء كان العبد راجياً وظهرت منه أحكام الرجاء عن مشاهدة تجلى الربوبية بوصف مرجّو فوُصِف العبد به، لأنه هو الأغلب عليه، وبَطَن الخوف فى رجائه لأنهما وصفات للإيمان، كالجناحين للطير، فالمؤمن بين الخوف والرجاء كالطائر بين جناحيه، وكلسان الميزان بين كفتيّه. ومنه قولُ مُطرّف لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا. فهذا أصلٌ فى معرفة حقيقة الرجاء وصِدْق الطمع فى المرجو فللمؤمنين فى اعتدال الخوف والرجاء مقامان أعلاهما مقام المقربين، وهو ماحال عليهم من مقام مشاهدة الصفات المخوّفة والأخلاق المرجُوّة، والثانى مقام أصحاب اليمين وهو ما عرفُوه من بدائع الأحكام وتفاوت الأقسام، من ذلك انه أنْعَم سبحانه وتعالى على الخَلْق بفضله عن كرمه اختياراً لا إجبارا، فلما أعلمّهم ذلك رجوا تمام النعمة من حيث ابتداؤها، ومن ههنا طمع السحرة فى المغفرة لما ابتدؤا بالإيمان فقالوا إنا نطمع أن يغفر لنا ربُنا خطايانا أنْ كنا أول المؤمنين، أى من حيث جعلنا أوّل

المؤمنين، من هذا المكان نرجو أن يغفر لنا بأن جعلنا مؤمنين به فرجوه منه. وقد ذم الله تعالى عبداً أوجده نعمةً ثم سلبها فأيس من عودها عليه ، فقال تعالى ولَئِن أذقنا الإنسان منّا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور، ثم استثنى عباده الصابرين عليه الصالحين له فقال تعالى إلاّ الذين صبروا وعملوا الصالحات.

ورُوِى أن لقمان عليه السلام قال لابنه خف اللّه تعالى خوفاً لا تأمن فيه مكره وارجُه رجاءً أشدَّ من خوفك، قال وكيف أستطيع ذلك وإنما لى قلب واحد، قال أماعلمت أن المؤمن كذى قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر، والمعنى أن الخوف والرجاء وصف الإيمان لا يخلو منهما قلب مؤمن فصار كذى قلبين حينئذ. ثم إن الخلق خلقوا على أربع طبقات، فى كل طبقة طائفة، فمنهم من يعيش مؤمنا ويموت مؤمنا، فمن ههنا رجاؤهم لأنفسهم ولغيرهم من المؤمنين، إذ قد أعطاهم فرجوا أن يتم عليهم نعمته وأن لا يسلبهم بفضله ما به بدأهم. ومن الناس من يعيش مؤمنا ويموت كافرا، فهذا موضع خوفهم عليهم وعلى غيرهم. ومن الناس من يعيش كافرا ويموت مؤمنا، ومنهم من يعيش كافرا ويموت كافرا، فهذان الحكمان أوجبا رجاؤهم فلم يقنطوا بظاهره وخافوا أن يموتوا على تلك الحال، وأن يكون ذلك هو حقيقتهم عند اللّه تعالى. وعلِمُ المؤمن بهذه الأحكام الأربعة ورّثه الخوف والرجاء معا، فاعتدل حاله بذلك لاعتدال إيمانه به، وحكّم على الخلق بالظاهر ووكّل إلى علاّم الغيوب السرائر، ولم يقطع على عبدٍ بظاهره من الشر بل يرجو له ما بطَن عند اللّه تعالى من الخير، ولم يشهد لنفسه ولا لغيره بظاهر الخير، بل يخاف أن يكون قد استسّر عند اللّه تعالى باطن شر، إلاّ أنّ حال التمام أن يخاف العبد على نفسه ويرجو لغيره، لأن ذلك هو وَجْد المؤمنين من قِبَل أنهم متعبدون بحُسن الظن، فهم يُحسنون الظن بالناس ويخرجون لهم المعاذير بسلامة الصدور وتسليم ما غاب إلى من إليه تصير الأمور، ثم هم فى ذلك يسيؤن الظن بنفوسهم لمعرفتهم بصفاتها ويوقعون الملاوم عليها، ولا يحتجّون لها لباطن الإشفاق منهم عليهم، ولخوف التزكية منهم لهم، فمَن قُلّبَ عليه هذان المعنيان فقد مُكِرَ به حتى يُحسن الظن بنفسه ويسيء ظنه بغيره، فيكون خائفا على الناس راجياً لنفسه، عاذرا لنفسه محتجاً لها، لائماً للناس ذاماً لهم، فهذه أخلاق المنافقين.

ثم إن للراجى حالا من مقامه ولحاله علامة من رجائه، فمن علامة الرجاء عن مشاهدة المرجو دوام المعاملة، وحُسن التقرب إليه، وكثرة التقرب بالنوافل لحُسن ظنه به وجميل أمله

منه، وأنه يتقبّل صالح ما أمر به تفضلاً منه، من حيث كرمه لا من حيث الواجب عليه ولا الاستحقاق منا، وأنه أيضا يكفّر سيئ ما عمله إحسانا منه ورحمةً من حيث لطفه بنا وعطفه علينا، لأخلاقه السنّية وألطافه الخفية، لا من حيث اللزوم له بل من حيث حسن الظن به، كما قال سفيان الثورى رضي الله عنه مَنْ أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدّرَه عليه ورجاغفرانه غَفر الله عز وجل له ذنبه، قال لأن الله تعالى عيّر قوما فقال تعالى وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم، وقد قال سبحانه وتعالى فى مثله وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا، أى هلكى، ففى دليل خطابه عز وجل أن من ظن حُسنا كان من أهل النجاة. وقد جاء فى الأثر أن من أذنب ذنبا فأحزنه ذلك غُفِر له ذنبه وإن لم يستغفر.

ومقام الرجاء كسائر مقامات اليقين منها **فرض وفضل**، فعلى العبد **فرض** أن يرجو مولاه وخالقه ومعبوده ورازقه من حيث كرمه وفضله لا من حيث نظره إلى صفات نفسه ولؤمه. وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول من سألَ الله تبارك وتعالى شيئاً فنظر إلى نفسه وإلى أعماله لا يرى الإجابة حتى يكون ناظراً إلى الله تبارك وتعالى وحده، وإلى لطفه وكرمه، ويكون موقناً بالإجابة. ولعَمرى إنّ من سأل الله تعالى ورغب إليه فى شئ ورجاه ناظراً إلى نفسه وعمله، فإنه غير مخلص فى الرجاء له تعالى لِشْركه فى النظر إليه، وإذا لم يكن مخلصاً لم يكن موقنا، ولا يقبل الله تعالى عملا ولادعاء إلاّ من موقن بالإجابة مخلص، فإذا شهد التوحيد ونظر إلى الوحدانية فقد أخلّص وأيقن، وهكذا جاء فى الخبر إذا دعوتم فكونوا موقنين بالإجابة فإن الله تعالى لا يقبل إلاّ مِنْ موقن ومن داع دُعاءً بيناً من قلبه، لأن من استعمله الله تعالى بالدعاء له فقد فتح له بابا من العبادة. وفى الخبر الدعاء نصف العبادة. ولا يقبل الله تعالى من الدعاء إلا **الناخلة** بمعنى المنخول، وهو الخالص، فأقل ما يُعطيه من دعائه أن يكون ذلك حسنة منه يُضعّفه له عشراً إلى سبعمائة ضعف، وأعلاه أن يدخر له فى الآخرة ما هو خير له من جميع الدنيا وما فيها مما لم يخطر على قلبه قط، ويكون ذلك حُسن نظر من الله تعالى له واختيار. وأوسط ذلك أن يَصرف عنه من البلاء، الذى هو لو كان علَمَه، كان صرفُه أهم عليه وأحب إليه مما سأل فيه.

وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من داع دعا موقنا بالإجابة فى غير معصية ولا قطيعة رحم إلاّ أعطاه الله تعالى إحدى ثلاث، إما أنْ يجيب دعوته فيما سأل، أو يصرف يصرف عنه من السوء مثله، أو يدخر له فى الآخرة ما هو خير له.

وفى أخبار موسى عليه السلام يارب أى خلقك أنت عليه أشد تسخطا، فقال تعالى مَنْ لمَ يرض بقضائى، ومن يستخيرُنى فى أمر فإذا قضيت له كَرِهَ ذلك. وفي الخبر الآخر أنه قال يارب أى الأشياء أحب إليك وأيها أبغض، فقال سبحانه وتعالى أحب الأشياء إلىّ الرضا بقضائى وأبغضها إلىّ أن تُطرى نفسك. وروينا عن نبينا صلى اللّه عليه وسلم أنه قال للرجل الذى قال أوصنى، فقال لا تتهم اللّه تعالى فى شئ قضاه عليك. وفى الخبر الآخر أنه نظر إلي السماء وضحك صلىّ اللّه عليه وسلم، فسُئل عن ذلك، فقال عجبتُ لقضاء اللّه تعالى للمؤمن، فى كل قضائه له خير، إنْ قَضى له بالسرّاء رضى وكان خيراً له، وإنْ قضى عليه بالضّراء رضى به وكان خيراً له.

والراجون يتفاوتون فى **فضائل الرجاء** فالمقرّبون منهم رجوا النصيب الأعلى من القُرب والمجالسة والتجلى بمعانى الصفات مما عرفوه وهذا عن علمهم به، وأصحاب اليمين من الراجين رجوا النصيب الأوفر من مزيده والفضل الأجزل من عطائه يقينا بما وعد. ومن الرجاء انشراح الصدر بأعمال البّر وسرعة السبق والمبادرة بها خوف فُوتها، ورجاء قبولها، ثم مهاجرة السوء ومجاهدة النفس رجاء انتجاز الموعود وتقرّباً إلى الرحيم الودود. ومنه قول أصدق القائلين إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل اللّه أولئك يرجون رحمة اللّه. وفسّر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم **المهاجرة والمجاهدة** فقال المهاجر من هجر السوء، والمجاهد من جاهد نفسه فى اللّه تعالى، وأقام الصلاة التى هى خدمة المعبود، وبذل المال سراً وعلانية، قليلاً وكثيراً، وأنْ لا يشتغل عن ذلك بتجارة الدنيا. كما وصف اللّه سبحانه وتعالى **المحققين من الراجين** إذ يقول عزّ من قائل إن الذين يتلون كتاب اللّه وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارةً لن تبور.

ومن الرجاء **القنوت** فى ساعات الليل وهو طول القيام للتهجد والدعاء عند تجافى الجنوب عن المضاجع لما وقر فى القلوب من المخاوف، ولذلك وصف اللّه الراجين بهذا فى قوله تعالى أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذَر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فسمّى **أهل الرجاء والحذر وأهل التهجد** آناء الليل علماء. وحصل من دليل الكلام أنّ من لم يخف ولم يرج غير عالم، لنفيه المساواة بينهما، وهذا مما يُحذف خبره اكتفاءً بأحد وصفيه إذ فى الكلام دليل عليه. فالرجاء هو أوّل مقام من اليقين عند

المقرّبين، وهو ظاهر أوصاف الصدّيقين، ولا يكمُل فى قلب عبدٍ ولا يتحقق به صاحبه حتى يجتمع فيه هذه الأوصاف: الإيمان بالله تعالى، والمهاجرة إليه سبحانه وتعالى، والمجاهدة فيه، وتلاوة القرآن، وإقامُ الصلاة، والإنفاقُ فى سبيل الله تعالى، ثم السجود آناء الليل والقيام، والحذر مع ذلك كله، فهذه **جملة صفات الراجين**، وهو أوّل أحوال الموقنين، ثم تتزايد الأعمال فى ذلك ظاهراً وباطنا بالجوارح والقلوب عن تزايد الأنوار والعلوم ومكاشفات الغيوب بالأوصاف الموجودة.

وفصل الخطاب أن **الخوف والرجاء** طريقان إلى مقامين، فالخوف طريق العلماء إلى مقام العلم، والرجاء طريق العمّال إلى مقام العاملين. وقد وصف الله عز وجل الراجين مع الأعمال الصالحة لقوة رجائهم بالخوف تكملة لصدق الرجاء وتتمة لعظيم الغبطة به، فقال تعالى وتقدّس والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، وقال عز وجل مخبراً عنهم فى حال وفائهم وأعمال برّهم إنّا كنّا قبل فى أهلنا مشفقين فمنّ الله علينا، وقال عز وجل يوفون بالنّذْر ويخافون يوما، من قبَل أن الخوف مرتبط بالرجاء، فمن تحقق بالرجاء صارعه الخوف أن يقطع به دون ما رجا. وقال أهل العربية فى معنى قوله تعالى قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله، أى للذين لا يخافون عقوبات الله تعالى، فإذا كان هذا أمره بالمغفرة لمن لا يرجو فكيف يكون غَفْره وفَضْله على من يرجو؟ وبعضهم يقول فى معنى قوله تعالى وترجون من الله مالا يرجون أى تخافون منه مالا يخافون، فلولا أنهما عند العلماء كشئ واحد مافسّر أحدهما بالآخر.

ومن الرجاء **الأُنْس بالله تعالى** فى الخلوات. ومن الأنس به **الأنس بالعلماء**، والتقرُّب من الأولياء، وارتفاع الوَحْشة بمجالسة أهل الخير، وسعة الصدر والروْح عندهم. ومن الرجاء سقوط ثُقْل المعاونة على البر والتقوى لوجود حلاوة الأعمال والمسارعة إليها، والحث لأهلها عليها والحزن على فوْتها والفرح بدْركها. ومن ذلك الخبر المأثور مَنْ سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن. والخبر المأثور خيار أمتى الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤا استغفروا، لأن المؤمن على يقين من أمره وبصيرة من دينه. والخوف والرجاء وصف الموقن بالله تعالى فهو إذا عمل حسنة أيقن بثوابها لصدق الوعد وكرم الموعد، وإذا عمل سيئة أيقن بالكراهة لها وخاف المقت عليها لخوف الوعيد وعَظَمة المتوعد، من قبَل أن دخوله فى الطاعة

دخولٌ فى محبة الله تعالى ومرضاته لِمَا دلّ العلمُ عليه، فهذا رضا الله سبحانه وتعالى فى الدنيا فكيف لا يسرّه رضاه، ومنْ قِبَل أن دخوله فى المعصية دخول فى غضب الله تعالى ومكارهه بما دلّ العلم عليه، فذلك الذى يسوءه لأن مقت الله تعالى اليوم معاصيه، وسخطه غداً تعذيبه. ومن هذا قول الله عز وجل وهو أصدق القائلين يُنادوْن لَمقت الله أكبر من مقتكم أنفسك، قال لمّا نظروا إلى أنفسهم بتشويه خَلْقهم فى النار مَقَتُوها فنُودوا لَمقت الله فى الدنيا على معاصيه أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم فى العذاب. كما أن رضاه غدا تنعيمهم فى جنته، كذلك رضاه اليوم عملهم بطاعته ومرضاته. وهذا وصفُ عبدٍ مُرادٍ مكاشَفٍ بعلم اليقين. ومن هذا حديث زيد الخيل إذ قال للنبى صلى الله عليه وسلم جئتك أسألك عن علامة الله تعالى فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد، فقال كيف أصبحت، فقال أصبحت أحب الخير وأهله، وإذا قدرتُ على شئ منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه، وإذا فاتنى شئ منه حزنتُ عليه وحننتُ إليه، فقال صلى الله عليه وسلم هذه علامه الله تعالى فيمن يريد، ولو أرادك للأخرى هيّأك لها ثم لم يبال فى أى أوديتها هلَكتَ.

ومن الرجاء التلذذ بدوام حُسن الإقبال، والتنّعم بمناجاة ذى الجلال، وحُسن الإصغاء إلى محادثة القريب، والتلطّف فى التملق للحبيب، وحُسن الظن به فى العفو الجميل ومنال الفضل الجزيل. وقال بعض العارفين للتوحيد نور وللشرك نار، ونور التوحيد أحرق لسيئات المؤمن من نار الشرك لحسنات المشرك. ولما احتّضر سليمان التيمى قال لابنه يابنى حدّثنى بالرخص واذكر لى الرجاء حتى ألقّى الله تعالى على حُسن الظن به. وكذلك لمّا حضر سفيان الثورى رضى الله عنه الوفاة جعل العلماء حوله يرجونه. وحُدّثنا عن أحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال لابنه عند الموت اذكرْ لى الأخبار التى فيها الرجاء وحُسن الظن. فلولا أن الرجاء وحُسن الظن من فواضل المقامات ماطلبه العلماء فى آخر الأوقات عند فراق العمر ولقاء المولى لتكون الخاتمة به. وهم يسألون الله حُسن الخاتمة طول الحياة، ولذلك قيل إنّ الخوف أفضل مادام حيا، فإذا حضر الموت فالرجاء أفضل.

وقد كان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول فى مقامات الرجاء: إذا كان توحيد ساعة يُحبط ذنوب خمسين سنة، فتوحيد خمسين سنة ماذا يصنع بالذنوب؟ وقال أبو محمد سهل رضى الله عنه لا يصح الخوف إلاّ لأهل الرجاء. وقال مرة العلماء مقطوعن إلا الخائفين،

والخائفون مقطوعون إلاّ الراجين. وكان يجعل الرجاء مقاماً فى المحبة، وهو عند العلماء أوّل مقامات المحبة، ثم يعلو فى الحب على قدر ارتفاعه فى الرجاء وحُسن الظن.

وروينا عن النبى صلّى الله عليه وسلم أحاديث فى الرجاء لا يصلح ذكرها لعموم الناس، ولكن نذكر من ذلك يقول الله تعالى إنما خلقتُ الخلق ليربحوا علىّ ولم أخلقهم لأربح عليهم. وفى حديث عطاء بن يسارعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلّى الله عليه وسلم ما خلق الله تعالى شيأ إلاّ جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه. والخبر المشهور أن الله تعالى كتب على نفسه قبل أن يخلق الخلق إن رحمتى تغلب غضبى. والأخبار المشهورة عن معاذ بن جبل وأنس بن مالك رضى الله عنهما مَنْ قال لا إله إلاّ الله دخل الجنة، ومن كان آخر كلامه قول لا إله إلاّ الله لم تمسه النار، ومن لقى الله تعالى لا يُشرك به شيأ حرمت عليه النار، ولا يدخل النار مَنْ فى قلبه وزن ذرة من إيمان. وقد قال فى خبر آخر لو يعلم الكافر سعَة رحمة الله تعالى ما أَيس من رحمته أحد. وقد قال الله تعالى فى حُسن عفوه عن أكبر الكبائر بعد ظهور الآيات ثم اتخذوا العجل من بعدما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك. وقال فى خطاب لطيف لأوليائه يُعرّفهم نفاذ أحكامه فيهم وجريان مشيئته عليهم فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم، عزيز لا يوُصل إليه إلاّ به، حكيم حكَم بمشيئته على عباده، ثم يغفر الذنوب جميعا فلا يبالى. كما أجرى على مَنْ فضّله على العالمين مقالة الكافرين فلم يضرهم مع تفضيله لهم، إذ قالوا لموسى عليه السلام اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فقال أغَيَر الله أبغيكم إلها وهو فضّلكم على العالمين. وبهذا المعنى عارَضَ علىّ كرّم الله وجهه رأس الجالوت لمّا قال له لم تلبثوا بعد نبيكم عليه السلام إلاّ ثلاثين سنة حتى ضرب بعضكم وجه بعض بالسيف، فقال علىّ كرّم الله وجهه أنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حدّثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يفزعهم وينفّرهم. وقال فى حديث آخر بشّروا ولا تنفروا، ويسّروا ولا تعسّروا. ولمّا وعظهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا – الحديث، فهبط جبريل عليه السلام فقال إنّ الله تعالى يقول لِمَ تُقنط عبادى؟ فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجاهم وشوّقهم. ولمّاتلا الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الآية إنّ زلزلة الساعة شئ عظيم، قال أتدرون أى يوم هذا؟ يوم يُقال لآدم عليه السلام قم فابعث نصيب النار من ذريّتك، فقال كم، قيل من كل ألف تسعمائة

وتسعة وتسعين إلى النار، وواحد إلى الجنة، قال فبكوا يومهم ذلك، وتركوا الأشغال والعمل، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما بالكم؟ أنتم فى الأمم مثل شعرة بيضاء فى جلد ثور أسود. والخبر المشهور لو لم تذنبوا لخَلَق الله تعالى خلْقا يذنبون ليغفر لهم. وفى لفظ آخر لذهب بكم وجاء بقوم يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم، أى أن وصفه سبحانه وتعالى المغفرة والرحمة، فلا بد أن يخلق مقتضى وصفه حتى يحق وصفه عليه. وحكى لنا فى معناه عن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه قال خلا لى الطواف ذات ليلة، وكانت ليلة مطيرة مظلمة، فوقفتُ فى الملتزم عند الباب، فقلت يارب اعصمنى حتى لا أعصيك أبدا. فهتف بى هاتف من البيت يا إبراهيم، أنت تسألنى العصمة وكل عبادى المؤمنين يطلبون ذلك، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ولمن أغفر؟ وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول لو لم يذنب المؤمن لكان يطير طيرا، ولكن الله تعالى قمَعَه بالذنوب. وفى الخبر مثله لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب، قيل وماهو، قال العُجب.ولَعَمْرى إنّ العُجب من صفات النفس المتكبرة، وهو يحبط الأعمال، وهو من كبائر أعمال القلوب والذنوب من أخلاق النفسْ الشهوانية. ولأن يُبتلى العبد الشهوانى بعشر شهوات من شهوات النفس، خير له من أن يُبتلى بصفة من صفات النفس مثل الكبْر والعُجب والَبغْى والحسد وحب المدح وطلب الذكْر، لأن هذه منها معانى صفات الربوبية، ومنها أخلاق الأبالسة، وبها هلَك إبليس. وشهوات النفس من وصف الخلقة، وبها عصى آدم ربه فاجتباه بعدها وتاب عليه وهدَىَ. وقد قال بشر بن الحارث سكون النفس إلى المدح أضر عليها من المعاصى. ورأى يوسف بن الحسين مخنثًا فأعرض عنه إزراءً عليه، فالتفت إليه المخنّث وقال وأنت أيضا يكفيك مابك، ففزع من قوله فقال وأى شىء تعلم، قال لأن عندك أنك خير منى، فاعترف يوسف بقوله فتاب واستغفر.

وكان بعض الراجين من العارفين إذا تلا هذه الآية، آية الدين التى فى سورة البقرة، يُسَر بذلك ويستبشر لها ويَعظُم رجاؤه عندها، فقيل له فى ذلك أنها ليس فيها رجاء ولا مايوُجب الاستبشار، فقال بلَى فيها رجاء عظيم، قيل وكيف ذلك، فقال إن الدنيا كلها قليل ورزق الإنسان فيها قليل من قليل، وهذا الدين مَنْ رُزقه قليل. ثم إن الله تبارك وتعالى احتاط فى ذلك ورفَق النظر لى بأن وكّد دينى بالشهود والكاّب، وأنزل فيه أطول آية فى كتابه، ولو فاتنى ذلك لم أبال به، فكيف يكون فعله بى فى الآخرة التى لا عَوض لى من نفسى فيها. وكذلك كان بعض الراجين يفهم من قوله تعالى إذا تلا وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون، يرجو من

ذلك بوادى الجود والكرم والإحسان مما لم يحسبه فى الدنيا قط. وقد كان الجنيد رحمه الله يقول إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين. وعلى ذلك جاء فى الخبر ليغفر الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد، حتى أن إبليس يتطاول رجاء أن تصيبه. وفى الخبر أن لله تعالى تسعا وتسعين رحمة، أظهر منها فى الدنيا رحمةً واحدة بها يتراحم الخلائق، فتحن الوالدة إلى ولدها، وتعطف البهيمة على ولدها، فإذا كان يوم القيامة ضمّ هذه الرحمة إلى تلك التسعة والتسعين، ثم بسطها على جميع خَلْقه، وكل رحمة منها طباق السموات والأرضين، قال فلا يهلك على الله تعالى إلاّ هالك.

وقد قال بعض العلماء إن الله تعالى إذا غفر لعبد فى موقف القيامة ذنبا غفر ذلك الذنب لكل من عمله. وقال النبى صلّى الله عليه وسلم إعملوا وأبشروا واعلموا أن أحداً لن ينجيه عمله. وفى الحديث الآخر ما منكم من أحد يُدخله عمله الجنة ولا ينُجيه من النار، قالوا ولا أنت يارسول الله، قال ولا أنا، إلاّ أن يتغمدنى الله تعالى برحمة وفضل. وروى عنه صلّى الله عليه وسلم إنى اختبأتُ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى. وفى لفظ آخر أتروْنها للمصفّين المتّقين بل هى للمخلصين المتلوّثين.وقال صلّى الله عليه وسلم لمعاذ وأبى موسى رضى الله عنهما وقد بعثهما واليين على اليمن فأوصاهما فيما أمرهما به، فقال يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفرا. فعلّم المؤمنين بكَرم الله تعالى وخَفى لطفه ولطيف منه، لا يقعدهم عن تأميله، ولا يقصر بهم عن رجائه ولا حسن ظنهم به، ولا يقوّى الخوف فيخرجهم إلى الإياس من رحمته، لأجل علمهم بجبَريته وكبريائه، منْ قِبَل أنّ المَهُوب هو المحبوب، فمحبته تؤنسهم وترّجيهم، وهيبته تزعجهم وتخيفهم، فخوفهم فى المهابة فى لذاذة، ونعيمهم بالحب فى مهابة، فهم فى مقام الخوف والمحبة معتدلون، وبقّوة العلم بهما متمكنون، وفى مشاهده الخوف والمحبوب مستقيمون. وهذا المقام هو وصف العارفين من الموقنين، وهم أهل كمال الإيمان وصفوة خصوص ذوى الإيقان، إذ قد عرفوا أن الله تبارك وتعالى كامل فى صفاته، لا يعتريه نقصان فى وصف دون وصف، وإنما الرحمة لسعة العلم، كما العلم لسَعة القُدرة، لمّا شهدوا من وصفه بما سمعوا من كلامه أنه كان عليما قديرا. كذلك قال تعالى وَسعتُ كل شىء رحمة وعلما. وكذلك فهموا من قوله تعالى ورحمتى وسِعَت كل شىء، فدَخلتْ جهنم وغيرها فى توسْعة الرحمة من حيث كن شيأ. وقوله عز وجل فساكتبها للذين يتقّون، معناه خصوص الرحمة، وَصفَها لا كَنّهها، إذ لا نهاية للرحمة لأنها صفة الراحم الذى لا حدّ له، ولأنه لم يخرج من رحمته شىء كما لم يخرج من حكمته وقدرته شىء، لأن جهنم والنار الكبرى وغيرهما ليس كُنه عذابه ولا كُلّية

تعذيبه، فمن ظن ذلك به لم يعرفه، ولأنه لما أظهر من عذابه مقدار طاقة الخلْق، كما أنه أظهر من مُلكه ونِعَمه مقدار مصالح الخلق، وما لا يصلح للخلق ولا يطيقون إظهاره أكثر مما أظهر من النعيم والعذاب، بل لا ينبغي لهم أن يعرفوا فوق ما أبدى لأن نهاية تعذيبه وتنعيمه من نهاية مُلكه الذى هو قائم به، ومُلكه عن غاية قُدرته وسلطانه ولا نهاية لذلك، ولا يطيق الخلق كله إظهار ذلك، وذلك أيضا عن تعالى صفاته وبهاء أسمائه المتناهيات، ولا سبيل إلى كشف ذلك من الغيوب، فسبحان مَنْ لا نهاية لقدرته ولاحدّ لعظمته ولا أمَدَ لسلطانه. وكذلك شهدوا ما سمعوا من قوله عز وجل أنه كان حليما غفورا. وكان الله عليما حليما فعلموا أن المغفرة على سَعة الحلم كما أن الحلم سعَة العلم، فلما رأوْا عظيم حِلمه رجوا عظيم مغفرته، ولمّا شهدوا كثيف ستَره أملوا جميل عفوه. وكذلك يقال إن حملة العرش يتجاوبون بأصوات سبحانك على حِلمك بعد علمك، سبحانك على عفوك بعد قُدرتك. فللراجين من العارفين فهوم من السمع للكلام نحو علّو نظرهم عن سمّو علومهم بمعاني الصفات، وكل صاحب مقام يشهد من مقامه ويسمع من حيث شهادته، فأعلاهم شهادة الصدّيقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون، ثم خصوص المؤمنين، فبه تبارك وتعالى استدلّوا عليه، ومنه إليه نظروا. هم درجات عند الله، والله بصير بما يعملون. وكان سهل رضى الله عنه يقول المحسن يعيش فى سعة الرحمة، والمسئ يعيش فى سعة الحلم. وصفاته تبارك وتعالى كاملات، فمن شهد ترجيح بعضها على بعض دخل عليه النقص من مشاهدته لقصور علمه عن تمام علم من فوقه من الشهداء، ولأجل مقامه المراد به دون طريق الصدّيقين من الأقوياء، فعاد ذلك على العبد فصار ذلك مقاما له فى القُرب والبُعد، تعالى وصف المشهود عن النقصان والحد.

ومثل الرجاء من الخوف مثل **الرخصة فى الدين** من العزائم. وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه. وفى لفظ آخر أبلغ من هذا وأوكد إن الله يحب أن يُقبل رخصه كما يَكره أن يُؤتى معاصيه. وروى عن النبى صلّى الله عليه وسلم إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله تعالى، وخير الدين أيسره. وقال هلك المتعمقون، هلك المتنطعون. وقال عليه الصلاة والسلام بُعثت بالحنيفية السهلة السمحة. وقال صلّى الله عليه وسلم أُحِبُ أن يعلَم أهل الكتاب أن فى ديننا سماحة. وقال الله عز وجل ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، واستجاب للمؤمنين فى قولهم ربنّا ولا تحمل علينا إصْرا كما حملته على الذين من قبلنا، فقال عز وجل قد فعلت.

فهذه العلوم هى أسباب قوّة الرجاء في أولى الألباب، كيف وقد جاء ما يُغلّب حكم الرجاء من غير اغترار، ما رُوِى عن الله تعالى أنا إلى الرحمة والعفو أقرب منى إلى العقوبة. وفى الخبر إذا حدّثتم الناس عن ربهم فلا تُحَدثوهم بما يُفزعهم ويشق عليهم . وفى كلام لعلىّ رضى الله عنه إنما العالِم الذى لا يُقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يُؤمنهم مكر الله تعالى. وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى **داود** عليه السلام مالك وحدانيا، قال عاديتُ الخلق فيك، قال أما علمت أن محبتى أنْ تعطف على عبادى وتأخذ عليهم بالفضل؟ هنالك أكتبُك من أوليائى وأحبابى. ولا تنظر إلى عبيدى نظرة جفاء ولا قسوة فإذا أنت قد أبطلت أجرك، فاحفظ عنى ثلاثا: خالصْ حبيبى مخالصة، وخالفْ أهل الدنيا مُخالفة، ودينك فقلدنيه. وعن **داود** وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحبنى وأحب من يحبنى، وحببنى إلى خلقى. قال يارب هذا أحبكَ وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلْقك، فقال عز وجل اذكرنى بالحَسَن الجميل، واذكر آلائى وإحسانى، وذكّرهم ذلك فإنهم لا يعرفون منى إلاّ الجميل. وروى عن يزيد الرقاشى عن أنس أن **النبى صلى الله عليه وسلم** قال ألاَ أخبركم عن أقوام ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء بمنازلهم من الله تعالى على منابر من نور يُعرفون عليها، قالوا من هم، قال الذين يحببون عباد الله إلى الله تعالى، ويحببون الله عز وجل إلى عباده، ويمشون فى الأرض نُصحاء. فقلنا هذا حببّوا الله إلى عباده فكيف يحببون عباد الله إلى الله، قال يأمرونهم بما يُحب الله وينهونهم عما حرّم الله، فإذا أطاعوهم أحبهم الله.

ورؤى أبّان بن عيّاش فى النوم بعد موته، وكان من أكثر الناس حديثاً بالرُخَص وأبواب الرجاء، فقال أوقفنى ربى عز وجل بين يديه فقال ما حملك على أنْ حدّثت عنى بما حدثت به من الرخص، قال فقلت يارب أردتُ أن أُحببك إلى خلقك، قال قد غفرت لك. وحُدّثت عن مالك بن دينار أنه لقى أبّانا فقال إلى كم تُحدّث للناس بالرخص، فقال يا أبا يحيى إنى لأرجو أن ترى من عفو الله تعالى يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح. وفى حديث ربعىّ بن حرّاش عن أخيه وكان من خيار التابعين، وهو ممن تكلم بعد الموت، قال لمّا مات أخى سُجّى بثوبه وألقيناه على نعشه، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا، وقال إنى لقيت ربى عز وجل فحيّانى بروْح وريْحان وربٍ غير غضبان، وإنى رأيت الأمر أيسر مما تظنون. وقال بكر بن سليمان دخلنا على **مالك** رحمه الله تعالى فى العشية التى قُبض فيها، فقلنا كيف تجدك، قال ما أدرى ما أقول لكم إلاّ أنكم ستعاينون غدا من عفو الله تعالى مالم يكن لكم فى

حساب، قال فما برحنا حتى أغمضناه ودفناه. ورؤى يحى بن أكثم فى النوم فقيل ما فعل الله تعالى بك، فقال أوقفنى بين يدّيه وقال يا شيخ السوء فعلت وفعلت، قال فأخذنى من الرعب والفزع ما يعلم اللّه تعالى، ثم قلت يارب ما هكذا حُدّثتُ عنك، فقال وما حُدِّثتُ عنى، فقلت حدثّنا عبد الرزاق عن معمّر عن الزهرى عن أنس بن مالك عن نبيّك صلّى اللّه عليه وسلم عنك، أنك قلت تباركت وتعاليتَ، أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء. وقد كنت أظن بك أن لا تعذبنى، فقال عزّ وجلّ صدَق نبيي، وصدق أنس، وصدق الزهرى، وصدق معمر، وصدق عبد الرزاق، وصدقت. قال فُغُلّفت وخُلِعَ علىّ، وألبست ومشّى بين يدَى الولدان إلى الجنة، فقلت يا لها من فرحة.

وفى الخبر أن رجلا من بنى إسرائيل كان يشدّد على الناس ويُقنطهم من رحمة اللّه تعالى، فيقول اللّه تعالى له يوم القيامة اليوم أوَ يِّسك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى منها. وفى الحديث أن رجلين تواخيا فى اللّه تعالى من بنى إسرائيل فكان أحدهما عابدا والآخر مسرفا على نفسه، فكان هذا العابد ينهاه ويزجره فيقول له دعنى وربى، أبُعثتَ علىّ رقيبا، حتى رآه ذات يوم علَى كبيرة فغضب، فقال لا يغفر اللّه لك، قال فيقول اللّه تعالى له يوم القيامة أتستطيع أن تحظر رحمتى على عبادى. إذهب فقد غفرت له. ثم قال للعابد وأنت فقد أوجبت لك النار، قال فوالذى نفسى بيده لقد تكلمت بكلمة أهلكت دنياك. وآخرتك. وروينا فى معناه أن لصاً كان يقطع الطريق أربعين سنة فى بنى إسرائيل، فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عبّاد بنى إسرائيل من الحواريين، فقال اللص فى نفسه هذا نبى اللّه يمر وإلى جنبه حَواريه، لو نزلت فكنت معهما ثالثا، قال فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحَوَارىّ، ويزدرى نفسه تعظيما للحوارى، ويقول فى نفسه مثلى لا يمشى إلى جنب هذا العابد، قال وأحس به الحوارى فقال فى نفسه هذا يمشى إلى جانبى، قال فضمّ نفسه وتقدّم إلى عيسى عليه السلام فمشى إلى جانبه، فبقى اللص خلفه، قال فأوحى اللّه تعالى إلى عيسى عليه السلام قل لهما يستأنفان العمل فقد أحبطتُ ما سلف من أعمالهما. أما الحوارى فقد أحبطتُ حسناته لعُجبه بنفسه، وأما الآخر فقد أحبطتُ سيأته بما ازدرَى على نفسه، قال فأخبرهما بذلك وضمّ اللص إليه فى سياحته وجعله من حَوارييه. وروينا عن مسروق بن الأجدع أن نبيا من الأنبياء كان ساجداً فوطىء بعض العتاة على عنقه حتى ألْزَق الحصَى بجبهته، قال فرفع النبى عليه السلام رأسه مغضبًا، فقال اذهب فلن يغفر اللّه لك، قال فأوحى اللّه تعالى إليه

تتألّى علىّ فى عبادى، إنى قد غفرتُ له. قال ابن عباس رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقنتُ يدعو على المشركين ويلعنهم فى صلاته، فنزلت ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم إلى قوله ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم، قال فترك الدعاء عليهم، قال فهدَى الله تعالى عامة أولئك إلى الإسلام.

والأخبار فيما يوجب الرجاء وحُسن الظن أكثر من أن تُجمع، ولم نقصد جمعها وإنما دلّنا بقليل على كثير، ونبّهنا عقول ذوى التبصير، وقد قال سبحانه وتعالى يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم، فنبّه العبد مع غِرّته على كرمه، وذكّره مع جهله حُسن تسويته إياه بتعديله يدّل على نعمته. وروينا عن الضحّاك إن العبد ليدنو من ربه تبارك وتعالى عند العَرْض فيقول عبدى أتحصى عملك، فيقول إلهى كيف أُحصيه من دونك وأنت حافظ للأشياء، فيذّكره الله تعالى جميع ذنوبه فى الدنيا فى ساعاتها، فيقول أنت عبدى فَقّر بما عرفتّك وذكّرتك، فيقول نعم سيْدى، فيقول الله سبحانه أنا الذى ستّرتها عليك فى الدنيا فلم أجعل للذنوب رائحة توجد منك، ولم أجعل فى وجهك شيْنها، وأنا أغفرها لك اليوم على ما كان منك بإيمانك بى، وتصديقك المرسلين. وروينا عن محمد بن الحنفية عن أبيه علىّ كرّم الله وجهه، قال لمّا نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصفح الصفح الجميل، قال يا جبريل وما الصفح الجميل، قال يا محمد إذا عفوْت عمّن ظلمك فلا تعاتبه، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جبريل فالله مع كرمه تعالى أوْلَى أن لا يُعاتِب مَنْ عفا عنه، قال فبكى جبريل وبكى النبى صلى الله عليه وسلم، فبعث الله عز وجل إليهما ميكائيل، فقال إنّ ربكما يُقرئكما السلام ويقول لكما كيف أعاتب مَنْ عفوْتُ عنه، هذا ما لا يشبه كرمى.

ومن الرجاء شدة الشوق إلى ما شَوّق إليه الكريم، وسرعة التنافس فى كل نفَس ندَب إليه الرحيم. فأمّا الرجاء الذى هو همّة جُملة الناس، من الإقامة فى المعاصى والانهماك فى الخطايا، وهو يرجو المغفرة وينتظر الكرامة، فليس هذا برجاء عند العلماء، لأن الرجاء مقام من اليقين وليس هذا وصف الموقنين، لأن هذا هو اغترار بالله تعالى، وغَفْلة عن الله تعالى، وجَهْل بأحكام الله تعالى. وقد تهدّد الله تعالى قوما ظنّوا مثل هذا وأصرّوا على حب الدنيا والرضا بها وتمنوْا المغفرة على ذلك، فسمّاهم **خَلْفاً**، والخَلْف الردىء من الناس، وتوعدّهم بشديد البأس فى قوله عز وجل فخلَف من بعدهم خَلْفٌ وَرِثُوا الكتاب يأخذون عَرَض هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا.

والأخبار فى حقيقة الرجاء تزيد المغترّين اغترارا، وتزيد المستدرَجين بالستر والنعيم خَساراً. وهى مزيد للتوّابين الصادقين، وقُرة عيْن المحبين المخلصين، وسرورٌ لأهل الكرم والحياء، ورَوْح ارتياح لذوى العصمة والوفاء، يُنتفع به ويَشتد عنده حياؤهم، ويُروّح به كروبهم، وترتاح إليه عقولهم، فهؤلاء يَستخرج منهم الرجاء وحُسن الظن من العبادات ما لا يستروْحه الخوف، إذ المخاوف تقطع عن أكثر المعاملات، فصار الرجاء طريقا لأهله، وصاروا رائجين به كما قال عمر رضى الله عنه رَحِمَ اللهُ صهيبا، لو لم يخف الله تعالى لم يعصه، أى يترك المعاصى للرجاء لا للخوف، فصار الرجاء طريقه، فهؤلاء هم الراجون حقا وهذه علامتهم، ولمثل هذا ذكرنا الأسباب التى توجب الرجاء، وتولّد حُسن الظن فى قلوب أهل الصفاء.

ومن الرجاء تحسين الأخلاق مع الخلْق، وجميل الصبر عليهم، وحُسن الصفح ولطيف المدارة لهم، تقرّباً إلى الله عز جل بذلك، وتخلّقاً بأخلاقه، رجاء ثوابه، وطمعا فى تنجيز وَعده، واتّباعا لسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن الرجاء ترك الأهواء الرديئة والشهوات المُطغية، ومنه افتعال الطاعات وحُسن الموافقات، يَنوى بها، ويسأل مولاه الكريم عظيم الرغائب وجليل المواهب لما وُهب له من حُسن الظن به، كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم إذا سألتم الله تعالى فأعظموا الرغبة وسَلُوا الفردوس الأعلى، فإن الله عز وجل لا يتعاظمه شئ. وفى حديث آخر فأكثروا وسَلُوا الدرجات العُلَى فإنما تَسألون جوادا كريما. وفى الآثار أن رجلين كانا من العابدين متساويين فى العبادة، فإذا دخلا الجنة رُفع أحدهما فى الدرجات العُلَى على صاحبه، فيقول الآخر يا رب ما كان هذا فى الدنيا بأكثر عبادة لك منى، فرفعتَه علىّ فى عليّين، فيقول الله سبحانه وتعالى إنه كان يسألنى فى الدنيا الدرجات العُلَى، وكنت أنت تسألنى النجاة من النار، فأعطيت كل عبد سؤلَه.

وروينا فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا يخرج من النار فيوقف بين يدىّ الله تعالى، فيقول له كيف وجدت مكانك، فيقول يا رب شرّ مكان، فيقول ردُوه إلى مكانه، قال فيمشى ويلتفت إلى ورائه فيقول الله عز جل إلى أى معنى تَلَفّت، فيقول له يا رب قد رجوت أن لا تعيدنى إليها بعد إذ أخرجتنى منها، فيقول تعالى إذهبوا به إلى الجنة فقد صار الرجاء طريقه إلى الجنة، كما كان الخوف طريق صاحبه فى الدنيا إليها. كما روينا أنّ الآخر

سعى مبادراً إلى النار لمّا قال ردّوه، فقيل له فى ذلك، فقال لقد ذقتُ من وَبال معصيتك فى الدنيا ما خِفتُ من عذابه فى الآخرة، فقيل اصرفوه إلى الجنة. وقال الله سبحانه فى وصف قوم أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، فطرق لأوليائه من القرب والوسيلة الرجاء، كما طرق الخوف منه إليها، وهذا أحد الوجهين فى الآية لمن لم يجعله وصفا للأصنام، لأنها قرئت بالتاء تدعون، قرأها طلحة بن مصرف، فكذلك نَدَب المؤمنين إلى طلب القرب منه فى قوله عز وجل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة.

فهذه جملة **أحكام الرجاء وأوصاف الراجين**، فمن تحقق بجميعها فقد استحق درجات أهل الرجاء، وهو عند الله تعالى من المقرّبين، ومن كان فيه وصف من هذه الأوصاف فله مَقام من الرجاء.

واعلم أن **مقامات اليقين** لا يزيل بعضها بعضا ولكن يندرج بعضها فى بعض، فمن غلَب عليه حال مشاهدته وُصِف بما غُلِبَ عليه واستمر بما سوَىَ ذلك من المقامات فيه. ومَنْ عَمِلَ بشرط مقام منها، وقام بحكم الله تعالى فيه، نُقِلَ إلى ما سواه. وكان المقام الأول له علما، والثانى الذى أقيم فيه له وجداً، فكتم الوجْدَ لأنه سرُّه، وعبّر عن العلم لأنه قد جاوزه فصار له علانية. ومقام الرجاء هو جُندٌ من جنود الله عز وجل يُستخرج من بعض العباد ما لا يستخرج غيره، لأن بعض القلوب تلين وتستجيب عن مشاهدة الكرم والإحسان، وتقبل وتطمئن بمعاملة النِعَم والإحسان، ما لا يوجد ذلك منها عند التخويف والترهيب، بل قد يقطعها ذلك ويوحشها، إذ قد جعل الرجاء طريقها فوُجِدت فيه قلوبها.

ومثل الرجاء فى الأحوال مثل العوافى والغنى فى الإنسان، فمن الناس من يُقبل قلبه ويَجتمع هَمّه عندهما، ويوجد نشاطه وتَحسُن معاملته بهما، كما روينا عن الله سبحانه وتعالى إن من عبادى من لا يصلحه إلاّ الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، ومن عبادى من لا يصلحه إلاّ الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك. إنى أدبر عبادى بعلمى، إنى بهم خبير، فكذلك من عبادى من لا يصلحه إلاّ الرجاء، ولا يستقيم قلبه إلاّ عليه، ولا تحسُن معاملته إلاّ بوجود حُسن الظن، فهو طريقه إليه، ومقامه منه، ومنه علمه به، وعنده يجد قلبه معه. إلاّ أنه وإن كان طريقا يخرج إلى الله عز وجل فإن الخوف أقرب منه، وما كان أقرب فهو أعلى، كما أن الغنى والعوافى

طريقان إلى الله تعالى، إلاّ أن الفقر والبلاء عندى أقرب منهما وأعلى، والله غالب على أمره. وقد روينا عن معمر عن الحسن أنه قال إنما عَمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسنَ بالله الظن وأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساء بالله الظن ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

شرح مقام الخوف ووصف الخائفين وهو الخامس من مقامات اليقين

قال الله عزّ وجلّ وما يعقلها إلاّ العالمون،فرفع العلم على العقل وجعله مقاما فيه، وقد قال سبحانه وتعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء فجعل **الخشية** مقاما فى العلم حققّه بها، والخشية حال من مقام الخوف، **والخوف اسم لحقيقة التقوى**، والتقوى معنى جامع للعبادة، وهى رحمة الله تعالى للأوّلين والآخرين، ينظم هذين المعنيين قوله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، وقوله تعالى ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله، وهذه الآية قُطب القرآن مداره عليها. والتقوى السبب أضافه تعالى إليه تشريفاً له، ومعنى وصلّه به وأكرمَ عباده عليه تعظيماً له، فقال لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم، وقال إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم. وفى الخبر إذا جمع الله الأوّلين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يُسمع أقصاهم كما يُسمع أدناهم ، يقول يا أيها الناس إنى قد أنصتُّ لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، فأنصتوا إلىّ اليوم فإنما هى أعمالكم تُرَدّ عليكم. أيها الناس إنى جعلت نسَباً وجعلتم نسبا، فوضعتم نسبى، ورفعتم نسبكم، قلت إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم وأبيتم إلاّ فلان بن فلان أغنى من فلان، فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبى أين المتقون؟ قال فيُنصب للقوم لواء، فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيُدخلهم الجنة بغير حساب.

والخوف حال من مقام العلم وقد جمع الله تعالى للخائفين ما فرّقه على المؤمنين، وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان، وهذه جُمَل مقامات أهل الجنان، فقال تعالى هُدىً ورحمة للذين هم لربهم يرهبون، وقال إنما يخشى الله من عباده العلماء، وقال جلّ ذكرُه رضى الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشى ربه. وفى خبر موسى عليه السلام وأما الخائفون فلهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه، فأفردهم من غير مشاركة بالرفيق الأعلى كما حققهم اليوم بشهادة التصديق، وهذا مقام من النبوّة، فهم مع الأنبياء فى المزيّة من قبَل أنهم ورثة الأنبياء،

لأنهم هم العلماء، قال تعالى فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين، ثم قال تعالى فى وصف منازلهم وحَسُن أولئك رفيقاً، بمعنى رفقاً، عبّر عن جماعتهم بالواحد لأنهم كانوا كأنهم واحد، وقد يكون رفيقاً فى الجنة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم عند الموت،، وقد خُيِّر بين البقاء فى الدنيا وبين القدوم على الله تعالى، فقال اسألك الرفيق الأعلى. وفى خبر موسى عليه السلام فأولئك لهم الرفيق الأعلى، فدلّ أنهم مع الأنبياء بتفسير النبى صلى الله عليه وسلم لذلك، وشرّف مقامهم فوق كل مقام لطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك.

فالخوف اسم جامع لحقيقة الإيمان، وهو علم الوجود والإيقان، وهو سبب اجتناب كل نَهىّ ومفتاح كل أمر. وليس شئ يحرق شهوات النفوس فيزيل آثار آفاتها إلاّ مقام الخوف. وقال **أبو محمد سهل** رحمه الله تعالى كمال الإيمان العلم، وكمال العلم الخوف. وقال مرةً العلم كسْب الإيمان، والخوف كسب المعرفة. وقال **أبو الفيض المصرى** لا يُسقى المحب كأس المحبة إلاّ مِنْ بعد أن يُنضِج الخوف قلبه. وقال خوْف النار عند خوف الفراق بمنزلة قطرة قُطِرت فى بحر لجىّ، وكل مؤمن بالله تعالى خائف منه ولكن خوفه على قدر قُربه، فخوف الإسلام اعتقاد العزة والجبرية لله وتعالى وتسليم القُدرة والسطوة له، والتصديق لما أخبَر به من عذابه وما تهدّد من عقابه. وقال **الفضيل بن عياض** إذا قيل لك تخاف الله فاسكتْ، لأنك إن قلت لا كَفَرت، وإنْ قلت نعم فليس وصفك وصف مَن يخاف. وشكا واعظ إلى بعض الحكماء فقال ألاَ ترى إلى هؤلاء أعظهم وأذكّرهم فلا يَرقّون، فقال وكيف تنفع الموعظة مَن لم يكن فى قلبه لله تعالى مخافة. وقد قال الله تعالى فى تصديق ذلك سيذّكر من يخشى ويتجنبها الأشقى، أى يتجنب التذْكّرة الشقّى، فجعل من عدم الخوف شقّيا وحَرَمه التذْكّرة. فخوف **عموم المؤمنين** بظاهر القلب عن باطن العلم بالعَقْد، وخوف **خصوصهم** وهم الموقنون بباطن القلب عن باطن العلم بالوَجد، فأمّا **خوْف اليقين** فهو للصدّيقين من شهداء العارفين عن مشاهدة ما آمن به من الصفات المخوفة.

وأول **خوف اليقين** الموصوف الذى هو نعت الموصوفين من المؤمنين المحاسبة للنفس فى كل وقت، والمراقبة للرب فى كل حين، والورع عن الإقدام على الشُبهات من كل شئ من العلوم بغير يقين بها، ومن الأعمال بغير فقْه فيها. وفى خبر **موسى عليه السلام** وأما الورعون فإنه

لا يبقى أحد إلا ناقشتُه بالحساب وفتشتُه عمّا فى يديه إلاّ الورعين فإنى استحييهم وأجلّهم أن أوقفهم للحساب. فالورع حال من الخوف، ثم كف الجوارح عن الشبهات وفضول الحلال من كل شىء بخشوع قلب ووجود إخبات، ثم سجن اللسان وخزن الكلام لئلا يدخل فى دين اللّه عز وجل، ولا فى العلم مالم يشرعه اللّه فى كتابه، أو لم يذكره رسوله صلى اللّه عليه وسلم فى سنته، أو لم ينطق به الأئمة من السلَف فى سيَرهم مما لم يكن أصله موجوداً فى الكتاب والسنة، وتسميته واضحة فى العلم، فيجتنب ذلك كله، ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم خوفاً من المساءلة، ولا يدخل فيه لدقيق هوى يدخل عليه، ولا لعظيم حظ دنيا يدخل فيه، وأن ينصح نفسه للّه تعالى لأنها أولى الخلق، ثم ينصح الخلْق فى اللّه تعالى، فيبتدىء بالنصح فى أمور الدين والآخرة، ثم يعقبه فى أسباب الدنيا، لأن أمور الآخرة أهمّ، والغش فى الدين أعظم، والتزوّد للمنقلب آثر. وروينا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال من غشّ أمتى فعليه لعنة اللّه، قيل وما غش أمتك يارسول، قال أنْ يبتدع لهم بدعة فيتّبع عليها، فإذا فعل ذلك فقد غشّهم.

وثمرة الخوف العلم باللّه عز وجل، والحياء من اللّه عز وجل، وهو أعلى سريرات أهل المزيد، يستبين أحكام ذلك فى معنيين هما جملة العبد، أنْ يحفظ رأسه وما حواه من السمع والبصر واللسان، وأنْ يحفظ بطنه وما وعاه وهو القلب والفرْج واليد والرجل، وهذا **خوف العموم** وهو أول الحياء، فأمّا **خوف الخصوص** فهو أنّ لا يجمع مالا يُأكل، ولا يبنى مالا يُسكن، ولا يكاثر فيما عنه ينتقل، ولا يغفل ولا يُفرّط عمّا إليه يرتحل، وهذا هو الزهد، وهو حياء مزيد أهل الحياء من تقوى أصحاب اليمين.

وأعلى الخوف أنْ يكون قلبه معلقا بخوف الخاتمة لا يسكن إلى علم ولا عمل، ولا يقطع على النجاة بشىء من العلوم وإنْ علت، ولا لسبب من أعماله وإن جلّت، لعدم علمه تحقيق الخواتم، فقد قيل إنما يوزن من الأعمال خواتمها. وعن النبى صلى اللّه عليه وسلم أن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى يقال إنه من أهل الجنة، وفى خبر حتى ما يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر، ثم يسبق عليه الكتاب فيُختم له بعمل أهل النار. ولا يتأتى فى هذا المقدار من الوقت شىء من عمل الجسم بالجوارح، إنما هو من أعمال القلوب بمشاهدة العقول، وهو شِرك التوحيد الذى لم يكن متحققا به، وشك فى اليقين الذى لم يكن فى الحياة الدنيا مشاهداً له فظهر له بيان ذلك عند كشف الغطاء، فغلب عليه وصفه وبدت فيه حاله، كما يظهر

له أعماله السيئة فيستحليها قلبه، أو ينطق بها لسانه، أو يخامرها وَجْده، فتكون هى خامته التى تخرج عليها روحه، وذلك فى سابقته التى سبقت له من الكتاب كما قال تعالى أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، تكون عند مفارقة الروح من الجسد، وإنّالموفوهم نصيبهم غير منقوص. وقد جاء فى خبر حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلاّ فُواق ناقة فيُختم له بعمل أهل النار، وهذا يكون عند بلوغ الروح التراقى، وتكون النفس قد خرجت من جميع الجسد واجتمعت فى القلب إلى الحلقوم، فهذا هو شبْر، وفُوَاق ناقة هو ما بين الحلبتين، وقيل هو شَوْط من عَدْوها بين سيْرَيْن، وهذا من تقلبات القلوب عند حقيقة وجهة التوحيد إلى وجهة الضلال والشرك، عندما يبدو له من زوال عقل الدنيا وذهاب علم المعقول، فيبدو له من الله مالم يكن يحتسب. وأكثر ما يقع سوء الخاتمة لثلاث طوائف من الناس – **أهل البدع والزيغ فى** الدين لأن إيمانهم مرتبط بالمعقول، فأول آيه تظهر لهم من قدرة الله تعالى أن يطيخ عقله عند شهودها، فيذهب إيمانه ولا يثبت لمعاينتها، كما تحترق الفتيلة فيسقط المصباح، **والطبقة الثانية أهل الكبر والإنكار** لآيات الله عز وجل وكراماته لأوليائه فى الحياة الدنيا لأنهم لم يكن لهم يقين يمده الإيمان، فيعتورهم الشك ويَقْوَى عليهم لفقد اليقين، **والطبقة الثالثة** ثلاثة أصناف متفرقون متفاوتون فى سوء الخاتمة وجميعهم دون تَيْنك الطائفتين فى سوء الخاتمة، لأن سوء الختم على مقامات أيضا كمقامات اليقين والشرك فى عمر الحياة، منهم **المدّعى المتظاهر** الذى لم يزل إلى نفسه وعمله ناظرا، **والفاسق المعلن، والمُصرّ المدمن**، يتصل بهم المعاصى إلى آخر العمر، ويدوم تقليبهم فيها إلى كشف الغطاء، فإذا رأوا الآيات تابوا إلى الله تعالى بقلوبهم، وقد انقطعت أعمال الجوارح فليس يتأتى منهم، فلا تقبل توبتهم، ولا تُقال عثرتهم، ولا تُرحم عبرتهم، وهم من أهل هذه الآية وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن، فهم مقصودون بقوله عز وجل وحيل بينهم وبين ما يشتهون، وهم معنيون بمعنى قوله تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، فنصوص الآية للكفار، ومعناها ومقام منها لأهل الكبائر وذوى الإصرار من الفاسقين الزائغين من حيث اشتركوا فى سوء الخاتمة، ثم تفاوتوا فى مقامات منها تُظهر لهم شهوات معاصيهم، ويعُاد عليهم تذكّرها لخلو قلبهم من الذكر والخوف، حتى يُختم لهم بشهادتها، فهذه الأسباب تُجنّب الخوف وتقطع قلوب ذوى الألباب.

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول المريد يخاف أنّ يُبتلى بالمعاصى، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.وكذلك قال أبو يزيد رحمه الله تعالى قبله إذا توجهتُ إلى المسجد كان فى وسطى زنار أخاف أن يذهب بى إلى البيْعة وبيت النار، حتى أدخل المسجد فيُقطع عنى الزنار، فهذا لى فى كل يوم خمس مرات... هَذا لعلمهم بسرعة تقلب القلوب فى قُدرة علاّم الغيوب. وقد روينا معنى ذلك عن عيسى عليه السلام أنه قال يا معشر الحَواريين، أنتم تخافون المعاصى، ونحن معشر الأنبياء نخاف الكُفر. وقد كان عبد الواحد بن زيد إمام الزاهدين يقول ما صَدَق خائف قط ظن أنه لا يدخل النار، وما ظن أن يدخل النار إلاّ خاف أن لا يخرج منها أبداً.

ويدخل الخوف على العارفين من طريق الإلحاد فى التوحيد والتشبيه فى اليقين والوسوسة فى صفات الذات، ويدخل على المريدين من طريق الآفات والشهوات، فلذلك كان خوف العارفين أعظم، فأرواحهم معلقة بالسابقة، ماذا سبق لهم من الكلمة هناك، ومن ثم فزعهم لا يدرون أسبق لهم قَدَم صدق عند ربهم فيُختم لهم بمقعد صدْق، فيكونون ممن قال تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحُسنى أولئك عنها مبعدون، ويخافون أن يكونوا قد حقّت عليهم الكلمة، فيكونون ممن قال فيهم الرسول صلّى الله عليه وسلم يقول الله سبحانه وتعالى هؤلاء فى النار ولا أبالى، فلا ينفعهم شفاعة شافع، ولا ينقذهم من النار دافع، كما قال مولاهم الحق أفَمن حقّت عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ مَنْ فى النار، وكقوله تعالى ولكن حقّ القول منى لأملأن جهنم، فهذه الآية ومعناها تخويف لأولى الأبصار. وقال عالمنا رحمه الله فى قوله تعالى وإياى فاتقّون، عموم أى فيما نهيت عنه، وقوله تعالى وإياى فارهبون، أى فى السابقة وهذا خصوص. وقد نوّع بعض العارفين خوف المؤمنين على مقامين، فقال قلوب الأبرار معلّقة بالخاتمة، يقولون ليت شعرى ماذا يخُتم لنا به، وقلوب المقرّبين معلّقة بالسابقة، يقولون ليت شعرى ماذا سبق لنا به، وهذان المقامان عن مشاهدتين إحداهما أعلى وأنفذ من الأخرى، لحالين أحدهما أتم وأكمل، فهذا كما قيل ذنوب المقربين حسنات الأبرار، أى ما يرغب فيه الأبرار فهو عندهم فضائل قد زهد فيه المقرّبون، فهو عندهم حجاب. ومن حقّت عليه كلمة العذاب، وسبَق له من مولاه الختم بسوء الاكتساب لم ينفعه شىء، فهو يعمل فى بِطالة لا أجر له ولا عاقبة. وقد روينا فى الخبر واللّه لا يقبل اللّهُ تعالى من مبتدع عملاً أنه ردّ على الله تعالى سُنّته فردّ عليه عمله، كلما ازداد اجتهادا ازداد من الله تعالى بُعدا، كما قال الحكيم:

مَن غُصّ داوىَ بشُرب الماء غصته * بل كيف يصنع مَنْ أقصاه مالكُه
فكيف يصنع من قد غص بالماء * فليس ينفعه طبُ الأطـــــباء

وعن مشاهدة هذا المعنى كان خوف **الحسن البصرى** رحمه الله تعالى، وحزنه، لعلمه بأنه عزّ وجّل لا يبالى ما فعل، فخاف أن يقع بوصف الجبرية فى ترك المبالاة، وأن يجعله نَكالا لأصحابه وموعظةً لأهل طبقته، ويقال إنه ما ضحك أربعين سنة، وكنت إذا رأيته قاعداً كأنه أسير قُدِمّ ليُضرَب عنقُه، وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها، وإذا سكت كأن النار تسعّر بين عينيه. وعوتب فى شدة حزنه فقال ما يؤمننى أن يكون قد اطّلع علىّ فى بعض ما يكره فمقّتنى فقال اذهْب فلا غفرتُ لك، فأنا أعمل فى غير معمل. فنحن أحق بهذا من الحَسَن رحمه الله، ولكن ليس الخوف يكون لكثرة الذنوب فلو كان كذلك لكنا أكثر خوفا منه، إنما يكون لصفاء القلب وشدّة التعظيم لله تعالى. وقد بُشِّر **العلاء بن زياد العدوى** بالجنة وكان من العبّاد، فغلّق عليه بابه سبعاً ولم يذق طعاما وجعل يبكى ويقول أنا أنا فى قصة طويلة، حتى دخل عليه الحسن فجعل يعذله فى شدة خوفه وكثرة بكائه، فقال يا أخى من أهل الجنة إن شاء الله تعالى، أقاتلٌ نفسك؟ فما ظنك برجل يعذله الحسن فى الخوف؟ وقد كان مَن فوقهم من علْية الصحابة يتمنون أنهم لم يُخلقوا بشراً وقد بُشّروا بالجنة يقينا فى غير خبر. من ذلك قول **أبى بكر** رضى الله عنه ليتنى مثلك يا طير، وأنى لم أُخلق بشراً، وقول **عمر** رضى الله عنه ودَدتُ أنى كنتُ كبشاذبحنى أهلى لضيفهم، **وأبوذر** رضى الله عنه يقول وددتُ أنى شجرة تعضد، **وطلحة والزبير** رضى الله عنهما يقولان وددنا أنالم نخْلق، **وعثمان** رضى الله عنه يقول وددت أنى إذا مت لا أُبعث، **وعائشة** رضى الله عنها تقول ودتُت أنى كنت نسياً منسيا، **وابن مسعود** رضى الله عنه يقول ليتنى أنى أكون رمادا. وفى رواية عنه ليتنى كنت بعرة، ليتنى لم أك شيأ! هذا ما كان من أمر هؤلاء بينما نحن فى ارتكاب الكبائر، وتحدثنا نفوسنا بالدرجات العلى والقُرب من سدرة المنتهى، ونسينا أن أبانا آدم صلوات الله عليه أُخرج من الجنة بعد أن دخلها بذنب واحد. وها نحن لم نرها بعد فإنما نضرب فى حديد بارد!

وروينا فى خبر أن رجلا من أهل الصفّة استُشهد فقالت أمه هنيأ لك عصفور من عصافير الجنة، هاجرتَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقُتلتَ فى سبيل الله تعالى، فقال النبى

صلى الله عليه وسلم وما يدريك فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع مالا يضره. وفى حديث آخر بمثل هذه القصة أنه دخَل على بعض أصحابه وهو عليل، فسمع أمه تقول هنيأً لك الجنة، فقال من هذه المُتألّية على الله عز وجل، فقال الرجل هى أمى يا رسول الله، فقال وما يدريكِ لعل فلاناً كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يُغنيه. وروينا بمثل معنى هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم صلّى على طفل منفوس، ففى رواية أنه سُمِع يقول له فى دعائه.. اللّهم قِهِ عذاب القبر وعذاب جهنم. وفى رواية ثانية أنه سَمَع قائلةً تقول هنيأ لك عصفورٌ من عصافير الجنة، فغضب وقال ما يدريك أنه كذلك، والله إنى رسول الله وما أدرى ما يصنَع بى. إن الله عزّ وجّل خلَق الجنة وخلَق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً. لا يُزاد فيهم ولا يُنقص منهم. وقد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة عثمان بن مظعون، وكان من المهاجرين الأوَل واستشُهد، لماّ قالت أم سلَمة رضى الله عنها ذلك. وكانت تقول والله لا أزكّى أحدا بعد عثمان رضى الله عنه. وأعجب من ذلك أنّا روينا عن **محمد بن الحنفية** رضى الله عنه أنه قال والله لا أزكّى أحدا غير رسول الله عليه وسلم، ولا أبى الذى ولدنى.

فهذه المعانى هى التى أحرقت قلوب الخائفين. ولعل ذِكْر البُعد فى الإبعاد الذى شيّب الحبيب القريب فى قوله صلى الله عليه وسلم شيبّتنى هود وأخواتها، سورة الواقعة، وإذا الشمس كوّرت، وعمّ يتساءلون. لأن فى سورة **هود** ألا بُعْداً لثمود. ألاَ بعُداً لعاد قوم هود. ألاَ بُعداً لمدين كما بَعُدت ثمود. وفى سورة **الواقعة** ليس لوقعتها كاذبة، يعنى وقَعَت السابقة لمن سبقت له وحقّت الحاقّة بمن حقّت عليه."خافضةٌ رافعة، خفضّت قوما فى الآخرة كانوا مرفوعين فى الدنيا حين ظهرت الحقائق، وكُشفت عواقب الخلائق. وأما سورة **التكوير** ففيها خواتم المصير، وهى صفة القيامة لمن أيقن، وفيها تَجلّى معانى الغضب لمن عاين. آخر ذلك وإذا الجحيم سُعِرت، وإذا الجنة أُزلفت، علمت نفس ما أحضرت، هذا فصل الخطاب، أى عند تسعير النيران واقتراب الجنان، حينئذ يتبين للنفس ما أحضرت من شر يصلح له الجحيم، أو خير يصلح له النعيم، وتعلم إذذاك من أى أهل الداريْن تكون، وفى أى منزلين تحل، فكم من قلوب قد تقطّعت حسرات على الإبعاد من الجنان بعد اقترابها، وكم من نفوس تصاعدت زفرات عن يقينها بمعاينة النيران أنها تصيبها. وكم من أبصار ذليلةٍ خاضعة لمشاهدة الأهوال. وكم من عقول طائشة لمعاينة الزلزال.

وحدّثنا عن **أبى محمد سهل** رحمه الله تعالى، قال رأيت كأنى أُدخلت الجنة فلقيت فيها ثلثمائة نبى،فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون فى الدنيا، فقالوا لى **سوء الخاتمة**، فالخاتمة هى من مكر الله تعالى الذى لا يوصف ولا يُفطن له، ولا عليه يوقف. ولا نهاية لمكره لأن مشيئته وأحكامه لا غاية لها. ومن ذلك الخبر المشهور أن النبى صلى الله عليه وسلم وجبريل بكيا خوفاً من الله تعالى، فأوحى الله إليهما لِمَ تبكيان وقد أمّنتكما، فقالا ومَن يأمن مكرك. فلولا أنهما علما أن مكره لا نهاية له، لأن حكمه لا غاية له، لم يقولا ومن يأمن مكرك مع قوله قد أمّنتكما ولكان قد انتهى مكره بقوله، ولكانا قد وقفا على آخر مكره، ولكن خافا من بقية المكر الذى هو غيْب عنهما. وعلما أنهما لا يقفان على غيْب الله تعالى إذ هو علاّم الغيوب، فلا نهاية للعلاّم فى علم، ولا غاية للغيوب بوصف، فكأنهما خافا أن يكون قوله تعالى قد أمّنتكما مكرى مكراً منه أيضا بالقول على وصف مخصوص، عن حكمة قد استأثر بعلمها، يختبر بذلك حالهما، وينظر كيف يعملان تعبُّداً منه لهما به، كما اختبر خليله عليه السلام لمّاهوى به المنجنيق فى الهواء فقال حسبى الله ربى، فعارضه جبريل عليه السلام فقال ألك حاجة، قال لا، وفاءً بقوله حسبى الله، فصدق القول بالعمل، فقال الله تعالى وإبراهيم الذى وفىّ، أى بقوله حسبى الله. وبمثل هذا المعنى وصَف صفيّه موسى فى قوله تعالى فأوجس فى نفسه خيفةً موسى، بعد قوله تعالى لا تخافا إننى معكما الآية، فلم يأمن موسى أن يكون قد أسرّ عنه فى غيبه واستثنى فى نفسه سبحانه مالم يظهره له فى القول، لمعرفة موسى عليه السلام بخفّى المكر، ولعلمه أنه لم يعطه الحُكم إذ هو محكوم عليه مقهور، فخاف خوفاً ثانياً حتى أمّنه أمناً ثانيا بحكم ثان فقال لا تخف إنك أنت الأعلى، فاطمأن إلى القائل، ولم يسكن إلى الإظهار الأول لعلمه بسَعة علمه أنه هو علامّ الغيوب التى لا نهاية لها، ولأن القول أحكام، والحاكم لا تحكم عليه الأحكام، كما لا تعود عليه الأحكام، وإنما تُفصّل الأحكام من الحاكم العلاّم، ثم تعود على المحكومات أبداً، ولأنه جلّت قدرته لا يلزمه ما لزم الخلق الذين هم تحت الحكم، ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا عند من عرفه فأجلّه وعظّمه عن معارف مَن جَهله. ومِن هذا قول عيسى عليه السلام إن كنت قلتُه فقد علمتَه تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك، لماّ قال له أأنت قلتَ للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله. ومثل هذا قوله فى يوم القيامة إنْ تعذبهم فإنهم عبادك الآية، فجعلهم فى مشيئته لعزّته وحكمته. ولا يصلح أنْ نكشف حقيقة ما فصلّناه فى كتاب، ولا ينبغى أن نرسم مارمزناه من الخطاب،

خشية الإنكار، وكراهة تفاوت علم أهل المعقول والمعيار، إلاّ أن يَسأل عنه من أُقيم فيه وأُريد به من ذوى القوة والإبصار، فينُقل من قلب إلى قلب فحينئذ يتلوه شاهدٌ منه، أو يكشفه علاّم الغيوب فى سرائر القلوب بوحى الإلهام، ويقذفه بنور الهدى للإعلام، والله الموفق لمن شاء من العباد لما شاء من الحيْطة بالعلم، وهو الفتاّح العليم إذا فتح القلبَ علمُه، وإذا نوّره باليقين وألهمه.

ومَنْ خَوف العارفين علمُهم بأن الله تعالى يخوّف عباده بمن شاء من عباده الأعلين، يجعلهم نَكالا للأدنين، ويُخوّف العموم من خلقه بالتنكيل ببعض الخصوص من عباده، حكمةً له وحُكما منه،فعند الخائفين فى عِلمهم أن الله تعالى قد أخرج طائفة من الصالحين نَكالا خوّف بهم المؤمنين، ونكل طائفة من الشهداء خوّف بهم الصالحين،وأخرج جماعة من الصدّيقين خوّف بهم الشهداء، والله تعالى أعلم بما وراء ذلك، وقد أخرج جماعة من الملائكة وعَظَ بهم النبيّين، خوّف بهم الملائكة المقربين، فصار من أهل كل مقام عِبرة لَمن دونهم، وموعظة لمن فوقهم، وتخويف وتهديد لأولى الأبصار، وهذا داخل فى بعض تفسير قوله عز وجل آتيناه آياتنا فانسلخ منها، قال بعض أهل التفسير فى أخبار بلعم بن باعوراء أنه أوتى النبوة، والمشهور أنه أوتى الاسم الأكبر فكان سبب هلاكه، وهو مقتضى وصفٍ من أوصافه، وهو ترك المبالاة بما أظهر من العلوم والأعمال، فلم يسكن عند ذلك أحد من أهل المقامات فى مقام، ولا نظَر أحد من أهل الأحوال إلى حال، ولا أمِنَ مكر اللهَّ تعالى عالمٌ به فى كل حال. كيف وقد سمعوه تبارك وتعالى يقول إن عذاب ربهم غير مأمون، فأجهل الناس مَنْ أمِنَ غيْر مأمون، وأعلَمُهم مَنْ **خاف فى الأمن** حتى يَخرج من دار الخوف إلى مقام أمين، وهذا خوفٌ لا يقوم له شىء، وكربٌ لا يوازيه مقام ولا عمل، ولولا أن الله تعالى عدّله بالرجاء لأخرِج إلى القنوط، ولولا أنهّ روّحه بروْح الأنس بحُسن الظن لأدُخل فى الإياس، ولكن إذا كان هو المعُدِّل وهو المروِّح، فكيف لا يعتدل الخوف والرجاء، ولا يمتزج الكرب بالروْح فالرضا؟ حكمةٌ بالغة وحُكمٌ نافذٌ لعلم سابق وقَدَرٍ جارٍ ما شاء الله تعالى، ولا قوة إلاّ بالله. وفى شهود ماذكرناه علمٌ عن مشاهدة توحيد لمن أشْهده. فأقل ما يفيد علم هذا الخائفين ترك النظر إلى أعمالهم، ورفع السكون إلى علومهم، وصِدْقَ الافتقار فى كل حال. ودوام الانقطاع بكل همّ، والإزراء على النفس فى كل وصف، وهذه مقامات لقوم فيكون هذا الخوف سبب نجاتهم من هذه الوقائع، إذ قد جعل الله تعالى التخويف أمْنةً من الأخذ بالمفاجاة، وسبباً للرأفة والرحمة لمن ألبسه

إياه، وهو أحد الوجهين فى قوله تعالى أَفَأمِنَ الذين مكروا السيآت أنْ يخسف الله بهم الأرض الآية، ثم قال تعالى أو يأخذهم على تخوّف فإن ربكم لرؤوف رحيم. وليس يصلح أيضا أن نكشف سر المخاوف من الخاتمة والسابقة، لأن ذلك يكون عن حقائق معانى الصفات التى ظهرت عن حقيقة الذات فأظهرت بدائع الأفعال.

هذا غير مأمور به ولا مأذون فيه، لأنه لا يجب فلم يؤمر به، ولأنه لم يُبَح فلم يؤذَن فيه، وهو من سر القَدَر وقد نُهى عن إفشائه فى غير خبر، ولو لم يطّلع الأولياء عليه لما قيل، فلا تفشوه.

ولا يحل للعلماء أيضا كشف **علامات سوء الخاتمة** فيمن رأوها فيه لأن لها علامات جلية عند المكاشفين بها، وأدلة خفية عند العارفين المشرف بهم عليها، ولكنها من سر المعبود فى العبد خبيئةٌ فى خزائن النفوس، وسيخرج ذلك الخباء يوم تُبلى السرائر عند غضبه وعظيم سطوته، فماله من قوةٍ من عمل ولا ناصر من علم، لا قوّة له فينتصر بها لأن النصرة عزة وهو ذليل، ولا ناصر لأن الناصر هو الخاذل والمقوّى هو المضعف، فما أسوأ حال من لا ينصر نفسه وليست له من مولاه صحبة، ولو صحبه لنصره، ولو نصره لأعزّه، ولو ولِيه لهرب منه عدوّه، قال تعالى لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منها يُصحبون، وقال تعالى قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض الآية، فمن حكمته غَفَره، ومن رحمته ستَره، وقال تعالى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون، فهذه العلوم التى ذكرناها توجب حقائق المخاوف، وهى من سر المِلك وخِباء الملكوت .

وللعبد عند الموت علامات ليس يخفى على العارف بسوء الخاتمة بها لمشاهدته لها، وللأحياء علامات عند المكاشفين على الاطلاع يعرفون بها سوء الخاتمة منهم، وهذا علم مخصوص بمن أقيم مقام المكاشفات وهو سرّ علاّم الغيوب عند من أطلعه عليه من أهل القلوب، لأن الكشف يتنوّع أنواعاً من المعانى، فمنه كشف معانى الآخرة، ومنه كشف بواطن الدنيا، ومنه الاطّلاع على حقائق الأشياء المستورة لظواهر الأحكام، فهذا من سر الملكوت ومن معانى كشوف الجبروت. وقد جاء فى خبر القدرُ سرُّ الله فلا تفشوه، فهذا خطاب لمن كوشف به. وفى خبر آخر ستْرُ الله فلا تكشفوه، فهذا خطاب لمن لم يكاشف به، وهذا نهى عن السؤال عنه، وهو داخل فى قوله تعالى ولا تَقْفُ ماليس لك به علم، أى لا تتبع نفسُك علِم ما لم تُكلّف، ولا تسأل عمّا لم يُجعل من علمِك ولم يوكل إليك، ولأنه إذا علِمه لم ينفعه علمُه شيئاً،

وإنما ينفعه علم الأحكام والأسباب لأنها طرقات. ويمثل مخاطبة المؤمنين خاطب أنبياءه عليهم السلام فى هذا المعنى، فى قوله تعالى لنوح عليه السلام حين قال إن ابنى من أهلى وإن وعْدَك الحق، لأنه قد كان وعَدَه نجاة أهله، فقال سبحانه وتعالى إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فلا تسألنى ماليس لك به علم، أى دعاءك ومسألتك لى مالم أجعله من علمك ولم أكِلْهُ إليك عَمَلٌ غير صالح، فعندها استغفر ربه واسترحمه.

والعبد عند موته فى آخر ساعة من عمره يُكشف له عند كشف الغطاء عن بصره وجوه كثيرة قد اتخذت آلهة من دون الله أو أُشرك بها مع الله تعالى، وكلها تزيين وغرور، فإنْ وقف القلب مع أحدها، أو زُيِّن له بعضها، أو تقلّب قلبه فى شىء منها عند آخر أنفاسه، خُتِم له بذلك فخرجت روحه على الشك أو الشرك، وهذا هو سوء الخاتمة، وهو نصيب العبد من الكتاب فى السابقة، عند خلق الأرواح معدومةً لها فى الأشباح فى الآباد والآزال قبل إظهار الأكوار والأدوار، فشهدتها الأرواح هناك غرورا .ومن ذلك جاء فى الأثر يأخذ ملَكَ الأرحام النُطفة فى يده فيقول يا رب أذكرٌ أم أنثى، أسَوّى أم مُعْوّج، ما رزقُه وما عمله، ما أثرُه، وما خُلُقه ؟ قال ثم يخلق الله تعالى على يده كما قال، فإذا صوّره قال يارب أنفخ فيه بالسعادة أو بالشقاوة؟ فلذلك خرجت الروح بما دخلت به، فأما إنْ كان من المقربين فروْح وريحان وجنةُ نعيم، وأمّا إنْ كان من أصحاب اليمين فسلامٌ لك من أصحاب اليمين، وأمّا إنْ كان من المكذّبين الضّالين فنُزلٌ من حميم وتصْليةُ جحيم، كما بدأ كم تعودون، فريقاً هدى وفريقا حقّ عليهم الضلالة، كما بدأنا أوّل خلق نعيده، ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى، وقال سبحانه وتعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى، إنّ الذين حقّت عليهم كلمةُ ربك، ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون، إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين. فهذه الآى ونظائرها وردت فى السوابق الأُول والخواتم الأُخَر، وفيها سرائر الغيوب وغرائب الفهوم، وهى من آى المطلع لأهل الأشراف على شرفات العرش والأعراف.

وقال بعض العارفين لو علمتُ أحداً على التوحيد خمسين سنة، ثم حالت بينى وبينه اسطوانة فمات، لم أقطع له بالتوحيد لأنى لا أدرى ما ظهر من التقليب. وقد كان **أبو محمد سهل** رحمه الله يقول **خوف الصديقين** من سوء الخاتمة عند كل حركة وكل خطرة وهمّة،

يخافون البعد من الله تعالى وهم الذين مدح الله تبارك وتعالى وقلوبهم وجلة. وقال لا يصح خوفه حتى يخاف من الحسنات كما يخاف من السيآت. وقال أيضا أعلى الخوف أن يخاف سابق علم الله تعالى فيه، ويحذر أن يكون منه حدث خلاف السّنة يجرّه إلى الكفر. وقال خوف التعظيم ميزان خوف السابقة. وكان بعض العارفين يقول لو كانت الشهادة على باب الدار، والموت على الإسلام عند باب الحجرة، لاخترت الموت على الشهادة، قيل ولِمَ، قال لأنى لا أدرى ما يعرض بقلبى من المشاهدة فيما بين باب الحجرة وباب الدار فيغير التوحيد.

وروينا عن **زهير بن نعيم البانى** قال ما أكبر همى ذنوبى، إنما أخاف ماهو أعظم علىّ من الذنوب وهو أن **أسلب التوحيد** وأموت على غيره. وروى ابن المبارك عن أبى لهيعة عن **بكر بن سوادة** قال كان رجل يعتزل الناس، أينما كان يكون وحده، فجاء أبو الدرداء فقال أنشدك الله تعالى ما يحملُك على أن تعتزل الناس، قال إنى أخشى أن أُسلب دينى وأنا لا أشعر، قال أترىَ فى الحىّ مائة يخافون ما تخاف، فلم يزل يُنقص حتى بلغ عشرة، قال فحدثت بذلك رجلا من أهل الشام، فقال ذلك شرحبيل بن سمط، يعنى من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم. وقد كان **أبو الدرداء** يحلف بالله تعالى ويقول ما أحدٌ أمِنَ على إيمانه أن يُسلَبه عند الموت إلا سُلِبه. وقد كان بعض علمائنا يقول من أُعطىَ التوحيد أُعطِيَه بكماله، ومن مُنِعه مُنِعه بكماله، إذ التوحيد لا يتبعض. ولمّا احتضَر **سفيان الثورى** رضى الله عنه جعل يبكى، فقيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم من ذنوبك، فقال أوَ علَى ذنوبى أبكى؟ لو علمت أنى أموت على التوحيد لم أُبال أن ألقى الله تعالى بأمثال الجبال من الخطايا. وقال مرة ذنوبى أهون من هذه، ورفع حبةً من الأرض، إنما أخاف أنْ أُسلب التوحيد فى آخر الوقت. وقد كان رحمه الله أحد الخائفين، وكان يبول الدم من شدة الخوف، وكان يمرض المرْضَة من المخافة، وعُرِض بوْله على بعض الكتابين فقال هذا بوْل راهب من الرهبان، وكان يلتفت إلى حمّاد بن سَلَمة فيقول يا أبا سلمة ترجو لمثلى العفو أوَ يُغفر لمثلى، فيقول له حمّاد نعم أرجو له. وقد كان بعض العلماء يقول لو أنىّ أيقنتُ أن يُختم لى بالسعادة كان أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس فى حياتى أجعله فى سبيل الله تعالى. وحدثنى بعض إخوانى عن بعض الصادقين وكان خائفاً، أنه أوصى بعض إخوانه فقال، إذا حضرتنى الوفاة فاقعدْ عند رأسى، فإذا عاينتُ فانظر إلىّ فإنْ رأيتنى متُّ على التوحيد فاعمد إلى جميع ما أملكه فاشتر به لوْزاً وسكّراً وانثره على صبيان أهل المدينة، وقل هذا عُرْس المُنفلت. وإن

رأيتنى متّ على غير التوحيد فأعْلِم الناس أنى قد متّ على غير التوحيد حتى لا يغتّروا بشهود جنازتى، ليَحضر جنازّتى من أحبّ على بصيرة، لئلا يلحقنى الرياء فأكون قد خدعتُ المسلمين. قال فنفّذت وصيته كما أمر، ولم أحدّث بذلك إلاّ خصوص إخوانى من العلماء، وذلك أن العبد مهما عمل فى حياته من سوء أعيد ذِكْره عليه عند فراق الحياة، ووقعت مشاهدته فيه عند آخر ساعة من عُمره، فإن استحلى ذلك بقلبه أو استهواه بنفسه وقف معه، فإذا وقف معه حُسِب عليه عملا له وإنْ قل، وكان ذلك خاتمته، وكذلك ماعمل من خير أعيد ذِكْره ومشاهدتُه عليه، فإنْ عقدَ عليه بقلبه أو أحّب، وقَفَ معه فُحسِبَ عملاً له، وكان ذلك حُسن خاتمته.

وقال بعض هذه الطائفة فى قول الله تعالى خلق الموت والحياة ليبلوكم، قال يبلوكم بتقليب القلوب فى حال الحياة بخواطر الذنوب، وفى حال الموت بإلحاد عن التوحيد، فمن خرجت روحه على التوحيد وجاوزت البلاوى كلها إلى المُبلىِ فهو المؤمن، وذلك هو البلاء الحَسن كما قال الله تعالى وليُبلى المؤمنين منه بلاءً حسنا .فهذه المعانى من العلوم أوجبت خوف الخائفين من علم الله تعالى فيهم، فلم ينظروا معها إلى محاسن أعمالهم لحقيقة معرفتهم بربهم. وهذا الخوف هو الثواب لعلمهم بما يعلمون، فلما سلِموا من مطالبه بما يعلمون ظهر لهم خوف علم الله تعالى فيهم نعمةًمن الله تعالى عليهم، فكان ذلك مقاماً لهم، كما قال الله تعالى قال رجلان من الذين يخافون أنْعم الله عليهما ، قيل بالخوف.

والمقام الآخر لأصحاب اليمين دون هؤلاء خوف الجنايات والاكتساب، وخوف الوعيد وسر العقاب، وخوف التقصير فى الأمر، وخوف مجاوزة الحد، وخوف سلب المزيد، وخوف حجاب اليقظة بالغفلة، وخوف حدوث الفترة بعد الاجتهاد عن المعاملة، وخوف وَهَن العزم بعد القوّة، وخوف نكث العهد بنقص التوبة، وخوف الوقوع فى الابتلاء بالسبب الذى وقَعت منه التوبة، وخوف عوْد الاعوجاج عن الاستقامة، وخوف العادة بالشهوة، وخوف الحور بعد الكور وهو الرجوع عن الحُجة إلى طريق الهوى وحرث الدنيا، وخوف اطّلاع الله تعالى عليهم عندما سلف من ذنوبهم، ونظره إليهم على قبيح فعلهم فيعرض عنهم ويمقتهم، وهذه كلها مخاوف وطرْقات لأهل المعارف، وبعضهما أعلى من بعض، وبعضهم أشد خوفا من بعض.

ومن المخاوف **خوف النفاق**، وقد كان السلف الصالح من الصحابة رضى الله عنهم وخيار التابعين يخافون ذلك، وكان حذيْفة رضى الله عنه يقول كان الرجل ليتكلم بالكلمة على

عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا حتى يلقى الله تعالى،وكان يقول تأتى على القلب ساعة يمتلىء بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مَغْرَز إبرة، وتأتى عليه ساعة يمتلىء بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة. وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر، وفى لفظ آخر من الموبقات. وقد كان الحسن رحمه الله يقول لو أنى أعلم أنى برىء من النفاق كان أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس. وقيل لا يَعْرَى من النفاق إلا ثلاث طبقات من المؤمنين: **الصدّيقون والشهداء والصالحون**، وهؤلاء الذين مدحهم الله تعالى بكمال النعمة عليهم، وألحقهم بمقامات أنبيائه، لكمال الإيمان وحقيقة اليقين فيهم. وقيل من أمِن من النفاق فهو منافق. وكان بعضهم يقول **علامة النفاق** أن يكره من الناس ما يأتى مثله، وأن يحب على شىء من الجور، وأن يبغض على شىء من الحق. ومن النفاق من إذا مُدِح بما ليس فيه أعجبه ذلك. وعلامات النفاق أكثر من أن تحصى، يقال هى **سبعون علامة**. والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أربع هن أصولها تتشعب منها الفروع، فقال عليه السلام أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإنْ صام وصلى وزعم أنه مسلم، وإن كانت فيه خصلة منهن ففيه شُعبة من نفاق حتى يدَعها: من إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتُمن خان، وإذا خاصم فجر. وفى لفظ آخر إذا عاهد غدر فصارت خمسا. وقال رجل لابن عمر رضى الله عنهما إنّا ندخل على هؤلاء الأمراء ونصدقّهم بما يقولون، فإذا خرجنا تكلمنّا فيهم، فقال كنّا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروينا عنه من طريق آخر أنه سمع رجلا يذم الحجّاج ويقع فيه، فقال له أرأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تتكلم بما تكلمت به، قال لا، قال كنّا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأشدّ من ذلك أنّ نفراً قعدوا على باب حُذَيْفة رضى الله عنه ينتظرونه، فكانوا يتكلمون فى شىء من شأنه، فلما خرج عليهم سكتوا حياءً منه، فقال تكلموا فيما كنتم تقولون، فسكتوا فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم. وأعظم من هذا ما كان **الحسن** رحمه الله يذهب إليه، كان يقول إنّ من النفاق اختلاف السرّ والعلانية، واختلاف اللسان والقلب، والمدخل والمخرج.

فدقائق النفاق وخفايا الشرْك عن نقصان التوحيد وضعف اليقين أوجبت المخاوف على المؤمنين، خشية مَقْت الله تعالى، وخوْف حبوط الأعمال. من ذلك ما كان **ابن مسعود** رضى

الله عنه يقول إن الرجل ليخرج من منزله ومعه دينه فيرجع إلى منزله وليس معه من دينه شىء، يلقى الرجل فيقول إنك لذيت وذيت، ويلقى الآخر فيقول لأنت وأنت، وقد سخط الله تعالى به التزكية لما لا يعلم، والمدح لمن يستحق الذم، واختلاف قلبه ولسانه، ففى هذا مقت من الله تعالى.

وفوق هذه المخاوف **خوف سلب الإيمان** الذى هو عندك فى خزانة المؤمن يُظهره كيف شاء، ويأخذه متى شاء، لا يدرى أهبةً وهبه لك فيبقيه عليك لكرمه، أو وديعةً وعارية أودعك إياه وأعارك فيأخذه لعدله وحكمته، وقد أخفى عنك حقيقة ذلك واستأثر بعاقبته. وقال أبو الدرداء ما أحدٌ أمِنَ من أن يُسلب إيمانه إلا سلُبه. أفرأيت الوقتَ الذى قال حُذيفة يأتى على القلب ساعة فيمتلىء نفاقا حتى لا يكون فيه للإيمان مغرز إبرة، إنْ صادف الموت ذلك الوقت وكان هو آخر وقت أليس تخرج روحه على النفاق، وكذلك تقليبات القلوب فى معانى الشرك وتلويحات الشك، إنْ وافق وقت الوفاة كان خاتمته عند لقاء مولاه. وإنما سُميت الخاتمة لأنها آخر عمله، وآخر ساعة من العمر، وخاتم الشئ آخره، ومن ذلك قوله تعالى وخاتم النبيين أى آخرهم، ومثله ختامه مسك، وخاتمه مسك، أى آخر الكأس بدلاً من الثُفْلِ يكون مسكا.

ومن المخاوف **خوف قطع المزيد من علم الإيمان** مع بقية المعرفة المبتدأة ليكون مستدرَجا بها، كما قال بعض العلماء إن الله تبارك وتعالى إذا أعطى عبداً معرفة فلم يعامله بها لم يسلبه تلك المعرفة، ولكن بقاؤها فيه حجة عليه ليحاسبه على قدرها، وإنما يقطع عنه المزيد، وقد يُقسّى قلبه ويُجرى عينه. وقال **مالك بن دينار** قرأت فى التوراة إذا استكمل العبد النفاق ملك عينيّه فيبكى متى شاء. وقد كانوا يستعيذون بالله عز وجل من **بكاء النفاق** وهو أن يُفتح للعبد ألوان البكاء ويُغلق عنه باب الذل والخشوع. وقد قال الله عز وجل وجاؤا أباهم عشاءً يبكون. وكان السلف أيضا يقولون استعيذوا بالله من **خشوع النفاق**، قيل وما هو، قال أن تبكى العين والقلب قاس، فَلأَن يُعطَى الإنسان رقة القلب فى جمود عينٍ خيرٌ من أن يُعطَى دموع عين فى قسوة قلب. ورقة القلب عند أهل القلوب هو خشوعه وخوفه وذُله وانكساره وإخباته، فمَن أعطاه هذا فى قلبه لم يضُره ما منعه من بكاء عينه، فإنْ رجح له بفيض العين فهو فضلٌ، ومَن أعطاه بكاء العين وحرمَه خشوع القلب وذُله وخضوعه وإخباته فهو مكّر به، وهذا هو حقيقة المنع وعدم النفع. وجُملة بكاء العين إنما هو فى علم العقل، فأمّا

علم التوحيد بمشاهدة اليقين فلا بكاء فيه، وقد وصف الله تعالى الباكين أنّ البكاء يزيدهم خشوعا فى قوله تعالى يبكون ويزيدهم خشوعا، فإذا زادنا البكاء كِبْراً وفخرا علمنا بذلك عدم الخشوع فى القلب فكان تصنيعاً وعُجبا.

وهذا الذى ذكرناه هو جُمل خوف العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وهم أبدال النبيين وأئمة المتقين أولو القوّة والتمكين. وسئل **أبو محمد** رحمه الله هل يعطى الله أحدا من الخوف مثقالاً، فقال من المؤمنين مَن يُعطَى من الخوف وزن الجبل، قيل فكيف يكون حالهم؟ يأكلون وينامون وينكحون؟ قال نعم يفعلون ذلك، والمشاهدة لا تفارقهم، والمأوى يُظلهم، قيل فأين الخوف؟ قال يحملُه حجابُ القُدرة بلطيف الحكمة، ويُستَر القلب تحت الحجاب فى التصريف بصفات البشرية، فيكون مثل هذا العبد مثل المرسلين، فسبحان من ستر القدرة ومعانيها بالحكمة وأسبابها، حلماً منه ورحمة، وتطريقا للخلق إليه للمنفعة.

وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول الخوف مباينة للنهى، والخشية الورع، والإشفاق الزهد. وكان يقول دخول الخوف على الجاهل يدعوه إلى العلم، ودخوله على العالم يدعوه إلى الزهد، ودخوله على العامل يدعوه إلى الإخلاص. وقال أيضا الإخلاص فريضة لا تُنال إلاّ بالخوف، ولا يُنال الخوف إلاّ بالزهد، فقد صار الخوف يصلح للكافة، إذ دخوله على العامة يُخرجهم عن الحرام، ودخوله على الخاصة يُدخلهم فى الورع والزهد، لأن من خاف ترك. وقال أيضا من أحب أن يرى خوف الله تعالى فى قلبه فلا يأكل إلاّ حلالا، ولا يَصلح علمُ الرجاء إلاّ للخائف.

واعلم أن الخوف عند **العلماء** على غير ما يتصوّر فى أوهام **العامة**، وخلاف ما يعدّونه من القلق والاحتراق أو الوله والانزعاج، لأن هذه خطَرات وأحوال ومواجيد للوالهين، وبمنزلة المواجيد عند بعض الصوفية من العارفين فى أحوال المحبة، من احتراقهم وولههم، وليست من العلم فى شئ، والخوف عند العلماء إنما هو اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة، فإذا أُعطى عبدٌ حقيقة العلم وصدق اليقين سُمى هذا خائفاً، فلذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم من أخوف الخلق لأنه كان على حقيقة العلم، ومن أشدهم حباً لله تعالى لأنه كان فى نهاية القرب، وقد كان حاله السكينة والوقار فى المقامين معا، والتمكين والتثبيت فى الأحوال كلها، ولم يكن وصفُه القلق والانزعاج، ولا الوله والاستهتار، وقد أُعطَى أضعاف عقول الخليقة وعلومهم،

ووَسّع قلبه لهم، وشرح صدره للصبر عليهم، فكان صلى الله عليه وسلم مع الأعرابى كأنه أعرابى، ومع الصبى بمعناه، ومع المرأة فى نحوها، يقاربهم فى علومهم، ويخاطبهم بعقولهم، ويَظهر منه مثلُ وَجْدِهم ليعطيهم نصيبهم من الأنس به، ويوفيهم حقوقهم من الدّرْك منه،ولئلا تعظم هيبته فى صدورهم فينقطعون عن السؤال له والأنس به، حكمةً منه لا يفطنون لها، ورحمة منه قد جُبِل عليها، قد أُلبس مواجيدهم لِبسة، وأُدخل ذلك عليه صِبغة، بغير تكلّف ولا تصنّع، تَعلّم ذلك من الحكيم العليم، فلذلك وصفه عز وجل بخُلُقه، وتعجّب من وصفه، فقال تعالى وإنك لعلى خُلُق عظيم، قيل على أخلاق الربوبية، وقرئت بالإضافة ليكون عِظَم اسم الله سبحانه، بحيث لا يُظهر حاله من قوة التمكين وفضل العقلاء، فلا يتظاهر بشئ لحقيقة الزهد ونهاية الخشوع والتواضع، ولا يَظهر عليه شئ لمكانة القوة ورسوخ العلم والحكمة. وعلى منهاجه وسُنّته وُصِفَ العارفون من أهل البلاء الذين هم الأمثل بالأنبياء.

ومما يدلك أن الخوف اسم لحقيقة العلم أن فى قراءة أبىّ بن كعب فى قوله تعالى فخشينا أن يرهقهما، فخاف ربك أن يرهقهما، وقال يحيى بن زياد النحوى ومعناه فعلِمَ ربك، وقال الخوف من أسماء العلم والله أعلم.

بيان آخر فى معنى الخوف

والخوف أيضا من أسماء المعانى، فوجوده بانتفاء ضِدّه، فإذا عَدِم من القلب الأمن من كل وجه من أحوال الدنيا وأمور الآخرة، فلم يأمن مكر الله تعالى فى كل الأحوال فى تصريف أحكام الدنيا وتقليب حركات القلوب والنفوس، وجوانب الشهوات وإثارة طبائع العادات، ولم يسكن إلى عرف ولا اعتياد، ولم يقطع بسلامته وبراءته فى شئ كان هذا خوفاً، وسمى العبد بفقد الأمن من جميع ذلك خائفاً، فهذا مستعملٌ فاشٍ فى كلام العرب ومذهبهم، يقول أحدهم أخاف من كذا إذا لم يأمنه، وأخاف أن يكون ذا إذا تحقق علمه. وقيل لبعض العلماء ما بال العارف يخاف فى كل حال، فقال لعلمه أن الله تعالى قد يأخذ فى جميع الأحوال. ثم إن للخائفين بعد هذا طرقاً ووجهةً من قِبَل الخوف المقلق والإشفاق المزعج والوّجل المحرق، هى مجاوزات للطرق السابلة التى هى محاج للأئمة المختارة الفاضلة، وفيها متاوه ومهالك نقلت عنها العلماء السادة والصفوة المختارة.

واعلم أن للخوف **سبع مقامات** تفيض إليها من القلب، فقد يفيض الخوف من القلب إلى

المرارة فيحرقها فيقتل العبد، وهؤلاءهم الذين يموتون من الغَشْى والصعق وبداوة الوجه، وهم ضعفاء العمال. وقد يطير الخوف من القلب إلى الدماغ فيحرق العقل فيتيه العبد فيذهب الحال ويسقط المقام. وقد يحل الخوف الرئة فينقبها فيذهب الأكل والشُراب حتى يُسَلّ الجسم وينشف الدم، وهذا لأهل الجوع والطَّىّ والاصفرار. وقد يسكن الخوف الكبد فيورث الكَمد اللازم والحزن الدائم، ويحدث الفكر الطويل والسهو الذاهب، وفى هذا المقام يذهب النوم ويدوم السهر وهذا من أفضلها، وفى هذا الخوف العلم والمشاهدة وهو من خوف العاملين. وقد يقدح الخوف فى الفرائص، والفريصة هى اللّحمة التى تكون على الكتف، يقال للحمتى الكتفين الفريصتان وجمعها الفرائص، ومنه الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفريصتان من اللحم، وهو أرق لحم الحيوان وأعذبه، فمن هذا الخوف يكون الاضطراب والارتعاش واختلاف الحركة. وقد يبدو الخوف من القلب فيغشى العقل فيمحّى سلطانه، فيضطرب لضعفه الجسم فلا يتمكن العبد من القرار لضعف صفته، وذلك أن أجزاء الجسم وإن كانت متفرقة فى البنيان للحكمة والإتقان، فهى كشئ واحد، فأسفل البنية منوط بأعلاها، فإذا اضطرب أعلاها مال أسفلها، وإذا وصل الداء أو الدواء إلى عضو منها تداعى له سائرها، وقد سلك فى هذا الطريق أكابر العلماء وأفاضل أهل القلوب، وقد كان هؤلاء فى التابعين كثير، منهم **الربيع بن خيثم وأويس القرنى وزرارة بن أوفى** ونظراؤهم من الأخيار رضى الله عنهم، ولم يُنكِر هذا عِلْية الصحابة مثل عمر وابن مسعود رضى الله عنهم، وقد كان **عمر** رضى الله عنه يغشى عليه حتى يضطرب مثل البعير ويسقط من قيام. وقد كان ذلك يلحق **سعيد بن جُذَيْم**، وكان من زهّاد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أمراء الأجناد، بعثه عمر رضى الله عنه والياً على أهل الشام، وكان يوصف له من زهده وشدة فاقته ما يعاتبه عمر فى ذلك، ويبعث إليه بالمائة دينار وأربعمائة دينار ليستنفقها على أهله، فيفرّق ذلك على الغُزاة فى قصة طويلة، فكتب إليه أهل الشام يَذكُرون شأنه، وكان يغشى عليه فى مجلسه، فخشوا عليه من دخيلة فى عقله، ولم يعرف ذلك أهل الشام، فسأله عمر لمّا لقيه عن الذى يصيبه إذا تحدث، فأخبره بما يجد من مشاهدته، وهو وجد الصوفية من أهل الأحوال، فعرف عمر ذلك وعذَره، وما زاده ذلك عنده إلاّ خيرا، فكان يُكرمه ويَعرف له فضلَه، وكتبَ إلى أهل الشام أن لا تعنفوا فى أمره ودعُوه. وقد كان أقوى الأقوياء وهادى

الهُداة رسول رب العالمين صلى اللّه عليه وسلم يغشى عليه عند نزول الوحى، إذا لبسه أزال العقل منه، ورفع مكان الكون عنه، ويغط ويتربد وجهه وينحدر منه مثل الجُمان من العَرَق فى اليوم الشاتى، إلاّ أن هذاكان يصيبه فى ضرب من الوحى إذا تغشّاه، لأن الوحى على أربعة أضرب، ضربان متصلان هذا أحدهما، وضربان منفصلان، ومن كل واحد يلحق العلماء باللّه تعالى أهل القلوب، وشرحُ هذا يطول، وليس يعرفه إلاّ مَن سلك طريقه وذاق حقيقته، إلاّ أنّ هذا فى أهل مقامات ثلاث من المقربين، مقام المعرفة والمحبة والخوف.

وقد يفيض الخوف من القلب إلى النفس فيحرق الشهوات ويمحو العادات، ويخمد الطبع ويطفئ شُعَل الهوى، وهذا أحد المخاوف وأعلاها عند أهل المعارف، وهؤلاء أفضل الخائفين وأرفعهم مقاماً، **وهو خوف الأنبياء والصدّيقين وخصوص الشهداء.** ثم إنْ يُعصَم العبد من مجاوزة حد الخوف خرج به الخوف إلى أحد ثلاثة معان، خيرها أن يسرى إلى النفس فيحرقها فيتلف العبد فتكون له شهادة، وليس هذا محمودا عند علماء الخائفين من أرباب العلوم والمشاهدات، إلاّ أنه قد قال بعض العلماء ما شهداء بدر بأعظم أجراً ممن مات وجْداً، وهذه أوصاف ضعاف المريدين، إذ للعلماء الموقنين بكل شهادة من اليقين أجر شهيد، وأوسطها أن يعلو إلى الدماغ فتنحل عقدة العقل فتضطرب الطبائع ثم تختلط المزاجات لاضطرابها، فتحترق الصفراء فتحوّل سوداء، فيكون من ذلك الوسواس والهذيان والتوَه والوله، وهذا مكروه عند العلماء. وقد أصاب ذلك بعض المحبين فى مقام المحبة فانطبق عليهم فولهوا بوجده، ومنهم من فزع ذلك عن قلوبهم فسرى عنهم فنطقوا بعلمه، وقد كان أبو محمد رحمه الله تعالى يقول لإهل التقلل الطاوين المتقشفين احفظوا عقولكم فإنه لم يكن ولى الله ناقص العقل.

ومعنى آخر وهو شرّها فى مجاوزة الخوف، هو أن يعظم الخوف ويقوى فيذهب الرجاء، فيخرجه ذلك إلى القنوط من رحمة الله، والإياس من روح الله تعالى. وأكثر هذه المخاوف كانت فى البصريين وأهل عبادان والعسكريين، فكان مذهبهم القدر والقول باللطف وتفويض المشيئة وتقديم الاستطاعة، منهم العمرية أصحاب عمرو، والعبادية شيعة عبّاد، والفوطية والعطوية أصحاب هشام الفوطى وابن عطاء الغزالى، ومنهم التيمية نفوا نصف القدر، ومنهم

المنازلية أصحاب المنزلة بين المنزلتين والقول بمقدور من قادرين، وفعل من فاعلين، فابتلوا بالاعتماد على الأسباب وبالنظر إلى أولية الاكتساب، فحجبهم ذلك عن المقدّر الوهاب، فهرب هؤلاء من الأمن والاغترار فوقعوا فى أعظم منهما من القنوط والإياس، فصاروا فى كبائر المعاصى من خوفهم منها، فمثلهم مثل الخوارج خرجوا على الأئمة بالسيف لإنكار المنكر، فوقعوا فى أنكر المنكر، من تكفير الأئمة وإنكارهم السلطان، وتكفيرهم الأمة بالصغائر، وهذا من أبدع البدع، وهؤلاء كلاب أهل النار. ومثلهم أيضا مثل المعتزلة هربوا من طريق المُرجئة أنْ الموحدين لايدخلون النار، فحققوا الوعيد على الموحدين، وخلّدوا الفاسقين فى النار، فجازوا حدّ المرجئة وزادوا عليهم، كما جاوزت المرجئة طريق أهل السنة وقصرت عنهم. وكان شيخنا أبو محمد رحمه الله تعالى يقول أهل البدع كلهم يرون الخروج على السلطان، ويرون السيف على الأمة، ويكفّرون الأئمة، فهذا أضر الوجوه فى مجاوزة الخوف عن قدْره، وهو من التعدى لحدود الله تعالى وأمره، قد جعل الله لكل شئ قدرا، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه. فصدْقُ الرجاء واعتدال الخوف به من حقيّة العلم بالله تعالى، ومجاوزة الشئ كالتقصير عنه، والمؤمن حقا هو المعتدِل بين الخوف والرجاء، فالخوف المُتلف للنفس بالموت، أو المُزيل للعقل بالفوت، خير من هذا الوصف الذى هو القنوط، لأن هذا مزيل للعلم ومُسقط للمقام، مُوقع فى الكبائر.

وعلماء الموقنين يُنقلون فى مقامات اليقين بمقتضى أحكامها، من مقام خوف إلى مقام رجاء مثله، فإذا عملوا فى هذه المقامات بما يقتضيهم رُفعوا إلى ما فوقها من مقام رجاء إلى مقام رجاء هو خير منه، ومن حال خوف إلى حال خوف أشرف منه، ثم ينتقلون من مقامات الإشفاق إلى حال الاشتياق، ومن أحوال الوَجل والاحتراق إلى مقام التملق والطمأنينة، ومن حال الفزع إلى مقام الأنس، ومن الإبعاد والوحشة والتهويل إلى الرضا والمحبة والتأميل، فهذا مكان فضلهم على من وقف فى مقامه لم يجاوزه من العموم. وأصل الرجاء وتفضيله أن عند العلماء بالله تعالى من عظيم الرجاء ما يضاهى عظيم الخوف، فلا يطرأ على قلوبهم طارئ من الخوف يهربون منه إلاّ بدا عليهم باد من الرجاء يأنسون إليه، فتعتدل صفاتهم وتستوى مقاماتهم عن معاينة معنى من معانى صفاته لاستواء كمال ذاته، فتكون كلمات

الميزان بين الخوف والرجاء، وتكون كالطائر مقوّما بين جناحيه، فيحمل الخوف الرجاء، ويستولى الرجاء على الخوف، ويفيضان معا فى سعة القلب وقوّته، فيغيبان فيه لأنه قُوِّيَ بقوّيٍ، ووُسّع بواسع، وقادر بمقتدّر، وينفرد الهّم عن المعنيين، ومن هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم بك أحول وبك أقول وبك أصول، ومن ذلك قوله أعوذ بك منك، ومثله قوله ألا كل شئ ماخلا الله باطل، فهذا نطق عن وجْد فى مقام البقاء بعد فقْد حال الفناء، ومن ذلك الأثر المشهور عن الله سبحانه وتعالى لم تسعنى سمائى ولا أرضى ووسعنى قلب عبدى.

وقال بعض علماء السلف ما أُلبس المؤمن لِبْسَةً أحسن من سكينة فى خشوع وذِلّة فى خضوع، فهذان حالان من الخوف، وهى لبسة الأنبياء وسيما علماء الأولياء. وقال **لقمان** لابنه يابنى خفْ الله تعالى خوفا لاتيأس فيه من رحمته، وارجُه رجاًء لا تأمن فيه مكره، ثم فسّره مجملا، فقال المؤمن كذى قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر، ومعنى ذلك أن المؤمن ذو وصفين عن مشاهدتين، لأن المؤمن الأول الشاهد الأعلى ذو وصف مخوف مثل البطش والسطوة والعزة والنقمة، فإذا شهد العبد ما آمن به من هذه الصفات خاف إذ عرفه بها وتجلى له بشاهدها، والمعروف أيضا هو المألوف ذو أخلاق مرجوة من الكرم والرفق والرحمة واللطف، فإذا شهد القلب ما آمن به من هذه الأخلاق رجا من شهده بها، فصار العبد لوصفيْه الرجاء والخوف كذى قلبين، كأنه يرجو بقلب ويخاف بآخر، وإنما هما شهادتان فى قلب واحد لأنهما مقامان لقلب واحد، إلاّ أنّ الخائف يوصف بما غلب عليه من الحال عما قوى عليه من المشاهدة، ويندرج الرجاء فى مقامه، ويوصف الراجى بما قوى عليه من الحال عن غلبة شهادته وينطوى الخوف فى مقامه، فأما الشهيد الموقن العالم المقرب فبالحالين جميعا يوصف مع اعتدالهما، وبالوصفين جميعا يُعرف مع استوائهما، ثم يغلب عليه الوصف التام والحال الكامل، فإذا عُرف به أُدرج الوصفان فيه، فيقال صدّيق لأنه قد تحقق بالصدق فأغنى عن أن يقال مخلص، ثم يقال عارف لأنه قد رسخ فى العلم فكُفِىَ أن يقال صادق، ثم يقال مقرّب لأنه قد أُشهد القرب فاقترب ولم يحتج إلى أن يقال عامل، وهذه أسماء الكمال وأحوال التمام لايفتقر إلى ذكر حال دونها، ولا يوصف بوصف كوصف خائف أو راجٍ لوجودهما فيه واعتدالهما عنده، لأن الخوف والرجاء فاضا عليه ثم غاضا فيه، فإذا قلتَ عارف أو مقرب أو صدّيق فقد دخل فيه وصف محب خائف راج عامل لامحالة، كما إذا قلت فلان هاشمى استغنيت أن تقول قرشى أو عربى، لأن كل هاشمى يكون عربيا قرشياً لا محالة، ثم تصفه

بوصف التمام أيضا فيندرج الوصفان فيه، فيقول فلان حسنّى أو حسينّى فاكتفيت أن تقول هاشميّ أو قرشى أو علوىّ وإن كان هاشميا قرشيا علويا، لأنه قد عُرِف أنّ كل حسينى فهو هاشمى قرشى علوى لا محالة.

ومن أفضل طرقات الخائفين ما سرى خوفه إلى النفس قاطعاً شُغل الهوى، وأخمد نار الشهوات فسقطت له أثقال المجاهدة، وخفّت عنده مؤنة المكابدة، ووجدت معه حلاوة الطاعة لفقد حلاوة المعصية، واجتمع لهم بالحق عند زوال التشتت بالهوى والخلْق، وسكنت النفس بالطمأنينة، وظهر نعيم الزهد والرضا، ثم سكن الخوف فى القلب بعد ذلك ولم يجاوزه فيتعدى الحد إلى بعض المفائض التى ذكرناها، بل كان منه الحزن الدائم والهمّ اللازم والخشوع القائم، وهذا هو وصف القلب المنكسر وحال العبد المنجبر الذى يوجد عنده الجبار، فجَبَره بعد كسْرِه فصَلُح له بعد أن عُطّل من غيره، وصار مزيد العالم الخائف من الله تعالى كشوْف اليقين، وتنقيله لديه فى شهادة المقربين، فكان القريب لديه موجودا، وصار الحبيب عنده مطلوبا، لأنه من المنكسرة قلوبهم من أجله، وبأنه صار عنده من أهله. واعلم أن الذى قطع الخلق عن هذه حلاوة الهوى، ولا يخرجها إلاّ أحد كأسين، تجرّع مرارة الخوف فيغلب حلاوة الهوى فيخرجه، أو غلبة حلاوة المحبة فيستغرق حلاوة الهوى فيغمره، فإنْ عَدِم أحد هذين فهو من المذبذبين بين ذلك. وروينا أن علياً رضى الله عنه قال لبعض الخائفين وقد تاه عقله فأخرجه الخوف إلى القنوط، ما أصارك إلى ما أرى، فقال ذنوبى العظيمة، فقال ويحك إن رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك، فقال إن ذنوبى أعظم من أن يكفّرها شئ، فقال إن قنوطك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك.

والخوف جند من جنود اللّه تعالى قد يستخرج من قلوب المريدين والعابدين ما لا يستخرجه الرجاء، فتستجيب له القلوب المرادة به بنهايات الزهد وحقائق التوبة وشدة المراقبة، وقد يفعل اللّه تعالى جميع ذلك بأهل الرجاء فى المحبة. والخوف اسم جامع لمقامات الخائفين، ثم يشتمل على خمس طبقات، فى كل طبقة ثلاث مقامات، **فالمقام الأوّل** من الخوف هو التقوى، وفى هذا المقام المتقون والصالحون والعاملون، **والمقام الثانى** من الخوف هو الحذَر وفى هذا المقام الزاهدون والورعون والخاشعون، **والمقام الثالث** هو الخشية وفى هذا طبقات العالمين والعابدين والمحسنين، **والمقام الرابع** هو الوجل وهذا للذاكرين والمُخبتين والعارفين،

والمقام الخامس هو الإشفاق وهو للصدّيقين وهم الشهداء والمحبون وخصوص المقربين. وخوف هؤلاء عن معرفة الصفات لأجل الموصوف لا عن مشاهدة الاكتساب لأجل العقوبات. كما جاء في الخبر أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود خِفني كما تخاف السبع الضارى. فالسبع إنما يُخاف لوصفه بالبطش والسطوة، ولِمَا أُلبس وجهه من الهيبة والكِبر، لا لأجل ذنب كان من الإنسان إليه، وكذلك لهؤلاء من الرجاء العظيم والنصيب الأوفر على معنى خوفهم ما لا يسع للعموم أن يذكر، فطلبهم برجائهم وحُسن ظنهم بما هو لهم لا يصفه إلاّ هم، ولا يعرفه سواهم، جُمْل ذلك أنصبة القرب، ونعيم الأنس، وروْح اللقاء، وسرور التملق، وحلاوة الخدمة، وفرح المناجاة، وروْح الخلوة، وارتياح المحاورة، فلهم منه تجلى معانى الصفات وظهور معانى محاسن الأوصاف، فلا تعلم نفْسٌ ما أُخفى لهم من قُرة أعين، وقد كان يحيى بن معاذ يقول مَن عَبَد الله تعالى بالخوف دون الرجاء غرق في بحار الأذكار، ومن عبده بالرجاء دون الخوف تاه في مفاوز الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء معا استقام في محَجة الأذكار. وقال مكحول النسفى رحمه الله تعالى في معناه إلاّ أنه جاوز فيه الحد فقال، مَن عَبد الله تعالى بالخوف فهو حرورى، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء فهو موّحد والله سبحانه وتعالى أعلم.

شرح مقام الزهد ووصف أحوال الزاهدين وهو المقام السادس من مقامات اليقين

قد سمّى الله تعالى **أهل الزهد علماء** بقوله تعالى إذ وصف قارون فخرج على قومه في زينته، إلى قوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن، قيل هم الزاهدون في الدنيا، وقال عز وجل أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، وجاء في التفسير صبروا على الزهد في الدنيا. وقال جل وعلا والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم، قيل على الفقر. ويشهد للصبر في الدنيا في هاتين الآيتين قوله عز وجل في وصف العلماء الزاهدين لمّا قال وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير، قال عقيْب ذلك في بقية ثنائه عليهم ولا يُلقّاها إلا الصابرون، أى عن زينة الدنيا، ثم قال في مدحهم بوصفٍ آخر يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، فقد حصل للزاهد أجران، بصبره على الفقر وبوجود زهده، وللفقير المعدم أجر واحد على الغنى لوجود فقره وعدم زهده. وعلى ذلك تأويل الخبريْن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال في أحدهما يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بأربعين

خريفا، وقال في الخبر الآخر يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، لأن **الفقير الزاهد** يدخل الجنة قبل الغني المصلح بخمسمائة عام وهؤلاء **خصوص الفقراء**، وأنّ **الفقير غير الزاهد** يدخل الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً لأجل فقره فقط وهم **عموم الفقراء**، فصار الأغنياء مفضولين في الحالين معا، وأنّ جملة الفقراء يدخلون الجنة قبلهم لمكان غناهم في الدنيا، وأنّ عموم الأغنياء من أهل الدنيا وأبنائها موقوفون للحساب ومطالبون بالإنفاق والاكتساب بالخبر الثالث اطّلعتُ في الجنة فإذا أكثر أهلها الفقراء، واطّلعتُ في النار فإذا أكثر أهلها الأغنياء، وفي معناه الخبر الآخر فقلت أين الأغنياء، فقال حبَسهم الجِّد أي الحظ.

وقد **سمّى الله تعالى الفقراء الزاهدين محسنين** ووضع عنهم السبيل، فقال تعالى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج، ثم قال ما على المحسنين من سبيل، ثم نصّ على ذكر مَن علّيْه الحُجة والمطالبة، فقال جلّ وعلا إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، يعني النساء، وعلى هذا المعنى جاء تأويل قوله تعالى إنّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لِنبلوَهم أيهم أحسن عملا، قيل أزهد في الدنيا فصار **الإحسان مقام الزاهدين**، وهو وصف اليقين، وكذلك فسّره رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل ما الإحسان، فقال أن تعبد الله كأنك تراه، يعني على اليقين وهو المشاهدة، ولعمري إن الزهد حال الموقن لأنه مقتضى يقينه، وقد يحتج متوَهم بفضل الأغنياء على الفقراء عنده لقوله تعالى مُخبِراً عن الفقراء تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا، أنْ لا يجدوا ما ينفقون، ولا يعلم أن هذا عند أهل التدبر للقرآن مزيداً للفقراء لتمام حالهم لّما كانوا محسنين، كما قال سبحانه وتعالى وسنزيد المحسنين، فكان مزيدهم الحزن والإشفاق وخوْف التقصير لمشاهدة عظِم حق الربوبية عليهم، حتى كأنهم مُسيؤن، حتى بشّرهم الله تعالى بأنهم محسنون لما قال عز وجل ما على المحسنين من سبيل،لأنه ضمّهم إليهم في الوصف وعطفهم عليهم في المعنى.

وأيضا فلم يكن بكاؤهم على فوْت الدنيا ولا على طلب الغنى، والله تعالى يمدحهم بصبرهم عن الدنيا ويذم الدنيا إليهم، بل حزنُهم على طلب المزيد من الفقر، ليجدوا الإنفاق فيخرجوه، فيفتقروا منه، فيزدادون فقراً ببذله إلى فقرهم. فعلى كثرة الإنفاق وحقيقة الفقر في الدنيا كان حزنهم، فهذا فضل ثان للفقراء لا على الجمع والادخار والموضع الأعلى الذى هو فضْل الفقراء من هذه الآية عند أهل الاستنباط والتفكر، وهو مشاركتهم لرسول الله صلّى الله عليه وسلم

في حاله. ووصف الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمثل حالهم في قوله تعالى قلت لا أجد ما أحملكم عليه، ثم نعتهم بمثله لأنهم هم الأمثل فالأمثل به فقال تعالى أن لا يجدوا ما ينفقون، فمن كان برسول الله صلّى الله عليه وسلم أمثل فهو أفضل. كيف وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم تُحفة المؤمن فى الدنيا الفقر، فجعل الفقر تحية له من ذى التحيات المباركات، مع الخبر المشهور الفقر على المؤمن أزين من العذار على خد الفرس الجواد. والفقر اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم وشعار الأنبياء وطريقة علية الصحابة والأصفياء، وروينا في الخبر – آخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان بن داود لمكان مُلكه، وآخر أصحابى دخولاً الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه في الدنيا. وفى الخبر الآخر– رأيته يدخل الجنة زحفاً.

ولا نعلم فى الأمة أفضل من طائفتين: **المهاجرون وأهل الصُفّة**، وجميعا مدَح الله تعالى بالفقر، فقال للفقراء المهاجرين الذين أُحصروا في سبيل الله، فقدّم وصفهم بالفقر على أعمالهم، الهجرة والحَصْر. والله تعالى لا يمدح من يحب إلاّ بما يحب، ولا يصفه حتى يحبه. وروينا فى قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا، قيل عن الدنيا. وفى خبرٍ العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا فى الدنيا، فإذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم. وجاء فى الأثر لا يزال لا إله إلاّ الله تَرفع عن العباد سُخط الله تعالى ما لم ينالوا ما نقص من دنياهم، وفى خبر آخر مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلاّ الله قال الله عز وجل كذبتم لستم بها صادقين. وقد روينا فى خبر عن أهل البيت إذا أحبّ الله تعالى عبداً ابتلاه، فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه، قيل وما اقتناؤه، قال لم يترك له أهلاً ولا مالاً. وفى أخبار أهل الكُتب أوحى الله تعالى إلى بعض أوليائه إحذر إذا مقتُّك فتسقط من عينى فأصب عليك الدنيا صباً. ويقال ليس عمل من أعمال البرّ يجمع الطاعات كلها إلاّ الزهد فى الدنيا. وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم تابعنا الأعمال كلها فلم نر أبلغ في أمرالآخرة من زهدٍ في الدنيا. وقال بعض الصحابة لصدر التابعين أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كانوا خيرا منكم، قيل ولِمَ ذلك، قالوا كانوا أزهد منكم في الدنيا. وفى **وصية لقمان** لابنه واعلم أن أعون الأشياء على الدين زهَادة فى الدنيا .ويقال من زهد فى الدنيا أربعين يوما أجرى الله تعالى ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه. وفى خبر آخر إذا رأيتم العبد قد أُعطى صمتا وزُهدا في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلّقّى الحكمة. وقد قال الله تعالى ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا.

ورويناً في الآثار جُمَل هذه الأخبار مَن أصبح وهمُّه الدنيا شتّت الله تعالى عليه أمره، وفرّق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم ينل من الدنيا إلاّ ما كتُب له، ومن أصبح وهمُّه الآخرة جمَع الله همّه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، وقال الله تعالى في معنى ذلك من كان يريد حرْث الآخرة نُزِد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نُؤته منها وما له في الآخرة من نصيب. وقد روينا في خبرٍ قلنا يا رسول الله أيّ الناس خير، قال مجموم القلب صدُوق اللسان، قلنا يا رسول الله وما مجموم القلب، قال التقى النقى الذى لا غِلّ فيه ولا غِش ولا حسد ولا بغْى، قيل يا رسول الله فمَنْ على أثره، قال الذى يشنأ الدنيا ويحب الآخرة، والشئ يُعرف بضده كما يُعرف بمثله، وضد الشنآن المحبة، **وضد الزهد الرغبة**. وفى دليل خطابه أن شرّ الناس الذى يحب الدنيا وأن الراغب فيها هو المحب لها. والاقتناء لها والاستكثار منها علامة الرغبة فيها. كيف وقد جاء أيضا إنْ أردت أن يحبك الله تعالى فازهد في الدنيا، فجعل الزهد سبب محبة الله تعالى، فصار **الزاهد حبيب الله تعالى**، فينبغى أن يكون الزهد من أفضل الأحوال إذ المحبة أعلى المقامات.

وفى دليل الكلام أنّ مَن رغب فى الدنيا فقد تعرّض لبغْض الله تعالى الذى لا شئ أعظم منه، وأن المحب للدنيا بغيضُ الله تعالى. وكان أبو محمد رحمه الله تعالى يقول اجعلوا أعمال البرّ كلها فى موازين الزهاد، ويكون ثواب زهدهم زيادة لهم. وقال أيضا العُبّاد فى موازين العلماء، والعلماء فى موازين الزُهّاد يوم القيامة، فلا يطمعن طامع فى محبة الله تعالى وهو محب للدنيا، لأن الله تعالى يمقتُها. وفى خبرٍ ما نَظر إليها منذ خلقَها، يقول لها اسكنى يا لاشى، أنتِ وأهلك إلى النار. وفى الخبر يقول الله تعالى يوم القيامة للدنيا مَيّزوا ما كان منها لى والقُوا سائرها فى النار. وكذلك روينا فى الأثر الدنيا ملعونة ملعونٌ ما فيها إلاّ ذكر الله تعالى وما والاه. وفى لفظ آخر فمثل الدنيا مثل إبليس خلقه الله تعالى للبُعد واللعنة ليبتليه ويُبتلى به ويُهلكه ويُهلك به، وقد شهد ذلك بعض المكاشفين فقال رأيت **الدنيا فى صورة جيفة**، ورأيت إبليس فى صورة كلب وهو جاثم عليها، ومنادٍ ينادى من فوق أنت كلب من كلابى وهذ جيفة من خَلْقي، وقد جعلتها نصيبك منى فمن نازعك شيأً منها فقد سلّطتُك عليه، فجاء من هذا أنها مكانُه فمن تمكّن فى شئ منها تسلّط العدو بالمكانة منه بقدر ما أصاب منها. وقد كوشف بها بعض الأولياء فى **صورة امرأة**، ورأى أكُفّ الخلْق ممدودة إليها وهى تجعل فى أيديهم شيأ، قال فقلت له ما هو، قال شئ يُلْتَذ، وطائفه تمرّ عليها مكتوفى الأيدى لا

تعطيهم شيأ. وكوشف بها مورق العجلى فى صورة عجوز شمطاء دِنْدانية مُسْمَّجة عليها ألوان المُصبَّغات وأنوع الزينة، قال فقلت أعوذ باللّه منك، فقالت إنْ أردتَ أن يعيذك اللّه تعالى منى فابغض الدرهم.

وكذلك جاء فى الخبر الدنيا موقوفة منذ خلقها اللّه تعالى بين السماء والأرض لا ينظر إليها، فتقول يوم القيامة يا رب اجعلنى لأدنى أوليائك نصيباً اليوم، فيقول اسكتى يا لاشى، أنا لم أرضك لهم فى الدنيا أرضاك لهم اليوم. وقال بعض السلف الدنيا دنيئة وأدنى منها قلب من يحبها. وروى عن علىّ كرّم اللّه وجهه الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مُزاحمة الكلاب. وفى أخبار موسى عليه السلام إن لم تَلْق الفقير بمثل ما تلقى به الغنى فاجعل كل علِم علّمتُك تحت التراب، وإذا رأيت الفقر مقبلا فقُل مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنْب عُجِّلَتْ عقوبته. وكان عيسى عليه السلام يقول للدنيا إليك عنى يا خنزيرة. وقد روينا هذا القول عن يزيد بن ميسرة وكان من علماء الشام، قال كان أشياخنا **يسمون الدنيا خنزيرة**. ولو وجدوا لها اسماً شراً من هذا سمّوها به، قال وكانت إذا أقبلت على أحدهم الدنيا قال لها إليك عنا يا خنزيرة، لا حاجة لنا بك، إنّا قد عرفنا إلهنا عزّ وجلّ، معناه قد عرفناه بالابتلاء بك لينظر كيف نعمل فى الزهد فيك والأثرة له سبحانه وتعالى، وعرفناه أيضا بالمَقْت لك فوافقناه فى ذلك، وعرفناه أيضا فتألّهت قلوبنا إليه وأعرضنا عما سواه، وكذلك كان الحسن رحمه اللّه تعالى يصف أشياخه، كان أحدهم يُعرَض عليه المال الحلال فيقال خذه فاستغن به، فيقول لا حاجة لى فيه، أخاف أن يُفسِد علىّ قلبى. فهذا كان له قلب صالح راعاه فخاف تغيّره.

كذلك روينا عن **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** أنه مرّ بجدْىٍّ ميّتٍ أجرب، فقال أترون هذا هان على أهله، قلنا يا رسول اللّه من هوانه ألقوه، فقال لَلدنيا أهون على اللّه تعالى من هذا على أهله، وفى لفظ آخر أنه قال أيُّكم يحب أنّ هذا له بدرهم، قلنا لا أينا، وأىِ شئ يساوى هذا، قال صلّى اللّه عليه وسلم الدنيا أهون على اللّه سبحانه وتعالى من هذا عليكم. وكذلك أخبر بالغاية فى قلّتها وعدم قيمتها بقوله لو كانت الدنيا تزن عند اللّه تعالى جَناح بعوضة ما سقَى كافراً منها شَربة ماء. وضرب المثل فى نتنها وانقلابها على أهلها بقوله للأعرابى أرأيتَ ما تأكلون وتشربون، ألستم تتغوطون وتبولون، قال بلى، قال فإلى أى شئ

يصير، قال إلى ما علمتَ يا رسول الله، قال أليس يقعد أحدكم خلف بيته فيجعل يده على أنفه من نَتَن ريحه، قال نعم، قال فإن الله تعالى جعل الدنيا مَثَلا لما يَخرج من ابن آدم. وكذلك روينا فى تأويل قوله تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون، قيل مواضع الغائط والبول. وقال سبحانه وتعالى وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلاّ متاع، قال بعض أهل اللغة متاع أى جيفة، سمعتُ عن الأصمعى قال بعض العرب يقول متَعَ اللحمُ إذا تغير وأنتن. وقد كان الحسن رحمه الله تعالى يقول لمّا هبط آدم عليه السلام إلى الدنيا كان أوّل شئ عمل فيها أنه أحدَث. وروينا عن **ابن عباس** رضى الله عنهما قال إنه نظر إلى ما خرج منه فآذاه ريحه فاغتّم لذلك، فقال له جبريل هذه رائحة خطيئتك. فشهد العقلاء عن الله تعالى الدنيا فى **صورة كنيف** فلم يدخلوا فيها إلاّ ضرورةً، فكلما استغنيتَ عن دخولك الكنيف كان أفضل، وشهدها بعضهم **جيفة** فلم ينالوا منها الا بلّغة، فكلما تقللتَ من الجيفة كان خيرا.

وقال بعض المخبرين عن الله سبحانه وتعالى أنه أوحى إلى الدنيا اخدمى مَن خدمنى، واتعبى مَن خدمك. وقال آخر وقد رويناه مُسنداً أن الله تعالى أوحى إلى الدنيا تمررّى لأوليائى حتى تكون رغبتهم فيما عندى، واحلْولى لإعدائى حتي يكرهوا لقائى. وفى حديث عائشة رضى الله عنها من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله تعالى كره الله لقاءه. فهذه الآثار كلها قاصمة لظهر أبناء الدنيا، مسخنة لعين محبيها، وأضدادها من الأخبار الحُسنى فى فضل الزهد وشرف الفقر، رافعةُ لرؤس الفقراء الصادقين، وقُرة عين الصالحين لله عز وجل الزاهدين، فلا تعلم نفس ما أُخفيِ لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون.

وأصل **الرغبة فى الدنيا** من ضعف اليقين، لأن العبد لو قَوِىَ يقينه نظر بنوره إلى الآجل فغاب فى نظره العاجل، فزَهَد فيما غاب وأحبّ الحاضر، فآثر ماهو أعْود عليه وأبقى وأنفع له، ولمولاء أرضى، وهذا هو صورة الزهد وشهادة الموقن، وأنّ الحاضر لا يحُب ما غاب وانتقل، ألَم تر إلى وصْفه عز وجل لإبراهيم وليكون من الموقنين، قال لا أحب الآفلين. والموقن مأمور باتباع ملّة إبراهيم بقوله تعالى ملة أبيكم إبراهيم، أى عليكم ملة أبيكم إبراهيم واتبعوا ملته. وليس يشهد الوعد والوعيد الآجل بنور العقل إنما يشهد بنور اليقين، وضعف اليقين قد يدخل فى كل شىء، وقوة اليقين تحتاج إليه فى كل عمل وإلاّ فهو دنيا يهُتدَى إليه بنور العقل، فمن لم يُعط نور اليقين لم ير الله تعالى فاستهوته الدنيا فأحب لا شىء ، فلم تكن همته فى العلو ولا عنده الأعلى شيأ.

ذكر ماهية الزهد أى شىء هو

ليس يمكن عبد أن يعرف الزهد حتى يعرف الدنيا أى شىء هى، فقد قال الناس فى الزهد أشياء كثيرة ونحن غير محتاجين إلى ذكر أقوالهم بما بيّن الله تعالى وأغنى بكتابه الذى جعل فيه الشفاء والغنى، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الحبل المتين والصراط المستقيم. من طلب الهدى فى غيره أضلّه الله. وقال سبحانه وتعالى وما اختلفتم فيه من شىء فحكمُه إلى الله، وقال عز وعلا فهدَى الله الذين آمنوا لمِاَ اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فقد ذكر الله جل اسمه فى كتابه أن الدنيا سبعة أشياء، وهو قوله تعالى زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث، ثم قال تعالى فى آخرها ذلك متاع الحياة الدنيا، ووصف حب الشهوات بالتزّين، ثم نسّق الأوصاف السبعة على الحب لها، ثم أشارلها بقوله تعالى ذلك، فذا إشارة إلى الكاف، والكاف كناية عن المذكور المتقدم المنسوق، واللام بين ذا والكاف للتمكين والتوكيد،فحصل من تدبر الخطاب أنّ هذه السبعة جملة الدنيا، وأنّ هذه الدنيا هذه الأوصاف السبعة، وما تفرع من الشهوات رُدّ إلى أصلٍ من هذه الجُمَل، فمن أحب جميعها فقد أحب جُملة الدنيا نهاية الحب، ومَن أحب أصلاً منها أو فرعا من أصل فقدْ أحب بعض الدنيا، فعلمنا بنص الكلام أن الشهوة دنيا، وفهمنا من دليله أنّ الحاجات ليست بدنيا لأنها تقع ضرورات، فإذا لم تكن الحاجة دنيا دلّ أنها لا تُسمّى شهوة وإنْ كانت قد تشْتهى، لأن الشهوة دنيا لتفرقة الأسماء لإيقاع الأحكام عليها، واستند ذلك إلى خبر رويناه عن الله سبحانه وتعالى فى الإسرائيليات أن إبراهيم صلوات الله عليه أصابته حاجة فذهب إلى صديق يستقرض منه شيأ فلم يقرضه، فرجع مغموماً، فأوحى الله تعالى إليه لوسألتَ خليلك لأعطاك، فقال يارب عرفتُ مقتكَ للدنيا فخشيتُ أن أسألك منها فتمقتنى، فأوحى الله إليه ليس الحاجة من الدنيا، ثم سمعناه تعالى وجّل قد ردّ هذه السبعة الأوصاف فى مكان آخر إلى خمسة معان، فقال جّل من قائل اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر، فهذه الخمسة هى وصف من أحب تلك السبعة، ثم اختصر الخمسة فى معنيين منها هما جامعان للسبعة، فقال إنما الحياة الدنيا لعب ولهو، ثم ردّ الاثنين إلى وصف واحد وعبّر عنه بمعنيين، فصارت الدنيا ترجع إلى شيئين جامعين مختصرين يصلح أن يكون كل واحد منهما هو الدنيا، فالوصف الواحد الذى ردّ الاثنين إليه اللذان هما اللعب واللهو هو الهوى، اندرجت السبعة فيه فقال عز وجل ونهى

النفس عن الهوى فإن الجنّة هى المأوى، فصارت الدنيا طاعة النفس للهوى بدليل قوله تعالى فأمّا من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى، فلما كانت الجنة ضد الجحيم كان الهوى هو الدنيا، لأن النهَىّ عنه ضد الإيثار له، فمن نهَى نفسه عن الهوى فإنه لم يؤثر الدنيا، وإذا لم يؤثر الدنيا فهذا هو الزهد، وكانت له الجنة التى هى ضد الجحيم التى هى لم ينه نفسه عن الهوى بإيثاره الدنيا، فصارت الدنيا هى طاعة الهوى وإيثاره فى كل شىء، فينبغى أن يكون الزهد مخالفة الهوى من كل شيء.

وأما المعنى الآخر الذى عبّر به عن هذا الوصف الذى هو الهوى فجعله دنيا أيضا، فهو **حب البقاء** لمتعة النفس، استنبطنا ذلك من قوله تعالى وقالوا ربنا لِمَ كتبتَ علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب، فالقتال هو فراق الحياة الدنيا لأنه المشى بالسيف إلى السيف، والفناء بين السيفين، فقالوا هلاّ أبقيتنا إلى وقت آخر وهو أجلنا بالموت لا بالقتل، وهذا هو حب البقاء، ففسّر حب البقاء بأنه هو الدنيا فقال تعالى قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى، فانكشف الناس وافتضح المنافقون، وابتلى المؤمنون الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وعندها ربح الذين هم لأنفسهم وأموالهم بائعون، وخسر الذين هم للحياة الدنيا بالآخرة مشترون، لمّا قال اللهّ تعالى إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة، فلمّا اشتراها باعوها، وقال فى المشترين الخاسرين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ويعنى رغبوا فى البقاء الأدنى لمّا اشتروه ببيع البقاء الآخرة إذ باعوه، فمن اشترى ثلاثين سنة وأربعين سنة بألفِ ألفٍ وبأبد الأبد فما ربحت تجارته ولاهُدِىَ سبيله، فقد صار بائعاً للحياة العالية بما استبدل به من اشتّراء ضدها، فهذا تدبُّر قوله تعالى اشتروا الحياة الدنيا، أى باعوا الحياة العليا فهذا ربحْ تجّار الآخرة الزاهدين فى الدنيا، وذلك خُسر تجّار الدنيا الراغبين فى الهوى، فشتّان بين التجارتين، فما أعظم حسرة الفوْت على من خسر ماربحه الزاهدون بعد الموت.

وقد كان الناس مستورين بإظهار الزهد فى البقاء، ومظنوناً بهم حب الباقى الأعلى، حتى نزلت ألم تر إلى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، فلما كُتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية اللّه أو أشد خشية الآية، وحتى نزل يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون، كانوا قالوا إنا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شىء محبته

لفعلناه. فلذلك قال تعالى كبر مقتا عند اللّه أنْ تقولوا مالا تفعلون، إنّ اللّه يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا، ولذلك قال ابن مسعود رضى اللّه عنه ما كنت أحسب أن فينا أحدا يريد الدنيا حتى نزلت منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، وكذلك قاله رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين نزلت ولو أنّا كتبنا عليهم أنْ اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلاّ قليل منهم.قال ابن مسعود قال لى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قيل لى أنت منهم، أى من القليل الذى كان يفعل ذلك، فإذا كان حب البقاء هو الدنيا فينبغى أن يكون **حب بقاء الباقى هو الزهد**، فصار الزهد فى الدنيا هو الزهد فى البقاء، فمن زهد فى الحياة الفانية وفى ماله المجموع، بالجهاد للنفس والإنفاق فى سبيل اللّه، فقد زهد فى الدنيا، ومن زهد فى الدنيا أحبه اللّه تعالى كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ولذلك صار **الجهاد أفضل الأعمال لأنه حقيقة الزهد فى الدنيا**، ولأن اللّه تعالى يحب مَن زَهد فى الدنيا. ثم كان مخالفة الهوى أفضل الجهاد لأنه هو حقيقة الرغبة فى الدنيا، وقد عبّر به رسول اللّ صلى اللّه عليه وسلم عن الزهد فى الدنيا إذ قال فى الحديث الأول إزهد فى الدنيا يحبكُ اللّه تعالى، ثم قال فى الخبر الثانى بمعناه اجتنبْ المحارم يحبك اللّه تعالى. واجتنابها زهدٌ فى الدنيا، **فالزاهد فى الدنيا حبيب ربه تعالى**، والراغب فى حب البقاء لنفسه منافق فى دين ربه تعالى. ومنه الخبر الذى جاء من مات ولم يغز ولم يحدّث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق، وبه كشف اللّه تعالى الكاذبين ووصفهم بمرض القلوب، فقال سبحانه وتعالى فإذا أنزلت سورة محكمة وذُكر فيها القتال رأيتَ الذين فى قلوبهم مرض، يعنى نفاقاً، ينظرون إليك نظر المَغشىّ عليه من الموت، فأولى لهم تهددٌ ووعيد، أى وَلِيهَم العذاب وقرُب منهم، ثم قال طاعةٌ وقولٌ معروف، أى يظهر منهم طاعة وقول معروف، فإذا عزم الأمر وحقّت الحقائق كذّبوا ونكثوا فلو صدقوا اللّه، أى فى الوفاء، لكان خيراً لهم، وهذا من الكلام المضمر فلذلك أُشكل.

والبقاء والحياة اسمان لمعنى، ولذلك جعل اللّه تعالى الدنيا وصفاً للحياة فتكون الدنيا هى الحياة، ونعتّها بالدنيا نعتَ مؤنث لدخول الهاء فى الاسم التى هى إحدى علامات التأنيث، فصارت الحياة هى الدنيا، وصار قوله الدنيا نعتّها بالدناءة، ولو كان الاسم مذكراً مثل البقاء نعته بمذكّر فقال الأدنى، وقد قال فى مثله يأخذون عرَض هذا الأدنى، فالأدنى تذكير الدنيا، والدنيا تأنيث أدنى، كالأعْيَن والأقنى والأشعث تذكير عيناء وقنواء وشعثاء والعَرض اسم لما يعَرض ويقل بقاؤه، فمن أحب ذلك فقد أحب الدنيا بحبه الأدنى، وهذا يرجع إلى حب حياة

الأصل، لأنه إنّما يريد العَرض الأدنى لأجل الحياة، فصار حب البقاء الذى لأجله يريد عرَض الأدنى هو الدنيا، وصار حب العَرض لأجل البقاء من الدنيا، فجاء من هذا الذى ذكرناه أن حقيقة الدنيا حب البقاء لطاعةالهوى، وموافقة الهوى فى حب العرَض لأجل البقاء، فدخل أحد هذين فى الآخر، لأن حبّ البقاء لأجل المتعة هو من الهوى الذى هو صفة النفس الأمّارة بالسوء، وطاعة الهوى الذى هو عيش النفس إنما يكون لحب البقاء، لأن العبد لو أيقن بالموت ساعته لآثر الحق على الهوى، ولو أيس من البقاء لما رغب فى العرَض الأدنى، فصار حب البقاء من الهوى، وصار إيثار الهوى إنما هو لحب البقاء، فكان ذلك حقيقة الدنيا وكان أقصر الناس أملا للبقاء أزهدهم فى الدنيا حتى لا يدّخر شيأ لغد، لأنه عنده غير باق إلى غد، وصار أرغب الناس فى الدنيا أطولهم أملاً لأن رغبته اشتدّت فيها وحرصه كثُرَ عليها لامتداد أمله للحياة فيها، إذ لو قَصُر أمله لغدٍ لاختار الفقر حينئذ، واختيار الفقر هو الزهد.

بيان آخر من الزهد أى شىء هو

قال الله سبحانه وتعالى وشرَوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين، فهذه تسمية لهم بالزهد لتحققهم بالمعنى نحتاج أن نكشفه ليكون من يتحقق بمعنى ذلك زاهداً. قوله تعالى وشرَوه باعوه، العرب تقول شريْت بمعنى بعت لأنهم يقولون ابتعت بمعنى اشتريت، فلما باعوه وخرج من أيديهم صاروا زاهدين. كذلك العبد إذا باع نفسه وماله من الله تعالى وخرج من هواه إلى سبيل مولاه فهو من الزاهدين. وكذلك قال المولى عز وعلا إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، كما قال عزّ من قائل ونهىَ النفس عن الهوى، فإن الجنة هى المأوى، فإذا كان العوَض واحدا وهو الجنة كما ذُكر فى المعنيين كان بيع النفس والمال وإخراجهما لله تعالى بمعنى النّهىْ عن الهوى فيهما الذى هو الحياة الدنيا، وهو اقتناؤه النفس وحبس النفس عليه أعنى المال، فاستبدال ذلك بضده من إخراج الهوى من النفس وإدخال الفقر على المال هو الزهد فى الدنيا.

وصف آخر من البيان والتفصيل للزهد

لماّ حقق الله تعالى الزهد بغنى النفس وإخراج المال فى ذكر المبيع والمشترى فى قوله تعالى يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلُون ويُقتَلون، وكان الزهد هو ترك طاعة الهوى وبيع النفس بنهيها عنه من المولى، وكان العوض من ذلك الجنة، كان الزاهد هو الخائف مقام ربه البائع

نفسه طوعا قبل أن يخرج نفسه إليه كرها، وكان الله تبارك وتعالى هو المحبوب له القريب منه. فصار العبد محباً له، فجعله من المقربين عنده تعالى. وإذا كانت الدنيا هى طاعة الهوى، وحب الحياة الدنية لمتعة النفس الشهوانية، كان الراغب فى ذلك آمنا لمكر الله تعالى، مشترياً للحياة الدنيا، بائعاً بذلك الحياة العليا، فلم يكن محباً له، وكان من المبعدين عنه بسوء اختياره، وحق عليه الخُسران والجحيم فى الآخرة، لأنه ضد الزاهد المقرّب الظافر بدار القرب فى جوار الحبيب القريب.

ذكر بيان حقيقة الزهد وتفصيل أحكامه ووصف الزاهد

إعلم أنّ الزهد يكون بمعنيين، إنْ كان الشيء موجوداً فالزهد فيه إخراجه وخروج القلب منه، ولا يصح الزهد فيه مع تبقيته للنفس لأن ذلك دليل الرغبة فيه، وهذا **زهد الأغنياء**، وإن لم يكن موجودا وكان العدم هو الحال فالزهد هو الغبطة به والرضا بالفقد، وهذا هو **زهد الفقراء**، وكذلك القول فى الزهد فى ترك الهوى لا يصح إلا بعد الابتلاء به والقُدرة عليه،ألَم تر أن إخوة يوسف عليهم السلام همّوا بالزهد فيه بقولهم لَيوسف وأخوه أحب إلى أبينا منّا، ولم يُسمهم الله تعالى زاهدين. وتكلموا بالزهد فيه بقولهم اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم، ولم يُسمّوا زاهدين. وأرادوا الزهد فيه بقولهم أَرْسله معنا غداً نرتع ونلعب ولم يتحققوا بالزهد فيه. وعزموا على الزهد فيه وأجمعوا عليه ولم يسمهم الله تعالى زاهدين، مع قوله تعالى مخبرا عنهم، فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب، لأن هذا كله من أسباب الزهد ومقدماته قد يلتبس ويُشكِل على من لا يعرف حقيقة الزهد فيظنه زهدا وليس هو زهداً، لأنه فى أيديهم فلما خَرج من أيديهم واعتاضوا منه سواه حقّ زهدُهم فيه، فقال تعالى مخبراً عن حقيقتهم وشروه، أى باعوه وكانوا فيه من الزاهدين. وكذلك الثوب تهمّ ببيعه تريد بيعه ويغلب عليك بيعه ولا تكون زاهداً، ولكن تكون موصوفا بالإرادة للزهد حى تبيعه وتعتاض منه فحينئذ حقّ زهدك فيه. ففى تدبر الخطاب من قوله وكانوا فيه من الزاهدين أنّ مَن أخرج الشيء من يده طوعاً ونفسه تتبعه فله مقام فى الزهد بالمجاهدة، ومن أمسك الشيء وأظهرت نفسه الزهد فيه بالإرادة والهِمّة فلا مقام له فى الزهد، لأن الإمساك علامة الرغبة، والرغبة ضد الزهد، فكيف يوصف بالشيء وضده فى حال قائمة، فالمسك للشيء المتوهم للزهد فيه بإظهار نفسه ذلك بأحد وصفين، إما أنْ لا يعرفه الزهد أو لايعرف خَفّى شهوة النفس، هذا إنْ

لم يموّه على الراغبين. والمخرج لقلبه عنه هو المتحقق بالزهد فيه وهذا هو الذى وصف الله تعالى به إخوة يوسف. والمسك للشىء المغتبط به الذى همّه فيه وقلبه عاكف عليه هو المتحقق بالرغبة فيه وهذا وصف عزيز مصر فى يوسف لمّا اشتراه، فحققه الله تبارك وتعالى بالرغبة فيه لاقتنائه له، فقال مخبرا عنه بعد ما اشتراه أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا. وكذلك وصف امرأة فرعون فى رغبتها فى موسى عليه السلام بقولها قُرّة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا، فكذلك كل من أملَ شيأ ادخّره لنفسه لا يكون زاهدا فيه حتى يخرجه عن يده وقلبه، إذ لم يكن ذلك وصف إخوة يوسف الزاهدين فيه إلاّ بعد أن أخرجوه استصغاراً له وتعوّضوا منه.

بيان آخر مستنبط من الكتاب

إعلم أنّ زهد إخوة يوسف عليهم السلام فى أخيهم قد كان يقارب زهدهم فى يوسف عليه السلام لأنه كان نظيره عند أبيه، وقد كانوا همّوا بالزهد فيه أيضا ليخلو لهم وجه أبيهم منهما. ألمَ تسمع إلى قولهم لَيوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا. وكذلك جاء فى الخبر أنهم أرادوا أن يلقوا أخاه معه فى الجب حتى ألقى نفسه عليه يهوذا فشفع فيه فرحمه ومنعهم منه، وكان شديدا منهم منيعا مهيبا فيهم، وقد قيل إنه استوهبه منهم وقال دعوه يكون فيه سَلوةٌ للشيخ الكبير، لا تفجعوه بهما ولا تفقدوه إياهما معا، فوهبوه له. ثم إنّ الله تعالى لم يقل مع إرادتهم لذلك وهمّهم به وكانوا فيهما من الزاهدين من قِبَل أنهم لم يتحققوا بالزهد فيه كالزهد فى أخيه، لأنه كان فى أيديهم لم يخرجوه، فكذلك أنت إذا كان الشىء موجودا عندك وأنت ممسكه لنفسك، ثم توهمت أنك زاهد فيه لخواطر الإرادة أو لإرادة الزهد فقد كذّبت على نفسك بتمسكك إياها زاهداً، وكذّبتك نفسُك بوجودها جهلاً منها بالعلم زهداً، أو كذَبَ وجْدُك على العلم جهلاً منك بربك عز وجل، أو وموّهت على نفس غيرك ممن لا يعرف الزهد. وهذا زهد منك فى الزهد ورغبة منك أيضا فى الدنيا حتى يخرج الشىء الذى تظن أنك زهدت فيه، وتعتاض منه محبة الله تعالى وطلب مرضاته تبارك وتعالى، أو ما عنده من ثوابه، فحينئذ يصح زهدك فيه على العلم وعند العلماء، فتكون صادقا، فهناك وصَفَك الزاهد بالزهد، وسمّاك الزاهدون زاهداً. فأما إذا لم يكن الشىء موجودا لك فإن زهدك فيما لا تملك لا يصح، والزهد فى معدوم باطل من قِبَل أن تصرفك لا يصح فيما لا تملك، فكذلك لا يصح زهدك فيه، ولعله لو كان موجودا تغيّر قلبك به وتقلّب فيه، إذ ليس الخبر كالمعاينة، لأن الخبر قد يشبته ويوهم،

والمعاينة تكشف الحقيقة وتحكُم على الخِلْقة، ولأن النفس ذات بَدَوات لما طُبعت عليه من حب المتعة بالرفاهية، فكذلك لا يجعل ظنا معدوما كيقين موجود، إذ لو كان كيف كان الأمر، ولكن قد يكون لك مقام من الزهد فى المعدوم بقيامك بشرطه وهو أن لا تحب وجود الشىء ولا تأسى على فقده، أو تكون مغتبطا بعدمك مسرورا بفقرك، يعلم اللّه تعالى ذلك من غيبك ويطلّع على سرّك، أنك لا تفرح بوجوده لو وجدته، وتُخرجه إنْ دخَل عليك وأنّ قلبك قانع باللّه سبحانه وتعالى راض عن اللّه تعالى بحالك التى هى العدم من الدنيا، غير محب للاستبدال بها من الغِنَى بصدق يقينك بفضيلة الزهد، فإذا كنت بهذا الوصف حُسِبَ لك جميع ذلك زهدا، وكان لك بأحد هذه المعانى ثواب الزاهدين وإن لم تكن للدنيا واجدا، وهذا **زهد الفقراء الصادقين**، وهو التحقق بالفقر. وقد قال بعضهم حقيقة الفقر أن يكون مغتبطا بفقره خائفا أن يسلب الفقر، كما يكون الغنى مغتبطا بغناه يخاف الفقر.

وقد كان **مالك بن دينار** رحمه اللّه تعالى يقول إذا قيل له إنك زاهد، قال إنما **الزاهد عمر بن عبد العزيز**، جاءته الدنيا وملَّكَها فزهد فيها، فأما أنا ففى أى شئ زهدت؟ وقد يصح الزهد للعارف فى الشئ مع وجوده عنده إذا لم يقتنيه لمتعة نفسه ولم يتملكه ويسكن إليه، بل كان موقوفا فى خزانة اللّه سبحانه وتعالى التى هى يده منتظرا حكم اللّه تعالى فيه، ومحنة ذلك استواء وجوده وعدمه، والمسارعة إذا رأى حكم اللّه تعالى إلى تنفيذه فيكون فى ذلك كأنه لغيره من عيلته أو إخوانه، أو سبيل من سبيل اللّه تعالى، وهذا المقام زائد على الزهد، فكذلك لم يخرج منه بل كان مخصوصا فيه بخصوص، وهو أيضا مقام من التوكل.

بيان آخر مستنبط من السنّة فى ماهية الزهد أى شئ هو

الزهد أيضا تقليل الدنيا وتقريبها واحتقارها بالقلب واستصغارها، ومن ذلك الخبر الذى جاء فى ساعة يوم الجمعة أنّ النبى صلّى اللّه عليه وسلم قال هى فى آخر ساعة، قال وجعل يُزهّدها أى يقللها، أى يقرّب وقتها ويدنيه من الغروب. والمعنى الآخر فى الخبر الثانى من قول النبى صلى اللّه عليه وسلم لعلىّ رضى اللّه عنه لّما نزلت آية الأمر بالصدقة لمناجاة الرسول صلى اللّه عليه وسلم، فقال له كم ترى أن نجعل عليهم من الصدقة مقدّمَةً للمناجاة، فقال شعيْرة من ذهب، قال إنك لزهيد أى مقلل مصغّر للدنيا، ولكن نجعل عليهم ديناراً. وزهيد كأنه معدول من زاهد للمبالغة فى الوصف بالزهد، كما عدل شهيد من شاهد، ومجيد من ماجد، وكما عدل عليم وقدير ورحيم من عالم وقادر وراحم للمبالغة فى العلم والقدرة والرحمة.

ذكر وصف الزهد وفضل الزاهد

وقوت الزهد الذى لابد منه وبه تظهر صفة الزاهد وينفصل به عن الراغب هو أن لا يفرح بعاجل موجود من حظ النفس، ولا يحزن على مفقود من ذلك، وأن يأخذ الحاجة من كل شئ عند الحاجة إلى الشئ ولا يتناول عند الحاجة إلاّ سدّ الفاقة، ولا يطلب الشئ قبل الحاجة. **وأوّل الزهد** دخول غمّ الآخره فى القلب، ثم وجود حلاوة المعاملة لله تعالى. ولا يدخل غمّ الآخرة حتى يخرج همّ الدنيا، ولا تدخل حلاوة المعاملة حتى تخرج حلاوة الهوى. وكل من تاب من ذنب ولم يجد حلاوة الطاعة لم يُؤمَن عليه الرجوع فيه، وكل من ترك الدنيا ولم يذق حلاوة الزهد رجع فى الدنيا، ولا يدخل حلاوة المعاملة حتى يخرج حلاوة الهوى. **وخالص الزهد** إخراج الموجود من القلب، ثم إخراج ما خرج من القلب عن اليد، وهو عدم الموجود على الاستصغار له والاحتقار والتقالل، لهوان الدنيا عنده وصغرها فى عينه، فبهذا يتم الزهد، ثم ينسى زهده فى زهده فيكون حينئذ زاهداً فى زهده لرغبته فى مُزْهِده، وبهذا يكمل الزهد، وهذا لُبّه وحقيقته، وهو أعز الأحوال فى مقامات اليقين، وهو **الزهد فى النفس** لا الزهد لأجل النفس ولا للرغبة فى الزهد للزهد، وهذه مشاهدة الصدّيقين، وزهد المقربين عند وجْد عيْن اليقين. ودون هذا مقامات إخراج المرغوب فيه عن اليد مع نظره إليه، وعلى مجاهدة النفس فيه وهو زهد المؤمنين.

وذلك العمل بالزهد **عقد وعمل**، إذ كان الزهد عن الإيمان، والإيمان قول وعمل، وكذلك الزهد **عقد وعمل**. فعقده خروج حب الدنيا من القلب بدخول حب الآخرة فى القلب، والعمل بالزهد إخراج المحبوب من اليد فى سبيل الله تعالى، معتاضا منه ما عنده سبحانه وتعالى من وجهه الكريم جلّ وتعالى أو قُرْب جواره فى داره، وإن لم تكن الدنيا موجودة فإنّ ترك الأسف عليها، وقلة الحرص فيها، وترك الطلب والتمنى لها، وسكون القلب مع العدم ورضاه بيسير القَسْم، يُحسب للعبد زهداً لأن ذلك حال الفقير، فإذا قام بحكمه لم يجب عليه أكثر من القيام به.

والورع هو من الزهد كما الزهد من الإيمان، والحياء والإيمان فى قَرْن واحد كما جاء فى الخبر، إذا نزع أحدهم تبعه الآخر، وروينا فى ذلك حديثا من طريق أهل البيت الزهد والورع يجولان فى القلب كل ليلة، فإنّ صادفا قلبا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلاّ ارتحلا.

والقناعة باب من الزهد أيضا . **والرضا** باليسير من الأشياء حال من الزهد. **والتقلل** فى الأشياء مفتاح الزهد. وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله قد حُجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يُكشف للعبد اليقين حتى تُرفع هذه الحُجب: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح. فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص والحريص محروم، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعُجب يحُبط العمل. وقال الله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، أى منهما، وهذان الوصفان هما أتّم حال فى الزهد، مَن أُعطى أحدهما تبعه الآخر، لأن الذى لا يأسى على ما فاته من الدنيا هو الذى لا يفرح بما أتاه منها، لأنه مثله، والذى لا يفرح بما أتاه منها هو الذى لا يحزن على ما فاته، وهذا وصف عبد قائم بحكم ربه قد شغلته مشاهدة الآخرة عن التفرغ لمتعة الدنيا، وفرّغته من الاشتغال بما يغنى. وفى أحد الوجوه من قوله تعالى وأنه هو أغنى وأقنى، قيل أغنى أهل الآخرة بالله عن الدنيا، وأقنى أهل الدنيا من الدنيا، أى جعل لهم قُنْية ومُدّخرا وعُدّة، كما وصف من ذمه من قوله تعالى جمع مالاً وعدّده، أى قال هذا عُدّة لكذا، وهذه عدة لكذا ،فهدده بالويل فحصل من ذلك أن الزاهد فى المال عُدّته الله تعالى فى كل الأحوال، وكنزه وذخره، وطوبى له وحُسن مآب.

وروينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كفى باليقين غنىً، وكفى بالعبادة شُغلا، وكفى بالموت واعظا ، وهذا جملة وصف الزاهد الموقن الذى هو للموت مُرتّقب، مع الخبر المشهور ليس الغنى عن كثرة العرَض، إنما الغنى غنى النفس. وقد جعل النبى صلّى الله عليه وسلم الزهد فى الدنيا علّماً لحقيقة الإيمان، وقرّبه بمشاهدة الإيقان فى قوله عليه الصلاة والسلام لحارثة عَرَفْتَ فالزم، عبدٌ نوّر الله قلبه، لمّا قال أنا مؤمن حقا، قال وما حقيقة إيمانك، فابتدأ بالزهد فقال عَزَفَتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرُها وذَهبُها، وكأنى بالجنة والنار، وكأنى بعرش ربى بارزاً.

وأشدّ من هذا الخبر الآخر الذى جعل النبى صلى الله عليه وسلم الزهد من علامة شرح

الصدر بالنور، وهو نور التصديق الذى هو عموم وصف المؤمنين، لأنه هو فى التحقيق الإسلام، ففسّر قوله تعالى فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، قيل يا رسول الله ما هذا الشرح، قال إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفتح، قيل يا رسول الله هل لذلك من علامة، قال نعم، التجافى عن دار الغرور، والإنابه إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله. فهذا هو الزهد جعله شرطا لحقيقة الإسلام.

وأشدّ من هذين الخبرين الخبر الثالث الذى فسّر الحياء من الله تعالى بالزهد فى الدنيا، فقال استحيوا من الله تعالى حقّ الحياء، قلنا إنّا لنستحي، قال تبنون مالا تسكنون، وتجمعون مالا تأكلون. وبمعنى هذا تممّ إيمان الوفد الذين سألهم ما أنتم، فقالوا مؤمنون. قال وما علامة إيمانكم، فذكروا الصبر على البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمواقع القضاء، وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء، فقال عليه الصلاة والسلام إن كنتم كذلك فلا تجمعوا مالا تأكلون، ولا تبنوا مالا تسكنون، ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون. فهذا هو الزهد جعله تكملة إيمانهم وعلوّ مقامهم وتماماً على إحسانهم.

وأعظم من هذه كلها الخبر الرابع الذى جعل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الزهد من شرط إخلاص التوحيد فى حديث رويناه عن ابن المنكدر عن جابر، قال خَطَبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال مَن جاء بلا إله إلا الله، لا يخلط معها غيرها، وجبت له الجنة، فقام إليه علىّ كرّم الله وجهه فقال بأبى أنت وأمى يارسول الله مالا يخلط بها غيرها صفه لنا، فسرّه لنا، فقال حبّ الدنيا وطلباً لها واتباعاً لها، وقومٌ يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس شىء فيها من هذا وجبت له الجنة. فلذلك كان **علىّ رضى الله عنه** يجعل الزهد مقاما فى الصبر، ويجعل الصبر عُمدة الإيمان فى حديثين رويناهما عنه، أوّلهما قوله فى الحديث الطويل الذى رواه عكْرمة وعُتبة بن حميْد والحْرث الأعور وقُبيصْة بن جابر الأسدى فى مبانى الإيمان، أنه قال **الإيمان على أربع دعائم**، على الصبر واليقين والعدل والجهاد، ثم قال فيه **والصبر منها على أربع شُعَب**، على الشوق والشفَق والزهادة والترقّب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحْرمات، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن ترقّب الموت سارع فى الخيرات. والخبر الآخر فى الصبر الذى جعله عمود الإيمان ينهدم الإيمان بهدمه، هو قوله

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، لا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له. وروينا فى خبر مقطوع السخاءُ من اليقين ولا يدخل النار موقن. والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شكّ. فكان هذا الحديث مفسِّراً للخبر المجُمَل السخىُّ قريبٌ من الله قريبٌ من الناس قريبٌ من الجنة، بعيدٌ من النار. والبخيل بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناس، قريبٌ من النار. فسّر فى ذلك الخبر بأى معنى يكون السخىّ قريباً من الله تعالى قريباً من الجنة، لأن السخاء من اليقين، وبأى معنى يكون البخيل بعيداً من الله تعالى قريباً من النار، لأن البُخل من الشكّ. فالسخاء وصف الزاهد ولا يكون الزاهد إلاّ سخيّا، والبخل وصف الراغب ولا يكون الحريص إلاّ بخيلا. ولا يكون البخيل زاهداً لأن الزهد يدعو إلى إخراج الشىء والبخل يدعو إلى إمساكه، فنفس السخاء زهد، فلذلك ذُمّ البخل لأنه رغبة فى الدنيا.

ثم إن **الحرص** علامة البخل لأنه دليل الرغبة، **والقناعة** علامة السخاء لأنها باب الزهد، فلذلك قيل سخاء النفس عما فى أيدى النفس أفضل من سخاء البذل. ثم يفترقان فى الحُكم بعد اجتماعهما فى الاسم، فمن جاد بملُكه لله تعالى كان زاهداً فيه لله تعالى ووقع أجره على الله، ومَنْ جاد بماله لأجل الناس كان أيضا زاهداً فى ذلك موصوفا بالسخاء ولكن ذلك لنفسه ولأجل هواه، ولا أجر له عند الله تعالى إذ لم يكن من عمّال الله تعالى، فبطُل أجره لأنه عمل لنفسه وحَصّل شكرَه وذِكْرَه فى الدنيا، لأنه عملَ لأجل الناس كما قال **ابن المبارك** رحمه الله – ما رأيت بين الفتوة والقراءة فرْقا إلاّ فى شىء واحد ما حظَرَت القراءة شيئاً إلا قبّحته الفتوة، وإنما يفترقان فى أن القراءة يُراد بها وجه الله تعالى، والفتوة يُراد بها وجوه الناس ومدحهم. وقد كان أستاذه **سفيان الثورى** رحمه الله يقول مَن لم يُحسن يتَفتّى لم يُحسن يتقرّى، أى من لم يعرف أحكام التَفتّى فيقوم بها حتى يستحق وصف فَتَى لم يُحكِم أوصاف التَقرّى حتى يوصف بأنه قارئ.

ثم إن العبد قد يجاهد نفسه على الزهد كما يجاهدها على مخالفة الهوى، وكما يجاهدها بالصبر على الحق، بأن يُخرج المرغوب ويُنفق المحبوب على كراهة النفس وحمل بالزهد عليها، فيكون له مقامٌ فى الزهد ينال البرّ ويستوجب مدحاً من البرّ. **والمتزهد** غير الزاهد، وهو الذى يتصنّع للزهد ويعمل فى أسبابه من التقلّل ورثاثة الحال فى كل شئ، فمثله مثل المتصبّر من الصابر الذى يجهل على نفسه بالصبر ويصابرها على العلم فيكون له مقام من الصبر.

وصفوة الزهد انتظار الموت وقصْر الأمل لأن فيهما ترك الادخار وتحسين الأعمال. وقال ابن عيّينة **حد الزاهد** أن يكون شاكرا عند الرخاء صابرا عند البلاء. وقال **بشر بن الحارث** رحمه الله الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس. مَن زهد فيهم فقد زهد فى الدنيا . وكذلك قال بعض الحكماء إذا طلب الزاهد الناس فاهرب منه، وإذا هرب من الناس فاطلبه. وقيل **ليحيى بن معاذ** رحمه الله متى يكون الرجل زاهدا، فقال إذا بلغ حرصه فى ترك الدنيا حرص الطالب لها كان زاهدا . وقال **قاسم الجوعى** الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الجوْف. بقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد. فكانت الدنيا عنده الشبع وأكل الشهوات. وقال **فضيل بن عياض** رحمه الله الزهد هو القناعة. فكانت الدنيا عنده هى الحرص والشره. وقال **الثورى** الزهد هو قصر الأمل، فكانت الدنيا عنده طول الأمل. وكان **أبو سليمان الدارانى** رحمه الله تعالى يقول الدنيا كل ما يشغلك عن الله تعالى، فكان الزهد عنده التفرغ لله تعالى. وقد قال إنما الزاهد من تخلى عن الدنيا واشتغل بالعبادة والاجتهاد، فأمّا من تركها وتبطّل فإنما طلب الراحة لنفسه. وكان **داود الطائى** رحمه الله تعالى يقول كل ما شغلك عن الله تعالى من أهل أو مال فهو عليك شُؤم. وقال **أبو سليمان** مَن تزوّج أو كتب الحديث أو طلب معاشا فقد ركن إلى الدنيا . وقرأ قوله تعالى إلاّ مَن أتى الله بقلب سليم، قال هو القلب الذى ليس فيه غير الله تعالى. وقال إنما زهدوا فى الدنيا لتَفْرَغَ قلوبهم من همومها للآخرة.

وكان إمامنا وشيخ شيخنا **أبو محمد سهل بن عبد الله** رحمه الله تعالى يقول أوّل الزهد التوكل، وأوسطه إظهار القُدرة. وقال لا يزهد العبد زهداً حقيقيا لا رجعة بعده إلاّ بعد مشاهدة قدرة، فإنّ أوّل القُدرة عندى أن يَشهد ما سمع من كلام القادر المُزْهِد، إذ يقول تبارك وتعالى ومما توقدون عليه فى النار ابتغاءَ حِلْيةٍ أو متاعٍ زَبَدٌ مثْلُه، فالحلية الذهب والفضة وهما قِيَم الأشياء اللذان ملَكا النفوس ونَكسا الرؤس، فالمتاع ما سواهما من معادن الأرض، فإذا شهد العبد الذهب الذى هو سبب الدنيا ، ولأجله أشرك مَن أشرك، وبحبائله ارتبك من ارتبك، ولوقوع حلاوته فى القلب وقع من وقع، فإذا شهد جوهر الذهب والفضة زَبَداً طافياً على وجه الماء لا نفعَ فيه ولا غُنية به ولا قيمة له، زَهَد فيه حينئذ زُهداً صادقا فكان زهده معاينةً لا خبرا ، وكان من المؤمنين حقاً الذين وصفهم الحق بالحق فى قوله تعالى إذا ذُكرَ الله وَجِلَت قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياتُه زادتهم إيمانا ، فالزهد مزيد الإيمان، ثم قال وعلى ربهم يتوكلون، فالزهد يُدخل فى التوكل، ثم قال فاتخذْه وكيلا واصبر على ما يقولون، فالتوكل

يُوقف على الصبر. ومن سمع كلام الله تعالى فيعقله يُبلغه الله تعالى مأمنه فى المقام الأمين فى جنات وعيون، ويستحق وصف الله تعالى بالإيمان إذا تلا القرآن بحقيقة الإيقان، قال عزّ وجلّ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به، وذلك أن هذا الزَّبَد تشبيهٌ من الله تعالى لِمَثَل ضَرَبه للحق والباطل، فالمَثَل هو الماء والزبَد، فمَثَل الحق فى نفعه وبقائه بالماء، ومثَّل الباطل فى ذهابه وقلة نفعه بالزبد، ثم شبَّه الذهب لذهابه عن الحقيقة بالزبد تشبيه مماثله لا تشبيه مجاز، لقوله زبدٌ مثلُه، والمماثلة مستقصاة، ثم قال كذلك يضرب الله الأمثال، للذين استجابوا لربهم الحُسنى، أى الجنة والبقاء. وقال تعالى للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْء، هم المريدين للحياة الدنيا وزينتها، الراضون المطمئنون بها، ليس لهم فى الآخرة إلاّ النار.

فسبحان من نفذ بصره الأبصار، وسبحان مقلب الليل والنهار، وسبحان مَن كل شئ عنده بمقدار، يبصر ما لا نبصر كما يَقْدر على ما لانقدر، خصّ المشاهدين بمعنى مشاهدته كما خصّهم بالإحاطة بشئ من علمه، فأحاط عليهم بما شاء لمّا أحاط لهم ما شاء، فكان الذهب والفضة عندهم زبداً طافياتُفرّقُه الرياح فيكون فوق الماء متجافيا وهما من معادن الجبال. وهذه شهادة أهل الله تعالى، أولى المطلع فى القرآن، من أهل البيان، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة، أى تتفكرون فى فناء الدنيا وزوالها وبقاء الآخرة ودوامها، فتؤثرون الباقى الدائم وترغبون فيه على الزائل الفانى، وتزهدون فيه لأن ما يكون آخره فناء يُشبه آخرُه أول أمره، وكذلك قال العليم الحكيم والآخرة خير وأبقى، فوصفها لبقائها فى المآل بوصفين من صفاته كما قال تعالى والله خير وأبقى، ولأنه قال تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق، فنسب الدنيا إلينا ليُذلّنا بها لأنّا أهل الفناء، وليُزهّدنا فيها، وأضاف الآخرة إليه ليُعزّها به لأنه أهل البقاء، وليُرغّبنا فيها، فإذا شهد العبد بعين قلبه ويقين إيمانه ما صدّق به مما عَقَله، ما يفْنَى آخرُه كأنه لم يكن، وما يَبقَى آخره كأنه لم يزل، كان من المتفكرين فى هذه الآية المشاهدين لها، وممن تلاها حق تلاوتها فآمن حقيقة الإيمان، وزَهَد فى الدنيا حقيقة الزهد، ورغب فى الآخرة حق الرغبة، وكان من أولى الأيدى والأبصار، أى من

ذوى القُوَى فى الدين والبصائر فى اليقين، فلمّا أبصر بقواه عَبَر الدنيا إلى الله تعالى، وكان زادة تقواه كما قال تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون، أى تذكرون الفرد، ففروا إلى الله، أى من الأشكال والأضداد، وكما قال فاعتبروا يا أولى الأبصار، فعَبَر لمّا أبصر، وكان ممن أخذ الكتاب بقوّة، قيل بعمل فيه، وقيل بيقين فيه، ويقال بجد واجتهاد، فكان من المحسنين الذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة.

وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض الآية، وقال ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها. ويل لمن تلاها ومسح بها سَبَلَتَه – وذلك أن السموات والأرض عبّر بهما عمّا وراءهما من درجات الجنان ودركات النيران، فكشف هذان عما علا وسَفُل وأحاط بهما من العرش والثرَى لمن تفكّر فيهما، ثم كشف ذلك له ورآه من العزة، وجاوزت الأفكار الملكوت لما شُرِحَت القلوب بأنوار اليقين إلى الأفق الأعلى، فنفذت أبصار المتفكرين بقواها إلى مشاهدة ذلك، وبقيت أنوار يقينهم مُعاينة ما أحاط بذلك، بما يشهدون إلى ما وراءه مما به أيقنوا. وللمؤمنين مشاهدة للدنيا قريبة دون هذه من طريق العقول يشهدون أنها عقوبة، كما قيل ما فَتحتُ الدنيا على عبدٍ إلاّ مكراً به، ولا زُويّت عنه إلاّ نظراً له. وسمعنا فى أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه تدرى لِمَ ابتليتُ آدم بأكل الشجرة، لأنى جعلت معصيته سبباً لعمارة الدنيا. فينبغى فى دليل الخطاب أن تكون الطاعة سبب خرابها وهو **الزهد** فيها، فصحّ بذلك الخبر المشهور حبُ الدنيا رأسُ كل خطيئة، لأنه كان أساسها. ولكن لا يسع ذلك العامة لأنهم مرادون بالعمارة، وَصَلُحَ لنفر من الخاصة لأن نقصان عددهم من الكافة لا يُنقِص عمارة الدنيا، إذ المراد عمارتها بأهلها.

ويقال عن آدم عليه السلام لمّا أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثُفْل، ولم يكن ذلك مجعولا فى شئ من أطعمة الجنة إلاّ فى هذه الشجرة، فلذلك نُهيَا عن أكلها، قال فجعل يدور فى الجنة، فأمر الله تعالى مَلَكاً يُخاطبه، فقال أى شئ تريد، فقال آدم عليه السلام أريد أن أضع ما فى بطنى من أذى، فقيل للملَك قل له فى أى مكان تضعه، على الفُرُش أم على السُرُر أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار؟ هل ترى ههنا موضعا يصلح لذلك، ولكن اهبط إلى الدنيا. قال وتلطّف الله تعالى له بهذا المعنى فأهبطَه إلى الأرض. وقد نغّص الله تعالى فاكهة الدنيا وغيّرها بحَشو العَجَم والثُفْل ليزهّد فيها، وأخبر أنها مقطوعة ممنوعة ليرغب فى الدائم الموهوب.

وكان بعض العلماء يقول ما سطع لى زينة من زُخرف الدنيا إلاّ كُشِفَ لى باطنه، فظهر لى عزوفٌ عنه، فهذه عناية من الله تعالى بمن وَلِيَهُ من أوليائه المقرّبين منه، فمن شهد الدنيا بأوّل وصفها لم يغترّ بآخره، ومَن عرفها بباطن حقيقتها لم يُعجَبَ بظاهرها، ومن كوشف بعاقبتها لم يستهوه زخرفها، وكان عيسى عليه السلام يقول ويلكم علماء السوء، مَثَلكم مَثَل قناة حُشٍّ، ظاهرُها جَصّ وباطنها نتن. وقال **مالك بن دينار** رحمه الله اتقوا السحّارة فإنها تسحر قلوب العلماء، يعنى الدنيا، فمن حرص على الدنيا بالباطل فقد قتل نفسه، فإنْ قَوِيَ حرصُها عليها واشتد عشقه لها قتل غيره. قال الله تعالى ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ولا تقتلوا أنفسكم. وقال فى قتل غيره بصدّه إياه عن سبيل الله إنّ كثيرا من الأحبار والرُهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدوّن عن سبيل الله. وروينا فى أخبار عيسى عليه السلام أنه مر فى سياحته ومعه طائفة من الحَواريّين بذهبٍ مصبوب فى الأرض فوقف عليه، ثم قال هذا القاتول فاحذروه، ثم عبر وأصحابه فتخلّف ثلاثة لأجل الذهب، فأقام اثنان ودفعا إلى واحد شيئاً منه يشترى لهم من الطيبات مِن أقرب الأمصار إليهم، فوسوس إليهما العدّو ترضيان أن يكون هذا المال بينكم أثلاثاً، اقتلوا هذا فيكون المال بينكم نصفين، فأجمعا على قتله إذا رجع إليهما، قال وجاء الشيطان إلى الثالث فوسوس إليه أرضيت لنفسك أن تأخذ ثلث المال، اقتلهما فيكون المال كله لك، قال فاشترى سمّاً فجعله فى الطعام، فلّما جاءهما به وثبا عليه فقتلاه، ثم قعدا يأكلان الطعام، فلّما فرغا ماتا، فرجع عيسى عليه السلام من سياحته فنظر إليهم حول الذهب صرعى والذهب بحاله، فعَجب أصحابه وقالوا ماشأن هؤلاء، فأخبرهم بهذه القصة.

وقيل **لابن المبارك** مَن الناس؟ قال **العلماء**، قيل فمَن الملوك؟ قال **الزاهدون**. وروينا عن ابن المسيب عن أبى ذر قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن زَهد فى الدنيا أدخَل الله تبارك وتعالى الحكمة قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصّره داء الدنيا ودواءها، وأخرجه منها سالما إلى دار السلام. وروينا فى الخبر الدنيا دارُ مَن لادار له، ومال من لامال له، ولها يجمع مَن لاعقل له. وكان **الحسن البصرى** رحمه الله تعالى يقول رأيت سبعين بدريا كانوا والله فيما أحل الله تعالى لهم أزهد منكم فيما حرّم الله تعالى عليكم. وفى حديث آخر كانوا بالبلاء والشدّة تصيبهم أشدّ فرحا منكم بالخِصْب والرخاء، لو رأيتموهم قلتم مجانين، ولو رأوا خياركُم قالوا مالهؤلاء مِنْ خَلَاق، ولو رأوا شراركم قالوا ما يؤمِن هؤلاء بيوم الحساب. قال

وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه، ويقول أخاف أن يُفسد علىّ قلبى، فمن كان له قلب حفظه من فساده وخاف من تغيّره وإبعاده، وعمل فى صلاحه وإرشاده، ومن لم يكن له قلب فهو يتقلّب فى ظلمات الهوى، فربما انقلب على وجهه خَسِرَ الدنيا والآخرة، أو يكون من أهل الرضا بالدنيا وأهل الغفلة عن آيات الله تعالى، فيكون قد رضى بلا شىء وآثره على من ليس كمثله شىء، كوَصف من أخبر الله تعالى عنه فى قوله تعالى ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون، فيستحق الإعراض من الحبيب، ويستوجب المَقْت من القريب، كمثل من أمر الله تعالى بالإعراض عنهم وترْك القبول منهم إذ يقول عزّ من قائل فأعرضْ عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلاّ الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم، قال عز وجل ولاتطع مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبّع هواه وكان أمره فُرطا، أى مجاوزا لما نَهى عنه مقصّرا عما أُمر به، وقيل مقدما إلى الهلاك.

وقد نهى الله تعالى رسوله أن يوسّع نظره إلى أهل الدنيا مقْتاً لهم، وأخبر أن ماأظهره من زَهرة الدنيا فتنةٌ لهم، وأعلمه أن القناعة والزهد خير وأبقى. تنتظم هذه المعانى فى قوله تعالى ولاتمدّن عينيْك إلى مامتّعنا به أزواجا منهم، زهرة الحياة الدنيا، لنفتنهم فيه، ورزقُ ربك خير وأبقى، قيل القناعة، وقيل قُوت يوم بيوم، ويقال **الزهد فى الدنيا**، وهذا الوجه أشبه بكتاب الله تعالى بدليل قوله تعالى والآخرة خير وأبقى، وكذلك قوله تعالى ورزق بك خير وأبقى، يعنى **الزهد فى الدنيا**. وقال أيضا فى مثله بقيةُ الله خير لكم، يعنى القناعة، وقيل الحلال، وفى خبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ فى أصحابه بعشّار من النوق حُفّل وهى الحوامل، وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسه عندهم، لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والولد والوبر، وهى الرواحل من الإبل التى ضرب النبى عليه السلام بها مَثَل خيار الناس، فقال عليه السلام الناس كإبل مائة، لاتكاد تجد فيها راحلة، أى الإبل كثيرة والراحلة التى تجمع هذه الأوصاف الخمسة من الإبل قليل، وهى العِشار التى ذكر الله تعالى فى قوله وإذا العِشار عُطّلت، أى تركها أهلها وهربوا لهول قيام الساعة شُغلاً بنفوسهم عنها، قال فأعرَضَ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغضّ بصره، فقيل له يارسول الله هذه أنفَس أموالنا، لِمَا لاتنظر إليها، فقال قد نهانى الله تعالى عن ذلك، ثم تلا هذه الآية ولاتمدّن عينيك الآية. وفى حديث عمر رضى الله عنه لمّا نزلت هذه الآية والذين يكنزون الذهب والفضة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تَبّاً للدينار والدرهم. قال فقلنا نهانا الله تعالى عن كنز الذهب والفضة

فأى شىء ندخر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة صالحة تُعينه على أمر الآخرة. وفى حديث حذيفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله تعالى بثلاث، همّاً لايفارق قلبه أبدا، وفقراً لايستغنى أبدا، وحرصاً لايشبع أبدا. وروينا حديثا مرسلا عن علىّ بن معبد عن علىّ بن أبى طلحة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايستكمل العبد الإيمان حتى يكون أنْ لايعرف أحَبّ إليه مِنْ أنْ يَعرف، وحتى يكون قلةُ الشىء أحَبَّ إليه من كثرة الشىء.

وروينا عن عيسى **عليه السلام** الدنيا قنطرةٌ خُلقت يُعبَر عليها إلى الآخرة، فاعبروها ولاتُعمّروها. وقال له رجل احملنى معك فى سياحتك، فقال أخرجْ مالك وألحقنى، قال لأستطيع، فقال عيسى عليه السلام بشدةٍ يدخل الغَنىُ الجنة، أو قال بعُجْبٍ، وقالوا له لو أمرتنا يانبى الله أن نبنى بيتا نعبد الله فيه، فقال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء، قالوا كيف يستقيم بُنيانٌ على الماء، قال فكيف تستقيم عبادةٌ على حب الدنيا. وقال لايبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى لا يُحب أن يُحمد بعبادة الله تعالى، ولايبالى من أكَل الدنيا. وكان **بشر بن الحارث** يقول لاتَحْسن التقوى إلاّ بزهد. وقال مرة العبادة لاتليق بالأغنياء. مَثَلُ العبادة على الغنى مَثَلُ روضةٍ على المزبلة، ومَثَلُ العبادةِ على الفقير مَثَلُ عِقْد الجوهر فى جيد الحسناء. وقد استنبطنا ذلك من كتاب الله، ثم قال تراهم ركّعا سجّدا، فحسُنت لِبسة العبادة عليهم لحُسْنِ سيماهم بالفقر. وروينا فى وصية لقمان لابنه وهو يحذره مداخل العدو، قال وإذا جاءك مِن قِبل الفقر فاخبره أن الغنىّ من أطاع الله تعالى، والفقير من انتهك معصيته، وإذا شهّى إليك الغِنَى فاخبره أنه لايحسُن جمع الغِنى والقراءة. وقال بعض السلف أبَى أهل العلم بالله تعالى أن يسمعوا الحكمة والوعظ إلاّ من الزاهدين فى الدنيا، قالوا ليس أهل الدنيا لذلك أهلاً ولايليق بهم.

وروينا عن **عيسى عليه السلام** فيما أوحى الله تعالى إليه يا ابن آدم، ابْكِ أيام الحياة بُكاء مَنْ ودّع الدنيا وارتفعت رغبته إلى ماعند الله تعالى. اكتف بالبُلْغَة من الدنيا ليكفك منها الجَشِب والخَشِن. بحقٍ أقول لك ماأنت إلاّ بيومك وساعتك. مكتوب عليك ماأخذت من الدنيا وفيما أنفقته، فاعملْ على حسَب هذا فإنك مسئول عنه. وكان **عيسى عليه السلام** يقول

حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وجودة الثياب خُيَلاء القلب، يعنى إعجابه وكِبْره، ومِلءُ البطن جُمَام النفس، يعنى قوّتها واجتماعها. بحق أقول لكم كما لا يُلَذ المريض بطيب الطعام كذلك لايجد حلاوة العبادة من أحب الدنيا.

ومن الزُهد فى الدنيا **ترك الملبس الناعم، والمنظور إليه المرتفع، واجتناب النزهات من لطائف الطعام، والتفتق فى الشهوات** التى يرغب فيها المتنعّمون، **وترك الزينة والمفاخر من الآلة والأثاث** الذى يَستأنس فيه المُترفون. ومن الزهد أن يكون الشىء الواحد يُستعمل فى أشياء كثيرة. كذلك كانت سيرة السلف فى **الأثاث** وهو التقلل. كما أن أبناء الدنيا يستعملون للشىء الواحد أشياء كثيرة. وهو وصفُ مَن التكاثر، وذلك من أبواب الدنيا قال بعض السلف أول النُسك **الزى**. وقال بعض العلماء من رَق ثوبه رقّ دينه. وقال ابن مسعود رضى اللّه عنه لايشبه الزى الزى حتى يشبه القلب القلب. وفى الخبر المشهور والبذاذة من الإيمان، قيل هو التقارب فى اللباس. والحديث المفسّر مَن ترك ثوب جمال وهو يَقدر عليه تواضعاً للّه تعالى خيّره اللّه تعالى من حُلل الإيمان أيها شاء. وفى لفظ آخر مَن ترك زينةً للّه تعالى ووضَعَ ثياباً حسنة تواضعاً للّه تعالى وابتغاءَ وجهه، كان حقا على اللّه تعالى أن يدّخر له من عبقرىّ الجنة فى تخات الياقوت. ولما أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أهل قبا أتوه بشَرْبةٍ من لبن مشوبةٍ بعسل، فوضع القدح من يده، قال أما أنى لستُ أحرّمه، ولكنى أتركه تواضعاً للّه تعالى. وأُتىَ عمر رضى اللّه عنه بشَرْبةٍ من ماء باردٍ عسل فى يومٍ صائف، فقال اعزلوا عنى حِسَابها. وأوحى اللّه تعالى إلى نبىّ من أنبيائه قُلْ لأوليائى لاتلبسوا ملابس أعدائى، ولاتدخلوا مداخل أعدائى فتكونوا أعدائى كما هم أعدائى. ولما خطَب بشر بن مروان على منبر الكوفة قال بعض الصحابة انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفُسّاق، قلت وماكان عليه، قال ثياب رِقاق. وجاء عامر بن عبد اللّه بن ربيعة إلى أبى ذر رضى اللّه عنه فى بِزّته فجعل يتكلم فى الزهد، فوضع أبو ذر راحته على فيه، وجعل يَضْرِط به، فغضب عامر فأتى ابن عمر رضى اللّه عنهما، فقال ألم تر مالقيت من أخيك أبى ذر، قال وماذاك، قال جعلت أقول فى الزهد فأخذ يهزأ بى، فقال ابن عمر أنت صنعت بنفسك، تأتى أبا ذر فى هذه البِزّة وتتكلم فى الزهد!

وقال علىّ كرم اللّه وجهه إن اللّه تعالى أخذ علَى أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى

أحوال الناس ليَقتديَ بهم الغنى ولا يُزرى بالفقير فقرُه. وقد عوتب عمر رضى الله عنه فى لباسه، وكان يلبس الخشن من القطن، قيمةُ قميصه ثلاثة دراهم وخمسةً دراهم، ويقطع مافضل عن أطراف أصابعه. وقال هذا أدنى إلى التواضع وأجدر أن يَقتدى بى المسلم. وأتت برود من اليمن إلى عمر رضى الله عنه فقسّمها على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بُرداً بُردا، ثم صعد المنبر يوم الجمعة فخطب الناس فى حلّة منها، والحلة عند العرب ثوبان من جنس واحد، وكان ذلك من أحسن زيهم، فقال ألا اسمعوا، ألا اسمعوا، ثم وعظ، فقام سلْمان فقال والله لانسمع والله ولانسمع. قال وماذاك، قال لأنك قد أعطيتنا ثوبا ثوبا ورُحت فى حُلة، فقد تفضّلت علينا بالدنيا، فتبسم ثم قال عَجِلتَ ياأبا عبد الله رحمك الله، إنى كنتُ غسلْت ثوبى الخَلِق فاستعرت بُردَ عبد الله بن عمر، فلبستُه مع بردى، فقال سلمان قل الآن حتى نسمع.

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التنعُّم، وقال إن عباد الله تعالى ليسوا بالمتنعمين. ورؤى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا، فقيل له أنت الأمير وأنت هكذا، فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاد وأمرنا أن نحتفى أحيانا. وروينا أن عمر رضى الله عنه خطب الناس فقال أنشد الله رجلا عَلِمَ فىّ عيْبا ألاّ أخبرنى به، فقام شاب فقال فيك عيبان اثنان، قال وما هما رحمك الله، قال تُذيّل بين البُردين وتجمع بين الأدمين، قال فما أذال بين البردين وماجمع بين الأدمين حتى لقى الله تعالى. هكذا حُدِّثْنا به، قال الشيخ بإسناده يذيّل بالذال فمعناه تجمع بين ذيليهما، فيتفق ذيل الأعلى على ذيل الأسفل من طول البُرد الأعلى، وأنا أحسب أن معناه تدّيل بالدال أى تبدل أحدهما بآخر، ويصلح أن يكون بالذال من الإذالة أى الوضع، يقال أشلّ هذا وأذلّ هذا، مثل قول الناس من إذالة العلم أن يجيب العالم عن كل مايُسأل عنه كأنه أراد تضعهما عندك معا. وقال علىّ لعمر رضى الله تعالى عنهما إنْ أردت أن تلحق بصاحبيك فارفعْ القميص ونكّس الإزار واخصف النعل وكُلْ دون الشبع. وكان عمر رضى الله تعالى عنه يقول اخلوْلقوا واخشوْشنوا وتمَعْددوا وإياكم وزِى العَجَمَ كسرى وقيصر. وقال علىّ رضى الله عنه من تزيا بزى قوم فهو منهم.

وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من هذا، إن من شرار أمتى الذين غُذُّوا بالنعيم، الذين يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدّقون فى الكلام. ولما قدم عمير بن

ـ سعد أمير حمص على عمر رضى الله عنه قال له مامعك من الدنيا ياعمير، قال معى عصاى أتوكأ عليها وأقتل بها حيةً إنْ لقيتها، ومعى جرابى أحمل فيه طعامى، ومعى قَصْعتى آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى، ومعى مِطْهرتى أحمل فيها شرابى وَوَضوءً للصلاة يعنى السطيحة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبَعٌ لما معى، فقال له عمر صدقت رحمك الله. وكان عمر رضى الله عنه قد كتب إلى أهل حمص أن عدّوا إلىّ فقراءكم، فسمّوا له فى الكتاب نفراً وذكروا فيهم سعيد بن جذيم، ويقال بل عمير بن سعد، فقال عمر مَنْ سعيد بن جذيم، فقالوا أميرنا ياأمير المؤمنين، قال أوَ فقيرٌ هو، قالوا نعم مافينا أفقر منه، قال فما فعل عطاؤه، قالوا يُخرجه كله، لايترك لنفسه ولا لأهله شيئاً منه، فوّجه إليه عمر رضى الله عنه بأربعمائة دينار وسأله أن ينفقها على نفسه وأهله، فلّما وصل إليه دخل على زوجته وهو يبكى، فقالت له ماشأنك مات أمير المؤمنين، قال أعظم من ذلك، قالت فتق فتقاً فى المسلمين، قال أشد من ذلك، قالت فما هو، قال أتتنى الدنيا، قد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تفتح الدنيا علىّ، وكنت فى أيام أبى بكر رضى الله عنه فلم تفتح الدنيا علىّ، وخُلِّفت إلى أيام عمر رضى الله عنه. ألا وشرّ أيامى أيام عمر! ثم حدّثها، فقالت نفسى فداؤك فاصنع بها مابدا لك، فقال أوَ تساعدينى على ماأريد، قالت نعم، قال اعطينى خلَقَ ذلك البُرد، قال فجعل يمزقه ويصرّهافيه صُرراً مابين العشرة والخمسة والثلاثة حتى أفناها، ثم جعلها فى مخلاة وتأبطّها وخرج، فاعترض جيشاً من المسلمين يريدون الغزو، فجعل يدفع إليهم صرة صرة على نحو مايرى من حالهم، ثم رجع ولم يترك لأهله منها ديناراً. فهذه كانت شمائل جملة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم بإحسان رضى الله تعالى عنهم.

وروينا فى حديث عياض بن غنم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف الأخيار: مِن خيار أمتى فيما أنبانى الملأ الأعلى قوم يضحكون جهراً من سَعة رحمة بهم، ويبكون سراً من خوف عذابه، مُؤْنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة، يلبسون الخُلْقان ويتبعون الرهبان، أجسامهم فى الأرض وأفئدتهم عند العرش. وفى حديث أبى الدرداء رضى الله عنه لمّا وصف الأبدال، قال فقلت له فكيف لى أن أكون بهذا الوصف وأنّى لى أن أكون مثلهم، فقال ياابن أخى مابينك وبين أن تكون فى أوّل ذلك وأوسطه إلاّ أن تزهد فى الدنيا فتعاين الآخرة بقلبك فتعمل لها. وروينا فى الخبر أن الله تعالى يحب المتبذّل الذى لا يبالى مالبس. وقال الثورى وفضيل رحمهما الله تعالى جُعل الشر كله فى بيت وجُعل مفتاحه الرغبة فى

الدنيا، وجُعل الخير كله فى بيت وجُعل مفتاحه الزهد فى الدنيا. وسئل **يوسف بن أسباط** **وسفيان الثورى** رحمهما الله أى الأعمال أفضل فقالا الزهد فى الدنيا. وهذا موجود فى ظاهر الخبر المنقول عن عيسى عليه السلام. ورويناه عن نبيّنا صلى الله عليه وسلم: حب الدنيا رأس كل خطيئة. ففى تدبره أن بغضها رأس كل طاعة. كذلك كان بعض السلف يقول كفى به ذنبا لايُستغفر منه حب الدنيا. وأشد من ذلك مارواه سفيان عن يحيى بن سليم الطائفى، رفعه إلى **رسول الله صلى الله عليه وسلم** لو أن عبداً عبَد الله تعالى عبادة أهل السموات والأرض ولقيه محباً للدنيا، لأقامه الله تعالى فى الموقف مقاماً شهّره فيه بين الخلائق، ألا إنّ فلان بن فلان قد أحبّ ماأبغضّ الله تعالى. وقال يحيى بن جابر الطائى، قال **عمرو بن الأسود العنسى** لاألبس مشهوراً أبداً، ولاأنام بليل على دثار أبدا، ولاأركب على مأبور أبدا، ولاأملأ جوفى من طعام أبدا، فقال **عمر رضى الله عنه** من سرّه أن ينظر إلى هَدْى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود. وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على **فاطمة رضى الله عنها** فرأى على بابها ستراً وفى يديّها قلبين من فضة فرجع، فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله، فقال من أجل الستر والسوارين، فهتكَتْ الستر ونزعَتْ السوارين فأرسلت بهما بلالاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالت تصدّقت به فضعه حيث ترى، فقال إذهبْ فبِعْه وادفعه إلى أهل الصفّة، فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق به عليهم، فدخل عليها وقال بأبى أنت قد أحسنت. وفى الخبر مامن عبد لبس ثوب شُهرة إلاّ أعرض الله تعالى عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيبا. وقال **سفيان الثورى** وغيره إلبس من الثياب مالم يُشْهِرك عند العلماء ولايُحقرْك عند الجُهّال. وكان يقول إن الفقير ليمر بى وأنا أصلى فأدعه يجوز، ويمر بعض هؤلاء من أبناء الدنيا وعليه هذه البِزّة فأمقته فلا أدعه يجوز. قال بعضهم مارأيت الغنىّ فى مجلس قط أذلّ منه فى مجلس الثورى رحمه الله تعالى، ولارأيت الفقير أعزّ منه فى مجلس الثورى. وقال آخر كنا إذا جلسنا إلى **سفيان** تمنينا أنّا كنّا فقراء لمّا نرى من إقباله عليهم وإعظامه لهم. وقال بعضهم إنما العالم هو الذى يقوم الفقير من عنده غنياً والغنى من عنده فقيرا. وقال بعضهم قوّمت ثوبىّ **سفيان** ونعليّه بدرهم وأربعة دوانيق.

وقال **ابن شبرمة** خير الثياب ماخدمنى وشرّها ماخدمته. وقال بعض السلف أحب الثياب إلىّ مالا يستخدمنى، وأحب الطعام إلىّ مالا أغسل يدىّ منه. وقال بعض العلماء إلبس من

الثياب مايخلطك بالسُوقة، ولاتلبس منها مايُشهّرك فيُنظَر إليك. قال وعَدَدْنا فى قميص عمر رضى الله عنه أربع عشرة رُقعة بعضها من أدَم. وكان بعض العلماء يقول كثرة الثياب على ظهر ابن آدم عقوبة من الله تعالى له. وكان **الخوّاص** رحمه الله تعالى لايلبس أكثر من قطعتين، إزارين أو قميص ومئزر تحته، ويعطف ذيل قميصه على رأسه يُحله فى وسطه فيغطى به رأسه. وكذلك استُحب للفقير وهو حد اللباس. وقال **سليمان الدرانى** رحمه الله تعالى الثياب ثلاثة، ثوب لله تعالى، وثوب للنفس، وثوب للناس، فالذى لله تعالى ماستر العورة وأُديت فيه الفريضة، والذى للنفس ماطلبتَ لينه ونقاءه، والذى للناس ماطلبتَ جوهره وحُسنه. ثم قال وقد يكون الثوب الواحد لله تعالى وللنفس. وقد كان بعض العلماء يكره أن يكون على الرجل من الثياب مايجاوز قيمة أربعين درهماً، وبعضهم يقول إلى المائة ويعده سرَفا فيما جاوزها. وكان **جمهور العلماء وخيار التابعين** قيمة ثيابهم مابين العشرين إلى الثلاثين. وكان المتقدمون من **الصحابة** أثمان إزارهم إثنا عشر درهماً، فكانوا يلبسون ثوبين قيمة نيّف وعشرين درهما.

واشترى **رسول الله صلى الله عليه وسلم** ثوبا بأربعة دراهم، وكان قيمة ثوبيْه عشرة إلى دينار. وكان طول إزاره أربعة أذرع ونصف. واشترى سراويل بثلاثة دراهم. وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف. وكانت تُسمى حلّة لأنهم ثوبان من جنس واحد. وربما لبس ثوبين من جنس واحد، وربما لبس بردتين أو سحوليين من هذه الغلاظ. وفى الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيّات. وقد لبس عليه السلام يوماً واحداً ثوب سيراء من سندس قيمته مائتا درهم، فكان أصحابه يلمسون ويقولون أُنزل عليك هذا من الجنّة، تعجباً منه. وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية فأراد أن يكرمه بقبول هديته ويلبسه، ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به، ثم حرّم لبس الحرير والديباج. وقد يكون لبسه إياه توكيدا للتحريم بعده، كما لبس خاتما من ذهب يوما واحدا ثم نزعه فحرّم لبسه على الرجال، كما أباح المتعة ثلاثاً ثم حرّمها لتوكيد أمر النكاح. وقد يحتج بمثل هذا علماء الدنيا ويطرقون به لنفوسهم ويدْعُون الناس منه إليهم ويُظهرون الدعوة إلى الله تعالى تأوّلاً بمتشابه الحديث، كما تأوّل أهل الزيغ متشابه القرآن على أهوائهم ابتغاء الفتنة وطلباً للدنيا، لأن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على معانى كلام الله تعالى فيه ناسخ ومنسوخ، ومُحكم ومتشابه، وخاص وعام. وعدَل علماء الدنيا وأهل الأهواء عن المُحكم السائر

من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله إلى ماذكرناه، وقد صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خميصة لها علَم، فلما سلّم قال شغلنى النظر إلى هذه. إذهبوا بها إلى أبى جهم وأتونى بأنبجانيته يعنى كساءه، فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم. ورأى على باب عائشة رضى الله عنها ستْرًا فهتكه وقال كلما رأيته ذكرت الدنيا، أرسلى به إلى آل فلان، وفرَشَت له عائشة رضى الله عنها ذات ليلة فراشا جديدا وكان ينام على عباءة مَثْنيّة، فما زال يتقلب ليلته، فلما أصبح قال أعيدى العباءة الخَلِقة ونحّى هذا الفراش عنى. قد أسهرنى الليلة. وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة عشاءً فبيّتها، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل، قالت عائشة فنام حينئذ حتى سمعْت غطيطه، ثم قال ماظنُّ محمدٍ بربه لو لقىَ الله تعالى وهذه عنده. وكان شراك نعله العربى قد أَخْلَقَ فأبدل بسيْر جديد فصلّى فيه، فلما سلّم قال أعيدوا الشراك الخلق، وانزعوا هذا الجديد فإنى نظرت إليه فى الصلاة. ولبس خاتما فنظر إليه وهو على المنبر بنظرة فرمى به، وقال شغلنى هذا عنكم، نظرةٌ إليه ونظرةٌ إليكم.

وقد قال تعالى قل إن كنتم تحبون الله فاتبّعونى يُحببكم الله. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحبنى فليستن بسُنتى. وقال فى الخبر المشهور عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، عضّوا عليها بالنواجذ. وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول من علامة حب الله تعالى حب النبى عليه السلام، ومن علامة حب النبى صلى الله عليه وسلم حب السنة، ومن علامة حب السُنة بُغض الدنيا، وعلامة بغضها أن لايأخذ منها إلاّ زاداً وبُلْغَة. وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها إنْ أردتِ اللحوق بى فإياك ومجالسة الأغنياء، ولاتنزعى ثوبا حتى ترّقعيه. وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخرّ ساجداً، وقال أعجبنى حسنهما فتواضعتُ لربى خشية أن يمقتنى. ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه، وأمر علياً رضى الله عنه فاحتذى له نعلين سنديتين، قال فرأيته وقد لبسهما يعنى جَرْداوين، أى معطوفتين. وقال صلّى الله عليه وسلم إنّ أقرب الناس منى مجلسا يوم القيامة مَن كان علَى مثل ماأنا عليه من الدنيا. وكان صلى الله عليه وسلم يقول اللّهم اجعل رزق آل محمد قوُتا. وقال عليه السلام لايعذب الله عبداً جعل رزقه فى

الدنيا قُوت يوم بيوم. وقال عليه السلام طوبى لمن هُدى إلى الإسلام وكان رزقه فى الدنيا قوتا وقنع به، وفى لفظ آخر وصبَر عليه. وقال عليه السلام مامِن أحد غنى ولافقير إلا ودّ يوم القيامة أنّ رزقه كان فى الدنيا قوتا. وروينا عنه صلى الله عليه وسلم اللّهم مَن أحبّنى وأجاب دعوتى فاقللْ ماله وولده، ومن أبغضنى ولم يُجب دعوتى فأكثر ماله وولده وأوطىء عَقِبَيه، يعنى كثرة الأتباع. وكانت هذه دعوة الصحابة على مَنْ مقتوه.

وروينا فى الخبر نقصان الدنيا زيادة الآخرة، وزيادة الدنيا نقصان الآخرة. وفى الأثر مامِنْ أحد أُعطى من الدنيا شيئاً إلاّ نقّص من درجته وإنْ كان على الله تعالى كريما. وقال **إبراهيم بن أحمد الخوّاص** رحمه الله تعالى فى وصف المدّعين، وقومٌ ادّعوا الزهد ولبسوا الفاخر من الثياب، يموهون بذلك على الناس ليهدُوا إليهم مثْلَ لباسهم، ولئلا يُنظر إليهم بالعين التى يُنظر بها إلى الفقراء فيُحتقرون فيُعطون كما يُعطى المساكين، ويَحتجون لنفوسهم باتسّاع العلم وأنهم على السُنّة، وأن الأشياء داخلةٌ عليهم وهم خارجون منها، وإنما يأخذون بعلّة غيرهم. هذا إذا طولبوا بالحقائق وأُلجؤا إلى المضايق. وكل هؤلاء أكَلَة الدنيا بالدين، لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولابتهذيب أخلاق نفوسهم، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادّعوا حالاً لهم، مائلون إلى الدنيا متبّعون الهوى. وكان الخواص رحمه الله تعالى لا يلبس أكثر من قطعتين، إزارين وقميص، ومئزر تحته، ويعطف ذيل قميصه على رأسه يُغطِى به رأسه. وكذلك استحب للفقير هذا اللباس.

والأخبار فى فضائل الفقر وفضل الفقراء وفى ذم الدنيا ونقص الأغنياء أكثر من أن تُذكر، ولم نقصد جمعها ولاكثرة الاستدلال بها. ومن الزُهد ترك فضول البنيان وأن لايُبنى عالياً ولامشيداً ولامن الطين إلاّ مايُحتاج إليه. وقيل **أوّل بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم** المناخل والموائد، وأوّل شىء ظهر من طول الأمل التدريز والتشييد، يعنى دروز الثياب، وإنما كانت تُشلّ شلاً، والبنيان بالجَص والآجر وهو التشييد، وإنما كانوا يبنون بالسعَف والجَريد. وقد جاء فى الأثر يأتى على الناس زمانٌ يوشّون بنيانهم كما تُوشّىَ البرود اليمانية. ونظر عمر رضى الله عنه فى طريق الشام إلى صَرح قد بُنِىَ بجَص وآجر فكبّر، وقال

ماكنت أظن أن فى هذه الأمة من يبنى بنيان هامان لفرعون، يعنى قول فرعون فأوقد لى يا هامان على الطين يعنى به الآجر. يقال أوّل من بنى بالجّص والآجر فرعون وهامان ثم تبعهما الجبابرة، فهذا هو الزُخرف. وذكر بعض السلّف جامعاً فى بعض الأمصار، فقال أدركتُ هذا المسجد مبنياً من الجريد والسعف، ثم رأيته مبنيا من رهُوص، ثم رأيته الآن مبنيا باللّبِن، فكان أصحابُ السعف خيرا من أصحاب الرهوص، وكان أصحاب الرهوص خيرا من أصحاب اللبن. وقد كان فى السلف من بنى داره مرارا فى مدة عُمره، لضعف بنائه وقصَر أمله ولزهده فى إتقان البنيان، وكان منهم مَن إذا حجّ أو غزا نزع بيته أو وهبَه لجيرانه، فإذا رجع أعاده. وكانت بيوتهم من الحشيش والثُمام والجلود، وعلى ذلك العرب ببلاد اليمن إلى اليوم. وأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم العباس رضى اللّه عنه أن يهدم علّية كان قد علا بها. ومر عليه السلام بُجنُبْذة مُعَلاّة فقال لمن هذه، قالوا لفلان فلما جاء الرجل أعرض عنه فلم يكن يُقبِل عليه كما كان، فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأخبروه فرجع فهدَمها، فمّر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالموضع فلم يرها فسأل عنها، فأُخبر أنه هدَمها فدعا له بخير.

وكان سُمكُ بناء السلف قامة وبَسْطة. وقال الحسن كنت إذا دخلت بيوت أصحاب النبى صلى اللّه عليه وسلم ضربت بيدى إلى السقف. وقال عمرو بن دينار إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك إلى أين يافاسق الفاسقين. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من بنى فوق مايكفيه كُلّف أنْ يحمله يوم القيامة. ومر عمر رضى اللّه عنه ببيت مالٍ فقال أبَتْ الدراهم إلاّ أنْ تُخرج رؤسها. ومر بعاملٍ له فرآه قد علّى وشيّد فقال علّى كل خائنٍ أمينان، الماء والطين، ثم شاطره ماله فجعله فى بيت المال. وفى الخبر كل نفقة يؤجَر عليها العبد إلاّ ما أنفقته على الماء والطين. وقد روينا عن بعض السلف إذا مقَت اللّه تعالى مالَ عبدٍ سلّط عليه الماء والطين. وقال يحيى بن يمان رحمه اللّه كنت أمشى مع الثورى فى طريق فنظرت إلى باب مُشيّد، قال لاتنظر إليه، فقلت يا أبا عبد اللّه ماتكره من النظر، قال إذا نظرت إليه كنتَ عوناً له على بنائه، لأنه إنما بناه ليُنظَر إليه، ولو كان كل مَنْ مرّ به لم ينظر إليه ماعَمِله.

وقد قال بعض السلف قبله ولاتنظر إلى بنيانهم فإنهم إنما زخرفوه لأجلكم، وفى قول اللّه تعالى تلك الدّار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علُواً فى الأرض ولافسادا، قيل حب الكثرة

والرياسة والتطاول فى البنيان. وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كُل بناءٍ وبالٌ على صاحبه يوم القيامة إلاّ ماأكَنّ من حَرٍ أو بَردٍ. وقال للرجل الذى شكا إليه ضيق منزله اتسعْ فى السماء أى فى الجنة، وهذا أحد التأويلين، والثانى اتسعْ فى المعرفة ولاتطلب اتساع المكان.

واعلم أن الزهد لايُنقص من الرزق ولكنه يزيد فى الصبر ويُديم الجوع والفقر، فيكون هذا رزقاً للزاهد من الآخرة على هذا الوصف من حرمان نصيبه من الدنيا وحمايته عن التكثّر منها والتوّسع فيها، ويكون الزهد سببه، فيكون ماصرفه عنه ومنعه من الغنَى والتوسع رزْقه من الآخرة والدرجات العلى بحُسن اختيار من الله تعالى وحيطةٍ نظرٍ. كما حُدِّثنا عن بعض العلماء أن بقّالاً جاءه فقال إنى كنت أبيع فى محلةٍ لا بقّال فيها غيرى، فكنت أبيع الكثير، ثم قد فَتح علّى بقالٌ آخر، فهل يُنقص ذلك من رزقى فى شيأ، فقال لا ولكن يزيد فى بطالتك عن البيع. فلعّل بطّالا لاعبا يحتّج لتوسعه وهواه ويُموّه على أبناء الدنيا ممن يتولاه، فيقول بأن الزهد فى الدنيا لمّا لم يُنقصِ من رزقى شيأً قد صح مقاماً لى مع التوسع والاستكثار، وعلى التنعم والرفاهية والاستئثار، لأنى إنما آكل رزقى وآخذ قِسْمى. فلى فى الزهد مقام، ومن الرضا والتوكل حال. أو يقول إنّ الزهد قد يصبح مع التكاثر والزينة، يُزَخرف بقوله علّى مَن لايعرف الزهد، ويَغُرّ بمقالته من لايعرف طريق الزاهدين، ولعله ممن يأكل الدنيا بالدين، أو يُزخرف القول ويُشبّه العلم على الغافلين، فمثّله كما قال علىّ رضى الله عنه للخوارج حين قالوا لاحُكْمَ إلاّ لله، فقال كلمة حق أُريد بها باطل. وَصَدَقَ رضوانَ الله عليه لأنهم أرادوا بذلك إسقاط حُكم الأئمة وترك الطاعة للإمام العادل. كما أراد القائل إنما آكل رزقى وآخذ من الأشياء قِسْمى الاحتجاج لنفسه بهواه، والاعتذار عند الجاهلين خيفةً لومِهِم إياه. ولايعلم المغرور بداء الغرور أنه وإنْ كان يأكل رزقه من الدنيا ويأخذ قِسْمه من العطاء فبحكم النَقْص والبُعد، بوصف الرغبة والحرص، لأن السارق والغاصب أيضا يأكل رزقه ويأخذ قِسْمه ولكن بحكم المقْتْ وسوء الاختيار، إذ كان الله سبحانه وتعالى يرزق الحرام للظالمين كما يرزق الحلال للمتّقين، وإنما بينهما سوء القضاء ودَرْك الشقاء للأعداء، وحُسن التوفيق والاختيار بالسعادة للأولياء من المولّى الكريم. فقد حُرِم المدّعِى لذلك رزقه من الزهد، وبخَسَ نصيبه الأوفر من حب الفقر، ونَقّص حظه الأفضل من الآخرة، وجَعَلَ ماصرَف فيه وماصُرِف إليه سببا لنقصان مرتبته من طرائق الزاهدين. ولقد أُختبر بالدنيا وبما فُتِح عليه من السرّاء

ليَظهر صدقه من كذبه فوقع فى الفتنة ولم يفطن للابتلاء، وصارت مشاهدته هذه إذا كان صادقا فيها غير كاذب على وَجْده حجاباً له عن علوم العارفين المعصومين. واستُدرج بعلمه هذا، لأنه علم من علوم الدنيا، يَفنَى بفنائها لا ثمرة له فى الباقية، مُكِرَ به فيه وعُدِلَ به إليه عن علوم الخائفين ومشاهدة الورعين الزاهدين الذين نظروا من الحلال فى الدقيق، وصدقوا القول فى ترك الرغبة بالعمل بالزهد للتحقيق. وإنْ كان كاذبا فى مشاهدته ظالما لنفسه بما ادّعاه من وجْده فهو من أولياء الشياطين ومن أئمة المضلين، قُيِّض للاعبين وسيق إليهم فتنةً لهم، ليس إماما للمتّقين بل من الأئمة المضلّين المحرومين أبناء الدنيا الغافلين، رغبةً فى الدنيا وزهداً فى طرائق السلف، لوجود الطمع وعدم اليقين. فقد مُكِرَ بهذا المعدول به عن علوم الموقنين وحقائق مشاهدتهم على هذا الوصف الذى أُريد به بالذى تقلّب فيه، وهو لايشعر بالمكر ولايعرف الاستدراج بالنِعَم. وأنّى له بعلم ذلك والله تبارك وتعالى يقول سنستدرجهم من حيث لايعلمون. وقال تعالى ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون. فهيهات أن يفطن الممكور لما مُكِرَ به أو يعلم المُستدرَج مادُرِجَ فيه، لأن الماكر ألطف الماكرين والمُدرِج أحكم الحاكمين. نعوذ بالله تعالى من الاغترار بعلم الإظهار، ونسأله الصلاة على نبيه محمد وآله أجمعين، وحُسن التوفيق لمشاهدة علم التحقيق.

وبمثل ماقلناه جاءت الآثار وكثُرت الأخبار أنّ مَثَل **الدنيا والآخرة** كضرّتين، رِضا إحداهما فى سُخْط الأخرى، وأنهما بمنزلة المشرق والمغرب من استقبل أحدهما استدبر الآخر، وأنهما بمنزلة كَفتّى الميزان رُجحان إحداهما بنقصان الأخرى. وكان **عمر رضى الله** عنه يقول والله إنْ هما إلاّ بمنزلة قَدَحيْن لك مُلِيء أحدهما فما هو إلاّ أنْ تُفرغ أحدهما فى الآخر، يعنى أنك إنْ إمتلأت من الدنيا تفرّغتَ من الآخرة، وإنْ امتلأت من الآخرة تفرّغت من الدنيا، وإنْ كان لك ثُلث قدح الآخرة أدركتَ ثلثىّ قدح الدنيا، وإن كان لك ثُلثا قدَح الآخرة يكون لك ثلث قدح الدنيا. وهذا تمثيل حَسَن إلاّ أن فيه شدّة وتدقيقاً.

وقال بعض السلف مَثَل مَن زَهد فى الدنيا مع التنعّم فيها كمثَل مَن يغسل يدّيه من الغَمْر بسمك. وقال آخر مَثَل مَن زهد وهو يطلب الدنيا مَثَل من يطفيء النار بالحَلْفاء. وكان بعض الزاهدين من أهل الشام يتكلم فى الزهد فكان رجاء بن حيوة فقيه أهل الشام يحضر مجلسه، فاحتبس الزاهد يوما عنهم وقد اجتمعوا، فتكلم مؤذن الجامع فى الزهد، فانكر صوته

رجاء بن حيوة فقال اسكت عافاك الله، إنّا نكره أن نسمع الزهد إلاّ من أهله. وفى لفظ آخر إنّا نكره أن نسمع الوعظ إلاّ من أهل الزهد. وقال **عيسى عليه السلام** لاتنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإنّ بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم. وقال بعض العلماء تقليب الأموال يمُص حلاوة الإيمان. وروينا فى الخبر لكل أمةٍ عجْل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم. وكان أصل العجل من الحلية. وقال عز وجل ابتغاء حلية أو متاع زبدٌ مِثْله، فكان فهم هذه السُنّة عن سمع هذه الآية.

ويقال مامن يوم ذى شارقة إلاّ وأربعة أملاك ينادون فى الآفاق بأربعة أصوات، ملَكان بالمشرق وملَكان بالمغرب، يقول أحدهما من المشرق ياباغىّ الخير هلّم وياباغى الشر أقْصِر، ويقول الآخر اللهّم أعط مُنفقا خلفاً واعط ممسكاً تلفا. ويقول أحد اللذّين فى المغرب لِدُوا للموت وابنوا للخراب، ويقول الآخر كُلوا وتمتعوا لطول الحساب. وقال بعض العلماء إن الله تعالى وَسَم الدنيا بالوحشة ليجعل أُنس المطيعين به. وبلغنا أن من دعاء **أبى بكر الصدّيق** رضى الله عنه – اللّهم إنى أسالك الذُل عند النِصْف من نفسى، والزهد فيما جاوز الكفاف.

وقال بعض العارفين مامن شىء إلاّ وهو مطروح فى الخزائن، إلاّ الفقر مع المعرفة فإنه مخزوم مختوم عليه لايُعطاه إلاّ من طُبِعَ بطابع الشهداء. وقد يحتج بعض علماء الدنيا لأنفسهم بتفضيل الغِنَى على الفقر، بتأويل الخبر من قوله تعالى «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»، وهذا عند أولى الألباب فى تدبر الخطاب مَعْنىّ به الفقراء، وقد رجع به الفقراء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يستفتون منه ماأخبر به فقال لاتعجلوا فإن الذى قلت لكم كما قلت هو «فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء»، وأنتم ممن يشاء أن يؤتيه فضله. فصحّ تأويلنا هذا بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم. وفى الحديث المفسر الذى رويناه عن زيد بن أسلم عن أنس رضى الله عنه قال بعث الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولاً فقال إنى رسول الفقراء إليك، فقال مرحباً بك وبمن جئتَ من عندهم، من عند قوم أحبهم. قال قالوا يا رسول الله إنّ الأغنياء ذهبوا بالجنّة، يحجون ولانقدر عليه، ويعتمرن ولانقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرةً لهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبلغْ عنى الفقراء أنه لمن صبَر واحتسب منكم **ثلاث خصال** ليست للأغنياء. أما خصلة **واحدة** فإنّ فى الجنة غُرفا يَنظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لايدخلها إلاّ نبى فقير، أو

شهيد فقير، أو مؤمن فقير. **والثانية** يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام، **والثالثة** إذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، وقال الفقير مثل ذلك، لم يلحق الغنى الفقير وإنْ أنفق فيها عشرة آلاف درهم، وكذلك أعمال البر كلها. فَرجع إليهم فقالوا رضينا رضينا، فهذا يدل على صحة تأويلنا. وقد روينا معنى هذا مجملاً فى الخبر الذى رويناه عن إسمعيل بن عياش عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضى الله عنهما، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أى الناس خير، قالوا موسر من المال يُعطِى حق الله فى نفسه وماله، فقال نِعْم الرجل هذا وليس به. قالوا فَمن خيرُ الناس، قال مؤمن فقير يُعطِى جُهده، فذهب القوم إلى **عِلْم العقل** فردّهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى **علم اليقين**. فكذلك من فضّل حال الغنِى على حال الفقر فإنه ينظر فى العلم بعين العقل، وإنما تُشْهَد الآخرة والحقيقة بعين اليقين. وهذا نص فى تفضيل حال الفقر، فمَنْ فضّل الغنى بعده فقد عاند السُنّة إنْ كان عالما، وإنْ كان جاهلا فمقامه فى الجهل أضرّ عليه من نُطقه بالعلم بهوى. وفى الخبر الآخر خير هذه الأمة فقراؤها، وأسرعها تضجّعا فى الجنة ضعفاؤها. وقال صلّى الله عليه وسلم لبلال إلْق الله تعالى فقيرا ولاتلقه غنيا. قال وكيف لى بذلك، قال إذا سئلت فلا تمنع، وإذا أعطيت فلا تَخْبَأ. أفَتُراه كان يأمر بلالاً بأدنى الحالين فكيف وهو من أعلى الصحابة. فأشبه الفقر فى الأحوال اليقين فى الإيمان، كما قال لابن عمر إعمل لله بالرضا واليقين فإن لم يكن فإن فى الصبر على ماتكره خيراً كثيراً. فرفعه إلى اليقين لفضله كما رفع بلالاً إلى الفقر لشرفه فى الأحوال، فلم يكن صلى الله عليه وسلم يرضى لبلال إلاّ مايرضاه لنفسه، فصار الفقر حال الموقن لأنه يكشف الآخرة، وصار الشكر فى الغنى حال المؤمن لأنه يوجد الدنيا، ففضل الفقير الزاهد على الغنى الشاكر كفضل الموقن الشاهد على الموقن المجاهد. وكذلك روينا فى حديث عطاء عن أبى سعيدٍ الخُدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللّهم تَوفنى فقيراً ولاتَوفنى غنياً. ولم يكن ليأمر بلالاً بأدنى الحالين فيقول إلْق الله تعالى فقيرا، كما لم يندب ابن عمر إلى أخفض المقامين لقوله إعْملْ لله تعالى بالرضا فى اليقين. وكذلك جاء فى الخبر المشهور الذى دعا فيه صلى الله عليه وسلم لنفسه أن يحييه الله تعالى مسكينا ويتوفاه مسكينا ويحشره فى زُمرة المساكين. كل ذلك لتفضيل الفقر وتشريف الفقراء مع قوله صلى الله عليه وسلم يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام. وروينا عن **عيسى عليه السلام** أنه قال إنى لأحب المَسْكَنة وأبغض المال

للغنىّ، وإنّ فى المال داءً كثيراً، قيل ياروح الله وإنْ كان يكتسبه من حلال؟ قال يشغله كسبه عن ذكر الله تعالى. وقال **وهب بن منبه** لابن عباس إنّا نجد فى التوراة أن الفقير المصلح خير من الغنى المصلح. قال ابن عباس أما علمت أنه لاشيء أحب إلى الله تعالى من الفقير إذا كان صالحا؟ وقيل كان أحب الأسماء إلى **عيسى عليه السلام** أنْ يُدعَى به أنْ يقال له يامسكين. وكان يقول من شرّ الغِنَى أنّ العبد يعصِي ليستغنِي ولايعصى ليفتقر. وقد قال بعض حكمائنا فى كلام منظوم:

ياعاتبــا للفقــر تبغــى الغِنــَى * عيــْبُ الغنــى أعظــمُ لو تَعتبــر

إنــك تعصــِى لتنــالَ الغنــى * ولســتَ تعصــِى اللـّه كى تفتقر

وروينا فى حديث عطاء عن أبى سعيد الخدرى ياأيها الناس لاتَحملكم العُسْرَة والفاقة على أن تطلبوا الرزق من غير حلّه فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللّهم توفنى فقيراً ولاتوفنى غنيا، واحشرنى فى زُمْرة المساكين. وقال **لقمان** لابنه يابنى إنّ من أعوْن الأخلاق على صلاح الدين زهداً فى الدنيا، مَنْ يزهد فى الدنيا يرغب فيما عند الله تعالى، ومَن يرغب فيما عند الله تعالى يعمل لله تعالى، ومَن يعمل لله تعالى يَأجره الله تعالى. وقال **الحَواريون** ياروح الله نحن نصلى كما تصلى، ونصوم كما تصوم، ونذكر الله تعالى كما أمرتنا، ولا نقدر أن نمشى على الماء كما تمشى أنت، فقال أخبرونى كيف حبكم للدنيا، قالوا إنّا لَنُحبها، فقال إن حبّها يُفسد الدين، لكنها عندى بمنزلة الحجَر والمَدر. وفى خبر آخر أنه رفع حجراً فقال أيهما أحب إليكم هذا أو الدينار والدرهم، قالوا الدينار، قال فإنهما عندى سواء.ويُقال إنّ مَنْ صحّ زهده فى الدنيا حتى يستوى عنده الذهب والحجر مشى على الماء، وقد اشتَهُر ذلك فى العامة حتى قال الشاعر:

لو كان زُهدُك فى الدنيا كزُهدِك فِى * وَصْلِى مَشَيْتَ بلا شك على الماء

وروينا عن **موسى عليه السلام** أنه مرّ برجل نائم على التراب وتحت رأسه لَبِنَة ووجهه ولحيته فى التراب، وهو متّزر بشَمَل عباءة، فقال يارب عبدك هذا فى الدنيا ضائع. فأوحى الله تعالى إليه يا موسى أما علمتَ أنّى إذا نظرت إلى عبدى بوجهى كله زَوَيْتُ عنه الدنيا كلها. وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيّه إسمعيل عليه السلام اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم، قال يارب ومن هم، قال الفقراء الصادقون. فهذا كأنه مفسّر لخبر موسى عليه السلام فى قوله أين

أجدُك، قال عند المُنكسرة قلوبهم. وقد كان أحمد بن عطاء وهو من المتأخرين يفضّل حال الغنى على الفقر لشُبْهة دخلت عليه، وهو أن بعض الشيوخ سأله عن الوصفين أيهما أفضل، قال الغنى لأنه صفة الحق، فقال له الشيخ فالله غنى بالأعراض والأسباب فانقطعْ، ولم ينطق بحرف. وهذا كما قال الشيخ لأن الله تعالى غنيٌ بوصفه، فالفقير أحق بهذا المعنى لأنه غنيٌ بوصفه بالإيمان لا بالأسباب لانفرادها عنه، فهو الأفضل. فأمّا الغنى فإنه مشتّت مُجتمع بالأسباب، فهو مفضول بالارتياب. وقد خالفه الخوّاص فوُفّق للصواب وكان فوقه فى المعرفة، فقال فى كتاب شرف الفقر: والفقر صفة الحق أى صفةٌ منه يصف به الفقراء، فوافَقنا فى التأويل، يعنى أنه تعالى متخلٍ عن الأشياء منفرد عنها. ووجه آخر من الغلط الذى دخل عليه من جهة الغنَى الذى ذكره، لأنه إنْ كان فضّل الغنَى على الفقر لأنه صفة الحق فينبغى أن يُفضّل المتكبّر الجبار، ومَنْ أحبّ المدح والعز والحمد لأن ذلك كله صفة الحق فلما أجمع أهل القبْلة على ذَمّ مَن كان هذا وصفه، كان مَن وَصْفُه الغنى فى معناه، لأن وَصْفَ الغنِى صفة الحق مقترن بالعز والكبر، وينبغى أن يُسلِّم صفات الحق للحق ولاينازع إياها ولايشارك فيها، فبطل قول ابن عطاء لصحة قول الرسول صلّى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى العزّ إزارى، والكبرياء ردائى، من نازعنى أحدهما قصمْتُه فى النار. وقد خالفه أيضا ووافقنا مَن لايشك الخاص والعام فى فضل معرفته عليه أبو محمد سهل بن عبد الله فقال: مَن أحبّ الغنَى والبقاء والعز فقد نازع الله تعالى صفاته، وهذه صفات الربوبيّة، يخاف عليه الهلكة. فإذا ثبت ذلك كان الفقر أفضل لأنه وَصْف العبودية، فمن جعله وصفه فقد تحقق بالعبودية. وأوصاف العبودية هى أخلاق الإيمان، وهى التى أحبها الله تعالى من المؤمنين، مثل الخوف والذل والتواضع، والفقر مضافٌ إليها. وأوصاف الربوبية ابتلى به قلوب أعدائه الجبّارين والمتكبّرين مثل العز والكبر والبقاء، والغنَى مضموم إليها. وكان الحسن رحمه الله يقول مارأيت الله تعالى جعل البقاء إلاّ لأبغض خلقه إليه وهو إبليس. وكذلك كان العلماء يقولون لاترغبوا فى البقاء فى هذه الدنيا فإن شرار الخَلْق أطولهم بقاءً، وهم الشياطين. والغنَى إنما يُراد للبقاء. ويقال إن الجنيد رحمه الله تعالى باهَلَ ابن عطاء فى هذه المسئلة ودعا عليه لأنه أنكر قوله أشد الإنكار، وكان يقول الفقير الصابر أفضل من الغنيّ الشاكر وإنْ تساويا فى القيام بحُكم حالهما، لأن الغنيّ يمتّع نفسه وينعّم صفته، والفقير الصابر قد أدخل على صفته الآلام والمكاره فقد زاد عليه بذلك. وهذا كما قال. وكذلك كان أحمد بن حنبل يقول ماأعدل بالفقر

شيئاً. وكان يفضل حال الفقر ويعظّم شأن الفقير الصابر. وقال المروزى وذكَرَ بعض الفقراء فجَعَل يُمجّده ويكثر السؤال عنه، قال فقلت له يحتاج إلى علم، فقال ويحك اسكت. صبره على الفقر ومُقاساتهُ للضُرّ فيه خير من كثير من العلم. ثم قال هؤلاء خيرٌ منا بكثير. وأقول إنّ مَن فضّل حال الغنى على الفقر فإنه لم يذق مرارة الفقر ولاحلاوته، فهو غرٌ بشدته فاقدٌ لحلاوته، لأنه لو ذاق مرارته من الضُرّ والهّم لفضّله، ولو أُذيق حلاوته من الزهد والرضا لما فضّل عليه. وقد روينا فى الخبر يقول إبليس لم ينج الغنىّ منى من إحدى ثلاث خصال، أنْ أُحَبّب إليه المال فيكتسبه من غير حقه، أو يضعه فى غير حقه، أو يمنعه من حقه. فلو لم يعلم العدو أنّ الفقر من أفضل الأحوال ماقَعَد على طريقه. وقد قال لأقْعدنّ لهم صراطك المستقيم، فأخبر الخبر عنه فقال الشيطان يعدكم الفقر، أى يُخوّفكم به. فجاء الفقير الصادق فسلك الطريق المستقيم إلى الآخرة واطّرَحَ تخويف العدوّ بحول الله وقوّته. وقَبِلَ الأغنياءُ المغتبطون بغناهم تخويف العدوّ فجانبوا الفقر فحاق بهم مَثَل السوء. من ذلك قوله إنما ذلكم الشيطان يُخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون، فقبلوا تخويف الشيطان وخالفوا ندب الرحمن، فكانوا كمن قيل فيهم ومن الناس من يعبد الله على حرف فإنْ أصابه الآية. فلو لم يكن من فضل الزاهدين إلاّ أنهم تَوسّطوا الطريق الذى هرب الناس منه، وأمِنوا بالتوكل على الله والرضا عنه ماخافه أبناء الدنيا، لكفاهم.

ذِكرُ ماهية الدنيا وكيفية الزهد فيها وتفاوت الزُهّاد فى مقاماتهم

ثم إن الدنيا هى نصيب كل عبد من الهوى وما دنا من قلبه من الشهوات، فمن زهد فى نصيبه ومِلْكه من هواه المذموم فهذا هو **الزهد المفترض**. ومن زهد فى نصيبه من المباح وهو فضول الحاجة من كل شيء فهذا هو **الزهد المُفَضّل**. يرجع ذلك إلى حظوظ جوارحه التى هى أبواب الدنيا منه وطرقها إليه. فالزهد فى محرماتها هو **زهد المسلمين**، به يحَسُن إسلامهم. والزهد فى شبهاتها هو **زهد الورعين**، به يكمل إيمانهم. والزهد فى حلالها من فضل حاجات النفس هو **زهد الزاهدين**، به يصفو يقينهم.

وروينا فى حديث عمرو بن ميمون عن الزبير بن العوّام أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له يازبير أجهد نفسك عند نزول الشهوات والشبهات بالورع الصادق من محارم الله عز وجل، تدخل الجنة بغير حساب. وكان **سهل** يقول فى فضائل الزهد وأعلى مقاماته، لايتم زهد عبد

حتى يزهد فى هذه الثلاث، فى الدرهم الذى يريد أن ينفقه فى أبواب البّر يتقرّب بذلك إلى الله تعالى، ويزهد فى الثياب التى تستر بدنه فى الطاعات، ويزهد فى قُوته الذى يستعين به على العبادة. وإنما قال هذا لأن عنده حقيقة الزهد من أفضل المقامات كلها، لأنه كان يقول يُعطى الزاهد جميع ثواب العلماء والعُبّاد، ثم يُقسَّم على المؤمنين ثواب أعماله. وقال لا يوافى القيامة أحد أفضل من ذى زهد وعالمٍ ورع. وقال أيضا لايُنَال الزهد إلا بالخوف لأن من خاف ترك، فجعل الزهد مقاما فى الخوف رفعه مزيد الهَمّ عليه. وقد روى مسروق عن ابن مسعود ركعتان من زاهدٍ قلبه خيرٌ له وأحب إلى الله تعالى من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمداً.

ولانهاية للزهد عند طائفة من العارفين لأنه يقع عند نهاية معارفهم بدقائق أبواب الدنيا وخفايا لوائح الهوى. وقال بعضهم **نهاية الزهد** أن تزهد فى كل شىء وتتورع عن كل شىء للنفس فيه متعة وبه راحة، فهذا كما روى عن **عيسى عليه السلام** أنه وضع تحت رأسه حجراً فكأنه لمّا ارتفع رأسه عن الأرض استراح بذلك، فعارضه إبليس فقال يا ابن مريم ألست تزعم أنك قد زهدت فى الدنيا، قال نعم، قال فهذا الذى وطأته تحت رأسك من أى شىء هو، قال فرمى عيسى عليه السلام بالحجر وقال هذا لك مع ماتركت ومثله. وروينا عن **يحيى بن زكريا** عليهما السلام أنه لبس المسُوح حتى نقب جلده فسألته أمه أن ينزع مدْرعته الشعر ويلبس مكانها جُبّة من صوف ففعل، فأوحى الله تعالى إليه يايحيى آثرت علىّ الدنيا، قال فبكى ونزعَ الصوف وردّ مدرعته الشعر على جسده. وكان **الحسن** يقول أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلاّ ثوبه، وماوضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط. كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه.

واعلم أنى رأيت جُمَل النعَم **ثلاثا** وتمامها بالزهد، وذلك أن أصل النِعَم كلها **الإسلام** لأن من ورائه مقامات كثيرة أخطئوا فيها حقيقة التوحيد. ثم النعمة الثانية **السُنّة** إذ من ورائها بِدَع كثيرة كلهم أخطئوا حقيقة السنة. والنعمة الثالثة **العلم بالله تعالى** لأن من ورائه جهلاً كثيراً بعظمة الله تعالى وقدرته. ثم الزهد فى الدنيا فمن أُعطيه مع الثلاث تمّت عليه النعم فكان مع الذين أنعم الله تعالى عليهم من النبّيين والصديقّيين والشهداء والصالحين، أى تمت نعمة الله عليهم، لأن من ورائه حرصاً كثيراً على الشبهات ورغبة عظيمة فى الشهوات. وقد

كان سهل رحمه الله تعالى يجعل **الزهد من شرط السُنّة والاتّباع** بقوله تعالى قل إن كنتم تحبون الله فاتبّعوني، قال فمن السُنّة اتّباع الرسول صلى الله عليه وسلم وكان زاهدا. ثم تفاوت الزاهدون لأى شيء زَهَدُوا مقامات، فمنهم من زهد إجلالاً لله تعالى، ومنهم من زهد حياءً من الله تعالى، ومنهم من زهد خوفاً من الله تعالى، ومنهم من زهد رجاءً موعوداً لله تعالى، ومنهم من زهد مُسارعةً منه لأمر الله تعالى، ومنهم من زهد حباً لله تعالى وهو أعلاهم، وأدناهم من زهد مخافة طول الوقوف ومناقشة الحساب، كما قيل ذو الدرهمين أشدُ حساباً يوم القيامة من ذى الدرهم، ولأن طريق المتقين لايسلكه من مَلَكَ فى الدنيا زوجين من شىء، وما أحدٌ يُعطى من الدنيا شيأ إلاّ قيل خذه على ثلاثة أثلاث، ثلثٌ هَمٌ، وثُلثٌ شُغْلٌ، وثلثٌ حسابٌ. وإنّ الرجل من الأغنياء ليُوقَف للحساب ما لو وَرَدَ مائة بعير عطاش على عَرَقِه لصدرن رواء، وإنه ليَرى منازله من الجنة. فلما وَقَر هذا فى قلوب الورعين أشفقوا من طول الحساب فزهدوا فى الجمع والمنع، وفارقوا فضول الآمال طلباً لخفة السؤال وسرعة الوقوف فى الأهوال.

ومن الزهد فى الدنيا حب **الفقر وأهله**، ومجالسة **المساكين** فى أوطانهم، والتذلل لهم كما كان مطرف رحمه الله تعالى يجالس المساكين فى بزّته يتقرب بذلك إلى ربه. وكان **محمد بن يوسف الأصفهانى** عالما زاهدا، ومن الناس من كان يُفضله على الثورى رحمه الله تعالى، إلاّ أنه كان يؤثر الخمول فلم يكن يعرفه إلاّ العلماء. وكان من حسن رعايته وشدة يَقظته يعمل فى كل وقت أفضل مايقدر عليه فى ذلك الوقت، فلما طلبه ابن المبارك قال له بعض مَنْ يعرف حاله أنّ ذاك لايكون فى المِصْر إلاّ فى أفضل موضع فيه، قال فهو إذاً فى الجامع فطلبه فقيل له إنه لايقعد إلاّ فى أفضل مكان، قال فطلبه عند الفقراء فإذا هو دسّ رأسه وأَخْمَل نفسه مع المساكين، فكان عنده أنّ أفضل وَطَن فى المصر الجامع، لأنه يُقال إن الصلاة بخمسين صلاة، وأنّ أفضل الأماكن موضع الفقراء من الجامع، وأنّ أفضل الأحوال الخمول، فلذلك أخمل نفسه فيما بين الفقراء فى الجامع ليحوز فواضل الأعمال. ومن الزهد أن يكون بفقره مغتبطا مشاهداً لعظيم نعمة الله تعالى عليه به، يخاف أنْ يُسلب فقره ويُحوّل عن زهده، كما يكون الغنى مغتبطا بغناه يخاف الفقر. ثم وجود حلاوة الزهد حتى يعلم الله من قلبه أن القِلّة أحب إليه من الكثرة، وأنّ الذل أحب إليه من العز، وأنّ الوحدة آثر عنده من الجماعة، وأن الخمول أعجب إليه من الاشتهار، فهذا من إخلاصه فى زهده.

وروينا عن **عيسى عليه السلام** وعن نبينا عليه السلام **أربعٌ** لايُدركن إلا بِعَجَب: الصمت وهو أوّل العبادة، والتواضع، وكثرة الذِكْر، وقلة الشيء، وقال **الثورى** رحمه الله تعالى لايكون الرجل عالماً حتى يَعُدّ البلاء نعمة والرخاء عقوبة. قال بعض السلف لايفقه العبد كل الفقه حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، والذل آثر عنده من العز. وقد روينا خبرا مقطوعا لايبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون «أن لايعرف» أحب إليه من «أن يعرف»، وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته. وكان السلف الصالح يقولون نعمة الله علينا فيما صرف عنا من الدنيا أعظم من نعمته فيما صرف إلينا. وكان **الثورى** رحمه الله تعالى يقول الدنيا دار التواء لا دار استواء، ودار ترَح لامنزل فرح، من عرَفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء. وكان **سهل بن عبد الله** رحمه الله يقول لايصح التعبد لأحد، ولايخلص له عمل حتى لايجزع، ولايفر من أربعة أشياء: الجوع والعرى والفقر والذل. كما روينا أن **إبراهيم التيمى** رحمه الله تعالى دُفع إليه خمسون درهم فردّها، فقيل له لِمَ رددتها، فقال أكره أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء بخمسين ألفا.

ومن الزهد عند الزاهدين ترك **فضول العلوم** التى معلوماتها تُؤّل إلى الدنيا وتدعو إلى الجاه والمنزلة عند أبنائها، وفيما لانفع فيه فى الآخرة ولاقُربة به عند الله تعالى، وقد تَشغَل عن عبادة الله تعالى، وتُفَرِّق الهَمّ عن اجتماعه بين يدى الله تعالى، وتُقَسّى القلب عن ذكر الله تعالى، وتحجُبُ عن التَفكّر فى آلائه وعظمته. وقد أحدثت علوم كثيرة لم تكن تُعرف فيما سلف اتخذها الغافلون علما، وجعلها البطّالون شُغْلاً، انقطعوا بها عن الله تعالى، وحُجِبوا بها عن مشاهدة علم الحقيقة، لانستطيع ذكرها لكثرة أهلها إلاّ أنْ نُسئل عن شىء منها أَعِلمٌ هو أم كلام، أم حق أو تشبيه، أو صدق وحكمة، أو زُخرف وغرور أمْ سُنّة هو، عتيقٌ أو محدثٌ وتشديق، فحينئذ نخبر بصواب ذلك.

ومن أفضل الزهد الزهد **فى الرياسة** على الناس وفى **المنزلة والجاه** عندهم، والزهد فى حب **الثناء والمدح** منهم، لأن هذه المعانى هى من أكبر أبواب الدنيا عند العلماء، فالزهد فيها هو **زهد العلماء**. وكان **الثورى** رحمه الله تعالى يقول الزهد فى الرياسة، ومدح الخلْق أشد من الزهد فى الدينار والدرهم، قال لأن الدينار والدرهم قد يُبذَلان فى طلب ذلك. وكان يقول هذا باب غامض لا يُبصره إلاّ **سماسرة العلماء**. وقال **الفضيل** رحمة الله تعالى نقْل

الصخور من الجبال أيسر من إزالة رياسة قد ثبتّت في قلب جاهل. وذهب **أويس القرني** رحمه الله تعالى إلى أن الزهد هو ترك الطلب للمضمون. قال هَرِم بن حبّان لقيته على شاطئ الفرات يغسل كِسَراً وخِرَقاً قد التقطها من المنبوذ، وكان ذلك أكله ولباسه. قال فسألته عن الزهد أي شئ هو؟ فقال في أي شئ خرجت؟ قلت أطلب المعاش، فقال إذا وقع الطلب ذهب الزهد. وكان **أحمد بن حنبل** رضي الله عنه يقول لا زهد إلاّ زُهد أويس، بلّغ به العُرى حتى قعد في قوْصرة.

وكان **أبو سليمان الداراني** رحمه الله تعالى يقول الزهد **في النساء** أنْ تختار المرأة الدُون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والمرأة الشريفة. وذهب إلى هذا مالك بن دينار. وقال **سهل بن عبد الله** رحمه الله تعالى لا يصح الزهد في النساء لأنهن قد حُبِّبْن إلى سيد الزاهدين. ووافقه **ابن عيينة** فقال ليس في كثرة النساء ذنب لأن أزهد الصحابة **عليّ بن أبي طالب** رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشر سرية. وكان **الجنيد** يقول أُحِبُّ للمريد المبتدى أن لا يشغل قلبه بهذه **الثلاث** وإلاّ تغيّر حاله: التكسب وطلب الحديث والتزوج. وقال أُحبُّ للصوفي أن لا يقرأ ولا يكتب لأنه أَجْمَعَ لِهَمِّه. وفي الخبر إنما الزهد أن تكون بما في يد الله سبحانه وتعالى أوثق منك بما في يديك، فهذا **مقام التوكل**. وذهب قوم إلى أن الزهد **ترك الادخار**. وقال بعضهم الدنيا هو ما شغل القلب واهتّم به، فجعلوا الزهد **ترك الاهتمام وطرح النفس** تحت تصريف الأحكام، وهذا هو **التفويض والرضا**. وقال **أحمد بن أبي الحواري** قلت لأبي سليمان الداراني أنّ **مالك بن دينار** قال للمُغيرة إذْهب الى البيت فخذ الركْوة التي كنتَ أهديتّها لي فإنّ العدو يوسوس إليّ أنّ اللص قد أخذها، فقال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفيين، هو قد زهد في الدنيا ما عليه من أخْذها. فأراد **أبوسليمان** منه حقيقة الرضا بجريان الأحكام، وأراد **مالك** من نفسه حقيقة الزهد بأن يصرف عن قلبه الاهتمام.

وقال بعض العلماء الدنيا هو العمل بالرأي والمعقول، والزهد هو إنما اتباع العلم ولزوم السنّة، وهذه **طريقة أهل الحديث**، وهذا القول من الظواهر يُشبه قول علماء الظاهر. كما

روينا عن **سفيان** قال قالوا **للزهرى** ما الزهد، قال ما لا يغلب الحرام صبره، ولا يمنع الحلال شُكره، يعنى أن يكون العبد صابرا عن الحرام حتى لا تغلبه شهوة الحرام، ويكون شاكراً فى الحلال حتى لا يغلبه الحلال فيشغله عن الشكر. أمّا **الحسن** فإنه قال الزاهد هو الذى إذا رأى أحدا قال هذا أفضل منى، فذهب إلى أن الزهد هو **التواضع**. وكان **الفضيل** يقول القناعة هو الزهد. وقال أبو سليمان **الورع** هو أوّل الزهد. وقال **أحمد بن أبى الحوارى** قلت لأبى هشام المغازلى أى شئ الزهد، قال **قطع الآمال وإعطاء المجهود وخلع الراحة**. وكان **يوسف بن أسباط** يقول من صَبَّر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من حلاله فقد أخذ بأصل الزهد، وقال أحمد قلت **لأبى صفوان الرعينى** ما الدنيا التى ذمّها الله تعالى فى القرآن وينبغى للعاقل أن يجتنبها، قال كل ما عملت فى الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أصبت فيها تريد به الآخرة فليس منها. فحدّثت به مروان فقال الفقه ما قال أبو صفوان. إنما قال ذلك لأن الدنيا كل شئ إلاّ الإخلاص، فما وافق العلم فهو مباح، وما خالفه فهوى. والهوى حظ النفس، والإخلاص حظ الرب عز وجل، فالمخلصون بيّنةُ الله عز وجل من عباده على عدوّه، وهم أهل الآخرة فى الدنيا.

وكان **ابن السماك** يقول الزاهد قد خرجت الأفراح والأحزان من قلبه فهو لا يفرح بشئ من الدنيا أتاه، ولا يحزن على شئ منها، فإنه لا يبالى على عُسْر أصبح أم على يُسر. وقال **أبو سعيد بن الأعرابى** عن أشياخه الصوفية إنما الزهد عندهم خروج قدْر الدنيا من القلب إذ هى لا شئ، ولا يكون فى نفسه زاهداً لأنه لم يترك شيئاً إذ كانت لا شئ. وهذا لعمرى هو **الزهد فى الزهد** لأنه زَهَدَ ثم لم ينظر إلى زُهده فزَهَدَه، إذ لم ير شيئاً لأنه زَهَدَ فى لا شئ. وهذا يشبه ما نقول إن حقيقة الزهد هو **الزهد فى النفس**، لأنه قد يزهد فى الدنيا لنفسه طلبا للعوَض، فيكون ذلك رغبة على صفة، فإذا زَهَد فى النفس التى لا يريد لها الأعواض على الزهد فهو حقيقة الزهد. وهذا يشبه قول من قال إن حقيقة الزهد فى الفناء هو الزهد فى البقاء، لأن العبد ربما زهد فى الفناء فلم يزهد فى البقاء فيكون فيه بقية من الرغبة، فإذا زهد فى البقاء فهو حقيقة الزهد فى الفناء إذ كان الفناء يراد للبقاء.

فصل آخر

إن الرغبة فى الهوى حقيقة الدنيا . وإنْ كان العبد زاهداً فى المال من قبَل أنه يُعطَى الزهد فى شئ دون شئ، كما يزهد فى الثناء ولا يزهد فى المال ولا يُعطى الزهد فى الأطعمة، وقد يُعطى الزهد فى المال ولا يُعطى الزهد فى منصبه لغلبة الهوى، فإذا أُعطى الزهد فى الهوى كائناً ما كان فقد أُعطى حقيقة الزهد فى الدنيا وهذا هو **الزهد فى النفس**، لأن النفس عين الرغبة، والهوى روح النفس، فاعرف هذا . وكان **يونس بن ميسرة الجيلانى** يقول ليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله تعالى أوثق منك بما فى يديك، وأن يكون حالك فى المصيبة وحالك إذا لم تُصَب بها سواء، وأن يكون ذامُّك ومادِحُك فى الحق سواء.

وقال سلاّم بن أبى مُطيع رحمهما الله الزهد على ثلاثة أوجه، **واحد** أن تُخلص العمل لله عز وجل والقول فلا يراد بشئ منه الدنيا، **والثانى** ترك ما لا يصلح والعمل بما يصلح، **والثالث** الحلال أن يزهد فيه وهو تطوّع. وكان إمامنا فى هذا العلم **إبراهيم بن أدهم** رحمه الله يقول الزهد ثلاثة أصناف، **زهد فرْض، وزهد فضل، وزهد سلامة**، فالزهد الفرض فى الحرام، والفضل الزهد فى الحلال، والسلامة الزهد فى الشبهات. وأما **أيوب السختيانى** رحمه الله فكان يقول الزهد أن يقعد أحدكم فى منزله، فإن كان قعوده لله تعالى رضا وإلاّ خرج، وإنْ يخرج فإنْ كان خروجه لله تعالى رضا وإلاّ رجع، فإنْ كان رجوعه لله تعالى رضا وإلاّ ساح، ويُخرج درهمه فإنْ كان إخراجه لله رضا وإلاّ حبسه، ويحبسه فإن كان حبسه لله تعالى رضا وإلاّ رمَى به، ويتكلم فإنْ كان كلامه لله تعالى رضا وإلاّ سكت، فإنْ كان سكوته لله تعالى رضا وإلاّ تكلم، فقيل هذا صعب، فقال هذا الطريق إلى الله عز وجل وإلاّ فلا تلعبوا . فقد ذهب إلى أن **الزهد هو المراقبة، والمراقبة هى الإخلاص.**

وسئل حاتم **الأصم** صاحب شقيق البلخى رحمهما الله تعالى عن الزهد فقال أوّله الثقة، وأوسطه الصبر، وآخره الإخلاص. وذهبت طائفة إلى أن الزهد فى الدنيا فريضة على المؤمنين لأن حقيقة الإخلاص هو الزهد عندهم، فأوجبوه من حيث أوجبوا على المؤمنين الإخلاص، ومال إلى هذا القول عبد الرحيم بن يحيى الأسود. وقد روينا معناه عن الإمام **أحمد بن حنبل** رحمه الله، قيل لأحمد بأى شئ ذُكِر القوم وصاروا أئمة، فقال بالصدق، قالوا وما الصدق،

قال الإخلاص، قيل وما الإخلاص، قال هو الزهد، قيل وما الزهد يا أبا عبد الله، فأطرق ثم قال سلوا الزهّاد، سلوا **بشر بن الحارث**. وقال قوم الزهد في الدنيا طلب الحلال، وإنه واجب مُفترض في مثل زماننا هذا لاختلاط الأشياء وغلبة الشبهات، قالوا فقد تعين **فرض الزهد وهذا مذهب إبراهيم بن أدهم ووهيْب بن الورد وسليمان الخوّاص وجماعة من أهل الشام**. وقد كان سهل يقول أزهد الناس في الدنيا أصفاهم مطعما، وقال أقصى مقام في الورع أدنى مقام من الزهد. وقد روينا عن **يوسف بن أسباط ووكيع** رحمهما الله، قالا لو زهد عبد في زماننا هذا حتى يكون كأبي ذرّ وأبي الدرداء ما سمّيناه زاهداً، لأن الزهد عندنا إنما هو في الحلال المحض، ولا نعرف الحلال المحض اليوم. وكذلك كان **الحسن البصري** رحمه الله إمام الأئمة يقول لا شئ أفضل من رفض الدنيا، وكان **الحارث بن أسد المحاسبي** رحمه الله يقول إنما الزهد إسقاط قيمة الدنيا من القلب، وأن لا يكون لشئ عاجل في القلب وزن، فإذا سقطت قيم الأشياء واستوت في القلب فهو الزهد.

فأما **أبو يزيد البسطامي** رحمه الله فإنه كان يقول ليس الزاهد من لا يملك شيئاً، إنما الزاهد من لا يملكه شئ. وقال عالم مثله في معناه الزاهد من لا يتملك الأشياء ولم يسكن إليها، وكان يقول الزاهد قُوته ماوَجد، وثوبه ما ستَر، وبيته ما أوَاه، وحاله وقته. وقال بعض العارفين الزُهد إنما هو ترك التدبير والاختيار، والرضا والتسليم لاختياره، شدةً كان أو رخاء، وهذا طريق **الخوّاص والثوري وذي النون** رحمهم الله تعالى. وقال **أبو يزيد** رحمه الله مرة إنما الزاهد من لا يملك شيأ ولا يملكه شئ، وقال حقيقة الزهد لا يكون إلاّ عند ظهور القُدرة، والعاجز لا يصبح زهده هو أن يعطيه كن ويطلعُه على الاسم ويُقدرُه على الأشياء، وإنما زهده أن يزهد في ذلك حياءً من الله تعالى ويتركه حباً له. وكان يستعيذ بالله من أربعة وعِشرين مقاما من إظهار القدرة. وقال لأبي موسى عبد الرحيم في أى شئ تتكلم، قلت في الزهد، قال في أي شئ قلت في الدنيا، قال فنفض يده، وقال ظننتُ أنه يتكلم في الزهد في شئ، الدنيا لا شئ، إيش تزهد فيه؟ وذهب إلى هذا المعنى **سهل** وغيره. وقال سبعة عشر مقاما في المعرفة أدناها المشي على الماء وفي الهواء وظهور كنوز الأرض، وهذا كله من زخرف الدنيا.

وقد حُكي لنا معنى هذا عن **الجنيد**، قال اجتمع أربعة من الأبدال في جامع المنصور ليلة العيد، فلما أسحروا قال أحدهم أما أنا فقد نويت أن أصلي العيد في بيت المقدس، وقال الآخر أما أنا فقد نويت أن أصلي العيد بطرسوس، وقال الثالث أما أنا فقد نويت أن أصلي

العيد بمكة، وسكت الرابع وكان أعرفهم، فقيل له أنت أي شئ نويت، فقال أما أنا فقد نويت اليوم ترك الشهوات لا أصلى إلاّ فى هذا المسجد الذى بتّ فيه، فقالوا أنت أعلمنا فقعدوا عنده، فصار عند هؤلاء كما ذكرناه آنفا. وهذه الآيات من الشهوات وليست حاجات مقامات، والشهوات من الدنيا، وعند الزهّاد العارفين والمحبين ربما كانت مكراً وخداعاً يُبتلون به ليُنظَر كيف يعملون، إذ ابتلاء كل عبد على قدر مرتبته وحاله، فيلزمه الزهد فيه. ويقال هى فى المقام السابع عشر من المعرفة، فمن سلك به الطريق رآها فيه، وفوقها نيف وسبعون مقاما أفضل من ذلك.

وقد سئل **الجنيد** عن الزهد فقال: معنيان، ظاهر وباطن، فالظاهر بُغض ما فى الأيدى من الأملاك وترك طلب المفقود، والباطن زوال الرغبة عن القلب ووجود العزوف والانصراف عن ذكر ذلك، فإذا تحقق بذلك رزقه الله تعالى الإشراف على الآخرة والنظر إليها بقلبه، فحينئذ يجّد فى العمل بتقصير الأمل وتقريب الأجل، لأن الأسباب عن قلبه منقطعة والقلب منفرد بالآخرة وقد خلُصت حقيقة الزهد إلى قلبه، فامتلأ من الذكر الخالص لربه سبحانه وتعالى، فالزهد عن حقيقة الإيمان والمشاهدة للآخرة يكون بعد الزهد واستواء الأشياء، فيكون عدمها كوجودها بعد المشاهدة، لاستواء القلب ومعه يستوى المدح والذم، لسقوط النفس وذهاب رؤية الخلق، فعندها خلُص الإخلاص إلى قلبه لصفاء الزهد، وثبت الزهد لسقوط النفس. ودليل ذلك الخبر الذى رويناه عن **النبى صلى الله عليه وسلم** قال لرجل هل استويت، قال وكيف أستوى، قال يستوى عندك المدح والذم.

وقد نوّع أهل المعرفة الإيمان فى القلب على مقامين، فجعلوا لهما زهدين، فقالوا إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب العبد الدنيا وأحب الآخرة وعمل لهما، فإذا بطن الإيمان فى سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها. وقد كان **أبو سليمان** يقول مَنْ شُغِل بنفسه شُغلَ عن الناس وهذا مقام العاملين، ومن شُغلَ بربه سبحانه وتعالى شُغلَ عن نفسه وهذا مقام العارفين، ولهذين المقامين دليل من السنّة أن **النبى صلى الله عليه وسلم** سئل أى الناس خير، فقال من يشنأ الدنيا ويحب الآخرة. فأوْقع الشنآن للدنيا لوقوع ضدهٌ من حب الآخرة. والمقام الأعلى دليله مَن جعل الهموم هَمّاً واحدا كفاه الله تعالى أمر آخرته ودنياه، وألْهَمَ الواحد بوْجد واحد لربٍ واحد، هو وصفُ عبدٍ متوحد لواحد، مقاله إلى واحد، وقد وهَب له خُلُقا من أخلاقه، فهو الأحد بوحدانية صفته، وعبدٍ متوحد بوَجْده بين خَلْقه، فهو منفرد الهَمّ مجتمع القلب، وانفراد الهَمّ يكون بعد الهَوى، ومحوه بعد امتحان القلب

للتقوى، واجتماع القلب يكون مع طيب النفس وطمأنينتها بالإيمان، أو فلاحها بالتزكية والرضا كما قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم طيب النفس من النعيم. وقال الله تعالى قد أفلح من زكّاها. وقال تعالى راضية مرضية، فيكون متوْحداً بالروح مُخلّقةٍ بأخلاق الإيمان، مواطِئة للقلب بمشاهدة اليقين. وقال وهب بن منبّه وجدت فيما أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام من أحبّ الدنيا أبغضه الله تعالى، ومن أبغضَها أحبّه الله تعالى، ومن أكرم الدنيا أهانه الله تعالى، ومن أهانها أكرمه الله تعالى.

وأما **علماء الظاهر** فقالوا الزهد فى الدنيا هو موافقة العلم، والقيام بأحكام الشرع، وأخذ الشئ من وجهه ووضعه فى حقه، وماخالف العلم فهو هوىً كله، فذكروا فرْض الزهد وظاهره، ولم يعرفوا دقائقه وبواطنه. وقد روينا عن **سفيان بن عيينة والثورى** معنى هذا أنهما سُئلا أيكون الرجل زاهدا وله مال، قالا نعم إذا كان إذا ابتُلى فصبر، وإذا أُنعم عليه شكَر، قال ابن أبى الحَوارى فقلت له يا أبا محمد، يعنى ابن عيينة، قد أُنعم عليه فشكر وابتُلى فصبر، وحبَسَ النعمة، فكيف يكون زاهداً؟ فضربنى بيده وقال اسكت. من لم تمنعه النعماء من الشكر ولا البلوى عن الصبر فذلك هو الزاهد. ووافقهما الزهرى فقال كذلك. وقد فصّل ذلك أبو سليمان فقال ابن أبى الحوارى، قلت له أكان داود الطائي رحمه الله تعالى زاهدا، قال نعم قلت بلغنى أنه ورث من أبيه عشرين دينارا فأنفقها فى عشرين سنة، فكيف يكون زاهدا وهو يمسك الدنانير، فقال أردت منه أن يَبْلُغ حقيق الزهد. ولعمرى إنّا روينا عن **رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم** نِعِمّا بالمال الصالح للمرء الصالح. والمال الصالح هو الحلال، والمرء الصالح المنفق ماله بالليل والنهار، سراً وعلانيةً فى سبيل الله ابتغاء مرضاته، كما وصفه الله تعالى ومدحه.

وقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أن الله تعالى يُعطى الدنيا من يُحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلاّ من يحب. والذى يحبه الله تعالى ممن أعطاه الدنيا لا يخالف حبيبه إلى هواه، ولا يؤثر نفسه على محبة مولاه تبارك وتعالى، إذ قد تولاه فيما أعطاه. وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر. والطاعم الشاكر هو الذى يستعين بطِعمته على خدمة مولاه ويعبده شكراً لما أولاه. وقد قالوا فى الزهد وصفان جامعان لأحوال القلوب: قال مضاء بن عيسى قلت **للسبّاع الموصلى** يا

أبا محمد إلى أى شئ أفضَى بهم الزهد؟ قال إلى الأنس بالله تعالى. وقال **عثمان بن عمارة:** كان يقال الورع يُبْلغ بالعبد إلى الزهد، والزهد يبلغ به حبّ الله تعالى. فهذان الحالان غاية الطالبين. الحب للجليل والأنس باللطيف، فمن لم يتحقق بالزهد لم يبلغ مقام الحب ولم يدرك حال الأنس. ثم إنّ سرائر الغيوب فى مقام الحُب والخُلّة، وفى حال الأنس والقُربة.

وفقنا الله وإياكم لما يحب، وبلّغنا مانؤمّل بفضله ورحمته، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العظيم. وهذا آخر كتاب الزهد.

شرح مقام التوكل ووصف أحوال المتوكلين وهو المقام السابع من مقامات اليقين

التوكل من أعلى مقامات اليقين وأشرف أحوال المقرّبين. قال الله الحق المبين إنّ الله يحب المتوكلين، فجعل المتوكل حبيبه وألقى عليه محبته. وقال الله عز وجل وعلَى الله فليتوكل المتوكلون، فرفع المتوكلين إليه وجعل مزيدهم منه. وقال جلّت قدرته ومن يتوكل على الله فهو حَسْبُه، أى كافيه مما سواه، فمن كان الله تعالى كافيه فهو شافيه ومعافيه ولا يَسأل عما هو فيه، فقد صار المتوكل على الله تعالى من عباد الرحمن الذين أضافهم إلى وصف الرحمة، ومن عباد التخصيص الذين ضمن لهم الكفاية، وهم الذين وصفهم فى الكتاب بقوله سبحانه وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنا إلى آخر أوصافهم، وهم الذين كفاهم فى هذه الدار المهمات، ووقاهم بتفويضهم إليه السيآت، بقوله تعالى أليس الله بكافٍ عبده، وقوله تعالى وأفوّض أمرىَ إلى الله إن الله بصير بالعباد، فوقاه الله سيآت ما مكروا. وليس هؤلاء من عباد العدد فقط الذين قال الله عز وجل إنّ كل من فى السموات والأرض إلاّ آتى الرحمن عبدا، لقد أحصاهم وعدّهم عداً.

وقال بعض **الصحابة** وغيره من التابعين التوكل نظام التوحيد وجِمَاع الأمر. وقال **أبو الدرداء** ذروة الإيمان الإخلاص والتوكل والاستسلام للرب عز وجل. وكان **أبو محمد سهل** رحمه الله يقول ليس فى المقامات أعز من التوكل، وقد ذهب الأنبياء بحقيقته وبقى منه صبابة انتشقها الصدّيقون والشهداء، فمن تعلّق بشىء منه فهو صدّيق أو شهيد. وقال بعض العارفين وهو **أبو سليمان الدارانى** فى كل المقامات لى قَدَم إلاّ هذا التوكل المبارك فما لى منه إلاّ مشامّ الريح. وقال **لقمان** فى وصيته لابنه ومن الإيمان بالله عز وجل التوكل على الله فإن التوكل على الله يحبب العبد، وإن التفويض إلى الله مِن هَدْى الله، ويهدى الله يوافق العبد

رضوان الله، وبموافقة رضوان الله يستوجب العبد كرامة الله. وقال **لقمان** أيضا ومن يتوكل على الله ويُسلم لقضاء الله ويفوّض إلى الله ويَرْضَ بقدر الله فقد أقام الدين وفرّغ يديه ورجليه لكسب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التى تُصلح للعبد أمره. وقال بعض علماء الأبدال وهو **أبو محمد سهل** العلم كله باب من التعبد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل. قال فليس للتوكل حد ولا غاية تنتهى إليه. وقال أيضاً فى قول اللهّ عز وجل ليبلُوَكم أيكم أحسن عملا،قال أصدقُ توكلاً. وقال التقوى واليقين مثل كفتّى الميزان، والتوكل لسانه، به تُعرف الزيادة والنقصان. وسُئل عن قول الله عز وجل فاتقوا الله ما استطعتم، قال بإظهار الفقر والفاقة إليه، وسئل عن قوله تعالى اتقوا الله حقّ تُقاته، فقال اعبدوه بالتوكل.

وقال **أبو يعقوب السوسى** لا تطعنوا على أهل التوكل فإنهم خاصة الله الذين خُصّوا بالخصوصية فسكنوا إلى الله واكتفوا به واستراحوا من هموم الدنيا والآخرة. وقال من طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان لأنه مقرون به. ومن أحبّ أهل التوكل فقد أحبّ الله تعالى، فأوّل التوكل المعرفة بالوكيل وأنه عزيز حكيم، يعطى لعزه ويمنع لحكُمه، فيعتز العبد بعزه ويرضى بحكُمه. وكذلك أخبر عن نفسه ونبّه المتوكلين عليه، فقال سبحانه ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم، عزّ من أعزّ بعطيته، ونظَر لمن منَعه بحكمته، فإذا شهد العبد الذليل الملك الجليل قائماً بالقسط والتدبير والتقدير، عنده خزائن كل شىء وكل شىء عنده بمقدار لا يُنزله إلاّ بقَدْر معلوم، عندها نظر العبد الذليل إلى سيده العزيز فقَوِىَ بنظره إليه، وعزّ بقوّته به، واستغنى بقربه منه، وشَرُفَ بحضوره عنده، وحينئذ نظر إليه فى كل شىء ووثق به واعتمد عليه دون كل شىء، وقنع منه بأدنى شىء، وصبر عليه ورضى عنه إذ لا بد له منه، فثم لا يطمع فى سواه ولا يرجو إلاّ إياه، ولا يشهد فى العطاء إلاّ يده، ولا يرى فى المنع إلاّ حكمته، ولا يعاين فى القبض والبسط إلاّ قدرته، هناك حقّت عبادته وخَلُص توحيده، فعرف الخلق من معرفة خالقه، وطلب الرزق عند معبوده ورازقه، وقام بشهادة ما قال تعالى إنّ الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه، فعندها لم يحمد خلقا ولم يذمه، ولم يمدحه لأجل أنه منعه أو أنه أعطاه، فالله هو الأول المعطى، فإن شكر أو مدح أو ذمّ فإنما لأن مولاه مدحه وأمره بالشكر له تخلّقا بأخلاقه، واتباعاً لسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم، لأنه تعالى قد مدح المنفقين وذم الباخلين،

والفَرق بين الحمد والشكر أنّ الحمد مفرد لا ينبغى إلاّ لله، وهو الاعتراف بأن النعمة من الله عز وجل ولذلك قال الحمد لله رب العالمين، أى الحمد كله لا يكون ولا ينبغى إلاّ لله لأنه رب العالمين. وفى الخبر الحمد رداء الرحمن عز وجل، والشكر إظهار الثناء وإسرار الدعاء للأواسط، فهذا مشترك يدخل فيه الوالدان، وهو أيضا مخصوص لمن هو أهل أنْ يشكر من الناس.

وروى بعض العلماء عن الله تعالى لو أن ابن آدم لم يخف غيرى ما أخفته من غيرى، ولو أن ابن آدم لم يرج غيرى ماوكَلْتُه إلى غيرى. وقال **الفضيل بن عياض** من خاف الله خاف منه كل شىء. ويقال إن الخوف من المخلوقات عقوبة نقصان الخوف من الخالق، وأنّ ذلك من قلة الفقه عن الله تعالى. وقد قال الله أحسن القائلين فى معناه لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون، فكان العبد إذا تم خوفه من الله تعالى أزال ذلك الخوف خوف المخلوقين عن قلبه، وحوّل ذلك فى قلوب المخلوقات فصارت هى تخافه إنْ لم يخفها هو.

ويقال إن قوْل العبد «**لولا كذا ما كان كذا**» من الشرك. وقال فى الخبر إياكم «**ولو**» فإنه يفتح عمل الشيطان. وقال بعض العلماء «**سوف**» جندٌ من جنود إبليس. وقد جاء فى الخبر لو توكلتم على اللهّ حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو وخماصا وتروح بطانا، ولزالت بدعائكم الجبال. وقد كان **عيسى عليه السلام** يقول انظروا إلى الطير لاتزرع ولا تحصد ولا تدخر، والله يرزقها يوما بيوم. فإن قلتم نحن أكبر بطونا من الطير فانظروا إلى الأنعام كيف قيّض الله لها هذا الخلْق. ويقال لايدخر من الدواب إلاّ ثلاثة النملة والفارة وابن آدم. وقال **أبو يعقوب السوسى** المتوكلون على الله تجرى أرزاقهم بعلم الله واختياره على يد خصُوص عباده بلا شُغل ولا تعب، وغيرهم مكدودون مشغولون. وقال أيضا المتوكل إذا رأى السبب أوذمّ أو مدح فهو مدّع لا يصح له التوكل.

وأوّل التوكل ترك الاختيار. وقيل لسهل ما أدنى التوكل، قال ترك الأمانى، وأوسطه ترك الاختيار، قيل فما أعلاه، قال لا يعرفه إلاّ من توّسط التوكل وترك الاختيار. وقال بعض هذه الطائفة العبيد كلهم يأكلون أرزاقهم من المولى ثم يفترقون فى المشاهدات، فمنهم من يأكل رزقه بِذُلّ، ومنهم من يأكل رزقه بامتهان، ومنهم من يأكل رزقه بانتظار، ومنهم من يأكل رزقه بِعزّ بلا مهنة ولا انتظار ولاذلّة، فأماّ الذين يأكلون أرزاقهم بذُلّ السؤال فهؤلاء يشهدون أيدى

الخلق فيذلّون لهم، والذين يأكلون بامتهان فالصنّاع يأكل أحدهم رزقه بمهنة وكُره، والذين يأكلون أرزاقهم بانتظار فالتجّار ينتظر أحدهم نِفاق سلعته فهو متعوب القلب معذّب بانتظاره، والذين يأكلون أرزاقهم بعزّ من غير مهنة ولا انتظار ولا ذُلّ **فالصوفية** يشهدون العزيز فيأخذون قِسْمهم من يده بعزّة، فأمّا الذين يأكلون من أرباب السلاطين فباعوا أرواحهم فتلك قسْمة خاسرة وقعوا فى الذل الواضح. وسُئل بعض العلماء عن معنى الخبر المأثور الخَلْق عيال الله، فأحبّهُم إلى الله أنفعهم لعياله، فقال هذا مخصوص وعيال الله خاصته، قيل كيف، قال لأن الناس أربعة أقسام، تُجّار وتجارة وصنّاع وزراعة، فمن لم يكن منهم فهو من عيال الله، فأحبّ الخلْق إلى الله أنفعهم لهؤلاء، وهذا كما قال لأن الله سبحانه وتعالى أوجب الحقوق وفرَضَ الزكاة فى الأموال لهؤلاء، لأنه جعل من عياله من لا تجارة له ولا صنعة، فجعل معاشهم على التُجّار والصنّاع. ألا ترى أنّ الزكاة لا تجوز على تاجر ولا صانع لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحل الصدقة لغنى ولا لِقَوِىّ مكتسب، فأقام الاكتساب مقام الغِنَى. وقال **عامر بن عبد الله** قرأت ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل استعنت بهن على ما أنا فيه، فاستعنت قوله تعالى وإنْ يمسسك الله بضُرّ فلا كاشف له إلاّ هو، وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله، فقلت إنْ أراد أنْ يضرنى لم يقدر أحد أن ينفعنى، وإن أعطانى لم يقدر أحد أن يمنعنى، وقوله فاذكرونى أذكركم فاشتغلت بذكره عن ذكْر من سواه، وقوله تعالى وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها فوالله مااهتممت برزقى منذ قرأتُها فاسترحت.

وقد كان **سهل بن عبد الله** يقول المتوكل إذا رأى السبب فهو مدّع. وقال ليس مع الإيمان أسباب، إنما الأسباب فى الإسلام معناه ليس فى حقيقة الإيمان رؤية الأسباب والسكون إليها، إنما رؤيتها والطمع فى الخلْق يوجَد فى مقام الإسلام. ومن ذلك ماقال **لقمان** لابنه للإيمان أربعة أركان لا يصلح إلاّ بهن كما لا يصلح الجسد إلا باليدين والرجلين. التوكل على الله، والتسليم لقضائه، والتفويض إلى الله، والرضا بقَدَر الله. فحال المتوكل سكون القلب عن الاستشراف إلى العبيد والتطلع وقطع الهَمّ عن الفكرة فيما بأيديهم من التطمُّع، عاكف القلب على المُقَلِّب المدّبر، مشغول الفكر بقدرة المُصرِّف المُقدّر، لا يحمله عدم الأسباب على ماحظره العلم عليه وذمّه، ولا يمنعه أن يقول الحق وأن يعمل به، أو يوالى فى الله ويعادى فيه جريان الأسباب على أيدى الخلق، فيترك الحق حياءً منهم، أو طمعاً فيهم، أو خشية قطع المنافع المعتادة. ولا تدخله نوازل الحاجات وطوارق الفاقات فى الانحطاط فى أهواء الناس والميل إلى

الباطل، أو الصمت عن حق لَزِمَه، ولا يسكنْ إلى عادة من خُلُق، ولا يثق بمعتاد من مخلوق، إذ قد أيقن برزقه ونفعه وضُرّه من واحد. فهذه المعانى من فرض التوكل، فإنْ وجدت فى عبد خرج بها عن حد التوكل دون فضائله وتدُخله فى ضعف اليقين. وقد كان الأقوياء إذا دخل عليهم شىء من هذه الأهواء المفسدة لتوكلهم قطعوا تلك الأسباب وحسموا أصولها، واعتقدوا تركها، وعملوا فى مفارقة الأمصار، والتغرّب عن الأوطان، وترك الآلاف والإيلاف، فأخرجوا ذلك من حيث دخَل عليهم، ووضعوا عليه دواءه وضده من حيث تطرّق إليهم، حتى ربما فارقوا ظاهر العلم وخالفوا علم أهل الظاهر إلى علوم الباطن، وحكْم مشاهدتهم وقيامهم بحق أحوالهم إذ ليس أهل الظاهر حجة عليهم فى شىء إلاّ وهم عليهم حجة فى مثله، لأن الإيمان ظاهر وباطن، والعلم محكم ومتشابه، ولأن أهل الحق أقرب إلى التوفيق وأوفق لإصابة الحقيقة. كل ذلك رعايةً لصحة توكلهم، ووفاءً بحسن عهدهم، وعملاً بأحكام حالهم، لئلا تسكن قلوبهم لغير الله، ولا تقف هِمَمهم مع سوى الله، ولا تطمئن نفوسهم إلى غيره، ولا يتخذوا سكنا سواه، ولا يسكنوا إلى أهواء النفوس وينخدعوا لسكونها عن سكون القلب، فيسىء ذلك يقينهم ويوهن إيمانهم الذى هو الأصل، ويستأسر قلوبهم التى هى المكان للكشف والشهادة، فيخسروا رأس المال فتفوتهم حقيقة الحال، فماذا يرتجون وبأى شىء يقومون؟ وهذا لا يفطن له إلاّ العاقلون ولا تشهده العيون.

وقد قال بعض المتقربين فى **حقيقة التوكل** لمّا سُئِل عنه، فقال هو الفرار من التوكل، يعنى ترك السكون إلى المقام من التوكل، أى يتوكل ولا ينظر إلى توكلهم أنه لأجله يُكْفَى أو يُعافَى أو يُوَقّى، فجعل نظره إلى توكله علّة فى توكله يلزمه الفرار منها حتى يدوم نظره إلى الوكيل وحده بلا خلل، ويقوم له بشهادة منه بلا ملل، فلا يكون بينه وبين الوكيل شىء ينظر إليه أو يعوّل عليه أو يدلّ به، حتى التوكل أيضا الذى هو طريقه. وكذلك قال قبله بعض العارفين فى معنى قوله عز وجل أَمَّنْ يجيب المضطر إذا دعاه، فقال المضطر الذى يقف بين يدىّ مولاه فيرفع إليه يديه بالمسئلة فلا يرى بينه وبين الله حَسَنَةً يستحق بها شيأ، فيقول هَبْ لى مولاى بلا شىء فتكون بضاعته عند مولاه الإفلاس، ويصير حاله مع كل الأعمال الإفلاس، فهذا هو المضطر. فهؤلاء القوم من الذين وصفهم الله عز وجل بالتوقى والمخافة، وجعلهم أهلا للدعوة والنذارة، وأخبر أنهم لا يرون بينه وبينهم سبباً يليهم ولا شفاعة، فقال تعالى يأمر رسوله بإنذارهم بكلامه فجعلهم وُجْهَةً لخلقه ومكاناً لِكَلِمه، كما جعل رسوله وُجهةً لهم ومكانا

لتكليمهم، فقال تعالى وأنذرْ به الذين يخافون أنْ يحشروا إلى ربهم، ليس لهم من دونه وليّ ولا شفيع لعلهم يتقون، ثم قال تعالى فى وصف أمثالنا من أهل اللعب واللهو والغرّة والسّهْوة، متهدداً لنا متوعداً، وذرْ الذين اتخذوادينهم لَعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا.

وقيل لبعض علمائنا ما التوكل؟ قال التبرى من الحْول والقوّة، والحول أشد من القوّة، يعنى بالحول الحركة، والقوّة الثبات على الحركة وهو أوّل الفعل، يعنى بهذا ألاّ تنظر إلى حركتك مع المحّرك إذ هو الأول، ولا إلى ثباتك أيضا بعد الحركة فى تثبيته إذ هو المُثْبت الآخر، فتكون الأوّلية والآخرية حقيقة شهادتك له به أنه الأول الآخر بعين اليقين، أى فعندها صح توكلك بشهادة الوكيل. وقال التوكل ترك التدبير، وأصل كل تدبير من الرغبة، وأصل كل رغبة من طول الأمل، وطول الأمل من حب البقاء وهذا هو الشرك، يعنى أنك شاركت الربوبية فى وصف البقاء. والله سبحانه خلَقَ الخَلْق ولم يحجبْهم عن نفسه وإنما جعل حجابهم تدبيرهم، وليس يعنى بترك التدبير ترك التصرف فيما وُجِّه العبد فيه وأبيح له، ومن طعن على التكسب فقد طعن على السنّة، ومن طعن فى ترك التكسب فقد طعن على التوحيد، وإنمّا يعنى بترك التدبير ترك الأمانى وقوله لِمَ كان كذا إذا وقع، ولِمَ لا يكون كذا، أو لو كان كذا فيما لا يقع لأن ذلك اعتراض وجهل بسبق العلم، وذهاب عن نفاذ القدرة وشهادة الحكمة، وغفلة عن رؤية المشيئة وجريان الحكم بها. ويعنى ترك التدبير فيما بقى وما يأتى بعد، أى لا تشتغل بالفكر فيه بعقلك وعلمك فيقطعك عن حالك فى الوقت الذى هو ألزم لك وأوجب عليك للقطع فيما يأتى من الأحكام، لأن الله أحكم الحاكمين، ولأن العبد مسلم للأحكام والأفعال، راضٍ عن مولاه فى الأقدار مع جهله بعواقب المآل. وترك التدبير بهذه المعانى هو اليقين، واليقين هو مكان المعرفة إذ جعل الله تعالى قلب الموقن مكانا يمكُن فيه على قدر المكان ما يليق به. وهذا هو حال المتوكلين

والمتوكل لا يهتم بما قد كُفِىَ كما لا يهتم الصحيح بالدواء إذا عُوفِىَ، ولكن قد يحتمى قبل النزال كما يحتمى المعُافى قبل ورود العلَل. قال الله سبحانه وما من دابة فى الأرض إلاّ على الله رزقها. وكَأَيِّنْ من دابة لا تحمل رزقها، الله يرزقها وإياكم. فالمتوكل قد علم بيقينه إذ كل ما يناله من العطاء من ذرّة فما فوقها أنّ ذلك رزقه من خالقه، وأنّ رزقه هو له، وأن ما له واصلٌ إليه لا محالة على أى حال كان، وأن ما له لا يكون لغيره أبداً، وكذلك ما لغيره من

القسْم والعطاء لا يكون لهذا أبدا، فقد نظر إلى قسمه ونصيبه من مولاه لا بعين يقينه الذى به تولاّه من إحدى ثلاث مشاهدات. فإنْ دنَت مشاهدته نظر إلى قسمه من العطاء فى الصحيفة التى كتبت له عند تصوير خَلْقه فكُتب فيها رزقه وأجله وأثره وشَقّى أو سعيد، فكما لا يقدر أحد من الخَلْق أنْ يجعله سعيداً إنْ كان قسْمه شقياً فلا يقدر أحد أن يجعله شقياً إنْ كان قسمه سعيدا. كذلك لا يقدر أحد أن يمنعه ما أعطاه مولاه من القِسْم فيجعله محروما ولا يعطيه ما منعه من الحُكم فيجعله مرزوقا، لأنّ ذلك قد كُتب كَتْباً واحداً وجُعِل مجعلاً سواء. فإن ارتفعت مشاهدته نظر إلى هذا فى اللوح المحفوظ مفروغاً له منه، وهو أمّ الكتاب الذى استُنسخ منه هذه الصحيفة، فكان يقينه أن رزْقه فى اللوح قد كُتِب لا يزاد فيه بحَوْل ولا حيلة، ولا يُنقَص منه لعجز ولا سكينة، كيقينه بما كُتب فيه من أنه من أهل الجنة، فهو داخلها لا محالة وإنْ عَمِلَ أى عمل بعد أنْ يكون قد كُتب اسمه فى اللوح وجُعِلَ له فيها أثر، كقوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادى الصالحون، فقد كُتِبَتَ الآثار والأرزاق من كل شىء كَتْباً واحداً فى ثلاث مواضع توكيداً للعلم وتسكيناً للقلب فى القِسْم. كُتِبَ ذلك فى الذكْر الأول وهو اللوح المحفوظ، ثم فى الزُبُر الأولى وهى الصحف، ثم أُنزِل ذلك فى كتابنا هذا الذى به عرفنا ما سلَف من ذلك. وإنْ علَت مشاهدة كل عبد عن مقامه ومن معبوده ومن مكانه فى دُنّوه وعلّوه، يشهد هذا الذى ذكرنا معلوما فى علم اللّه تعالى قبل خلْق اللوح، فسكَنَ قلبه واطمأَن إلى علم اللّه سبحانه وتعالى وما سبق له منه. ولهذا جاء فى الأثر أن الزهد فى الدنيا أنْ تكون بما فى يد اللّه أوثق منك بمافى يدك، وأنْ يكون ثواب المصيبة أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك، أى فيقل حرصك لنفاذ شهادتك ويذهب فى الخَلْق طمعُك، فهذا هو الرضا والزهد، قد جمع التوكل المقامين معا، فما فى يد اللّه سبحانه وتعالى هو رزقك الواصل إليك لاشك فيه على أى حال، وهو الذى لك عند اللّه، وهو معلوم علْم اللّه تعالى الذى لا ينقلب، وذلك أحد ثلاثة أشياء. ما أكلتَ فأفنيت. أو لَبِسْت فأبليت، أو تصدّقت فأمضيْت، فهذا هو الذى لك فى الدنيا والآخرة، ولذلك قال صلّى اللّه عليه وسلم يقول ابن آدم مالى. ثم قال إنما لك من مالك فذَكَر هذه الثلاث واشترط مع كل واحدة آخر غايتها فقال ماأكلت فأفنيت أولبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت، فاشترط الإفناء والإبلاء والإمضاء، ثم قال بعد ذلك وما سوَى ذلك فهو مال الوارث. فهذه الثلاث على هذه الأوصاف هى رزق العبد وهى التى فى يد اللّه عز وجل له الواصلة إليه، فأما ماجعله فى يد

العبد فقد لا يكون له وإنما هو مستودَعٌ إياه ومستخلَفٌ فيه وإنْ تملّكه وحازه خمسين سنة، وإنما للعبد ما فرغ له منه، فإنْ تملّك سوى هذا وادّعاه لأجل أنه فى خزانته أو قبْض يده فذلك لجهله بالله تعالى وقلّة فقهه عن الله سبحانه وغفلته عن حكمة الله تعالى، لأنه لو عرف حكمة اللهّ وقُدرته علِمَ أن صندوقه وخزانته ويده من خزائن الله تعالى فى أرضه يودِعها من يشاء إلى الوقت الذى يشاء حتى يستقر إلى كيف يشاء، فقد قال تعالى فمستقرٌ ومستودعٌ، وقال لكل نبأ مستقر، وقال سبحانه ولله خزائن السموات والأرض.

وهكذا روينا عن نبينّا صلى الله عليه وسلم أن الرزق لَيَطلب العبد كما يطلبه أجَلُه. وقال صلى الله عليه وسلم وإنّ لكل عبد رزقاً هو آتيه لا محالة، فَمن قَنِع به ورَضى بورك له فيه، ومَن لم يقنع به ولم يرض لم يبُارَك له فيه ولم يَسَعْه. ويقال لو هرب العبد من رزقه كما لو هرب من الموت لأدركه. وفى وصية النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعِن بالله، واعلم أنّ الخلائق لو جَهدوا أنْ ينفعوك بما لم يكتبه الله لك ماقَدروا على ذلك، ولو جَهدوا أنْ يضروّك بشىء لم يكتبه الله سبحانه لك لم يقدروا على ذلك. طُويَت الصحف وجفّت الأقلام. فمن كانت هذه مشاهدته فى القسْم المعلوم سقطَ عنه جملةٌ من الهموم واستراح من النظر إلى الخلْق، واستراح الخلْق من أذاه، وشُغِلَ عنهم بخدمة مولاه، وكان قد فَهِمَ شيئاً من الخطاب، وممن أقبَل على الله الكريم بصالح ما دعاه إليه واستجاب. كما روى أنّ رجلاً لزِمَ باب عمر بن الخطاب رضى الله عنه كل غداة فشَهِد عمر منه مجيئه لأجْل الطلب، فقال له ياهذا هاجرتَ إلى عمر أو إلى الله، إذهب فتعلّم القرآن فإنه سيُغنيك عن باب عمر، فذهب الرجل فغاب زمانا حتى افتقده عمر، فسأل عنه فدلّ عليه فأتاه، فإذا هو قد اعتزل الناس وأقبل على العبادة، فقال له عمر رضى الله عنه إنى قد افتقدتك حتى اشتقتُ إليك فما الذى شغلك عنا، فقال إنى قد قرأت القرآن فأغنانى عن عمر وعن آل عمر، فقال له عمر رحمك الله فما الذى وجدت فيه، فقال وجدت فيه وفى السماء رزقُكم وماتوعدون، فقلت رزقى فى السماء وأنا أطلبُه فى الأرض، فبكى عمر، وكانت موعظةً له منه، فكان عمر بعد ذلك يُشابه فى الأحايين فيجلس إليه ويستمع منه.

وجاء رجل الى **بشر بن الحارث** فقال إنى قد عزمت على سفر إلى الشام وليس عندى زاد فما ترى، فقال ياهذا أخرجْ فيما قصدت له فإن لم يُعطك ماليس لك لم يمنعك مالك.

وشكا رجل إلى **فضيل** حاله، فقال ياهذا مدبرٌ غير الله تريد. وكان **الحسن** يقول التوكل هو الرضا. وفى تفسير قوله عز وجل وقدّر فيها أقواتها، قال خلَق الأرزاق قبل الأجسام، فالمتوكل لا يُطالب مولاه برزقِ غدٍ كما لا يطالبه مولاه بعملِ غد. فأمّا المتوكل فى المضمون من الرزق المعلوم من القِسْم فهو **توكل العموم** يستحيى الخصوصُ من ذكره ويتكرمون عن نَشْره إذ كان الله تعالى قد أقسَم بنفسه أنّ الرزق فى السماء حق، كما أقسَم بنفسه أنّ كلامه حق، فجمع بينهما فى الحقيقة بالقَسَم بالذات دون سائر الأفعال، لتسكن بذلك نفوس الخليقة عن النظر إلى الأدوات، ليرتفع الشك فيهما ويحصل اليقين بحقيقتهما، فقال سبحانه فَوَرَبّ السماء والأرض إنّه الحق، كما قال تعالى ويستنبؤنك أحقٌ هو، أى الرزق، قلْ إنه الحق. وقد وكَلَ من يقوم له برزقه من الخلق، فإن لم يُرزَق مِن كَسْبه وعن يدهُ رزق من كسْب غيره ويده. وأمّا **توكل الخصوص** فشُغلهم بأعمال الآخرة وما يفوتهم من القُربات إلى الله عز وجل وبالخدمة للمولى الذى وكَل إليهم، فإنْ لم يقوموا به لم يقم به غيرهم لهم ولم يُنِبْ غيره من الدنيا مَنَابه، لقوله تعالى وأنْ ليس للإنسان إلاّ ما سعى، وقوله تعالى وجوهٌ يومئذ ناعمة لِسَعْيها راضية، ولقوله تعالى والآخرةُ خيرٌ وأبقى، وقوله تعالى والله يريدُ الآخرة، ولقوله تعالى من كان يريد حَرْث الآخرة نَزِد له فى حرثه، ولم يقل هذا فى أرزاق الدنيا، ومعنى الزيادة أنْ لا يحاسبه على ما يعطيه من الدنيا إذ لا زيادة فى القِسْم. وقد قيل إنّ الله تعالى يُعطى الدنيا على نيّة الآخرة ولا يعطى الآخرة على نيّة الدنيا، وهذا لعلّو الآخرة ودناءة الدنيا. وكان علىّ رضى الله عنه يقول ألاَ إنّ حرْث الدنيا المال، وحرث الآخرة العمل الصالح. وقد قيل إنّ الزيادة فى الآخرة رِفعةُ الدرجات لمن كانت نيّته وقصده ولها يعمل، فشُغْل الخصوص بما وُكِلَ إليهم، وبما لا يعمله غيرهم لهم.

وتوكل الخصوص أيضا فى الصبر على الأذى من القول والفعل، إذ بذلك أمَرَ الرسول فى قوله تعالى فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون، مع قول الرُسُل عليهم السلام ولَنَصبرنّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون. وكذلك أُمِرَ نبيّه عليه السلام لمّا قال تعالى أولئك الذين هدَى الله فبهداهم اقْتَدِه، فأمره باتباعهم. وقال ودع أذاهم وتوكل على الله، إلى قوله فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم. وقال بعض العارفين لا يثبت لأحد مقام فى التوكل حتى يستوى عنده المدح والذم من الخَلْق فيسقطان، وحتى يُؤذَى فيصبر على الأذى، يستخرج بذلك منه رفع السكون إلى الخَلْق والنظر إلى علم الخالق الذى سبق، ثم

التوكل فى الصبر على حُسن المعاملة وترك الطلب للمعارضة حياءً من الله وإجلالاً له وتخوفاً منه وحباً له، فقد وصفهم بذلك ظاهراً وباطناً، فالظاهر قوله تعالى نِعْمَ أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون، فلما عَلِموا صبروا على عِلْمهم ثم توكلوا عليه فى جميع ذلك فأنعم أجرهم وأجزل ذُخرهم، والباطن فيما أخبر عنهم إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شُكُورا، أى لا نريد من عندكم جزاء أى مكافأة، ولا شكورا أى حُسن ثناء، فلمّا لم يطلبوا العِوَض من أجلهم ولا المكافأة من عندهم وقالوا إنّا نخاف من ربنا، جزاهم أفضل الجزاء وأحسَنَ لهم غاية العطاء فقال تعالى وسقاهم ربُهم شرابا طَهورا، إنّ هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا، إذ لم يطلبوا جزاءً ولا شُكوراً، فجعل جزاءهم شرابا طَهورا وجعل سعيَهم لديه مشكورا.

ثم **التوكل عليه فى تسليم الحكم والرضا به**، ومن قول **يعقوب عليه السلام** حين سلّم الحكم توكلاً على الوكيل الحاكم، إنْ الحُكم إلاّ لله عليه توكلت، لأن العبد إذا كان مريداً لمراد نفسه من الأشياء قد لا يوجد فى كل شئ إرادته، ثم هو على يقين من إرادة مولاه لكل شئ وأنّ كل شئ مراد لوكيله، فينبغى أن يريد ما يريد مولاه إذ لم يتفق له ما يريد، بل ينبغى أن يكون مراد مولاه أحب إليه وأبرّ عنده، لأن ما أراده مولاه مما لا عقوبة على العبد فيه ولا مسخطة لمولاه فإنه محبوبٌ لله مختارٌ له، فلتكن محبة الله عز وجل مُقدَّمة إليه على محبته هو واختياره، إذ لله عاقبة الأمور. وقد شرّف المتقين ونزّههم عن أمور العاجلة الدنية بقوله عز وجل والعاقبة للمتقين. وكما روى فى أخبار **موسى عليه السلام** إذا لم يكن ما تُريد فَرِدْ ما يكون، فإنْ أبيتَ إلاّ ما تريد أتعبتُك فيما تريد ولا يكون إلاّ ما أُريد. وقد كان **وهيب بن الورد المكى** يقول لو كانت السماء نُحاساً والأرض رَصاصا ثم اهتممت برزقى لظننت أنى مشرك. ويُقال من اهتم برزق غد وعنده اليوم قوتُ غدٍ فهى خطيئة تُكتب عليه. وقال **سفيان** الصائم إذا اهتّم فى أوّل النهار بعشائه كُتب عليه خطيئة. وكان **سهل** يقول إنّ ذلك يُنقص من صومه. وقال أعرف فى البصرة مقبرةً عظيمة يغدو على موتاهم برزقهم من الجنة بكرةً وعشيةً، يرون منازلهم من الجنان. وهذه المقامات من فضائل التوكل وفوقها من مكاشفات الصديقين ومشاهدات العارفين ما لا يصلح رسمه فى كتاب، لأن تدبيره عندهم أحكم وأيقن، وهم بالعواقب أعلم وأخبر، وهم له أشد إجلالاً وإعظاماً مما نقدّر نحن ونعلم. **فأما التوكل عليه فى القوت** فإنه عندهم فرض التوكل، يستحيون من ذِكره مع الوكيل، وكذلك التوكل عليه فى

تسليم الأقدار حلوها ومرّها، خيرها وشرها من الله حكمةً وعدلا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلُ شيءٍ بقضاء وقَدَر حتى العجز والكَيْس، وكما قال تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليُخطئك. وكذلك قال الله عزّ وجلّ وكل صغير وكبير مُسْتَطَر، فالعلم بهذه الأشياء وطُمأنينة القلب بها وسكينة العقل عند ورودها، وأن لا يضطرب بالرأى والمعقول، ولا ينازع بالتشبيه والتمثيل، فإن هذا عندهم من فرائض الإيمان، لا يصح إيمان عبد حتى يسلّم بذلك كله. ومنه قول ابن عباس القدر نظام التوحيد، فمَنْ وحّد الله وكذّب بالقدر كان تكذيبه بالقدر نقضا لتوحيده، فجعل الإيمان بالأقدار كلها أنها من الله مشيئةً وحكماً بمنزلة الخيط الذى ينتظم عليه الحَبّ، وأنّ التوحيد منتظم فيه يقول إذا انقطع الخيط سقَط الحَبّ، قال كذلك إذا كذّب بالقدر ذهب الإيمان. فالتوكل فرض وفضل، **ففرضُه** منوط بالإيمان وهو تسليم الأقدار كلها للقادر واعتقاد أن جميعها قضاؤه وقدره. ألم تر إلى ربك كيف أقسَم بنفسه فى نفى الإيمان عمّن لم يُحكّم الرسول فيما اختلف عليه من حاله، فقال تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكّموك فيما شجَر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرَجا مما قَضَيْت ويسلموا تسليما، فكيف بالحاكم الأوّل والقاضى الأجل. فأما **فضل التوكل** فإنه يكون عن مشاهدة الوكيل فإنه فى مقام المعرفة يَنظُر عينَ اليقين، كما قال العبد الصالح فكيدُونى جميعا ثمّ لا تُنظِرون، فظهرت منه قوّة عظيمة بقَوِيّ، وأخبر عن عزيز بعزٍ، فكأنه قيل ولِمَ ذاك وأنت بشر مثلنا ضعيف، فقال إنى توكلتُ على الله ربى وربكم، فكأنه سئل عن تفسير توكله كيف سببه فأخبر بمشاهدة يد الوكيل آخذةً بنواصى دواب الأرض، فقال ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها، ثم أخبر عن عدله فى ذلك وقيام حكمته، وأنه وإنْ كان آخذا بنواصى العبد فى الخير والشر والنفع والضُّر فإن ذلك مستقيمٌ فى عدله، فقال إنّ ربى على صراط مستقيم، وقال تعالى فى فرض التوكل وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، وقال تعالى فى مثله إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين، وقال تعالى فى فضله وعلى الله فليتوكل المتوكلون، وقال تعالى إن الله يحب المتوكلين.

* * * * *

انتهى الجزء الثالث ويبدأ الجزء الرابع إن شاء الله وأوله «ذكر إثبات الأسباب والأواسط لمعانى الحكمة ونفى أنها تحكُم وتُجعل لثبوت الحُكْم والقُدرة.

ذكر إثبات الأسباب والأواسط لمعانى الحكمة ونفى أنها تحكم وتجعل لثبوت الحكم والقدرة

واعلم أن الله عزّ وجلّ ذو قُدرة وحكمة، فأظهر أشياء عن وصف القدرة، وأجرى أشياء عن معانى الحكمة، فلا يُسقط المتوكل ما أثبتَ من حكمته لقاء ما شهد من قدرته، ولا يُثبت المتوكل الأشياء حاكمةً نافعةً ضارةً فيشرك فى توحيده، كما قال عز وجل إنْ الحُكم إلاّ لله ولا يُشرِك فى حكمه أحدا، وكما قال تعالى وما لهم فيهما من شِرْكٍ وما له منهم من ظهير، والظهير هو المُعين على الشئ، فالمتوكل مع مشاهدته قُدرة الله على الأشياء، وأنه منفرد بالتقدير والتدبير وقائم بالمُلك والمملوك، هو أيضا عالم بوجوه الحكمة فى التصريف والتقليب، بإظهار الأسباب والأواسط لإيقاع الأحكام على المحكوم، والثواب والعقاب على المرسوم، من حيث أن المتوكل قائم بأحكام الشريعة مع تسليمه الحُكم الأوّل لله، واعترافه أن كلاً بِقَدَر الله، كما قال تعالى لا يُسئل عما يَفعل وهم يُسألون، والله تعالى فى جميع ما أظهر أخفى قُدرته فى حُكمه، فظهرت حكمته وبَطُنَت قدرته، لرجوع الأمر كله إليه، ولذلك قال عزّ وجلّ صُنْع الله الذى أتقن كل شئ، أى صُنْعه الباطن أتقن صُنْعه الظاهر، ثم قال وإليه يُرجع الأمر كله، من الظاهر والباطن، فاعبدْه وتوكل عليه، فى جميع ذلك، **وللعارف المتوكل** شهادة من الصُنع الباطن، وله من الحكمة الظاهرة عِلمُ شَرْعٍ هو عاملٌ به، وهو مقام العلماء الربانيين.

وكل مؤمن بالله متوكل على الله، ولكن توكل كل عبد على قدر يقينه، **فتوكل الخصوص** ما قدمناه من ذكر المشاهدة ومعانى الرضا، **وتوكل العموم** ما عقّبناه من الإيمان بالأقدار خيرها وشرها. وقد أخبر الله تعالى أنه هو الرزّاق كما هو الخالق كما هو المحيى المميت، فقرن بين هذه الأربع فى قرن واحد مع ترتيب الحكمة والقدرة، فكيف يختلف حكمها أو يتبعض وصفها لظهور الأسباب ووجود الأواسط، فقال سبحانه وتعالى الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم، فكما ليس فى الثلاث الأُخَر جاعلٌ ومُظهِرٌ إلاّ الواحد، فكذا ليس فى الرابعة من الرزق إلاّ هو. ألا ترى أنك لا تقول خلقنى أبى وإنْ كان هو سبب خَلْقك، ولا تقول أحيانى وأماتنى فلان وإن كان هو أواسط فى الإحياء والقتل، لأن هذا شرك ظاهر اشتَهر قُبحُه فتُرِك، ولذلك قال الله تعالى أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون، وكذلك قال تعالى أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون، فأضاف الإمناء

والحرث إلينا لأنها أعمال ونحن عبيد عُمّال، ولأنها صفاتنا وأحكامها عائدة علينا. وأضاف الخَلْق والزرع إليه لأنها آيات عن قُدرته وحكمته والله هو القادر الحكيم. وكذلك كل ما ذُكر فى الكتاب من الأعمال والاكتساب أضيف إلى الجوارح المجترحة ونُسب إلى الأدوات المكتسبة، وما كان من القُدرة والإرادة وصَفَ نفسه به لأنه المريد الأوّل والقادر الأعلى. فافهم عن الله خطابه كيلاً يَزيغ قلبك فيما تشابه. ثم قد يقول العبد أعطانى ومنعنى فلان لأن هذا شرْك خفى، ولأن الأسباب تَظهر على أيديهم وتجرى بأواسطهم فَحُجبوا بها عن المُسبِّب واستتر عنهم المُعطى المانع، فقُبْح هذا أيضا عند الموقنين كقُبح ذاك، لأن الله تعالى نَفَى الرزق عن سواه كما نَفى الخلْق، فقال تعالى هل من خالق غير الله يرزقكم. ولم يَرد اللفظ على اللفظ وإنْ حَسُن فيقول يخلُقكم، لأنه أراد سبحانه أن يفيدنا فضل بيان ويعلمنا اقتران الرزق بالخِلْقة وأنهما مسبَّبان عن القدرة، فالمتوكل قد أيقن أنه لم يكن على الله أن يخلقه، فلمّا خلقه كان عليه أن يرزقه. وهكذا روى عن الله تعالى أأخلُق خلقاً ولا أرزقه. وقال النبى صلّى الله عليه وسلم لا مانع لما أعطيتَ ولا مُعطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ، رداً عليهم حين قالوا جَدّى فى كذا وجَدّى فى كذا، يعنون صنوف الأسباب، فنفى ذلك بقوله هذا فى صلاته وأسمعهم إياه خشية دخول الشرْك عليهم، أى جدّ العبد لا ينفعه منه شيأ، فهذا كما قال الله تعالى إنّ الظن لا يُغنى من الحق شيأ. قال بعض العلماء فى معنى ذلك مَنْ جَدّ فى الطلب وَحرصَ ووجد منك المنع لم ينفعه جِدّه فى طلبه وحِرصُه شيأ. وقال أيضا فى معنى قوله عز وجل يمحو الله ما يشاء ويثبت، قال يمحو الأسباب من قلوب العارفين ويُثبت القدرة، ويمحو المشاهدة من قلوب الغافلين ويُثبت الأسباب فى صدورهم. وقال هذا أيضا خَلَق الله النفس متحركة ثم أمرها بالسكون، وهذا هو الابتلاء، فإنْ تداركها بالعصمة سكنت وهذا خصوص، وإنْ تركها تحركت بطبعها وجبلّتها وهذا هو الخُذلان. وفى **وصية لقمان** لابنه يا بنى اردُدْ رغبتك إلى الله، إنْ شاء أعطاك وإنْ شاء منعك، فَإنّ حيلتك لن تزيدك ولن تنقصك من قِسْمة الله التى قَسَم لك، واعْتبرْ رزقك بخَلْقك فإن استطعتَ أن تزيد فى خَلْقك بحيلتك فإنك إذاً تزيد فى رزقك، وإلاّ فاعلم أنّ الله هو الذى عَدّل الخلق وقَسّم الرزق، فلن تستطيع أن تزيد فى أحد منهما، فإن منهم المحتال الجَلِد البَطُوش ولا يزداد إلاّ فقرا، ومنهم المُعييّ الواهن المَهين ولا يزداد ماله إلاّ كثرة، ولو كان من الحيلة لسَبَق القوىُ الضعيف إلى كل شئ، ولكن الله يخلق ويرزق ولا يملك العباد من ذلك شيأ. وهكذا حكى بعض الأكاسرة سأل حكيما فى زمانه فقال

ما بالى أرى العاقل محروما والأحمق مرزوقا، فقال أراد الصانع أن يَدُل على نفسه، ولو كان كل عاقل مرزوقا، وكل أحمق محروما، لوقع فى العقول أن العاقل يرزق نفسه، والأحمق حَرَمَ نفسه، فلما رأوا الأمر بخلاف هذا علموا أن الصانع هو الرازق.

وروينا عن **ابن مسعود** فى إعطاء هذا المال فتنة، وفى منعه فتنة، إنْ أُعطِيَه عبدٌ مدَحَ غير الذى أعطاه، وإنْ مُنعَه عبد ذمّ غير الذى منعه، يعنى بالفتنة الاختبار، يُختَبر بذلك الموقنون للخير والغافلون لينظر كيف يعملون، فأمّا أهل اليقين فيعتبرون بالأسباب ويَعجبون من التسبب، فيزدادون بذلك هُدى وإيمانا لشهودهم المُعطى المانع واحداً فى العطاء والمنع، ولمعرفتهم بجريان الحكمة فيما جاءت به الشريعة، فثبت لهم مقامان. الشكر له والصبر عليه. وأمّا الغافلون فيضطربون لذلك ويثبتون بنظرهم إلى الأسباب والأيدى، فيمدحون المُعطين ويذمّون المانعين، فينقصون بذلك، فقد صار المال فتنة للفريقين، يكشف إيمانهم وتُمتَحن للتقوى قلوبهم. وعن **ابن مسعود** أنه قال من الإخلاص أن لا تحب أن يحمدك الناس على عبادة الله وأن لا تمدحهم على ما رزَقك الله. وقد روينا عن **عيسى عليه السلام ومن ابن مسعود** وغيره: أن من اليقين أن لا تحمد أحداً على ما أعطاك الله، ولا تذمه على ما لم يؤتك الله. وقال الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. وفى حديث الإفك عن **عائشة رضى الله عنها** أنها قالت: فقام إلىّ أبواى فقبّلانى فى صدورهما، فقلت بغير حمدكما ولا حمد صاحبكما أحمدُ الله تعالى الذى عزّزنى وبرّأنى. وفى حديث غيره فقال لها **أبو بكر**: قومى فقبلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: والله لا أفعل ولا أحمَد إلاّ الله، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: دعها يا أبا بكر. وسُئل بعض علمائنا عن معنى الخبر المنقول من التوراة من تواضع لغنى ذهب ثلثا دينه، فقال: لأن الإيمان عقد وفعل وقول، فإذا تواضع للغنىِّ لأجلِ دنياه بالثناء والحركة إليه ذهب ثلثا إيمانه وبقى الثلث وهو العقد، فإنْ جعلتَ الأواسط فى الرزق أوائل فى الجَعل لثبوتها فإن الله تعالى قد أظهرها أسبابًا وأثبت نفسه فيها، فقال تعالى قل يتوفاكم مَلَك الموت الذى وُكِلَ بكم، ثم رفعه وأظهر نفسه، فقال تعالى الله يتوفى الأنفس حين موتها، وكذلك قال أفرأيتم ما تحرثون، فذكَر الأواسط، ثم قال إنّا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقا، وقال فى التفصيل فأرسلنا إليها روحنا، ثم قال تعالى فى التوحيد فنفخنا فيها من روحنا، وكان النافخ جبريل عليه السلام. كما قال تعالى فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه، قال أهل التفسير فإذا قرأه عليك جبريل فخذه

عنه بعد قوله تعالى لا تحرك به لسانك لتعجل به. وكذلك قال جبريل لأهب لك غلاماً زكياً، لأن الله تعالى وهب له يهب لها فذكّر نفسه وهو يُشهد ربه، ثم قال فى الحرف الآخر ليَهب لك يعنى الله تعالى. ومثله قول **موسى عليه السلام** لا أملك إلاّ نفسى وأخى، لأجل أن الله تعالى قال ووَهَبْنا له من رحمتنا أخاه، وهو فى الحقيقة لا يملك نفسه ولا أخاه، إذ لا مالك أصلا إلاّ الله عز وجل، وهذا على أحد الوجهين إذا كان وأخى فى موضع نصب، والوجه الآخر أن يكون قوله وأخى فى موضع رفع فيكون المعنى وأخى أيضا لا يملك إلاّ نفسه. وكذلك قال سبحانه فى التفصيل والأمر اقتلوا المشركين، وقال فى مثله مِنْ ذكْر واسطة الأمر قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ثم قال فى التوحيد فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم. وقال فى إثبات الأسباب ورفْع حقائقها وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى، وقال تعالى فى ذكْر الأواسط فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها. وقال فى مِثله الذى علّم بالقلم، ثم قال تعالى الرحمن علّم القرآن، وقال تعالى علّمه البيان، ثم قال إنّ علينا بيانه، وقال فى تثبيت الأملاك وبيعها منه بالأعواض كرماً منه وفضلا، إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، فجاز ذلك لمّا ملّكهم ماله، كقوله تعالى إلاّ ما ملكت أيمانكم. وعند أهل المعرفة أن لا فاعل حقيقةً إلاّ الله عز وجل، لأن حقيقة الفاعل هو الذى لا يستعين بغيره بآلة ولا سبب، وعندهم أنّ فعلاً لا يتأتى من فاعلين وإلاّ كان شركاً، لأن الفاعل الثانى المظهر الذى فعل بيده وأجرى الفعل بواسطته، هو ثانٍ ومُحدَث، والأوّل القديم هو الفاعل الأصلى. كما أنّ عندهم أنّ حقيقة المالك هو خالق الشىء، ومَنْ جُعِلَ فى يده فهو مُملّك لأنه لم يخلق ما بيده، كما المجْرى على يده الفعل مفعول، لأن الله تعالى هو الأوّل القيّوم بنفسه لا يستعين بغيره. وقد جعل الله أيضا بحكمته وعزّته للخِلْقة والحياة واسطة وهو مَلَك الأرحام، وفى الخبر أنه يدخل الرحم فيأخذ النُطفة فى يده ثم يصوّرها جسدا فيقول يارب أذكرٌ أم أنثى، أسَوىٌ أم مُعوّج، فيقول الله ماشاء ويُصورٌ المَلَك. وفى لفظ آخر يخلُق الملك ثم ينفخ فيها الروح بالشقاوة أو بالسعادة. ويقال إنّ المَلَك الذى يقال له الروح هو الذى يولج الأرواح فى الأجساد، ويقال إنه يتنفس بوصفه فيكون كل نَفَس من أنفاسه روحا يلج فى جسم ولذلك سُمى الروح. وقد قال الله تعالى فى وصف نفسه البارىء المصوّر كما قال الخالق.وقال تعالى خلَق الموت والحياة، وقد جعل للإحياء واسطة كما جعل للموت وهو إسرافيل صاحب الصور ينفخ فيه النفخة الثانية فيحيا كل ميت ثم يرفعه الله تعالى، فقال يومَ يُنفخ فى الصور، ووصف نفسه بأنه المُحيى المميت. وفى بعض الأخبار أن

ملَك الموت وملَك الحياة تناظرا، فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء، وقال ملَك الحياة أنا أحيى كل ميت، فأوحى الله إليهما كونا على عملكما وما سُخِّرتما له من الصنْع فأنا المميت وأنا المُحيى، ولا مُميت ولا مُحيى سواى.

وكذلك أيضا قيل عن الله تعالى أنا الدليل على نفسى ولا دليل علىّ أدلّ منى. ولم يمنع وجود هذه الأواسط أن يكون الله سبحانه هو الأوّل فى كل شىء، وهو الفاعل لكل شىء وحده لا شريك له فى شىء. ولم يقل أحد من المسلمين الملَك خلقنى، ولا عزرائيل أماتنى، ولا إسرافيل قد أحيانى. كذلك أيضا لا يَصلُح أن يقول الموقن المشاهد للتوحيد فلان أعطانى أو منعنى، كما لا يقول فلان رزقنى، ولا فلان قدّر علىّ، وإنْ جُعِلَ واسطة فى ذلك وأُجْرِىَ على يدْيه ذلك، لأن العطاء هو الرزق، والمنع هو القدَر، ولا كان عندهم شركاء فى أسماء الله غيره إذ كان الله هو المعطى المانع الضار النافع، كما هو المحيى المميت، لا شريك له فى ملكه، ولا ظهير له من عباده فى خلقه ورزقه، وهذا عندهم يقدح فى حقيقة التوحيد للعبد، وهو من الشرْك الخفى الذى جاء فى الأثر: الشرْك فى أمتى أخفَى من دبيب النمل فى الليلة المظْلمة.

وقال بعضهم فى معنى قوله تعالى وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون، قال مؤمن بالإقرار أن الله هو المقدّر المدّبر، ومشرك فى الاعتماد على الأسباب ورد الأفعال إليها. ومن الإخلاص عند المخلصين بلا إله إلاّ الله ولا معطى ولا مانع إلاّ الله، ولا هادى ولا مضلّ إلاّ الله كما لا إله إلا الله، هذا عندهم فى قَرنْ واحد ومشاهدة واحدة، وهو أوّل التوحيد، وإنْ كان قد جَعَل هادين ومضلّين ومعطين ومانعين

ولكن بعد إذنه ومن بعد مشيئته وحُكمه. كما قال تعالى أحسن الخالقين خير الرازقين، لأنه خلقَهم وخلَق خُلُقهم ورَزَقهم ورزَق رزْقهم، وكذلك هو هداهم وهدَى بهم وأضلّهم وأضلّ بهم. فعن هدايته هُدُوا به، وعن إضلاله ضلّوا بعد إرادته، كما عن خَلْقه خُلقُوا ومن رزقه رُزقوا. وكيف وقد فسر ماذكرناه بقوله وإذ تَخْلق من الطين كهيئة الطير بإذنى، وبقوله تعالى لوهدانا الله لهديناكم، وقال فى مثله فأغويناكم إناّ كنا غاوين، فبمشاهدة ماذكرناه يخرج العبد من الشرك الخفى وهو تحقيق قوله لا إله إلاّ الله بعد التصديق، أى ليس مَنْ تأله القلوب وتألّه إليه إلا الله، ثم يقول معها وحده لا شريك له، أى وحده فى قدرته وتوحيده، لا شريك له فى ملكه من خَلْقه. ثم وكد ذلك بقوله له الملْك أى جميع ما أظهر، وله الحمد فى جميع ما أعطى ومنع،

يستحق الحمد كله فهو لا يستحقه غيره ، وهو على كل شئ قدير أى من الخلق والأمر ، فالقدرة كلها له والخلق كله له ، يحكُم في خَلْقه بأمر ما شاء كيف شاء .

ومثل الأواسط مِثل الآلة بيد الصانع ، ألا ترى أنه لا يقال الشفرة حذّت النعل ولا السوط ضرب العبد ، إنما يقال الحذاء حذّ النعل ، وفلان ضرب عبده بالسوط . وإن كانت هذه الأواسط مباشرة للأفعال إلا أنها آلة بيد صانعها وكذلك الخليقة يباشرون الأسباب فى ظاهر العيان والله من ورائهم محيط ، القادر الفاعل بلطائف القدرة وخفايا المشيئة ألم ترَ إلى قولهم الأمير أعطانى كذا ، وخَلَع علَى كذا وإنْ لم يناوله بيده ؟ ولا يصلح أن يقول خادم الأمير أعطانى لأجل أنه جرى على يده وإنْ كان باشر العطاء بنفسه ، إذ قد عُلِم أن الخادم لا يملك ولا يتصرف فى مُلك الأمير إلا بأمره ، إلا أن يُسئل الإنسان بيد مَنْ أعطاك الأمير ، أو على يد مَنْ وجّه إليك العطاء ، لبُغيْة تكون للسائل فى معرفة أى عبد جاء به ، فيجوز أن يقول حينئذ بيد عَبْده فلان .فأمّا أنْ يبتدئ المُعطى من غير أن يُسأل إذا أراد أن يُظهر العطاء فيقول الأمير أعطانى على يد عبده فلان ، فإنّ هذا لغو لا يحتاج إلى ذكر العبد مع ذِكر الملك لأن البغية إظهار العطاء من الملِك المُعطى ، فلا معنى لذكر العبد الذى جرى العطاء على يده فافهم .

ومن ذلك قول النبىّ صلى الله عليه وسلم للرجل الذى ناوله التمرة ، خذها لو لم تأتها لأتتك. والتمرة لا تأتى ، ولم يقل لجاءك بها رجل إذ لا بغية فى ذكر ذلك ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى قال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد ، فقال عرف الحق لأهله وإنما ذكر الله تعالى الأسباب لأن الأسماء متعلقة بها ، والأحكام عائدة على الأسماء بالثواب والعقاب ، فلم يصلح أن لا تُذكر فتعود الأحكام على الحاكم تعالى وعن هذا أنه هو يبدئ ويعيد ، يبدئ الأحكام من الحاكم ويعيدها على المحكوم ومن هذا قوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، فجميعاً عنده وفى خزائنه ، إلا أنه أضاف الدنيا إلينا لرجوع الأحكام علينا وليُزهّدنا فيها وأضاف الآخرة إليه تخصيصاً لها وتفضيلاً ليرغبنا فيها وكما أخبر عن عيسى وإذ تخلق من الطين ، ومثله فارزقوهم فيها ، فسمّاه خالقاً إذ خلق الله على يده وسماهم رازقين لما أجرى علي أيديهم رزق أهليهم فهو عندى كقوله لمريم وهُزّى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . وقد علمتَ أن الرطب لم يتساقط بهزها ولا جَعل ولا فِعل لهزها فى الرطب ، ولكن أراد أن يُظهر كرامتها ويجعل الآله منه بيدها ومثله اركض برجلك

هذا مغتسل بارد وشراب، فنبعت عينان فشرب من إحداهما واغتسل من الأخرى، ولا فعل لرِجْله فى إظهار العينْين، وقد نفى لَبِيْد ماسوى اللّه فى قوله* ألا كل شىء ماخلا اللّه باطل* فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لما أنشد ذلك صدَق. وفى لفظ آخر أن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال أصْدقُ بيت قاله الشاعر. *ألا كلُ شىء ماخلا اللّه باطل* وهو يعلم صلّى اللّه عليه وسلم أن فى الأشياء أواسط حق، وأسباب صدق، ثم لم يمنعه ذلك أنْ قال أصدق بيت قاله الشاعر كذا إيثاراً منه للتوحيد، وتوحيداً للمتوّحد. هذا مع قُرب عهدهم بتكذيب الرسُل وإبطال الكتب، ولكن لما كانت الأشياء بعد أنْ لم تكن ولا تكون بعد أنْ كانت أشْبهَت الباطل الذى لا حقيقة له أوّليّة ولا ثبات له آخريّة، وكان اللّه تعالى الأوّل الأزلى الآخر الأبدى، فهو الحق ولاهكذا سواه. ومِثْلُه الأسباب أيضا فى ثوانيها وأواسطها إلى جنب الأوّل المسبب، مِثْل ما يقول فى القرآن قال اللّه كذا ولك أن تقول قال نوح وقال يوسف كذا، فكلّ صواب. فإذا قلتَ قال اللّه سبحانه وتعالى فهو القائل الأوّل قبل القائلين، متكلما بوصفه، مخبراً عن علمه بغير وقت لُموقّت، ولا حدّ لمحدود، ولا حدّ ثان. وإنْ قلتَ قال صالح وقال شعيب، فقد قالوه بأنهم ثوان فى القول، وأواسط به قالوا ذلك عنه، بحدوث أوقات وظهور أسباب. كذلك الأسباب فى أواسطها هى ثوان عن الأوّل المبدىء. ومن ههنا وفى مثْله دخلت الشُبْهة على المبُتدعين فقالوا بخلق القرآن، فلو لم يدخل عليهم إلا أنهم جعلوا قول القائلين قبل قول اللّه أحكم الحاكمين، فأثبتوا قبل قوله قيلا وهو القول منهم، لنفيهم قِدَم الكلام فوقعوا بجهلهم فى أعظم مما هربوا منه، لأنهم هربوا من إثبات قديم آخر بزعمهم فوقعوا فى إثبات حدَثٍ أوّلاً وإحداث قِدَم ثانيا، تعالى اللّه عما يقول الظالمون علُوا كبيرا، وسبحانهُ بكرة وأصيلا، ولم يعلموا بجهلهم أنهم إنما قالوه بعد قوله، فصار قولهم عن قوله، وكان هو الأوّل فى القول من حيث كان هو الأوّل بالقدم والسابق بالعلم، وصاروا همْ ثوانٍ فى المقال من حيث كانوا حوادث من الأفعال. فكذلك أيضا تدخل الشُبْهة على الغافلين من ضعف اليقين لشهود المانعين والمنفقين أوائل فى الفعل من قبَل أنّ اللّه تعالى أظهر العطاء والمنع بأيديهم، فشهدوهم مُعطين مانعين لنقصان توحيدهم، فأشركوا فى أسماء اللّه كما أشركت المبتدعة فى صفات اللّه عز وجل، أنْ حُجبوا عن شهادة سَبْق علم اللّه، كما حُجب الزائغون عن حقيقة توحيد اللّه تعالى، إلاّ أن شرْك الزائغين ضلالٌ يُنْقل عن الملة وهو شرْك جلىّ، وشرك ضعفاء اليقين غفلة وجهل لا يُنْقل عن الملة لأنه شرك خفى.

وحكى أن بعض العلماء صلّى خلف رجل فلما انفتل الإمام نظر إليه فى زيٍ مكتسَب، فقال ياشيخ من أين تأكل، فقال إصبر حتى أعيد الصلاة التى صليتها خلفك ثم أجيبك! وحدثونا فى معناه عن آخر أنه لزم العكوف فى المسجد ولم يكن ذا معلوم من عيش، فقال له الإمام الذى يصلى بالناس لو تكسّبت وتعيّشت كان أفضل لك، فلم يجبه، فأعاد عليه وقتا آخر نحو ذلك، فقال يهودىٌ فى جوار المسجد قد ضَمِن لى كل يوم رغيفين فقنعت بذلك وتركت التكسب، فقال الإمام إنْ كان صادقا فى ضمانه فإنّ عكوفك فى المسجد خير لك، فقال له الرجل ياهذا أنت لو لم تكن إماما للمسلمين تقوم بينهم وبين الله لنَقّصَ توحيدك. وحدِّثت أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديّقين أدركْ لى لطف الفطنة وخفّى اللطف فإنى أحب ذلك، قال يارب ومالُطف الفطنة، قال إنْ وقعت عليك ذبابة فاعلم أنى أوقعتها فسَلنى أرفعها، قال وماخفّى اللطف، قال إنْ أتتك فولة مسوّسة فاعلم أنى قد ذكرتك بها. وهذا الذى ذكرناه من أنّ الله سبحانه وتعالى هو المعطى المانع الضار النافع حيث كان هو الخالق الرازق، كيف شاء ومتى شاء وبمن شاء، هو فى عقود عموم المؤمنين وفى عِلمهم، إلاّ أن فيهم جهلاً بالحكمة وغفلةً عن الحاكم، يحيلون ذلك إلى عاداتهم ويريدون أن يكون رزقهم من حيث معتادهم أو من حيث معقولهم باختيارهم ومعقولهم، وبالعز والفخر والتطاول والأنفة، لا على الذُل والتواضع والفقر والمسكنة، ولا يكلون أمورهم إلى الله يرضون بتدبيره وتقديره أن يرزقهم كيف شاء وبيد من شاء،فيؤثرون أخلاق الجبابرة على أخلاق المؤمنين لبُعدهم من مشاهدة اليقين، ولاستيلاء أخلاق النفس عليهم. ثم إنّ نفوسهم مع علمهم أن الخلْق والأرض كله لله عز وجل، وأن الحمد والملْك له، قد تطمع فى غير الله وترجو سواه، وقد تضطرت بجبلتها عند أثقال الحقائق، وقلوبهم لا تطمئن بل تنزعج عند الابتلاء بالمصائب والفاقات، ولا تصبر للخالق، وإنّ ألسنتهم قد تسبق بالمدح والفرح مع رؤية الأواسط،أو بالذم والأسى على فوْت العطاء لوجود الغفلة وذهابهم عن مشاهدة ما يعلمون،فهذا دليل نقص توحيدهم وضعف يقينهم، وأنّ معرفتهم معرفة سمع وخَبَر لا معرفة شهادة وخُبْر، وقد شركهم الموقنون بتسليم ذلك لله فى العلم والقدرة وإثبات الأواسط والأسباب لمجارى الحكمة، وعوْد الثواب والعقاب على الخليقة، ولكن زادوا عليهم بحُسن اليقين وقوة المشاهدة وجميل الصبر وحقيقة الرضا، فسكنت القلوب واطمأنّت النفوس عند النوازل والبؤس، وثبتوا فى الابتلاء لشهود المُبلىِ يدبر الخلائق كيف شاء، فحصُل لهم مقامٌ فى اليقين وحالٌ من التوكل ونصيبٌ من الرضا. وخرج أولئك من

حقائق هذه المعاني ودخلوا في عمومها، ودخل عموم المؤمنين مع الموقنين في فرض التوكل، قد جاوزهم الموقنون فارتفعوا عليهم وعَلَوْا في فضله، ووقف العموم ونكصوا عن العلّو لقعود اليقين بهم وحجْب الأسباب لهم، وسبق المقربون إلى الفضل، ويُؤتى كل ذى فضل فضله. هم درجات عند الله، والله بصير بما يعملون. وقال بعض العلماء احتجَبَ عن العموم بالأسباب فهم يرونها، وحَجّب الأسباب بنفسه عن الخصوص فهم يرونها ولا يرونها. وحدّثونا عن **سرى السقطى** قال ثلاث يستبين بهن اليقين، القيام بالحق في مواطن الهلكة، والتسليم لأمر الله عند نزول البلاء، والرضا بالقضاء عند زوال النعمة. وقال **يوسف بن أسباط** قَبْلَه – كان يقال ثلاث من كن فيه استُكمل إيمانه: مَنْ إذا رضى لم يخرجه رضاه إلى باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

ذكر التكسب والتصرف في المعايش

ولا يضر التصرف والتكسب لمن صحّ توكله، ولا يقدح في مقامه ولا ينقص من حاله. قال الله سبحانه وجعلنا النهار معاشا، وقال تعالى وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون. وروى عن النبّى صلى الله عليه وسلم: أُحلّ ما أكل العبد من كسْب يده، وكل بيع مبرور. وقد كان الصانع بيده أحب إليهم من التاجر. والتاجر أحب إليهم من البطّال. وقال **ابن مسعود** إني لأكره أن يكون الرجل بطالا ليس في عمل دنيا ولا في عمل آخرة. ولأن التوكل من شرط الإيمان ووصْف الإسلام قال الله تعالى إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين، فاشترط في الإيمان به والإسلام له التوكل عليه. فإن كان حال المتوكل التصرّف فيما قد وجه فيه ودخل في الأسباب وهو ناظر إلى المسبِّب في تصريفه، معتمد عليه واثق به في حركته، مُتسبب فيما يقلبه فيه مولاه، متعيش فيما يسببه له ويوجهه فيه، عالم بأن الله تعالى قد أودع الأشياء منافع خلْقه، وجعلها خزائن حكمته ومفاتح رزقه، ويكون أيضا متبعاً للسُنّة والأثر، تاركاً للترفّه والتنعّم، فهو في تكسبه وتصرفه أفضل ممن دخلت عليه العلل في توكله فساكنها.

وقد ذكر لنا عن بعض العلماء أنه رؤى يطحن برجله وكان قد ترك العمل أربعين سنة، فقيل له دخلت في التكسب بعد أن كنت قد تركته، فقال ياهذا إذا عدمْنا عزّ التوكل لم نصبر على ذُل الاستشراف. فكذلك الأمر فيمن دخلت عليه الآفة في ترك التكسّب، فليخرج منها إلى الاحتراف. ومن دخل عليه اليقين فاقتطعه فليقعدْ عن الاكتساب، فالتكسب خيرٌ من التشرف

إلى الخلْق واعتياد المسئلة، وسالك على طريقٍ فهو يصل وإنْ كان فى طريقه بَعْد، والتوكل لمن أُقعد به ناظراً إلى الوكيل أفضل لمن صحّ له لفراغ قلبه من الخلق وشُغله بالخالق، وهو طريق قريب فصاحُبه مقرّب. والتارك للتكسب طمعاً فى الخلق وترفّهاً للنفس وحباً للمسئلة واتباعاً للهوى سالكٌ على غير طريق، لا قريب ولا بعيد، هو عن المحجّة جائر. كما روى عن **النبى صلّى اللّه عليه وسلم** :لأن يأخذ أحدكم فأسه وحبْله فيذهب إلى الجبل فيحتطب فيأكل ويتصدّق خيرٌ له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه. وقال **صلّى اللّه عليه وسلم** :استغنوا عن الناس ولوبشَوْص السواك، يعنى بمضغه.وقال من يضمن لى خَصلة واحدة أضمن له الجنة، **لا يسأل الناس شيأ.**

وقال بعض علمائنا: من أنكر التكسب فقد طعن فى السنّة، ومن أنكر القعود عن التكسب فقد طعن فى التوحيد. وقال :بُعث النبّى صلى اللّه عليه وسلم إلى الخلْق وهم أصناف كما هم اليوم، منهم التاجر والصانع والقاعد، ومن يسأل الناس ومن لم يسأل الناس، فما قال للتاجر اترك تجارتك، ولا قال للقاعد اكتسبْ واصنَع، بل جاءهم بالإيمان واليقين فى جميع أحوالهم وتركهم مع اللّه فى التدبير، فعمل كل واحد بعمله فى حاله. وقد كان بعض المتوكلين يقول من لم يصبرْ على جوع ثلاثة أيام أخاف أن لا يسعه ترك العمل إذا وجَده. وقال أيضا مَنْ فقدَ الأسباب فضعف قلبه، أو كان وجودها أسكن لقلبه من عَدَمها لم يصح له القعود عن المكاسب لأن فيه انتظاراً لغير اللّه. وقال بعض العلماء: مَن طرقته فاقة تسعة أيام فتصوّر فى قلبه طمع فى خلْق أو استشراف إلى عبْد فالسوُق أفضل له من المسجد. وقال **أبو سليمان الدارانى:** لاخير فى عبد لزم القعود فى البيت وقلبه معلقٌ بقرع الباب متى يطرق بسبب. وقال بعض علمائنا: إذا استوى عنده وجود السبب وعدمه، وكان قلبه ساكنا مطمئنا عند العدم، لم يشغله ذلك عن اللّه تعالى ولم يتفرق همّه، فترْك التكسب والقعود لهذا أفضل لشُغله بحاله وتزوّده لمعاده وقد صح له مقام فى التوكل. وقال **سهل** وقد سئل متى يصح للعبد التوكل، فقال إذا دخل عليه الضرّ فى جسده والنقص فى ماله فلم يلتفت إليه ولم يحزن عليه شُغلاً بحاله، وينظر إلى قيام اللّه عليه. وقال **إبراهيم الخوّاص** وهو إمام المتوكلين من المتأخرين، ثلاثة مواطن حمْلُ الزاد فيهن من آداب التوكل، القعود فى المسجد، والركوب فى سفينة، وصحبة القافلة. وقال **سفيان الثورى:** العالِم إذا لم يكن له معيشة صار وكيلا للظلَمة، والعابد إذا لم تكن له معيشة أكَلَ بدينه، والجاهل إذا لم تكن له معيشة كان سفيراً للفسّاق.

وقال بعض أهل المعرفة: الناس ثلاثة – رجل شَغَلَه معاده عن معاشه فهذه درجة الفائزين، ورجل شغله معاشه لمعاده فتلك حال الناجين، وآخر شغله معاشه عن معاده فهذه صفة الهالكين. وروينا عن **علّى رضى الله عنه:** الرزق رزقان – رزق يطلبك، ورزق تطلبه. ففسّره بعض العلماء فقال الرزق الذى يطلبك هو رزق الغذاء، والرزق الذى تطلبه رزق التمليك وهو طلب فضل القوت. وقال **أبو يعقوب السوسى،** وقد كان له مقام مكين فى التوكل – التوكل على ثلاثة مقامات: عام، وخاص عام، وخاص خاص، فمنْ دخَل فى الأسباب واستعمل العلم وتوكّل على الله تعالى ولم يتحقق باليقين فهو عام ، ومَن ترك الأسباب وتوكل على الله وحقق فى اليقين فهو خاص عام، ومن خرج من الأسباب على حقيقته بوجود اليقين ثم دخل فى الأسباب فتصرّف لغيره فهذا خاص خاص، وهذا وصف الطبقة العليا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم.

وقد شرَط **النبى صلى الله عليه وسلم** للعطاء: ترك المسئلة والاستشراف تنزيها للفقراء ورداً لهم إلى الله تعالى، لأن فى مسئلة العبد الفقير ذُلاً ذليلاً وحرصاً على الدنيا جليلاً، وفى الاستشراف إلى العبيد طمع فى غير مطمع ونظرٌ إلى الله، وإتيان البيوت من غير أبوابها. ومنه ماروى عن **النبى صلى الله عليه وسلم:** مسئلة الناس من الفواحش، ماأُحلّ من الفواحش غيرُها. وقال **صلى الله عليه وسلم:** مَن استغنى أغناه الله، ومن استعفّ أعفّه الله، ومن فتح على نفسه باب مسئلة فتح الله عليه باب فقر. فكان الفقراء الصادقون جُعِل لهم أخذ العطاء، بل ندبوا إلى قبوله عوَضا لهم من ذلك لمّا مُنعوا من الاستشراف والسؤال تنزيهاً لهم وتفضيلا، فمثلهم فى ذلك أهل البيت جُعِل لهم خُمس الخُمس من الغنائم لماّ حُرّمت عليهم الصدّقة تفضيلاً لهم وتشريفا. وقد كان **الخوّاص** إذا نظر إلى عبدٍ فى العطاء أو خاف اعتياد النفس له لم يقبل منه شيئا، وكان يقول: صوفى لا يكون بحرِّيف. وهذا كله يحسن فى حال المنفرد، فأمّا ذو العيال فالأمر عليه واسع من ذلك، ولابأس أن يأخذ لعياله كما يأخذ لأجل غيره من الناس،لأن عياله عيالُ الله عنده فدوكّله بهم وأجرى أرزاقهم على يده، فإنْ طَلَب لهم وحثّ على استخراج حقهم مما أوجب الله لهم لم ينقص ذلك من حاله.

وآخى رسول صلى الله عليه وسلم بين سعد **بن الربيع** وبين عبد **الرحمن بن عوف،** فقال له سعد أشاطرك مالى وأهلى، فقال عبد الرحمن بارك الله لك فى أهلك ومالك. دلّونى

على السوق، فعمل يومه ذلك. فلو كان التكسب في الأسواق يُنقص التوكل لم يختر عبد الرحمن وهو إمام الأئمة ما ينقص توكله، ولكنه أحب إدخال المشاقة على نفسه وكَرِه التنعّم كما قال رسول اللهّ صلى اللّه عليه وسلم لمُعاذ إياك والتنعّم فإن عباد اللّه ليسوا بالمتنعّمين. ورؤى فضالة بن عبيد أشعث أغْبَر حافياً وهو أمير مصر، فقيل له لِمَ أنت هكذا، فقال إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نهانا عن الإرفاه وأمرنا أن نحتَفِي أحياناً. ثم اختار عبد الرحمن أيضا إيثار أخيه بما أبرّه به رعايةً لحق أخُوّته، ولأن اللّه تعالى قد ندَب إلى الإيثار ووصف به الأحباب. وأعلى من عبد الرحمن مقاماً إمام الأئمة أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه، لمّا بويع بالخلافة أخذ الأثواب تحت حِضنه ودخل السوق ينادي. هذا في أتّم أحواله حين أهّل للخلافة وأُقيم مقام النبوّة، حتى اجتمع المسلمون فكرهوا له ذلك، فقال لا تشغلوني عن عيالي فإني إنْ أضعتهم كنت لِما سواهم أضيْع، حتى فرضوا له قوت أهل بيتٍ من المسلمين، لا وَكْس ولا شطَطَ، فلما رضوا جميعا بذلك وأنفقوا عليه ترك السوق لشُغله بهم وبأمورهم. ألا تراه كيف آثر القيام بحقه وما أوجب اللّه عليه لأهله، وتواضع للّه في حال رفْعته وأسقطَ الخلْق عن عينه حتى كره المسلمون ذلك فتركه بحكمٍ ثان. فكذلك التوكل لا يزال مع الحكم الأول حتى ينهج اللّه له طريقا آخر فيسلكه بطريق ثان. وقد كان بعض علماء السلف يَجمع إليه الناس للكلام عليهم، فكان يقول لو أعلم أنّ أهلي يحتاجون إلى باقة بَقْل ما تكلمتُ عليكم. ففي هذا بيانٌ وبرهان لمن لم تستهوه الأهواء في إنكار التكسّب على أهل التوكل، احتجاجاً لنفسه واعتذاراً من بِطالته. ولا يسع العلماء في الدين إلا البيان وكشف حقيقة العلم بالبرهان، فالتكسّب والأسباب طرقٌ أودعها اللّه العطاء والأرزاق، لاهي تعطي وترزق بمنزلة الأواسط من الأشخاص، فالمتوكل المتسبّب موقن أنّ اللّه سبحانه هو المعطي والمانع، وأنه هو المُسبب الرازق، وأنه هو الأول في التصريف والآخر في التقليب، فقلبُه ناظرٌ إلى القسّام، ونفسه ساكنةٌ إلى القِسْم، وقلبه قانعٌ راضٍ بالمقسوم، وجسمُه متحرك في المعلوم الذي وُجّه فيه وسُبّب له، وهو عارف بمقامه وبالمراد منه، راضٍ بحاله وماقد استسعى فيه وأُلزم إياه.

والذي يُنقِص المتوكل ويُخرجه من حدّ التوكل اكتسابُ الشبهات للاستكثار، أو السعي بالتكسب للجمع والافتخار، أو الحرص على طلب ماحظره العلم عليه، أو لطلب ما يُكره المنال منه، أو التسخّط للأقدار إذا لم تؤاته على ماقدّر، أو تركٌ لنصحٍ لمن عامله بأن يحتال عليه أو يدّبر، أو التشرّف إلى الخلْق أو الطمع في سبب، فهذا كله لا يصح معه التوكل. وقد قال بعض

العلماء إنّ العبد إذا دخل السوق للتكسّب فكان درهمه أحب إليه من درهم غيره لم ينصح للمسلمين فى المبايعة، وهذا عنده يخرجه من التوكل. ودخول الآفات ومساكنتها لقصور علم أو غلبة هوى يُخرج العبد من التوكل، وهو أن يكون متوكلا على الناس بأن يطمع فيهم، أو يتصدى لهم بالتعرّض والتصنّع، أو يكون متوكلا على صحة جسمه ودوام عوافيه، وأنه لا يُرزق إلاّ من كدّة، أو يكون متوكلا على ماله بأن يثق به ويطمئن إليه ويحسب أنه إنْ افتقر انقطع رزقه. وعلامة ذلك ضنّتُه به وإعداده له عدّة لكذا وعدة لكذا. فهذه المعانى تُخرج من التوكل، فقد تخفَى دقائقها وتدّق حقائقها إلاّ على جهابذة العلماء الراسخين فى العلم المتضلّعين باليقين، القائمين على الدوام بالشهادة، فمن نظر إلى هذه المعانى من الأسباب والأشخاص، أو سكن إليها سكون أنس فيقوَى قلبه بوجودها، فإنه يضطرب ويستوحش أو يضعف قلبه لفقدها، فهى علّة فى توكله.

وروينا عن **بشر بن الحارث** قال: إنّ العبد ليقرأ إيّاك نعبد وإيّاك نستعين فيقول الله تعالى كذبْتَ، ما إيايّ تعبدْ ولابى تستعين. لو كنت تعبد إيايّ لم تؤثر هواك على رضاى، ولو كنت بى تستعين لم تسْكن إلىَ حوْلك وقوتك، ولا إلى مالك ونفسك. وإنّ التارك للتكسّب والتصرّف فى الأسواق إذا كان فى أدنى كفاية وأُعينَ بالصبر والقناعة فى مثل زماننا هذا، أفضل وأتمّ حالاً من المتكسب إذا خاف أن لا ينال المعيشة إلاّ بمعصيّة الله من دخوله فى شبهة عياناً، أو خيانةً لإخوانه المسلمين. ولأنه قد تعذّر القيام بشرائط العلم مع مباشرة الأسباب وكثرة دخول الآفات والفساد فى الاكتساب، فترْكُ ملابسة أهل الأسواق ومخالطتهم على هذاالوصف المكروه أقرب إلى السلامة لبُعده من رؤية الأشياء وفقده مباشرتها، لأن الحُكم متعلق بالرؤية. ومثل الحرام مثل المنكر إذا لم تره سقط عنك حكمُه. وليس الخبر كالمعاينة ولا المجاورة كالمباشرة، ولا المعاين كالمخبر. وذلك كخَبر من زلّ عن حقيقة الكعبة على البُعد إلاّ أنه متوجه إلى الشطْر، فصلاته جائزة، ولو زلّ عنها أُنملة متع المعاينة لها بطلُت صلاته.

والتكسُّب ليس بفرض. وقد يُفترض بأحد معنيين بوجود العيال وعدم كفايتهم من وجه من الوجوه المباحة، أو بأن يُقطَع عدمه عن فرض ويضعف عنه مع فقد ما يُقام به الفرض ممالابد منه. وقد كان **بشر بن الحارث** ترك التكسّب وكان يتكلم فى الحلال ويشدّد فيه، فقيل له

ياأبانصر فأنت من أين تأكل، فقال مِن حيث تأكلون، ولكن ليس من يأكل وهو يبكى مثل من يأكل وهو يضحك. وقال مرة ولكنْ يد أقصر من يد، ولقمة أصغر من لقمة. وقد كان **للثورى** خمسون ديناراً يُتّجر له بها، ثم أخذها في آخر أمره ففرقها على إخوانه وترك التكسب. ويقال إنه فعل ذلك لمّا مات عياله. وليس للعبد أن يحمل حال عياله على حاله إلاّ أن يكون اختيارهم كاختياره، وصبرهم على فقرهم ومعرفتهم بفضله كمعرفته، فجائز حينئذ أن يسير بهم سيرته ويُسقط عنه التكسب لأجلهم، لأنهم كَهُوَ فى الحال مع سقوط المطالبة منهم له بحقوقهم عليه، وقد فعل ذلك جماعة من السلف.

وبعض العارفين يفضلون مَن لا معلوم له على مَن له معلوم، وهم لا يرون ترك التكسب أفضل لأنه معلوم، ويعدّ هؤلاء سكون القلب مع وجود المعلوم علّة، ولكن إذا سكن قلبه مع غير معلوم واجتمع همّه وانقطع طمعه فى حال المعدوم فهذا هو المقام، وتفضيل هذا فى التوسط من المقال عندى، والله أعلم أن العبد لا يفضُل بنَفْس عدم المعلوم كما لا يفضُل بنفس القعود عن المكاسب، وإنما يفضُل بحاله من مقامه، فإذا كان ذو المعلوم أحسن معرفةً وأقوى يقيناً فَضُلَ على مَن لا معلوم له. ولا يكون سكون القلب وطمأنينة النفس أيضا مع وجود المعلوم علّة فى الحال على قَدْر المقام، ولكن لا يكون مقاما يُرفع به ولا حالا يُفضّل فيه. إلاّ أنّ الطمع فى الخلْق وتشتُّت القلب مع وجود معلوم الكفاءة نُقصان عند الكل وعندى، وقطع الطمع فى الخلْق واجتماع القلب مع العدم أفضل وأعلى درجة عند الجماعة.

وفى حديث حية وسوار ابنىّ خالد أنّ **النبى صلّى الله عليه وسلم** قال لهما لا تيأسا من الرزق ماتهزّزت رؤسكما فإنّ ابن آدم تلده أمه أحمر ليس عليه قشْر ثم يرزقه الله بعد. وقال **صلّى الله عليه وسلم** للرجل الذى ناوله التمرة لو لم تأتها لأتتك. ويقال إن العبد لو هرب من رزقه لأدركه كما لو هرب من الموت لأدركه الموت، وأنّ الرزق لا ينقطع عن العبد حتى يظهر له ملَك الموت، فحينئذ ينقطع عنه رزق الدنيا ويدخل فى رزق الآخرة، فيكون أوّل رزق الآخرة آخر رزق الدنيا. ولا آخر لهذا الرزق. وقال **سهل بن عبد الله:** لو أن العبد سأل الله أن لا يرزقه لم يستجب له، ويقال له يا جاهل أنا خلقتُك ولابد من أن أرزقك أبدا. وقال وقد سئل عن القُوت، فقال هو الحى الذى لا يموت، فقيل إنما سألتك عن القِوَام، فقال القِوَام هو العلم، قيل سألناك عن الغذاء، فقال الغذاء هو الذِكْر، قيل سألناك عن طُعمة الجسد، فقال

مالَكَ وللجسد، دعْ مَن تولاه أولاً يتولاه آخراً. إذا دخلت عليه علة فردُّه إلى صانعه. أما رأيت الصَّنْعة إذا عابت ردّوها إلى صانعها حتى يصلحها؟

وقد روينا عن **سهل** أنّ اللّه تعالى يُلقى على الخصوص الفاقة، ويُحْوِجهم إلى الخلْق بالطمع فيهم، ويُلقى فى قلوب الخلْق المنع لهم فيحرمهم ما فى أيديهم ليردّهم إليه، فإذا رجعوا إليه آيسين منقادين رزقهم من حيث لا يحتسبون. ومن علامة الخصوص أنهم إذا استشرفوا إلى شئ حُرِموا ذلك الشئ، وإذا سكنوا إلى عبدٍ سلّط عليهم ليرفع سكونهم إليه. وقد كان بعضهم إذا جاءه السبب بعد تطلّعٍ إليه ردّه، ومنهم من كان يُخرجه ولا يتناول منه عقوبةً لنفسه. وكان **ذوالنون المصرى** يتكلم على إخوانه فى علم التوحيد والمعرفة، فسأله غلام شاب عن الخبز من أين هو، فقال خذوا بيده واذهبوا به إلى الصوفية حتى يعلموه الأدب. وقد حكى عن **معروف أبى محفوظ الكرخى** أنه ذُكِر له انقباض بِشْر عن الأسباب التى تُفْتتَح له، فقال إن أخى بشراً قبَضه الورع، وأنا نشّطتنى المعرفة. إلاّ أن معروفا كان لا يأخذ السبب إلاّ عند الحاجة، ويأخذ منه ما لا بد له منه، وكان لا يدخر، وكان قصير الأمل لم يكن يأمل البقاء من وقت صلاة إلى صلاةٍ أخرى. وكان إذا صلّى الظهر يقول للجيران اطلبوا لكم مَن يُصلى صلاة العصر. وكان يقول إنما أنا ضيف فى دار مولاى، إنْ أطعمنى أكلتُ متى أطعمنى، وإنْ أجاعنى صبرت حتى يُطعمنى. وقد كان **أبو محمد سهل** يقول المتوكل لا يَسأل ولا يَردّ ولا يَحتكر.

ذكر الادخار مع التوكل

ولا يضر الادخار مع صحة التوكل إذا كان مُدّخِراً للّه وفيه، وكان ماله موقوفا على رضا مولاه، لا مدخرا لحظوظ نفسه وهواه، فهو حينئذ مدخر لحقوق اللّه التى أوجبها عليه، فإذا رآها بذل ماله فيها. والقيام بحقوق اللّه لا يُنقص مقامات العبد بل يزيدها علوّا. وحدثونا عن بعض أصحاب **بشر بن الحارث** قال كنت عنده ضَحْوة من النهار فدخل عليه كهل أسمر خفيف العارضين، فقام إليه بشر، قال وما رأيته قام لأحد غيره، قال ودفع إلىّ كَفّاً من دارهم، قال اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام والطيب، قال وما قال لى قط مثل ذلك، قال فجئت بالطعام فوضعته بين يديه فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره، قال فأكلنا حاجتنا وبقى من الطعام شئ كثير فأخذه الرجل فجمعه فى ثوبه فجعله تحت يده وانصرف، قال فعجبت من

فعله ذلك وكرهتُه له إذ لم يأمره بشر بذلك ولا هو استأذنه فيه، فقال لي بشر بعد ذلك لعلك أنكرت فعله ذلك، قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذْن، فقال تعرفه، قلت لا، قال ذلك أخونا **فتح الموصلي**، زارنا اليوم من الموْصل، وإنما أراد أن يعلمنا أن التوكل إذا صحّ لم يضُرّ معه الادخار.

وترك الادخار إنما هو حال مَن مقامه قِصَر الأمل. وقد يصحّ التوكل مع تأميل البقاء، فإنْ كان أمله للحياة لطاعة مولاه وخدمته والجهاد فى سبيل الله فَضُل ذلك، وهذا طريق طائفة من الراجين والمستأنسين. وإنْ كان أمله للحياة لأجل مُتعة نفسه، وأخْذ حظوظها من دنياه نَقّص ذلك من زُهده فى الدنيا فسرى النقص إلى توكُّله، وما نقص من الزهد نقص من التوكل بحسابه. وليس ما زاد فى الزهد يزيد فى التوكل بحسابه، لأن الزهد من شرط خصوص التوكل، وليس التوكل من شرط عموم الزهد، فكل متوكل ذى مقام زاهد لا محالة، وليس كل زاهد فى مقامٍ متوكلاً، لأن التوكل مقام والزهد حال، والمقامات للمقرّبين والأحوال فى أصحاب اليمين، إلاّ أنّ مَن أُعطى حقيقة الزهد فإنه يُعطى التوكل لا محالة، لأن حقائق الأحوال وثبوتها ودوام استقامة أهلها فيها ولزومها لقلوبهم هى مقامات، فإذا جاز للمتوكل تأميل البقاء لشهر أو شهرين جاز له الادخار لذلك. إلاّ أنّ طول الأمل يُخرج من حقيقة التوكل عند الخواص، ولا يخرجه من حده عندى. وأكره للمتوكل الادخار لأكثر من أربعين يوما كما يُكره تأميل البقاء لأكثر من أربعين. ومن ادّخر لصلاح قلبه وتسكين نفسه وقطْع تشرّفه إلى الناس إن كان مقامه السكون مع المعلوم فالادخار له أفضل، فأمّا مَن ادّخر لعياله لتسكن قلوبهم ولوجود رضاهم عن الله ولسقوط حكمهم عنه ليتفرغ لعبادة ربه فهو فاضل فى ادخاره، اتفقوا عليه، ولأنه فى ذلك قائم بحُكم ربه، راع لرعيته التى هو مسؤل عنها . وقد ادّخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوُت سَنَة ليسن ذلك. وقد نهى أم أيمن وغيرها أن تدّخر شيأ لغد. ونَهَى بلالاً أيضا عن الادخار ليقتدى به أهل المقامات فى ذلك. كما روى أنه قُبض صلّى الله عليه وسلم وله بُرْدان فى الحفّ يُنسجان. وقد كان عليه السلام أقصر أملا من ذلك. كان يبول فيتيمم قبل أن يَصل إلى الماء، فيقال له فى ذلك إنّ الماء منك قريب، فقال وما يدرينى لعلى لا أبلغه. فهذا يدلك أن الادخار يتّسع ويضيق على قدر مشاهدات العارفين من قبَل أن الشريعة جاءت بالرُخصة والعزيمة، فالعزائم من الدين للأقوياء الحاملين، والرُخَص من الدنيا للضعفاء المخمولين.

وقد كان **الخوّاص** يُدقّق فى أحوال التوكل ويُذكّر أن الادخار يُخرج من حد التوكّل. ولم يكن يفارقه أربعة أشياء. وكان يقول ادخارها من تمام حال المتوكل لأنها من أمور الدين – الركْوَة والحبْل والإبرة والخيوط والمقراض. وكان **سهل** يَضرب للمدّخر مَثَلا فى قصَر الأمل وطوله فيقول، مَثَل مَن يَترك الادخار مَثَل رجل يقول أريد أن أخرج إلى الأيْلة، فيقال له خذ

رغيفا، فإنْ قال أريد أن أخرج إلى عبادان قيل له خذ رغيفين، فإنْ قال أريد أن أخرج إلى العسكر قيل له خذ أربعة أرغفة. قال فكذلك تركُ الادخار على قدْر قصرِ الأمل وطوله.

وينقص الادخار من فضائل الزاهدين بمقدار ما يمنع من حقيقة الزهد. وفى حديث شهر بن حوْشب عن أبى أُمامة فى ذِكْر الفقير الذى أمر **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** علياً وأسامة فغسّلاه وكفنّه ببُردته، فلما دفنه قال لأصحابه إنه يُبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ولولا خَصلة كانت فيه لبُعث ووجهه كالشمس الضاحية، فقلنا وما هى يا رسول الله، قال إنه كان صوّاماقوّاماً كثيرَ الذكْر لله، غير أنه كان إذا جاءه الشتاء ادّخر حُلّة الصيف لصيفه، وإذا جاءه الصيف ادّخر حلة الشتاء لشتائه من قابل. ثم قال مِنْ أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومَن أُعطى حظه منها لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهارْ.

وحدّثونا عن بعض العارفين قال رأيتُ فى النوم كأن القيامة قد قامت، وكان الناس يساقون زمرة زمرة إلى الجنة على طبقات، قال فنظرتُ إلى طبقةِ أحسن الناس هيئة وأعلاهم مُرتقى وأسرعهم سبقا، فقلت هذه أفضلهم أكون فيهم، قال فذهبت لأخطوإليهم وأدخل معهم فى طريقهم فإذا بملائكة حولهم قد منعونى، وقالوا قف مكانك حتى يجئ أصحابك فتدخل معهم، فقلت تمنعونى أن أكون مع هؤلاء السابقين، فقالوا هذا طريق لا يسلكه إلاّ مَن لم يكن له إلاّ قميص واحد، ومن كل شئ واحد، وأنت لك قميصان ومن الأشياء زوجان، قال فانتبهتُ باكياً حزيناً، فجعلتُ على نفسى أن لا أملك من كل شئ إلاّ واحداً. وقد كان **حُذيْفة المرعشى** يقول منذ أربعين سنة لم أملك إلاّ قميصا واحدا. وكان كثير من السلف إذا استجدّ ثوبا أو شيئاً أخرج الأوّل منهما. وكانوا يستعملون الشئ الواحد من الأشياء الكثيرة. وهذا كله داخل فى التحقيق بالزُهد وهو من فضائل المتوكلين. والخبر المشهور أن رجلاً من أهل الصُفّة توفّى فما وجدوا له كَفَنا، فقال النبى صلّى الله عليه وسلم فتّشوا ثوبه، قال فوجدنا داخل إزاره دينارين، فقال كيّتان. وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف عدةً فلا يقول له ذلك، لأن هذا كان حاله الزهد وإظهار الفقر فعابه الادخار.

ذكر التداوى وتركه للمتوكل وتفصيل ذلك

ولا ينقص التداوى أيضا توكل العبد، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر به وأخبر عن حِكمة الله تعالى فيه، **فقال صلّى الله عليه** وسلم ما من داء إلاّ وله دواء، عَرفه من عَرفه،

وجَهله من جهله، إلاّ السام، يعنى الموت. وقال عليه **الصلاة والسلام** تداووا عباد الله. وسُئل عن الدواء والرُّقَى هل يُردُّ مِن قَدَر، فقال هى من قَدَر الله. وفى الخبر المشهور ما مررت بملأ من الملائكة إلاّ قالوا مُر أُمّتك بالحجامة. وفى الحديث أنه أمر بها فقال احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين. لا يبيغ بكم الدم فيقتلكم. وفى ذكْر تبيّغ الدم دليل على توقيت هذا العدد من الأيام للحجامة، إلاّ أنه أُريد به هذه الأيام من الشهر، وأحسبه لأهل الحجاز خاصة لشدة حرّ البلد، كقول **عمر رضى الله عنه** فى الماء المشمس أنه يُوَرّث البَرص. سمعت أن ذلك فى أرض الحجاز خاصة. وكان من سيرة السلف أن يحتجموا فى كل شهر مرة إلى أن يجاوز الرجل الأربعين. وكانوا يستحبون **الحجامة** فى آخر الشهر. وقد يُروى فى خبر منقطع مَن احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة. وقد روينا عن طريق أهل البيت أنّ النبى صلى الله عليه وسلم كان **يكتحل** كل ليلة، **ويحتجم** كل شهر، **ويشرب دواءً** كل سنة.

والتداوى رُخصة وَسعَة، وتركُه ضيق وعزيمة، والله يحب أن يُؤخَذ برُخصه كما يُحب أن تُؤتَى عزائمه. وقد قال الله سبحانه وتعالى وما جعل عليكم فى الدين من حرَج أى ضيق. وربما كان المتداوى فاضلا فى ذلك لمعنيْين: أحدهما أن ينوى اتّباع السُنّة والأخذ برُخصة الله وقبول ما جاءت به الحنيفية السمحة. وقد أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم غير واحد من الصحابة بالتداوى والحِميَّة، وقطع لبعضهم عرقا وكوَى آخر. وقال لعليّ رضى الله عنه، وكان رَمِدَ العين – لا تأكل من هذا، يعنى الرُطَب، وكل من هذا فإنه أوفق لك، يعنى سلْقاً قد طُبخ بدقيق أو شعير. وقد تداوى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فى غير حديث من العقرب وغيرها. ورُوى أنه كان إذا نزل عليه الوحْى صدَع رأسه فكان يُغلّفُه بالحِنّاء. وفى الخبر أنه كان إذا خرجت به قُرحة جعل عليها حِنّاء، وهو أعلى المتوكلين وأقوى الأقوياء. فإنْ قيل إنّما تداوَى لغيره وليس ذلك، قلنا فلا نرغب عن سُنّته ولا نزهد فى بُغيته إذا كان فَعَل ذلك لنا، لئلا يكون فعلا لَغواً، وتكون الرغبة عن سنّته إلى توَهُّم حقيقة التوكل طعناً فى الشرع. وقد كان صلى الله عليه وسلم ظاهرُه للخلْق ليقتفوا آثاره. من ذلك أنه صام فى السفر فى شدّة الحر، فكان يصب على رأسه الماء ويستظل بالشجر ليسُنّ بذلك الرخصة فى التبرد بالماء للصائم، فقيل له إن قوما صاموا وقد شَقّ عليهم فدعا بقدَح فيه ماء فشَرب فأفطر الناس، فترَك حاله صلّى الله عليه وسلم لأجلهم. فقيل له إنّ قوما لم يفطروا، فقال أولئك العُصاة. والمعنى الثانى

الذى يُفضّل به المتداوى أنه يُحَب سُرعة البرء للطاعة ولخدمة مولاه والسعى فى أوامره، إذ كانت العلل قاطعةً عن التصرف فى العمل ومُشغلةً للنفس عن الشُغل بالآخرة.

وذكر بعض علمائنا أن **موسى عليه السلام** اعتلّ علّة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علّته، فقالوا لو تداويت بكذا لَبَرأْتَ، فقال لا أتداوَى حتى يعافينى هو من غير دواء، قال فطالت علّته، فقالوا له إن دواء هذه العلة معروف مُجرّب وإنْ تتداو به تبرأ، فقال لا أتداوى، فدامت علّته، فأوحى الله عز وجل إليه وعزتى لا أبرأتُك حتى تتداوَى بما ذكروه لك، فقال لهم داوُونى بما ذكرتكم، فداووه فبرأ، فأوجس فى نفسه من ذلك، فأوحى الله إليه أردتَ أن تُبطل حكمتى لتوكلك علَى مَن أودع العقاقير منافع الأشياء. وفى بعض الأخبار شكا نبىٌّ من الأنبياء إلى الله علّة يجدها، فأوحى الله إليه كُلْ البيض. وفى خبر آخر أن نبياً من الأنبياء شكا إلى الله تعالى الضعف فأوحى الله إليه كُلْ اللحم باللّبن فإن فيهما القوّة. قال الشيخ أحسبه الضعف عن الجماع. وذكر **وهب بن منبه** أن ملكا من الملوك اعتلّ علّة وكان حسَن السيرة فى أهل مملكته، فأوحى الله تعالى إلى إشعياء النبى عليه السلام قل له اشربْ ماء التين فإنه شفاءٌ من علّتك. وقد روينا أعجب من ذلك أنّ قوما شكوا إلى نبيّهم قُبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مُرهم أن يُطعموا نساءهم الحُبالى السَفَرجل فإنه يُحسّن الولد. فقد كانوا يطعمون الحُبالى السفرجل، والنُفَساء الرُطَب، وهذا والله أعلم يكون فى الشهر الثالث والرابع من حَمْلها.

وعلى ذلك كله فإن ترْك التداوى أفضل للأقوياء، وهو من عزائم الدين وطريقة أولى العزم من الصدّيقين، لأن في الدين طريقين، طريق تَبتُّل وعزيمة، وطريق تَوَسُّع ورخصة، فمن قَوِىَ سلَك الطريق الأشدّ فهو أقرب وأعلى وهذه للمقربين وهم السابقون، ومن ضعُف سلَك الطريق الأرْفه وهو الأوسط . إلاّ أنه أبعد، وهو لأصحاب اليمين وهم المُقتصدون. وفى المؤمنين أقوياء وضعفاء، وليّنون وأشدّاء. وروينا عن **النبى صلى الله عليه وسلم**: المؤمن القوى أحَبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كلٍ خير. ورُوى عنه **صلى الله عليه وسلم**: فى المؤمنين مَن هو أشدّ فى الله عز وجل من الحجارة، وفيهم من هو ألْين من اللّبن. وقال فى وصف الأقوياء: مَثَل المؤمن كمثَل النخلة لا يسقط ورقُها. وقال الله تعالى فى معنى ذلك أصلُها ثابتٌ وفرعُها فى السماء. وقال **صلّى الله عليه وسلمّ** :مَثَل المؤمن كمثَل السُنْبلة، تُفيئها الرياح يمينا وشمالا. وقال **عليه السلام** فى صفة المؤمن المُطعِم – مَثَل المؤمن كمثل النخلة أكَلَت طيّبا ووضَعَت

طيِّبا. وقال فى وصف المُستطعِم – مَثَل المؤمن كمَثَل النملة تجمع فى صيفها لشتائها.
فأوصاف المؤمنين متفاوتة فى الضعف والقوّة، وفى الجبن والشجاعة، وفى الصبر والجزع،
فشتّان بين مَن شبَّه فى القوّةوالعلّو بالنخلة، قلبُه ثابت وهمّه فى السماء، يَطعم جَناه ولا يدخر،
إلى مَن شبِّه بالنملة فى الضعف والذى يستطعِم ويحتكر.

وقد فضّل **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** قوماً ومدحهم أنهم لا يَسترقون ولا يكتوُون
وعلى ربهم يتوكلون. وذكر أنهم يدخلون الجنة بغير حساب فعلّل بالتوكل. وأخبر أنهم تركوا
ذلك توكلاً. ثم سأله عُكاشة أن يدعَو الله أن يجعله منهم ففعل، لأنه رأى ذلك طريقه ورأى معه
زاده، وشهد فيه القوّة فأهّله لذلك، فلما قال له الآخر ادْعُ الله أنْ يجعلنى منهم، والمقامات
لايُقتدى بها ولا يُتمثّل فيها، كما لاتُدّعى لأنها مواجيد قلوب، فلّما لم ير ذلك طريقَه ولم يشهد
معه زاده لم يُؤهّله لذلك، فأوقفه على حدّه وحكَم عليه بضعفه، فردّه ردّاً جميلا لأنه كان حبيبا
كريما، فقال سبقَك بها عُكاشة. فهذا كما يقول الحاكم الحكيم إذا ضَعُف أحد الشاهدين
زِدْنى شاهداً آخر ولايصرح بجَرح الشاهد ولو عدّله لقَبْله ولم يطلب الزيادة، وإلاّ فالمقامات
لاتضيق لمن سبق إلَيها، ولكن الرسول لم ير فيه شاهدَ ذلك من القوة وتبين فيه الضعف عن
الحمْل فلم يخاطر به. وقد نهى عن الكى فى غير حديث. وقال لرجل أراد أنْ يُداوِى أخاه إلاّ
أنه مات من علّته، فقال أما لو بَرأ لقلتَ برّأتُه، لعلمه بما يهجس فى بعض النفوس أنّ الشفاء
والنّفع من فعل الدواء، وذلك من الشرْك، فكَرِه المحققون بالتوحيد التداوِى خشيةَ دخول ذلك
عليهم.

ورُوِى عن **موسى عليه السلام** يارب ممن الدواء والشفاء، قال منى، قال فما يصنع
الأطباء، قال يأكلون أرزاقهم ويُطيّبون نفوس عبادِى حتى يأتى شفائى أو قبضى. وقد كان
ابن حنبل يقول أُحِبُ لمن اعتقد التوكل وسلَك هذا الطريق تركَ التداوِى من الأشربة وغيرها.
واعتّل **عمران بن حصين** فأشاروا عليه أنْ يكتوِى فامتنع، فلم يزالوا به وعزَمَ عليه زياد بذلك،
وكان أميراً، حتى اكتوى، فكان يقول كنت أرى نُورا وأسمعُ صوتا وأسمع تسليم الملائكة
علىّ، فلما اكتويت انقطع ذلك عنى. وفى خبر كانت الملائكة تزوره فيأنس بها حتى اكتوى
فكان يقول اكتوينا كياتٍ فوالله ماأفلحنا ولا أنجحنا، ثم تاب من ذلك وأناب إلى الله تعالى
فردّ الله عليه ماكان يجد من أمر الملائكة. وقال لمطرف بن عبد الله ألَمْ تر أنّ الكرامة التى

كان أكرمّنى الله بها قد ردهّا علىّ بعد أنْ كان أخبره بفقدها ، فلولا أن ذلك كان عنده ذنباً له لما ندم عليه وتاب منه ، ولولا أن ذلك كان نقصاً ما صُرفت الملائكة عنه .

ومرض **أبو بكر الصديق** رضى الله عنه فقيل له لو دعونا لك طبيباً ، فقال قد نظر إلىّ الطبيب فقال إنى فعّال لما أريد وقيل **لأبى الدرداء** فى مرضه ما تشتكى ، قال ذنوبى ، قيل فما تشتهى ، قال مغفرةَ ربى ، قيل أفلا ندعو لك طبيباً ، قال الطبيب أمرضنى وقيل **لأبى ذر** وقد رمدت عيناه ، لو داويتهما ، فقال إنى عنهما لمشغول ، قيل فلو سألت الله أنْ يعافيك ، فقال أسأله فيما هو أهم إلى منهما وقيل **لأبى محمد** متي يصح لعبدِ التوكل ، قال إذا دخل عليه الضُرّ فى جسمه ، والنقص في ماله ، فلم يلتفت إليه شغُلاً بحاله وللنظر إلى قيام الله عليه وقد كان أصاب **الربيع بن خيثم** الفالج فقيل له لو تداويت فقال قد هممت ثم ذكَرت عاداً وثمود وقرُوناً بين ذلك كثيراً ، كانت فيهم الأوجاع ، وكانت فيهم الأطباء فهلك المُداوِى والمُدَاوَى ولم تُغنِ الرُقى شيأ وقد أصاب **عبد الواحد بن زيد** الفالج فعَطَل عن القيام ، فسأل الله أن يطْلقَه فى أوقات الصلاة ثم يرده إلى حاله بعد ذلك ، فكان إذا جاء وقت الصلاة فكأنما أنُشِطٌ مِن عِقال ، فإذا قضي الصلاة رجع إليه الفالج كما كان قبل ذلك .

ومَن لم يتداو من الصديقين والسلف الصالح أكثر من أن يُحصى إلاّ أنه مخصوص لمخصوصين ألم تر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذكر السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، ثم وصفهم بأنهم لا يكتوون ولا يسترقون ، فقام إليهُ عكاشة بن محصن الأسدى ، فقال ادع الله أن يجعلنى منهم فدعا له ، فقام رجل آخر فقال ادع الله أنّ يجعلنى منهم فدعا له ، فقام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال سبقّك بها عكاشة ، فلم يمنعه من الدعاء بُخلاً عليه إلا أن طريق الخصوص الأقوياء لا يسلكه العموم الضعفاء ، كما أن طريق العموم قد زهد فيه الخصوص . وأعجب ما سمعت قال بعض العارفين أصفى ما أكونُ قلباً إذا كنتُ محموماً .

وقد كان **مذهب سهل** أن ترك التداوى وإن أضعف عن الطاعات وقّصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات ، وكانت به علة فلم يكن يتداوى منها . وقد كان يُداوى الناس منها. وكان إذا رأى العبد يُصلى من قعود ، أو يستطيع أعمال البر من الأمراض فيتداوى للقيام فى الصلاة والنهوض إلى الطاعة ، يعجب من ذلك ويقول صلاته من قِعود مع رضاه

بحاله أفضل له من التداوى للقوة ويُصلى من قيام. وسُئل عن شُرب الدواء، فقال كل من دخل إلى شئ من الدواء فإنما هو سعةٌ من الله لأهل الضعف، ومَن لم يدخل فى شئ منه فهو أفضل، لأنه إنْ أخذ شيأ من الدواء ولو كان الماء البارد سُئل عنه لِمَ أخذت، ومَن لم يأخذ فليس عليه سؤال. وقال من يأخذ الماء البارد على سبيل الدواء سُئل، وأصله فى هذا أنّ عنده أفضل الأعمال أنْ يُضْعِف العبد قوّته حتى لا يكون لنفسه حَرَاك لأجل الله تعالى، وإنّ ذرةً من أعمال القلوب مثْل التوكل والرضا والصبر، أفضل من أعمال جبال من عمل الجوارح. وهذا **مذهب البصريين** فى إسقاط القوة بالتجوع الطويل والطَىّ الكثير لِتضعُف النفْس، لأن عندهم أن فى قوة النفس قوة الشهوات وغلَبة الصفات، وفى ذلك وجود المعاصى وكثرة الهوىٰ وطول الرغبة والحرص على الدنيا وحب البقاء، يقول إذا أدخَل الله عليها الأمراض من حيث لا تَحتسب فلا يتعالج لرفع الأمراض عنها فإنّ المَرَض مِنْ نهاية الضعف، ومِنْ أبْلَغ ما تَنقص به الشهوة. وقد كان يقول علَل الأجسام رحمة، وعلل القلوب عقوبة. وقال مرة أمراض الجسم للصدّيقين.

وقد كان **ابن مسعود** يقول تجد المؤمن أصحّ شئٍ قلبا وأمرضه جسما، وتجد المنافق أصحّ شئٍ جسما وأمرضه قلبا. وعن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** تحبون أن تكونوا كالحُمُر الصيّالة لا تمرضون ولا تَسقمون. وقد قيل لا يخلو المؤمن من علّة فى جسمه أو قلّة فى ماله. وقيل لا يخلو من غلَبةٍ أو ذلّة. والعبد إنْ لم يتداو أعمالٌ حسنة منها أن ينوى الصبر على بلاء الله تعالى، والرضا بقضائه، والتسليم لحكمه، إذ قد حَسُن عنده لأنه موقن، وإذ قد عرف الحكمة فى ذلك والخيرَة فى العاقبة لأنه حكيم. ومنها أنّ مولاه أعلم به منه وأحسن نظراً واختياراً وقد حبسه وقيّده بالأمراض عن المعاصى. كما روى عن الله تعالى الفقر سِجنِى والمرض قيْدِى، أحبس بذلك مَن أحبُّ من خلْقى، فلا يأمن إنْ تداوَى فعُوفِىَ أن تَقْوىَ النفس فيفسده هواها، لأن المعاصى فى العوافى، وعلّة سَنَة خيرٌ من معصيةٍ واحدة.

ولقىَ بعض الناس بعض العارفين، فقال له العارف كيف كنت بعدى، قال فى عافية، فقال إنْ كنتَ لم تعصَ الله فأنت فى عافية، وإنْ كنت قد عصيتَه فأى داء أدْوَى من المعصية. ما عوفى من عَصَى. وقال **علىّ رضى الله عنه** لما رأى زينة النبط بالعراق يوم عيدهم، ما هذا الذى أظهروه، قالوا يا أمير المؤمنين هذا يوم عيدٍ لهم، فقال كل يوم لا يعُصَى الله فيه فهو عيدٌ

لنا. وقال الله تعالى وهو أصدق القائلين وعصيتم من بعد ما أراكم ما تُحبون، قيل العوافى والغنّى. وقال بعضهم إنّ ما حمل فرعون على أنْ قال أنا ربكم الأعلى هو طول العوافى. لَبِث أربعين سنة لم يصدَع له رأس، ولم يَحُم له جسم، ولم يضرب عليه عرق، فادّعى الربوبية، ولو أخذته الشقيقة والمليلة فى كل يوم لشغله ذلك عن دعوى الربوبية.

واعلم أنّ الإنسان قد يطغى بالعوافى كما يطغى بالمال، لأنه قد يستغنى بالعافية كما يستغنى بالمال، وكلٌ فيه فتنة. وقد قال الله تعالى كَلاّ إن الإنسان ليَطغى أنْ رآه استغنى. وقال **الرسول صلّى الله عليه وسلم** نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس، الصحة والفراغ. والعصمة فى حال العافية نعمة ثانية، كالعصمة فى الغنّى نعمة النعمة، وهذا أحد الوجوه فى قوله عز وجل أذهبتُم طيباتكم فى حياتكم. ومنها أنّ الأمراض مُكفّرة للسيآت، فإذا كَرِهَ الأمراض بقيتْ ذنوبه عليه موفورة، وفى الخبر لاتزال الحُمّى والمليلة بالعبد حتى يمشى على وجه الأرض وما عليه خطيئة. وفى خبرٍ حُمّى يوم كفّارة سَنَة. وأحسن ما سمعتُ فى معناه قال لأنّ حُمّى يوم تهدّ قوة سنَة.وقيل فى الإنسان ثلاثمائة وستون مِفْصلاً تدخل حمّى يومٍ فى جميع المفاصل فيكون له بكل مفصل كفّارة يوم. ولمّا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفّارة الذنوب بالحُمّى سأل **زيد بن ثابت** ربه أنْ لايزال محموما، قال فلم تكن الحمّى تفارقه فى كل يوم حتى مات. وسأل ذلك طائفةٌ من الأنصار. وكذلك لمّا ذكر **رسول الله صلى الله عليه وسلم** مَن أذهب الله كريمتيه لم يَرضَ له ثواباً دون الجنة، قال فقد رأيت الأنصار يتمنون العَمى. ولمّا جاءت الحمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذن عليه، قال اذهبى إلى أهل قباء، وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى فيه رجالٌ يحبون أنْ يتطهروا، أى بالأمراض من الذنوب. وعن **عيسى عليه السلام** يقول لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب على جسده وماله لما يرجو فى ذلك من كفّارة خطاياه. والصدّيقون يُبتلون بعلل الجوارح، والمنافقون يُبتلون بأمراض القلوب، لأن فى أمراض الأجسام ضعفها عن الآثام والطغيان، وفى أمراض القلوب ضعفها عن أعمال الآخرة والإيقان.

وفى معنى قوله عز وجل وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة، قيل ظاهرةَ العوافى وباطنةَ البلاوى، لأنها نِعمَ الآخرة. وروى أن **موسى عليه السلام** نظر إلى عبدٍ عظيم البلاء، فقال يارب ارحمه، فأوحى الله عز وجل إليه كيف أرحمه مما به وهو أرحم له. وقد قال الله وهو

أصدق القائلين فى تصديق هذا المعنى ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضُرّ للجّوا فى طغيانهم يعمهون، فأخبر أنّ فى ترك الرحمة لهم لُطفا ورحمة. وروينا عن **عبد الواحد** أنه خرج فى نفرٍ من إخوانه إلى بعض نواحى البصرة فأراهم المسير إلى كهف جبل، فإذا فيه عبدٌ مُقَطّع بالجذام يسيل جسده قيْحاً وصديداً، فقالوا يا هذا لو دخلت البصرة فتعالجت من هذا الداء الذى بك، فرفع طرفه إلى السماء وقال سيدى بأى ذنب سلطْتَ هؤلاء علىّ، يُسخطونى عليك ويُكَرّهون إلىّ قضاءك! سيدى استغفرك من ذلك الذنب، لك العتبى، إنى لا أعود فيه أبدا! قال ثم أعرض بوجهه فانصرفنا وتركناه.

وفى الحديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاءً ثم الأمثل فالأمثل. يُبتلىَ العبد على قدر إيمانه، فإنْ كان صلب الإيمان شدّد عليه البلاء، وإنْ كان فى إيمانه ضعف خففّ عليه البلاء. كما يُجرّب إحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب إلابرين، ومنهم دون ذلّك، ومنهم من يخرج أسود محترقاً. وقد روينا حديث من طريق أهل البيت، إذا أحّب الله عبداً ابتلاه، فإنْ صبر اجتباه، وإنْ رضى اصْطفاه. ومنها أن الملك يكتب له مثل أعماله الصالحة التى كان يعملها فى صحته، وأنه يُجرِى له من الحسنات مثل ما كان يجْرِى له على أعماله، فيكتب الملك له أعمالا صالحة خيراً له من أعماله لأنه قد يَدخلها الفساد. واختيار الله له أن يستعمله بالأوجاع خيرٌ له من اختياره لنفسه أنْ يستقل إلى الله بالأعمال الصالحة. وهذا أحد المعنيين فى معنى الخبر: أفضل الأعمال ما أُكرِهَت عليه النفوس، قيل هو مادخل عليها من المصائب فى الأنفس والأموال، فهى تكره ذلك وهو خير لها. ومن هذا المعنى قوله تعالى وعسى أن تكرهوا شيأً وهو خير لكم، وعسى أنْ تحبوا شيأً وهو شر لكم. قد يكره العبد الفقر والعَيْلة والضُرّ والخمْلة وهو خير له فى الآخرة وأحمدُ عاقبة، وقد يُحب الغنىَ والعوافى والشُهرة وهو شرٌّ له عند الله وأسوأ عاقبة. وفى الخبر أيضا يقول الله تعالى لملائكته اكتبوا لعبدى صالح ماكان يعمل فإنه فى وثاقى، إنْ أطلقته أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وإنْ توفيته توفيته إلى رحمتى، فإبدال صفة لحُسن اختيار الله له خير له من الدنيا والآخرة ومن شهوته.

والأصل فى التوكل وتركه أنّ المتوكل على الله قد علم فى توكله أنّ للعلة وقتا إذا انتهت إليه برأ العليل بإذن الله لا محالة، ولكن الله عز وجل قد يحكُم أنه إنْ تداوىَ شفاه فى عشرة

أيام، وإنْ لم يتداو أبرأه فى عشرين يوما، ليترخص العليل بما أباحه الله له فيطمع في تعجيل البُرء فى عشرة أيام، ليكون أسرع لشفائه وأقرب إلى عافيته، على أنه معتقد أن الدواء لا يُشفى، وأنْ التداوى لا ينفع، لأن الله هو الشافى وهو النافع، فالشفاء والنفع فَعَلَه لعبده وجعله فى الدواء من لطائف حكمته، لا يجعله سواه ولا يفعله إلاّ إياّه، إذ كانت العقاقير مطبوعة مجبولة على خُلُقها، فجاعل الأسباب فيها هو جابلها، لأن الجَعْل فيها والخاصية منها ليس من عمل المتُطَبب وإنْ كان يعمل بها ويجمع بينها وبين العليل، لأنه ظهر على يديه سبباً لرزقه، فالله خالق جميع ذلك وفاعله، وكذلك قال الله تعالى والله خلقكم وما تعملون.

وكذلك أيضا عند العارفين أنّ الخبز لا يُشبع وأنّ الماء لا يَروِى، كما أنّ المال لا يُغنى، والعُدْم لا يفقر، لأن الله هو المُطعِم المُسقى، وهو المُشبِع والمُروِى، كما هو المغُنى والمُفقر بما شاء كيف شاء، وهو جاعل الشبع والرِّى فى المطعوم والمشروب، وفى النفس بالغنّى والفقر، لحكمته ورحمته. كما أن الله تعالى هو المجُيع المُظمى فيُدخل الطعام والشراب على الجوع والعطش اللذّين جعلهما فيُذْهبهما بما أدخل عليهما، كما يُدخل الليل على النهار، ويُدخل النهار على الليل، فيُغلّب سلطان كل واحد على الآخر فيُذهبه، فسواءٌ هذا عند الموّحدين من وصف الليل والنهار. ومن العلل والأدوية يتسلط الشىء على ضده فيزيله بقلبه بإذن الله.

والشرْك فى هذه الأشياء فى العموم أخفى من دبيب النمل على الصفا. والموقنون الصحيحو التوحيد من جميع ذلك برآء. وعلى هذه المعانى أحد الوجهين فى قوله تعالى الذى أعطى كل شىء خَلْقه ثم هدى، أى أعطى كل لون وجنس خِلْقَته وطَبْعَه، أى صورة الشىء.فإنْ تعجّل العليل البُرءْ بالتدوای فبرأ كان ذلك بقضاء الله وقدَره على وصف السرعة من المعافاة، فإنْ كان ناويا فى تداويه واستعجاله شفاءه ليكون فى طاعة مولاه والقيام بين يديه للخدمة، كان مُثاباً على ذلك فاضلا فيه غير منقوص مقام توكله. وإنْ أراد بذلك صحة جسمه لنفسه والنعيم بالعوافى كان ذلك باباً من أبواب الدنيا ودخولاً فيما أُبيح له منها، وهو يخُرجه من فضيلة التوكل وحقيقته بمقدار ما نقصه من الزهد فى الحياة والنعيم. وإنْ أراد باستعجال العوافى قوة النفس لأجل الهوى وليسعى فى مخالفة المولى كان مأزوراً لسوء نيته ووجود عزيمته، وخرج من المباح إلى المحظور، وذلك يخرجه من حد التوكل وأوله، وهذا من مذموم أبواب الدنيا وممقوتها. وإنْ كانت نيته فى تعجيل العوافى التصرف فى المعايش والتكسُّب

للإنفاق والجمع نظر فى شأنه، فإن كان يسعى فى كفافٍ وعلى عَيْلة ضعاف، وعن حاجة وإحجاف، لحَقَ هذا بالطبقة الأولى، وهذا باب من أبواب الآخرة وهو مأجور عليه، ولا يخرجه من التوكل. وإنْ كان يسعى فى تكاثرٍ وتفاخر ولا يبالى من أين كسب وفيما أنفق، لحق هذا فى الطبقة الثالثة من العاصين، وهذا من أكبر الدنيا المُبعدة عن الله عز وجل. فهذه نيات الناس فى التداوى المحمودة والمذمومة، فإن لم يتداو المتوكل تسليماً للوكيل، وسكوناً تحت حُكمه، ورضاً باختياره وصُنعه، إذ قد أيقن أنّ للعلة وقتا إذا جاء برىء بإذن الله تعالى إلاّ أنها بعد عشرين يوما، فيصبر ويرضى ويحمل على نفسه ألم عشرة، رضاً بقضاء الله، وصبراً على بلائه، وحُسنَ ظن باختياره له، ولا يتهمه فى قضائه عليه، فهذا هو أحد الوجوه فى حُسن الظن باختيار الله أنْ لا يتهم الله فى فضيلة. كيف وقد روى فيه نَصٌ أنّ رجلا قال يارسول الله أوصنى، فقال لا تتهم الله فى شىء قَضاه عليك. وقد رُوى فى معنى هذا خبرٌ فيه شدّة، يقول الله تعالى من لم يصبر على بلائى ويرض بقضائى ويشكر نعمائى فيلتخذ رباً سواى.

وهذا باب من الزهد فى الدنيا بمقدار ما نقص من الرغبة فى نعيم النفس، لأن الجسم من المُلك فما نقص منه نقص من الدنيا، والقلب من الملكوت فما زاد فيه زاد فى الآخرة، وهو باب من الصبر بقدر ماصبر عليه من النقص، كما قال تعالى ونقص من الأموال والأنفس، يعنى أمراضها وأسقامها، وبشّر الصابرين. ونقص الأموال إقلالها وإذهابها فكذلك جعلناه زهداً لاقترانه بالمال، ومع هذا فهو لا يأمن فى تعجيل العوافى من المعاصى، فإذا انتهى وقت العلّة بَرئ من غير دواء بإذن الله. وله فى الأمراض تجديد التوبة، والحزن على الذنوب، وكثرة الاستغفار، وحُسْن التذكرة، وقصر الأمل، وكثرة ذِكْر الموت.

وفى الخبر أكثروا من ذِكْر هادم اللذّات. ومِن أبلغ ما يُذَكِّر به الموت توقع نزول الأمراض، فقد قيل الحمّى بريد الموت، وفى قوله عز وجل أوَلا يروْن أنهم يُفتنون فى كل عام مرة أو مرتين الآية، قيل بالأمراض والأسقام يُختبرون بها . ويُقال إن العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال ملك الموت ياغافل جاءك منّى رسول بعد رسول فلم تقبل. وقد كانوا يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يصابوا فيه بنقص من الأنفس أو المال. ويقال لا يخلو المؤمن فى كل أربعين يوماً أنْ يروّع بروْعة أو يصاب بنكبة، فكانوا يكرهون فَقْد ذلك فى ذهاب هذا العدد من غير أن

يصابوا فيه بشىء. وروى أنّ عماراً تزوّج امرأة فلم تكن تمرض فطلقّها، وأنّ النبى صلى الله عليه وسلم عُرضت عليه امرأة، فذُكر من وصفها حتى همّ أن يتزوّجها، فقيل له أنها مامرضت قط، فقال لا حاجة لى فيها. وذكر رسول الله صلى الله علي وسلم الأوجاع من الصداع وغيره، فقال رجل وما الصداع ما أعرفه، فقال النبى صلى الله عليه وسلم إليك عنى. من أراد أنْ ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا! لأن فى الخبر أنّ الحمى حظُ المؤمن من نار جهنم. وفى حديث أنس وعائشة يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم، فقال نعم مَن ذكَر الموت فى كل يوم عشرين مرة.

وقد اختلف رأى الصحابة فى مثل هذا المعنى عام خرج عمر رضى الله عنه إلى الشام، فلما بلغوا الجابية انتهى إليهم خبر الشام أن به وباءً عظيما وموتاً ذريعا، فوقف الناس وافترقوا فرقتين، فمنهم من قال لا ندخل على الوباء نُلقى بأيدينا إلى التّهلُكة فنكون سببا لإهلاك أنفسنا، وقالت طائفة أخرى بل ندخل ونتوكل على الله ولا نهرب من قَدَره ولا نفر من الموت، فنكون كمن قال الله تعالى ألَمْ تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذَرَ الموت. فرجع الجميع إلى عمر فسألوه عن رأيه فوافق عمر الذين قالوا نرجع ولا ندخل على الوباء، فقال له آخرون أنفرّ من قدر اللهّ، فقال عمر نعم نفر إلى قدر الله. ثم ضرب لهم مثلا فقال أرأيتم لو كان لأحدكم غَنَمٌ وله شُعبتان إحداهما مخْصِبة والأخرى مُجدِبة، أليس إن رعَى المُخصبة رعاها بقدَر الله، وإنْ رعى المُجدِبة رعاها بقدَر الله، فسكتوا، ثم دعا عمر بعبد الرحمن بن عوف يسأله عن رأيه، فقيل هو غائب قد تأخر فى المنزل الذى نزلنا فيه، فثبت عمر وأصحابه على ذلك الرأى، وعلى أنْ يسأل عبد الرحمن عن رأيه فيه، فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن بن عوف فسأله عمر عن ذلك، فقال عندى فيه يا أمير المؤمنين شىء سمعته من رسول اللهّ عليه وسلم، فقال عمر رضى الله عنه الله أكبر، يقول إذا سمعتم بالوباء فى أرض فلا تُقدموا عليه، وإذا وقع فى أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه. ففرح عمر بذلك إذ وافق رأيه فرجع بالناس من الجابية.

بيان آخر من التمثيل فى التداوى وتركه

ومَثَلُ التداوى وتَركه فى أنهما مباحان وأن أحدهما طريق الأقوياء الصابرين وهو تركه، مَثَل التكسّب وتركه، أنّ التكسب عند الجوع الذى هو علّة الجسم ليستعجل العبد الدواء

بالخبز، جائزٌ له لا يقدح فى توكله لأنه مباح له مأمورٌ به، فإن نوىَ بالتكسب الأكل للشهوات والقيام بحظوظ النفس من الرفاهية نَقَص ذلك مِن توكله وأخرجه من حقيقته، فكان طريقا من طرقات الدنيا، إلاّ انه مباح. وإنْ قَصَد بتكسبه التكاثر والحرص للجمع والمنع كان عاصياً بكسبه مخالفاً لربه، وهذا من أكبر طرق الهوى. ثم إنْ لم يتكسب وصبَر على الجوع ورضى بالقلّة والفقر فإن رزقه يأتيه لا محالة لمجىء وقته. وإنْ كان قليلا دون سعَة ولكنه يحتاج إلى فضل صبر وحُسن رضا وسكون نفس وطمأنينة قلب، فإنْ وجد هذه المعانى فهذا هو التوكل، كان فاضلا فى ترك التكسب يُحسنِ يقينه وثقته برازقه وشُغله بماهو أفضل وأنفع له فى عاقبته، وإنْ تشتت همتّه واضطربت نفسه وتكرّه قضاء ربه فأخرجه ذلك إلى الجزع والهلَع والتبرم والشكوى فالتكسب لهذا أفضل، وهو منقوص بتركه. كذلك أيضا مَن أكثر الشكوى من علتّه وتسخّط حكم ربه، وتبّرم وضجر وسَطَا على الناس وساء خلُقه بمرضه، فإن الأفضل لهذا أن يتداوى وهو ناقص بتركه.

وروينا عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبى سعيد الخدُرى عن النبى صلّى اللّه عليه وسلم: أن من ضعْف اليقين أنْ تُرضى الناس بسُخط اللّه، وأنْ تحمدهم على رزق اللّه، وأنْ تذمهم على مالم يؤتك اللّه. إنّ رزقَ اللّه لا يجره حِرص حريص، ولا يَردُه كُره كاره. إن اللّه بحلمه وجلاله جعل الروْح والفرح فى الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن فى الشك والسخط.

ذكر استواء شهادة المتوكل مع اختلاف ظهور الأسباب

ويستوى عند الخصوص بعين يقينهم ماجاءهم بواسطة أيديهم وأسباب كسْبهم، وماجاءهم بأيدى غيرهم وبغير كسبهم، إذا كان المعُطى عندهم واحداً والعطاء كله رزقا، إذ كانت الأيدى ظروف العطاء فيستوى كان الظرف يدك أو يد غيرك، وسواء كان الكسب كسبك أو كسب غيرك لك، إذ جميعه رزقك. ولأن لكل شىء حُكما، وفى كل شىء حكمة، وبكل شىء نعمة، قال اللّه تعالى إرَم ذاتِ العماد التى لم يُخلق مثلها فى البلاد، فأضافها إليه فى الخلق بعد أن بنوها بأيديهم وفرغوا منها. ومثل هذين أيضا يستوى عندهم ماظهر بيد القُدرة لا خَلْق فيه ولا واسطة به، وماظهر بأيديهم عن الحكمة وترتيب العُرف، لأن القدرة أيضا بمنزلة ظرف للعطاء ظهر العطاء بها، فهى كأيدى العباد من يد الإنسان نفسه أو يد غيره، إذ القدرة والحكمة خزانتان من خزائن الملَكوت والمُلك. فهذه المعانى الثلاث أعنى: ماظهر عن يدك وتكسبك،

وماظهر بيد غيرك وعن كسبه لك، وماأظهرته القدرة عن غير عُرف معتاد ولا واسطة مرّت به، هذا كله عند الموقنين سواء، لا يترجح بعضه على بعض، لرجحان إيمانهم وقوّة يقينهم ونفاذ مشاهدتهم، إذ كله حكمة بالغة وقُدرة نافذة عن حكيم واحد وقادر واحد.

ومما يدلك على استواء ماظهر بيد الأواسط، وما أظهرته القُدرة عند العلماء، أن كل من جمع كرامات الأولياء وإجابات الصدّيقين ذكر فيها ماظهر لهم عن القُدرة، وماظهر لهم على أيدى الخلْق من الإنفاق عند وقت الفاقات عن غير مسئلة ولا استشراف نفس، فسوُّا بينهما فى الكرامات، وجعلوهما واحداً من الإجابات، وحسبوا كل ذلك من الآيات. على أن العارفين يشهدون ما يوصل العبيد إليهم من أقسام رزقهم أنها ودائع لهم عندهم، وأنه حقٌ لهم بأيديهم يؤدونه إليهم قليلا قليلا، ويوفونهم إياه شيأ فشيأ، إلا أنهم لا يسألونهم إياه، ولا يطالبونهم به، وإن كان لهم عندهم حُسن أدبٍ فيهم وحُسن اقتضاء، لأن من حُسن الاقتضاء ترك الطلب، ولقوّة يقينهم برازقهم أنه يوفيهم نصيبهم غير منقوص، فقد سكنوا إلى قديم وعده، كما نظروا إلى بَسْط يده. وكذلك مشاهدة العالمين الموصلين إليهم، يشهدون أنهم قد خرجوا إليهم من حقهم وأدوا إليهم ودائعهم، فيستريحون إلى إخراج ذلك ويفرحون بأدائه إلى أربابه، ويشكرون الله على حُسن توفيقه وإعانتهم على سقوط ذلك عنهم، كما يفرح من عليه الدين الثقيل إذا أدّاه فسقط عنه حكُمه وقضاؤه. وهذا مقام للموصلين فى المعرفة، وحالٌ لهم من اليقين حسَنة، وهو مشاهدة عالية للآخذين من المتوكلين.

ذكر تشبيه التوكل بالزهد

إعلم أن التوكل لا ينقص من الرزق شيأ ولكنه يزيد فى الفقر، ويزيد فى الجوع والفاقة فيكون هذا رزق المتوكل. ورزق الزاهد من الآخرة على هذا الوصف المخصوص من حرمان نصيب الدنيا، وحمايته عن التكاثر منها والتوسع فيها، فيكون التوكل والزهد سبب ذلك، فيكون ما صرفه عنه من الدنيا زيادة له فى الآخرة من الدرجات العلَى. وكذلك رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نقُصان الدنيا زيادة الآخرة، وزيادة الدنيا نقصان الآخرة،ومَنْ أُعطى من الدنيا شيأ نقَصَ ذلك من منزلته فى الآخرة وإن كان على الله كريما. وقيل إن الدنيا والآخرة مثْل ضرُتين. مَن أرضَى إحداهما أسخَط الأخرى. وقال رجل لبعض العلماء كنت فى محلة ليس فيها بقال غيرى ففتّح إلى جنبى بقال آخر، فأخاف أن ينْقص ذلك

من رزقى شيأ، فقال ليس ينقص من رزقك شيأ ولكن يزيد فى بطالتك، تقعدُ كثيراً لا تبيع شيأ. وقد غلط فى هذا الطريق قوم ادّعوا التوكل والزهد واتّسعوا فى المآكل والملابس. على أن ذلك لا ينقصهم من رزقهم شيأً فموّهوا علَى مَنْ دونهم ممن لا يعرف طريق الزهد والتوكل.

ذكر كتم الأمراض وجواز إظهارها

الأفضل لمن لم يتداو أنْ يُخفى علّله لأن ذلك من كنوز البرّ، ولأنها معاملات بينه وبين خالقه، فسترها أفضل وأسلم له، إلا أن يكون له نية فى الإظهار، أو يكون إماما يُستمع إليه ويُقتبس منه الآثار، ويكون مكيناً فى المعرفة يُخبر بعلته وقلبُه راضٍ عن الله فيما قدّره، أو يكون ممن يشهد البلاء نعمةً فيكون إخباره بمثابة التحدث بنعمة الله، وإلاّ فإظهار العلل لمن لا يتداوى نقصٌ لحاله وداخلٌ فى الشكاية لمولاه، لأن فى الشكوى استراحة النفس من البلوَى كالاستراحة بالدواء، وهذا لا يفعله عالم، لأن الاستراحة بالدواء الذى أباحه له المولى خيرٌ من استراحته إلى العبيد بالشكوى. على أنه لا يأمن دخول الآفات عليه فى الإخبار مِنْ التصنّع أو التزيّد فى العلّة وغير ذلك، وقد قيل فى قوله عزّ وجل فصبرٌ جميل، قال لا شكوى فيه، وقال بعضهم مَن بثّ شكواه فلم يصبر، وقيل **ليعقوب عليه السلام** مالذى أذهب بصرك، فقال من الزمان وطول الأحزان، فأوحى الله إليه تفرّغت تشكونى إلى خلْقى، فقال يارب أتوب إليك.

وعن **طاوس ومجاهد** يُكتب على المريض أنينه فى مرضه، قال وكانوا يكرهون أنين المريض لأنه إظهار معنى يدل على شكوى. قيل ما أصاب إبليس من **أيوب** إلاّ أنينه فى مرضه، فجعل الأنين حظه منه. وفى الخبر إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملَكَين انظرا إلى عبدى ما يقول لعوّاده، فإنْ حمَد الله وأثنى عليه بخير ادعوا له، وإنّ شكا وذكر شراً قالا كذلك يكون. وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوفَ الزيادة فى القول، أنْ يُخبر عن العلة بأكثر منها فيكون فى ذلك كفرٌ لنعمةٍ بين بلاءين. وكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم. منهم **فضيل ووهيب وبشر**، كان يقول أشتهى أنْ أمرض بلا عوّاد، وقال **فضيل** ما أكره العلّة إلاّ لأجل العُوّاد وقد رأينا من الصالحين مَن فعل ذلك ممن هو إمام وقدوة.

ولا ينقص توكل المتوكل إخباره بعلّته على معنى التحدث بها مع فقد آفات النفوس إذا كان قلبه شاكراً لله راضياً بقضائه، ويكون بذلك مُظهراً للافتقار والعجز بين يدَى مولاه، أو راغباً

في دعاء إخوانه المؤمنين، أو يشهد ذلك نعمة فيحدّث بها شكرا. وقد حُكِيَ أنّ **بشر بن الحارث** كان يخبر عبد الرحمن المتطبب بأوجاعه فيصف له أشياء. وقيل عن **أحمد بن حنبل** أنه كان يخْبر بأمراضه ويقول إنما أصف قدرة اللّه تعالى فىّ. ورُوى عن **الحسن البصرى** إذا حمد المريض اللّه عز وجل وشكر ثم ذكر علته لم يكن ذلك شكوى. وقد كان **أحمد بن حنبل** لا يخبر بأمراضه إذا سئل عنها ثم رجع إلى قول الحسن هذا، فكان بعد ذلك يحمد اللّه ويثنى عليه ويقول أجد كذا وأجد كذا. وروى أنه قيل **لعلى رضى اللّه عنه** فى مرضه كيف أنت، فقال بِشَرّ، فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك، فقال أتجلد على اللّه، كأنه أحبّ أن يُظهر افتقاره إلى اللّه، وأراد أيضا أنْ يعلمّهم أنه لا بأس بذلك، لأن مَن يقول بخير إذا سئل كما قال **الثورى** إنما العلم الرُخصة من ثقة، فأما التشديد فكل أحد يحسنه، فكأن علىّ رضى اللّه عنه أراد أن يتحقق بتأديب **النبى صلى اللّه عليه وسلم** له، ونهيه إياه عن إظهار القوة، لأنه رُوِى أنه مرض فسمعه النبى صلى اللّه عليه وسلم يقول اللهّم صبرّنى على البلاء، فقال لقد سألتَ اللّه البلاء ولكن سَل اللّه العافية. ومن ههنا قال **مطرف** لأن أعافىّ فأشكر أحبُ إلىّ من أنْ أُبتلَى فأصبر، لأن البلاء طريق الأقوياء. وكَرِهَ أهل الإشفاق والخشية إظهار الجلَد والقوّة بين يدّى القوى العزيز. وقد حُكِىَ أنّ **الشافعى** مرض مَرْضة شديدة بمصر فكان يقول اللهّم إنْ كان فى هذا رضاك فزدْنى منّه، فكتب إليه بعض العلماء وهو **إدريس بن يحيى المعافرى**، يا أبا عبد الله لستَ من رجال البلاء فسَلْ اللّه العافية، فرجع عن قوله هذا واستغفر منه، فبعد هذا واللّه أعلم لعلّه ماحكِى عَنه أنه كانْ يقول فى دعائه اللّهم اجعل خيْرَتى فيما أحببت.

ذكر فضل التارك للتكسب

قد يُفَضّل التارك للتكسُّب شُغلا بالعبادة عن المتكسِّب من حيث فضّل المتقدمون الزاهد فى الدنيا على كاسب المال حلالاً ومُنفقه فى سبيل اللّه. وسُئل **الحسن** عن رجلين أحدهما محترف والآخر مشغول بالتعبد، أيهما أفضل، فقال سبحان اللّه، اعتدل الرجلان، المتفرغ للعبادة أفضلهما، وقد رُوِى عن **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** كفَى بالموت واعظاً وبالتقوى غنىً وبالعبادة شُغلاً. وقد عَلِمَ التارك للتكسب توكلاً على اللّه، وثقةً به، ورعايةً لمقامه، وصبراً على فقره، وشُغلا بمعَاده عن معاشه، أن مولاه قد تكفّل له برزقه فى الدنيا، وقد وكّل إليه عمل

الآخرة، وأنه إنْ شُغل بما وكله إليه من عمل آخرته أقام له من يقوم بكفايته من دنياه، فلو لم يتصرف المتوكل تَصرّفَ له غيره، وأنّ عَمَل آخرته الذى وكلّه إليه إنْ لم يعمله لم يقم غيرُه مقامه، فهذا هو الفرق بين ماتكفّل له به من عمل الدنيا وبين ماوكّله به من عمل الآخرة. قال الله سبحانه فى رزق الدنيا الذى تكفّل به وكأين من دابة لاتحمل رزقها اللّهُ يرزقها وإياكم. وقال تعالى فى رزق الآخرة الذى وُكِلَ به وأنْ ليس للإنسان إلا ماسعَى.

ثم قد عَلم المتوكل بعد توحيده أنّ هذه الأربعة الأشياء منتظمةٌ فى سلك واحدٍ كشىء واحد يقع وقعة واحدة. رزقٌ مقسوم لايُزاد فيه فى وقت معلوم، ولايتقدم ولايتأخر بسبب محكوم، ولاينقلب عند أثر مكتوب ولايتغير، فالرزق بفضل الرزاق، والوقت الذى يُظهر فضْل العطاء لايقع إلا فى ظرْف، والسبب حكمة القاسم، والأثر حدٌّ المرزوق، فلمّا أيقن المتوكل بهذا كان إنْ تصرّف تصرّف بحكم، وإنْ قعدَ قعدَ بعلم، فاستوى تصرّفه وقعوده، لأنه قائمٌ بحكم مايقتضى منه فى علم حاله، عالمٌ بحُكم مصرفه ومقعده. فإنْ شغله مولاه بخدمته عن خدمة مَن سواه فصرفه فى معاملته دون معاملة العبيد، ساق إليه رزقه كيف شاء من الوجوه، وبيد من شاء من العبيد، يحفظه له عن مجاوزة الحدود، كما قال تعالى حافظاتٌ للغيب بما حفظ اللّه، وبتوليه له وعصمته إياه عن التورط فى محظور كما أخبر عن أوليائه فى قوله عز وجل وهو يتولى الصالحين. وكان العبد فاضلاً فى قعوده لشُغله عن العبيد بمعبوده، بانقطاعه إلى معاملة المَلِك دون مايقطعه من معاملة الملوك، وبهمّة الآخرة عن الدنيا، وكان داخلاً فى وصف ماأخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن أهل كفاية اللّه فيما رُوى عنه مَن جعَل الهموم همّاً واحدا كفاه اللّه آخرته، وخارجاً عن وصف مَن قطعه عن اللّه بهمّة غيره وعرّضه للهلكة فى أودية الهموم فى قوله عليه السلام مَن أصبح وهمُّه غير اللّه فليس من اللّه، وفى قوله ومن تشعّبت به الهموم لم يُبال اللّه فى أى أوديتها هلَك. فإنْ كان حال المتوكل أن يُجرَى رزقه على يد نفسه وكسْب جارحته فهو خزانة من خزائن المَلِك، وهو عبدٌ من عبيد المَلِك، يوّصل إليه عن يد نفسه بما يوّصله إليه عن يد غيره. وسواءٌ ساق إليه الرزق أو ساقه إلى الرزق بعد أن يرزقه، لأن مالقيتَه فقد لقيك، والعبد متوكل على اللّه فى الحالين ناظرٌ إليه بالمعنيين، قائمٌ بحكم حاله فى الأمرين، عارفٌ بحُسن اختيار اللّه له فى الحُكمين. ومن تَرَك التكسب لأجل اللّه ثقةً به وسكوناً إليه، أو لدخول الآثام وتعذُر القيام بالأحكام، فحُسنه كحُسن مَن عَمِل شيأً لأجل اللّه، لأن الترك عملٌ يحتاج إلى نيّة صالحة، وأفضل الناس عند اللّه أتقاهم له، وأتقاهم له أعرفهم به، متصرفا كان أو قاعداً، وهذا هو فصل الخطاب.

وروينا فى حديث عبد الله بن دينار عن عمرو بن ميمون عن النبى صلى الله عليه وسلم: أتدرون ماقال ربكم، قالوا الله ورسوله أعلم، قال حين استوى على عرشه ونظر إلى خلْقه: عبادى أنتم خلْقى وأنا ربُكم، أرزاقكم بيدى فلا تُتعبوا أنفسكم فيما تكفلت لكم به، واطلبوا أرزاقكم منى، وانصبوا أنفسكم لى، وارفعوا حوائجكم إلىّ، أصُبُّ عليكم أرزاقكم. أتدرون ماذا قال ربكم، قالوا الله ورسوله أعلم، قال عبدى أنفقْ أُنفقْ عليك، ووسِّعْ أُوسّع عليك، ولاتضيّق فأضيّق عليك. إن أبواب الرزق بالعرش لاتُغلَق ليلا ولانهارا، فأُنزل الرزق منها لكل عبد على قدْر نيته وعالته وصدَقته ونفَقته، فمن أكثَر أكثِر له، ومن أقلّ أُقلل له، ومن أمسَك أُمسِك عليه. يازبير إنّ الله يُحب الإنفاق ويُبغض الإقتار، فكُلْ وأطعِمْ ولاتقتِر فيقتر اللهُ عليك، ولاتُعسر فيُعسر عليك. أطعِم الإخوان، ووقّرْ الأخيار، وصِلْ الجار، ولاتُماس الفجّار، تدخل الجنة بغير حساب. فهذه وصية الله لى، ووصيتى لك يا زبير بن العوام.

والأسواق موائد الأبّاق، يطعم المولى منها من أبِقَ من خدمته وهرب من مجالسته ووهن عن معاملته وجَبُن فى متاجرته. قال الله تعالى وماخلقتُ الجن والإنس إلاّ ليعبدون. ماأريد منهم من رزقٍ وماأريد أن يُطعمون. وقال بعض أهل العربية من القدماء ماأريد أن يَرزقوا خلقى إنّ الله هو الرزاق، أى لهم لايطالبهم أن يرزقوا نفوسهم إذا خدموه، فذكر الله الوجوه الثلاثة واختار لنفسه أحدها وهى الخدمة، وعليه الكفاية، واختار من العبيد أحدهم فجعله عابده، وتنزّه عن أحدهما وتعالى عنه وهو الإطعام من العبيد له، وصرَف عمومَ العبيد فى الوجه الثالث من الإطعام لأنفسهم وهو التكسُّب، وضرب هذا مثلاً بينه وبين خلْقه فى الأرض، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض، فبقى العبيد مع الله تعالى بحكمين، أحدهما ما اختاره لنفسه من العبادة وهى المعاملة وعليه الرزق كيف شاء ومتى شاء، وهؤلاء عباد الرحمن لاعبيد الدنيا، والثانى ماصرَف العبيد فيه من التكسُّب لأنفسهم، وجعل ذلك رزقا منه لهم بجوارحهم، ومدَحهم على هذا الوصف، وهؤلاء عموم العبيد، منهم عبيد الدنيا وعبيد الهوى، وبقى المولى مع العبيد على الأحكام الثلاثة التى أباحها الله تعالى لهم، وضرب بها المثل بينه وبينهم، أيها اختاره كان ذلك لهم، وتفسير ذلك أن للمولى من الخلْق أن يقول لعبده إذهب فأطعمنى لأنك عبدى ومِلْك يدى، فأنا أملك كسبَك كما أملك نفسك، وهذا هو الوجه الذى ذكرناه أنّ الله تنزّه عنه وتعالى علُواً كبيرا، فقال تعالى وما أريد أن يُطعمون، كما يريد الموالى من عبيدهم هذا. ثم يقول المولَى مَنّاً لعبده إذهب فأطعم نفسك واسْع فى قُوتك فقد

أبحتُ لك ذلك، ووهبتُ لك كسبك فهو رزقٌ لك وتفضلٌ منى عليك، وبهذا صار المُكاتب لعبده فى فكاك عتقه كالمُعتق بأنْ كان له الولاء، وقد يكون له الميراث فى حالٍ لأنه منعمٌ عليه بالكتابة له كالمُعتِق، وإن كان العبد هو الذى سعى فى فِكاكِ رقَبة نفسه بكسْبه من قبَل أنّ المولى يستحق عليه كسبه ويملك رقبته، فلما ملّكَ عبده ذلك صار مُحسناً إليه، فهذا حال عموم العبيد مع الله تعالى، لأنه مولاهم الحق وهم عبيده، فقال اذهبوا فتكسّبوا وأطعموا أنفسكم فقد رزقتكم ذلك ووهبته لكم، وهذا هو الوجه الثانى الذى نزّه الخصوص عنه تفضيلاً لهم فلم يستسعهم، وقطّعهم فشغَلهم بخدمته عن خدمة نفوسهم وخليقته، وتوكل لهم بكفايتهم ولم يوكلهم فيها كما وكّل غيرهم، بل وكّلَ بأرزاقهم مَن يشاء من عباده، وهو معنى قوله تعالى ماأريد منهم مِنْ رزق لنفوسهم، بدليل قوله تعالى إنّ الله هو الرزاق، أى لهم بإقامة غيرهم وبإظهاره فى قوله وماأريد أن يُطعمون، فكانت هذه الياء اسمَهُ مُكنىّ بها، وهذه إرادةٌ مخصوصة لا عامة لكل مراد، فهى إرادة ابتلاء ومحبة، بمعنى ماأحب، ومخصوصة بمخصوصين من عباده، كما كان قوله تعالى وماخلَقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون، كانت هذه الآية مخصوصة لمن عبده منهم، معناها مؤمنى الجن والإنس، لا عامة لجميع خلقه. والوجه الثالث أن يقول المولى منّا لعبده اخدمنى وعلىّ طُعمتك، تقوم خدمتك لى مقام كسبك لنفسك. وهذا هو الوجه الأعلى الذى اختاره الله تعالى وأحبه لمن يحبه، واختار له مَنْ عبدَه من العبيد مِن خصوص العاملين له، وهم العالمون به دون مَن صرفَه فى رزق نفسه بنفسه، وهو قوله تعالى إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق، أى أن يَرزقوا نفوسهم بكسبهم الذى أبحتُه لهم، فيكونوا كغيرهم ممن قلْت له اذهب فتكسّبْ فقد أردت منك الرزق لنفسك بكسبك، وقد وهبتُه لك أى أنا أريد من هؤلاء العبادة ولها خلقتُهم، فكلٌ مُيّسرٌ لِما خُلِق له، فمن كانت صنعته العبادة وُخلِقَ لها يُسرت له، ومن كانت صنعته الدنيا وخُلِق لها يُسِّرت له. وفى الخبر أن الله تعالى خلق كل صانع وصنْعته. ويُقال إن الله تعالى لمّا أظهر الخلْق فى العدم أظهر لهم الصنائع كلَها ثم خيّرهم فاختار كل واحد صنْعته، فلما أبداهم فى الوجود أجرى على كل واحد ما اختار لنفسه. قال وانفردت طائفةٌ فلم تختر شيأ فقال لها اختارى، فقالت ما أعجبنا شىء رأيناه فنختار. قال فأظهر مقامات العبادات فقالت قد اخترنا خِدْمتَك، فقال وعزتى وجلالى لأخدمنّكم إياهم ولأسخرنّهم لكم.

وفى الخبر أوحى الله تعالى إلى الدنيا اخدمى من خدمنى وأتعبى مَن خدمك،فالعبادة هى الخدمة. ومن ذلك قولهم إياك نعبد، ولك نصلى ونسجد، وإليك نسعَى ونحفد، أى إليك نعمل ونخدم، مثْل قوله تعالى بنين وحفَدة أى خدماً فى أحد الوجوه. **والعبادة هى الخدمة**،بذل وتواضع. والعرب تقول طريقٌ مُعَبّد إذا كان مُذَلَّلا مُمهّداو ومَوْطُوأً بالأقدام. ويقولون بعيٌر معُبّد إذا كان ممُتَهناً بالكّد نضْواً من السير والحمْل عليه. ومنه قول القبط أنؤمن لبشرَيْن مثلنا وقومهما لنا عابدون، يعنُون بنى إسرائيل، خَدَمُنا نستذلهم ونمتهنهم بالكّد والعمل.

وقال بعض العارفين إنّ الله سبحانه وتعالى اطّلع على قلوب طائفة من عباده فلم يرها تصلح لمعرفته ولا موضعا لمشاهدته فرحمها فوهب لها العبادات والأعمال الصالحات، ثم اطّلع على قلوب طائفة أخرى من خلقه فلم ير جوارحهم تصلح لخدمته ولا موضعا لمعاملته فاستعملهم للدنيا وعبّدهم لأهلها. ومن هذا قول **النبى صلّى الله عليه وسلم** تَعِس عبدُ الدينار والدرهم. تعس عبد الزوجة. تعس عبد الخميصة، أى الذين يُذّلون لهذه الأشياء ويسعون لها. وفى أخبار **داود عليه السلام** إنى خلقت محمداً لأجلى، وخلقت آدم لأجل محمد، وخلقت جميع ما خلقت لأجل وَلَد آدم، فمن اشتغل منهم بما خلقتُه لأجله حجبته عنى، ومَن اشتغل منهم بى سُقت له ما خلقتُه لأجله.

ذكر حكم المتوكل إذا كان ذا بيت

فإن كان المتوكل ذا بيتٍ فليغلقه إذا خرج إحرازاً له لأجل الأمر بالحذر، ولاتبّاع السنّة والأثر. قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا خذوا حِذْركم. وقال تعالى واحذرهم أنْ يفتنوك. وقد يُروى فى خبر أعقلْها وتوكل،ولا يُنقِص ذلك توكله إذا كان ساكن القلب إلى الله لا إلى خلْقه، ناظراً إلى حُسن تدبيره فى تبْقية رَحْله أو إذهابه لا إلى إحرازه، غيرَ مختار لبقاء مافى بيته على اختيار الله له لحُسن إحكامه عنده، لأنّ الله تعالى إذا رفع عبداً إلى مقام التوكل عليه فى شىء أعطاه التوكل فى كل شىء، كما لا يكون توّابا يُحبه الله حتى يتوب إلى الله بكل شىء وفى كل شىء، أى يرجع إليه بالأشياء وفيها، فلذلك قال الله تعالى إنّ الله يحب المتوكلين، كما قال إنّ الله يحب التوّابين، مع قوله وعلى الله فليتوكل المتوكلون، أى ليتّوكل عليه فى كل شىء. هذا أحسن وجوهه، والوجه الآخر وعليه فليتوكل فى كل توكله، لأنّ الوكيل فى شىء واحد فينبغى أن يكون التوكل عليه واحداً فى كل شىء.

فالتوكل مقام رفيع من مقامات الأنبياء ومن أعالي مدارج الصدّيقين والشهداء، مَن تحقّق به فقد تحقّق بالتوحيد وكَمُل إيمانه وكان على مزيد، وانتفى عنه دقائق الشرْك وخفايا تَوَلّي العدو فانقطع سلطانه عنه. قال الله سبحانه وتعالى إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه، يعني العدو، والذين هم به مشركون، يعني الله سبحانه، فلم يشترط نفى سلطان العدو بالإيمان مجرّدا حتى يقيمه في مقام التوكل في اليقين، فلذلك فصلّنا شرحه وأطلقنا تفصيله لأن من أُعطى مقاما من التوكل على حقيقة مشاهدة الوكيل انتظم له جُمْل مقامات اليقين وأحوال المتقين كما قال عبد الله بن مسعود: التوكل جُماع الإيمان. وقد يُبتلى المتوكل في توكله بالأسباب والأشخاص والأغراض وضروب المعاني كما يُبتلى سائر أهل المقامات ويبقى عليه من العدو نزْغٌ وطيْف لا غيردون الاقتران والاستحواذ، يختبر بذلك صدْقه في توكله حتى يَردّ في جميع ذلك نظره إلى وكيله، ليُجزَى جزاءَ الصادقين المقرّبين، أو ليكشف له دعواه فيعلم كذبَ نفسه فيكون مردودا إلى التوبة، كما قال تعالى ليجزى الله الصادقين بصدقهم. وحَسْبُ جزاء المتوكلين أن يكون الصادق حسْبَهم، وأن يكون خُلعة الصدق شعارهم. ثم قال تعالى ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم، فأحسن حال المدّعين التوبة، بها يَخرجون من ظُلمهم. وقال تعالى أحَسِبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون. ثم أخبر بسنّته التي قد خلَت في عباده فقال ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمن الكاذبين، ولن تجد لسُنّة الله تبديلا.

فليقلْ المتوكل عند خروجه من منزله مُعتقِداً للأمر والسنة بعد غلق بابه: اللهّم إن جميع مافي منزلي إنْ سلّطت عليه مَن يأخذه فهو في سبيلك صَدَقة مني علَى مَن أخذ. فإنْ أُخذَ مافي منزله كان له في ذلك سبع معاملات، إحداها قبول توكله على الله بتدبير الله أمره كيف شاء، واختيار الله له نقصان الدنيا، وإذهاب مالعله يُفتتَن بتبقيته؛ **والثانية** اختيار الله تعالى لعبده وابتلاؤه إياه بفقد محبوبه ليُظهر صدقه ومسالمته، أو ليستبين للعبد كَذبه، فإنْ حمد الله وشكره على حُسن بلائه ولم تضطرب نفسه أُعطِى ثواب الشاكرين الراضين. كما جاء في العلم المكنون عن بعضِ أنبيائه قال يارب مَن أولياؤك، قال الذين اذا أخذتُ منه المحبوب سالمني؛ **والثالثة** إنْ اضطربت نفسه وجزّعت جاهدَها بالصبر والصمت وحُسن الثناء على الله وترك الشكاية إلى عبده فأُعطِى ثواب الصابرين المجاهدين، **والرابعة** إنْ لم يكن في هذا المقام ولا في المقام الأوّل انكشف له بطلان دعواه، وظهر له خَفِيّ كَذبه في حياته، فاعترف

بذلك واعتذر إلى اللّه واستكان وخضع. فيكون هذا أيضا على معنى الإعلام والبيان، فيعلم أنه كذّاب لكراهية ماقضَى اللّه وقلّة صبره، أو بسُخطه ماحوّله اللّه من خزانته التى هى فى يده إلى خزانته الأخرى التى هى فى يد غيره، إذ قد علم أن يده خزانة مولاه، وأن ماحوّله منها لم يكن له وإنما كان قد استودعه، فساءه حين استُرجع منه ما أودعه وأعاره وأودعها غيره أو دفعها إلى مَن هى رزقه، فهذه كلها ذنوب عند المتوكلين، موجبات للتوبة والاستغفار عند الموقنين فلا ينبغى للمتوكل الموقن أن يُحزنه ما حوّل اللّه من خزانته التى فى يده مما أعاره واستودعه إلى خزانته الأخرى التى هى يد غيره، ممن لعله يهبه له أو يبتليه بأحكامه فيه فيخرج أيضا من يده إلى يد غيره، لأنه ما خرج من الدار شىء، وللّه حكمة وابتلاء فى كل شىء، فالحزن والأسف على فوْت مثل هذا عند العارفين جناية، ومن المؤمنين خيانة، يستغفرون اللّه ويتوبون إليه كما يتوبون من المعاصى،لأنه قد أمرهم بترك الأسى على فائت الدنيا وقلة الفرح بما أتى منها، إذ لابد من كونْهما لأنه قد علِمه، وبعد علْمه قد كتبه، ثم قد أعلَم به، فكشف لهم اليقين عن الكتاب المستبين: أن ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلاّ فى كتاب من قبل أنْ نبرأها. فما ظهر من المصائب فى الأموال والأنفس فقد سبق قبل خلْق الخلْق، وهذا قوله تعالى **من قبل أن نبرأها**، قيل من قبل أن نخلق الخليقة وقبل أن نبرأ الأرض، وقيل من قبل أن نبرأ الأنفس، وقيل من قبل أن نبرأ المصيبة. ثم قال تعالى **لكيلا تأسوْا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**، فالاسى على فقْد الشىء على قدْر الفرح بوجوده. أفلا يستحى العبد أن يكون ضد ما أُمر به أو بخلاف ما يحبه منه مولاه، فيأسى على ماليس له ويحزن على ماأخذ منه واستودعه، أويفرح بما ليس له، لأنه لا يعلم أنه قد وُهب له فيُبقَى عليه، أو قد أُعيره فيؤخذ منه، فلمّا استرجعه من يده التى هى يده تعالى، أيقن أنه لم يكن له، وأنه إنما كان وديعة عنده فحزن، فهذا لمّا أيقن شك، ولمّا علَمَ جهَل ورغب فيما ينبغى أن يزهد فيه، فأى شك مع ذلك يتوهم المتوكل على اللّه ويدعى منازل الأقوياء الأغنياء باللّه، الشاهدين لمجارى قدر الله فى تصاريف حكمه. فإذا علم العبد أنه كاذب استكان استكانة الكذّابين، وتاب توْبة المدّعين، ولم ينطق بكلام الصادقين، ولايدل إدلال المحبوبين، فيكون تعريف اللّه إياه هذه المعانى تأديباً له، ومزيدٌ مثله وهذا مزيد الناقصين. **والمعاملة الخامسة** أن يكون له بكل درهم تَلَف سبعمائة درهم كأنه قد أنفقه فى سبيل اللّه، حُسِب له ذلك لأنه قد كان نواه. وكذلك إنْ لم يُؤخَذ ما فى بيته استنباطاً من قول رسول اللّه صلى اللّه

عليه وسلم فيمن ترك العَزْل فاقرّ النطفة قرارها أنّ له أجر غلامٍ وُلِدَ له من ذلك الجماع وعاش فقُتل فى سبيل الله، وإنْ كان لم يولد له فقال أنت تخلُقه، أنت ترزُقه، إليك محياه، إليك مماته، أقْرُها قرارها ولك ذلك. **والمعاملة السادسة** أن لا يأثم أخوه الذى أخذ رحْلَه إن كان قد جعله صدَقةً عليه فيؤجر أجراً ثانيا لإشفاقه على أخيه وحُسن نظره للعُصاة من حيث لايعلمون تخلُّقاً بأخلاق مولاه، وينال بعفوه عن ظالمه درجة المحسنين ويتحقق بمقام المتقين، ويكون ممن وقع أجره على الله فيُخفِى له مالا تعلم نفسٌ من قُرّة العين، ولأنه قد علم كيف جرى الأمر، وأنّ الآخذ مُبتلَى بسوء القضاء، وأنه قد عوفى إذ لم يكن هو ذلك العبد، فيرحم أهلَ البلاء حينئذ ويحمد الله على ماعافاه، فيشغله الشكر لله عن الدُعاء على ظالمه. قال بعض العارفين لبعض أصحابه لِمَ أسقط أهل المعرفة اللائمة عن الظالمين لهم؟ فقلت لاأدرى، قال لعلمهم أنّ الله قصدهم بذلك وابتلى الظالمين بهم فرحموهم. وذلك داخل فى نَصْر أخيه الظالم لنفسه، وطاعة لأمر رسوله فى قوله **انصر أخاك ظالما أو مظلوما**، أى تمنعه عن الظلم، فإذا عفا عنه فقد منعه من الظلم لأنه لو رآه منعه مِن أخذِهِ أو وهبَه له، فيقوم عفوه عنه مقام رؤيته. **والمعاملة السابعة** تحققُه فى الزهد فيما ذهب. وقال **أبو سليمان الدارانى** لمّا بلغه عن **مالك بن دينار** أنه قال للمغيرة اذهب فخذ تلك الركْوة من البيت فلا حاجة لى بها، وكان قد أهداها إليه وقَبِلها منه، فقال ولِمَ، قال يوسوس إلىّ العدوّ أنّ اللص قد أخذها. وكان مالك لايغلق بابه إنما كان يشدُه بشريط، وكان يقول لولا الكلاب ماشددتُه أيضا. فقال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفيين. هو قد زهد فى الدنيا فما عليه بمن أخذها. وهذا كما قال **أبو سليمان** لأن الزهد إذا صح دخل الرضا فيه، ولقول **مالك** أيضا وجهٌ كأنه كَرِهَ أن يعصَى الله به فيكون هو سبب معصية الله. ولكن قول **أبى سليمان** أعلى لأجل التوكل والرضا.

وهذا الذى ذكرناه من ذهاب مافى البيت هو لكل من ذهب له مال فى سفَر أو حضَر، ولكل من أصيب بمصيبة فى نفس أو أهْل. وهذه المعاملات كلها إذا اعتقدها بقلبه وكانت فى خَلَده ووَجْده وإن لم ينطق بها أو يُظهرها، فأكثر الناس إيمانا وأحسنهم يقينا أقلّهم غمّاً وأيسرهم أسىً على مافات من الدنيا، وأحسنهم رضاً وأنفذهم شهادةً من رأى أن ذلك نعمة أوجبت عليهم شكرا. وأقل الناس إيماناً وأضعفهم يقيناً أشدهم أسى وأكثرهم غماً على مافات، وأطولهم شكوى وأقلهم شكرا، فالمصائب محنة تكشف الزهد فى الدنيا والرغبة. ألَمْ تسمع إلى الحديث الذى جاء فيه هذا الدعاء: وأسألك من اليقين ماتُهوّن به علينا مصائب الدنيا.

فشدة الغم على فوْت الدنيا دليل على حبها وعلامة ضعف اليقين بمحبوبه. وسهولة الغم على فوْتها دليل على الزهد فيها وقوة اليقين بربه. فإنْ وجد المتوكل رَحْلَه بحاله، لم يضُره بتبقيته شيء، وكان له أجر ماقد نوى من المعاملات إلاّ شيأً واحدا من باب نقصان الدنيا من طريق الورع فإنه يُنقِصه، وهو أنه إنْ أخذ ماتوكل على الله فيه وفوّض إليه أمره به ثم رُدّ عليه لم يُستحب له فى الورع أن يتملكه ولا أن يرجع فيه فى حُسن الأدب، لأنه قد كان جعله صدقة فى سبيل الله، فإن رجع فيه لم يُنقص ذلك توكله لأنه قد صحّ تفويضه إلى الوكيل فى الحالين معا. وقد روينا أن ابن عمر سُرقت ناقته فطلبها حتى أعيا ثم قال فى سبيل الله، فدخل المسجد وصلى ركعتين فجاء رجل فقال يا أبا عبد الرحمن إنّ ناقتك فى مكان كذا، فلَبِس نعله وقام، ثم نزعها، ثم قال أستغفر الله وجلس، فقيل له ألا تذهب فتأخذها، فقال إنى قد كنت قلتُ فى سبيل الله.

وحُدّثت عن بعضهم قال رأيت بعض إخوانى فى النوم بعد موته فقلت مافعل الله بك، فقال غفر لى وأدخلنى الجنة وعُرِضت علىّ منازلى فيها فرأيتها. قال وهو فى ذلك كئيب حزين، فقلت قد دخلتَ الجنة وغُفر لك وأنت حزين؟ فتنفّس الصَعداء ثم قال نعم إنى لاأزال حزينا إلى يوم القيامة. قلت ولِمَ ذلك، قال إنى لمّا رأيت منازلى من الجنة رُفِعَت لى مقامات فى علّيّين مارأيت مثلها فيما رأيت ففرحت بها، فلمّا هممت بدخولها نادَى منادٍ من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له، إنمّا هذه لمن أمضَى السبيل، قيل لى قد كنتَ تقول للشىء إذا ذهب منك فى سبيل الله ثم ترجع فيه، فلو كنت أمضيت السبيل لأمضيناها لك.

وقد حدثونا أنّ **الربيع بن خيثم** سُرِق فرسه وكان ثمنه عشرين ألفا وكان قائما يصلى، فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه، فجاءه الناس يعزونه فقال أما إنى قد كنت رأيتُه وهو يُحلّه، قيل ومامنعك أن تزجره، قال كنتُ فيما هو أحبُّ إلىّ من ذاك، يعنى الصلاة، قال فجعلوا يدعون عليه، فقال لا تفعلوا وقولوا خيراً فإنى قد جعلتُها صدقةً عليه. وقيل لبعضهم فى شىء قد كان سُرِق له ألاّ تدعو على ظالمك، فقال ماأحب أن أكون عونا للشيطان عليه. قيل أفرأيتَ لو رُدّت إليك سَرِقتُك، أكنت تأخذها، قال ولا كنت أنظر إليها، إنى قد كنت أحللته منها. وقيل لآخر ادعُ الله علَى مَن ظلمك، قال ماظلمنى أحد، ثم قال إنما ظلم نفسه، فلا يكفيه المسكين ظُلْمه لنفسه حتى أزيده شرا. وذهب لبعض المسلمين مال فجاء قوم يعزونه عليه، فقال

ماتعزوني على أمر الدنيا فوالله ماحزنت على ذهابها، فكيف على ذهاب شيء منها. قيل ولِمَ، قال شغلني الشكر عليه عن الحزن. وقد كانوا يقولون إذا ظُلموا من الغَصْب والسرقة وغير ذلك هذه نعمة الله علينا، إذ لم يجعلنا ظالمين وجعلنا مظلومين أعظم مما فاتنا من الظلاَمة. وقد كان السلف يخافون أن يذكروا الظالم بالسبّ له والدعاء عليه فيكون ذلك زيادة على مَظلمتهم. وقد روينا مَن دعا على ظالمه فقد انتصر. وأكثر بعضهم بشتم الحَجّاج عند بعض السلف فقال له لاتُغرِق في شتمه فإن الله ينتصف للحجّاج ممن انتهك عِرْضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله.

وفي الخبر أن العبد ليُظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويَسُبّه حتى يكون بمقدار ماظلمه، ثم يبقَى للظالم عليه مُطالبة بما زاد عليه يُقتص له من المظلوم. وقال بعض العلماء لرجل وقد كان شكا إليه قطْع الطريق وأخْذ ماله، فقال له لم يكن غمّك أنه قد صار في المسلمين من يستحلّ هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحتَ للمسلمين. وسُرقت من **عليّ بن الفضيل** دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن، فقال أعَلى الدنانير تبكي، فقال لا والله ولكن على المسكين، أنه يُسئل يوم القيامة بهم ولايكون له حُجة. وقيل لبعضهم في معنى هذا ادعُ علَى مَن ظلمك، فقال إني مشغول بالحزن عليه من الدعاء عليه.

فإنْ رُدّ على المتوكل كل ماأخذ منه فالأفضل له أن لايتملكه إنْ كان قد جعله في سبيل الله ليمضي السبيل، فإنْ كان قد جعله صدقةً على الآخذ نَظَر في ذلك، فإنْ كان فقيرا حمله فقره على السرقة والخيانة والحاجة أمضى صدَقته عليه، وإنْ كان غير ذلك صرفها إلى فقير. وقد كان بعضهم إذا أُخذ له الشيء يشترط فيقول إن كان فقيرا فهو صدَقة عليه، وإنْ كان محتاجافهو في حِلّ. وقد أخبرني بعض الأشياخ عن شيخ كان بمكة من العبّاد أنه اتّهم بعض الحُجاج بسرقة همْيانه لأنه كان قائما إلى جانبه، فقال له كم كان فيه فأخبره، فحمله إلى منزله فوزن له من المال، ثم إنّ أصحابه أعلموه أنهم مزحوا معه وحلّوا همْيانه وهو نائم، فجاء هو وأصحابه إليه فردّوا عليه ماله، فقال ماكانت لتعود إليّ بعد إذ خرجتْ. هي لكم، فقلنا لا حاجة لنا فيها، فقال خذوها، قال فأبينا، فقال يابني، ودعا ابناً له وجعل يَصُرّها صُرَراً ويبعث بها إلى قوم حتى فرغ منها. وهذا كانت نيته إخراجها لله سبحانه كما نقول فيمن أخرج رغيفا إلى سائل أو أعدّ درهما لفقير فلم يصادفه، أنّا نستحب أنْ لايرجع إليّ مِلْكه بل يعزله

لسائل آخر أو فقير غيره، لم يزل هذا من أخلاق المؤمنين. وقد رأينا من كان بهذا الوصف، وهذا طريق قد عفا أثره ودرس خبره فمن عمل به فقد أحياه وأظهره، وقد كان قديما طريق السابلة من الأولياء إلى الله تعالى.

ذكر بيان آخر من أحكام المتوكل

إعلم أن **التوكل على الله في الأسباب** لايوجب بقاءها للعبد ولا إيثاره بها ولاحفظها عليه، ولا يقدم شيأ عن شيء ولايؤخره لصلاح دنيا أو اختيار عبد، بل هو إلى الإذهاب والإتلاف أقرب، لأن التوكل قرين الزهد، هكذا هو عند الخصوص. ولأجل اختيار العبد وتحقيق صدْقه محنةً له، ولأجل من نفْى الشيء من الدنيا، قال الله سبحانه وتعالى فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة، فإن ذهب ماله فصبَر أو شكَر أو رضي كان صادقا في توكله، وهذه أحوال المتوكلين في التوكل إن كانوا صادقين ، وإنْ عجز واضطرب كان كاذبا في توهمه للتوكل، ويلزمه من مجاهدة النفس عند اضطرابها بعد عدم الأشياء مايلزمه من مجاهداتها ونفي الآفات في سائر الأعمال. فإنْ حفظ عليه ماله فقد رفق به في ذلك وستر عليه عن كشف حقيقة حاله بتلف ذلك، وجُعلت كرامة من الدنيا له، ليطمئن بذلك في حاله ويسكن به قلبه في طريقه وهذا مقام الضعفاء. وإنْ نَقص من الدنيا فقد أقيم مقام أهل البلاء الأمثل فالأمثل بالأنبياء، ولولا الامتحان لكثُر الصادقون.

وكذلك **التوكل على الله في ترك الدواء** لايجلب العوافي ولايعجّلها، ولايُنقص من الأمراض ولايُذهبها، بل هو إلى الازدياد منها أقرب للتمحيص والابتلاء. ومنه قوله عز وجل **وليُمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين**. فمن لم يشهد نقصان الدنيا من النفس والمال نعمةً توجب عليه الشكر ويرى المنع عطاء فقد جهَل تلك النعمة بإضاعة شُكرها، فمافاته من جهْل النعمة وترك الشكر أعظم مما يترك من جميع الدنيا. وأخاف عليه لطيفة من المحق، والمحق نقصان الشيء إلى ذهاب جملته عند الكفر بنعمته، لقوله تعالى ويمحق الكافرين، فالله أعلم أي شيء يمحقه ويُنقصه بمقدار ما كَفَر شُكْرَ نعمته. وقد قال سبحانه **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين**، فهذا النقص من هذه الخمس التي المزيد منها هو جملة الدنيا، هو المزيد من الآخرة لا ضد الدنيا، كما قال تعالى **وماعند الله خير وأبقى، للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون**، فصبروا على

مصائبهم توكلاً على ربهم، ثم توكلوا فى صبرهم لشهادة وكيلهم ولحُسن ظنهم به، ثم صبروا على توكلهم لتمام حالهم، ويعلو بذلك فيه مقامهم. **فالصبر أول مقام فى التوكل**، وهو عند مشاهدة القضاء بلاء، **والشكر أعلى من ذلك** وهو شهود البلاء نعمة، **والرضا فوق ذلك كله، وهو أعلى التوكل، وهو مقام المحبين من المتوكلين.**

وقال اللّه عز وجل فى وصف **عموم المتوكلين:** وما عند اللّه خير للذين يتقون، أفلا تعقلون. فمن اتقى اللّه وعقّل خطابه توكل عليه فيما أصابه فلم ييأس على مافات ولم يفرح من الدنيا بما هو آت، وهذا أوسط الزهد **وأوّل التوكل**. وقال تعالى فى وصف الخصوص: **وماعند اللّه خير وأبقى، للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون**، فأهل العقل عن اللّه والمتقون له هم المتوكلون عليه، وقد زهّدهم فيما يفنى برغبته إياهم فيما يبقى حين فهموا الخطاب، إذ هم أولو الألباب، وذلك أنه أضاف ماعنده إليه ووصفه بالبقاء ليرغبوا فيه لأنهم قد توكلوا عليه، وأضاف ماعندهم إليهم ليزهدوا فيه، ووصفه بالفناء لأنهم قد زهدوا فى نفوسم إذ قد باعوها منه فكيف يتملكون ماعندها، والعبد وماله لسيده، وهو تعالى قد اشتراها منهم لرغبتهم فيه، وعوّضهم منها ما يبقى لهم فقال تعالى ماعندكم ينفد وما عند اللّه باق .

ذكر بيان آخر من فضيلة المتوكل

إعلم يقينا أن اللّه تعالى لو جعل الخلائق كلهم من أهل السموات والأرضين على علم أعلمهم به، وعَقْل وأعقلهم عنه، وحِكْمة أحكمهم عنده، ثم زاد كل واحد من الخلائق مثل عدد جميعهم وأضعافه علماً وحكمةً وعقلا، ثم كشف لهم العواقب، وأطلعهم على السرائر، وأعلمهم بواطن النعم، وعرّفهم دقائق العقوبات، وأوقفهم على خفايا اللُطف فى الدينا والآخرة، ثم قال لهم دبّروا المُلك بما أعطيتكم من العلوم والعقول عن مشاهدتكم عواقب الأمور، ثم أعانهم على ذلك وقّواهم له، لما زاد تدبيرهم على مايراه من تدبير اللّه تعالى من الخير والشر والنفع والضُرّ جناح بعوضة، ولا نقص جناح بعوضة، ولا أوجبت العقول المكاشفات ولا العلوم المشاهدات غير هذا التدبير، ولا قَضَتْ بغير هذا التقدير الذى يعاينه ويقلّب فيه ولكن لا يبصرون، لأنه أجراه على ترتيب العقول وعلى معانى العُرْف والمعتاد من الأمور، بالأسباب المعروفة والأواسط المشهورة على معيار ما طبع العقول فيه وجبَل العقول عليه، ثم غيّب مع ذلك العواقب وحجَب السرائر وأخفى المثاوب فغاب بعينها حُسن التدبير وجميل التقدير، فجهَل أكثر الناس الحُكم إلا المتوكلين، وما يعقلها إلا العالمون.

ولو تمنى أهل النهى من أولى الألباب الذين كشف عن قلوبهم الحجاب نهاية أمانيهم، فكُوِّنت أمانيهم على ماتمنوا، لكان رضاهم عن الله فى تدبيره ومعرفتهم بحُسن تقديره لهم خيراً لهم من كوْن أمانيهم، وأفضل لهم عند الله من قبَل أنّ الله أحكم الحاكمين. وقال تعالى موبخا للإنسان مُجَهّلا للمتمنى لقلة الإيقان. أم للإنسان ما تمنى فلّه الآخرة والأولى، أى يحكم فيهما بترك الأماني، لأنه قال تعالى ولو اتبع الحقُ أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، فالمتوكل محبٌ للّه تعالى، مسرورٌ بربه، فرحٌ له بملكه بأنّ له الآخرة والأولى يحكُم فيهما كيف شاء، والعبد عاجز لا يقدر على شيء، فهذا أوّل مقام فى المحبة، فقد كفى الخلائق هذا كله بحُسن تدبير الخالق العليم الخبير البصير، وإنمّا يحتاجون الى معرفة بالحكمة ومشاهدة للحُكم والرحمة وإلى بصيرة ويقين يسكن عندها قلوبهم.

ولا يضطرب هذا الذى ذكرناه عند الموقنين. وسيطّلع العموم على سرّ ما ذكرناه من لطيف التدبير وباطن التقدير، وهو سر القدر ولطائف المقدّر فى الآخرة عند المعاينة وقد كُشف الغطاء وظهر ما تحته من عجائب الخَبء فى السموات والأرض. وقد اطّلع اللّه على ذلك العلماء به فى الدنيا، وهو محمود مشكور على ماأظهر وأخفى، ففى كل واحد منهما نعمة. ومع كل واصف منها حكمة ورحمة، ولكن قد خلق اللّه العلماء بأخلاقه فليس يكشفون من علمه إلاّ بقدْر ماكشف، وليس يعرفون من سرّ قدره إلا بمعيار ماعرف، وقال تعالى وإنْ من شىء إلا عندنا خزائنهوما ننزله إلا بقدَر معلوم، فقد تأدبوا بهذا الخطاب ووقفوا عنده. وقال أبو سليمان الدارانى إذا لاحظت الأشياء من فوق وجدت لها طعما آخر. وقال بعض العارفين إذا رأيت الأشياء كلها كشىء واحد من معدن واحد رأيت مالم تسمع وفهمت مالم تفهم الخلق. وقال بعضهم لا ترى العَجب حتى ترى عجباً، فإنْ لم تر عجباً رأيت العجب.

ذكر بيان آخر من وصف المتوكلين

إعلم أن العلماء باللّه سبحانه لم يتوكلوا عليه لأجل أن يحفظ لهم دنياهم، ولا لأجل تبليغهم مرادهم، ولا ليشترطوا عليه حُسن القضاء بما يحبون، ولا ليبدل لهم جريان أحكامه عما يكرهون، ولا ليغير لهم سابق مشيئته إلى ما يعقلون، ولا ليحوّل عنهم سنتّه التى خلَت فى عباده من الابتلاء والاختبار. هو أجَل فى قلوبهم من ذلك، وهم أعقل عنه وأعرف به من هذا. ولو اعتقد عارف باللّه أحد هذه المعانى مع اللّه فى توكله كان كبيرة توجب عليه التوبة، وكان

توكله معصية. وإنما أخذوا نفوسهم بالصبر على أحكامه كيف جرت، فطالبوا قلوبهم بالرضا عنه كيف جرت. وقال رجل **لمالك بن أنس** :ياأبا عبد الله، إنى تعلقت بأستار الكعبة فتبتُ من كل ذنب وحلفتُ أن لا أعصى الله فيما استقبل، فقال له ويحك ومن أعظم معصية منك، تتألّى على الله أن لا يُنفِذ حكمه فيك! وأنشدنا بعض العلماء لبعض الحكماء:

لما رأيت القضا جارياً لاشك فيه ولامرّية * توكلتِ حقاً على خالقى وألقيت نفسى مع الجريّة

وإنما كرهوا ماكره الله طاعةً لله، فذلك كراهة ماكره حبا لله واحتراماً لحكمه عليهم، لاكراهة ماقضى، إذ ليس لهم أن يقولوا فلِمَ قضيْت مانكره، ولِمَ كرِّهت ماقضيْت، هو أجلّ وأعظم، وفى نفوسهم أخوف وأهيب أن يواجهوه بهذا الخطاب فى قول أو عقد، بل عرفوا حكمته فيه وصبروا على حُكمه به. وإنّما توكل العلماء به عليه لأجل أنه يحب المتوكلين، ولأجل أنه يستحق التفويض إليه ويستوجب التسليم له، إذ كان هو الوكيل الأوّل والكفيل الأجّل حين سمعوه يقول والله على كل شيء وكيل، ثم استوى على العرش يدبر الأمر، مامن شفيع إلاّ من بعد إذنه، حين فقهوا قوله ومَن أحسن من الله حُكما لقوم يوقنون، ولِمَا عقلوا من خطابه أليس الله بأحكم الحاكمين. أو لأجل أنه أمر بالتوكل وندَب إليه وحقّق الإيمان به، إذ سمعوه تعالى يقول أفَمن هو قائمٌ على كل نفس بما كسبَت، أمَّن من يملك السمع والأبصار ومن يُدبر الأمر، ومامن دابة فى الأرض إلاّ على الله رزقها، وفى السماء رزقكم وماتوعدون، ثم أقسم عليه بنفسه أنه حقٌ فتوكلوا عليه استحياءً منه، ولوجود اليقين الذى رفع خفايا الشك وحذّر من التهمة له، وتوْثقةً بالاعتقاد عليه، فمنهم مَن توكل عليه لأجل هذه المعانى كلها، ومنهم من توكل عليه لمشاهدة بعضها، فكلُ عبدٍ توكلُه عن الوصف الذى به عَرفه، وكلٌ عرفَه عن العُذر المتجلّى الذى عرفه، فكلٌ يطيعه على قدْر قُربه منه، وكلٌ يَقْرُب على قدْر عمله بقُربه منه بقدْر مايعرف من كينونية، وكلٌ بعلمه على قدر عنايته به، ومن ورائه سرّ القدَر، فمشاهدة كل عبْد من مقامه، وحاله عن وجْد شهادته، وجزاؤه نحو معاملته. والله يضاعف لمن يشاء، هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون، لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون، فدار السلام جامعةٌ لهم وهم متفاوتون فى درجاتهم، كدار الدنيا تجمعهم وهو يرفعهم لديه فى ملكوتها بتخصيص التولّى وحُسن الولايات عن تحسين المعاملات. والله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب.

ومن **الخصوص** من توكل عليه تعظيماً له وإجلالاً، ومنهم من توكل عليه يقينا بوعده ليحقق صدقه كأنه قد أخذ الموعود بيده، إذ يقول تعالى ومن أوفى بعهده من الله، إنه كان وعده مأتيا، ومنهم من توكل عليه استسلاماً لما شهد من قهر عزّه وعظيم قدْره، ومنهم من توكل عليه ليحفظ عليه ماله فيه، ومنهم من توكل عليه ليحفظ له ما استحفظه ويعصمه في ماله عليه، ومنهم من توكل عليه لقيامه بشهادته عن حُسن معرفته، ومنهم من توكل عليه تسليماً له عن جميل معاملته، ومنهم من فوّض إليه لحسن تدبيره عنده ويمحكم تقديره، ومنهم من توكل عليه لأن توحيده له وشهادة قيوميته ذلك يقتضيه. فهذه كانت مواجيد أوليائه ومناهج أحبابه عن مشاهدة القُرب ومعرفة القريب. وبعضهم أعلى مقاما من بعض. وبعض هذه المشاهدات أقرب وأرفع، فأعلاها مَن توكّل عليه للإجلال والتعظيم، وأوسطها مَن توكل عليه للمحبة والخوف، وأدناها من توكل عليه تسليماً له وتحبُّباً إليه.

وقد ذكرنا أيضا من **توكّل العموم** مايستحي العارفون من ذكره وينزهون قلوبهم عن فكره، وهو **التوكل عليه في القلوب**. وقد طوينا ذ **كْر توكل خصوص الخصوص** من صدّيقي المقربين، لأنه لايحتمله عقل عاقل ولايسع أن يُستودع في كتاب الناقل، إذ ربما نظر فيه مُنكرٌ جاهل والله المستعان، فدخل مَن عرفه فيما يُحَبّ لأجله، ورغبوا فيما مُدِح لوصفه، ليحصل لهم وصفٌ يعطيهم به الوليّ حُسنُ ثناء، ينالون بذلك قُربةً منه ومحبةً لديه.

ذكر بيان آخر في التوكل ومالا ينقص المتوكل

ولايُنقِص المتوكل على الله سبحانه مسئلة مولاه فيما أحب من صالح الدنيا ومزيد الآخرة، إذ لم يقصد غير مطلوب وكان مُفَوِضا إلى الله الأمور ولكن يحتاج إلى معرفة الإجابة، فقد يكون المنع إجابةً وقُرباً إذا كان العطاء شُغلاً عنه وبُعداً، لأن الخيرة فيما لايعلم العبد، وقد يكون فيما يكره مما يعلم الله سبحانه حُسن عاقبته لافيما يعقل العبد عاجل منفعته، فعليه التسليم لحُكم الحاكم والرضا بقِسْم القاسم. فإنْ سأل تكاثراً من الدنيا أو مالا يحتاج إليه وماليس فيه صلاح قلبه ولاقُرْبة إلى ربه، أخرجه من حقيقة التوكل بمقدار مايُخرجه من الزهد.وإنْ انقطع بالذكْر عن المسئلة أعطاه فوق عطاء مَن سأله، وإنْ سكت حياءً من الوكيل إذ هو حسبُه فشهد الكفاية ورَضِيَ بجميع التصرّف، فهذا مقامٌ من المواجهة عن مشاهدة القيومية، وهو حال المقربين.

ولا يقدح فى التوكل تَشَرُّف المتوكل إلى رزقه لأنه خُلِقَ ضعيفا ذا فاقة، ورزقه معلوم لابد منه، والمعلوم مقسوم، فتشرّفه إلى القِسْم تشرّف منه إلى القاسم، ومن تشرّف إلى مولاه شرّفه وتولاّه. ولكن إنْ تشرّف إلى الزيادة وخرج من القناعة وطلب العادة وأراد الشىء قبل وقته أو كره تأخره عنه إلى وقت مقدوره فإنّ هذا يقدح فى توكله ويُنقص من زهده. ولو كان الشَرَف إلى الرزق منها والتطلّع إلى الرزق مُجْمَلاً يُنقص التوكل لعلّلنا من باع واشترى وجهّلنا من تعالج مِن علِله بالدواء، لأن فى ذلك تشرّفا إلى الرزق وتطلّعا إلى البُرء، فجاء من ذلك تضعيف التابعين وطعْنٌ على المتداوين من الصحابة والسلف الصالح، وأخرجهم ذلك من التوكل والزهد، فلهم منها مقامات.

ولايُخرجه من التوكل مطالعته للعوض على معاملته من جزاء الآخرة، لأنه قد شُوّق إلى ذلك ونُدِبَ إليه، ولكن لايُدخله ذلك فى حقيقة الإخلاص ولايرفعه إلى علو درجة الصدّيقين من المتوكلين. وقد يكون مُريدا على قدر حاله إلاّ أنه لايُدخله فى إخلاص المحبّين، ولايرفعه فى درجات المقرّبين.

ولايصح التوكل إلاّ بزهده فى الدنيا، وأول الزهد ترك الرغبة فى الحرام. **وأول أحوال المتوكل** التوكل فى القوت ثم الصبر على حكم الحى الذى لايموت. **وأعلى التوكل** التوكل عليه فى الاستسلام للأحكام والرضا عنه فى المسابقة بين الأقدام، وهو اطرّاح النفس ونسيانها شُغلاً منه عنها بنفسها وحباً له. **وحقيقة التوكل** بعد مشاهدة يد الوكيل، فإذا ظهرت يده غابت الأيدى فيها، فعندها توكلتَ عليه بتدلل فَقبِلَ توكلك، واستسلمتَ إليه فسلّمك، فإنه يتجلّى لك بوصف يُلزمك حكماً يضطرك الحكم إلى الحاكم ويُوقفك الوصفُ على الوكيل، كما يضطرك الحاكم إلى الحُكم ويجرى لك وعليك ماشاء من القِسْم، فأعلى توكلك عليه بحُسن التدبير، فلم يكلك إلى سواه، ولم يولك إلاّ إياه، فإمّا أن يقتضيك تصبُراً له، وإمّا أن يقتضيك تفويضاً إليه، وإمّا أن يقتضيك رضاً عنه أو تسليماً له أو استراحة من تدبيرك لنفسك، أو يسقط عنك اهتمامك بتقديرك وأمانيك. ومن يتوكل على الله فهو حسبُه، والحسب أى الحسيب يجعله ماشاء كيف شاء، فقد قيل حسبه أى التوكل، وقد قيل التوكل حسبه من سائر المقامات، وقيل الله حسبه أى يكفيه ممن سواه. قال تعالى مُعرّفاً للكافةُ مُسلّياً للجماعة إن الله بالغ أمره، أى منفذٌ حكمه فيمن توكّل عليه وفيمن لم يتوكل عليه، إلا أنّ من توكل عليه يكون الله حسبه، أى يكفيه أيضا مُهّم الآخرة والدنيا، ولا يزيد من لم يتوكل عليه جناح بعوضة فى قِسْمه، كمالا يُنقص من توكل عليه ذرة من رزقه، لكن يزيد من توكل عليه هُدى إلى

هداه، أو يرفعه مقاما فى اليقين على تقواه، ويعزه بعزه. وينُقص من لم يتوكل عليه من اليقين، ويزيده من التعب والهّم ما يشتتُ قلبه، ويُشغل فكره. والمتوكل عليه يوجب له بذلك تكفير سيآته، ويلُقى عليه رضاه ومحباته، والكفاية فقد ضمنها تعالى لمن صدّق فى توكله عليه، والوقاية فقد وهَبها لمن أحسن تفويضه إليه، إلاّ أن الاختيار وعِلْم الاستئثار إليه، والكفاية والوقاية، يجعل ذلك ماشاء كيف شاء وأين شاء ومتى شاء، من أمور الدنيا وأمور الآخرة، ومن حيث لا يعلم، لأن العبد موجودٌ فجرى عليه الأحكام فى الدارين، وفقيرٌ محتاجٌ إلى اللطف والرحمة والرفق فى المكانين، والله هو الغنى الحميد المُبدىء المعيد. وقيل لأبى محمد سهل متى يصح للعبد التوكل، فقال إذا علم أن تدبير مولاه له خير من تدبيره لنفسه، فإنّ نَظَر مولاه له أحسَن من نظره لنفسه، فيترك التفكر فيما كان والتمنى لما يكون فيترك التدبير، ولله عاقبة الأمور وهو على كل حال محمود مشكور.

ذكر أحكام مقام الرضا وهو المقام الثامن من مقامات اليقين

الرضا عن الله سبحانه وتعالى من أعلى مقامات اليقين بالله، وقد قال تعالى هل جزاء الإحسان إلا الإحسان. فمن أحسنَ الرضا عن الله جازاه الله بالرضا عنه، فقابل الرضا بالرضا وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء، وهو قوله عز وجل رَضِيَ الله عنهم ورضوا عنه. وقد رفع الله الرضا على جنّات عَدْن وهى من أعلى الجنّات، كما فضل الذكْر على الصلاة فقال تعالى ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر، كما قال تعالى إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر، والذكر عند الذاكرين المشاهدة، فمشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة وهو أحد الوجهين من الآية والوجه الثانى ذكر الله للعبد أكبر من ذكر العبد لله. وقال **أبو عبد الله الساجى** مِنْ خَلْق الله عباد يستحيون من الصبر يتلقفون مواقع أقداره بالرضا تلقفاً. وقد كان **عمر بن عبد العزيز** يقول أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القضاء. فالراضون عن الله عز وجل هم الذاكرون لله بما يحب ويرضى، فالرضوان الأكبر جزاء أهل الذكر الأكبر، وهذا أحد المعانى فى قوله من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين أى الرضا عنه، لأن السائلين يسألونه لهم فأعطاهم العفو، والذاكرون ذكروه فأعطاهم الرضا عنه عز وجل، ويكون أيضا معناه أعطيته النظر إلىّ لأن الذكر يدخل فى المشاهدة، فقابل النظر إليه اليوم بالنظر إليه غدا كما قابل الوصف بالوصف فى قوله عز وجل وجوهٌ يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم يتجلى لنا ربنا ضاحكا. والذكر قرب السمع، والسمع يخرج إلى النظر، والرضا هو حال

الموفق ، واليقين هو حقيقة الإيمان ، وإلى هذا ندب النبى صلى الله عليه وسلم ابن عباس فى وصيته له فقال إعمل لله باليقين فى الرضا ، فإنْ لم يكن فإنّ فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، فرفعه إلى أعلى المقامات ثم ردّه إلى أوسطها كذلك قال لابن عمر واعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فندبه إلى المشاهدة وهو **الإحسان** ، لأنه سأل ما الإحسان ، قال تعبد الله كأنك تراه ثم ردّه إلى الصبر والمجاهدة وهو **الإيمان** وهذا مكان العلم بأن الله يراه ، وليس بعد هذا مكان يوصف .

وقد رفع الله تعالى **الرضا** منه فوق ما أعطى من النظر ، ففى الخبر أنّ الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني ، فيقولون رضاك ، فسؤالهم الرضا بعد النظر تفضيل عظيم للرضا ، ولأن بالرضا دام لهم النظر ، لمّا كان الرضا موجب النظر سألوا دوام الرضا ليدوم القرب والنظر ، فسألوه تمام النعمة من حيث بدايتها ولا يصلح أن يظهر فى معنى قولهم رضاك أكبر من هذا ، ولا يُرسم فى كتاب حقيقة الأمر لأنه علي كشف وصف من صفات الذات يوجب علي العبد هيبة الربوبية ، وخوف هذا عن القلوب محجوب وحكمه من سرائر الغيوب ، وهذا في الدنيا ثواب لأهل الخشية عن معرفة خاصة ، قال الله سبحانه رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه .

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى ولدينا مزيد ، قال يأتى أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تُحَف من عند رب العالمين ، **أحدها** هدية من عند الله ليس عندهم فى الجنان مثلها وذلك قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهداية فهو قوله تعالى سلامٌ قُولاً من رب رحيم ، **والثالثة** يقول الله تعالى إنى عنكم راض فيكون ذلك أفضل من الهدية ومن التسليم، فذلك قوله تعالى ورضوان من الله أكبر من النعيم الذى هم فيه .

وروى **أن النبى صلى الله عليه وسلم** قال لطائفة المؤمنين : ما أنتم ، قالوا نحن المؤمنون فقال ما علامة إيمانكم قالوا نصبر عند البلاء ونشكر عند الرضا ونرضى بمواقع القضاء ، فقال مؤمنون ورب الكعبة . وفى خبر آخر أنه قال حلماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ، فشهد لهم بالإيمان بعد وصف الرضا .

وكذلك جعل **لقمان الحكيم** الرضا من شرط الإيمان لا يصلح إلاّ به ، فقال فى وصيته **للإيمان أربعة أركان** ، لا يصلح إلا بهن كمالاً يصلح الجسد إلا باليدين والرجلين ، ذكر منها الرضا بقَدَر الله وقد روينا عن ابن مسعود : من رضى بما ينزل من السماء إلى الأرض غُفِر

له. وقال **أبو الدرداء**: ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر. وروى عن محمد بن حويطب عن **النبى صلى الله عليه وسلم** : مِنْ خير ما أُعطى العبد الرضا بما قَسَم الله له. وفى الخبر المشهور طوبى لمن هُدِىَ إلى الإسلام وكان رزقه كفافاً ورضى به. وفى مثله أيضا من رضى من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضى الله منه بالقليل من العمل. وقد روينا عن **النبى صلى الله عليه وسلم** حديثاً من طُرق أهل البيت: إذا أحب الله عبدا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضى اصطفاه. فالرضا عن الله عز وجل، والرحمة للخلق، وسلامة القلب والنصيحة للمسلمين، وسخاوة النفس مقام الأبدال من الصدّيقين. وقد روينا فى أخبار **موسى عليه السلام** أن بنى إسرائيل قالوا سل ربك أمراً إذا فعلناه يرضى به عنا، قال موسى إلهى قد سمعت مايقولون، فقال ياموسى قل لهم يرضون عنى حتى أرضى عنهم. ويشهد لهذا الخبر المروى عن **نبيّنا صلّى الله عليه وسلم**: من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ماللّه عنده، فإن الله ينزل العبد من بحيث أنزله من نفسه. وقد جاء فى فرض الرضا قول **النبى صلى الله عليه وسلم**: أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا. وقرن **لقمان** الرضا بالتوحيد، فقال فى وصيته لابنه أوصيك بخصال تقربك إلى الله، وتباعدك من سخطه: الأولى تعبد الله لا تشرك به شيأ، **والثانية** الرضا بقدَر الله فيما أحببت وكرهت. وقال فى وصيته ومَن يتوكل على الله ويرضى بقدر الله، فقد أقام الإيمان، وفرّغ يده ورجليه لكسب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التى تُصلح للعبد أمره. فمن الرضا سرور القلب بالمقدور فى جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها فى كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مُفزِع مُهلِع من أمور الدنيا، وقناعة العبد بكل شىءواغتباطه بقسمة ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلام العبد للمولى فى كل شىورضاه منه بأدنى شىء، وتسليمه له الأحكام والقضايا باعتقاد حُسن التدبير وكمال التقدير فيها، ولتسليم العبد إلى مولاه مافى يديه رضاً بحكمه عليه، وأن لا يشكو الملك السيد إلى العبد المملوك، ولا يتبرم بفعل الحبيب، ولا يفقد فى كل شىء حُسن صنع القريب.

ومن الرضا عند أهل الرضا أن لا يقول العبد هذا يوم شديد الحر ، ولا هذا يوم شديد البرد، ولا يقول الفقر بلاء ومحنة، والعيال همّ وتعب، والاحتراف كد ومشقة، بل يرضى القلب ويسلّم، ويسكن العقل ويستسلم، بوجود حلاوة التدبير واستحسان حكم التقدير، كما قال **عمر بن عبد العزيز**: أصبحت ومالى سرور إلاّ فى انتظار مواقع القدَر. وقال **ابن مسعود**:

الفقر والغنى مطيتان ماأبالى أيهما ركبت، إنْ كان الفقر فإنّ فيه الصبر، وإنْ كان الغنى فإنّ فيه البذل. وقال **أحمد بن أبى الحوارى:** قلت لأبى سليمان إنّ فلانا قال وددت أنّ الليل أطْول مماهو، فقال قد أحسن وقد أساء، أحسن حيث تمنّى طوله للعبادة، وأساء إذا لم يحب مالم يحب الله. وروى عن **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه: ما أبالى على أى حال أصبحت وأمسيت من شدةٍ أو رخاء. وقال ذات يوم لامرأته **عاتكة** وقد غضب: والله لأسوءنّك. فقالت أتستطيع أن تصرفنى عن الإسلام بعد أن هدانى الله له؟ قال لا، قالت فأى شىء تسوءنى إذاً؟ وقال **سفيان الثورى** يوما عند **رابعة** اللهم ارض عنا، فقالت أما تستحي من الله أنْ تسأله الرضاوأنك غير راض عنه، فقال استغفر الله. قال جعفر فقلت لها متى يكون العبد راضيا عن الله تعالى، فقالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة. وقال **فضيل بن عياض:** إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى. ويقال أكثر الناس هَمّاً فى الدنيا أكثرهم همّا فى الآخرة، وأقلّهم همّاً فى الدنيا أقلّهم همّا فى الآخرة. وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم:** الإيمان بالقَدَر يُذهب الهمّ والحَزَن.

واعلم أن الفرح بالدنيا يُخرج همّ الآخرة من القلب، والغمّ على الدنيا يحجب عن الحُزن على فوْت الآخرة. وذُكر عند **رابعة** عابدٌ له عند الله منزلة، وكان قوته ما يُقمّم من مزبلة لبعض ملوكهم، فقال رجل عندها فما يُضّر هذا إذا كانت له عند الله منزلة أن يسأله فيجعل قوته فى غير هذا، فقالت له اسكت يابطّال، أماعلمت أن أولياء اللهّ هم أرضى عنه أنْ يتخيروا عليه أن ينقلهم من معيشة حتى يكون هو الذى يختار لهم؟ وقال **أحمد بن أبى الحوارى:** قال لى **أبو سليمان** إن الله تعالى من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم، قلت وكيف ذلك، قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه، قلت نعم، قال فإن **محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه.**

وقال **الأعمش:** قال لى أبو وائل ياسليمان نِعْمَ الرب ربنا لو أطعناه ماعصانا. وقال الله عز وجل فى معناه ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أى يعطيهم ويستجيب لهم، والاستجابة الطاعة كقوله تعالى فليستجيبوا لى، فلما استجابوا له استجاب لهم، أطاعوه فيما أحب فأطاعهم فيما يحبون. وهذا أحد وجهى الآية كقوله تعالى وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم.

وقال **الفضيل:** من أطاع الله تعالى أطاعه كل شىء، ومن خاف من الله خاف منه كل

شيء. وفي أخبار **موسى عليه السلام:** يارب دلني على أمر فيه رضاك حتى أعمله، فأوحى الله تعالى إليه أن رضاى فى رضاك بقضائى. وقد يروى على وجه آخر أن بنى إسرائيل سألوا موسى فقالوا: علمنا فى أى شيء رضا ربنا لفعلناه، فأوحى الله إليه قل لهم رضاى فى رضاهم بقضائى. وفى مناجاة **موسى عليه السلام:** يارب أى خلقك أحب إليك، قال من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى، قال فأى خلقك أنت عليه ساخط، قال من يستخيرنى فى الأمر فإذا قضيت له سخط قضائى. وقد ورد أشد من هذا كله أن الله تعالى قال: أنا الله الذى لا إله إلا أنا، من لم يصبر على بلائى، ويرض بقضائى، ويشكر نعمائى، فليتخذ رباً سواى. وقد رويناه عن **النبى صلى الله عليه وسلم** من طريقٍ ومثله فى الشدة، يقول الله تعالى: قدّرتُ المقادير ودبّرتُ التدبير، وأحكمتُ الصنْع، فمن رضى فله الرضا منى حين يلقانى، ومن سخط فله السخط منى حين يلقانى. وفى الخبر أوّل ماكتَبَ لموسى عليه السلام: إنى أنا الله لا إله إلا أنا، من رضى بحكمى واستسلم لقضائى وصبر فى بلائى، كتبتُه صديقاً وحشرته مع الصدّيقين يوم القيامة. وروينا فى الخبر المشهور بمعناه يقول الله جلّ جلاله: قدّرت الخير والشر وأجريتهما على أيدى عبادى، فطوبى لمن خلقتُه للخير وأجريتُ الخير على يديه، وويلٌ لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه، وويلٌ ثم ويلٌ لمن قال لِمَ وكيف.

وقال **أبو محمد سهل** حظ الخلْق من اليقين على قدر حظهم من الرضا، وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله. وروى عطية عن أبى سعيد عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم:** أن الله بحكمه وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن فى الشك والسخط. ومن الرضا أن لا تذمّ شيأ مباحا ولا تعيبه إذا كان بقضاء مولاه، مشاهداً للصانع فى جميع الصنعة، ناظراً إلى إتقان الصُنع والحكمة، وإن لم يخرج ذلك عن معتاد المعقول والعادة. وبعض العارفين يجعل هذه الأشياء فى باب الحياء من الله عز وجل، ومنهم من يقول هى من حُسن الخُلُق مع الله تعالى، ومنهم من جعله من باب الأدب بين يدّى الله، فإذا كان هذا كذلك كان ذم الأشياء التى أبيحت وعيبها من سوء الخلق مع الله، وكانت من سوء الأدب بين يدّى الله. وأعظم من ذلك أنها تدخل فى باب قلة الحياء من الله. ويصلح أن يكون هذا أحد معانى الخبر الذى جاء قلة الحياء كفر، يعنى كفر النعمة، بأن يذم ويعيب بعض ما أنعم الله به عليه من الأرفاق والألطاف، إذا كان فيها تقصير عن تمام مثلها أو كانت مخالفة لهواه منها، فيكون ذلك كفراً للنعمة وقلة حياء العبد من المنعم، إذ قد أمره بالشكر

على ذلك فبدّل الشكر كفراً، لأن أحداً لواصطنع لك طعاما فعبته وذممته كره ذلك منك، فكذلك تعالى يكره ذلك منك. وهذا داخل فى معرفة معانى الصفات، وفى معنى ماقيل أعرفكم بربه أعرفكم بنفسه، لأنك إذا عرفتَ صفات نفسك فى معاملة الخلق، عرفتَ منها صفات خالقك. وبعض الراضين يجعل ذمّ الأشياء وعيبها بمنزلة الغيبة لصانعها، لأنها صنْعَتُه ونتاج حكمته ونفاذ علمه وحكم تدبيره وتدبير مقاديره، لأنه أحكم الحاكمين وخير الرازقين وأحسن الخالقين، له فى كل شىء حكمة بالغة، وفى كل صنعة صُنْعٌ متقن، ولأنك إذا عبتَ صَنْعة أحد وذممتها سرىَ ذلك إلى الصانع، لأنه كذلك صنعها، وعن حكمته أظهرها، إذ كانت الصَّنْعة مجبولة لم تصنع نفسها ولا صُنْع لها فى خِلقْتها. وكان الورعون لا يعيبون صنعة عند كراهة الغيبة له، وذلك أن الراضى عن الله متأدّب بين يدَى الله يستحي أن يعارضه فى داره أو يعترض عليه فى حكمه، فصاحب الدار يصنع فى حكمه ماشاء، والحاكم يحكم بأمره كيف شاء، والعبد راض لصنع سيده مسلّم لحكمة حاكمه. وروى فى الإسرائيليات أن **عيسى عليه السلام** مرّ مع نفر من أصحابه بجيفة كلب فغطّوا آنافهم، وقالوا أف إفٍ ما أنتن ريحه، فلم يخمر عيسى عليه السلام أنفه وقال ماأشد بياض أسنانه، أراد أن ينهاهم بذلك عن الغيبة ويعلمهم ترك عيب الأشياء، كيف هو يرى بعين نفسه أن الصنعة من صانعها فهو يقلبها ويصرفها على معانى نظره. وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنه ماعاب طعامًا قط، إنْ اشتهاه أكله وإلاّ تركه. وقال **أنس**: خدمتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم عشر سنين، ليس كل امرىء كما يريد صاحبى، ماقال لى لشىء فعلته لِمَ فعلته، ولا لشىء لم أفعله ألا فعلته، ولا قال فى شىء كان ليته لم يكن، ولا لشىء لم يكن ليته كان، وكان يقول لو قضى شىء لكان. وهذا وصف الراضى الموقن القائم بشهادته، فبالنظر فى هذه الدقائق والوقوف عندها رُفِع القوم عند الله إلى مقام المقربين، وبالتهاون بها والغفلة عنها نغَلت القلوب ففسدت حتى لم تصلح للمحبة والرضا.

وأعمال طُلاّب الرضا من الله مضاعفة على أعمال المجاهدين فى سبيل الله، لأن أعمال المجاهدين تضاعف إلى سبعمائة ضعف، وتضعيف طالبى الرضا لا تُحصَى. قال الله تعالى والله يضاعف لمن يشاء، وقال تعالى فيضاعف له أضعافا كثيره، قيل الحسنة إلى ألفى حسنة، وقد قال سبحانه ومَثَل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة، فكم فى هذه الجنة من سنبلة وحبة، فهؤلاء الذين قال والله يضاعف لمن يشاء ،هم أهل

الرضا عنه، وهم الذين أقرضوا الله قرضا حسنا لأجله، فضاعفه لهم أضعافا كثيرة، فمن عقل عن الله حكمته كان مع الله تعالى فيما حكم، مسلمًا له ماشهد، لأنه سبحانه باختياره أنشأ الأشياء، وبمشيئته أبداها وعنه يتصرف المقدور، وإليه عواقب الأمور، لا يكون مع نفسه فيما يهواه، ولامع معتاده وعُرفه فيما يعقل. وقال بعض العارفين قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فما لى منه إلاّ مُشَام الريح، وعلى ذلك لو أدخَلَ الخلائق كلهم الجنة وأدخلنى النار لكنت بذلك راضيا. وقيل لعارف فوقه، نلت غاية الرضا عنه، فقال الغاية لا، ولكنْ مقام من الرضا قد نلته، حتى لو جعلنى جسرا على جهنم يعبر الخلائق علىّ إلى الجنة، ثم ملأ بى جهنم تحلّة لِقَسَمه، وبدلاً من خليقته، لأحببت ذلك من حكمه ورضيتُ به من قَسَمه.

ويقال إنّ بعض هذه الطائفة ضاع ولده - وكان صغيرا - ثلاثة أيام لا يعرف له خبرا، فقيل له لو سألت الله أنْ يرده عليك، فقال اعتراضى عليه فيما قضى أشد من ذهاب ولدى. وقد روينا عن بعض العباد أنه قال أذنبت ذنبا فأنا أبكى عليه منذ ثلاثين سنة، وكان قد اجتهد فى العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب. قيل له وماهو، قال قلت مرة لشىء قضاه الله ليته لم يقضه. وحدثونا عن **بشر الحافى** قال: رأيت ببغادان رجلا قد قطعه البلاء، وقد سالت حدقتاه على خّديه، وهو فى ذلك كثير الذِكْر عظيم الشكر لله. قال وإذا هو قد صُرِع من حبه به. قال فوضعت رأسه فى حجرى، وجعلت أسأل الله عز وجل كشف مابه وأدعو له، فأفاق فسمع دعائى، فقال مَن هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى ويعترض عليه فى نِعَمه علّى، قال ونحّى رأسه. قال بشر فاعتقدت أن لا اعترض على عبد فى نعمة أراها عليه من البلاء.

وكذلك قال **أبو سليمان الداراني**: ثلاث مقامات لاحدّ لها: الزهد والورع والرضا. وخالفه **سليمان** ابنه وكان عارفا، ومن الناس من كان يقدمه على أبيه، فقال بلى، من تورع فى كل شىء فقد بلغ حد الورع، ومن زهد فى كل شىء فقد بلغ حد الزهد، ومن رضى عن الله فى كل شىء فقد بلغ حد الرضا، ولا يُنقص الراضى من مقام الرضا مسئلة مولاه مزيد الآخرة وصلاحَ الدنيا، تعبّداً بذلك وافتقاراً إليه فى كل شىء، لأن فى ذلك رضاه ومقتضى تمدحه بمسئلة الخلائق له، فإن صَرَف مسائله إلى طلب النصيب من المولى وابتغاء القرب منه حباً له، وآثره على ماسواه، كان فاضلا فى ذلك، لأنه قد ردّ قلبه إليه وجمع همّه بذلك، وهذا على قدر مشاهدة الراضى عن معرفته وهو مقام المقربين.

وللعلماء مسئلة قد اختلفوا فيها فى أهل المقامات: ثلاث أيهم أفضل – عبدٌ يحب الموت شوقا إلى لقاء الله، وعبدٌ يحب البقاء للكد والخدمة للمولى، وعبدٌ قال لا أختار شيأً بل أرضى ما يختار لى مولاى، إنْ شاء أحيانى أبدا وإنْ شاء أماتنى غدا، قال فتحاكموا إلى بعض العارفين فقال: صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولا. وهذا كما قاله فى الاعتبار بترك الاعتراض والاختيار، لأنه دخل فى الدار بغير اختيار، وكذلك يكون خروجه منها على معنى دخوله بلا اختيار، لأن مقام الرضا أعلى من مقام التشوق، ثم الذى يليه فى الفضل الذى يحب الموت شوقاً إلى لقاء الله، وهذا مقام فى المحبة وفى حقيقة الزهد فى الحياة. وفى الخبر مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، والذى يحب البقاء للخدمة وكثرة المعاملة هو فاضل بعد هذين، مقامه قوّة الرجاء وحسن الظن فى العصمة، وله أيضا مطالعات من الأُنس وملاحظات فى القرب، به طاب مقامه، وعنده سكنت نفسه وقصرت أيامه. وقد قال **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أفضل المؤمنين إيمانا، أو قال أكمل المؤمنين إيمانا، من طال عمره وحَسُن عمله، هذا لأن الأعمال مقتضى الإيمان، إذ حقيقة الإيمان إنما هو قول وعمل، وليس بعد هؤلاء مقام يُفرح به، ولا يُغبط صاحبه عليه، ولا يوصف بمدح، إنما هو حب البقاء لمتعة النفس وموافقة الهوى. وقد تشرف النفس على الضعفاء من أهل هذا الطريق ويختفى فيها علة، وهو أن يحب البقاء لأجل النفس وللمتعة بروح الدنيا وما طُبعت عليه من حب الحياة وتَكَرّه الموت لمنافرة الطبع ولطول الأمل، فيتوهم أنه ممن يحب البقاء لأجل الله وطاعته، وهذا هو من الشهوة الخفية التى لا يُخرجها إلاّ حقيقة الزهد فى الدنيا، ولا يفضل فى هذا الطريق الثالث إلاّ عارف زاهد دائم المشاهدة باليقين، فأمّا المعتل بوصفه وهواه فليس يقع به اعتبار فى طريق ولا مقام.

واجتمع ذات يوم **وهيب بن الورد وسفيان الثورى ويوسف بن أسباط** فقال الثورى قد كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم، فأمّا اليوم فوددت أنى مت، فقال له يوسف ولِمَ، قال لما أتخوف من الفتنة، فقال يوسف لكنى لا أكره طول البقاء، فقال الثورى ولِمَ تكره الموت، قال لعلّى أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا، فقيل لوهيب أى شىء تقول أنت، فقال أنا لا أختار شيأ. أحَبُّ ذلك إلىّ أحبُّه إلى الله، قال فقبّل الثورى ما بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة. يعنى مقام الروحانيين وهم المقربّون أهل الروح والريحان وأولو المحبة والرضوان كما قال تعالى فروْح وريحان، يعنى لهم ريح من نسيم القرب وريحان من طيب الحب. وأيضا أنه

تعالى لمّا ذكر أن لأصحاب اليمين فى كل شدة وهول سلامة، وكان المقربون هم الأعلون، كان أيضا فيما دلّ الفهم عليه أنّ للمقربين من كل هول روحاً به لشهادتهم القريب، وفى كل قرب منه ريحان لقرب الحبيب، فبذلك علوا، وبذلك فُضّلوا . وهكذا قال بعض الصوفية سرّ العارف فى الأشياء واقف مثل الماء فى البئر لا يختار المقام، وإنْ أُخرج خرج. فإنْ ذمّ هذا الراضى ما ذمّه الله وكره ما كرهه الله لم يُنقص ذلك رضاه، وكان محسنا فى فعله لموافقته مولاه، وإن لم يرض بحاله نَقْصَ فى الدين والآخرة، أو كره مزيد الدنيا من الكثرة والجمع والادخار لم يقدح ذلك فى رضاه، لأنه من التحقق بالزهد وهو فى جميع ذلك موافق للعلم، والله تعالى أعلم بأحكامه من العبد وأغيْر على نفسه من الغير، وأعلى مشاهدة من الخلق، له المثل الأعلى، فهو على ذلك يشهد أحكامه ويذم المحكوم عليه إذ تعدى حدود أمره، وينفذ علمه بمشيئته ويمقت العاصين له باجتراح نهيه، حكمةً منه وعدلا، كما أنه يشهد يده فى العطاء بمدح المنفقين، ويمضى إرادته بالقضاء بتوفيقه، ويشكر العاملين كرماً منه وفضلا. كذلك الراضى عنه موافقٌ فيما حكم، ومتبعٌ له فيما رسم، ومسلّمٌ له فيما قدّر، وعالم منه راض بما دبّر، ومستعمل لما شرع، ومواطىء لرسوله يذم ما ذمه مولاه، ويمدح ما مدحه لأجل مولاه لا لأجل نفعه إياه. والتحدث بالأوجاع والإخبار عن المصائب لا يُنقص حال الراضى إذا رآها نعمة من الله عليه، وكان القلب مسلّما راضيا غير متسخّط ولا متبرّم بمر القضاء.

وأوّل الرضا الصبر ثم القناعة ثم الزهد ثم المحبة ثم التوكل، فالرضا حينئذ حال المتوكل، والتوكل مقام الرضا. وقال **فضيل** إذا استوى العطاء والمنع عند العبد فهو الرضا. وقال غيره إذا لم يختلف قلبه فى العدم والوجود، وفى الصحة والسقْم فقد رضى. وقال **الثورى** مَنْعُ الله عطاءٌ ،لأنه يمنع من غير بُخل ولاعدم، فمنْعه اختيار وحُسن نظر، وهذا كما قال لأن حقيقة المنع إنما يكون لمن لك عنده شىء فمنعك، أو تستحق عليه شيأ فلم يعطك، فأماّ من لا تستحق عليه شيأ، أو لا لك معه شىء، لأنه الأول قبل كل شىء، والمُظهر لكل شىء، والمالك لما أظهر، والمختار لما خلق، وليس لأحد من خلْقه اختيار، ولا فى حكمه اشتراك، فكل شىء اختاره فهو عطاء منه على تفاوت مقادير، وضروب أحكام وتصاريف تدبير، فالصبر على الأحكام مقام المؤمنين، والرضا بها مقام الموقنين، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون، واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

واعلم أن الرضا فى مقامات اليقين وأحوال المحبين ومشاهدة المتوكلين، وهو داخل فى كل أفعال الله سبحانه لأنها عن قضائه، لا يكون فى ملكه إلا ماقضاه فعلَى العارفين به الرضا بالقضاء، ثم يردّ ذلك إلي تفصيل العلم وترتيب الأحكام، فما كان من خير وبرّ أمر به أو ندب إليه، رضى به العبد وأحبه شرعا وفعلا، ووجب عليه الشكر، وما كان من شرٍ نهى عنه وتهدّد عليه، فعلى العبد أن يرضى به عدلاً وقدَرا، ويسلمه لمولاه حكمة وحكما، وعليه أن يصبر عنه ويقرّبه ذنباً، ويعترف به لنفسه ظلما، ويرضى بعود الأحكام عليه بالعقاب وأنه اجترحه بجوارحه اكتسابا ورضاً بأن لله الحجّةُ البالغة عليه، وأنْ لا عذر له فيه، ويرضى بأنه فى مشيئة الله عز وجل من عفو عنه برحمته وكرمه إن شاء، أو عقوبة له بعدله وحقه إنْ شاء. وفصل الخطاب أنه يرضى بسوء القضاء عقداً لا من نفسه فعلاً، ويرضى به عن الله ولا يرضى به من نفسه، لأن الموقنين والمحبين لا يسقطون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا ينكرون إنكار المعاصى وكراهتها بالألسنة والقلوب من قِبَل أنّ الإيمان فرضَهَا، والشرع وَرَد بها، ولأن الحبيب كرهها. فكانوا معه فيما كره كما كانوا معه فيما أحب. ومقام اليقين لا يسقط فرائض الإيمان، ومشاهدة التوحيد لا تبطل شرائع الرسول ولا تسقط اتباعه، فمن زعم ذلك فقد افترى على الله ورسوله وكذب على الموقنين والمحبين. ألم تر أن الله تعالى ذمّ قوما رضوا بالدنيا ورضوا بالمعاصى ورضوا بالتخلف عن السوابق، فقال سبحانه رضوا بالحياة الدنيا وأطمأنوا بها، فذمّهم بذلك. وقال تعالى ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه، وليقترفوا ماهم مقترفون، فعابهم به. وقال تعالى رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، يعنى النساء وهذا جمع التأنيث، وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، فمن رضى بالمعاصى والمناكير منه أو من غيره و أحب لأجلها ووالى ونصر عليها، أو ادّعى أن ذلك فى مقام الرضا الذى يجازى عليه بالرضا، أو أنه حال الراضين الذين وصفهم الله تعالى ومدحهم، فهو مع هؤلاء الذين ذمّ الله ومقت. وفى الخبر: الدالُّ على الشر كفاعله. وعن **ابن مسعود** إنّ العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر فاعله، قيل وكيف ذلك، قال يبلغه فيرضى به. وقد جاء فى الحديث لو أنّ عبداً قُتل بالمشرق ورضى بقتله آخر بالمغرب كان شريكه فى قتله. وقد روينا حديثا حَسَنا عن **النبى صلى اللهً عليه وسلم** من طريق مُرسَل، من نظر إلى مَن فوقه فى الدين وإلى من دونه فى الدنيا كتبه الله صابرا شاكراً. ومن نظر إلى من دونه فى الدين ومن فوقه فى الدنيا لم يكتبه الله صابرا ولا شاكراً.

وقد غلط فى باب الرضا بعض البطّالين من المتأخرين ممن لا علم له ولا يقين، فحمل الرضا على جميع ما يكون منه من معصية وهوى، لجهله بالتفصيل وقلة فهمه بعلم التأويل،ولاتّباعه ما تشابه من التنزيل طلبا للفتنة وغُربة الحال، وابتداعا فى القول والفعال.وبطلان قول هذا عند العلماء أظهر من أن يدل على فساده، والاشتغال بالّبطّال بِطالة، وإنما الرضا فيما كان غير مخالفة الله ولا معصية، مثل مايكون من نقص الدنيا ونقص الأموال والأنفس من الأهل والولد، وفيما على النفس فيه مشقة ولها منه كراهة، وفيما كان مزيداً فى الآخرة لا عقوبة فيه من الله ولا وعيد عليه ولاذم لفاعليه. وقد يحتج أيضا بطّال لبخله وقلة مواساته وبذله، أو يعتل لاتساعه فى أمر الدنيا واستئثاره على الفقر، أن الذى يمنعه من البذل والإيثار والزهد فيما فى يديه والإخراج، رضاه بحاله وقلة اعتراضه على مُجريه فيه، وأنّ هذا مقام من مقامات الرضا خُصّ به عند نفسه. وهذا قول لاعب ذى هوى، وهو من خدع النفوس وأمانيها، ومن غرور العدوّ ومكايده، لأن الرضا لا يمنع من اختيار الفقر والضيقة لمعرفة الراضى بفضل الزهدوأوصافه كيف يكون، فالراضى لا يأمر بالاستيثار والاتساع لما كره من النعمة والاستكثار، لأن الرضا لا يوقِف عما نُدب العبد إليه، ولا يحمل على ما كُره له. وهذا اعتذار من النفس وتمويه على الخلق ليسلم منهم، ولا عذر بهذا عند مالكه، ولاسلامة له فيه من خالقه.

ومجمل ماذكرناه أنّ الرضا لا يصح إلاّ فيما يحسُن الصبر عليه والشكر عليه، لأن الرضا مقام فوق الصبر والشكر ومزيد الصابرين والشاكرين، فأما إنْ كان العبد على نقصان من الدين وفى مزيد من الدنيا ثم رضى بحاله، فرضاه بحاله شر من أعماله لمخالفة الأمر. قال الله عز وجل اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة، وقال تعالى يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب. وقال تعالى سابقوا إلى مغفرة من ربكم. وسارعوا إلى مغفرة من ربكم، وقال تعالى وفى ذلك فليتنافس المتنافسون. وقال تعالى يسارعون إلى الخيرات وهم لها سابقون. فندب إلى المسارعة والسوابق،وذمّ التخلف عنها والتثبطّ بالعوائق، فعلى هذا طريق المؤمنين، وفيه مقامات الموقنين، وإنما كان سبب ترك **سرى السقطى** السوق وزهده فى الدنيا قوله الحمد لله لأنها كلمة رضا ظهرت منه فى موضع الاسترجاع للمصيبة، وذلك أنه بلغه أن الحريق وقع فى سوقه فأحرق دكانه، فخرج فى قِطْع من الليل فاستقبله قوم فقالوا يا أبا الحسن احترقت دكاكين الناس إلا دكانك، فقال الحمد لله، ثم تفكّر فى ذلك فقال قلت الحمد لله فى سلامة

مالى وهلك أموال إخوانى المسلمين، فتصدّق بجميع ماكان فى دكانه من السَقط والآلة كفارةً لكلمته هذه، وخرج من السوق فشكر الله له فعله، فزهّده فى الدنيا ورفعه إلى مقام المحبة، فأوصله ترك الرضا إلى الرضا. وبلغنى عنه أنه كان يقول قلت كلمة فأنا أستغفر الله منها ثلاثين سنة، يعنى قوله الحمد لله. وقد جاء فى الخبر من لم يهتم بأمر المسلمين فليس من المسلمين.

وفى الخبر المشهور أوثق عُرَى الإيمان الحب فى الله والبُغض فيه، فجعل ذلك من أوثق العُرَى لأنه منوط بالإيمان لا يستطيع الشيطان حلّه ولا سلطان له عليه، كما لا سبيل له على حل عَقْد الإيمان لأن الله يحول بينه وبينه. وفى الحب فى الله الولاة والنُصرة بالنفس والمال والفعل والمقال، وفى البُغض فى الله ترك ذلك. فبُغض المبتدع والفاجر المجاهر والظالم المعتدى وترك موالاتهم ونُصرتهم واجب على المؤمنين، فلأجل ذلك صارت الموالاة لأولياء الله والمعاداة لأعدائه من أوثق عرى الإيمان، لأنك قد تعصى وتخالف مولاك بتسليط العدوّ وغلبة هواك، إلاّ أنك تبغض العاصين ولا تواليهم على المعاصى ولا تحبهم لأجلها، من قبَل أن العدو لم يُسلّط على حلّ عقْد إيمانك كما سُلّط على حل المراقبة والخوف منك. ولم يسلط أيضا عليك فى استحلال المحارم ولا استحسانها ولا التدين بها، ولا فى ترك التوبة منها ولا بالرضا بها، كما سلط عليك باقترافها. فإنْ سلّط على مثل هذا منك العدو حتى تحب الفسّاق وتواليهم وتنصرهم على فسقهم، أو تستحل ما ارتُكب من الحرام أو ترضى به أو تدين به، فقد انسلخ منك الإيمان كما انسلخ النهار من الليل، فلست منه فى كثير ولا قليل لأن هذه العقود منوطة بعرى الإيمان، وهى هو فى قرن واحد مقترنان. ألم تسمع الله تعالى يقول لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء؟ أو ماسمعته تعالى يقول لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم. ومثله لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا، أى حجة قاطعة، أن يجمعكم وإياهم فى النار. وكذلك قال الله تعالى وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين. وقال تعالى وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون، ثم قال تعالى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ماتولّى ونُصلِه جهنم.

وقد روينا فى خبرأن اللّه تعالى أخذ على كل مؤمن فى الميثاق أن يبغض كل منافق، وأخذ على كل منافق أن يبغض كل مؤمن. وفى الخبر المشهور المرء مع من أحب وله ما احتسب. وفى حديث آخر من أحب قوما ووالاهم فى الدنيا جاء معهم يوم القيامة.وفى معنى قوله أوثق عُرىَ الإيمان الحب فى اللّه والبُغض فيهً وجه خفى هو أن يحبك المؤمنون ويبغضك المنافقون، فيكون ذلك علامة وثيقة عرى إيمانك، لأن قوله الحب فى اللّه يصلح أن يبغضك المنافقون كما تبغضهم أنت، فكأنك تتحبب إلى المؤمنين حتى يحبوك وتتبغض الى المنافقين حتى يبغضوك، بإظهار التباعد عنهم وبترك الممالأة لهم، وبنصحك إياهم، فيدل ذلك على قوة إيمانك، لم تأخذك فى اللّه لومة لا ئم منهم. كما وصف تعالى بذلك من يحبهم ويحبونه، ويكون ذلك أبعد لك من المداهنة والنفاق وأقرب إلى الورع والإخلاص، فإذا فعلت ذلك بهم أبغضوك أو مقتوك، فهذا على معنى ماقال اللّه سبحانه أشداء على الكفار رحماء بينهم، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين. وكما أمر نبيه عليه السلام فى قوله تعالى قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة. وروى عن **عيسى عليه السلام** أن اللّه عز وجل قال أحَبّ عبادى إلىّ الذين يذكرونى بالأسحار ويُبغّضون إلىّ الفجار، معناه أن يظهر لهم البغض وينابذهم العدواة حتى يبغضوه، فإذا أبغضوه أبغضهم اللّه، فيكون قد بغّضهم إليه بهذا المعنى، أى كان سبب عقوبة لهم بالبغض والمقت.

وقد كان **الثورى** يقول إذا رأيت الرجل محببا إلى جيرانه فاعلم أنه منافق. وقال **كعب الأحبار** لأبى إدريس الخولانى، وكان من علماء الشام، كيف أنت فى قومك، قال يحبونى ويكرمونى، قال كعب ماصدّقتنى التوراة إذن، قال ومافى التوراة، قال أجد فى التوراة أن الرجل العالم لايحبه جيرانه. وقال بعض المريدين قلت لبعض أهل المعرفة إنى كثير الغفلة عن اللّه قليل المسارعة إلى مرضاته، أوصنى بشىء أعمله أدرك به مايفوتنى من هذا، قال يا أخى إن استطعت أن تتحبب إلى أولياء اللّه وتتقرب من قلوبهم فافعل لعلهم يحبونك، فإن اللّه عز وجل ينظر إلى قلوب أوليائه فى كل يوم سبعين نظرة، فلعله أن ينظر إليك فى قلوبهم لمحبتهم لك فيجيرك حيرة الدنيا والآخرة إذا لم تكن ممن ينظر إليه كفاحاً. وكذلك يقال إن اللّه تعالى عز وجل ينظر إلى قلوب الصدّيقين والشهداء مواجهة، ثم ينظر إلى قلوب قوم فى قلوب قوم، وإلى قلوب قوم من قلوب آخرين.

فهكذا عندى من عزائم الدين وسبيل الورعين أن تتبّغض إلى أعدائه من المبتدعين والظالمين ليبغضوك ويمقتوك، فيكون لك من القُربة كحب أوليائه لك وحبك لهم، فهذا من أسباب ولاية الله. وقد روينا عن **النبىّ صلى الله عليه وسلم:** اللّهم لاتجعل لفاجر عندى يداً فيحبه قلبى. ووصل بعض الأمراء **أبا هريرة** بألف دينار وعشرة أثواب فردّها عليه، وقال ماكنت لأقبل منه، يأخذ المال من غير حلّه ويضعه فى غير حقه. وقد قال **رسول الله صلى الله عليه وسلم:** ردّوا هدية الفاجر عليه، لايرى أنكم ترضون عمله.

والمداهنة والممالأة من أكبر أبواب الدنيا، وقد جعل الله تعالى من يسارع بالإدهان وإظهار المتابعة للظالمين خشية دوْر الدوائر عليه علَمْين من أعلام النفاق، فقال سبحانه ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويؤمنوا قومهم، كلما رُدوا إلى الفتنة أُركِسوا فيها. وقال تعالى فى المعنى الثانى فترى الذين فى قلوبهم مرض، يعنى المنافقين، يسارعون فيهم، يعنى يواطئون الكافرين سراً، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، أى نخاف أن تكون الدولة للكافرين على المؤمنين. قال الله تعالى فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده الآية. فينبغى لمن آمن فى المؤمنين وأهل السنة وأحبوه أن يخاف فى المنافقين وأهل البدع، وأن يبغضوه.وينبغى لمن سارع فى مواطئة المؤمنين أن ينىء ويبطىء فى مداهنة الظالمين ومتابعتهم حتى يخلص له إيمانه من النفاق وتستقيم طريقه من الضلال. وقد نفى الله الإيمان عمن أحب من حادّه، وأثبت الإيمان والتأييد باليقين لمن أبغض فيه أعداءه، فقال تعالى لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله الآية.

فأما من قال من الجاهلين بأن الرضا قد يكون بالمعاصى منه أو من سواه كما يكون فى الطاعات، فقد جعل المعاصى والمخالفات من القُرُبات وسوّى بينهما، وفى هذا هدم شرائع الأنبياء وإبطال تفصيل الله ماأحل لنا مما حرّم علينا، وما أمرنا به مما نهانا عنه. وقد روى فى خبرٍ من شر الناس منزلةً عند الله من يَقتدى بسيئة المؤمن ويترك حسنته. وقال بعض العلماء من حَمَلَ شاذّ العلماء فقد حمل شراً كثيرا. ومن حُسن الأدب فى المعاملة إذا عملتَ صالحا فقل ياسيدى أنت استعملتنى، وبحولك وقوتك وحُسن توفيقك أطعتك، لأن جوارحى جنودك. وإذا عملت سيأ ظلمت نفسى، وبهواى وشهوتى اجترحت جوارحى وهى صفاتى. ثم يعتقد فى ذلك أنه بقدره ومشيئته كان ماقضاه، فتكون بالمعنيين قد وافقت مرضاة مولاك،

وتكون في الحالين عاملاً بما يرضيه بالقول والعقود، وينتفى عنك العُجب فى أعمال برّك، ويصح منك المقت لنفسك واعترافك بظلمك. وقد ثقلت هذه المشاهدة على الجاهل، فإذا عمل حسنا شهد نفسه ونظر إلى حوله وقوّته فهلك بالكبْر وبطل عمله بالعُجب، وإذا عمل سيأ لم يعترف بالذنب ولم يُقر على نفسه بالظلم ولم تصح له توبة ولم يرض له عملا، نعوذ بالله من مشاهدة الضلال. وقال **أبو محمد سهل** رحمه الله تعالى إذا عمل العبد حسنة فقال يارب أنت استعملتنى شكر الله له ذلك فقال أنت عملت، فإذا نظر إلى نفسه فقال أنا عملت، يقول الله بل أنا استعملت. قال وإذا عمل سيئة فقال أنت قدّرتَ وأنت أردت، يقول الله تعالى أنت ظلمتَ وأنت عصيتَ بشهوتك هواك. فإن قال العبد ظلمتُ نفسى وعصيتُ بجهلى استحيا الله منه فقال بل أنا قدّرت وأنا قضيت، قد غفرت لك باعترافك بالظلم على نفسك. فهذه آداب العاملين ومشاهدة العالمين، وهذا داخل فى قوله **أعْرفُكم بربه أعرفكم بنفسه.**

فكذلك يحب ابن آدم ممن عامله **الاعتراف والتواضع**، وهذا أيضا أحد المعانى فى قوله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ، قيل هو الاعتراف عقيب العمل السيىء لأنه قد تقدم ذكره. وفى الحديث الذى رويناه عن **النبى صلى الله عليه وسلم** آنفا أنه قال من نظر إلى مَن فوقه فى الدين وإلى من دونه فى الدنيا كتبه الله صابراً شاكرا. ومن نظر إلى من دونه فى الدين ومن فوقه فى الدنيا لم يكتبه صابرا ولا شاكرا، فيه **أربعة** معان حسان إذا تدبّرها العبد وتفكّر فيها لم يعدم أن يرى أهلها، لأنه لايخلو أن يرى بعينه أو بقلبه لسيرة المتقدمين، فيرى مَن فوقه فى باب الدنيا فيشكر الله على حاله ويقنع منه برزقه، فيكون صابراً شاكراً بمعرفة ماقنع به، ورضى باختيار ماصَرف عنه من الفضول. وروى عنه من الحساب الطويل، ولايخلو أن يرى مَن فوقه فى أمر الدين يُسارع اليه ويسابقه إذ قد نُدب إلى ذلك فيكون حضاً له وحثاً على افتعال الخيرات وأعمال الصالحات، وأقل مايفيده ذلك الإزراء على نفسه والمقت لها فى تقصيره. ثم ينظر فى الأمرين الآخرين من وجه آخر، فلا يخلو أن يرى مَن هو دونه فى الدنيا من ذوى الفاقات والحاجات فيحمد الله على تفضيله عليه وحُسن صونه له، ويشكر نعمته لفضل إحسانه وكفايته له. ويجد أيضا فى المعنى الآخر من هو دونه فى أمر الدين من الفجَرَة والظالمين وأهل البدع الزائغين فيفرح بفضل الله ورحمته، ويشكر الله على حُسن إسلامه وجميل معافاته مما ابتلَى به غيره، فيكون أيضا صابراً شاكراً. فيكون للعبد فى هذه الطبقات من الناس أربع معاملات بما وهب الله من البصيرة والاعتبار.

ويشهد لما ذكرناه قوله: لاحَسَد إلاّ فى اثنين: رجل آتاه الله **حكمة** فهو يبثها فى الناس ويعلّمها، ورجل آتاه الله **مالاً** فسلّطه على هلَكته فى الحق. وفى لفظ حديثٍ آخر ورجل آتاه الله **القرآن** فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الرجل أتانى الله ماأتى هذا فعلتُ كما يفعل، فنُدب إلى الحسد على أعمال البرّ، وفُضِّل الحاسد لما نَدب الله إليه من المنافسة فى أعمال الخير. فمن حسد على هذه المعانى من أعمال الخير كان ذلك مَزيدا له فى مقام الرضا للغبطة به والطلب له، فأما من قُلبت عليه هذه المعانى فجهل عواقب الأمور وغلبت عليه الغفلة واستحوذت عليه الجهالة، فجعل ينظر إلى مَن فوقه فى الدنيا فيغبطه على حاله، أو يتمنى مكانه أو يُدخله نظره إليه فى استصغار نعمة الله عليه ويزدرى يسير ماقسَمه الله له، ثم ينظر إلى مَن دونه فى الدين من عموم المسلمين فيرضى بنقصان مقامه ويجعل ذلك معذرة له وتأسياً به، ويثبطه عن المسارعة إلى القربات، ولعله أن يداخله العُجب والكِبر حتى يتفضّل عليه بحاله، أو ينظر إلى نفسه بأعماله لتقصير غيره عن مثل فعاله، فهذا يُكتَب جزوعا عن الصبر كفوراً لنعمه بإضاعة الشكر، لأنه ليس بصابر ولاشاكر. وهذا وصف من أوصاف المنافقين، وهو مقام الهالكين إذ الصبر والشكر من صفات المؤمنين.

وقد وُصف هذا البلد (بغداد) بمثل هذا المعنى فالله المستعان. وقد حدّثوا عن **عبد الله بن المبارك** رحمه الله تعالى أنه قال طفتُ الشرق والغرب فما رأيت بلداً شراً من **بغداد**. قيل وكيف ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال هو بلد تُزدرَى فيه النعمة وتُستصغَر فيه المعصية. وحدثونا عنه أنه قيل له لمّا قَدِم خراسان كيف رأيت الناس ببغداد. قال مارأيت بها إلاّ شُرطياً غضبان أو تاجراً لهفان أو قارئاً حيران. وقيل إنه كان يتصدق كل يوم بدينار لأجل مقامه **ببغداد** إلى أن يخرج إلى مكة، فبلغنى أنه كان يتصدّق بستة عشر دينارا. وقد وصفها **الشافعى** أنها هى **الدنيا**، فروينا عنه أنه قال الدنيا كلها بادية **وبغداد** حاضرتها. وروينا عن يونس بن عبد الأعلَى قال قال **الشافعى**، يا يونس رأيت بغداد؟ قلت لا، قال مارأيت الدنيا ولارأيت الناس! وقد ذمّ **العراق** جماعة، منهم **عمر بن عبد العزيز وكعب الأحبار**، فروينا عن عمر أنه قال لمولى له أين تسكن؟ قال **العراق**، قال ماتصنع هناك؟ بلغنى أنه مامِن أحد سكن **العراق** إلاّ قُيّض له قرينٌ من البلاء. وذكر كعب الأحبار **العراق** يوما فقال: فيه تسعة أعشار الشرّ، وفيه الداء العُضال. ومن سكن بلداً كثير المنكر ظاهر المعاصى فكان منزعجاً فيه غير مطمئن إليه، يرغب إلى الله عز وجل فى إخراجه منه لحُسن اختياره له، وكان مضطراً فى المقام فيه لعيْلةٍ ثقيلةٍ أو قلة ذات يد، حقيقةً لا يستطيع حيلة فى الخروج ولا يعرف طريقاً هو على يقين من سلامة دينه فيه، فإنه معذور عند الله لحُسن تفضّلٍ من الله، وهو أقرب إلى العفو والسلامة

ممن اغتبط بمقامه واطمأن ورضى بحاله، أو كان مقامه على هوى، أو لاختلاف أسباب الفتنة والدنيا. قال الله تعالى ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. فى التفسير إذا كنت فى بلد يُعمل فيه بالمعاصى فتحوّل منه إلى غيره. وقيل إذا كان العبد فى بلد من يعمل فيه بالمنكر والمعاصى أضعف أو أقل من أهل الدين والمعروف ثم لم ينكر ذلك فقد وجب الخروج منه. ثم قال عز وجل فى قوم من المستضعفين عذّرهم وأرجى إلى العفو أمرهم: والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها. وقال تعالى فى تمام وصفهم واستثنائهم من غيرهم لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم.

ولايصح الرضا إلاّ بالعصمة من جميع الهوى. وأوّل الرضا **القناعة**. وقال بعض أهل المعرفة لايكون العبد قانعا حتى لو جاء إلى باب منزله جميع مايرغب فيه أهل الدنيا من الاتساع والنعمة فعُرض عليه، لم ينظر إلى ذلك ولم يفتح بابه قناعة منه بحاله. **والعصمة** حال الراضى عن الله عز وجل، وهى ظاهر الرحمة، والرحْمة أول الرضا من الله تعالى. قال الله سبحانه وتعالى إن النفس لأمّارة بالسوء إلاّ مارحم ربى. وقال تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ مَن رحم. فالعصمة من الله لعبده دليل على الرحمة منه، ثم تدخله الرحمة فى مقام المحبة وهى رحمة المحبوبين، ثم ترفعه المحبة إلى الرضا فتكون المحبة مقامه عن شهادة محبوب، ويكون الرضا حاله فى جميع تصريف البقية والمطلوب. وهذا آخر كتاب الرضا.

ذكر أحكام المحبة ووصف أهلها وهو المقام التاسع من مقامات اليقين

المحبة من أعلى مقامات العارفين، وهى إيثار من الله تعالى لعباده المخلصين، ومعها نهاية الفضل العظيم. قال الله جلّت قدرته يحبهم ويحبونه، ثم قال تعالى ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء. وهذا الخبر متصل بالابتداء فى المعنى، لأن الله تعالى وصف المؤمنين المحبين بفضله عليهم، وما اعترض بينهما من الكلام فهو نعت المحبوبين. وروى عن **النبىّ صلّى الله عليه وسلم** ما كان الله ليعذب حبيبه بالنار. وقال الله عز وجل مصداق قول نبيه عليه السلام، رداً علَى مَن ادعى محبته، احتجاجاً عليهم، قل فَلِمَ يعذّبكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممن خلق. وقال **زيد بن أسلم** إنّ الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول اصنْع ماشئت فقد غفرت لك. وروينا عن إسمعيل بن أبآن عن أنس قال قال **رسول الله صلى الله عليه وسلم** إذا أحب الله عبداً لم يُضره ذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. ثم تلا إنّ الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين. وقد **اشترط الله للمحبة غفران الذنوب** بقوله تعالى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم. فكل مؤمن بالله فهو محب لله، ولكن محبته على قدر إيمانه، وكشْف مشاهدته

وتجلّى المحبوب له على وصف من أوصافه. دليل ذلك استجابتهم له بالتوحيد والتزام أمره وتسليم حكمه، ثم تفاوتهم في مشاهدات التوحيد وفي دوام الالتزام للأوامر وفي تسليم الأحكام، فليس ذلك يكون إلاّ عن محبة وإنْ تفاوت المحبون على حسب أقسامهم من المحبوب. وليس يقصر عن المحبة صغير، كما لا يصغر عن المعرفة من عرف، ولايكبر عن التوبة كبير ولو كان على كل العلوم قد أوقف، لأن الله تعالى وصف المؤمنين بشدة الحب له فقال تعالى والذين آمنوا أشد حبا للّه. وفي قوله أشد دليل على تفاوتهم في المحبة، لأن المعنى أشد فأشد ولم يقل شديد، والحب للّه، فأشبه هذا الخطاب قوله تعالى إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم، فدلّ على تفاوتهم في الإكرام على قدر تفاضلهم في التقوى، ولم يقل إنّ الكرام المتقون.

ورويناه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إنّ اللّه يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب، فالمؤمنون متزايدون في الحب للّه عز وجل عن تزايدهم في المعرفة به والمشاهدة له. وقد جعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم **الحب للّه من شرط الإيمان،** قال أنْ يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما. وفي حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون اللّهِ ورسوله أحب إليه مما سواهما. وفي خبر آخر أشد توكيداً وأبلغ من هذين قوله واللّه لا يؤمن العبد حتى أكونَ أحَبّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين. وفي خبر آخر ومن نفسك. وقد أمر صلّى اللّه عليه وسلم بالمحبة للّه فيما شرعه من الأحكام، فقال أحبوّا اللّه لما أسدى إليكم من نعمه، وأحبوني لحب اللّه، فدلّ ذلك على **فرض الحب للّه** وإنْ تفاضل المؤمنون في نهايات فضائله. ومن أفضل ما أسدى إلينا من نعمه المعرفة به، **فأفضل الحب له** ما كان عن المشاهدة، والمحبون للّه على **مراتب من المحبة** بعضها أعلى من بعض، **فأشدّهم حبا للّه** أحسنهم تخلّقا بأخلاقه، مثل العلم والحلم والعفو وحُسن الخُلق والستر على الخلْق، وأعرفهم بمعاني صفاته، وأتركهم منازعة له في معاني الصفات كي لا يشركوه فيها، مثل الكِبْر والحمد وحب المدح وحب الغنى والعز وطلب الذكر، **ثم أشدهم حبا لرسوله** إذ كان حبيب الحبيب، وأتبعهم لآثاره أشبعهم هَدْياً لشمائله. وقد روى أن رجلا قال يا رسول اللّه إني أحبك، فقال استعدّ للفقر، فقال إني أحب اللّه، فقال استعدّ للبلاء. والفرق بينهما أن البلاء من أخلاق المُبلِي وهو اللّه تعالى المُبتلِي، فلمّا ذكر محبته أخبره بالبلاء ليصبر على أخلاقه، كما قال تعالى ولربك فاصبر، فدلّ على أحكامه وبلائه. والفقر من أوصاف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فلمّا ذكر محبته دلّه على اتباع أوصافه ليقتفي آثاره، لقوله عليه السلام أحْيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في جُملة المساكين.

ومن علامة المحبة كثرة ذكر الحبيب وهو دليل محبة المولى لعبده ، وهو من أفضل مننه على خلقه . وفى الخبر أن لله فى كل يوم صدقة يمن بها على خلقه ، وما تصدق على عبد بصدقة أفضل من أن يلهمه ذكره . وفى حديث سفيان عن مالك بن معول قيل يا رسول الله أى الأعمال أفضل ، قال إجتناب المحارم ، ولا يزال فوك رطبا من ذكر الله . وقد أمر النبى ﷺ بكثرة الذكر لله ، كما أمر بمحبة الله لأن الذكر مقتضى المحبة ، فقال أكثر من ذكر الله حتى يقول الناس إنك مجنون . وقد روينا أكثروا من ذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم مراءون . وفى حديث أبى سلمة المدنى عن أبيه عن جده أتانا رسول الله ﷺ ذات يوم إلى مسجد قباء فذكر حديثا فيه طول ، قال فى آخره من تواضع لله رفعه ومن تكبر وضعه ، ومن أكثر ذكر الله أحبه الله . وقد أخبر أن الذاكرين هم السابقون المفردون ، ورفعهم إلى مقام النبوة فى وضع الوزر ورفع الذكر ، أن كان الذكر موجب الحب فى قوله سيروا سبق المفردون ، قيل من المفردون ، قال المستهترون بذكر الله وضع الذكر عنهم أوزارهم يردون القيامة خفافا .

ومن أعلام المحبة حب لقاء الحبيب على العيان ، والكشف فى دار السلام ومحل القرب ، وهو الإشتياق إلى الموت لأنه مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المعاينة . وفى الحديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . وقال حذيفة عند الموت ـ حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم . وقال بعض السلف ما من خصلة أحب إلى الله تكون فى العبد بعد حب لقائه من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله . وقد شرط الله لحقيقة الصدق القتل فى سبيله وأخبر أنه يحب قتل محبوبه فى قوله تعالى إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، بعد قوله تقريرا لهم لم تقولون ما لا تفعلون ، حيث قالوا إنا نحب الله ، فجعل القتل محنة محبته وعلامة أخذ مال محبوبه ونفسه، إذ يقول تعالى يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون. وفى وصية أبى بكر لعمر رضى الله عنهما الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء ، والباطل خفيف وهو مع خفته وبيئ ، فإن حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك ، وإن ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه ، وكان الثورى وبشر بن الحارث يقولان لايكره الموت إلا مريب، وهو كما قالا لأن الحبيب على كل حال لايكره لقاء الحبيب ، وهذا لايجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه، عندها يشتاق إليه مولاه فينزعج القلب لشوق الغيب فيحب لقاءه. وروى أن أبا حذيفة بن عتبة بن زمعة لما تبنى سالما مولاه عاتبته قريش فى ذلك

وقالوا أنكحتَ عقيلة من عقائل قريش بمولى، فقال والله لقد أنكحته إياها وإنى لأعلم أنه خير منها، فكان قوله أشد عليهم، قالوا وكيف وهى أختك وهو مولاك، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أراد أنْ ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى **سالم**. فمن الدليل أن من المؤمنين من يحب الله ببعض قلبه فيؤثره بعض الإيثار ويوجد فيه محبة الاعتبار، ومنهم من يحبه بكل قلبه فيؤثره على ما سواه فهذا عابده ومألوهه الذى لا معبود له ولا إله إلاّ إياه. وفيه دليل على أنهم على مقامات فى المحبة عن معانى مشاهدات الصفات ما بين البعض فى القلوب والكلية. وقد كان **نُعيْمان** يُؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجده فى معصية يرتكبها إلى أن أُتى به يوما فحدّه، فلعنه رجل وقال ما أكثر ما يُؤتَى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال **رسول الله صلى الله عليه وسلم** لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله. فلم يخرجه من **المحبة مع المخالفة**.

وقد قال بعض العارفين إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب، يعنى على الفؤاد، كان المؤمن يحب الله حبا **متوسطا**، فإذا دخل الإيمان باطن القلب فكان فى سويدائه أحبه **الحب البالغ**، ومحبة ذلك أنْ ينظر فإنْ كان يؤثر الله على جميع هواه ويُغلّب محبته على هوى العبد حتى تصير محبة الله هى محبة العبد من كل شىء فهو محب لله حقا، كما أنه مؤمن به حقا. وإنْ رأيت قلبك دون ذلك فلك من المحبة بقدر ذلك. **فأدلّ علامات المحبة الإيثار للمحبوب** على ذخائر القلوب، ولذلك وصف الله المحبين بالإيثار، ووصفه العارفون بذلك. فقال تعالى فى وصفه المحبين يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة، ثم قال تعالى ويؤثرون على أنفسهم، وقال فى وصفه تالله لقد آثرك الله علينا. وقال بعض العلماء إن ظاهر القلب محل الإسلام، وإنّ باطنه مكان الإيمان، فمن ههنا تفاوت المحبون فى المحبة لفضل الإيمان على الإسلام، وفضل الباطن على الظاهر. وفرّق بعض علمائنا البصريين بين **القلب والفؤاد**، فقال الفؤاد مقدم القلب وما استدق منه، والقلب أصله وما اتسع منه. وقال مرة فى القلب تجويفان، فالتجويف الظاهر هو الفؤاد وهو مكان العقل، والتجويف الباطن هو القلب وفيه السمع والبصر، وعنه يكون الفهم والمشاهدة وهو محل الإيمان. وقد قال الله كتب فى قلوبهم الإيمان. وقال إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. **فمحبة الإسلام** مفترضة على الخلق وهى متصلة بأداء الفرائض واجتناب المحارم طاعةً لله ومحبةً له، فأما **محبة المقرّبين** فعن مشاهدة معانى الصفات بعد معرفة أخلاق الذات، وهى مخصوصة

بمخصوصين. والأصل فى هذا أن المحبة إذا كانت عن المعرفة فإن المعرفة عموم الخصوص، فلخصوص العارفين خاصة المحبة، ولعمومهم عموم المحبة.

ويروى فى الأخبار السالفة أن **زليخا** لمّا آمنت وتزوّج بها **يوسف عليه السلام**، انفردت عنه وتخلّت للعبادة وانقطعت، فكان يدعوها إلى فراشه نهاراً فتدافعه إلى الليل، فإذا دعاها ليلاً سوّفته نهاراً. فقالت يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه، فأمّا إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا، حتى قال لها فإن الله أمرنى بذلك وأخبرنى أنه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيّين، فقالت أمّا إذا كان الله أمرك بذلك وجعلنى طريقا إليه فطاعةٌ لأمر الله، فعندها سكنت إليه. وقال بعض العلماء بالله إذا تمّ التوحيد تمّت المحبة، وإذا جاءت المحبة تم التوكل فتمّ إيمانه وخلص فرضه، وسمّى ذلك يقينا. وقال **الفضيل بن عياض** فى فرض المحبة إذا قيل لك تحب الله فاسكت، فإنْ قلت لا كفرت، وإن قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين، فاحذر المَقت. وقال بعض علمائنا ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة، ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادّعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشىء من ذلك. وقال عالم فوقّه، كل أهل المقامات يُرجى أن يُعفى عنهم ويُسمح لهم إلاّ مَن ادّعى المعرفة والمحبة فإنهم يطالبون بكل شعرة مطالبة، وبكل حركة وسكون، وكل نظرة وخطْرة لله وفى الله ومع الله.

واعلم أنّ **المحبة من الله لعبده** ليست كمحبة الخلق، إذ محبة الخلق تكون حادثة لإحَد سبع معان، لطبعٍ، أو لجنسٍ، أو لنفعٍ، أو لوصفٍ، أو لهوى، أو لرحمٍ ماسة، أو لتقربٍ بذلك إلى الله، فهذه حدود الشىء الذى يشبهه الشىء، والله يتعالى عن جميع ذلك، لا يوصف بشىء منه، إذ ليس كمثله شىء فى كل شىء، ولأن هذه أسباب مُحدَثة فى الخلق لمعانٍ حادثة ومتولدة من المحبين لأسباب عليهم داخلة، وقد تتغير الأوقات وتتقلب لانقلاب الأوصاف. ومحبة الله سابقة للأسباب عن كلمته الحسنى، قديمة قبل الحادثات عن عنايته العليا، لا تتغير أبدا ولا تتقلب لأجل ما بدا، لقوله تعالى إن الذين سبقت لهم منى الحسنى، يعنى الكلمة الحسنى، وقيل المنزلة الحسنى، فلا يجوز أن يسبقها سابق منهم بل قد سبقت كل سابقة تكون، كقوله تعالى ولقد آتينا إبراهيم رشده من **قبل** وكنا به عالمين، فكذلك قال هو سمّاكم المسلمين من **قبل**، وقال تعالى لهم قدَم صدق عند ربهم، وقال تعالى فى آخر آياتهم فى مقعد صدق عند

مليك مقتدر، ولا يصلح أن يكون قبل قدمه الصدق منهم قدم، كما لا يصلح أن يكون قبل علمه بهم منهم عمل بهم منهم، لأن عمله سبق المعلوم، ومحبته لأوليائه سبقت محبتهم إياه ومعاملتهم له. ثم هي مع ذلك خاصية حُكم من أحكامه، ومزيد من فضْل أقسامه، وتتمة من سابغ إنعامه، خالصة لمخلصين، ليس لذلك سبب معقول، ولا لأجل عمل معمول، بل يجرى مجرى سرّ القدر ولطف القادر، وإفشاء سر القدر كفر، ولا يعلمه إلاّ نبى أو صدّيق، ولا يطّلع عليه إلاّ من يظهره، وما ظهر فى الأخبار من الأسباب فإنما هو طريق الأحباب ومقامات أهل القُرب من أولى الالباب، وإنما تستبين المحبة وتظهر للعبد لحُسن توفيقه وكلاءة عصمته، ولطائف تعليمه غرائب علمه، وخفايا لطفه فى سرعة ردهم إليه فى كل شىء، ووقوفهم عنده ونظرهم إليه دون كل شىء، وقربه منهم أقرب من كل شىء، وكثرة استعمالهم لحسن مرضاته وكشف اطلاعهم على معانى صفاته، ولطيف تعريفه لهم مكنون أسراره، وفتوحه لأفكارهم من بواطن إنعامه، واستخراجه منهم خالص شكره وحقيقة ذكره، فهذه طرقات المحبين له عن كشوف اطّلاعه لهم من عين اليقين. يقال إذا أحب اللّه عبداً استخدمه، فإذا استخدمه اقتطعه. وقيل إذا أحب اللّه عبداً نظر إليه، وإذا نظر اللّه إلى عبد لم يعذبه. وروى عن بعض هذا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

وروينا فى الخبر إذا أحب اللّه عبداً ابتلاه، وإذا أحبّه الحب البالغ اقتناه. قيل وما اقتناؤه، قيل لم يترك له أهلا ولا مالاً. فالمحبة مزيد إيثار من المحب الأوّل وهو اللّه لعبده، وأحكام تظهر من المحبوب وهو العبد فى حُسن معاملته أو حقيقة علم يهبه له، كما قال إخوة يوسف حين عرفوا محبة اللّه ليوسف عليهم – تاللّه لقد آثرك اللّه علينا، ثم قالوا وإنْ كنّا لخاطئين، فذكروا سالف خطاياهم وأنه آثره بما لم يؤثرهم به، فقال اللّه تعالى فى وصفه إياه قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليهم. وقال فى موهبته له آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين، فذكر ما سلف من إحسانه لمّا آثره به. وقالت الرسل إنْ نحن إلاّ بشرمثلكم ولكن اللّه يمنّ على من يشاء من عباده. وقال اللّه تعالى يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس. وفى الخبر إذا أحب اللّه عبداً ابتلاه يعنى اختبره، فإنْ صبر اجتباه، وإنْ رضى اصطفاه. وقال بعض العلماء إذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد أن يُصافيك. وقال بعض المريدين لأستاذه قد طولعت بشىء من المحبة، فقال يا بنى هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه، فقال لا، فقال فلا تطمع فى المحبة فإنه لا يعطيها عبداً حتى يبلوه.

ومن **دلائل المحبة** حب كلام الحبيب وتكريره على الأسماع والقلوب، وحدثونا عن بعض المريدين قال كنت وجدت حلاوة المناجاة فى سوء الإرادة فأدمنت على قراءة القرآن ليلا ونهارا، ثم لحقتنى فترة فانقطعت عن التلاوة، قال فسمعت قائلا يقول لى فى المنام إنْ كنت تزعم أنك تحبنى فلِمَ جفوت كتابى؟ أما ترى ما فيه من لطيف عتابى؟ قال فانتبهت وقد أُشرب فى قلبى محبة القرآن فعاودت إلى حالى الأوّل. وقد قال بعض العارفين لا يكون العبد مريداً حتى يجد فى القرآن كل ما يريد. ومن **علامة حب القرآن حب أهل القرآن وكثرة تلاوته** آناء الليل وأطراف النهار. وقال **سهل بن عبد الله** علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب القرآن وحب الله حب النبى عليه السلام، وعلامة حب النبى عليه السلام حب السنّة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلاّ زاداً وبلّغة إلى الآخرة. وقال تعالى وهو أحسن القائلين يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه، أى لا يرتدّون لأنهم أبدال من المرتدّين، ولا ينبغى أن يكونوا أمثالهم كما قال يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.

ومن **علامة محبة المولى** تقديم أمور الآخرة من كل ما يقرّب من الحبيب على أمور الدنيا من كل ما تهوى النفس، والمبادرة بأوامر المحبوب وبواديه قبل عاجل حظوظ النفس، ثم إيثار محبته على هواك، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أمرك به ونهاك، والذل لأوليائه من العلماء به والعاملين، ثم التعزز على أبناء الدنيا الموصوفين بها المؤثرين لها، كما قيل **لابن المبارك ما التواضع**، فقال التكبر على المتكبرين. وقال **الفتح بن شحرف** رأيت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى النوم، فقلت أنبئنى بحرفٍ خير، فقال ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء رجاء ثواب الله، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقةً بالله. وإنما وصف الله أحباءه بالذل للأولياء والعز على الأعداء، لأنه يصف من يحبه بأحسن الأوصاف، فالذل للحبيب حُسن والعز على العدو فى حُسنه مثل العز على الذليل، فلذلك وصف الله محبّه بالذل للولى وبالعز على العدو، وقُبح العز على الحبيب كقبح الذل للعدو، والله لا يصف أولياءه بقبيح.

ومن **علامات الحب المجاهدة** فى طريق المحبوب بالمال والنفس ليقرب منه ويبلغ مرضاته، ويقطع كل قاطع يقطعه عنه بالمسارعة إلى قربه كما قال تعالى وعَجِلْتُ إليك ربِ لترضى، وكما أمر حبيبه صلى الله عليه وسلم فى قوله وتبتل إليه تبتيلا، فيه معنيان، أحدهما

انقطعْ إليه انقطاعا عما سواه بالإخلاص له والأثرة على غيره، والأخرى اقطع كل ما قطعك عنه إليه، أى اقطع كل قاطع حتى تصل إليه، فهذان من أدل الدليل على المحبة. ثم أنْ لا يخاف فى حبه لومة لائم من الخلْق لامه على محبته أو على السلوك إليه بشق النفس وهجران الدار ورفض المال، ولا يرجو فى محبته مدح مادح، ولا يرغب فى حُسن ثناء العباد بإيثارك له على الأهل والمال، ثم وجود الأنس فى الوحدة، والروْح بالخَلوة، ولطف التملق فى المناجاة، والتنعّم بكلامه، والتنعم بمرّ أحكامه، ووَجَد حلاوة الخدمة ورؤية البلاء منه نعمة. وقال **ثابت البنّانى** كابدت القرآن عشرين سنة وتنعّمت به عشرين سنة.

ومن المحبة ترك السكون إلى غير محبوبه إذ هو السكن. وقال **أبو محمد** خيانة المحب عند اللّه أشد من معصية العامة، وهو أن يسكن إلى غير اللّه ويستأنس بسواه. وفى قصة برخ العبد الأسود الذى استسقى به **موسى عليه السلام**، أن اللّه تعالى قال لموسى إنّ برخا نِعْمَ العبد هو لى إلاّ أن فيه عيبا، قال يارب وما عيبه، قال يعجبه نسيم السَحَر فيسكن إليه، ومن أحبنى لم يسكن إلى شىء. فالسكون فى هذا الموضع الاستراحة إلى الشىء والأنس به، والسكون فى غير هذا الموضع النظر إلى الشىء والإدلال به والطمأنينة والقطع به. ذكرت هذه الحكاية لبعض أهل المعرفة فقال لم يُرد بهذا برخا إنما أراد به موسى، لأنه أقامه مقام المحبة فاستحى أن يواجهه بذلك فعرض له ببرخ، وكان هذا جوابا منه أني سألته لِمَ أخبرَ موسى بعيبه وهو يحبه دون أن يخبره هو بعيب نفسه، فأجاب بهذا. فالمقربون من المحبين إنما نعيمهم باللّه، وروحهم وراحتهم إليه من حيث كان بلاؤهم منه، فإذا وجدوا ذلك فى سواه كانت ذنوباً لهم عن غفلة أُدخلت عليهم ليتوبوا منها إليه فليغفر لهم. وروينا أن عابداً عبد اللّه فى غيضة دهراً، فنظر إلى طير قد عشش فى شجرة يأوى إليها ويصفر عندها، فقال لو حولّت مسجدى إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر، قال ففعل فأوحى اللّه إلى النبى عليه السلام قل لفلان العابد استأنستَ بمخلوق لأحطنّك درجة لا تنالها بشىء من عملك أبدا. فمن صدْق المحبة وخالصها الانقطاع إلى الحبيب بوجود الأنس به، ومصادفة الاستراحة والروْح عنده، بمحادثةٍ فى المجالسة ومناجاةٍ فى الخلوة، وذوق حلاوة النعيم فى ترك المخالفة لغلبة حب الموافقة. كما أنشدنى بعضهم عن بعض المحبين:

ألذ جميل الصبر عمّا ألذه * وأهوى لما أهواه تركاً فاتركه

وقال نظيره في مثله:

وأترك ما أهوى لمن قد هويته * وأرضى بما يرضى وإنْ سخطتْ نفسي

ثم الطمأنينة إلى الحبيب، وعكوف الهّم على القريب، ودوام النظر وسياحة الفكر، لأن من عرفه أحبه ومن أحبه نظر إليه، ومن نظر إليه عكف عليه. أمّا فهمت هذا من قوله تعالى وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا؟

ومن فرائض المحبة وفضائلها موافقة الحبيب فيما أحب حباً لله، وقال بعض علمائنا الإيثار يشهد للحب، فعلامة حبه إيثاره على نفسك. وقال ليس كل مَن عمل بطاعة الله صار حبيبا لله، ولكن كل من اجتنب ما نهاه عنه صار حبيبا، وهذا كما قال إن المحبة تستبين بترك المخالفة ولا تبين بكثرة الأعمال. كما قيل أعمال البرّ يعملها البَرّ والفاجر، والمعاصى لا يتركها إلاّ صدّيق، وقيل أفضل منازل الطاعات الصبر على الطاعات، وإنّ الصبر على الطاعة يُضاعَف إلى سبعين، والصبر عن المعصية يُضاعَف إلى سبعمائة، كأنه أقيم مقام المجاهد في سبيل الله لأنه يقع اختبارا من الله وضرورة من كلية النفس، فإذا ترك هواه فقد ترك نفسه، فأقل ما له في ذلك الزهد في الدنيا والجهاد في سبيل الله، ومن أجل ذلك ضوعفت حسناته إلى سبعمائة، ومن أجله ثبتت له المحبة بترك المخالفة، ولذلك قال الله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ففضّله على غيره بحبه. وأعجب ما سمعت في هذا أن **موسى** سأل **الخضر** بأي شيء بلغت هذه المنزلة، فقال بترك المعاصي كلها. وقد كان **أبو محمد** يقول قوله تعالى إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، قال عيش نفوسهم الفاني وهو عاجل حظوظهم من الشهوات.

ومن المحبة وجود الروْح بالشكوى إليه والاستراحة إلى علمه به وحده وإخلاص المعاملة لوجهه وحُسن الأدب فيها، وهو الإخفاء لها وكتم ما يحكم بها من الضيق والشدائد، وإظهار ما ينعم به من الألطاف والفوائد، وكثرة التفكر في نعمائه وخفي ألطافه وغرائب صنعه وعجائب قدرته، وحسن الثناء عليه في كل حال ونشر الآلاء منه والأفضال، والصبر على بلائه لأنه قد صار من أهله وأوليائه. وقد يعسف بأوليائه ويعنف بأحبابه لتمكنه منهم ومكانتهم عنده، ولعلمه أنهم لا يريدون به بدلا ولا يبغون عنه حوَلا، إذ ليست لهم راحة لسواه ولا بغية في سواه، ولا لهم همّة إلاّ إياه، كما قال بعض المحبين ويلي منك وويلي عليك، افزع منك وأشتاق

إليك، إنْ طلبتك أتعبتنى، وإنْ هربتُ منك طلبتنى، فليس لى معك راحة ولا لى فى غيرك استراحة؛ ثم المسارعة إلى ما ندب إليه من أنواع البرّ يوجد الحلاوة ويشرح الصدر كما جاء فى الأثر ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه؛ ثم الرضا بقضائه لأنه مستحسن لأفعاله؛ ثم اللهج بذكره ومحبة ومجالسة مَن يذكره، ودوام التشكى والحنين إليه، وخلو القلب من الخلْق، وسبْق النظر إلى الخالق فى كل شىء، وسرعة الرجوع إليه بكل شىء، ووجد الأنس به عند كل شىء، وكثرة الذكر له والتذكر بكل شىء.

ومن علامة المحبة طول التهجد. وروى عن الله سبحانه كذب من ادّعى محبتى إذا جنّه الليل نام عنى. ألاّ إنّ بعضهم جعل سهر الليل فى مقام بعينه. وإمام المحبين وسيد المحبوبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام مثل ما يقوم، وقد يكون نومه أكثر من قيامه، ولم يكن تأتى عليه ليلة ينام فيها. **ومن المحبة** الخروج إلى الحبيب من المال بالزهد فى الدنيا أو الخروج إليه من النفس بإيثار الحق على جميع الأهواء. وقال **الجنيد** علامة المحبة دوام النشاط والدؤب بشهوة، يفتر بدنه ولا يفتر قلبه. وقد قال بعض السلف العمل عن المحبة لا يداخله الفتور.

ومن المحبة التناصح بالحق والتواصى به والصبر على ذلك، كما وصف تعالى الصالحين فقال تعالى إن الإنسان لفى خُسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، لأن المحبين ليسوا كمن وصفهم فى قوله تعالى يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم، إنْ يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويُخرج أضغانكم، يعنى إنْ يسألكم محبوبكم من الأموال ويستقصى عليكم يُخرج أحقادكم عليه. وروينا فى مَقرأ ابن عباس ويخرج أضغانكم يعنى الأموال، فلو لم يدخل على هؤلاء الضعفاء إلا الشرك فى محبة الأموال والشغل بها عن ذكر ذى الجلال فخسروا ما ربح المخلصون من الأحباب، وفاتهم ما أدرك الصالحون من طوبى وحسن مآب. فالله تعالى يسأل أحبابه أموالهم وأنفسهم حتى لا يبقى لهم محبوب سواه، ولئلا يعبدوا إلاّ إيّاه، محبةً منه وكشفاً لمحبتهم واختباراً لصدقهم وصبْرهم، ولأنه جواد مَلِك لا يسأل إلاّ كلية الشىء وجملته، وهو غيور لا يحب أن يشركه سواه فى محبته، فلا يصبر عليه إلاّ مَن عرفه، ولا يحبه إلاّ من صبر عليه، ولا يرضى بحكمه فيه إلاّ من أيقن به. إلاّ أنه لا يسأل الجملة كلها إلاّ لمن أحبه المحبة الخاصة، وذلك كله من نظام حكمته. وقيل لبعض

المحبوبين وكان قد بذل المجهود فى بذل ماله ونفسه حتى لم يبق عليه منها بقية، ما كان سبب حالك هذه من المحبة، فقال كلمة سمعتها مِن خَلْق لخلْق عملت بى هذا البلاء، قيل وما هى، قال سمعت محبا قد خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبى كله وأنت معرض عنى بوجهك كله، فقال له المحبوب إن كنتَ تحبنى فأى شىء تنفق علىّ، فقال يا سيدى أُملّكُكَ ما أملك ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك، فقلت هذا خَلْقٌ لخلْق، وعبْدٌ لعبد، فكيف بخلق لخالق وعبدٍ لمعبود، فكان ذلك سببه، فقد دخلت الأموال فى الأنفس تحت الشراء وقد باعوه نفوسهم فما دونها لمحبتهم إياه، وقد أشتراها منهم لنفاستها عنده، فعلامة محبته لها اشتراؤها منهم، وعلامة شرائها طيّها عنهم، فإذا طواها فلم يكن عليهم منها بقية هوى فى سواه فقد اشتراها.

واعلم أن **آفات النفوس** هى أدواؤها، وطُهْرة النفوس من الأدواء هو داؤها، كما قال تعالى قد أفلح من زكّاها، فإذا صفّاها من الآفات فقد صافاها، وإذا امتحنها بالتمحيص من الشهوات للتقوى فقد اشتراها. ولكل داء من النفس دواء قدر صغره وعِظَمه، فضع الدواء على الداء من حيث دخل عليك بإدخال ضده عليه، أو بقطع أصله عنه، فعلامة النفوس المشتراة وهى المحبوبة المجتباة **التوبة إلى الحبيب** بالخدمة له، وكثرة الحمد له بالسياحة إليه، ودوام الصلاة بحُسن الأدب بين يديه، والأمر بما يحب والنهى عما يكره، والحفظ بحدوده التى حدّها، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، ومن يتب فأولئك هم الظالمون، إن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين، والله يحب المتقين.

وقال **رسول الله صلى الله عليه وسلم** من أراد أن يحبه الله فليزهد فى الدنيا فلا يطمعن طامع فى محبة الله قبل الزهد فى الدنيا، فهذا جملة أوصاف المحبين. ومن المحبة أن لا يطلب خدمة سواه، وأن يجتمع فى محبته همّه وهواه، ولا يهوى إلاّ ما فيه رضا المولى، ولا يقضى عليه مولاه إلاّ بما يهواه. وروى عن بعض العلماء إذا رأيته يوحشك مِن خلْقه فاعلم أنه يريد أن يؤنسك به. وفيما نقل **وهب** من الزبور ومَن أظلم ممن عبدنى لجّنةٍ أو نار. لو لم أخلق جنة ولا نار ألم أكن أهلاً أن أطا ع أو كما قال. وفى أخبار **عيسى** إذا رأيت التقىّ مشغوفا فى طلب الرب فقد ألهاه ذلك عمّا سواه. وعن **عيسى عليه السلام** المحب لله يحب النَصَب. وروى عنه أنه مرّ على طائفة من العبّاد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشِنان البالية، فقال ما

أنتم، فقالوا نحن عبّاد، قال لأى شىء تعبدتم، قالوا خوّفنا الله من النار فخفنا منها، فقال حقٌ على الله أن يؤمّنكم ما خفتم. ثم جاوزهم فمر بآخرين أشد عبادة منهم، فقال لأى شىء تعبّدتم، قالوا شوّقنا الله إلى الجنان وما أعدّ فيها لأوليائه فنحن نرجو ذلك، فقال حقٌ على الله أن يعطيكم ما رجوتم. ثم جاوزهم فمرّ بآخرين يتعبّدون، فقال ما أنتم، قالوا نحن المحبّون لله لم نعبده خوْفاً من نار ولا شوقا إلى جنة، ولكن حباً له وتعظيماً لجلاله، فقال أنتم أولياء الله حقا، معكم أُمرت أن أقيم، فأقام بين أظهرهم. وفى لفظ آخر أنه قال للأوّلين مخلوقا خفتم ومخلوقا أحببتم. وقال لهؤلاء أنتم المقربون. وممن روى عنه هذا القول وأقيم فى هذا المقام جماعة من التابعين بإحسان منهم **أبو حازم المدنى**، كان يقول إنى لأستحي من ربى أن أعبده خوفاً من العقاب فأكون مثل العبد السوء إن لم يُعط أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبةً له. وقد روينا معنى هذا الكلام عن **النبى صلى الله عليه وسلم** لا يكون أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء إن لم يُعط أجراً لم يعمل. وقال بعض إخوان **معروف** له أخبرنا عنك أى شىء أهاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلْق، فسكت فقلنا ذكر الموت ؟ فقال وأى شىء الموت! قلنا ذكر القبر والبرزخ ؟ فقال وأى شىء القبر! فقلنا خوف النار ورجاء الجنة ؟ فقال وأى شىء هذا! إنّ واحداً بيده هذا كله إنْ أحببته أنساك جميع ذلك، وإنْ كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا. وحُدِّثت عن **علىّ بن الموفق** قال رأيتُ فى النوم كأنى أُدْخلت الجنة فرأيت رجلا فى سرادق العرش قد شخص ببصره ينظر إلى الله عز وجل لا يطرف، فقلت لرضوان من هذا، فقال **معروف الكرخى**، عبَدَ الله لا خوفاً من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حباً له، فقد أباحه النظر إليه إلى يوم القيامة! كما قال **أبو سليمان الدارانى** من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غداً مشغول بنفسه، ومن كان اليوم مشغولاً بربه فهو غدا مشغول بربه.

وقد روينا عن **رابعة العدوية** وكانت إحدى المحبين، وكان **الثورى** يقعد بين يديّها ويقول علّمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة، وكانت تقول نِعْمَ الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا. وقد كان رحمه الله زاهداً فى الدنيا عالماً إلاّ انها كانت تجعل إيثار كُتب الحديث والإقبال على الناس من أبواب الدنيا، وقال لها الثورى يوماً لكل عبد شريطة، ولكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك، فقالت ما عبدت الله خوفا من الله فأكون كالأمة السوء، إن خافت عملت، ولا حباً للجنة فأكون كأمَة السوء إنْ أُعطيت عملت، ولكنى عبدته حباً له وشوقا إليه. وروى عنها

حمّاد بن زيد أنها قالت إنى لأستحيى أن أسأل الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها. وكان هذا جواباً لأنه قال لها اذكرى لى حوائجك حتى أقضيها. وخطبها **عبد الواحد بن زيد** فقالت يا شهوانى اطلب شهوانية مثلك، أى شىء رأيت فىّ من آلة الشهوة!! وخطبها **محمد بن سليمان أمير البصرة** على مائة ألف، وقال لها غَلّة عشرة آلاف فى كل شهر أدفعها إليك، فكتبت إليه ما يسرنى أنك لى عبد وأن كل ما تملكه لى وأنك شغلتنى عن الله طَرفة عين. وقد قالت فى معنى المحبة أبياتا تحتاج إلى شرح حملها عنها أهل البصرة وغيرهم، منهم جعفر بن سليمان الضبعي وسفيان الثورى وحمّاد بن زيد وعبد الوارث بن زيد قالت:

أحبك حبّين حبّ الهـــــوى	*	وحباً لأنك أهل لـذاكـــــا
فأما الذى هو حب الهـــوى	*	فشُغلى بذكرك عمّن سواكا
وأما الذى أنت أهل لـــــــه	*	فكشفُك للحُجب حتى أراكـا
فلا الحمـد فى ذا ولا ذاك لى	*	ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

فأما قولها **حب الهوى** وقولها **أنت أهل له** وتفريقها بين الحبّين، فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ويخبره من لم يشهده، وفى تسميته ونعتٍ وصفْه إنكارٌ من ذوى العقول ممن لا ذوق له ولا قدَم فيه، ولكنا نحمل ذلك وندل عليه مَنْ عرفه. يعنى حب الهوى أنى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة عين اليقين لا عن خبرٍ وسمعٍ تصديق من طريق النعَم والإحسان، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك علىّ، ولكن محبتى من طريق العيان فقرّبتُ منك، وهربتُ إليك، واشتغلتُ بك، وانقطعتُ عمّن سواك، وقد كانت لى قبل ذلك أهواء متفرقة، فلما رأيتُك اجتمعتْ كلُّها فصرتَ أنت كلية القلب وجملة المحبة، فأنسيتنى ما سواك، ثم إنى مع ذلك لا أستحق على هذا الحب، ولا استأهل أن أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان، لأن حبى لك لا يوجب عليك جزاءً عليه، بل يوجب علىّ كل شىء، لك منى كل شىء مما لا أطيقه ولا أقوم بحقك فيه أبدا، إذ كنت قد أحببتك فلزمنى خوف التقصير ووجب علىّ الحياء من قلة الوفاء، فتفضلت علىّ بفضل كرمك وما أنت له أهل من تفضلك، فأريتنى وجهك عندك آخرا كما أريتنيه اليوم عندى أولا، فلك الحمد على ما تفضلّت به فى ذا عندى فى الدنيا، ولك الحمد على ما تفضلّت به فى ذا عندك فى الآخرة، ولا حمد لى فى ذاهـهنا ولا حمد لى فى ذاك هناك إذ كنت إنما وصلت إليهما بك، فأنت المحمود فيهما لأنك

وصلّتنى بهما. فهذا الذى فسّرناه هو وجْد المحبين المحقين ظناً بقولها ذلك، إذ كان لها فى المحبة قدَم صدْق والله أعلم. ولا يسعنا أن نشرح فى كتابٍ كشف حقيقة ما أجملناه، ولا أنْ نفصّل وصف ما ذكرناه، ومَن لم يكن من المحبين كذلك، حتى يدل بمحبته ويقتضى الجزاء عليها من محبوبه، ويوجب على حبيبه شيأ لأجل محبته، فهو مخدوع بالمحبة ومحجوب بالنظر إليها، وإنما ذاك مقام الرجاء الذى ضده الخوف، وليس من المحبة فى شىء ولا تصح المحبة إلا بخوف المقت فى المحبة. وقال بعض العارفين ما عرفه مَن ظن أنه عرفه، ولا أحبّه من توهم أنه أحبه.

ذكر مخاوف المحبين ومقاماتهم فى الخوف

وللمحب **سبع مخاوف** ليست بشىء من أهل المقامات، بعضها أشد من بعض، أولها **خوف الإعراض**، وأشدّ منه **خوف الحجاب**، وأعظم من هذا **خوف البُعد**. وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شيّب الحبيب إذ سمع المحبوب يقول ألا بُعداً لثمود، ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمود، فذِكْرُ البُعد فى البُعد يُشيّب أهل القرب فى القرب، ثم **خوفُ السلب للمريد**، وهذا يكون للخصوص فى الإظهار والاختيار منهم فيُسلَبون حقيقة ذلك عقوبة لهم،ثم **خوف الفوْت** الذى لا دَرْك له، وأشدّ من الفوت **خوف السلُو**، وهذا أخوف ما يخافون، وأشد من هذا كله **خوف الاستبدال** يقع عن نهاية المقت من المحبوب وغاية البغض منه والبعد والسلو مقدمة هذا المقام، والإعراض والحجاب، بداية ذلك كله، وثم **خوف ثامن** هو وصف من المحبة لأنه من شوق الحبيب إلى المحب، وهو من معنى قول **رابعة** آنفا حب الهوى، ومن معنى قول **عائشة رضى الله عنها** للنبى صلى الله عليه وسلم أرى ربك يسارع إلى هواك. ومَن صدَر عن مقام محب بعد وروده رُفع إلى هذا المقام لأنه فى مقام محبوب لجميل مشاهدات اليقين. وقد كان **الجنيد** رحمه الله ينشد هذين البيتين كثيرا:

ومن بعد هذا ما تدق صفاتـه * وما كتـمه أحظـى لديـه وأعـدل
ألا إن للرحمن سراً يُسـره * إلى أهله فى السّر والستر أجمل

وقد ذكّرنا معناه بعض المحبوبين فى كلام منظوم فى بيتين وهما:

فمنك بدا حب بعز تمازجـا * بماء وصالٍ كنت أنت وصلته
ظهرت لمن أبقيت بعد فـنائه * فكان بلا كـون لأنـك كـنته

وقال بعض العلماء من عرف الله من طريق المحبة بغير خوف هلك بالبسط والإدلال، ومن عرفه من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبُعد والاستيحاش، ومن عرف الله من طريق المحبة والخوف أحبه الله فقرّبه وعلّمه ومكّنه. وليس العجب من خوف الخائفين إذ لا يعرفون إلا الصفات المخوفات والأفعال القاصمات، وإنما العجب من خوف المحبين مع ما عرفوا من أخلاقه وحنانه، وشهدوا من تعطفه وألطافه ما لم يعرف الخائفون. ثم هم مع حبهم يهابونه وعلى أنفسهم به يحابونه، وفى فزعهم منه يشتاقون إليه، وفى بسطه لهم ينقبضون بين يديه، وفى إعزازه لهم يُذلّون له، لأن مَن قُبض فانقبض فليس بَعجب، ولكن من أُعز وأُكرم فتواضع وذلّ فهو العجب، فللمحبين الانقباض فى البسط وللخائفين الانقباض فى القبض، وللمحبين الذلّ مع العز والكرامة، وللخائفين الذلّة مع الهيبة والمهنة. فهدا يدل على أن معرفة المحبين به أعظم المعارف إذ كانت أوائل أحوالهم المخاوف، فكل محب لله خائف وليس كل خائف محبا. والمحبة لا ترفع الهيبة فلذلك كان محبا خائفاً لأن المحبوب مهوب، والخوف قد يقبض عن المحبة لشُغل الخائف بوصفه السالف.

وسئل بعض علمائنا البصريين الحب أفضل أو الحياء، فقال الحب الذى يورث من الخوف – الحياء أفضل منه – والحب الذى يورث الحياء منه أفضل من الحياء، وهو الشوق. وقال الجنيد المحبة نفسها قرب القلب من الله بالاستنارة والفرح، فأما حب تجلّى الصفات عن الأسماء الباطنة فإنا لم نذكر منها شيأً وإنما ذكرنا محبة الأخلاق عن الأسماء الظاهرة، ولا أحسب أنه يحل رسمه فى كتاب ولا كشفه لعموم الناس، لأنه من سر المحبة لا يُكاشَف به إلاّ مَن اطّلع عليه، ولا يتحدث به إلاّ من أُعطيه، وما رأيت أحداً رسمه فى كتاب لأنه لا يؤخذ من كتاب وإنما يُتلقى من أفواه العلماء ويُنسخ من قلب إلى قلب، وهو يشبه ما كتبنا عنه آنفا من الخوف الثامن الذى لم نصفه لمن لا يعرفه. ومما نقل فى الأثر من وصف مَن أُذيق منه ولم يُفصح بذكر وصفه أن بعض الصدّيقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله أن يرزقه ذرةً من محبته، ففعل ذلك فهام فى الجبال وحار عقله وولِه قلبه وبقى شاخصا سبعة أيام لا يَنتفع بشىء ولا يُنتفع به شىء، فسأل له الصديق ربه فقال يارب انقصه من الذرة نصفها، فأوحى الله إليه إنما أعْطيناه جزأ من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة، وذلك أن مائة ألف عبد

سألونى شيأً من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا فأخّرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته، فقسمت ذرةً من المحبة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك، فقلت سبحانك أحكم الحاكمين،أنقصتْه مما أُعطيته، قال فأذهب اللّه عنه جملة ذلك الجزء وبقى فيه عُشر معشاره، وهو جزء من ألف جزء، فاعتدل خوفه وحبه وعلمُه ورجاؤه، وصار كسائر العارفين.

ومن علم المحبة **سهر الليل** بمناجاة الجليل، **والحنين إلى الغروب** شوقاً إلى الخلوة بالمحبوب، **ومناجاة القلب** سرائر الوَجْد، **ومطالعة الغيب**. **والمناجاة** عند أهل المصافاة إنما هى بالقلوب.والمناجاة دليل رؤية القلب وشاهد وجود الأنس. وفيما أُخبرنا عن اللّه تعالى أنه قال كذب من ادّعى محبتى إذا جنّه الليل نام عنى. أليس كل حبيب يحب الخلوة بحبيبه، فها أنا ذا قريب من أحبابى، أسمع سرهم ونجواهم وأشهد حنينهم وشكواهم. وروينا عن بعض العلماء القدماء أن اللّه عز وجل أوحى إلى بعض الصدّيقين أنّ لى عباداً من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلىّ وأشتاق إليهم، يذكرونى وأذكرهم، وينظرون إلىّ وأنظر إليهم، فإنْ حذوت طريقهم أحببتك، وإنْ عدلت عنهم مقتك، قال يارب وما علامتهم، قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه، ويحنّون إلى غروب الشمس كما تحنّ الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جنّهم الليل واختلط الظلام وفُرشت الفُرُش ونُصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا لى أقدامهم وافترشوا إلىّ وجوههم وناجونى بكلامى وتملّقوا لى بأنعامى، فبيْن صارخٍ وباكٍ، وبين متأوهٍ وشاك، وبين قائمٍ وقاعد، وبين راكع وساجد، بعينى ما يتحملون من أجلى، وبسمعى ما يشتكون من حبى، فأول ما أعطيهم ثلاثاً أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم، والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيهما فى موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة أُقبل بوجهى عليهم فترى من أقبلتُ بوجهى عليه لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه.

وأما **الشوق** فإنه مقام رفيع من مقامات المحبة، وليس يُبقِى الشوق للعبد راحة ولا نعيما فى غير مشوقه. والمشتاقون مقرّبون بما أُشهدوا من الشوق إليه، وهم المأمور بطلبهم الموجُود الحبيب عندهم مثوبة منه لهم لِمَا شوّقهم إليه فى قوله لموسى عليه السلام اطلبنى عند

المنكسرة قلوبهم من أجلي. هم المشتاقون من المحبين والله أعلم. وذلك أن الحبيب قَرُب منهم بوصفه تكرما، ففرحوا بقربه وعاشوا بمشاهدته ونعموا لحضورهم عنده، ثم احتجب عنهم غيْرةً على نفسه لعزه، فانكسرت قلوبهم لأجله، فاشتاقوا إلى ما عوّدهم منه، فثبتت لديه حُرمتهم فأمر أولياءه بطلبهم، وأوجد نفسه عندهم لمكانتهم عنده، ففرَحُ هؤلاء من المحبين بقُربه لا يوصف، وانكسارهم وحزنهم لأجله لا يُعرف. والله سبحانه قد يعرض عن محبيه تعززاً ليزعجهم الشوق إليه، ويقلقهم الأسف عليه. وحدثونا عن **إبراهيم بن أدهم** وكان أحد المشتاقين، وهو من أبدال هؤلاء الذين نتكلم في علمهم ونكشف طريقهم، وكانت له رحمه الله أماكن من المحبة رفيعة ومكاشفات في القُرب عليّة، قال قلت ذات يوم يارب إنْ كنت أعطيت أحدا من المحبين لك ما تُسْكِن به قلوبهم قبل لقائك فاعطنى ذلك فقد أضرّ بى القلق. قال فرأيت فى المنام أنه أوقفنى بين يدّيه فقال يا إبراهيم: أما استحيت منى أن تسألنى ما يسكن به قلبك قبل لقائى؟ وهل يسكن **المشتاق** قبل لقاء حبيبه، أم هل يستروْح **المحب** إلى غير مشوقه؟ قال قلت يارب، تُهتُ فى **حبك** فلم أدر ما أقول، فاغفر لى وعلّمنى كيف أقول. فقال قل اللّهم رُضنى بقضائك، وصبّرنى على بلائك، وأوزعنى شكر نعمائك.

وقد حدثونا بمعنى ذلك عن **أحمد بن عيسى الخرّاز**، وكان مشتهراً **بالسماع**، كثير الحركة والصعق عنده. ذكر بعض أصحاب **سهل** قال رأيته فى المنام بعد موته، فقلت ما فعل اللّه بك، فقال، وقفنى بيْن يديه فقال لى يا أحمد حملتَ وصفى على ليلى وسعدَى لولا أنى نظرت إليك فى مقام واحد أردتنى به خالصا لعذّبتك. قال وأقامنى من وراء حجاب الخوف فأرعدت وفزعت ما شاء اللّه، ثم أقامنى من وراء حجاب الرضا فقلت ياسيدى لم أجد من يحملنى غيرك فطرحت نفسى عليك، فقال صدقت من أين تجد من يحملك غيرى، قال وأمر بى إلى الجنة. – وفى هذا تخويف للسامعين على التشبيه، الحائدين عن سمع أهل الفهم والتنبيه، لأن **السماع علم لا يصلح إلاّ لأهل الصفاء**، فمن سمعه على كدر فذاك له محنة وضرر، ويدخل من الآفات على نقصان المشاهدات إذا سُمِع من قبَل **النغمة والصوت** ما يدخل علَى مَن نظر إلى الأيدى فى العطاء، لأن الصوت ظرف للمعانى بمنزلة اليد ظرفاً للأرزاق، فالناظر الموقن يأخذ رزقه من اليد ويترك النظر، والسامع المُحِق يأخذ المعانى من الصوت ولا يلتفت إلى التنغيم بها، فمن سمع على التشبيه والتمثيل ألْحَدَ، ومن سمع على الهوى والشهوة فهو

لَعِبٍ ولهو، ومن سمع باستخراج الفهم ومشاهدة العلم على معانى صفات حقٍ ونظرٍ وتطرقٍ ودليلٍ على آيات صدق كان سامعا على مزيد، وهذه طرائق أهل التوحيد. **وفى السماع حرام وحلال وشبهة**، فمن سمعه بنفسٍ بمشاهدة هوى وشهوة فهو حرام، ومن سمعه بمعقوله على صفة مُباحٍ من جارية وزوجة كان شبهة لدخول اللهو فيه، وفَعَل هذا بعض السلف من التابعين، ومن سمعه بقلب بمشاهدة معان تدلّه على الدليل وتُشهده طرقات الجليل فهذا مباح، ولا يصح إلاّ لأهله ممن كان له نصيب منه، ووجد فى قلبه مكاناً له لعبدٍ أقيم مقام حزن أو شوق، أو فى مقام خوف أو محبة، فيحركه السمع ويخرجه إلى الشهادة، فيكون ذلك مزيده من السمع. فأما من سمعه على نعمة، أو لأجل صوت، أو ليلهو به، أو ليستروْح إليه، فهذا لاعب لاهٍ لا يحل له إذ ليس مراداً به. وكان **الجنيد** يقول تنزّل الرحمة على هذه الطائفة فى **ثلاثة** مواطن: عند الطعام لأنهم لا يأكلون إلاّ عن فاقة، وعند المذاكرة لأنهم يتذاكرون أحوال النبيين ومقامات الصدّيقين، **وعند السماع لأنهم يسمعون بوْجد** ويشهدون حقا. وكان بعض العارفين يقول تعرف مواجيد أصحابنا فى **ثلاثة** أشياء: عند المسائل وعند الغضب **وعند السماع**. وإنما ذكرنا هذا لأنه كان طريقاً لبعض المحبين وحالاً لبعض المشتاقين، فإن أنكرناه مجملاً فقد أنكرنا على تسعين صادقا من خيار الأمة. **وقد دخل فيه غير أهله فأحالوه عن وجهته وعدلوا به عن قصده**، وقد كان بعض السامعين **يقتات السماع فيجعله قوته** ويتقوى به على زيادة طيّه، وكان أحدهم يطوى اليومين والثلاثة فإذا تاقت نفسه إلى القوت عدل بها إلى السماع فأثار منه مواجيده وأهاج فيه أذكاره فصرفه ذلك عن الطعام وأغناه عن الأنام. وحدثنى بعض الشيوخ عن شيخ له قال رأيت **أبا العباس الخضر** فقلت ماتقول فى هذا السماع الذى يختلف فيه أصحابنا. فقال هو الصفا الزلال لا يثبت عليه إلاّ أقدام العلماء. وقد صدق فى قوله لأنّا روينا عن نبينا **صلى الله عليه وسلم** أخوف ما أخاف على أمتى الشهوة الخفية **والنغمة الملهية**، ولأن **حماداً** روى عن **إبراهيم: الغناء** ينبت النفاق فى القلب؛ وعن **مجاهد:** ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليُضل عن سبيل الله، قال **الغناء**، وهذا كما قالاه لأن **سماع الغناء حرام وأجور المغنيات وأثمانهن حرام**. والفرق بين **الأغانى والقصائد** أن الأغانى ما شُبِّب به النساء وذُكِر فيه الغزل، ووُصِفن به وشهدن منه، ودعا إلى الهوى وشوّق إلى اللهو، فمن سمع من حيث قال القائلون بهذه المعانى فالسماع عليه حرام. **والقصائد** ما ذكّر بالله، ودلّ عليه، وشوّق إليه، وأهاج مواجيد الإيمان إليه وأثار مشاهدات العلوم وذَكّرَ به طرقات الآخرة ومقامات الصادقين. فمن سمع من حيث

شهد بهذه الشهادة فهو من أهله إذْ له نصيب منه، وقد قال اللّه سبحانه ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون، فالكلام زوجان منثور ومنظوم، فالمنثور كلام العلاّمة، والمنظور كلام الشعراء، فما ذُكِرَ به اللّه ويُذكر منه فهو طريق إليه. ولم يزل الحجازيون عندنا يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة وهى الأيام التى أمر عباده أن يذكروه فيها، أيام التشريق، من وقت **عطاء بن أبى رباح** إلى يومنا هذا، ما أنكره عالم، وقد كان لعطاء جاريتان يلحنان، فكان إخوانه يستمعون إليهما. ويحمل القول فى السماع أن مَن سمع فظهرت عليه صفات نفسه وذكّرته حظوظ دنياه فالسماع عليه حرام، ومن سمع فظهر له به ذكر ربه وتذكّر به أجّل ما شوّقه اللّه إليه وأعدّه لأوليائه فهو له ذِكْر من الأذكار. وسئل عالمنا رحمه اللّه فقيل له بلَغَنا أنك تنكر السماع **وقد كان الجنيد وسرى السقطى وذو النون يسمعون**، فقال كيف أنكر السماع وقد سمعه **عبد اللّه بن جعفر الطيّار**، يعنى ابن أبى طالب، وأنما أُنكر اللهو وأنكر اللعب فى السماع، ولعمرى أن هؤلاء الأشياخ الذين ذُكِروا قد كانوا يسمعون ولكن كان منهم من سمع السّر دون العلانية، ومنهم من كان يسمع مع إخوانه ونظرائه دون الاتباع والأصحاب، وكانوا يقولون **لا يصلح السماع إلاّ لعارف مكين ولا يصح لمريد مبتدىء. وقد سمع من الصحابة غير عبد اللّه بن جعفر أربعة، منهم ابن الزبير والمغيرة بن شعبة.**

وفى خبر **وهب بن منبه** أوحى اللّه تعالى إلى **داود عليه السلام** أنك تكثر مسألتى ولا تسألنى أن أهب لك **الشوق**، قال يارب وما **الشوق**، قال إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى وأتممتها بنور وجهى، فجعلت أسرارهم موضع نظرى إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلى عجائب قدرتى فيزدادون فى كل يوم شوقا إلىّ، ثم أدعو نجباء ملائكتى فإذا أتونى خرّوا لىّ سُجّداً فأقول إنى لم أدْعُكم لعبادتى، إرفعوا رؤسكم أُرِكُم قلوب المشتاقين إلىّ، فوعزتى وجلالى إن سمواتى لتضىء من نور قلوبهم كما تضىء الشمس لأهل الدنيا. معنى قوله لداود عليه السلام ولا تسألنى الشوق ليس أنه قد يعطى الأولياء ما لا يعطى الأنبياء كما غلط فى هذا بعض الناس ففضّل العارف على النبى، ولكنه ذكر ذلك لداود عليه السلام ليسأله إياه فيعطيه، فلمّا أخبره بما أعطاه مقام الشوق إليه فجاوز مقامات المشتاقين من العارفين، وإنما أراد أن يجعل ذلك على لسانه ليريه فضل مكانه ويُظهر له ذلك عن مسئلته، ليفضّله ويشرّفه بسرعة إجابته. كما أن قول داود عليه السلام «وما الشوق» ليس أنه لم يعرف الشوق وقد آتاه الحكمة والنبوة، ولكن سكت بين يديه استحياءً منه، واعترف لديه بالجهل لأنه عند علاّم الغيوب، وأراد أن يسمع منه حقيقة وصفه لأنه أصدق القائلين وأمدح الواصفين.

وأما **الغيرة** فحال سنية من أحوال المحبين، لأنه قد أظهرهم على معانى نفسه فضنّوا بها لّما امتلأت بها قلوبهم وحارت فيها عقولهم، إلاّ أنّ هؤلاء خصوص أصحاب اليمين وهم عموم المحبين، إلاّ أنه إذا رفعهم إلى مقام التوحيد فأشهدهم الإيجاد بالوحدانية والانفراد بالفردانية، نظروا فإذا هو لم يُعطِ منه لسواه شيأ، ولا أظهر من معانيه وصفاً، فانطوت **الغيرة** فى توحيدهم لّما عرفوا بيقين التوحيد أنه ما نظر إليه سواه، ولا عرفه إلاّ إياه. فهذا إذا طولعوا به مقام الموحدين من الصدّيقين.

وقد روينا فى **دلائل المحب وأوصافه** أبياتا عن **يحيى بن معاذ وأبى تراب النخشبى**، وعن **أبى سعيد الخرّاز** أيضا، على قافية واحدة فى معانٍ متقاربة، وهى جامعة مختصرة فى نعت المحبين من المريدين، وفى وصف السائحين من المرادين بالتقرب والانقطاع، أولى الأحوال والمشاهدات الرفاع، فالذى روينا عن **أبى تراب** هذه الأبيات:

لا تخدعن فللمحب دلائل * ولديه من تُحَف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمُر بلائه * وسروره فى كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة * والفقر إكرام ولُطفٌ عاجل
ومن اللطائف أن يُرى من عزمه * طوع الحبيب وإنْ ألحّ العاذل
ومن الدلائل أن يُرى متبسما * والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أنْ يُرى متفهما * لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أنْ يُرى متقشفا * متحفظا من كل ما هو قائل

والذى رويناه عن يحيى بن معاذ:

ومن الدلائل أن تراه مشمّرا * فى خِرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه * جوف الظلام فما له من عادل
ومن الدلائل أن تراه مسافرا * نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يَرى * من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكيا * أنْ قد رآه على قبيحٍ فاعل
ومن الدلائل أن تراه مسلما * كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا * بمليكه فى كل حُكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى * والقلب محزون كقلب الثاكل

والذى رويناه عن **أبى سعيد الخرّاز** دخل فيما ذكرناه عنهما وأحسب أنه أخذه منهما لأنهما أقدم منه، إلاّ أن قوله كان أحد عشر بيتا فقط.

وجميع ما قدّمنا ذكره من العلامات والدلالات هى أوصاف المحبين، وكل محب لله فعن محبة الله، لأن وجود العبد لمحبته لله علامة غيب محبة الله له، يبين ذلك الغيب فى هذه الشهادة، إلاّ أنّ **فى المحبة مقامين، مقام تعريف ومقام تعرّف**، فمقام التعريف هو معرفة العموم وهذا قبل المحبة الخاصة، ومقام التعرف معرفة الخصوص وهذا بعد محبة العموم، وهو مزيد الحب الأول وهذا محبة خصوص. **وكذلك فى المحبة مقامان، مقام محب وأعلى منه مقام محبوب**، وهذا كما عبّروا عن قولهم مريد ومراد، وعلى الحقيقة كل مريد لله فهو مراد بذلك، إلا أنهم جعلوا اسم مراد بوصف مخصوص يعرف به فيمتاز معه المبتدى من المبادى، والمنيب من المجتبى، والطالب من المطلوب، والراغب من المرغوب، والحافظ من المحفوظ، فكذلك لعمرى ليس الحامل مثل المحمول، ولا الزائر كالمزور، ولا الاشتياق كالحضور، **ولا المحب مثل المحبوب**.

وفى المشاهدة مقامان: مقام شوق ومقام أنس، فالشوق حال من القلق والانزعاج عن مطالعة العزة ومعاينة الأوصاف من وراء حجاب الغيب بخفايا الألطاف، وفى هذا المقام الحزن والانكسار، والأنس حال من القُرب عن مكاشفة الحضور بلطائف القدرة، ففى هذا المقام السرور والاستبشار. وقال **ضيغم** عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً، وعجبت لها كيف أنست بسواك. وقال **الجنيد** علامة كمال الحب دوام ذكره فى القلب بالفرح والسرور، والشوق إليه والأنس به، والرضا بكل ما يصنع. وعلامة أنسه بالله استلذاذ الخلوة وحلاوة المناجاة واستفراغ كله حتى لا يكاد يعقل الدنيا وما فيها، وقد أنكر **الأنس** من لا مقام له فيه، كما أنكر المحبة أيضا من لا معرفة له بها، لأنه تخيل فيها محبة المخلوق وتمثّل لها صفاتهم، فقال لا يعرف المحبة ولا يعقلها إلاّ المخلوق وليس إلاّ الخوف والهيبة. وممن ذهب إلى هذا القول **أحمد بن غالب المعروف بغلام خليل**، أنكر على **الجنيد وأبى سعيد والثورى** كلامهم فى المحبة وليس هذا مذهب السلف ولا طريقة العارفين. وكتب **عامر بن عبد الله** إلى بعض إخوانه آنسك الله بنفسه. وقيل **لإبراهيم بن أدهم** وقد نزل من الجبل من أين أقبلت قال من الأنس بالله. وأنشدونا لبعض العارفين.

الأنس بالله لا يحويه بطّال * وليس يدركه بالحوْل محتال
والآنسون رجال كلهم نُجُب * وكلهم صفوة للّه عُمّال

وقد روينا في التفسير عن **قتادة** في قوله عز وجل الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، قال هشّت إليه وأنست به. وفي مقام الأنس يكون التملق والمناجاة، ومعه تكون المحادثة والمجالسة ومعنى من البسط، ولا يحب الله تعالى هذا النوع من الإدلال إلاّ ممن أقامه مقام الأنس، ولا يحسن ذلك إلاّ منهم، لنحو قول **موسى عليه السلام** في مقام الأنس يارب لي ما ليس لك، قال ما هو، قال لي مثلك وليس لك مثل نفسك، قال صدقت. معنى قوله مثلك أي لي أنت كقوله تعالى ليس كمثله شيء، معناه ليس كهو شيء لأنه لا مثل له، والعرب تعبر بالمثل عن نفس الشيء. وفوق هذا من البسط ما أخبر الله تعالى عنه أنه قال مواجها للجليل العظيم إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون. وأعظم من هذا قوله له إذهب إلى فرعون فقال مجيبا له فأرسلْ إلَى هرون ولهم علّي ذنب، ومثله قوله إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري، فحسن هذا منه لأنه أقامه مقام البسط بين يديه والأنس به، ولأن مكانه لديه مكان محبوب فأدّل به عليه فحمله ذلك، وهذا من غير موسى في غير هذا المقام من سوء الأدب بين يدّي المرسِل، ولم يحتمل **ليونس عليه السلام** خاطراً من هذا القول لمّا أقيم مقام القبض والخوف حتى عوقب بالسجن في بطن الحوت في البحر في ظلمات ثلاث، ونودي عليه إلى يوم الحشر، لولا أن تداركه نعمة من ربه لنُبذ بالعراء وهو مذموم، وقيل عراء القيامة. ونهى الله تعالى حبيبه **صلّى الله عليه وسلم** أن يقتدي به في القول والفعل فقال تعالى فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. وقد قال تعالى منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات. واحتمل لإخوة **يوسف** ما عزموا عليه واعتقدوه وما فعلوه وما أسرّوه من قولهم اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم، إلى نحو ذلك من الكلام والفعال. ولقد عددت من أول قولهم لَيوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا إلى رأس العشر من إخباره عنهم في قوله وكانوا فيه من الزاهدين نيفا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض، قد يجتمع في الكلمة الواحدة الأربع والخمس من الخطايا ودون ذلك وفوقه بدقائق الاستخراج ومعرفة خفايا الذنوب، فغفر لهم ذلك أن كانوا في مقام محبوبين، ولم يحتمل لعُزَيْر مسئلة واحدة سأل عنها في القدَر حتى قيل مُحِيَ من ديوان النبوة. وقد قال الله تعالى فوق ذلك كله ثم اتخذتم العجل من بعد ما جاءتكم البينات فعفونا عن ذلك، فإن شاء أن يعفو عفا عن العظائم فلم يعظم عليه شيء، وإن شاء طالب وناقش على الصغائر ولا تصغر الذرة والخردلة عن مطالبته. وفي قوله سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، قيل يغفر لمن يشاء على الذنب العظيم ويعذب من يشاء على

الذنب الصغير. وقيل يشترك الجماعة فى المعصية فيغفرها لبعضهم ويبدلها حسنات فلا تضره بل تكون عاقبتها مايسره، ويعذب البعض بذنبه ولايغفر له وقد لاينفعه معه عمل.هذا كما قال بعض العارفين الحبيب لايحاسب والعدو لا يحسب. وروى عن الله سبحانه أنه أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشفى على الهلكة، كم من ذنب واجهتنى به غفرته لك وقد أهلكت فى دونه أمة من الأمم. وقد اشترك عبدان فى اسم المعصية ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة: **آدم عليه السلام وإبليس لعنة الله عليه**، ثم اجتبى آدم وهدا لِمَا سبق له من الاصطفاء والكلمة الحُسنى، وإبليس أبلس من رحمته وأغوى لما سبق له من الشقوة والكلمة السوء.

ومثل المحبوب من المحب مثل **مقام المصطفى صلى الله عليه وسلم من مقام موسى عليه السلام:** قال موسى رب اشرح لى صدرى، وقال لمحمد ألم نشرح لك صدرك، وقال موسى واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى، وقال لمحمد ورفعنا لك ذكرك، أى تقرن بى فى الشهادة والأذان لا أوازرك بغيرى، فقد وزّرتك وقرنتك بذكرى، وقال لموسى عليه السلام بعد المقام قد أوتيت سؤلك يا موسى ولقد مننا عليك مرة أخرى ففى هذا تحديد، وقال لمحمد عليه السلام بعد المقامات وقل رب زدنى علما فلم يحد له حداً فهذا غاية المزيد. وقال موسى عليه السلام رب أرنى أنظر إليك أى فى محل العبودية، وقال لمحمد عليه السلام مازاغ البصر وما طغى فكان قاب قوسين أو أدنى أى مكان الربوبية، فبين المحب والمحبوب فى التقليب كما بين موسى ومحمد عليهما السلام من التقريب. كم بين مَنْ رأى ما رأى عند نفسه فى مكانه، وبين من رأى ربه عند ربه فى علوه! كم بين من عَجّل إليه شوقا منه ليرضى عنه، وبين من عجل به شوقا إليه ليرضاه إليه لرضاه عنه. كم بين من رأى ما رأى فلم يثبت ففاضت عليه الأنوار لضيقه، وبين من رأى مارأى فثبت له وغاضت فيه الأنوار لسعته، فقد جاوز المحبوب مقام المحب فى التمكين كما جاوز محمد صلى الله عليه وسلم مقام موسى عليه السلام فى المكان، أدخل بينه وبين موسى لام الملك وأقام محمدا مقامه فى الملك، وقال تعالى لموسى واصطنعتك لنفسى، وقال لمحمد إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، فكم بين مَنْ صنعه لنفسه وبين من جعله بدلا من نفسه تفضلا وتعظيما . كم من فصل مدحه مَنْ وصفه، وبين مَن وصل مدحه بوصفه فقال تعالى فى الفصل وألقيت عليك محبة منى ولتُصنع على عينى، وقال فى الوصل لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه الآية، وقال فى مثله والله ورسوله أحق أن ترضوه، وقد قيل فى قوله تعالى يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك

وكن من الشاكرين، أى خذ ما آتيتك من الكلام اصطفيتك به على الناس فاشكر عليه، والنظر فقد خصصت به محمدا. وعن **ابن عباس وكعب** أن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد فأعطى موسى الكلام وخصّ محمدا بالرؤية. ومما يؤيد هذا القول أن الذى آتاه الكلام هو الذى ثبت له فدلّ أنه هو الذى أُريد به، لأن الله تعالى إذا أراد عبداً بشىء ثبّته فيه وقوّاه عليه، وقد ثبّت محمدا لما آتاه من الرؤية وقوّاه لها ومكّنه فيها لأنه أراده بها.

ومن وصف مقام المحبوب ماقيل **لعلّى بن أبى طالب** رضى الله عنه صف لنا أصحابك، فقال عن أيهم تسألون، قالوا عن **سلْمَان**، قال أدرك علم الأول والآخر، قالوا **فعمّار**، قال مُلىء إيمانا إلى مشاشه، قالوا **حُذيْفة**، قال صاحب السر أُعطى علم المنافقين، قالوا فأخبرنا عن نفسك، فقال إياى أردتم بهذا؟ كنت إذا سألت أُعطيت، وإذا سكتّ ابتُدئت. فهذا مقام محبوب لأنه إذا سأل سُمع منه فاستُجيب له، وإذا سكت نُظر إليه فعُطف عليه. وقد روينا عنه من أحب من لا يعرف فإنما يمازح نفسه، أى من لا يعرف صفات حبيبه وأخلاقه وأفعاله وأحكامه فيحبه بعد خُبره فيسارع إلى مرضاته ويجانب مكارهه، فإنما يمازح نفسه أى يلهو بها ويلعب، ليس فيه شىء من جدّ المحبين ولا حقيقة العارفين، إذ لا يأمن انقلاب محبته لتقليب أفعال محبوبه، ولا يأمن تغيير حبه لابتلاء حبيبه واختلاف أحكامه، فكأنه كان مازحا بحبه لا مُحقاً به. وفى مثل هذا المقام من جهل المحبين بأفعال المحبوب اغترار عظيم.

ومن المحبة **كتمان المحبة** إجلالا للحبيب وهيبةً له وتعزيزا وتعظيما له وحياءً منه، وهذا وصف المخصوصين من عقلاء المحبين، وهو من الوفاء عند أهل الصفاء إذ كانت المحبة سر المحبوب فى غاية القلوب، فإظهارها وابتذالها من الخيانة فيها، وليس من الأدب ولا الحياء النسبة إليها ولا الإشارة بها، لأن فى ذلك اشتهاراً فتدخل عليه دقائق الدعوى والاستكبار. وقد قال بعض العارفين أبعد الناس من الله أكثرهم إشارة به، هو الذى يكثر التعريض به فى كل شىء، ويظهر التزين والتصنع بذكره عند كل أحد، وهذا ممقوت عند المحبين لله والعلماء به. وقيل دخل ذو **النون المصرى** على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى ببلاءٍ يجل عن الوصف، فقال ذو النون لا يحبه من وجد ألم ضربه، فقال الرجل لكنى أقول لا يحبه من لم يتنعم بضربه، فقال ذو النون لكنى أقول لا يحبه من شهر نفسه بحبه، فقال الرجل استغفر الله وأتوب إليه. وهذا كما قال ذو النون هو من **علامة الإخلاص فى المحبة** إذ كانت

من أعمال القلوب، فوجود الإشفاق والحذر من إظهارها خشية السلب والاستبدال وخوف المكر والاستدراج علامة التحقق بها، ودفعها عن النفس وسترها عن أبناء الجنس، وترك التظاهر بها علامة الظفر بها، لأن المحبوب غيور على نفسه وعلى ظهور محبته أشد من غيرته على إظهار محبته، وغيرته على إظهارهم لغير أبناء جنسهم أشد من غيرة جميع محبيه عليه. وهذا كلام من عالم صاحٍ فى مقام صحو مكين، فأمّا السكران بحاله والولهان بوجده فمغلوب، والمغلوب معذور. ومن المحبة **كتمان بلاء الحبيب** بعد الرضا به، لأن ذلك من السرّ عنده وحُسن الأدب لديه. وعوتب **سهل** فى العلّة التى كانت به، علّة مهولة وكان يداوى الناس منها ولا يداوى نفسه، فقال ضرب الحبيب لايوجع. وكان حينئذ يقول من علامة المحب فى المكاره والإسقام هيجان المحبة وذكرها عند نزول البلاء، إذ هو لطف من مولاه، وفيه الغربة إلى محبوبه وقلة التأذى بكل بلاء يصيبه لغلبة الحب على قلبه. وقد كان بعض المحبين يقول أصفى ما أكون ذِكْراً إذا ما كنت محموما،. وذَكَر بعض من ينتمى إلى المحبة مقامه فى المحبة عند بعض المحبين، فقال له المحب أرأيت هذا الذى تذكر محبته أهممت بسواه قط، قال نعم، قال فهل رأيته فى ليلة مرتين وثلاثا، قال لا، قال لولا أنى أستحي لأخبرتك أن محبتك معلولة. تهتم بسوى حبيبك ولا تراه فى ليلتك؟ ثم قال ولكنى لا أدعى محبته وعلى ذلك ما اهتممت بسواه مذ عرفته. وربما رأيته فى الليلة سبع مرات. وذكر بعض المحبين ممن كان بدلا عن **إبراهيم ابن أدهم** ممن تكلم فى علم طريقه ووصفه حاله، وذكر القصة بطولها، قال رأيت اللّه عز وجل مائة وعشرين مرة، وسألته عن سبعين مسئلة، أظهرت منها أربعاً فأنكرها الناس، فأخفيت الباقى.

وفيما ذكر من وصف المحب كفاية وغيبة عن وصف المحبوب، وليس يمكننا وصف المحبوب إذا كان حاله يجلّ عن الوصف. وكيف يوصف من يسمع ويبصر من يحبه، ويبطش ويعقل عن محبوبه، فيكون هو سمعه وبصره وقلبه ويده ومؤيده كما جاء فى الخبر: إذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، وقلبه الذى يعقل به، إنْ سألنى أعطيته، وإنْ سكت ادخرتُ له، لو قسم نوره على أهل الأرض لوسعهم، فهذا كله فى مقام محبوب. ويقال إن هذه الآيات والقدر من سرائر الغيوب وخفايا الملكوت التى تسميها العامة **المعجزات والآيات**، وتسميها العلماء **الكرامات والإجابات**، وهى آيات اللّه فى أرضه مودعة، وقدرته فى عباده جارية، وعنايات له فى ملكه مستقرة، ليس للعباد منها إلاّ كشفها،

ونظرهم إليها إذا أقيموا **مقام الأنس من مقام محبوب**. ويقال إنها توجد في **المقام السابع عشر من مقامات المعرفة** إذا أقيم العبد هذا المقام في المعرفة.

وقال بعض العلماء كل مقام أعبر عنه إلاّ **مقام المحبة**، قيل ولِمَ، قال لأن الشيء يعبر عنه بألطف منه ولا شيء ألطف من المحبة. وقيل **لمعروف** أخبرنا عن المحبة أي شيء هي. قال يا أخي ليس المحبة من تعليم الناس. المحبة من تعليم الحبيب. وقد كان الحُذّاق من العلماء لا يخبرون بحقائق **أربع** مقامات: حقيقة التوحيد، وحقيقة المعرفة، **وحقيقة المحبة**، وحقيقة الإخلاص. وقال بعض العارفين كل المقامات عن أنوار الأفعال والصفات إلاّ المحبة فإنها عن نور حقيقة الذات، فلذاك عزّ وصفها وعزّ علمها، وقلّ من المؤمنين المتحقق بها، ومن أدرك مقام المحبة للّه لم يضره فوت شيء من المقامات، ومن فاته المحبة لم يغبط بدرك شيء. وقد قيل في قوله عز وجل ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه أن الهاء عائدة على التوكل أي فالتوكل حسبه من جميع المقامات. والتوكل حال من مقام المحبة، وقد قال اللّه تعالى ورضوان من اللّه أكبر، والرضا مقام من المحبة فقد جلّت المحبة أنْ توصف ودقّت عن العلوم بالعقول أن يعرف مثلها مثل العلم باللّه، فكذلك أي قلب أجّل من قلب يكون محبوبه اللّه، ولا أعلم من معلومه اللّه.

وقيل إن للقلب حبة هي باطنه، تتعلق عليها المحبة ومنه **سميت محبة اشتقاقاً من حبّة القلب** وهي التي يقال لها سويداؤه. والميم في الأسماء قد تزاد للمبالغة في الوصف، ومن هذا قول اللّه عز وجل قد شغفها حبا لمّا وصفها بنهاية الوصف في الحب، أي قد خرق حبه شغاف قلبها فوصل إلى حبة القلب وخرق الشغاف وهو حجاب القلب. وحباً منصوب على التفسير كأنه قيل قد شغفها أي خرق شغافها فقيل ماذا، فقيل حباً، فالحب إذا وصل إلى هذا الوضع من العبد لم يملك نفسه ففرّغ قلبه له وامتلأ به ولم يجر على ترتيب مارسمناه، وربما خرج إلى **الوله** والاستهتار، وجاوز معيار العقل في التصريف والاذّكار. والعرب تقول أشغفه إذا أصاب شُغاف قلبه فهتك حجابه. وقد قرئت بالعين، ومعنى **قد شعفها** بلغ أعلى القلب ونهايته، لأن الشعف أعلى كل شيء وأبعده، فالمعنى ذهب به الحب أقصى المذاهب وغايته، فحينئذ يملكه الحب فيكون أسيره، ويغلب عليه الحبيب فيصير مأسوره، فيحكم عليه ولا يجاوز، ويُفرغ له قلبه من كل شيء، ويمتليء به فلا يبقى فيه شيء، ولا يقدر على الكذب لظهور سلطان قهر الحب، فحينئذ يكشف قناعه، ويُرسل عذاره فيه، ويصفه الحب بالحب وهو صامت

بخيفة المحب إلاّ لمن أحب وهو ظاهر، وليس يكون هذا إلاّ فى مقام شكر وحالٍ عليه، فمن لم يعرف هذا المقام أنكر هذا الكلام إلاّ أنْ يُربَط قلبه بتأبيده، ويُحفَظ سره بتمكينه، كما قال تعالى وأصبح فؤاد أم موسى فارغا، أنْ كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، أى من المصدّقين أنّا نرده إليها ولا تُظهر أنه ابنها فيُقتل. وكما لطف للفتية الذين آمنوا وهم أصحاب الكهف لمّا غلب حب الإيمان على قلوبهم فقالوا ربنا رب السموات والأرض لئلا يُظهروا إيمانهم لمّا غلب حبه عليهم فيقتّلوا، فهذه لطائف الحكيم وخفى صنع العليم، فالمحبون له حافظون للغيب بما حفظ.

وقال بعض الناس فى وصف المحبين أقامهم مقام المحبة فلم يَزِنْ المُلك فى قلوبهم حبّة، فمحبة غير اللّه فى محبة اللّه شِرْك عند المحبين، وهى خيانة عند بعضهم، وهو من نقض العهد وقلة الوفاء بالعقد. وقال **سهل** من أحبّ الدرهم لا يحب الآخرة، ومن أحب الخبز لم يحب اللّه عز وجّل. ولا يخرج حب الوالد والولد المحبين من المحبة، لأن ذلك جعل اللّه فى القلوب نصيبا لهم، ولا يخرجه أيضا حب الزوجة بمعنى الرفق بها والرحمة لها، ولا يخرجه أيضا حب مصالح الدنيا من حاجات الأقسام والقلوب مما لابد منه. وليس ذلك كله يكون فى مكان محبة اللّه لأن محبة اللّه فى أنوار الإيمان، ومحبة هذه الأشياء فى مكان العقل. هكذا عندى فى الفرق بين **محبة اللّه ومحبة المخلوق**. ويخرجه جميع ذلك عند بعض المحبين من السلف. فأما الاشتغال بهذه الأشياء بالإيثار لها على التفرغ لمرضاة اللّه، والانحطاط فى أهوائها دون محبة اللّه فإن ذلك يخرجه عند الكل. وعندى يخرج العبد من حقيقة المحبة السكون إلى غير اللّه والفرح بسواه، والحزن على فوت غيره إياه. وقيل لبعض العارفين من الأبدال الناس يقولون إنك محب، فقال لست محباً، المحب متعوب ولكنى محبوب.

فهؤلاء هم الذين لاتعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، وهم المحبون للّه من عباده، الزاهدون فى ملكوته لوداده، فإذا قالوا حسبنا اللّه ونعم الوكيل يقول اللّه تعالى لهم فانقلبوا بنعمة من اللّه وفضل لم يمسهم سوء، واتبعوا رضوان اللّه رضى اللّه عنهم ورضوا عنه، لأنهم عملوا بما قالوا فتحققوا بالإيمان. وقيل إن الإيمان قول وعمل ولاينوب القول عن العمل. وإذا قالوا إياك نعبد وإياك نستعين، قال اللّه تعالى صدقتم لأنهم لا يخدمون ولا يذلون لسواه، ولا يعدون للنوائب إلاّ إياه، ولا يستعينون بغيره، ولذلك صاروا صدّيقين لتصديق الصادق لهم.

كما بلغنا أن العبد ليقرأ قوله إياك نعبد وإياك نستعين فيقول الله تعالى كذبت، لو كنت إياى تعبد لم تَخَفْ ولم ترجُ سواى، ولو كنت بى تستعين لم تسكنْ إلى مالك وأهلك. وكذلك بلغنا أن العبد ليقرأ السورة من القرآن فتصلى عليه حتى يفرغ منها، إذا عمل بها فهذا صدّيق، وإن العبد ليقرأ السورة من القرآن فتلعنه إلى أن يختمها إذا لم يعمل بما يقول، فهذا كذّاب، فأين الإيمان ولا إيمان إلاّ بعمل، فليس هذا مؤمنا حقا، فالأولياء حققوا القول بالعمل، وشهدوا الإيمان باليقين، فإذا قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، توكلوا عليه ورضوا عنه وتألّهوا إليه، ولم يكن فى صدورهم غيره، فيقول الله تعالى صدقتم فيكونون صدّيقين، كما يقول للشىء كن فيكون، فتدبّروا. فإذا قال ونعم الوكيل قاموا مقام التوكل فصار لهم فى الصدق مقامات، يقول الصادق صدقتم فيكونون صدّيقين، فيقول عبادى أنتم خِيرتى من ذوى ودادى، وأنا وكيلكم، رضيتم بى وأنا حسبكم، فهؤلاء الذين انقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتّبعوا رضوان الله فأعطاهم من الجزاء **أربعة** معان: النعمة والفضل، والتوكل عليه، وصرف السوء، واتباع الرضا برضاهم عنه رضى الله عنهم. فالحبيب يعتذر له، والعدو لا يقبل عذره، والمحبوب لا يُحاسِب، والمُبغَض لا يُحسَب له وقد قال بعض الأدباء فى معناه:

من لم يكن للوصال أهلاً * فكل إحسانه ذنوب

وقال آخر فى وصف آخر:

فى وجهه شافع يمحو إساءته * من القلوب ويأتى بالمعاذير

وأنشدت لبعض المريدين المتحققين:

إنى جعلتُ مَنْظَرِى فى مُهجتى * وجعلت ودّك لى إليك شفاعة
ولو أن وقتاً منك بالدهر كله * لكان قليلاً ألف عام بساعة

فليتق الله تعالى عبد لم يطلعه الله عز وجل على ماذكرناه فيزهد فيه، ويعلو همّه عنه بمشاهدة قدرة عظيمة ومعاينة آيات كثيرة، ظاهرا وباطنا، أن يدّعى المعرفة أو يتوهم المحبة، فما عنده منها إلاّ أمانى وغرور وظنون وزور، والله تعالى يعطى قوما الظنون كما يعطى أولياءه اليقين، ويعطى قوما المزوّرات لِعلَل القلوب كما يعطى أحباءه المحققات فى مقام

محبوب، بآيات بينات، وشواهد من اليقين بإثبات آيات فى القرآن وآيات الرسول، ولا يظهرهم على كن حتى ينكشف الكون عن قلوبهم، وفى الكون ما فيه من نفيس الملكوت وعظيم الرغبوت مما لا يصلح ذكره.

ومن الإخلاص فى الصدق عند الصدّيقين سؤال الحجبة فى قلوب الناس، كما قال **بشر** وقد سئل بأى شىء بلغت هذه المنزلة، فقال كنت أكتم الله تعالى حالى، معناه أسأله أن يكتم علىّ ويُخفِى أمرى. وحُدّثت أنه رأى **الخضر عليه السلام** فقال ادع الله تعالى لى، فقال يسّر الله تعالى عليك طاعته، قال قلت زدنى، فقال وسترها عليك، فقيل فى تأويل ذلك معنيان، منهم من قال وسترها عليك أى يسترك حتى لا تُعرف بها. وقال بعضهم أراد سترها عنك حتى لا تنظر أنت إليها. وقال بعضهم قلقنى الشوق إلى **الخضر** فسألت الله تعالى مرة أن يرينى إياه ليعلمنى شيأ كان أهم الأشياء علىّ، قال فرأيته فما غلب على قلبى ولا همّنى إلاّ أنْ قلت له يا أبا العباس علّمنى شيأ إذا قلته حُجبت عن قلوب الخليقة، فلم يكن لى فيها قدر ولم يعرفنى أحد بصلاح ولا ديانة، فقال قل اللّهم أسبل علىّ كثيف سترك وحطّ علىّ سرادقات حُجبك، واجعلنى فى مكنون غيبك، واحجبنى فى قلوب خليقتك، قال ثم غاب فلم أره ولم أشتق إليه بعد ذلك، قال فما تركت أن أقول هذه الكلمات فى كل يوم، فحُدّثت أن هذا كان يُستذَل ويُمتهَن حتى كان أهل الذمة يسخرون به فى الطريق، يحملونه الأشياء فى الطريق لسقوطه عندهم، وكان الصبيان يولعون به، وكانت راحته فى ذلك ووجود قلبه به، واستقامة حاله عليه، وهذا طريق جماعة من السلف، وحال طبقة من صادقى الخلْف، أخفوا أنفسهم وأسقطوا منازلهم فُسمّوا **عقلاء المجانين**، وهذا من الزهد فى النفس وحقيقة التواضع، إلاّ أنه زهد **مجانين الأولياء** وتواضُع موقنى الضعفاء، فالتكبّر يكون **بثلاثة** معان: تكبّر على الناس عُجباً بالنفس، وتكبّر فى قلوب الناس عزةً من النفس، أى يحب أن يكبر فى قلوبهم فيكون ذلك تكبّراً منه، وتكبّر فى القلب عن نظره إلى صلاحه ودينه فيكبر ذلك عنده فيدل به، ولذلك رآه من نفسه لقصور علم اليقين منه، وهذا أدق معانى التكبر، ولا يتخلص منه إلاّ صحيحو التوحيد، صادقو اليقين، مخلصو الصالحين. وأما التكبّر الظاهر الذى هو التطاول والفخر والتظاهر فذاك جلّى، وهو من أكثف حُجُب القلب وأقوى صفات النفس، فلذلك فزع العلماء من دقائقه لمّا عرفوه، فطلبوا القلة والذلة للنفس، ليمتهنوها بخفايا التواضع، لينتفى عنهم دقائق الكِبْر لتخلص لهم الأعمال.

والتواضع عند المتواضعين هو حقيقة أن يكون العبد ذليلا صفةً لا متذللا متعمدا للذلة، وأن يكون عند نفسه فى نفسه وحيدا حقيرا معتقداً لصغره وحقارته فى نفسه لا متواضعا متكلفاً، وعلامة ذلك أن لا يغضب إذا عابه ونقّصه عائب، ولا يكره أن يذمه ويقذفه بالكبائر ذام، وبيان ذلك فى وجده أن لا يجد طعم الذل فى ذله ولا يشهد الضعة فى تواضعه، إذ قد صار ذلك له صفة، فمن ذلّ ووجد ذوق ذلّه فهو متعمّل للتواضع، ومن تواضع وشهد تواضعه وضعته فهذا متعذر وهى علامة بقية الأنَفة فى نفسه لنفسه، ومتى غضب أو كره ذمّه من غيره فهو يفرح ويرضى بمدحه، فإذا كانت هذه العلامات فهو محجوب عن جميع ماذكرناه من المقامات، ومتى ذلّ نفسه فلم يجد لذلّه ذوقا ولا لضَعته حساً فقد صار الذُلّ والتواضع كونه، فهذا لا يكره الذمّ من الخَلْق لوجود النقص فى نفسه، ولا يحب المدح منهم لفقد القدْر والمنزلة من نفسه، فصارت الذلّة والضعة صفته لا تفارقه، لازمة له لزوم الزبالة للزبّال، والكُساحة للكَسّاح، هما صنعتان لهما كسائر الصنائع، وربما فخروا بهما لعدم النظر إلى نقصهما، فهذه ولاية عظيمة له من نفسه قد ولاّه على نفسه وملّكه عليها فقهرها بعزه، وهذا مقام محبوب وبعدَه المكاشفات بسائر العيوب. أول ذلك دخول نور الحكمة فى القلب وينبوع الحُكم من قلبه. كما روينا أن **عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام** قال يا بنى إسرائيل أين ينبت الزرع، قالوا فى التراب، فقال بحقٍ أقول لكم لا تنبع الحكمة إلاّ فى قلبٍ مثل التراب. ومن كان حاله مع الله تعالى الذُلّ طلبه واستحلاه كما يطلب المتكبر العز ويستحليه إذا وجده، فإنْ فارَقَ ذلك الذل ساعةً تغيّر قلبه لفراق حاله، كما أن المتعزز إنْ فارقه العز ساعة تكدّر عليه عيشه لأن ذلك عيش نفسه.

وممن روينا عنه اختيار الذُل وإسقاط المنزلة والقدْر عند الناس، ومحو جاهه وموضعه من قلوبهم، وأظهر على نفسه ألوان معانى الذّم، أكثر من أن يُحصَى، وذكرُهم يطول، وذاك أن حالهم الصدق مقتضيهم القيام بحُكمها فلابد من قيامهم بمقتضى حالهم. حدثنى بعض الأشياخ عن **أبى الحسن الكرينى** أستاذ الجنيد أن رجلا دعاه ثلاث مرات إلى طعامه ثم يرده، فرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله المنزل فى المرة الرابعة، فسأله عن ذلك، فقال قد رضيت نفسى على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يُطرد فينطرد، ثم يُدعى فيُرمى له عظم فيجىء. وزاد غيره وقال لو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لأجبت. وحدثنى شيخ آخر عن أستاذه قال نزلت فى محلة فعُرفت فيها بالصلاح فتشتت قلبى، فدخلت حمّاما

في جوف المحلة وعنيت على ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها، ثم لبيست مرقعتي فوقها وخرجت، وجعلت أمشي قليلا قليلا ليُفطَن بي، فلحقوني فنزعوا مرقعتي واستخرجوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضربا، فصرت أُعرف في الناحية **بلص الحمام** فسكنت نفسي. وحُدّثت عن بعض **الصوفية** أنه وقف على رجل يأكل، فمدّ يده إليه فقال إنْ كان ثم شيء لله، فقال له اجلس فكُلْ، فقال اعطني في كفي فأعطاه في كفه، فقعد في مكانه يأكله، فسأله عن امتناعه من الجلوس معه، فقال إنّ حالي مع الله عز وجل الذُل فكرهت أن أفارق حالي. وكان هذا ربما مدّ يده إلى الهَرّاس فيضع فيها هَريسته، والعرب تأنف أن يوضع الشيء في أكفها لعزة نفوسها، حتى روينا عن بعض الصحابة من المهاجرين الأول في أول النبوة، فقال جعت ثلاثا لم أطعم شيأً، فبلغني أن إنسانا يتصدّق بزبيب، فسألته فقال هات كفك، فقلت إني رجل من العرب ولا آخذ في كفي فاجعله لي في شيء، قال فجعله في كيل ثم ناولنيه، فلما فرّغته رددته إليه، فكانت فيه عزة نفسٍ، لا جَرَم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أنت رجل فيك جاهلية، فقال على ما أنا عليه من كِبَر السن، قال نعم.

وإنما نبّهنا ببعض ما ذكرناه العقول المستيقظة وحرّكنا بما بيّنا القلوب الحية ليحيا من حي عن بيّنة، بذكر أوصاف الصادقين وطرقات المخلصين ليستدل على الكثير باليسير. وقد كان شاهد من شهود **بسطام** عظيم القدر فيهم لا يفارق مجلس **أبي يزيد**، فقال له يوما يا أبا يزيد أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر، وأقوم الليل لا أنام، ولا أجد في قلبي شيأ من هذا العلم الذي تذكر، وأنا أُصدّق به وأحبه. فقال له **أبو يزيد** لو صمتَ ثلثمائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرة، قال ولِمَ، قال لأنك **محجوب بنفسك**، قال أفلهذا دواء، قال نعم، قال قل لي حتى أعمله، قال اذهب الساعة إلى المزّين واحلق رأسك ولحيتك، وانزع هذا اللباس، وأتزِر بعباءة، وعلّق في عنقك مخلاة مملوءة جوْزا، واجمع الصبيان حولك، وقل كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك، فقال الرجل سبحان الله تقول لي مثل هذا، فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرْك، قال كيف، قال لأنك عظّمت نفسك فسبحتّها، قال هذا لا أفعله ولكن دلّني على غيره، قال ابتدىء بهذا قبل كل شيء، فقال لا أطيقه، فقال قد قلت لك إنك لا تقبل. فهذا لمّا قال سبحان الله كان مشركا عنده لأنه سبّحه برسم النفس، وقد كان أبو يزيد يقول سبحاني ما أعظم شاني وهو موحد، لأنه وحّد بأولية بدَتْ. وهذا الذي ذكره دواء من اعتّل بنظره إلى نفسه ثم

سقم بنظر الناس إليه، لزمه سد نظره إلى نظرهم، ليس لها من دون الله كاشفة، إلاّ أن هذا من طب المجانين يصلح لضعفاء اليقين، ولو أدخل الطبيب الأعلى ذرة من عين اليقين أخرج بها من قلبه كل نظرة فاستراح من كل دواء، ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا، ليهلك من هلك عن بيّنة بشواهد الحق، ويحيا من حى عن بيّنة بشاهد الحق ويتلوه شاهد منه، فلا تنكرن من جميع ماذكرناه شيأ فتخسر أقل أنصبة المؤمنين من علم القدرة واليقين، لأن للمؤمنين أنصبة من هذا العلم منها المشاهدة لما وصفناه، والإدراك لما رمزناه. ومنها الوجد والحال، ومنها المعاملة والمنازلة، ومنها الذوق، والشم منه، وآخرها التصديق والقبول، فأقل النصيب من علم المعرفة إن لم يُشهَد فلا يُجحَد، وإن لم يُعرَف فليُتعرَّف، ويكون معقله التسليم وليس وراء هذا مكان.

وهذه المقامات التى شرحناها وهى مقامات اليقين، أولها التوبة إلى هذا المقام من المحبة، منوط بعضها ببعض، إن أُعطى العبد حقيقة من أحدها أُعطى من كل مقام حاله، ومع كل حال مشاهدة، ولكل مشاهدة علم إلاّ مَنْ شهد بالحق وهم يعلمون. وكلها مجموعة فى حقيقة الإيمان إنْ أُعطى العبد حقيقةً من إيمان ويقين، حتى يكون مؤمنا حقا غير مُرْتَدٍّ عنه، ولا مُستَبدَلٍ به فى علم الله تعالى، وكان إيمانه مِنّة وهِبَة، لا عارية ولا وديعة. وذاك هو كمال الإيمان. وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وصف كمال الإيمان ثلاثة أحاديث من أصول هذه الأحوال وأساس هذه الأفعال، منها أنه قال لا يستكمل العبد إيمانه حتى يكون قلة الشىء أحب إليه من كثرة الشىء، وحتى «لا يعرف» أحب إليه من أن «يعرف». فهذان حالا الصادق الزاهد، وهما أول الطريق المؤدى إلى التحقيق، وأُس البنيان الرافع إلى أنه لا يخاف فى الله لومة لائم، ولا يرائى بشىء من عمله، وإذا عُرِض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على أمر الدنيا، فهذه أحوال المحب لله تعالى، المخلص بمعاملة الله عز وجل، الراغب فيما عند الله تبارك وتعالى. والحديث الثانى قوله صلى الله عليه وسلم لا يكمل إيمان أحدكم حتى يكون فيه ثلاث خصال: إذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق، وإذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل، وإذا قَدِر لم يتناول ما ليس له. فهذه تجمع أحوال العدل والفضل والمراقبة والزهد، وهى أصول المقامات. ويشبه هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثالث: ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود: العدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، وخشية الله تعالى فى السرّ والعلانية. وتفسير ما ذكرناه

أن هذه المقامات مرتبطة بعضها ببعض، وأنّ مَن أُعطى حقيقة من أحدها أُعطى جميعها حالا، إذ يجمع ذلك كله الإيمان بالله تعالى ليتوب العبد إلى من آمن به، وإلى ما آمن به من الوعد، وما آمن به من الوعيد، ليحق إيمانه ويصح يقينه وليستقيم توحيده، كما قال تعالى إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، وقال تعالى فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك. وقال فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى، فذهب إليه لمّا آمن به وهو الرجوع وهى التوبة. ثم يزهد فيما تاب منه من هواه لتصحّ توبته وتخلص نيته، فيكون نصوحا كما قال تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق، وقال والآخرة خير وأبقى، وقال شروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين، لمّا أخرجوه من أيديهم وتركوه وتابوا إلى أبيهم وزهدوا فيه. ثم يصبر عمّا زهد فيه ليحق زهده كما قال وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وقال عز وجل لربك فاصبر. ثم يشكر على ما صبر عنه ليكمل صبره كما قال لا قوة إلا بالله، وما بكم من نعمة فمن الله، واذكروا نعمة الله عليكم. ثم يرجو مَن شكَر له ليزيد من فضله فيعطيه فوق سؤله بحسن ظنه به كما قال تعالى ويرجو رحمة ربه، وقد ذمّ من أيِسَ من رحمته بقوله ولئن أذقنا الإنسان منّا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور. ثم يخاف فوْت ما رجا ويخاف من تقصيره فى الشكر لمَا أُولِىَ لتحق غبطته برجائه ويتم إشفاقه من تبديل الآية ويخاف نقصان المزيد، كما قال سبحانه يدعون ربهم خوفا وطمعا، وقال مخبرا عن أوليائه إنّا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمَنّ الله علينا. وقد عاب الله من فَرِح بما أظهر له، وفَخَر بما أوتى، وأَمِنَ عوْد البلاء ونسى أنه كان مبتلًى، فى قوله تعالى ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسّته ليقولن ذهب السيآت عنى إنه لَفَرِحٌ فخور. ثم يتوكل على من خافه فيسلم نفسه إليه ويستسلم بين يديه أن يحكم فيه ما أحب، لقوله تعالى وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، وقوله نِعْم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون. ثم يرضى بمن توكل عليه وعمّن توكل له لعلمه بحكمته البالغة وتدبيره الحسن، لقوله تعالى رضى الله عنهم ورضوا عنه، ولقوله تعالى ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله. ثم يحب من رضى به ورضى عنه إذ كان قد اختاره على ما سواه، وإذ صار حسبه لمّا رآه. فصارت هذه **المقامات التسع** كمقام واحد بعضها منوط ببعض، دليلها كتاب الله تبارك وتعالى الحق اليقين، والنور المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه من طريق الهوى، ولا من خلفه من خيل الأعداء، فأشبهت دعائم الإسلام الخمس فى مقام العموم من طريق الإسلام إذ بعضها مرتبط ببعض، كهذه فى مقام الخصوص من طريق المقرّبين. ثم يرجع بعد مقام المحبة إلى حال الرضا قوةً فقوة، ثم يتردد فى مقام المحبة رتبةً رتبة. وليس

فوق حال الرضا مقام يُعرف، ولا فوق مقام المحبة حال يوصف، وهما موجب المعرفة ومنتهاها المعروف وقرارها المألوف، وإن إلى ربك المنتهى، إلى ربك يومئذ المستقر، فليس للرضا نهاية إذ ليس للمحبوب غاية، وإنّ الرضا مزيد أهل الجنة فى الجنة، وليس للحب نهاية لأنه عن الوصف، ولا غاية للصفات، وليس لطلب المحب حد لأنه عن القُرب، ولا غاية للقرب لأنه عن وصف قريب، ولا حد لقرب فيترافع المؤمنون فى الحب مقامات على نحو تجلى الحبيب بمعانى الصفات، ويتزايد الرضوان فى الرضا درجات حسب تعاليهم فى علو المشاهدات، ويتعالى أهل عليّين فى العلو غايات على قدر أنصبتهم من قوة الإيمان وصفاء اليقين. قال الله تعالى وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، فأعطاهم من معانى وصفه العلو، ثم وصف نصيبهم بوصفهم فقال ان كتاب الأبرار لفى عليّين وما أدراك ما عليّون، فعليّون لا نهاية له فى العلو إذ هو من أسماء المبالغة فى الوصف، وقيل إنه اسم لا واحد له من جنسه فهو علّيٌ فى علوهم يعلو بهم أبدا فى علو علوهم فى دار الأبد، وهم أعلون لأن الأعلى معهم فهم يعلون به وعليون يعلو بهم، هذا كله لأنه معهم كما قال وأنتم الأعلون والله معكم. فالرضا الأول الذى هو قبل المحبة مقام التوكل وحال المحب المحبوب حاله، والرضا الثانى الذى يكون بعد المحبة مقام المعرفة وحال المحبوب التوكل حاله.

والمحبة من أشرف المقامات، ليس فوقها إلاّ **مقام الخلّة** وهو مقام فى المعرفة الخاصة، وهى تخلل أسرار الغيب فيطلع على مشاهدة المحبوب بأن يعطى الحيطة بشىء من علمه بمشيئته على مشيئته التى لا تتقلب وعلمه القديم الذى لا يتغير. وفى هذا المقام الإشراف على بحار الغيوب وسرائر ما كان فى القديم وعواقب ما يؤب. ومنه مكاشفة العبد بحاله، وإشهاده من المحبة مقامه، والإشراف على مقامات العباد من المآل، والاطّلاع عليهم فى تقلّبهم فى الأبد حالاً فحالا. وقد ذكر **أبو يزيد البسطامى وأبو محمد سهل** أنهما أقيما فى هذا المقام ووَصَفا حالهما منه. وقد كان **لشقيق وابن أدهم البلخيين** مطالعات فى هذه المعانى، وقد سُلك **بأبى الفيض** فى هذا الطريق. وهذا محجوب عن أوهام القلوب بعقولها، ومستقر فى جبّ غاية القلوب بأرواحها، فإذا خرجت النفس من الروح فكان روحانيا خروج الليل من النهار تنفس المكروب، وإذا خلا العقل عن القلب فكان ربانيا انفرجت الكروب كما قال العارف:

بحياتى يا حياتى * لا تبعد قرباتى
أخرج النفس من الرو * ح وروّح كرباتى

وقد قال أحسن القائلين ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، والاستثناء واقع على اعطاء الحيطة بشيء من شهادة علمه. وهذا معنى من سر التوحيد لا يكشفه إلاّ عين اليقين. وقد كان للشيخ **أبى الحسن بن سالم** رحمه الله تعالى من هذا الطريق مشاهدات ومطالعات وسياحات فى الغيوب وجريان فى الآخريات، وانقلبت له الأعيان وظهر له العيان وطوى له المكان، ورأى ألف ولىّ لله تعالى وحمل عن كل واحد علما، ثم انقطع الطريق بعد فقده وعفا الأثر ودرس الخبر،ثم الله تعالى أعلم بما هو صانع بهذا الطريق وأهله، هل ينشىء له أهلا وينهج له غامضات الطريق طريقا أم يطويهم فى طى طريقهم ويخفى طريقهم فى خفاء الموج الغامض فى غامضات العلم السابق، نقول فى ذلك كما قال إمام الأئمة **علىّ بن أبى طالب** كرّم الله وجهه بعد إذ ذكر فى خطبته قيام الساعة واستقرار أهل الدارين فيهما، قال ثم الله أعلم بما هو صانع بالدنيا بعد ذلك، فهذا من سرّ السرّ الذى أودعه صاحب الأمر.

وليس فوق مقام الخلة مقام إلا درجة النبوّة، وهو محجوب عن القلوب كحجاب هذا المقام من الخلة عن قلوب العموم. ومقام الخلة لايكون إلا مقام محبوب. وماسمعت من أحد من أهل العلم الباطن والمعرفة الثاقبة رسما من علم الخلة ولا من وصف محبوبه شيأ فى كتاب الله تعالى ولا إشاراته إلا نكتا فى الأخبار ولُمَعاً من الآثار. وقد كان **الحسن** رحمه الله تعالى يروى فى الخلة أخباراً منها ان الله عز وجل أوحى إلى بعض أوليائه إنما اتخذ من لا يفتر عن ذكرى ولا يكون له غيرى ولا يؤثر علّى شيأ من خلْقى، وإنْ حُرّق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا، وإن قُطّع بالمناشير لم يجد للمس الحديد ألما. وقد روينا عن **الخليل الحبيب** عليه السلام أنه قال تحابوا فى الله وتصافوا وتباذلوا وتخاللوا فيه. أولَيس من كرم الله تعالى أنْ اتخذ عبدا من عباده خليلا، فنبه أن الخلة من الله تعالى كانت لأوليائه عن فرط كرمه وفضل آلائه، وقد تكلم **الجنيد** رحمه الله تعالى فى مقام من هذا وقد سئل عنه، فقال هو غاية الحب وهو مقام عزيز يستغرق العقول وينسى النفوس، وهو من أعلى علم المعرفة بالله تعالى. وقال فى هذا المقام يعلم العبد أن الله عز وجل يحبه، ويقول العبد بحقى عليك وبجاهى عندك، ويقول بحبك لى، قال وهؤلاء هم المدّلون على الله تبارك وتعالى والمستأنسون بالله تعالى، وهم جلساء الله تعالى قد رفع الحشمة بينه وبينهم وزالت الوحشة بينهم وبينه، فهم يتكلمون بأشياء هى عند العامة كفر بالله تعالى، لما قد علموا أن الله تعالى يحبهم، وأن لهم عند الله جاها ومنزلة. ثم قال عن بعض العلماء أمّا أهل الأنس بالله تعالى فليس إلى معرفتهم سبيل.

ومقام الخلّة لا يعطاه العبد إلاّ فى مقام مع مقام، فالمقام الأوّل هو المعرفة الخاصية بظهور تُعرف كشفاً عن وصف الباطن، ثم يدخل عليه المحبة المخصوصة هو مقام المحبوب، ثم يُرفع من هذا المقام إلى مقام **الخلة** وهو الإشراف على سرائر الغيوب وغير ذلك، والأصل فيما ذكرناه أنه سبحانه يعطى مقامات المعرفة فى مقام عارف ولا يعطى فيه مقام محبوب. وقد يعطى مقامات من المحبة فى مقام محب ولا يعطى شهادة خلة لغير خليل عارف، فإذا جمع مقام معرفة إلى مقام محبة محبوب أُعطى مقاما من الخلة الذى وصفناه. ورويناً عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنه خطب الناس قبل موته بثلاث فقال إن الله تعالى قد اتخذ صاحبكم خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، فَرُفِع صلى الله عليه وسلم فى مقام محبوب إلى درجة خليل، كما نُقِلَ من مقام محب إلى حال محبوب، كما زيد بالمحبة فى مقام محبوب الصفوة. وقال أيضا فى المقام الأول إن الله عز وجل اتخذ موسى صفيا واتخذنى حبيبا، فأول العطاء هو الصفاء من الهوى، ثم المحبة بعد الصفاء، ثم الزيادة بوصف محبوب فوق المحبة، ثم ارتفع فعلا بعد القوّة والاستواء إلى العليِّ الأعلى، فدنا لمّا علا، فتدلّى حتى دنا، فكان قاب قوسين أو أدنى.

وكان ما كان مما لست أذكره * فظُنَّ خيرا ولا تسأل عن الخبر

إذ من العلوم علم لا ينبغى أن يُسئل عنه، فهذا منها فلا يُبدَى إلا بقدر معلوم بمقدار ما أبدى المبدىء، ويعيد منه بقدر ما أعاد المعيد، وكان لديه **خليلا** كما كان عنده قريبا، فصارت **الخلة** مقاما فى محبوب، وهو نهاية المزيد، كما كان مقام محبوب وزيادة على مقام محب، كما رفعه إلى المحبة بعد الصفوة من كدر الهوى. وكذلك أنت أيها السامع الشاهد يجعل لك بعد الصفاء نصيبا من نصيب، وشهادة على شهادة، ووجْداً من وجْد، وفقداً للنفس من فقد، فلا يذهب كثير النبوّة منه صغير العطية لك، لأنه تعالى رفع الطائعين له ولرسوله صلّى الله عليه وسلم مقاما إلى مقام النبيّين والصدّيقين، والصديقون باقون إلى نزول الروح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، وهم الأبدال عددهم فى كل الدنيا **ثلثمائة** وماشاء الله، منهم الشهداء والصالحون، فهم **ثلاث طبقات** وكلهم مقربون سابقون، إيمان صدّيق منهم كإيمان جميع الشهداء، وإيمان شهيد كإيمان كل الصالحين، وإيمان كل صالح بمقدار إيمان ألف مؤمن من عموم المسلمين.

وليس فى الخلة شريك لغير الخليل على خليله، ولأنها حال مفردة لفرد موحدة لواحد، ولو كان يصلح لها نظير ويوزر بها وزير كان أحق الأمة بذلك **الصدّيق**، فقد أعطاه تعالى **ثلاثا** لم يعطها غيره، منها أنّا روينا أن **النبى صلى الله عليه وسلم** قال له إن الله عز وجل أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى، وأعطانى مثل إيمان كل من آمن بى من ولد آدم. **والحديث الثانى** أن لله تعالى ثلثمائة خلُق، من لقيه بخلُق منها مع التوحيد دخل الجنة. فقال **أبو بكر رضى الله تعالى عنه** يا رسول الله هل فىّ منها خلُق واحد، فقال كلها فيك يا أبا بكر، وأحبُّها إلى الله عز وجل السخاء. **والحديث الثالث** هو المستفيض: رأيت ميزانا دُلِىَّ من السماء فوُضِعتُ فى كفة فرجحتُ بهم، ووضع أبو بكر فى كفة وجىء بأمتى فوضعت فى كفة فرجح بهم. وليس بين الصدّيق وبين الرسول إلاّ درجة النبوّة. والقطب اليوم الذى هو الإمام للأثافى الثلاثة، والأوتاد السبعة، والأبدال الأربعين أو السبعين إلى ثلثمائة كلهم فى ميزانه، وإيمان جميعهم كإيمانه، إنما هو بدل من أبى بكر رضى الله تعالى عنه، والأثافى الثلاثة بعده إنما هم أبدال الثلاثة الخلفاء بعده، والسبعة هم أبدال السبعة إلى العشرة، ثم الأبدال الثلثمائة وثلاثة عشر إنما هم أبدال البدريين من الأنصار والمهاجرين أهل الرحمة والرضوان. فمع هذا الفضل العظيم لأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لم يصلح أن يُشرك الحبيب الرسول المقرب الخليل فى مقام **الخُلّة** كما صلح أن يشرك فى **مقام الأخوة**، وهو المقام الذى شرك فيه علياً كرّم الله وجهه، فقال علىّ منى بمنزلة هرون من موسى، فهذا مقام أخوة. كذلك فى التفرد بمقام الخلة لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله تبارك وتعالى، يعنى نفسه صلوات الله عليه، لأنه واحد لواحد مفرداً لمفرد، فاعتبروا يا أولى الألباب بتدبر فهم الخطاب، فمَن أُعطى من الصفاء نصيبا أُعطى من الحب نصيبا، وكان له من المعرفة بقوة محبته، ومن المعرفة بقدر معرفته. فأما المعرفة الأصلية التى هى أصل المقامات ومكان المشاهدات فهى عندهم واحدة لأن المعروف بها واحد والمتعرف عنها واحد، إلاّ أن لها أعلى وأول، فخصوص المؤمنين فى أعلاها وهى مقامات المقرّبين، وعمومهم فى أولها وهى مقامات الأبرار وهم أصحاب اليمين، ولكل منهم وجهة من الصفات المخوّفة عنها كانوا خائفين، أو الأخلاق المرجوّة منها كانوا راجين، أو الأفعال والأملاك عندها كانوا صابرين شاكرين، أو معانى أوصاف ذات منها كانوا محبين متوكلين. قال الله سبحانه وتعالى ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات. ويقال من أحب شيأ حُشِرَ معه. وفى الخبر المرء مع مَن أحَبّ وله ما احتسب. وفى الخبر من مات على مرتبة من المراتب بُعث عليها يوم القيامة.

فأمّا جُمْله **مقامات المحبين** فمذكورة فى الكتاب العزيز من الحبيب **إثنا عشر مقاما**، **خمسة** فى دليل الخطاب وتدبر الألباب، **وسبعة** فى صريح الكلام بظاهر الإفهام. فأمّا السبعة المصرّحة فقوله عزّ وجل إن الله يحب **التوابين**، ويحب **المتطهرين**، والله يحب **الصابرين**، والله يحب **الشاكرين**، والله يحب **المتقين**، والله يحب **المحسنين**، والله يحب **المتوكلين**. وأما **الخمسة** المتدبرة فهم الموحدون لقوله لا يحب الكافرين، **والعادلون** لقوله لا يحب الظالمين، **والمستقيمون** لقوله لا يحب الفاسقين، **والمتواضعون** لقوله لا يحب المستكبرين، **والموفون** لقوله لا يحب الخائنين. وهؤلاء طبقات المحبوبين تعريضا وتصريحا. وشرح هذه الأوصاف هى مقامات اليقين، وفى كل مقام من هذه أحوال يكثر عددها، كل حال منها طريق إلى الله عز وجل، فى كل طريق طائفة من المحبين محبتهم على قدر معرفتهم، ويقينهم على حسب صفاء إيمانهم، وإيمانهم على نحو عناية الله بهم وتفضله عليهم وإيثاره لهم. وليس فوق المحبة مقام مشهور ولا دون التوبة حال مذكور، فأول المقامات التوبة يخرج بها من الظلم، والظلم حال من الشرك، قال الله تعالى الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن فى الآخرة وهم مهتدون فى الدنيا. وهذا فصل الخطاب لأضدادهم، فأى الفريقين أحق بالأمن، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك هم أحق بالأمن غدا فى المقام الأمين، وقال تعالى ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، فآخر الظلم أول التوبة، وآخر التوبة أول المحبة، وآخر المحبة أول المعرفة، وأوسط المقامات الزهد، وأول الزهد آخر الهوى، وآخر الزهد أول العلم، وآخر العلم أول الخوف، وآخر الخوف أول الحب، وهذا حب محبوب، والظالم لا مقام له ولا جاه. ومن لا جاه له فلا شفاعة، ومن لا شفاعة فلا شهادة، ومن لا شهادة فلا يقين. وقد روينا فى تفسير قوله تعالى لا ينال عهدى الظالمين، قيل الجاه، وقيل الشفاعة، ويقال الولاية، وقيل الإمامة. والظلم ظلمةٌ اليوم فى القلب، وظلمةٌ غدا فى القيامة، فالتوبة تُخرج العبد من الظلم، وبخروجه من الظلم يدخل فى منازل العهد، وبرعاية العهد يعمل فى الإصلاح، والله لا يضيع أجر المصلحين كما لا يصلح عمل المفسدين، فإذا كان مصلحا بالتوبة ما أفسد بالهوى استُعمل بالصالحات لأنه قد صلح، فإذا عمل بالصالحات لندخلنهم فى الصالحين لأنه قد فَضُل. قال الله تعالى ويؤت كل ذى فضل فضله، وقال فى البيان الأول وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين، فمن صلح له تولاه، ومن تولاه علّمه وحبّاه وكاشفه من نفسه وعافاه وأحبه، فكان هو حسبه، وكفاه وجعله تحت كنفه وآواه، فيكون ظاهر حاله العصمة من الهوى، وأعلاه مشاهدة عين اليقين من المولى.

والتائب حال من أول المحبة، والتوّاب مقام من حقيقة الحب، والناس فى التوبة مقامات حسب كونهم فى الهوى طبقات، وهم فى الحب درجات، ويلزم كل عبد من المجاهدة على قدر ما ابتلى به من الهوى، ويثبت له من المحبة بقدر ما صح له من التوبة، ويسقط عنه من المجاهدة بقوة ما يكشف له من المشاهدة، فيحمل الإشهاد عنه آلام الجهاد، فيكون العبد فى البلاء محمولا، ويكون يقينه بالشهادة واليقين موصولا، وهذا من سوابغ العوافى، ومن تمام النعماء. وهؤلاء الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء، وهم الذين جاء الخبر فيهم إن لله عباداً ضنائن من خلْقه يغذوهم برحمته ويجعلهم فى ظل عافيته، يضن بهم عن القتل والبلاء، ويحييهم فى عافية، ويدخلهم الجنة فى عافية، أولئك الذين تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم وهم منها فى عافية، فتدبروا فلا ييأس عبدٌ من فضل مولاه، ولا يقطعن من حبله رجاه، ولا يستوحش من التقرب إليه بما يحب.

وقد تلتبس المحاب فتدخل محبة النعم فى محبة المنعم، وتدخل محبة النفس على محبة الخالق، ويشتبه ذلك عند عموم المحبين ممن لم يُكشَف له عين اليقين، فيكون العبد محبا للنعم وهو يظن بوهمه أنه محب للمنعم، ويكون محبا لنفسه ويحسب أنه محب لمولاه، وعلامة ذلك سكونه إلى الأشياء وفرحه بالموجودات، ووَجْد راحته ولذته فى هواه، فربما اختار الله تعالى أن يكشف له حاله قبل موته، وربما ستر عليه حاله ولم يفضحه حتى يلقاه فيثيبه ثواب مثله وجزاءه، وليس يظهر فرقان هذا إلا فى قلب موقن مراد بنور ثاقب وعلم نافذ ويقين صاف من عين التوحيد وشاهد القيومية، لأنه الفرقان الذى وعده الله تعالى المتقين من المؤمنين فقال يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا، قيل نوراً تفرقون به بين الشبهات، وهو المخرج الذى ضمنه الله تعالى لأهل التقوى والمنهج فى قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا.

وقيل إن المحبين لله تعالى خصوص وعموم، **فالخصوص** أحبوه من طريق مشاهدة الصفات، فحب هؤلاء بقلب ووجْد لا يتغير أبدا، وهم مثبتون فيه إلى لقاء الحبيب، وهؤلاء عبدوه على التعظيم والمحبة والإجلال والكبرياء، وفى هؤلاء المقربون، والمحبون، والخائفون، والعاملون، والمتوكلون، والراضون، وهو المقام الأعلى وهم الأعلون عنده فى المنتهى. **والعموم** أحبوه من طريق مواجيد الأفعال وهى النعم والإحسان والأيادى والأفضال، وعما أظهر من

العوافى. والذين خدموه شهوة وعادة وحاجة أحبوه لمنافعه ومرافقه ولأجل ما فى يده من مُلْكه، وحب هؤلاء يتغير لانقلاب الأحكام، وهؤلاء لم يتحققوا بالإخلاص ولا الزهد، وقد بقى عليهم فى نفوسهم هوى حجبهم ذلك عن مخالصته، وهذه هى أوصافهم عائدة لهم وعليهم، فحب هؤلاء حُوّل قُلّب لأن الأفعال التى أحبوه لأجلها تُحوّل فيُحوّلون، وتختلف عليهم بالمكاره والمرائر فيختلفون. وفى هؤلاء المريدون والعاملون والراجون والطامعون والتائبون. وأصحاب اليمين من هؤلاء. وقد قال بعض العارفين كل محبة كانت عن عوض إذا زال العوض زالت المحبة، فمنهم من عرف حاله فى مقامه فاعترف بنقصان محبته وتقصير شهادته واستغفر منها وأناب، ومنهم من لبس عليه ذلك لنقصان مزيده وضعف يقينه فكانت محبته عن صفات متصلة بذات، ويُخاف على مثل هذا الانقلاب عند كشف الغطاء لأنه فى اغترار وفتنة والتباس ومحنة، وفى طريق مكر وهلكه، إلاّ أنْ تدّاركه رحمة من ربه فيوقّف فى حده فى مقامه، ويرده إلى حاله من مكانه، فيتوب من محبته ويستغفر من شهادته، فحينئذ يرحمه اللّه تعالى فيُدخله فى أهل العفو ويستر عليه فى الآخرة كما ستر عليه فى الدنيا، فلقيه تحت الستر فى الدارين. وهذه بعض مخاوف الصادقين من المحبين، لأنها محبة إظهار لا ظهور، فصاحبها فى تقلب وغرور، إلاّ أن **أهل محبة الأفعال**، ينقسمون قسمين، منهم من أحبه لأجل أفعاله، إلاّ أنْ يشهدها منه فيراه فيها فهو يتبصر له ويتعمّل فى المجاهدة ويجتهد فى تنقية محابه لبقاء حاله، فهذا أعلاهما، وهذه محبة عموم أهل الآخرة الذين لا يشهدون سواها ولا يطلبون إلاّ إياها، ومنهم من تتغير عليه الأفعال، وتخرجه من الاعتياد، ويتّابع عليه البلاء ويُنقصه من العوافى فى المال والنفس، فيُخرج صفته ويَظهر منه تسخطه وتبرمه به، فهذا قد افتضح بدعوى المحبة، وقد كشفه بعد ستره فلم يزنْ فى المحبين حبة. وهذه **محبة أهل الدنيا** الذين هم لها يكدحون وإياها يطلبون.

وقد سئل **الجنيد** رحمه اللّه تعالى عن المحبة، فقال الناس فى محبة اللّه **خاص وعام**، فالعوام قالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه، إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان. فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظيم القدر والقُدرة، والعلم والحكمة، والتفرد بالمُلك، فلما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه، إذ استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لها ولو زال عنهم جميع النعم. ومن الناس من يكون محباً لهواه أو لعدوّ اللّه إبليس، وهو يدّعى لعظيم جهله وطول غرته المحبة للّه تعالى. ومن

محبة الهوى إيثار عاجل حظ النفس على آجل ما وُعدت به، ويقدم محبتها على محبة الله عز وجل، وهى مطبوعة على محبة الهوى وكراهة الحق، أمّارة بالسوء فيما تسر، كذّابة فيما تُظهر من الخير. قال الله سبحانه وتعالى وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيأ وهو شر لكم، فقرن محبتها بالشر، وقرن كراهتها بالخير.

الفصل الثالث والثلاثون

فى ذكر دعائم الإسلام الخمس التى بنى عليها

أول ذلك **فرض شهادة التوحيد** للمؤمنين ووصف فضائلها، وهى شهادة المقرّبين وشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم، وفضلها للموقنين قال الله تعالى وصدقت أنبياؤه لرسوله صلى الله عليه وسلم، فاعلم أنه **لا إله إلا هو**، واستغفر لذنبك، وقال لعباده يأمرهم بمثل ذلك فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو، **ففرض التوحيد** هو: اعتقاد القلب أن الله تعالى واحد لا من عدد، وأول لا ثانى له، موجود لا شك فيه، وحاضر لا يغيب، وعالم لا يجهل، وقادر لا يعجز، حى لا يموت، قيّوم لا يغفل، حليم لا يسفُه، سميع بصير َملك لا يزول مُلكه، قديم بغير وقت آخر، بغير حد كائن، لم يزل ولا تزال الكينونة صفته، لم يحدثها لنفسه، دائم أبد الأبد لا نهاية لدوامه، والديمومة وصفه، غير محدثها لنفسه، لا بداية لكونه، ولا أولية لقدمه، ولا غاية لأبديته، آخر فى أوليته، أول فى آخريته. وإنّ أسماءه وصفاته وأنواره غير مخلوقة له ولا منفصلة عنه، وأنه أمام كل شىء ووراء كل شىء وفوق كل شىء وأقرب إلى كل شىء من نفس الشىء، وأنه مع ذلك غير محل للأشياء وأن الأشياء ليست محلاً له، وأنه على العرش استوى كيف شاء بلا تكييف ولا تشبيه، وأنه بكل شىء عليم، وبكل شىء محيط. هو ذات منفرد بنفسه، متوحد بأوصافه، ولا يمتزج ولا يزدوج إلى شىء، بائنٌ من جميع خلْقه، لا يحل الأجسام ولا تحله الأعراض، ليس فى ذاته سواه، ولا فى سواه من ذاته شىء، ليس فى الخلق إلاّ الخلق، ولا فى الذات إلا الخالق، فتبارك الله أحسن الخالقين، وأنه تعالى ذو أسماء وصفات، وقُدرة وعظمة، وكلام ومشيئة، وأنوار كلها غير مخلوقة ولا محدثة، بل لم يزل قائما موجوداً بجميع أسمائه وصفاته وكلامه وأنواره وإرادته، وأنه ذو المُلْك والملكوت والعزة والجبروت، له الخلْق والأمر والسلطان والقهر، يحكم بأمره فى خلقه ومُلكه، ما شاء كيف شاء،

لا معقب لحكمه، ولا مشيئة لعبد دون مشيئته، إنْ شاء شيأ كان، ولا يكون إلا ما شاء، لا حول لعبدٍ عن معصيته إلا برحمته، ولا قوة لعبدٍ على طاعته إلاّ بمحبته، وهو واحد في جميع ذلك لا شريك له ولا معين في شيء من ذلك، ولا يلزمه إثبات الوعيد بل المشيئة إليه في العفو، ولا يجب عليه في الأحكام ما أجرى علينا، ولا يُختبر بالأفعال ولا يُشار بالمقال، حكيم عادل بحكمة وعدل هما صفتاه، لا يشبه حكمته بحكمة خلقه، ولا يقاس عدله بعدل عباده، ولا يلزمه من الأحكام ما ألزمهم، ولا يعود عليه من الأسماء المذمومة كما يعود عليهم، قد جاوز العقول، وفات الأفهام والأوهام والعقول، هو كما وصف نفسه وفوق ما وصفه خلقه، نَصِفُه بما ثبتت به الرواية وصحّت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه ليس كمثله شيء في كل شيء، بإثبات الأسماء والصفات ونفي التمثيل والأدوات، وأنه سبحانه وتعالى لم يزل موجودا بصفاته كلها لم تزل له، وأن صفاته قائمة به لم تزل كذلك، ولا يزال بلا نهاية ولا غاية، ولا تكييف ولا تشبيه ولا تثنية، بل بتوحيد هو متوحد به، وتفريد هو منفرد به، لا يجرى عليه القياس، ولا يُمثَّل بالناس، ولا يُنعَت بجنس، ولا يُلمس بحس ولا بجنس من شيء، ولا يُزدَوج إلى شيء، وأنّ ما سوى أسمائه وصفاته وأنواره وكلامه من المُلك والملكوت مُحدَثٌ كله ومظهر، كان بعد أن لم يكن، ولم يكن قديماً ولا أول، بل كان بأوقات محدثة وأزمان مؤقتة، والله تعالى هو الأزلى الذي لم يزل، الأبدى الذي لم يَحُل، القيوم بقيومية هي صفته، الديموم بديمومية هي نعته، أوّل بلا أوّل ولا عن أوّل، آخر لا إلى آخر بكينونة هي حقيقته، أحدٌ صمدٌ لم يلد، وبمعناه لم يولد، ومعنى ذلك لم يتولد هو من شيء ولم يتولد منه شيء، ومثل ذلك لم يُخلق من ذاته شيء، كما لم تخلق ذاته من شيء، سبحانه وتعالى عما يقول الملحدون من ذلك علواً كبيرا.

ذكر فرض شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى الكبير المتعال وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لَتُؤمنُنّ به ولتنصرُنّه، وقال عز وجل مَن يطع الرسول فقد أطاع الله، وقال إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، ففرضُ شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم أن تشهد: أن **محمدا رسول الله صلّى الله عليه وسلم** خاتم الأنبياء، لا نبي بعده، وكتابه خاتم الكتب لا كتاب بعده، وهو مهيمن على كل كتاب، ومصدّق لما سلف من الكتب قبله، وأنّ شريعته ناسخة للشرائع قاضية عليها إلاّ ما أقره كتابه ووافقه، وكتابه شاهد على الكتب

وحاكم عليها، وأنه هو الذى بشّر به عيسى عليه السلام أمّته وأخبر به موسى عليه السلام أمّته، وهو المذكور فى التوراة والإنجيل وسائر كتب الله عز وجل المنزّلة، وهو الذى أخذ الله ميثاق النبيّين أن يؤمنوا به وينصروه لو أدركوه، فأقرّوا بذلك وشهد اللّه تعالى على شهادتهم، وهو الذى أخذت الأنبياء شهادة الأمم على الإيمان به وأمرتهم بتصديقه وأخبرتهم بظهوره، وأنّ موسى وعيسى عليهما السلام لو أدركاه لزمهما الدخول فى شريعته، وأن بقية بنى إسرائيل من اليهود والنصارى كفرة باللّه لجحودهم رسالته، وأن إيمانهم بكتابه مفترَضٌ عليهم مأمورٌ به فى كتبهم وعلى ألسنة رسلهم، وأن طاعته ومحبته فريضة واجبة على الكافة كطاعة اللّه تعالى، واتباعُ أمره واجتنابُ نهيه مفترضةٌ على الأمة إيجابا أوجبه اللّه تعالى له، وفرضاً افترضه على خلْقه متصلٌ بفرائضه.

ذكر فضائل شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم

قال اللّه تعالى قل إنْ كنتم تحبون اللّه فاتّبعونى يحببكم اللّه ويغفر لكم ذنوبكم. وقال الرسول صلّى اللّه عليه وسلم لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين. وقال اللّه تعالى فى تحقيق المحبة يحبون من هاجر إليهم، ثم قال تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، فمن محبة الرسول صلى اللّه عليه وسلم إيثار سننه على الرأى والمعقول، ونصرته بالمال والنفس والقول، وعلامة محبته اتباعه ظاهراً وباطناً، فمن اتباع ظاهره أداء الفرائض واجتناب المحارم، والتخلّق بأخلاقه والتأدب بشمائله وآدابه، والاقتفاء لآثاره، والتجسس عن أخباره، والزهد فى الدنيا، والإعراض عن أبنائها، ومجانبة أهل الغفلة والهوى، والترك للتكاثر والتفاخر من الدنيا، والإقبال على أعمال الآخرة، والتقرب من أهلها، والحب للفقراء والتحبب إليهم وتقريبهم وكثرة مجالستهم واعتقاد تفضيلهم على أبناء الدنيا، ثم الحب فى اللّه، للبعيد المُبغَض وهم العلماء والعبّاد والزّهاد، والبُغْض فى اللّه للقريب المحَب وهم الظلمة المبتدعة والفسَقة المُعلنة. ومن اتباع حاله فى الباطن مقامات اليقين ومشاهدات علوم الإيمان، مثل الخوف والرضا والشكر، والحياء والتسليم والتوكل، والشوق والمحبة وإفراغ القلب للّه، وإفراد الهّم باللّه، ووجود الطمأنينة بذكر اللّه، فهذه معاملات الخصوص وبعض معانى باطن الرسول، وهو من اتّباعه ظاهراً وباطناً، فمن تحقق بذلك فله من الآية نصيب موفور، أعنى قوله تعالى قل إن كنتم تحبون اللّه فاتّبعونى يحببكم اللّه. وقد كان سهل

يقول علامة المحبة لله اتّباع الرسول، وعلامة اتّباع الرسول صلى الله عليه وسلم الزهد فى الدنيا . وقال أيضا فى تفسير قوله ومن يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم، قال يُطع الله فى فرائضه والرسول فى الدخول فى سنّنه، فإذا اجتنب العبد البدع وتخلّق بأخلاق الرسول صلّى الله عليه وسلم، فقد اتّبعه وقد أحب الله تعالى، وكان معه صلّى الله عليه وسلم غدا موافقا فى منزلته.

ذكر فضائل شهادة التوحيد ووصف توحيد الموقنين

قال الله تعالى شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، وقال سبحانه وتعالى الذين هم بشهادتهم قائمون، فشهادة الموقن بيقينه أن الله تعالى هو الأوّل فى كل شىء وأقرب من كل شىء، وهو المعطى المانع الهادى المضل، لا معطى ولا مانع ولا ضار ولا نافع إلاّ الله، كما لا إله إلا الله، وقُرْبُ الله منه ونظره إليه وقُدرته عليه وحيطته به، فيسبق نظره وهمّه إلى الله عز وجل قبل كل شىء، ويذكره فى كل شىء، ويخلو قلبه من كل شىء، ويرجع إليه فى كل شىء، ويعلم أن الله عز وجل أقرب إلى القلب من وريده، وأقرب إلى الروح من حياته، وأقرب إلى البصر من نظره، وأقرب إلى اللسان من ريقه، بقُربٍ هو وصفه لا بتقريب ولا بتقرّب، وأنه تعالى على العرش فى ذلك كله، وأنه رفيع الدرجات من الثرى كهو رفيع الدرجات من العرش، وأن قُربه من الثرى ومن كل شىء كقُربه من العرش، وأن العرش غير ملامس له بحس، ولا مفكر فيه بوجْس، ولا ناظر إليه بعين، ولا محيط به بدَرْك لأنه تعالى محتجب بقدرته عن جميع بريته، ولا نصيب للعرش منه إلاّ كنصيب موقن عالم به، واجدٌ بما أوجد منه من أن الله تعالى عليه، وأن العرش مطمئن به، وأن الله تعالى محيط بعرشه فوق كل شىء وفوق تحت كل شىء، فهو فوق الفوق وفوق التحت، ولا يوصف بتحت فيكون له فوق لأنه العلى الأعلى أين كان، لا يخلو من علمه وقدرته مكان، ولا يُحد بمكان، ولا يُفقد من مكان ولا يوجد بمكان، فالتحت للأسفل والفوق للأعلى وهو سبحانه فوق كل فوق وفوق كل تحت فى السمو، هو فوق ملائكة الثرى كهو فوق ملائكة العرش، والأماكن للممكنات، ومكانه مشيئته، ووجوده قدرته، والعرش والثرى وما بينهما وجد للخلق الأسفل والأعلى بمنزلة خردلة فى قبضته، وهو أعلى من ذلك ومحيط بجميع ذلك بحيطة هى صفته، وسعةٍ هى قدرته، وعلوٍ هو

عظمته، بما لا يدركه العقل ولا يكيفه الوهم، ولا نهاية لعلوه، ولا فوق لسموه، ولا بُعد فى دنوه، ولا حس فى وجوده، ولا مس فى شهوده، ولا إدراك لحضوره، ولا حيطة لحيطته. وقد قال الله تعالى للكل يخافون ربهم من فوقهم. وقال سبحانه سبح اسم ربك الأعلى، وقال عز وجل ألا إنه بكل شيء محيط، وأن الله تعالى لا يحجبه شيء عن شيء، ولا يبعد عليه شيء قريب من كل شيء بوصفه، وهو القدرة والدَرْك والأشياء مُبَعّدة بأوصافها، وهو البعد والحُجْب، فالبُعد والأبعاد حُكم مشيئته، والحدود والأقطار حُجْب بريته، والمسافة والتلقاء مكانة لسواه، والنواحي والجهات موضع للمحْدَثات، والنهار والليل مسكن للمصرّفات، والبُعد والفضاء مكان للمخلوقين، والتوسعة والهواء محل للعالمين، والأحكام والأقدار واقعة على خلْقه، وهو سبحانه وتعالى قد جاوز المقدار والأحكام، وفات العقول والأوهام، وسبق الأقدار واحتجب بعزه عن الأفكار، لا يصوره الفكر، ولا يملكه الوهم، حُجِب عن العقول ولم تحكم العقول بدرك صفاته إذ ليس كمثله شيء فيعرف بالتمثيل، ولا له جنس فيُقاس على التجنيس، وهو الله فى السموات وفى الأرض ثم استوى على العرش، وهو معكم أينما كنتم غير متصل بالخلق ولا مفارق، وغير مماس لكون ولا متباعد، بل متفرد بنفسه متحد بوصفه، لا يزوج إلى شيء ولا يقترن به شيء، هو أقرب من كل شيء بقُربٍ هو وصفه، وهو محيط بكل شيء بحيطة هى نعته، وهو مع كل شيء وفوق كل شيء، هو أمام كل شيء ووراء كل شيء بعلو ودنو هو قُربه، فهو وراء الحول الذى هو وراء حملة العرش، وهو أقرب من حبل الوريد الذى هو الروح، وهو مع ذلك فوق كل شيء ومحيط بكل شيء وليس يحيط به شيء، وليس هو تعالى فى كل هذا مكانا لشيء ولا مكانا له شيء، وليس كمثله فى كل هذا شيء، لا شريك له فى ملكه، ولا معين له فى خلقه، ولا نظير له من عباده، ولا شبيه له فى اتحاده، هو أوّل فى آخريته بأولية هى صفته، وآخر فى أوليته بآخرية هى نعته، وباطن فى ظهور بباطنية هى قربه، وظاهر فى باطنيته بظهور هو علوه، لم يزال كذلك أبدا، لا يتوجه عليه التضاد، ولا تجرى عليه الحوادث والآباد، ولا يُنتقص ولا يزاد، هو على عرشه باختياره لنفسه فالعرش حدّ خلْقه الأعلى وهو غير محدود بعرشه تعالى، والعرش محتاج إلى مكان والرب غير محتاج إليه، كما كان الرحمن على العرش استوى، الرحمن اسمه، والاستواء نعته متصل بذاته، والعرش خلْقه منفصل عن صفاته، ليس بمضطر إلى مكان يسعه، ولا حامل يحمله، ولا حيطة تجمعه، ولا خلْق يوجده، هو حامل للعرش وللحملة بخفّى لطفه، وجامع للعرش وللحفظة بلطيف صنعه، وموجد ما أحب

لمن يحب من التجلى بمعالى أسمائه وصفاته بخفى لطفه ولطيف قربه لاختصاص رحمته، وهو أظهر الكون من وراء الحول، هو ممكن للعرش ببسطه فى توسعة الحول، وهو محيط بالعرش والحول بالقدرة والطول، لا يسعه غير مشيئته، ولا يظهر إلا فى أنوار صفته، ولا يوجد إلا فى سعة البسطة، فإذا قَبض أخفى ما أبدى، وإذا بسط أعاد ما أخفى، لا يُعرَف إلا بشهوده، ولا يُرى إلا بنوره، ولا يعرف إلا بمشيئته، إنْ شاء وسعه أدنى شىء، وإن شاء لم يسعه كل شىء، إنْ أراد عرفه كل شىء، وإنْ لم يرد لم يعرفه كل شىء، إن أحب وُجد عند كل شىء، وإن لم يحب لم يوجد بشىء، وقد جاوز الحدود والمعيار، وسبق القبْل والأقدار، ذو صفات لا تُحصى ولا تتناهى، ليس محبوسا فى صورة، ولا موقوفا بصفة، ولا محكوما عليه بحُكم، ولا موجوداً بلِمَ، لا يتجلى بوصف مرتين، ولا يظهر فى صورة لاثنين، ولا يرد منه بمعنى واحد كلمتان، بل لكل تجلّ منه صورة، ولكل عبد عند ظهوره له صفة، وعن كل نظرة كلام، وبكل كلمة إفهام، ولا نهاية لتجلّيه، ولا غاية لأوصافه، ولا نفاد لكَلِمِه، ولا انقطاع لإفهامه، ولا تكييف لمعانيه هذه، إذ ليس فى التوحيد كيف، ولا للقُدرة ماهية، ولا يشبهه بهذه الأوصاف خلْق، إذ ليس للذات كفؤ، إذا احتجب عن العيان والأبصار رفع ذاته عن القلوب والأفكار فلم يخيله عقل ولم يصوره فكر، لئلا يملكه الوهم فيكون مربوبا وهو رب، ولا يُنظر إليه بفكر فيكون مقهوراً وهو قاهر، لا يُعقل بعقل لأنه عاقل العقل، ولا يُدرك بحيطة وهو محيط بكل حيطة، حتى يتجلى آخراً بإحسانه كما تجلى أولا بحنانه، فيشهد بحضوره وينظر بنوره، وليس هذا لسواه ولا يعرف بهذا إلاّ إيّاه، وهذا منه لأوليائه اليوم بأنوار اليقين فى القلوب، وهو لهم منه غدا بمعاينة الأبصار فى دار الحبيب أبد الأبد فى الجنان، يتجلّى لهم بعظائم القُدرة ولطائف الحنان، ويكلمهم بما لا غاية له من لذيذ المعانى، يتجلّى بصفات الجلال، ويظهر بمعانى الحُسن والجمال، ويبدو بلبس البهاء والكمال، يجمع لهم بأول معنى من معانيه بما يوجدهم به من النعيم والسرور والفضل والحبور، بكل نظرة أو كلمة أو قرب أو لطف أو عطف أو حنان أو إحسان جميع ما فرّقه من نعيم الجنان، وينظر إذا أحب إلى ما يحب اختياراً، لا تَهجم الأشياء عليه فى نظره إخبارا، ويعرض عما شاء اختيارا، لا تعترض المنظورات فى نظره اضطرارا، يعرض فى نظرة لكبرياء عزه، وينظر فى إعراضه بلطائف عطفه، المُلك فى قبضته، والخزائن فى كلمته، والكون فى مشيئته، والملكوت كله بيده، والجبروت والعظمة سبحات صفاته. وجود الأشياء لا يضطره إلى النظر إليها إن أراد الإعراض عنها لأنه مقتدر قهّار، وعدمها لا يضطره إلى أن يراها لسبق

علمه بها لأنها معلوم علمه ذى الإخبار ولأنه هو الجبار، إذ الموجود والمعدوم يضطر غيره إلى النظر لضعفه عن الامتناع، والعدم يضطر سواه إلى الفقد لعجزه عن الاختراع، وهو تعالى مباين لسواه بعزه، غير مماثل لغيره بقهره، لأن المعدوم كالمحجوب وهو تعالى يرى المحجوب من الذرة من تحت الثرى من وراء السموات والأرضين، ولا يحجبن نفاذ نظره إليها ولا يمنعن قربه منها، ولا يحجزن قدرته عليها، ولا يجاوز دون حيطته بها، إذا الحُجُب واقعة على الخلق غير متصلة بالخالق وبواطن الأشياء وغوامضها منكشفة للخالق. وهو أيضا يشهد المآل والأواخر إلى نهاية نهاياتها فى أبد أبدها كما يشهد ذلك اليوم، أعنى من غد وبعد غد وما وراءه إلى يوم القيامة وما فيها، وهذا كله عدم لم يخلقه بعد، لأن علمه بذلك شهادة له، لأنه ليس بينه وبين علمه حجاب فهو يشهد الكون من أوله إلى آخره من حيث علمه بعلم هو وصفه ومشاهدةٍ هى نعته، ولأن كلامه بذلك يخبر بأنه قد كان دليلا على شهوده المآب، لأنه شهد ما علم كما علم مابه تتكلم، فلم يتفاوت كلامه وعلمه ولم يختلف علمه وشهادته، ومع ذلك كله فلا وجود فى الأولية ولا المشاهدة سواه، ولا شريك له فى القِدَم ولا يقدم شاهد إلاّ إياه، قوته كنه قدرته، وقدرته دوام بقائه، ونظره سعة علمه، وعلمه مدى نظره، يدرك الأشياء كلها على اختلاف أوصافها بصفة من صفاته، ثم يدرك بجميع أوصافه ما أدركه بهذه الصفة، فصحّ بذلك أنه نظَر وعلِمَ وتَكلَّم، لا يدخل الترتيب فى صفاته، أعنى بقَبْل وبَعْد، ولا يوصف بوقت وحدّ، ولا يشبه بالتعقيب بقوته وأحكامه، أعنى بثُم ولِمَ وإذا وحتّى، ولزم على ذلك أنه يعلم بنظره وينظر بعلمه، فصارت الأوائل والأواخر لديه كشىء واحد، وكانت صفاته كلها آحاداًكاملات تامات غير محدودة للمحدودات ولا مؤقتة مرتبة للمرتبات المؤقتات، إذ لم يكن لها محدثات لأنها قديمة بقدمه وكائنة موجودة بكونه ووجوده، إذ الترتيب فى النعوت من وصف الخلْق، والأدوات لكونها محدَثة مُظْهرات بحدود وترتيب وأوقات، والله تعالى ليس كمثله شىء فى كل الصفات فصفاته قديمة بقدمه، وكائنة موجودة بكائنته ووجوده، والأفعال محدَثة مظهَرات بحدود وترتيب وأوقات بترتيب، فلا موجود فى الأولية ولا المشاهدة سواه، ولا شريك له فى القِدَم، ولا قيوم له فى الأبد والأزل سواه قبل وجود الوقت والحدثان، ليست صفاته ذوات جهات فيتوجه إلى جهته فيدرك بصفة دون صفة، ولا ذاته ذو ذات فيقبل على مكان دون مكان فيضطره الترتيب للمخلوقات، ولا يدبر الأمور بأفكار فيشغله شان عن شان، ولا يدخل عليه الاعتراض فيتغير عما كان، ولا يخلق بآله فيستعين بسواه، ولا يعجزه قدرة فيحتاج إلى

مباشرة يديه، يخلق بيده إذا شاء، وعن كلمته إن شاء، وبإرادته متى شاء، وبمعانى صفاته كيف شاء، لا يضطره التكوين إلى الكلام، وكلامه إليه كيف شاء كان، خزائنه فى كلمته، وقدرته فى مشيئته، إذا تكلم أظهر، وإن شاء قدر، ومتى أحب ظهر، وبأى قدرة شاء استتر، هو عزيز فى قُربه وقريب فى علوه، حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالفعال. كشف العلم بالإرادة، وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع بالصنعة، وأظهر الصنعة بالأدوات. هو باطن فى غيبه، وظاهر بحكمه وقدرته، غيب فى حكمته، وحكمته شهادة ظاهرة بمحكوماته، وهى مجارى قدرته، وصُنعه سرّ فى صنعته، وهى علانية مشيئته، ليس كمثله شىء فى كل صفة، ولا كقوله فى ماهية.

وقد روينا عن **أبى بكر الصدّيق** رضى الله تعالى عنه كلمة مجملة بالغة فى وصف **التوحيد**، أنه قال فى خطبته: الحمد لله الذى لم يجعل السبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن درْك معرفته. وروينا عن **أحمد بن أبى الحوارى** عن بعض علماء أهل المعرفة من أهل الشام أنه قال: رأىَ عزّ وجلّ خلْقه قبل أن يخلقهم كما رآهم بعدما خلقهم. وروى عن **أبى سليمان الدارانى** أن قال: أدخلهم الجنان قبل أن يطيعوه وأدخلهم النار قبل أن يعصوه. وقال أيضا: إن الله عز وجل أعز من أن يغضبه أفعال خلْقه، لكنه نظر إلى قوم بعين الغضب قبل أن يخلقهم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الغضب فأسكنهم دار الغضب. وهو أكبر من أن يرضيه أفعال خلْقه، ولكنه نظر إلى قوم بعين الرضا قبل أن يخلقهم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الرضا فأسكنهم دار الرضا. وقد روينا عن **ابن عباس** فى قوله عز وجل هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، يعنى كان فى علم الله أنه يكوّنه، وكأنه علّق قوله لم يكن بقوله مذكورا. والله تعالى يخبر بما يكون فى الدنيا وبما يكون فى القيامة وبما بعدها بلفظ أنه قد كان، لاستواء ذلك فى علمه آخرا كأول، إذ لا ترتيب فى العلم ولا حدّ ولا مسافة ولا بُعْدَ فى القدرة. وقد قال الله تعالى ومن أصدق من الله قيلا أعنده علم الغيب فهو يرى، فنقّصه بذلك وذمّه. وقال تعالى الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين، أى ويرى تقلبك وبه انتصب التقلب بالعطف على القيام، وجاء فى التفسير تقلبك فى الأصلاب الزاكية والأرحام الطاهرة لم يتفق لك أبوان على سفاح قط. وقيل فى أصلاب الأنبياء يقلّبك بالتنقيل فى صُلب نبى بعد نبى حتى أخرجك من ذرية ورثة إسمعيل. وقال تعالى فى سمع الأصوات قبل الأشباح وخلقها قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها، فأخبر أنه سمع الأصوات فى

القدم فى علمه قبل خلق المصوّتين فى الحديث، فكيف لا يرى الكون عن آخره فى القدم بعلمه قبل ظهورهم له متصوَّرين بفعله وقد قال تعالى ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، والخلق والتصوير كانا بعد السجود لآدم فاخبر عنه أولاً لشهوده له واستوائه فى علمه إذ لا بد من كونه، فأشبه قوله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش، والعرش قبل السموات والأرض، والاستواء صفته لم تزل به، ثم أخبر عنه أنه أخّر الترتيب فالله سبحانه وتعالى عالم بالكون قبل الكون، وناظر إلى علمه لا حجاب بينه وبين معلومه، وسامع لما شهد ومتكلم بما علم فقد سبق النظر والسمع والكلام الكون كله من حيث سبق العلم والقدرة والمشيئة، فهو ناظر سامع متكلم بنفسه من حيث كان عالما مقتدرا مريدا بنفسه، ثم أظهر الخلق عالّما بعد عالّم فى وقت بعد وقت، فجاؤا على نظره وسمعه كلامه كما كانوا فى علمه وقدرته ومشيئته بغير زيادة ذرة ولا نقصان خردلة. ألا ترى أنه بقدرته وعلمه يرى يوم القيامة وما فيها والآخرة، ما يكون منها على حقيقة ما أخبر عنه، لا يمنعه عدم الكون ولا يحجبه بعد التأخير؟ كذلك كان يشهد ما قد كان اليوم فى قدمه بعلمه به وبقدرته عليه وحيطته به، لا يمنعه عدم كونه ولا يحجبه فَقْد ظهوره. ولا يجوز أن يدرك سبحانه وتعالى اليوم مالم يكن أدركه فى القدم، كما لا يجوز أن يستفيد الآن علِمَ مالم يكن عَلِمه فيما لم يزل، فيكون متكلما بما لم يشهد وهو معلومه منطو فى علمه، أو يكون مستزيدا بما أظهر حين ظهر وهو فى قبضته وغيبه جلّ عن ذلك وصفه وعلا عن هذا جلاله وعزه، لأن نظره سعة علمه، وعلمه حيطة نظره، فهو ناظر إلى ما علمه بوصفه لا يختلف عليه أوصافه، فالكون موجود له بعلمه لسبق علمه به، ولا بيان له فى علمه ولا أثر له فى وصفه، ولا وجود للكون فى وجود كيونته، ولا قدم له فى قدم أزليته، ليس محلا للسكون ولا هو حال فيه، ولأن أوليته سبقت الكون والمكان فليس لهما فى قدِمه قدَم، كما أنه تعالى يشهد الآن ما يكون من العاقبة والمآل إلى آخر الأحوال، لا يختلف الأواخر والأوائل فى صفاته، ولا تتفاوت صفاته على ترتيبها من نظر وعلم لأنها معلوم علمه وموجود إرادته، فهو سبحانه وتعالى واجد الأشياء به لا بها، وناظر إليها فى علمه لا بوجودها، لاقتداره عليها وإحاطة علمه بها، والكون معدوم لنفسه لتلاشيه لأنه سبحانه وتعالى خالق العدم كما هو خالق الوجود، ليس للعدم قدَم مع قدمه فيكون ثانيا معه، ولا الكون كائن موجود بنفسه فيكون أولاً مع أوليته، جلّ الواحد المتّحد بنفسه عن ثان معه فى

الأزل أو شريك له فى القدم، ثم ظهرت الأشياء لنفوسها فظهر بعضها لبعض بإظهاره، فوُجدت بإيجاده، وظهر عليها بإظهاره بحدّ ووقت، ولا أول لها ولا قَبْل، بل هو الأول الذى لم يزل بلا أول، والقديم الأبد بلا وقت ولا أمد، قائم بصفاته، وصفاته موجودة له قائمة به، فمن شهد ما فصلناه بنور اليقين لم يدخل عليه قدم العالم إذ لا قديم مع الله فى كينونية أزله، ومن لم يهتد بما بيّناه ووقف مع العقل ودخلت عليه شبهة قدم العالم فألحد برؤيته قِدَم الحدثان، أو جحد قِدَم العلم ينفى وجود الحدث فيه، وهذا شرك بالصفات بترتيبه إياها بالعقل، ونحن بريئون من شهادته مبطلون لدعواه، منكرون لشركه فى القدم، موحدون باليقين ما ألحد بالعقل، لأن من قال إن شيأ قديم مع الله تعالى أو موجود بنفسه لنفسه فقد أشرك فى الصفات، ومن قال إن الله سبحانه نظر بعد أن لم ينظر أو علم بعد أن لم يعلم أو تكلم بعد أن لم يتكلم فقد قال بحدوث الصفات وقدّم عليها المعلومات، بل المعلومات منطوية فى العلم لا أثر لها فيه، والله قديم بعلمه وواجد لمعلومه بنفسه عن علمه به، لقدرته عليه بقهره، وناظر إليه بعلمه لا بعدم معلومه، والمعلوم معدوم لنفسه غير موجود بنفسه حتى أحدثه وأوجده، فظهر حين أظهره لمن أظهره بعضا لبعض لا لنفسه، إذ قد فرغ منه لعلمه به لا أنه قرّب له نظره، كما لم يُحدث به علمه لنفسه، وعلمه صفته لم يزل له وهو قائم بوصفه، ولا يجوز أن يُحدث له شيأ لم يعلمه، كذلك لا ينبغى أن يفقد شيأ لم يجده، ومن اختلف عليه ماذكرناه دخل عليه **مذهب المعتزلة والجهمية**، لأن المعتزلة مجمعة على اختلافهم أن الله تعالى لا يرى الشىء حتى يكون، واختلفوا فى العلم فقالت **العبّادية** من القدرية وهم أصحاب **عبّاد** أن الله تعالى لا يرى الشىء حتى يكون، يضاهون بذلك قول **النظّام وبشر المريسى** فى أن الله تعالى لا يرى الأشياء حتى تكون. **والجهمية** مجمعة على اختلافهم أن الله تعالى لم يتكلم بالشىء حتى كان، ثم خلق الكلام، فقدّموا الكوْن قبل كلامه كما قدّمه أولئك قبل نظره، وقال الجميع بحدوث النظر كما قالوا بحدوث الكلام والنظر، لأنهم قالوا بحدوث الأسماء بعد حدوث المسميات، وتقدُّم الاستطاعة من الخلق على الإرادة من الخالق، فاستوى بذلك شركهم وخرجوا به من التوحيد. كذلك كذبت **العبّادية** من القدرية أصحاب **عبّاد** يضاهون قول **النظامية والمريسية**، تشابهت قلوبهم فيتبعون ماتشابه منه. **والمعتزلة** أيضا مجمعة على نفى العلم والقدرة والمشيئة إلا أنهم يقولون عالمٌ ولكن لا يضطر علمه إلى شىء ولا يوجب شيأ، فجعلوه كالظن من الخلق

فقالوا عالم بلا علم قديم، وقادر بلا قدرة، ومريد بلا إرادة سابقة، وقدّموا الاستطاعة من الخلق فقالوا لئلا يلزمهم سبق المعلومات، وأن الإرادة والكلام من نعوت الأفعال مخلوقان. **والجهمية** أيضا مجمعة أن الله تعالى لا يتكلم بوصفه أصلا وإنما يُظهر فى أديم الفضاء الكلام بخلق الأعراض فى الأجسام، فكان هذا عندهم هو التوحيد لئلا يثبتوا مع الله قديما. وهذا عند **أهل السنة والجماعة** هو الإلحاد لنفى قِدَم الصفات والقول بحدوثها وانفصالها عن الذات، وليس يختلف أهل اليقين بحمد الله تعالى فى جميع ماذكرناه كما لا يختلفون فى صحة التوحيد، وهذه شهادة الموقنين وإيمان المقربين، فلا يتشبّهنّ لك العقل بالمعقول عن شهود ماذكرناه فيعقلك عن النفاذ للشهادة، فليس يشهد ماذكرناه من صفات الشهيد بنور العقل وإنما يشهد بنور اليقين، لأن خالقا لا يُشبَّه بمخلوق، ومن ليس كمثله شىء لا يُشْهَد إلا بما ليس كمثله شىء، وهو نور اليقين من نور القادر، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، وماذكرناه من وصفه تعالى هو ظاهر التوحيد المتصل بفرض الشهادة، لا يجرى على ترتيب المعقول ولا يُمثّل بقياس العقول، لأن نفى الصفات وإثباتها بالمماثلات موجود فى رأى العقول، كما أن الكفر والضلال موجود فى طبائع النفوس، لعدم شهادة الأبصار، ولفقد وجود مشاهدة الإلهية فى تخيل الأفكار، ولجريان المعتاد والعرف فى ظهور الأسباب.

كما حدثنا أن بعض الصدّيقين دعا إلى الله سبحانه وتعالى بحقيقة التوحيد فلم يستجب له إلا الواحد بعد الواحد فعجب من ذلك، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه تريد أن تستجيب لك العقول قال نعم، قال احجبنى عنهم، قال كيف أحجبك وأنا أدعو إليك، قال تكلم فى الأسباب وفى أسباب الأسباب، قال فدعا إلى الله تعالى من هذه الطرق فاستجاب له الجم الغفير. فإنما صحة التوحيد بإثبات الصفات وأوصاف الذات التى جاءت بها السنن، وشريعة الرسول صلى الله صلى الله عليه وسلم مع نفى الشَبَه والماهية ونفى الجنس والكيفية، ثم سكون القلب وطمأنينة العقد إلى الايمان بهذا والتسليم له لأجل نور اليقين الموهوب، لأن هذا إنما يشهد بنور اليقين وعلمه لا بعلم العقل ونوره، لأن خالقا لا يُرى بمخلوق، فالعقل مرآة الدنيا بنوره يشهد مافيها، والإيمان مرآة الآخرة وبه ينظر إليها فيؤمن بما فيها، والله تعالى إنما يُرى بنور اليقين وفى هذا مشاهدة الصفات، وهو حقيقة الإيمان وأعز مانزل من السماء، وهو السكينة المنزّلة فى قلوب المؤمنين لمزيد الإيمان، ولتعريف صفات المؤمن معها بترك ضرب الأخبار بعضها ببعض ومعارضة بعضها بعضا، أو ترتيب بعضها على بعض، بل يؤمن بكل

خبر ورد فى الصفات والقُدرة على حدّته، كما يسلّم جميعها على الجملة بإسلامه وإلا أدّى ذلك إلى نفى بعضها أو إبطال جميعها، لأنّا أخذنا الإيمان بمنّة الله تعالى ورحمته من قبَل التصديق واليقين والنقل، لا من قبل التقليد وحُسن الظن والعقل. وأربعة أشياء تسلّم ولا تُعارَض اعتراضا، أخبار الصفات وأصول العبادات وفضائل الأصحاب وفضائل الأعمال. ولولا أن الله تعالى تولى قلوب المؤمنين فحبّب الإيمان إليها وزينّه فيها وكرّه الكفر وشانه عندها لتاهوا فى الظلمات وغرقوا فى بحار الهلكات، لظهور الأغيار ومعاينة الأسباب، ولغيب القدرة عن العيان، ولِمَا ابتُلوا به من الحجُب والأعيان، ولكن الله تعالى سلّم وحبّب الإيمان فى القلوب، وزيّن وكرّه الكُفر والعصيان، وشيّن وكذلك مدح المؤمنين بالغيب المستور. ومن ذلك سبق المقربون بمشهادة النور فقال سبحانه وتعالى الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، فلولا أنهم كانوا فى ظلمة الطبع ما أمتّن عليهم من نور اليقين. وكذلك جاء الخبر أن الله تعالى خلَق الخلق فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه اهتدى، ومن أخطأه ضلّ. وفى أحد المعانى من قوله تعالى يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، قال يمحو الأسباب من قلوب الموّحدين ويثبت نفسه، ويمحو الوحدانية من قلوب الناظرين ويثبت الأسباب، ولولا أن التوحيد لم يرسمه عارف قط فى كتاب، ولا كشفه عالمٌ فى خطاب، لعجْز علوم العموم عن درْك شهادته، ولسبْق إنكاره العقول لضعفها عن حمل مكاشفته، لذَكَرنا من ذلك ما يُبهر العقول ويُبهت ذوى المعقول، ولكنا كرهنا أن نبتدع مالم نُسبَق إليه أو نُظهِر ما يضطرب العقول بالحيرة فيه. وحقيقة علم التوحيد باطن المعرفة ولا يسع معرفة ذلك الكافة، وإفشاء سرّ الربوبية كفر. قال بعض العارفين مَن صرّح بالتوحيد وأفشى الوحدانية فقتلُه أفضل من أحياء غيره. وقال بعضهم للربوبية سرّ لو ظهر لبطُلت النبوّة، وللنبوّة سرّ لو كُشف بطل العلم، وللعلماء بالله سرّ لو أظهره الله تعالى لبطُلت الأحكام، فقوام الإيمان واستقامة الشرع بكتم السر، به وقع التدبير، وعليه انتظم الأمر والنهى، والله غالب على أمره. وفوق ذلك **علم التوحيد**، والاسم منه **وحدانى**، فالتوحيد وصفه. وفوقه **علم الاتحاد** فالوصف منه **متحد**، وفوقهما **علم الوحدانية**، والاسم منه **واحد**، وفوق ذلك **علم الأحدية**، والاسم منه **أحد**. وهذه أسماء لها صفات، وأوصاف لها أنوار، وأنوار عنها علوم ،وعلوم لها مشاهدات، بعضها فوق بعض، وفوق كل ذى علم عليم. ثم **علم التوحيد** أول هذه العلوم وعموم هذه المشاهدات وظاهر هذه الأنوار وأقربها إلى الخلق، فالاسم منه **موّحد**. فهذا توحيده الذى

وحدّه به الموحدون من جميع خليقته فعاد ذلك عليهم برحمته. والمشاهدات الأول توحيد الرب تعالى نفسه بنفسه لنفسه قبل توحيد خلقه، فتوحيدهم إياه عن توحيده فيما كتبنا عنه وأخفيناه فيما أظهرناه، فهو محجوب فى خزائن الغيوب عن البصائر والفهوم، قد جاوز علم الملكوت كله فهو من ورائها فى خزائن الجبروت، وإنما ذكرنا من ذلك **قوت القلوب من علم التوحيد** ومالابد للإيمان منه من المزيد. وقال عالمنا **أبو محمد سهل** رحمه الله تعالى:العالم ثلاثة علوم: علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يسع إظهاره إلاّ لأهله، وعلم هو سرّ بين الله وبين العالِم، هو حقيقة إيمانه لا يظهره لأهل الظاهر، ولا لأهل الباطن. وقال بعض السلف قبله مامن عالِم يحدّث قوما بعلم لا تبلغه عقولهم إلاّ كان فتنة عليهم.

شرح ثانى ما بنى الإسلام عليه من الخمس وهو الصلاة

وأول ذلك وصف **الطهارة**: أولها فرائض الاستنجاء وسننه، وفرائض الوضوء وسننه وفضائله، وفرائض الصلاة وسننها، وأحكام المصلِّى فى وقت الصلاة، وإدراكها وما يتعلق بها، وهيئات الصلاة وآداب المصلِّى.

ذكر فرائض الاستنجاء

قال الله جلّ ثناؤه وصدقت أنباؤه: فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يقبل الله صلاةً بغير طهور. وقال عليه الصلاة والسلام: الطهور نصف الإيمان. وقال: مفتاح الصلاة الطهور.

فأول الطهارة الاستنجاء وفيه فرضان وأربع سنن. أحد الفرضين إزالة الحدث، والثانى طهارة المزيل وهو أن لا يكون رجيع دابة ولا مستعملًا مرة ولا عظْم ميتة، ويُكره له الاستنجاء بفحمة لأثرٍ فى ذلك. والسنن الأربع: وتر الاستجمار ثلاثاً أو خمسا أو سبعا، والاستنجاء بالماء، ومباشرة الأذى بالشمال، ومسح اليد بالتراب. فأمّا كيفية الاستنجاء فأن يأخذ الحجر بشماله ويمرّه على مقعدته من مقدمها مسحاً إلى مؤخرها، ثم يرمى به هناك، ثم يأخذ الحجر الثانى فيبتدىء من مؤخر المقعدة فيمسحها مداً إلى مقدمها ثم يرمى به، ثم يأخذ الحجر الثالث فيُديره حول المسْرَبة إدارة. وإنْ استجمر بحجر كبير ذى ثلاث شعب أجزأه عن ثلاثة أحجار. وفى الخبر من استجمر فليوتر.

وكان صلّى الله عليه وسلم إذا أراد الحاجة أبعد، وكان يتبوأ لحاجته كما يتبوأ الرجل المنزل لأنه كان لا يقعد في فضاء، بل كان ينصب وراءه شيئاً أو يقعد إلى حائط أو نَشَز من الأرض يستره، أو كوم من حجارة يحجبه، ثم يستدبر ذلك. وكان صلى اللهّ عليه وسلم لا يستقبل القبلة أيضا لغائط ولا بول. ولم يكن يرفع ثوبه للغائط حتى يدنو من الأرض. فأمّا من أراد أن يبول قريبا من صاحبه بحيث يراه ويحسه فلا بأس بذلك، فإنها رخصة من رسول صلى اللهّ عليه وسلم، رفع الحياء منها بفعله، لأنه كان عليه السلام أشد الناس حياء، وكان يبول وإلى جانبه صاحبه ليسنّ التوسعة في ذلك.

وقال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه فقال لا أحسبك تُحسن **الخراءة**، فقال بلى وأبيك إني بها لحاذق، قال فصفْها لي، قال أُبعد الأثر، وأُعد المدَر، وأستقبل الشيح، وأستدبر الريح، وأقْعِي إقعاء الظبي وأجْفِل إجفال النعّام. والشيح نبت طيب الرائحة يكون بالبادية، والإقعاء في هذا الموضع أن يستوفز على صدور قدميه، والإجفال أن يرفع عجزه. وفي حديث **سلمان** علّمنا رسول صلى اللهّ عليه وسلم كل شيء حتى الخراءة. أمرنا أن لا نستجمر بعَظْم ولا رَوَث، ونهانا أن لا نستقبل القِبلة لبوْل أو غائط، وأن يجلس أحدنا على رجله اليسرى وينصب اليمنى.

فأما وصف **الاستبراء** فهو أن يستفرغ الرجل بوله رويدا ولا يحرك ذكره فينشر البول على الحشفة، فإذا انقطع البول على مهل مدّ ذَكَره ثلاثا من أصله إلى الحشفة مدا رفيقا لئلا ينتضح البول، ثم ينتثره ثلاثا ويتنحنح ثلاثا، وإن فعل ذلك سبعا سبعا فقد بالغ، ثم يأخذ الحجر بيمينه ويأخذ ذَكَره بشماله ويمده عليه حتى يرى موقعه جافا، فهناك طَهُرَ حين انقطعت النداوة، ومن مَدّه إلى الأرض أو إلى حائط حتى يرى الجفوف عن أثره فمثِلُه، وهذا كافيه من الماء مالم ينتشر البول على الحشفة. ويستحب البول في أرض دمثة رخوة وعلى تراب مهيل. ويُكره له أن يبول مستقبل الريح أو على أرض صلبة كيلا ينضح البول عليه. وقد شبّه فقهاء المدينة الذكر بالضرع، وقال بعضهم إنه لا يزال يخرج منه الشيء بعد الشيء ما دمت تمدُه. وقيل إذا وقع الماء على الذكر انقطع البول. وقد كان أخفهم استبراء وأقلهم استعمالا للماء في الطهور أفقههم عندهم. وقد يكون مايظهر من النداوة بعد غسل الذكر بالماء أن ذلك من مرجع الماء يتردد في الإحليل لضيق المسلك وتلاحم انضمامه عليه، فإذا خشي الوسواس فلينضح

فرجه بعد وضوئه وهو أن يأخذ كفا من ماء فليرشه عليه. وفى خبر أن النبى صلى اللهّ عليه وسلم فعله. ويُكره مس الذكر باليمين.

ويخرج من الذكر خمسة أشياء: البول، والمذى، والودى - وهو لزوجة تتعقب البول إذا طال حبسه -والريح والمنى. ثم كلها توجب الوضوء إلا المنى - وهو الماء الدافق الذى يفتر عنه الذَكَر وتنقطع الشهوة ومنه يخلق الإنسان فإنه يوجب الغُسل. وما خرج من الذكر من غير ذلك من دود أوحصى ففيه الوضوء. وقد يخفى الريح فلذلك يُستحب الوضوء عند كل صلاة، وهو من المرأة أطهر.

ذكر فرائض الوضوء

قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلم مَن توضأ كما أُمر، وفى لفظ آخر من توضأ فأسبغ الوضوء وصلّى ركعتين ولم يحدّث فيهما نفسه بشىء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وفى لفظ آخر ولم يَسْهُ فيهما غُفر له ما تقدّم من ذنبه. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ألا أنبئكم بما يكفّر اللّه الخطايا به ويرفع به الدرجات، إسباغ الوضوء فى المكاره، ونقل الأقدام إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط. وتوضأ صلّى اللهّ عليه وسلم مرة مرة، وقال هذا وضوء لا يقبل اللّه الصلاة إلا به، ثم توضأ مرتين مرتين فقال من توضأ مرتين مرتين آتاه اللّه أجره مرتين، ثم توضأ ثلاثاً فقال هذا وضوئى ووضوء الأنبياء قبلى ووضوء إبراهيم عليه السلام.

ذكر فرائض الطهارة

وهى ثمانية: طهارة الإناء، ثم الماء الطاهر، والنّية، والترتيب على نسق الكتاب، وغسْل الأعضاء الثلاثة المأمور بها، ومسح الرأس، ولا ينفض يدّيه بالماء عند غسل وجهه وذراعيه فإن ذلك يكون مسحاً، ولا يلطم وجهه بالماء لطما فإنه مكروه، ولكن ليحمل الماء بيديه معا إلى وجهه ثم ليُسنه عليه سنّا، ويغسل وجهه غسلا من أصول شعر رأسه إلى ماظهر من لحيته وعلى ما استرسل منها، وليدخل البياض الذى بين أذنه ولحيته فى غسل وجهه، وليدخل مرفقّيه فى غسل ذراعيّه وهذا فرض، وينبغى أن يقطّر الماء من وجهه وذراعيه قطرا، ويكفيه فى مسح الرأس أن يمسحه بماء جديد، يبتدئ بمقدم رأسه ثم يردّ يده إلى مؤخره، ثم يردها إلى يافوخه، هذه مرة، وليمسح رأسه أجمع، وهذه الأربعة الأعضاء هى المنصوص عليها، فأما ذكر

الواو فى الترتيب فإنى سمعت بعض فقهاء العرب من أهل اللغة بمكة يقول إن الواو وإن كانت للجمع فلا تقتضى الترتيب فى الظاهر، فإنه إذا لم يرد به الجمع بين شيئين واستحال أن يجمع بها بين اثنين معا فإنها تقوم حينئذ مقام ثم وتكون للترتيب لا غير.

ذكر سنن الوضوء

وهى عشرة: التسمية، وغسل الكفين، والمضمضة، والاستنشاق، والاستنثار وهو إخراج الماء من الأنف، وتخليل اللحية، ومسح الأذنين، وغسل كل عضو ثلاثاً ثلاثاً، وأن يبدأ بالميامن، وتخليل أصابع القدمين.

ذكر فضائل الطهارة وما يقال عند غسل كل عضو من الأذكار

أول ذلك أن يتوضا قاعداً مستور العورة، وأن لا يكون الماء مشمسا وقد كُره ذلك، وقيل إن كراهيته في أرض الحجاز خاصة، وإسباغ الوضوء سيما فى الشتاء فإنه من عزائم الدين. وقال بعض السلف وضوء المؤمن فى الشتاء بالماء البارد يعدل عبادة الرهبان كلها. وأن لا يعتدى فى الطهور فقد نهى عن ذلك وهو أن يغسل كل عضو فوق الثلاث، والوضوء على الوضوء نور، وهو أن يتوضا لكل صلاة عن غير حدث فإن ذلك مستحب إذا أمكن وله بكل وضوء عشر حسنات، ويجزيه أن يصلى الخمس بوضوء واحد فقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. والوضوء على حدته قُربة إلى الله تعالى إذا نوى به العبد ذلك من غير أن يصلى به. وفى الخبر إذا توضأ العبد خرجت ذنوبه من جميع أعضائه وتكون الصلاة نافلة. ويُستحب أن يتوضا العبد كلما بال مالم يشق ذلك عليه، وأن يصلى ركعتين كلما توضأ، ثم أن لا يتكلم فى الوضوء إلاّ بذكر الله تعالى، وأن يقول عند غسل كل عضو ما يُستحب من الدعاء، فيقول عند الفراغ من الاستنجاء: أللهّم طهّر قلبى من النفاق، وحَسّن فرجى من الفواحش. ويقول عند التسمية: أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون. ويقول عند غسل يديّه: أللهّم إنى أسألك اليمْن والبركة، وأعوذ بك من الشؤم والهلكة. ويقول عند المضمضة: أللهّم أعنّى على تلاوة كتابك وكثرة الذكْر لك. ويقول عند الاستنشاق: أللهّم صلّ على محمد وأوجد لى رائحة الجنّة وأنت عنى راض. ويقول عند الاستنثار: أللهّم إنى أعوذ بك من روائح النار ومن سوء الدار. ويقول عند غسل وجهه: أللهّم بيّض وجهى يوم تبيض فيه وجوه أوليائك ولا تُسوّد وجهى يوم تسوّد فيه وجوه أعدائك. وعند غسل يمينه: أللهّم آتنى

كتابى بيمينى وحاسبنى حسابا يسيرا . وعند غسل الشمال: أللّهم إنى أعوذ بك أن تؤتينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى، وعند مسح الرأس: أللّهم غشّنى برحمتك وأنزلْ علىّ من بركاتك وأظلّنى تحت عرشك يوم لا ظل إلاّ ظلك، ويقول عند مسح الأذنين: أللهّم اجعلنى ممن يستمع القول فيتبّع أحسنه. أللّهم أسمعنى منادى الجنّة مع الأبرار. ثم يمسح عنقه فيقول: أللّهم فكّ رقبتى من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال. ويقول عند غسل قدمه اليمنى: أللّهم ثبّت قدمى على الصراط مع أقدام المؤمنين. ويقول عند غسل اليسرى: أللهّم إنى أعوذ بك أن تزّل قدمى عن الصراط يوم تزلّ فيه أقدام المنافقين. وأن يبتدىء بغسل الذراعين من أصابع الكفّين ويقطع من المرفقين كل غسلة، وأن يرفع فى غسل الذراعين الى أنصاف العضدين، وأن يبتدىء بغسل القدمْين من الأصابع ويخللهما فى الميامن ويقطع غسلهما من الكعبين، ويرفع فى غسل الرجلين إلى أنصاف الساقين، ويمين أصابع اليد اليمنى خنصرهما، ويمين اليد اليسرى إبهامها . وإذا فرغ من وضوئه رفع رأسه إلى السماء ثم قال أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا صلى اللّه عليه وسلم عبده ورسوله، سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت، عملت سوأ وظلمت نفسى، أستغفرك وأتوب إليك فاغفرلى وتبْ علّى، إنك أنت التوّاب الرحيم. أللهّم اجعلنى من التوّابين، واجعلنى من المتطهرّين، واجعلنى شكورا، واجعلنى أذكرك كثيرا وأسبحك بكُرةً وأصيلا.

هذا جميع ماروى من القول بعد الفراغ من الوضوء بآثار متفرقة جمعناها . يقال إن من قال هذا بعد فراغه من الوضوء خُتم على وضوئه بخاتم ورُفع له تحت العرش فلم يزل يسبّح اللّه ويقدّسه ويُكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة.

وأكره الوضوء فى إناءٍ صُفر. سمعت أن العبد إذا توضأ احتوشته الشياطين توسوس إليه، فإذا ذكر اللّه خنست عنه وحضرته الملائكة، فإنْ كان وضوءه فى إناء صُفر أو نُحاس لم تحضره الملائكة. وروى عن ابن عمر وأبى هريرة كراهة ذلك، وقال بعضهم سألنى شعبة أن أخرج له وضوأ فاخرجته فى إناء صفر فلم يتوضأ به، وقال حدثنى عبد اللّه بن دينار عن ابن عمر أنه كُره الوضوء فى إناء صفر. وتوضأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من ركْوة ومن إداوة ومن مهراس حجر. وقد روينا فى حديث زينب بنت جحش أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم توضأ، واغتسل فى حديث آخر، من مِخضَب لها وهو نحُاس وهذه رخصة.

صفة الغُسل من الجنابة

يضع الإناء عن يمينه ثم يسمّى الله تعالى ويُفرغ الماء على يديه ثلاثا قبل إدخالهما الإناء، ثم يغسل ذكره ويستنجي، ثم يتوضأ وضوأه للصلاة كاملا إلاّ غسل قدميه، ثم يدخل يديه في الإناء بما حملتا من الماء فيصب على شقه الأيمن ثلاثا ظهراً وبطناً إلى فخذه وساقه، ثم يغسل شقه الأيسر كذلك ثلاثا ظهره وبطنه إلى فخذه وساقه، ويدلك ما أقبل من جسده وما أدبر بيديه معا، ثم يدخل يديه بما حملتا من الماء فيفيض على رأسه ثلاثا، ويخلل شعر رأسه بأصابعه، ويبل الشعر وينقى البشرة، ثم يتنحى من موضعه قليلا فيغسل قدميه، فإن فضل من الإناء ماء أفاضه على سائر جسده وأمّر يديْه على ما أدركتا من بدنه، فإن قدّم غسل رجليه فأدخلهما في أول وضوئه فلا بأس، ولا وضوء عليه بعد الغسل، وليتق أن يمس ذكره في تضاعيف ذلك بيديه، فإن مسّ ذكره فليُعد وضوأه، وإنْ نسي المضمضة والاستنشاق في غسل الجنابة حتى صلّى أحببتُ أنْ يتمضمض ويستنشق ويعيد الصلاة، وإنْ نسيهما في الوضوء فلا إعادة عليه، وكيفما أتى بغسل جسده من الجنابة فجائز بعد أن يعم جميع بدنه غسلا، ومن لم يتوضأ قبل الغسل له أن يتوضأ بعده، ومن انغمس في نهر أجزأه عن الغسل، وأُحب أن يتوضأ. وفرض غسل الميت كغسل الجنابة.

كتاب الصلاة

فرائض الصلاة قبل الدخول فيها **سبع**: أول ذلك طهارة الجسد، وطهارة الثوب، وطهارة **البقعة**، وستر العورة وهي من السرة إلى الركبة، واستقبال القبلة، وإصابة الوقت، والقيام إلاّ من عذر. وفرائض الصلاة في صُلبها **اثنتا عشرة** خصلة. وروينا عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** مفتاح الجنة الصلاة. وروى عنه صلّى الله عليه وسلم تحريمها التكبير وتحليلها التسليم. فأول ذلك النيّة وتكبيرة الإحرام بلفظ التكبير. وليس للعرب في لفظ التكبير بمعنى الإكبار إلا وزن أفعل والأفعل، فيقولون الله أكبر والله الأكبر، وليس يقولون الله كبير، وهم يريدون معنى أكبر مما سواه، إنما يقولون كبير بمعنى عظيم لأن هذه لفظة أعجمية عُرِّبت. وتقول العرب الله كبّار وليس بمعنى أكبر إنما هو بمعنى كبير والتفخيم للتعظيم. ثم يقرأ سورة الحمد أولها بسم الله الرحمن الرحيم، والركوع، ثم الطمأنينة في السجود، والجلسة بين السجدتين، والتشهد الأخير، والصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم، والتسليم الأول.

وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم لا ينظر الله تعالى إلى مَن لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود. وروى عنه صلى الله عليه وسلم لا تُجزىء صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه فى الركوع والسجود. ورأى صلى الله عليه وسلم رجلاً يصلى لا يقيم ظهره فى ركوعه وسجوده فقال له ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ، ثم رآه لا يطمئن فى الركوع والسجود فأمره أيضا بإعادة الصلاة، ثم علّمه الطمأنينة بينهما والقيام فيهما فقال حتى تطمئن مفاصلك وتسترخى. ورأى حذيْفة وابن مسعود رضى الله عنهما رجلا يصلى لا يتم ركوعه وسجوده فقالا لو مات هذا لمات على غير فطرة أبى القاسم صلّى الله عليه وسلّم. وفى حديث أحدهما منذ كم تصلى هذه الصلاة، فقال منذ أربعين سنة. فقال ماصلّيت منذ أربعين سنة، وعن كعب الأحبار قُسِّمت الصلاة ثلاثة أثلاث، ثلث طهور، وثلث ركوع، وثلث سجود، فمن نقص أحدها لم يُقبل منه سائرها. ويقال مَن لم تُقبل صلاته رُدت أعماله كلها عليه.

ذكر سنن الصلاة

هى اثنتا عشرة سنة – رفع اليدين بتكبيرة الإحرام، وصورة الرفع أن يكون كفّاه مع منكبيْه، وإبهاماه عند شحمة أذنيه. وأطراف أصابعه مع فروع أذنيه، فيكون بهذا الوصف من الرفع مواطئا للأخبار الثلاثة المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديْه إلى منكبيْه، وأنه كان يرفعهما إلى شحمة أذنيْه، وأنه رفع إلى فروع أذنيْه يعنى أعاليهما. ولفظ التكبير أن يضم الهاء من الاسم بتخفيف الضمة من غير بلوغ واو، ويهمز الألف من أكبر، ولا يدخل بين الباء والراء ألفا، ويجزم الراء، ولا يجوز غير هذا، فيقول الله أكبر، ثم لا يرفع يديه إذا كبّر إلى قدّام دفعاً ولا يردهما إلى خلف منكبيه، وتكون أصابعه تلقاء أذنيه ثم يكبّر ويرسلهما إرسالا خفيفا رفيقا، ويكون إرساله يديه مع آخر التكبير، لا يرسلهما قبل انقضاء التكبير، ولا يوقفهما بعد الفراغ من التكبير، ثم يستأنف وضع اليمين على شمال بعد الإرسال. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا كبّر أرْسل يديْه، فإذا أراد أن يقرأ وضع اليمين على اليسرى. وليقبضْ على زند كفه الشمال وليجعلْهما تحت صدره، ثم التوجه فيقول وجهت وجهى الذى فطر السموات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين، ثم يقول إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين. ويقول سبحانك اللهّم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، فقد

روى جميع ذلك فى روايات مختلفة وجمْعه حَسَن، إلاّ أن يكون خلف الإمام، ولا يكون للإمام سكتتان فلا يمكنه أن يأتى بهذا التوجه كله مع قراءة الحمد، ولا يشتغلن حينئذ إلا بقراءة الحمد، يغتنم قراءتها فى سكوت الإمام. واحذر أن تقرأ فى قراءة الإمام أو تركع أو تسجد أو ترفع رأسك قبله. ثم الاستعاذة، ثم قراءة سورة من القرآن أو ثلاث آيات من سورة بعد الحمد، والتأمين بعد قراءة الحمد سنّة حسنة فَعَلَه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أمر به، ثم رفع اليدين بالتكبير للركوع أيضا سنّة، ثم التسبيح للركوع. وإذا أردت عشراً أو سبعاً ولا أقل من ثلاث، وإنما قيل إن الثلاث أدنى الكمال لأن الكمال عشرة. قال الله تعالى تلك عشرة كاملة، ولتكن الثلاث بعد أن يضع يديه على ركبتيه وقبل أن يرفعهما لأنه إذا لم يتحفظ فى ذلك ويتمهّل فيه حصل من التسبيح واحدة بعد الركوع وتكون الأولى، والأخرى فى الانحطاط والرفع وهذا مكروه. وصورة الركوع أن يفرج بين أصابعه فيملأ بها ركبتيه، ويجافى عضديه عن جنبيْه، ولا يرفع رأسه ولا يخفضه، وليمد عنقه مع ظهره مداً فيكون ظهره ورأسه سواء، ولا يكون مخفوضا إلى أسفل ولا مَقْبُواً إلى فوق، ثم رفع اليدين بقول «سمع الله لمن حمده» سنّة، ويقول: أللّهم ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، ثم التسبيح فى السجود إن شاء عشراً أو سبعاً وأدناه ثلاث، ولتكن الثلاث بعد حصول جبهته على الأرض وقبل رفعه إياه وإلا كانت واحدة، تذهب الأولى فى حال وضع الوجه، والأخرى فى حال رفع الرأس فتحصل تسبيحة واحدة فى كل سجدة، وهذا غير مستحب أنْ ينقص من ثلاث. وقال **أنس بن مالك** ما رأيت أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من إمامكم هذا، يعنى **عمر بن عبد العزيز**، قال فكنا نسبح وراءه عشراً فى الركوع والسجود عشراً عشراً، ويجعل رأسه بين كفيْه فى سجوده فإنهما يسجدان إذا كانتا مفتوحتين، فيجافى عضديه عن جنبيه ويمد ظهره ويرفع بطنه عن فخذيه. ويستحب أن يباشر الأرض بكفيْه فإنهما يسجدان مع الوجه، ثم التكبير للسجود والرفع بين السجدتين والقيام بين السجود من غير رفع يديه. ثم يقول ربّ اغفر لى وارحمنى ثلاثاً، وروىَ ذلك عن **ابن عمر**. وإن قال ربّ اغفر وارحْم وتجاوَزْ عما تعلم فإنك أنت الأعَزّ الأكرم ـ فجائز، وروى ذلك عن **ابن مسعود**. وإنْ قال ربّ اغفر لى وارحمنى واهدنى واجبرنى وانعشنى فحَسَن، وقد روى ذلك عن علّى رضى اللّه تعالى عنه. ثم التشهد الأول، ثم السلام الأخير بالألف واللام وضم الميم من السلام من غير تنوين، ومدّ الاسم وجزم الهاء منه، فيقول السلامُ عليكم ورحمةُ اللّه حتى

يتبين خداه لمن عن يمينه وشماله ويلوى به عنقه إلى منكبيه. كذلك كان تسليم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من غير أن يحول جسمه عن القبْلة ولا يرفع فخذه عن الأرض.

ذكر أحكام الصلاة فى الإدراك

ومن أدرك من صلاة رباعية ركعتين أو الثالثة من صلاة المغرب فإن ما أدرك هو أول الصلاة فليبْنِ على ذلك. ومن أدرك مع الإمام بعض القيام افتتح صورة الحمد ولم يركع حتى يتمها، وإنْ رفع الإمام رأسه من الركوع قبله رفع بعده، ومن لم يدرك مع الإمام من القيام شيئاً كبّر للإحرام ثم كبّر وركع وهى له ركعة، وإنْ ركع الإمام وهو فى قراءة سورة غير الحمد فليقطع حيث انتهى وليركع بعده، ومن أدركه فى التشهد أو فى السجود ابتدأ التكبير للإحرام قائما ثم جلس وسجد للاتّباع، فإذا سلّم الإمام قام من غير تكبير يحدثه ثانيا وابتدأ بقراءة الحمد عند قيامه، ولا يُعتد بشىء مما أدرك مع الإمام إلاّ بالركوع، وهو أنْ يكون قد وضع يديه على ركبتيه واطمأن قبل أن يرفع الإمام رأسه فهذه له ركعة، ومن دخل فى صلاة مكتوبة ثم ذكر أن عليه أخرى أحببتُ أن يُتمها ثم يصلى التى ذكر ثم يعيد هذه الصلاة، ومن وافق الإمام فى صلاة العصر ولم يكن صلّى الظهر صلاّها معه ثم يصلى الظهر ثم أعاد بعدها صلاة العصر، فعله بعض الصحابة وهو أحب الوجوه إلىّ. ومن تكلم فى صلاته ناسياً أو سلّم من ركعتين من صلاة رباعية فليسجد سجدتى السهو بعد التشهد، فإن كان قد خرج من المسجد وتطاول ذلك ثم ذكر أحببتُ أن يعيد الصلاة، ومن تكلم، أو سلّم عامداً، أو استدبر القبلة، أو انكشفت عورته، أو رعف فى صلاته، أو ذكر أنه نسى مسْح رأسه أو غسْل عضو من أعضائه أعاد الصلاة، ومن فاتته جماعة فتطوع رجل قام يصلى معه أحببتُ أن يكون هو المصلّى به، ولا استحب أن يصلى فرضا خلف رجل يتطوع، ولا أكره صلاة النوافل جماعة، ولا سجود سهو على العبد فيما جهر فيه مما يخافت فيه مما يُجهر، ومن شك فى ثلاث ركعات أو اثنتين فليجعلهما ثنتين، ومن شك فى أربع أو ثلاث حسبها ثلاثا يبنى أبدا على اليقين وهو الأقل، ثم يسجد سجدتى السهو قبل السلام، وعليه ان يتشهد ثانيا لسجدتى السهو وصلاته تامة، ومن سها عن سجدتى السهو فإنْ ذكر قريبا أو قبل أن يخرج من المسجد فأحب أن يسجدهما ثم يتشهد ويسلم، فإنْ تطاول الوقت أو كان قد خرج من المسجد سقط عنه، ومن شك فى القبلة لدخول ظلمة أو فقد أدلة، تحرّى جهده، فإن تبين له أن القبلة بخلاف ذلك

أحببت له أنْ يعيد ذلك، واستحب سجود السهو فيما زاد بعد التسليم وفيما نقص قبله، فإن سجدهما فى الزيادة والنقصان قبل السلام فحَسَن. كل ذلك قد رويناه عن النبى صلى الله عليه وسلم، فإن لحقه وَهْم فى الصلاة ليس بشك، أو كثر وهمه فى الصلاة، أحببت أن يجعل سجوده أبدا بعد السلام. ومن صلّى فى حال ضرورة بنقصان طهارة أو نقصان فرض من فرائض الصلاة أحببت أن يعيد متى قدر على ذلك، ومن صلّى فى ثوب ثم رأى فيه نجاسة بعد ذلك أعاد مادام فى الوقت قبل أنْ يدخل وقت صلاة أخرى، فإن خرج جميع الوقت فلا إعادة عليه، ولو أعاد تلك الصلاة متى رأى تلك النجاسة كان أحبَّ إلىّ، ومن كان عليه صلوات فرّط فيها بإضاعة أو نقصان حدود صلاّها أحب إلىّ متوالية صلاةَ يومٍ فى وقت واحد إن أمكن، أو فى أوقات متفرقة نَسَقا، وأن يكون ذلك فى غير الأوقات المنهى فيها عن الصلاة أحب إلىّ، ومن عَلم فى صلاته أن عليه ثوباً فيه نجاسة وأنه غير مستقبل القبلة فليلق الثوب وليستقبل القبلة وليتم صلاته، وإنْ أعاد فهو أحب إلىّ.

ذكر هيآت الصلاة وآدابها

السواك قبل الصلاة من فضائلها. وروى فى الخبر صلاةٌ بسواك تفضُل على صلاة بغير سواك سبعين ضعفا. وأستحبُ له أن يقرأ قل أعوذ برب الناس قبل دخوله فى الصلاة فإنه جُنّة له من العدو، وأن يستعيذ فى كل ركعة قبل قراءة الحمد لأنه يكون قارئا للقرآن، ولأن كل ركعة صلاة، وأن يضم أصابع كفّيه فى التكبير، وأنْ يُراوح بين قدميه فى القيام لا يضمّ كعبيه ولكن يجعل بين قدميْه مقدار أربع أصابع فإنّ ذلك يُستحب، قال بعضهم كانوا يفتقدون الإمام إذا كبّر فى ضم الأصابع وإذا قام فى تفرقة الأقدام، قال فيستدلون بذلك على فقهه. ونظر **ابن مسعود** إلى رجل قد ألزق كعبيه فى الصلاة فقال لو راوح بينهما كان قد أصاب السنّة، وقد روى فى خبر أنّ **النبى صلى الله عليه وسلم** نهى عن الصَفْن والصَفْد فى الصلاة، فأما **الصفن** فرفع إحدى الرجلين من قوله تعالى الصافنات الجياد إذا عطف الفرس طرف سنبكه، وأما **الصفد** فهو اقتران القدمين معا ومنه قوله تعالى مقرّنين فى الأصفاد واحدها صَفَد. وقد رأيت بعض العلماء يفرّق بين أصابعه فى التكبير، وتأوّل أن ذلك معنى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا كبّر نشر أصابعه نشرا وذلك محتمل لتوكيده بالمصدر وهو قوله نشراً، فيصلح أن يكون قوله نشراً يريد به التفرقة. وقد تسمى التفرقة بثّاً ونشراً

لأن حقيقة النشر البسط، وقد قال الله تعالي وزرابى مبثوثة فهذا هو التفرقة، وقال فى معنى البثّ كالفراش المبثوث، ثم قال فى مثله كأنهم جراد منتشر، فإذا كان النشر مثل البث وكان البث هو التفرقة كان قوله نشرا بمعنى فرّق، إلاّ أن **إسحق بن راهويه** سُئل عن معنى قوله نشرأصابعه فى الصلاة نشرا، فقال هو فتحها وضمها، أراد بذلك أن يُعلم أنه لم يكن يقبض كفه، وهذا وجه حسن لأن النشر ضد الطى فى المعنى، والقبض طى. ورأيت ثلاثة من العلماء يفرقون أصابعهم فى التكبير منهم **أبو الحسن** صاحب الصلاة فى المسجد الحرام وكان فقيها. ورأيت ثلاثة يضمون أصابعهم منهم **أبو الحسن بن سالم وأبو بكر الآجرى**، وأحسب أن **أبازيد** الفقيه كان يفرق في أكثر ظنى إذا تذكرت تكبيره.

وقول **آمين** من فضائل الصلاة. وروى عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنه قال إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ماتقدّم من ذنبه. وكان رسول الله صلى الله عليه يرفع صوته بآمين. وفى لفظ آمين لغتان المد والقصر، والميم فيهما مخففة لأنك إذا شددّت الميم أحلت المعنى فيكن معناه قاصدين من قوله ولا آمين البيت الحرام، وأن يترك إحدى يديه على الأخرى قابضاً على الزندين بين السُرّة والصدر فإن ذلك من الخشوع. وقال بعض العلماء ما أحسبه ذلّ بين يدىّ عزيز. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه من سنن المرسلين. وفسّر **علىّ عليه السلام** قوله تعالى فصلّ لربك وانحر قال وضع اليمين على الشمال، وهذا موضع علم علّى رضى الله تعالى عنه ولطيف معرفته، لأن تحت الصدر عرقا يقال له الناحر لا يعلمه إلا العلماء، فاشتّق علّى رضى الله عنه قوله وانحر من لفظ الناحر، أى وضَعْ يديك على الناحر وهذا هو العرق، ولم يحمله على نحر البدن لأنه ذُكر فى الصلاة. ومن الناس من ظن اشتقاقه من النحر، والنحر هو تحت الحلقوم عند ملتقى التراقى واليد لا توضع هناك، إلاّ مَنْ قال من أهل اللغة فى معناه وانحر أى واجه القبلة بتحرك

وليجتنب **السدْل والكف**، فأما السُدل فهو أن يرخى أطراف ثيابه على الأرض وهو قائم، يقال سَدَل وسَدَن بمعنى واحد، وقد تُبدّل اللام نونا لقرب المخرجين إذا أرسل ثيابه، ومنه قيل سدَنَة الكعبة أحدهم سادن وهم قوامها الذين يسبلون عليها كسوتها، وسدانة الكعبة ثيابها المسبلة. وهذا قول أهل اللغة ومذهب أهل الحديث فى السِدْل أن يلتحف بثوبه ويُدخل يديه من

داخل فيركع ويسجد، كذلك ولأن هذا فعل اليهود فى صلاتهم فنهوا عن التشبه بهم، والقميص فى معناه ولا يركع ويسجد ويداه فى بدن القميص إن اتسع، فأماّ أن يُدخِل يديه فى جسد القميص فى السجود فمكروه. وقد قال بعض الفقهاء فى السدل قولا ثالثا قال هو أن يضع وسط إزاره على رأسه ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه، وهذا قول بعض المتأخرين وليس بشىء عندى، والأولان أعجب إلىّ وهما مذهب القدماء. وأما **الكفّ** فقد نهُى عنه فى الصلاة أيضا وهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود، وأكره أن يأتزر فوق القميص فإنه من الكف. وقد روى عن **أحمد بن حنبل** رضى الله عنه كراهية ذلك. وروينا عن بعض **أولاد عمر ابن الخطاب** رضى الله عنه الرخصة فى ذلك أنه صلّى الله عليه وسلم صلى محتزما بعمامته فوق القميص. وقد يكون الكف فى شعر الرأس فلا يصلينّ وهو عاقص شعره. وفى الحديث أُمرت أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكفّ شعرا ولا ثوبا.

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن **الاختصار** فى الصلاة وعن **الصلْب**، فأما الاختصار فأن يضع يده على خاصرته، وأما الصلب فأن يضع يديه جميعا على خصريه، ويجافى بين عضديه فى القيام. ولتقع ركبتاه على الأرض قبل يديه ويداه قبل وجهه، وأن يسجد على جبهته وأنفه فإنهما عضو واحد، ولينهض على صدور قدميه، وإنْ ضَعُف فليعتمد على الأرض بيديه، وأن لا يلتفت فى صلاته يمينا وشمالا، ولا يلحظ عن يمين وشمال، فإن لحظ فهو أيسر، وليرم ببصره إلى موضع سجوده فإن لم يفعل فليقابل بوجهه تلقاء القِبلة. ولا يعبث بشىء من بدنه فى الصلاة. وروى أن سعيد **بن المسيب** نظر إلى رجل يعبث بلحيته فى صلاته فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه. وقد رويناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق، ونهى عن المواصلة فى الصلاة وهى فى خمس – إثنان على الإمام أن لا يصل قراءته بتكبيرة الإحرام، ولا يصل ركوعه بقراءته، واثنان على المأموم أن لا يصل تكبيرة الإحرام بتكبير الإمام ولا تسليمه بتسليمه، وواحدة بينهما أن لا يصل تسليم الفرض بتسليم التطوع وليفصل بينهما، وقد قيل **التسليم حزم والتكبير جزم**.

وقد جاء فى الخبر سبعة أشياء فى الصلاة من **الشيطان**: الرُعاف، والنُعاس، والوسوسة، والتثاؤب، والحِكاك، والالتفات، والعبث بالشىء، وزاد بعضهم والسهو، والشك.

وقال بعض بعض السلف أربعة أشياء فى الصلاة من الجفاء: الالتفات، ومسح الوجه، وتسوية الحصى، وأن يصلى بطريق من يمر بين يديه، وزاد بعضهم وأن لا يصلى فى الصف الثانى وفى الصف الأول فُرْجَة، وقد نُهى عن صلاة **الحاقن والحاقب والحازق**، فالحاقن من البول، والحاقب من وجود الغائط، والحازق صاحب الخف الضيق، فلا يصلى من كن به هذه الثلاثة لأنها تُشغل القلب. وأكره **صلاة الغضبان**، والمهتم بأمر، ومن عرضت له حاجة، حتى يُسرَّى عن قلوبهم ذلك ويطمئن القلب ويتفرغوا للصلاة. ومن شغل قلبه حضور الطعام وكانت نفسه تائقة إليه فليقدّم الأكل لقوله **صلى الله عليه وسلم** إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤا بالعشاء إلا أن يضيق الوقت أو يكون ساكن القلب. وفى الخبر لا يدخلن أحدكم الصلاة وهو مُغضَب، ولا يصلين أحدكم وهو غضبان. وكان الحسن يقول كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع.

ذكر فضائل الصلاة وآدابها ومايزكو به أهلها ووصف صلاة الخاشعين

قال الله تعالى وأقم الصلاة لذكرى، وقال ولا تكن من الغافلين، وقال تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، قيل سكارى من حب الدنيا، وقيل من الاهتمام بها، وقال جل ثناؤه الذين هم على صلاتهم دائمون، وقال النبى صلى الله عليه وسلم مَن صلّى ركعتين ولم يحدّث نفسه فيهما بشىء من الدنيا غُفر له ما تقدّم من ذنبه. وقال صلى الله عليه وسلم إنما الصلاة تَمَسْكُن وتواضع وتَضَرُّع وتباؤس وتنادُم وتَرفَع يديك وتقول اللّهم، فمن لم يفعل فهى خِدَاج أى ناقصة. وروينا عن الله سبحانه وتعالى فى الكتب السالفة أنه قال ليس كل مُصلّ أتقبّلُ صلاته، إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتكبر علىّ وأطْعَمَ الفقير الجائع لوجهى

فمن الإقبال على الصلاة أن لا تعرف من على يمينك ولا من على شمالك من حُسن القيام بين يدىّ القائم على كل نفس بما كسبت، وكذلك فسّروا قوله تعالى هم على صلاتهم خاشعون. وقال **سعيد بن جبير** ماعرفت مَن على يمينى ولا على شمالى فى الصلاة منذ أربعين سنة منذ سمعت **ابن عباس** يقول: الخشوع فى الصلاة أن لا يعرف المُصلّى من على يمينه وعن شماله. وروينا عن **بشر بن الحارث** قال **سفيان** من لم يخشع فسُدت صلاته. وروينا عن **معاذ بن جبل**: مَن عرف مَن عن يمينه وشماله فى الصلاة متعمداً فلا صلاة له.

وقد أسنده إسمعيل بن أبى زياد عن بشر بن الحارث وغيره. وعن **الثورى أيضا**: من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساط فى صلاته فصلاته باطلة، وقال بشر يعنى بذلك لأنه عمل فى الصلاة. ومن الدوام فى الصلاة السكون فيها وعلى ذلك فُسِّرَ قوله تعالى الذين هم على صلاتهم دائمون، قيل هو السكون والطمأنينة فى الصلاة، من قولك ماء دائم إذا سكن. وقال بعض الصحابة يُحشر الناس يوم القيامة على مثل هيآتهم فى الصلاة من الطمأنينة والهدوء، من وجود النعيم بها واللذة. ثم إصغاء القلب للفهم وخشوعه للتواضع وسكون الجوارح للهيبة. ثم الترتيل فى القراءة، والتدبّر لمعانى الكلام، وحُسن الافتقار إلى المتكلم فى الإفهام، والإيقاف على المراد، وصدق الرغبة فى الطلب، وإنْ مرّ بآية رحمة سأل ورغب، أو آية عذاب فزع واستعاذ، أو مرّ بتسبيح أو تعظيم حمد وسبّح وعظّم. فإن قال بلسانه فَحَسن وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به، هكذا كان وصفهم فى التلاوة. وينبغى أن يكون قلبه بوصفٍ على ركن من أركان الصلاة، وهمّه معلق بكل معنى من معانى المناجاة، فإذا قال الله أكبر أى مما سواه، ولا يقال أكبر من صغير إنما يقال أكبر من كبير، فيقال هذا كبير وهذا أكبر، فإن كان همّه المَلك الكبير كان ذكر الله أكبر فى قلبه، فيواطىء قلبه قول مولاه فى قوله تعالى وَلَذِكْرُ الله أكبر، ويواطىء لسانه قلبه فى مشاهدة الأكبر، ويكون عَقدُه مُحققا لمقاله بالوصف حتى يكون عاملا بما يقول فى الحال، ولا يكون بقوله الله أكبر حاكياً ذلك عن قول غيره، ولا مخبراً به عن سواه، بل يكون هو المتحقق بالمعنى القائم بالشهادة، وهذا عند أهل المعرفة واجب لأن الإيمان قول وعمل فى كل شىء، فإذا قلت الله أكبر فإن العمل بالقول أن يكون الله أكبر فى قلبك من كل شىء، وقد أخبر تعالى أن الصلاة أريد بها الذكْر فى قوله تعالى وأقم الصلاة لذكرى. وروى معنى ذلك عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم**:إنما فُرِضت الصلاة وأُمِر بالحج والطواف وأُشعرت المناسك لإقامة ذكر الله. فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور الذى هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة فما قيمة ذكرك؟ وقال **رسول الله صلى الله عليه وسلم** لأنس بن مالك: وإذا صليت صلاةً فصلّ صلاة مودِّع لنفسه، مودع لهواه، مودع لعُمره، سائر إلى مولاه كما قال يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا، وكقوله تعالى واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه، وقال **النبى صلى الله عليه وسلم**: جُعِلتْ قرة عينى فى الصلاة. وقال: مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلاّ بُعدا. كما قال: من لم يترك قول الزور والخيانة فليس لله تعالى حاجة فى أن يترك طعامه وشرابه، فإنما المراد من الصلاة والصيام المخالفة من الآثام.

ومن إقامة الصلاة وإتمامها الوضوء لها قبل دخول وقتها لئلا يشغله عن أول وقتٍ غيرها، وينبغى أن يكون قلبه فى همّه، وهمّه مع ربه، وربه فى قلبه، فينظر إليه من كلامه، ويكلمه بخطابه، ويتملقه بمناجاته، ويعرفه من صفاته، فإنّ كل كلمة عن معنى اسم أو وصف أو خلُق أو حُكم أو إرادة أو فعل، لأن الكلم ينبىء عن معانى الأوصاف ويدل على الموصوف، وكل كلمة من الخطاب تتوجه عشر جهات للعارف، من كل جهةٍ مقام ومشاهدات، وأول الجهات الإيمان بها، والتسليم لها، والتوبة إليها، والصبر عليها، والرضا بها، والخوف منها، والرجاء لها، والشكر عليها، والمحبة لها، والتوكل فيها، فهذه المقامات **العشر** هى مقامات اليقين لأن الكلمة هى حق اليقين، وهذه المعانى كلها منطوية فى كل كلمة يشهدها أهل التملق والمناجاة، ويعرفها أهل العلم والحياة، لأن كلام المحبوب حياة القلوب لا يُنذَر به إلاّ حى ولا يحيا به إلاّ مستجيب، قال الله تعالى إنْ هو إلاّ قرآنٌ مبين لينذر من كان حيا، وقال سبحانه استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم. ولا يشهد هذه العشر مشاهدات إلاّ من نُقِلَ فى **العشر المقامات** المذكورة فى سورة الأحزاب، أولها مقام المسلمين، وآخرها مقام الذاكرين، وبعد مقام الذكر هذه المشاهدات العشر فعندها لا يمل المناجاة ولا يثقل عليه القيام للذكاة والإفهام ويسهل عليه الوقوف لدنو العطوف. ولقد حُدِّثت أن الموقن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين خوفا منه لأنه يتأهب للدخول على المَلِك، فإذا كبّر حُجب عنه إبليس وواجهه الجبار بوجهه، فإذا قال الله أكبر اطلع الملك فى قلبه فإذا ليس فى قلبه أكبر من الله تعالى فيقول صدقتَ الله تعالى فى قلبك كما تقول، فيتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش ويكتب له حشو ذلك النور حسنات. والغافل الجاهل إذا قام للوضوء احتوشته الشياطين، وإذا كبّر اطّلع المَلك فى قلبه فإذا كل شىء فى قلبه أكبر من الله تعالى عنده، فيقول كذبت ليس الله فى قلبك كما تقول، فيثور فى قلبه دخان يلحق فيكون حجابا لقلبه، فيرد ذلك الحجاب صلاته، ويلتقم الشيطان قلبه فلا يزال ينفخ فيه وينفث ويوسوس إليه ويزين له حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه، وقد جاء فى الخبر لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات.

وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنه رأى فى القِبلة نخامة فغضب غضبا

شديدا ثم حكّها بعرجون كان فى يده، وقال ائتونى بعبير فلطخ أثرها بزعفران، ثم التفت إلينا فقال أيكم يحب أن يُبزَق فى وجهه، فقلنا لا أينا، قال فإن أحدكم إذا دخل فى صلاته فإن الله عز وجل بينه وبين القبلة، وفى لفظ آخر واجهه الله تعالى، فلا يبزقن أحدكم تلقاء وجهه ولا عن يمينه، ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى، فإنْ بدرته بادرة فليبصق فى ثوبه. وقد روى إذا أقام العبد فى صلاته فقال الله أكبر، قال الله لملائكته ارفعوا الحجاب بينى وبين عبدى، فإذا التفت يقول الله تعالى: عبدى إلى مَن تلتفت، أنا خير لك ممن تلتفت إليه. ثم إذا قام المقبل على صلاته شهد قلبه قيامه لرب العالمين، ثم شهد وقوفه بالحضرة بين يدّى الملك الجبار فتأخذه غيبة الحضور ويرهقه إجلال الحاضر ويجمعه خشية الرقيب، فإذا تلا وقف همّه مع المتكلم واشتغل قلبه بالفهم عنه والانبساط منه، فإن ركع وقف قلبه مع التعظيم للعظيم فلا يكون فى قلبه أعظم من الله تعالى وحده، فإن رفع شهد الحمد للمحمود فوقف مع الشكر للودود فاستوجب منه المزيد وسكن قلبه بالرضا لأنه حقيقة الحمد، وإنْ سجد سما قلبه فى العلو فقرب من الأعلى بقوله تعالى واسجد واقترب. وأهل المشاهدة فى السجود على ثلاث مقامات، منهم من إذا سجد كوشف بالجبروت الأعلى فيعلو إلى القريب ويدنو، وهذا مقام المقربين من المحبوبين، ومنهم من إذا سجد كوشف بملكوت العزة فيسجد فيكسر قلبه ويخبت تواضعا وذُلاً للعزيز الأعلى وهذا مقام الخائفين من العابدين، ومنهم مَن إذا سجد جال قلبه فى ملكوت السموات والأرض فثاب بطرائف الفوائد وشهد غرائب الزوائد وهذا مقام الصادقين من الطالبين. وهناك قسم رابع لا يذكر بشىء ليس له وصف فيستحق المدح، فإن دعا هذا المصلى نظر إلى المدعو فكان هو المرجو فأخذ فى التمجيد والثناء والحمد والآلاء، ونسى حاجته من الدنيا واشتغل عن نفسه بالمولى، وعن مسئلته بحسن الثناء، وإن استغفر الداعى تفكّر فى أوصاف التوبة، وتفكّر ما سلف من الذنوب فعمل فى تصفية الاستغفار وإخلاص الإنابة والاعتذار، وجدّد عقد الاستقامة فيكون له بهذا الاستغفار من الله عز وجل تحية وكرامة، ففى مثل صلاة هذا العبد وردت الأخبار أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه وقامت الملائكة فيصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه. وإن أبواب السماء لتفتح للمصلين ويباهى الله تعالى ملائكته بصفوف المصلين، وقد قال رجل للنبى صلّى الله عليه وسلّم ادع الله تعالى أن يرزقنى مرافقتك فى الجنة، فقال أعنّى بكثرة السجود. وروينا عن **النبى صلى الله عليه وسلم** ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد

أحب إليه من الصلاة، ولو كان شيء أحب إليه من الصلاة لتعبّد به ملائكته، أو كما قال بعض العلماء: الصلاة خدمة الله عز وجل فى أرضه. وقال آخر: المصلون خدّام الله عز وجل على بساطه. ويقال إن المصلين من الملائكة يسمون فى السموات والأرض خُدّام الرحمن ويفخرون بذلك، ويقال إن المؤمن إذا صلّى ركعتين عجب منه عشر صفوف من الملائكة، كل صف منهم عشرة آلاف، وباهى الله تعالى به مائة ألف ملك، وذلك أن العبد قد جمع فيه أركان الصلاة الأربعة من القيام والقعود والركوع والسجود وفرّق ذلك على أربعين ألف ملك، والقائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وكذلك الراكعون والساجدون، ثم قد جمع الله له أركان الصلاة الستة من التلاوة والحمد والاستغفار والدعاء والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وفرق ذلك على ستين ألف ملك، لأن كل صف منهم عبادته ذكر من الأذكار الستة، فإذا رأت الأملاك ما جمع فيه من الأركان الستة والأذكار فى ركعتين عجبت منه وباهاهم الله تعالى به لأنه قد فرق تلك الأعمال والأركان على مائة ألف ملك، وبذلك فُضِّل المؤمن على الملائكة. وكذلك فُضِّل الموقن أيضا فى مقامات اليقين من أعمال القلوب على الأملاك بالتنقيل فى المقامات، بأن جُمعت فيه ورفع منها، والملائكة لا يُنقلون بل كل ملك موقوف فى مقام معلوم لا يُنقل عنه إلى غيره، مثل الشكر والخوف والرجاء والشوق والأنين والخشية والمحبة، بل كل ملك له مزيد وعلو من المقام الواحد على قدر قواه، وجَمَع ذلك كله فى قلب الموقن، فقال الله تعالى وهو أصدق القائلين فى صفات أوليائه المؤمنين قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون، فمدحهم بالصلاة كما ذكرهم بالإيمان، ثم مدح صلاتهم بالخشوع، كما افتتح بالصلاة أوصافهم، ثم قال فى آخرها والذين هم على صلاتهم يحافظون، فختم بها نعوتهم، وقال فى نعت عباده المصلين الذين استثناهم من الجزوعين من المصائب والفقر، المانعين للمال والخير، إلاّ المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون، ثم نسق النعوت وقال فى آخرها والذين هم على صلاتهم يحافظون، فلولا أنها أحب الأعمال إليه ما جعلها مفتاح صفات أحبائه وختامها، ولما وصفهم بالدوام والمحافظة عليها، ومدحهم بالخشوع فيها، والخشوع هو انكسار القلب وإخباته وتواضعه وذلّته، ثم لين الجانب وكفّ الجوارح وحُسن سمتٍ وإقبال، والمداومة والمواظبة عليها، وسكون القلب والجوارح فيها. والمحافظة هى حضور القلب وإصغاؤه، وصفاء الفهم وإفراده من مراعاة الأوقات وإكمال طهارة الأدوات. ثم قال تعالى فى عاقبة المصلين أولئك هم الوارثون

الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون، فجعل أوّل عطائهم الفَلاَح وهو الظفر والبقاء، وآخره الفردوس وهو خير المستقر والمأوى. وقال فى أضدادهم من أهل النار ما سلككم فى سقر، قالوا لم نك من المصلين، وقال موبخاً لآخر منهم فلا صدّق ولا صلّى. ونهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن طاعة من نهاه عن الصلاة، ثم أمره بها وأخبره أن فيها القُرب والزلفى فى قوله تعالى أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلّى، ثم قال كلا لا تطعه واسجد واقترب. فالمصلّون بقيةٌ من خلْقه، وورثة جنته من عباده، وأهل النجاة من دار غضبه وإبعاده، جعلنا اللّه منهم بعطفه ورحمته.

ذكر الحث على المحافظة على الصلاة وطريقة المصلين من الموقنين

قال اللّه سبحانه وتعالى محمد رسول اللّه والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعا سجداً الآية، فاختار لنفسه أصحابه صلوات اللّه عليه، ثم اختار لأصحابه **الصلاة** فجعلها وصفهم فى الإنجيل والتوراة، فهذا يدل أن الصلاة **أفضل الأعمال**، لأن أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أفضل العمّال. وسُئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أى الأعمال أفضل، قال **الصلاة لمواقيتها**. وعن **عمر رضى اللّه عنه** إذا رأيت الرجل حافظا لصلاته فظن به خيراً، وإذا رأيته مضيّعاً لصلاته فهو لما سواها أضْيَع. وكان **الحسن** يقول ابن آدم ماذا يعز عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك فهو على اللّه تعالى أهون. وعن **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** الصلاة عماد الدين، من تركها فقد كفر. وفى حديث آخر بين الكفر والإيمان ترك الصلاة. وفى الخبر مَن حافظ على الصلوات الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة، ومن ضيّعها حشره اللّه تعالى مع فرعون وهامان. وفى تفسير قوله تعالى لا يملكون الشفاعة إلاّ من اتخذ عند الرحمن **عهداً**، قال الصلوات الخمس. وعن ابن مسعود وسلمان **الصلاة مكيال**، فمَن أوفى وُفّى له، ومَن طفّف فقد علمتم ما قال اللّه تعالى فى المطففين. وفى الخبر أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته فلا يتم ركوعها ولا سجودها. وفى الخبر إذا صلى العبد فى الملأ فأحسن وأساء صلاته في الخلا فتلك استهانة يستهين بها ربه عز وجل. وفي الخبر إذا أحسنّ العبد صلاته **فى العلانية**، وأحسنّها فى **السرّ**، قال اللّه تعالى لملائكته هذا عبدى حقا. وعن **كعب** وغيره مَن قُبِلت صلاته قبلت أعماله كلها، ومن رُدّت عليه صلاته رُدّت عليه أعماله كلها، ويقال من تُقبلت

منه الصلوات الخمس كلاً من غير أن تُلفق، ولا يُرفع بعضها من بعض أو غيرها من النوافل، اطّلع على علم الأبدال وكُتب صدّيقاً. **وعلامة قبول الصلوات** أن تنهاه في تضاعيفها عن الفحشاء والمنكر والفحشاء الكبائر، والمنكر ما أنكره العلماء، فمن انتهى رُفعت صلاته إلى سدرة المنتهى، ومن تحرّقته الأهواء فقد رُدت صلاته لمّا غوَى فهوَى.

وقال **مالك بن دينار وابراهيم بن أدهم** إنى لأرى الرجل يُسيء صلاته فأرحم عياله. وقال **الفضيل بن عياض** الفرائض رؤس الأموال، والنوافل الأرباح، ولا يصح ربح إلاّ بعد رأس المال. وكان **ابن عيينة** يقول إنما حُرموا الوصول بتضييع الأصول. وقال **عليّ بن الحسين** من اهتم بالصلوات الخمس فى مواقيتها وإكمال طهورها لم يكن له فى الدنيا عيش. وكان عليه السلام إذا توضأ للصلاة تغيّر لونه واصفرّ وأرعَد، فقيل له في ذلك فقال تدرون بين يدىّ مَن أُريد أن أقف، وعلى مَن أدخل، ومن أخاطب. وقال بعض العلماء للصلاة **أربع فرائض**: إجلال المقام، وإخلاص السهام، ويقين المقال، وتسليم الأمر. وقال **أبو الدرداء** خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظلّة لذكر الله تعالى. وكان **وكيع** يقول مَن لم يأخذ أُهبة الصلاة قبل وقتها لم يحافظ عليها، ومن تهاون بتكبيرة الإحرام فاغسلْ يدك منه. وروينا فى تفسير قوله تعالى سابقوا إلى مغفرة من ربكم، قال **تكبيرة الإحرام**. وفى حديث أبى كاهل عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** من صلى أربعين يوما الصلوات فى جماعة لا يفوته منها تكبيرة الإحرام كُتب له براءتان: براءة من النفاق وبراءة من النار. وقال **سعيد بن المسيب** منذ أربعين سنة ما فاتنى **تكبيرة الإحرام** فى جماعة. وكان يُسَمّى حمامة المسجد. وقال **عبد الرازق** من عشرين سنة ما سمعت الأذان إلا فى المسجد. ويقال إنه إذا كان يوم القيامة أُمِر بطبقات المصلين إلى الجنة زُمراً، قال فتأتى أول زُمرة كأن وجههم الكوكب الدرى فتستقبلهم الملائكة فيقولون من أنتم، فيقولون نحن المصلون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فيقولون ما كانت أعمالكم فى الدنيا، فيقولون كنا إذا سمعنا الأذان قُمنا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها، فتقول الملائكة يحق لكم ذلك. ثم تأتى الزمرة الثانية فوق أولئك الحُسن والجمال كأن وجوههم الأقمار، فتقول الملائكة من أنتم، فيقولون نحن المصلون، فيقولون وما كانت صلاتكم، فيقولون كنا نتوضأ للصلاة قبل دخول وقتها، فتقول الملائكة يحق لكم ذلك. ثم تأتي الزمرة الثالثة فوق هؤلاء في المنزلة والجمال، كأن وجوههم الشمس الضاحية، فتقول الملائكة أنتم أحسن وجوها وأعلى مقاما فما أنتم، فيقولون نحن المصلون، فيقولون وما كانت صلاتكم، فيقولون كنا نسمع الأذان فى المسجد فتقول الملائكة يحق لكم ذلك.

وقال بعض العلماء رضى الله عنهم سُميت الصلاة صلاة لأنها **صلة** بين العبد وبين الله عز وجل، **ومواصلة** من الله تعالى لعبده، ولا تكون المواصلة والمنال إلاّ لتقّى. قال الله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله **التقْوَى** منكم. ولا يكون التقّى إلا **خاشعا**، فعندها لا يعظم عليه طول الوقوف، ولا يكثر عليه الانتهاء عن المنكر والائتمار بالمعروف، كما قال سبحانه وتعالى إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. **والخاشعون** من المؤمنين هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، الحافظون لحدود الله، جزاؤهم البشرى كما قال وبشّر المؤمنين. **والخاشعون** أيضا الخائفون الذاكرون الصابرون والمقيمون الصلاة. فإذا كملت هذه الأوصاف فيهم كانوا مُخبتين، وقد قال سبحانه وبشّر المخبتين. وكان **ابن مسعود** إذا نظر إلى **الربيع بن خيثم** يقول وبشر **المخبتين**، أمَا والله لو رآك محمد صلى الله عليه وسلم لفرح بك، وفى لفظ آخر لأحبك. يقال إنه كان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة لا تحسب جارية ابن مسعود إلاّ أنه أعمى لشدة غَضّ بصره وطول إطراقه إلى الأرض بنظره. وكان إذا دقّ الباب عليه تخرج إليه الجارية فإذا رأته قالت لعبد الله: صديقك ذاك الأعمى قد جاءك. فكان ابن مسعود يضحك ويقول ويحك ذاك الربيع. ومشى ذات يوم مع ابن مسعود فى الحدّادين فلما نظر إلى الأكوار تُنفخ وإلى النيران تلتهب صَعِق وسقط مغشيا عليه، وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يفق، فحمله ابن مسعود على ظهره إلى منزله فلم يزل مغشيا عليه حتى فاتته خمس صلوات، وابن مسعود عند رأسه يقول هذا والله الخوف. وقد كان **عامر بن عبد الله** من خاشعى المصلين. وكان إذا صلى ضربت ابنته بالدُفّ وتحدّث النساء بما يُردن في البيت ولم يكن يعقل ذلك ولا يسمعه. وقيل له ذات يوم هل تُحدّث نفسك في الصلاة بشيء، قال نعم، بوقوفى بين يدىّ الله عز وجل، ومنصرفى إلى إحدى الدارين، وكان يقول لو كُشِف الغطاء ما ازددت يقينا. وقد كان **مسلم بن يسار** من الزاهدين العاملين، كان إذا دخل الصلاة يقول لأهله تحدّثوا بما تريدون وافشوا سرّكم فإنى لا أستمع إليكم، وكان يقول وما يدريكم أين قلبى. وكان يصلى ذات يوم في مسجد البصرة فوقعت خلفه اسطوانة معقود بناؤها على أربع طاقات، فتسامع بها أهل السوق فدخلوا المسجد وهو يصلى كأنه وتد،وما انفتل من صلاته، فلما فرغ جاءه الناس يهنونه، فقال أى شىء تهنونى، قالوا وقعت هذه الاسطوانة العظيمة وراءك فَسلِمتَ منها، قال متى وقعت، قيل وأنت تصلى، قال ما شعرت بها.

وقال بعض المصلين الصلاةُ من الآخرة، فإذا دخلت فى الصلاة خرجت من الدنيا. وسئل بعضهم هل تذكر فى صلاتك شيأً، قال وهل شىء أحب إلىّ من الصلاة فاذكره فيها. وكان **أبو الدرداء** يقول من فقْه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله فى الصلاة ليدخل فى الصلاة وقلبه فارغ. وفى الخبر أن **عمار بن ياسر** صلّى صلاة فخفّفها، فقيل له خففتَ يا أبا اليقظان، فقال هل رأيتمونى نقصت من حدودها شيأ، قالوا لا، قال لأنى بادرت سهو الشيطان أنّ رسل اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: إن العبد ليصلى الصلاة لا يُكتب له ثلثُها ولا نصفها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها. وكان يقول إنما يُكتب للعبد من صلاته ما عقَل منها. وقد ذكر هذا **عبد الواحد بن زيد** أنه **إجماع**، فروينا عنه أنه قال أجمعت العلماء أنه: ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل. وقال الحسن كل صلاة لا يحضرها قلبك فهى إلى العقوبة أسرع منها إلى الثواب. وقال إن أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم منهم **الزبير وطلحة** كانوا أخف الناس صلاة، فسئلوا عن ذلك فقالوا نبادر بها وسوسة العدو. وروينا عن **عمر رضى اللّه تعالى عنه** قال على المنبر إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام وما أكمل للّه تعالى صلاة، قيل وكيف ذاك، قال لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على اللّه تعالى فيها. وقال اللّه جل ذكره ومَن أصدق من اللّه حديثا: حتى تعلموا ما تقولون. وقال **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم**: مَن تشعّبت به الهموم لم يُبال اللّه تعالى فى أى أوديتها هلك. وسئل **أبو العالية** عن قوله تعالى الذين هم عن صلاتهم ساهون، قال هو الذى **يسهو فى صلاته** فلا يدرى على كم ينصرف، على شفع أم على وتر. وسئل **الحسن** عن ذلك فقال هو الذى **يسهو عن وقت الصلاة** حتى يخرج وقتها. وكان يقول أمَا واللّه لو تركوها لكفروا ولكن سهوا عن الوقت. وقال بعض السلف فيها هو الذى إنْ صلاّها فى أوّل الوقت أو فى الجماعة لم يفرح، وإنْ صلاّها بعد الوقت لم يحزن. وقيل هو الذى لا يرى تعجيلها برّاً ولا تأخيرها إثما. ويقال إن الصلوات الخمس يُلفَق بعضها إلى بعض حتى يتم بها للعبد صلاة واحدة. وقيل من الناس من يصلى خمسين صلاة فيكمل له بها خمس صلوات. وإنّ اللّه تعالى ليستوفى من العبد ما أمره به كما فرضه عليه وإلاّ تمّمه من سائر أعماله النوافل، لأنه ما فرض على العبد إلاّ ما يطيقه بعونه إذ لم يكلفه ما لا طاقة له برحمته. وروينا عن **عيسى عليه السلام** يقول اللّه تعالى لا ينجو منى عبدٌ إلاّ بأداء ما افترضتُه عليه. وفى الخبر المفسّر أوّل ما يُحاسب به العبد الصلاة، فإنْ وُجِدت كاملة وإلاّ يقول

الله تعالى انظروا هل لعبدى نوافل فنتم فرائضه من نوافله، ثم يعمل بسائر الفرائض. وكذلك يوفّى كل فرض من جنسه من النفل، فإذا كانت النوافل فى السهو والتقصير كالفرائض، أو لم يوجد نوافل، فكيف يكون حاله فى الحساب؟

وكان **ابن عباس** يفسر قوله تعالى كَلاّ لَمّا يَقْضِ ما أمره، قال يعنى به الكافر، لأن عنده أن كل موضع فى القرآن يُذكَّر به الإنسان خاصة، أنه يعنى به الكافر. وقد قال الله تعالى لا يكلف الله نفسا إلاّ وسعها، يعنى طاقتها. وقال سبحانه وتعالى مخبراً عن المؤمنين ولا تُحمّلنا ما لا طاقة لنا به، فى التفسير اختلاف، والصواب أن الله عز وجل يكلّف المؤمنين خاصة، فضلا من الله تعالى ونعمة آثرهم بها على الكافرين، إذ له أن يؤثر بعض عباده على بعض، لأن الفضائل بيده يؤتيه من يشاء، وله تعالى أن يحمّل الكافر ما لا طاقة له به عدلا منه وحكمة، كما قال تعالى وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته، قيل صدقا للمؤمنين وعدلا على الكافرين. قال الله تعالى مخبرا عن إخوة يوسف تالله لقد آثرك الله علينا، فهذا نص فى الإيثار لبعض خلْقه على بعض. ثم رأيتُ تصديق ابن عباس فى قوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلاّ وسعها، يعنى إلاّ طاقتها من العمل، لأن الله تعالى افترض على المؤمنين أعمالا يطيقونها ولم يفترض عليهم ما لا يطيقون.

وروينا عن **النبى صلى الله عليه وسلم** مَن صلّى كما أُمر غُفر له ما تقدم من ذنبه. وقد يروى فى خبر يقول الله تعالى ليس كُل مُصَلّ أتقبلُ صلاته، إنما أتقبل صلاة من تواضع لعظمتى، وخشع قلبه لجلالى، وكفّ شهواته عن محارمى، وقطع ليله ونهاره بذكرى، ولم يُصرّ على معصيتى، ولم يتكبّر على خلْقى، ورحم الضعيف وواسى الفقير من أجلى. على أن أجعل الجهالة له حلما، والظلم له نورا، يدعونى فألبيه، ويسألنى فأعطيه، ويُقسم علىّ فأبرّه، أكلؤه بقوّتى، وأُباهى به ملائكتى، لو قسّم نوره عندى على أهل الأرض لوسعهم، مثله كمثل الفردوس لا يتسنّى ثمرها ولم يتغير حالها. وفى الخبر كم قائم حظُّه من قيامه السهر والتعب. ومن صلّى صلاةً وراء إمام فلم يدر ماذا قرأ فهو نهاية السهو، فإنه تارك الأمر للاستماع فيُخاف عليه مجانبة الرحمة، لأن الله تعالى ضمن الرحمة بشرطين، **الاستماع والإنصات**، وقال سبحانه فى المعنيين وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تُرحمون، وقال تعالى فلما حضروه قالوا أنصتوا. وروينا فى خبر أن **النبى صلى الله عليه وسلم** صلّى صلاة

فترك فى قراءته، فلما انْفَتَل قال ماذا قرأت، فسكت القوم، فسأل أبىّ بن كعب، فقال قرأت سورة كذا وتركت آية كذا فما أدرى أُنسِخت أم رُفِعت، فقال أنت لها يا أُبىّ، ثم أقبل على الآخرين فقال ما بال أقوام يحضرون صلاتهم ويُتمون صفوفهم ونبيهم بين أيديهم لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم، ألاَ إنّ بنى إسرائيل كذلكم فعلوا، فأوحى الله إلى نبيّهم أن قُل لقومك تُحضرونى أبدانكم، وتعطونى ألسنتكم، وتغيّبون عنى قلوبكم؟ باطلا ما تذهبون. وقال بعض علمائنا إن العبد يسجد السجدة عنده أنه يتقرب بها إلى الله عز وجل، ولو قسّمت ذنوبه فى سجدته على أهل مدينته لهلكوا، قيل وكيف يكون ذلك يا أبا محمد، قال يكون ساجدا عند الله وقلبه مصغ إلى هوى، ومشاهدٌ لباطل قد استولى عليه. وهذا كما قال لأن فيه انتهاك حرمة القُرب وسقوط هيبة الرب تعالى.

واعلم أن **طول الصلاة** عليك غفلة، **وقصَرها** سهْو، لأنها إذا طالت عليك دلّ على عدم الحلاوة ووجود الثقَل بها وكُبْرها على جوارحك. وإذا قَصُرت عليك وخفّت دلّ على نقصان حدودها ودخول الغفلة والسهو فيها، فالنسيان قصّرها. والاستقامة فى الصلاة أن لا تطول عليك لوجود الحلاوة ولذة المناجاة وحُسن الفهم واجتماع الهمّ، ولا تقصُر عليك لتيقظك فيها ورعايتك حدودها وحُسن قيامك بها. وهذه مراقبة المصلين ومشاهدة الخاشعين.

ذكر أحكام الخواطر فى الصلاة

وما ذُكِّر به العبد فى الصلاة من **الخير** فليسارع إلى فعله فذلك من أحب الأشياء إلى الله تعالى، لأنه أذكره إياها فى أحبّ المواطن إليه، وما ذُكِّر به من **المكروه والممقوت** إليه من المعتاد والمستأنف فليجتنبه، فإنه هو الذى يُبعده من قرب الله سبحانه وتعالى، وتذكيره إياه فى محل القرب توبيخاً له وتقريراً، وقد يكون عتَبا وتنبيهاً، فترك ذلك مما يقرّب إلى الله تعالى ويدل على حسن الاستجابة له. وما خطر به من خاطر إثم أو هوى، أو ذُكِّر بهَمّه مما يأتى أو ما قد مضى، فإن ذلك **وسوسة** إليه من عدوّه، حسداً له، ليقطعه بذلك عن وقوف قلبه عند كل ركن من أركان الصلاة، ويشغل قلبه عن الوقوف فى المناجاة، فيحجبه بما يضره عما ينفعه، ليحرمه بذلك أن يشهد عند كل ذِكْر من أذكار الصلاة ما يوجبه الذكر من تدبير أو تعظيم أو حمد أو دعاء أو استغفار. وإنْ خطر بقلبه أمر معاشه وتصريف أحواله وتدبير شأنه من المناجاة فذلك من قبَل **النفس** وفِكْرها بما توسوس به من أمور الدنيا، فإمّا إنْ خطرت همّة

محظورة أو فكرة فى معصية مأزورة فهذا هو الهلاك والبُعد، يكون عن وصف **النفس الأمّارة** باستحواذ العدوّ المُغوِى، فهو علامة الإبعاد والحجاب، ودليل المقت والإبعاد والإعراض، فإذا ابتُلى فى صلاته بهذه المعانى فقد اختُبِر بذلك فعليه أن يعمل فى نفيه مع نفسه، ولا يُمكّنه من الظهور من قلبه، ولا يصغى إليه بعقله فيستولى عليه، ولا يحادثه، ولا يطاوله فيخرجه من حدّ الذكْر واليقظة إلى مسامرة الجهْل والغفلة. وكل عمل محظور فالهمّة به محظورة وفيه نقص. وكل عمل مباح فالهمّة به مباحة، وما خطر على قلبه من الخيرات المتأخر فعلها فليعقد النية بذلك فإنه قد ذُكِّر به وأُريد منه. ثم ليمض فى صلاته ولا يشتغل بتدبيره كيف يكون ومتى يكون، أو كيف أكون فيه وعنده إذا كان، فيفوته الإقبال فى الحال بتدبير شأنه فى المآل، وهذا هو استراق من العدوّ عليه، فإن جاهد هذا المصلى نفسه عن مسامرة الفكر، وقابل عدوّه فى قطع وسوسة الصدر، كان **مجاهداً فى سبيل الله تعالى**، مقاتلا لمن يليه من أعداء الله تعالى، له **أجران**: أجر الصلاة للتقرّب إلى الكريم، وأجر المصارمة والمحاربة لعدوّه الرجيم. وقد كان الأقوياء من المؤمنين أهل الغلظة على الأعداء والتمكين، إذا ابتلوا بداخلٍ يدخل عليهم فى الصلاة من الأسباب يُخرجهم عن المشاهدة فيها، عملوا فى قطع ذلك الشىء وإبعاده من أصله، إذ كان سبب قطعهم وإبعادهم من قُربهم. فيَستخرج بإدخال ذلك عليهم إخراجهم من الدنيا وهو **الزهد** فيها،، فيكون ذلك إحسانا من الله إليهم ومريداً منه لهم، وهذا أحد ما زهد لأجله الزاهدون فى الدنيا، لتصفو قلوبهم من الأسباب فتخلص أعمالهم من الوسواس بالاكتساب. ومن ذلك ما بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نزع الجبة التى كانت عليه فى الصلاة لمّا نظر إلى عَلَمها، وقال ألهتنى هذه فى الصلاة يعنى شغلتنى، ونظر إلى شِراك نَعْله فى الصلاة وكان جديداً فأمر أن يُنزَع منها ويُعاد لها الشراك الخَلِق، وكان قد احتذى نعلا فأعجبه حسنها فسجد وقال تواضعت لربى كيلا يمقتنى، ثم خرج بها فدفعها إلى أوّل سائل لقيه، ثم أمر علياً أن يشترى له نعلين جرداوين فلبسهما.

وكان الضعفاء من المؤمنين يعملون فى نفس الوسواس وترك مساكنته ومحادثته فى الحال، لقوادح اليقين فى إيمانهم ولسرعة التيقظ فى قلوبهم، لأن الآفات تدخل من مكان الهوى، وتُمكّن الأعداء لطول الغفلة، ولاتساع النفس فى الشهوات، وضعف اليقين، إذ لو قوى يقين العبد لانشرح صدره، ولأطفأ نور يقينه ظلمة هواه، ولعلم يقيناً أن ما هو فيه من الذكر والصلاة أنفع له وأحمد عاقبة مما تفكر فيه من عاجل دنياه، فيشتغل حينئذ بما له من الذكر

عما هو عليه من سوء الفكر، فلا يسترق العدو عليه السمع، ويلقى إليه الوسوسة، ويطمع فيه بالغرّة، ويدخل عليه من باب الأمنية، لأنه قد قرَن الأمانى بالإضلال. ألم تسمع إلى ربك تعالى فى قوله ولأضلنهم ولأمنينهم، ثم قال فى مثله وعدهم وشاركهم فى الأموال والأولاد، وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً، ثم استثنى عباده المسلطين عليه سلطانه، الغالبين له بآياته، فلم يصل العدو إليهم لمواصلته لهم وتوكلهم عليه، بوكالته إياهم تنتظم هذه المعانى فى قوله تعالى إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا، وقوله تعالى ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا، أنتما ومن أتبعكما الغالبون، مع قوله تعالى إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

ولا ينبغى للمصلى أن يدخل فى صلاته حتى يقضى نهمته ويفرغ من حاجته ولا يبقى عليه ما يزعج قلبه ويفرق همّه، ليفرغ قلبه فى صلاته، ويجتمع همه فى وقوفه، ويصحو عقله لفهمه، ويواطىء قلبه قيله، ويقبل على المقبل عليه بمعقوله، وهذا يؤمر به الضعفاء عن مجاهدة الأعداء، والمرضى عن مسابقة الأولياء. وقد روى عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** المؤمن القوى أحب إلى اللهّ تعالى من المؤمن الضعيف، وفى كلٍ خير. وقد قال اللهّ تعالى لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر، والمجاهدون فى سبيل الله إلى قوله فضّل الله المجاهدين على القاعدين درجة، مع قوله وكلاً وعد اللهّ الحسنى.

شرح ثالث ما بنى الإسلام عليه وهو الزكاة

كتاب الزكاة

فأما فرائض الزكاة فأربع: الحرية، وصحة الملك، ووجود النصاب وهو مائتا درهم وعشرون دينارا، واستكمال الحوْل وهو من شهر إلى مثله.

ذكر فضائل الصدقة وآداب العطاء وما يزكو به المعروف ويفضل به المنفقون

روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنه قال ليس فى المال حق سوى الزكاة، وأن جماعة من التابعين كانوا يذهبون إلى أن فى المال حقوقا غير الزكاة، منهم **إبراهيم النخعى**، قال كانوا يرون أن فى المال حقوقا سوى الزكاة، ومنهم **الشعبى** سئل أفى المال حق سوى الزكاة، قال نعم، أما سمعت قوله تعالى وآتى المال على حبه ذوى القربى الآية، ومنهم

عطاء ومجاهد. وقد كان المسلمون يرون المساواة والفرض والقيام بمؤن العَجزة من أنفسهم وأهلهم من المعروف والبر والإحسان، وأن ذلك واجب على المتقين وعلى المحسنين من أهل اليسار والمعروف. وكذلك مذهب جماعة من أهل التفسير أن قوله عز وجل ومما رزقناهم ينفقون، وقوله وأنفقوا مما رزقناكم – مأمورٌ به، وأن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة، وأنه داخل فى حق المسلم على المسلمين، وواجب بحُرمة الإسلام ووجود الحاجة، فمن فضائل الزكاة أنْ يخرجها فى أول ما تجب عليه، وإن قدّمها قبل وجوبها إذا رأى لها موضعا يتنافس فيه ويغتنم خوف فوته من غازٍ فى سبيل الله عز وجل، أو فى ديْن مطالَب، أو جهاد وغزو، أو إلى رجل فقير فاضل طرأ فى وقته، أو ابن سبيل غريب، كان تقدمتها إلى هؤلاء وأمثالهم أفضل وأزكى لأنه من المسارعة إلى الخير، ومن المعاونة على البر والتقوى، وداخل فى التطوّع بالخير وفعله الذى أُمر به، ولا يأمن الحوادث إذ فى التأخير آفات، وللدنيا نوائب وعوائق، وللنفس بدوات، وللقلوب تقليب. وإنْ جعَل رأس الحوْل أحد الشهرين كان أفضل فإن فى هذين خاصية من الفضائل ليست فى غيرهما، فأما **شهر رمضان** فإن الله تعالى خصّه بتنزيل القرآن، وجعل فيه ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر، وجعله مكانا لأداء فرضه الذى افترضه على عباده من الصيام، وشرّفه بما أظهر من عمارة بيوته بالقيام، وقد كان مجاهد يقول لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا شهر رمضان، وقد رفعه إسمعيل بن أبى زياد فجاء به مسندا. وأما **ذو الحجة** فإنّا لا نعلم شهراً جمع خمس فضائل غيره: هو شهر حرام، وشهر حج، وفيه يوم الحج الأكبر، وفيه الأيام المعلومات وهى العشرة، والأيام المعدودات وهى أيام التشريق التى أمر الله تعالى بذكره فيها. وأفضل أيام فى شهر رمضان العشر الأواخر، وأفضل أيام فى شهر الحجة العشر الأوّل. وقد استحب بعض أهل الورع أن يقدِّم فى كل سنة بشهر لئلا يكون مؤخِرا عن رأس الحول، لأنه إذا أخرج فى شهر معلوم ثم أخرج القابل فى مثله فإن ذلك الشهر يكون الثالث عشر وهذا تأخير، فقالوا إنه إذا أخرج فى رجب فليخرج من القابل فى جمادى الآخرة ليكون آخر سنته بلا زيادة، وإذا أخرج فى رمضان فيُخرج من قابل فى شعبان على هذا لئلا يزيد على السنة شيأ، وهذا أحسن. وليتق أن يكون مخُرجا للفرض فى كل شهر، ثم أن يخرجها طيبة بها نفسه، مسروراً بها قلبه، مخلصاً لربه، مبتغياً بها وجهه لغير رياء ولا سمعة، ولا تزيّن ولا تصنّع، ولا يحب أن يطّلع عليها غير الله عز وجل، ولا يرجو فى إعطائها ولا يخاف فى منعها سواه، وليكن ناظرا إلى الله تعالى عارفا

بحُسن توفيقه له، وأن يعتقد فضل من يعطيه من الفقراء عليه، ولا ينتقصه بقلبه ولا يزدريه، وليعلم أن الفقير خيرٌ منه لأنه جُعِل طُهرةً وزكاة، ورفعةً ودرجةً فى دار المقام والحياة، وأنه هو قد جُعِل سُخرةً للفقير وعمارةً للدنيا.

وقد جاء فى تفسير قوله تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، قال المن أن تذكرها، والأذى أن تُظهرها. وحُدِّثت عن بشر بن الحارث قال **سفيان**: مَنْ مَنَّ فسدت صدقته، قيل كيف المَنّ يا أبا نصر، قال أن تذكره أو تحدّث به. وبعضهم يقول المنّ هو أن تستخدمه بالعطاء، والأذى أن تعيّره بالفقر. وقيل المنّ أن يتكبر عليه لأجل أن يعطيه، والأذى أن تنهره أو توبخه بالمسئلة. وفى الحديث أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير فى سرّ. وقال بعض العلماء ثلاثة من كنوز البرّ منها إخفاء الصدقة. وروينا فى الخبر لا يقبل الله من مُسمع ولا مراء ولا منّان، فجمع بين المنة والسَمْعَة، كما جمع بين السمعة والرياء وردّ بهن الأعمال، فالمُسمِع الذى يتحدث بما صنعه من الأعمال ليسمعه من لم يكن رآه فيقوم ذلك مقام الرؤية، فسوّى بينهما فى إبطال العمل لأنهما عن ضعف اليقين، إذ لم يكتف المُسمِع بعلم مولاه كما لم يقنع المرائى بنظره فأشرك فيه سواه. وألحقَ المنّان بهما، لأن فى المنة معناهما من أنه ذكره فقد سَمَّع غيره به، أو رأى نفسه فى العطاء ففخر به وأدّاه فى العلانية فكُتِبَ رياء.

وجاء فى الأثر تفضل صدقة السر على صدقة العلانية سبعين ضعفا. وفى الحديث المشهور سبعة فى ظل عرش الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلاّ ظله، أحدهم رجل تصدّق بصدقة فلم تعلم شماله ما أعطت يمينه، وفى لفظ آخر فأخفى عن شماله ما تصدّقت به يمينه، وهذا من المبالغة فى الوصف، وفيه مجاوزة الحد فى الإخفاء، أى يُخفِى من نفسه فكيف غيره. وقد تستعمل العرب المبالغة فى الشىء على ضرب المثل والتعجب وإنْ كان فيه مجاوزة للحد. من ذلك أن الله عز وجل ذمّ قوما ووصفهم بالبخل وبالغ فى وصفهم فقال تعالى أم لهم نصيب من المُلك فإذاً لا يُؤتون الناس نقيراً، والنقير لا يريده أحد ولا يطلبه ولا يُعطاه لأنه هو النقطة التى تكون على ظهر النواة منه منبت النخلة. وفيه معنى أشد من هذا وأغمض أنه لما قال فأخفى عن شماله كان لهذا القول حقيقة فى الخفاء فهو أن لا يحدّث نفسه بذلك ولا يخطر على قلبه، وليس يكون هذا إلاّ أنْ لا يرى نفسه فى العطاء أصلا ولا يَجرِى وهْمُ ذلك على قلبه، فإن لم يمكن على الحقيقة أن تُخفى صدقتك عن نفسك فاخفِ نفسك فيها حتى لا يعلم المُعطَى

أنك أنت المُعطي. وهذا مقام في الإخلاص، فإن أظهرت يدك في الإعطاء فاخفها سرا إلى المعطَى، هذا حال الصادق فقد كان بعض المخلصين يلقى الدرهم بين يديّ الفقير أو في طريقه أو موضع جلوسه بحيث يراه وهو لا يعلم مَن صاحبه، وبعضهم كان يصرّ ذلك في ثوبه وهو نائم فلا يعلم مَن جعله، وقد رأيت من يفعل ذلك. فأما من كان يوّصل إلى الفقير على يد غيره ويستكمه شأنه فلا يحصَي ذلك من المسلمين. وفي الخبر صدقة السر، وقيل صدقة الليل، تطفيء غضب الرب تعالى. وقد أخبر الله تعالى أن الإخفاء أفضل ومعه يكون تكفير السيآت، فقال سبحانه وتعالى وإنْ تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفّر عنكم من سياتكم. فإنْ أظهر مسكين نفسه وكشف نفسه للسؤال وآثر التبذل على الصوْن والتعفف، فلا بأس أن تُظهر معروفك إليه،فإنْ أظهرت زكاتك إرادة السنّة والاقتداء بك والتحريض على مثل ذلك من غيرك لينافسك فيه أخوك فيسرع إلى مثله أمثالك منهم، فَحَسَن، وذلك من التحاض على إطعام المسكين، وقد ندب الله تعالى إليه، وقد قيّده في قوله تعالى وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية، قيل سرا التطوّع وعلانيةً الصدقة المفروضة. وكذلك قوله تعالى وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا، القرض الحسن هو التطوّع، وقد قيل الحلال. كما قال ورَزَقَني منه رزقا حسنا أي حلالا.

وقد قال تعالى إنْ تبدوا الصدقات فنِعمّا هي، فمدح المُبدي بنِعِمّ إلاّ أن ذلك لا يحسن إلاّ إلى مَن أبدى نفسه، كأنه هذا السائل الذي يسأل بلسانه وكفّه، وقوله تعالى وإنْ تخفوها وتؤتوها الفقراء الآية كأنها للمستخفف بالمسئلة وهي لخصوص الفقراء لا يظهرون نفوسهم بما يمنعهم الحياء والتعفف، فمن أظهَر نفسه فأظهِر إليه، ومن أخفاها فأخفَى له. ومن ذلك كشف عورة الفاسق إنما حُرّم عليك أن تُظهر عورة من يُخفي عنك نفسه ويستتر، فإذا أظهر نفسه بها وأعلن فلا بأس أن يُظهَر عليه، كما جاء في الخبر من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له. وينبغي أن يجعل صدقته من أفضل ما يحبه من المال، ومن جيد ما يدّخر ويقتني وتستأثر به النفوس، فيؤثر مولاه به كما أمره وضرب المثل له، فقال أنفقوا من طيبات ما كسبتم، ثم قال ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون. وقال في ضرب المَثل بالعبيد ولستم بآخذيه إلاّ أن تُغمضوا فيه، أي لا تقصدوا الرديء فتجعلوه لله تعالى ولو أعطى أحدكم ذلك لم يأخذه إلاّ على إغماضٍ أي كراهية وحياء. ولا يجعل ما لله تعالى دون ما يستجيد لنفسه، أو ما يكره أن يقتنيه لعافيته أو يأخذه من غيره، أو ما لا يستحسن أن يهديه لنبيل من العبيد، فتكون قد آثرت نفسك أو

عبدا مثلك على مولاك فإن هذا من سوء الأدب. ولا يقوم سوء أدب واحد في معاملة بجميع المعاملات.

وقد روى في معنى قوله تعالى من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا قال طيّباً، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا. وفي حديث أبان عن أنس طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية. وفي الخبر سبق درهم مائة ألف درهم، وقد تهدد الله قوماً جعلوا له ما يكرهون ووصفت ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى، لا جَرَمَ، فأكذبهم في قوله تعالى ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى، لا جرم أن لهم النار، أي حقاً لهم النار. وإذا دعا لك مسكين عند الصدقة فاردد عليه مثل دعائه حتى يكون ذلك جزاءً لقوله وتخلص لك صدقتك، وإلاّ كان دعاؤه مكافأة على معروفك، فقد كان العلماء يتحفظون من ذلك وهو أقرب إلى التواضع، وكانت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما إذا أرسلتا معروفا إلى فقير قالتا للرسول احفظ ما يدعو به، ثم يردّان عليه مثل قوله، ويقولان حتى تخلص لنا صدقتنا. وفعل ذلك عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما. ولا ينبغي أن تقتضي من الفقير الدعاء أو تطالبه بذلك أو تحب منه الثناء والمدح على ذلك فإنه ينقص من الصدقة، وإذا كثُر منك وقَوِيَ أحبَطَها، وإنْ كان عليه أن يدعو لك الفقير ويثني به عليك فإنما يعمل فيما تعبّده مولاه به وأمره به، فلا يرى ذلك من حقك عليه، وإذا وّصلت إلى الفقير معروفا فبحسن أدبٍ ولين جانبٍ ولطفِ كلامٍ وتذللٍ وتواضع، وقد كان بعض الأدباء إذا أراد أن يدفع إلى فقير شيأً بسط كفه بالعطاء لتكون يد الفقير هي العليا، وبعضهم كان يضعها بين يديه على الأرض ويسأله قبولها منه ليكون هو السائل ولا يناوله بيده إعظاما له، وهذا يدل على معرفة العبد بربه وحُسن أدبه في عبادته. ومن أحب الثناء والذكر على معروفه كان ذلك حظه منه وبَطُل أجره. وربما كان عليه فضل من الوزر لمحبته الذكر والثناء فيما لله تعالى أن يفعله، وفي رزق الله لعبده الذي أجراه على يده.

وأستحب للفقير أن يخصّ ذا المعروف إليه بدعوات شكر لما أولاه وتأدباً وتخلقا بفعل مولاه، لأنه قد جعله سببا للخير وواسطة للبرّ، إذ الله سبحانه وتعالى يشهد نفسه بالعطاء، ثم قد أثنى على عبده وشكر له في الإعطاء، فليقل طهّر الله قلبك في قلوب الأبرار، وزكّى عملك في عمل الأخيار، وصلّى على روحك في أرواح الشهداء، فذلك هو شكر الناس والدعاء لهم

وحُسن الثناء عليهم. ومن شكرهم أيضا أن لا يذمّهم فى المنع، ولا يعيبهم عند القبض، فذلك تأويل الخبر من لم يشكر الناس لم يشكر اللّه تعالى، فإن فيه إثبات حُكم الأواسط واستعمال حُسن الأدب فى إظهار النعَم والتخلق بأخلاق المُنعم، لأنه أنعم عليهم ثم شكر لهم كرماً منه، وكذلك فى الخبر العبد الموقن يشهد يد مولاه فى العطاء، فحمد ثم شكر للمتقين إذ جعلهم مولاه سبب حمده وطرقا لرزقه. وفى الخبر من أسدى إليكم معروفا فكافؤه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه. فأما شكر اللّه تعالى على العطاء فهو اعتقاد المعرفة أنه من اللّه تعالى لا شريك له فيها، والعمل بطاعته بها. ومن فضل الصدقة أن يقصد بها الفقراء الصالحين الصادقين من أهل التصوّف والدين، ممن يؤثر التستر والإخفاء، ولا يُكثر البث والشكوى، وممن فيه وصف من أوصاف الكتاب للفقراء الذين أُحصِروا فى سبيل اللّه، أى حُبِسوا فى طريق الآخرة لعيْلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب أو قصور يد، لا يستطيعون ضرباً فى الأرض لأنهم مقصوصو الجناح إذ المال لغنى بمنزلة الجناح للطائر،يذهب بماله حيث شاء من البلاد، وينبسط فى شهواته كيف شاء من المراد، والفقير محصور عن ذلك لا يستطيعه لقبض يده وقدر رزقه، ومن هذا قوله تعالى قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً، قيل المال، وقيل المعاش، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، فسمّى اللّه تعالى من لا يعرفهم بالفقر ولا يَشهد وصفهم بالتقلل، لظهور تعففهم عن المسئلة، جاهلاً بوصف المؤمنين، ثم وكّد وصفهم وأظهر للخلْق تعريفهم بياناً منه وكشفاً لحالهم، إذ ستروُها بالعفة فقال تعرفهم بسيماهم، فالسيما هى العلامة اللازمة والخليقة الثابتة دون التحلى واللبسة الظاهرة، لا يسألون الناس إلحافا أى بهذه العلامة أيضا تعرفهم إنْ أشكلوا عليك فإنهم لا يسألون عفة وقناعة، إلحافا لا يلتحفون بالأغنياء ولا يلاحقون أهل الدنيا تملقاً وضراعة، أى هم بأحوالهم أغنياء بيقينهم أعزة بصبرهم، والإلحاف مشتق من اللحاف الذى يلتحف به فيلزم الجسم فقال ليسوا ممن يفعل ذلك لا يلتحفون الأغنياء كاللحاف، ولا يلتحفون المسئلة إلزاما كالصنعة كما يلتحف بالثوب، فاحرص أن يكون معروفك فيمن فيه هذه الأوصاف أو بعضها فيزكو عملك ويُشْكَر فعلك.

والأفضل فى هذا المعروف أن يؤثر الرجل إخوانه من الفقراء على غيرهم من الأجانب، فقد روى عن علىّ رضى اللّه عنه لأن أَصِل أخاً من إخوانى بدرهم أَحَبُّ إلىّ من أنْ أتصدق بعشرين درهما، ولأنْ أَصِله بعشرين درهما أحب ألىّ من أن أتصدق بمائة درهم، ولأن أصله بمائة درهم أحب إلى من أن أعتق رقبة. لأن اللّه تعالى ضم الأصدقاء إلى الأقارب فكان فضل

الصدقة على الأقارب دون البعيد كفضل الصدقة على القرابة دون الأباعد، لأنه ليس بعد صلة الرحم فى معناها أفضل من صلة الإخوان. وكان بعض السلف يقول أفضل الأعمال صلة الإخوان. وليقصد ببرّه مَن إذا دُفع إليه العطاء حمد الله تعالى وشكره ورأى النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة فى نعمة، فإن هذا أشْكَر العباد لله تعالى، لأن حقيقة الشكر لله بشهود النعمة منه، والإخلاص بحسن المعاملة له، وأن لا يشهد فى النعمة بالعطاء والنعمة بالعمل الصالح سواه. وفى وصية **علّى رضى الله تعالى عنه** لا تجعل بينك وبين الله تعالى مُنعِما، وأعْدد نعمة غيره عليك مَغْرَماً – لأنه قد أثنى على من يعطيه ويحمده، فيكون قد حمد غير الذى أعطاه، ونظر إلى سواه، لأن الذى يحمد الله ويشكره ويُثْنى عليه برزقه يرى أن الله سبحانه وتعالى هو المنعم المعطى فينظر إليه من قرب، فيقين هذا بالله أنفع لصاحب المعروف عند اللهّ من دعاء الآخر المثنى. وفى الخبر أن الصدقة تقع بيد اللهّ تعالى قبل أن تقع بيد السائل وهو يضعها فى يد السائل، فالموقن يأخذ رزقه من يد اللهّ تعالى، فهو لا يعبد إلا الله تعالى ولا يطلب منه إلا كما أمره فى قوله تعالى فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه.

ووجّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بعض الفقراء بمعروف وقال للرسول احفظ ما يقول، فلمّا أوصله إليه قال الحمد للهّ لا ينسى مَن ذَكَره ولا يُضيع من شكره، ثم قال اللّهم إنك لم تنس فلانا، يعنى نفسه، فاجعل فلانا لا ينساك. فأخبر الرسول رسول الله صلى اللهّ عليه وسلم بذلك فسُرّ به، وقال قد علمتُ أنه يقول ذلك. وقد روى هذا عن **عمر** وعن **أبى الدرداء** مع **جرير** رضى الله عنهم. وقال **صلّى الله عليه وسلم** لرجل تُب، فقال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف الحق لأهله. وقالت **عائشة رضى الله تعالى عنها** فى قصة الإفك نحمد الله ولا نحمدك، فسَرّه ذلك. وقال لها **أبو بكر** لمّا نزل تحصينها وبراءتها قومى فقبلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت والله لا أفعل ولا أحمد إلاّ الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعها يا أبابكر. وفى لفظ آخر أنها قالت لأبى بكر نحمد الله ولا نحمدك ولا نحمد صاحبك، فلم ينكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بل سرّه وأمر أباها بالكفّ عنها.

وقد جعل الله تعالى من وصْف الكافرين أنهم إذا ذُكرَ الله وحده فى شىء انقبضت قلوبهم، وإذا ذُكر غيره فرحوا، وجعل من نعتهم أنهم إذا ذكر توحيده وإفراده عند شىء عصوا ذلك وكرهوه، وإذا أُشرك غيره فى ذلك صدّقوا به، فقال تعالى وإذا ذُكِر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذُكِر الذين من دونه إذا هم يستبشرون، وقال أيضا ذلكم

بأنه إذ دُعى اللّه وحده كفرتم، والكفر التغطية، وإنْ يُشرك به تؤمنوا، والشرك الخلْط، أنْ يخلط بذكره ذكر سواه، ثم قال فالحكم للّه العلّي الكبير، يعنى لا يشركه فى حكمه خلْق لأنه العلّى فى عظمته، الكبير فى سلطانه، لا شريك له فى مُلْكه وعطائه ولا ظهير له من عباده. ففى دليل هذا الكلام وفهمه من الخطاب أن المؤمنين إذا ذُكر اللّه تعالى بالتوحيد والإفراد فى الشيء انشرحت صدورهم واتسعت قلوبهم واستبشروا بذكر اللّه تعالى وتوحيده، وإذا ذكرت الأواسط والأسباب التى دونه كرهوا ذلك واشمأزت قلوبهم، وهذه علامة صحيحة فاعرفها من قلبك ومن قلب غيرك لتستدل بها على حقيقة التوحيد فى القلب، أو وجود خَفّى الشرك فى النفس إنْ كنت عارفا.

وينبغى أن يجعل صدقته من أجَلّ ما يقدر عليه وأطيبه فى نفسه وجهده، فإن اللّه طيّب لا يقبل إلاّ طيباً، وزكاء الصدقة ونماؤها عند اللّه تعالى على حسب حلّها ووضعها فى الأخصّ الأفضل من أهلها. وينبغى أن يستصغر ما يُعطى فإنّ الاستكثار من العُجب، والعجب يُحبط الأعمال. قال اللّه تعالى ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم. ويقال إن الطاعة كلما استُصغرت كَبُرت عند اللّه تعالى، وأنّ المعصية كلما استُعظمت صَغُرت عند اللّه تعالى. وعن بعض العلماء لا يتم المعروف إلا بثلاث، تصغيره وتعجيله وستره. وقد كانوا يدفعون فى الزكاة المئين، وفى التطوع الألوف. وكانوا يصلون الفقير بما يخرجه من حدّ الفقر ومن الحاجة والضُرّ إلى حد الكفاية والغُنية ويبقى لهم فضل. وعلى هذا تأويل قوله **صلى اللّه عليه وسلم** خير الصدقة ما أبقت غِنى، أى تكفى الفقير لوقته ويبقى له غنية واستغناء لوقت ثان يستقل بها عن المسئلة والتشرف، فيكون كأنه عمل عملا ثانيا للمعطَى غير عمله الأول بالعطاء، وهذا أحد تأويل الخبر.

وقد وصف اللّه تعالى أهل الحاجة بأوصاف **خمسة** فرّقها فى كتابه، فقال سبحانه وتعالى وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، وقال تعالى فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتّر، وقال عزّ وجل فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير. فأمّا **السائل** فهو الذى يسأل بكفه ويُظهر السؤال بلسانه، وأما المحروم فهو المحارَف الذى حارفه الرزق أى انحرف عنه فقد حُرِمَه، وقيل هو الذى لا معلوم له ولا كسب قد حُرِمَ التصرف والتعيش، وأمّا **القانع** فهو الذى يقعد فى بيته ويقنع بما آتاه اللّه من غير طلب ولا تعرُّض، وقيل إنّ **القُنوع** هو وصف من أوصاف المسئلة من غير إلحاف ولا إلحاح، وهو اسم من الأضداد يكون القنوع العفة والكفّ، ويكون المسئلة، وأما **المُعَتّر** فهو الذى يعرض بالسؤال ولا يصرّح، تحمله الحاجة على التعريض

ويوقفه الحياء عن التصريح، وأما **البائس** فهو الذى به بؤس وشدة من مرض أو برد أو عَضْب أو زمانة. ثم إن الله تعالى قد فضّل بين الفقراء والمساكين، فقال أهل العلم: **الفقير** الذى لا يسأل، و**المسكين** السائل. وقيل **الفقير** المحارَف وهو المحروم، و**المسكين** الذى به زمانة، واشتقاقه من السكون أى فقد أسكنه الفقر لمّا سكّنه وأقلّ حركته. وهذه أوصاف، يقال قد تمسْكن الرجل وسكَن، كما يقال تمدْرَع وتدرّع إذا لبس مدِرعة، فكذلك الفقير إذا كانت المسئلة لبسّة له. وأهل اللغة مختلفون فيهما، قال بعضهم المسكين أسوأ حالا من الفقير، لأن الله تعالى قال أو مسكينا ذا متربة، فهو الذى لا شىء له، قد لصق بالتراب من الجهد. وذهب إلى هذا القول **يعقوب بن السكّيت**، ومال إليه **يونس بن حبيب**، وقال قلت مرة لأعرابى أفقير أنت، فقال لا والله بل مسكين أسوأ حالاً من الفقير. وبعضهم يؤوله على غير هذا فيقول ذا متربة من الغنى، يقال أترب الرجل إذا استغنى فهو مُتْرِب من المال، أى قد كان متربا غنيا من أهل النعم ثم افتقر، فهذا أفضل مَن أُعطى. وقال بعض أهل اللغة فى قوله تعالى ذا متربة دليل أن المسكين أسوأ حالا. قال إن الله تعالى لما نعَتَه بهذاخاصةً علمتُ أنه ليس كل مسكين بهذا النعت. ألا ترى أنك إذا قلت اشتريت ثوبا ذا علَم نعتّه بهذا النعت لأنه ليس كل ثوب له علم، فكذلك المسكين الأغلب عليه أن يكون له شىء، فلما كان هذا المسكين مخالفاً لسائر المساكين بيّن الله تعالى نَعْتَه. وبهذا المعنى استدلّ أهل العراق من الفقهاء أن اللمس هو الجماع بقوله تعالى فلمسوه بأيديهم، أن اللمس يكون بغير اليد وهو الجماع، فلمّا قال بأيديهم خصّ به هذا المعنى فردّوه على من احتّج به من علماء الحجاز فى قولهم اللمس باليد. وقال آخرون بل الفقير أسوأ حالاً من المسكين لأن المسكين يكون له الشىء والفقير لا شىء له. قال الله تعالى فى أصحاب السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر، فأخبر أن لهم سفينة وهى تساوى جملة. وقالوا سُمّى فقيراً لأنه نُزِعت فقرة من ظهره فانقطع صلبه من شدة الفقر، فهو مأخوذ من فَقَار الظهر. ومال إلى هذا القول **الأصمعى** وهو عندى كذلك، من قبل أن الله تعالى قدّمه على الأصناف الثمانية التى جعل لهم الصَدَقة فبدأ به، فدلّ على أنه هو الأحوج فالأحوج، أو الأفضل فالأفضل. وقال قوم الفقير هو الذى يُعرف بفقره لظهور أمره، والمسكين هو الذى لا يُفطن له ولا يؤبه به لتخفّيه وتَسَتُّره. وقد جاءت السنّة بوصف هذا فى الخبر المروى ليس المسكين الذى ترده الكِسرة والكِسرتان، والتمرة والتمرتان، إنما المسكين المتعطف الذى لا يسأل الناس ولا يُفطَن له فيتُصَدَق عليه. وقد قال بعض الحكماء فى مثل هذا

وقد سئل أى الاشياء أشد ، فقال فقير فى صورة غنى. وقيل لحكيم آخر ما أشد الأشياء، قال من ذهَبَ مالُه وبقيت عادته. وقال الفقهاء المسكين الذى له سبب ويحتاج إلى أكثر منه لضيق مكسبٍ أو وجود عَيْلة، فهذا أيضا قد وردت السُنّة بفقره وذُكر فضلُه فى الحديث الذى جاء أنّ اللّه يحب الفقير المتعفف أباالعيال، ويبغض السائل المُلحِف. وفى الخبر الآخر إنّ اللّه تعالى يحب عبده المؤمن المحترف. وكل هذه الأقوال صحيحة، فالأفضل أن توضع الزكاة فى الأحوج فالأحوج والأفضل فالأفضل من أهل العلم باللّه تعالى، وأهل المعاملة وأهل الدين للّه، المنقطعين عن أهل الدنيا، المشغولين بتجارة الآخرة عن تجارات الدنيا، ثم فى ذى العيال بقدر عياله وبمقدار غناه عن حاجاته، فيكون له بعددهم أجور أمثاله من المنفردين إذ هم جماعة. وقد كان **عمر رضى اللّه عنه** يُعطى أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها. وكذلك فى السنّة، روينا عن **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** أنه كان يعطى العطاء على قدر العيْلة، ويعطى المتأهل ضعف ما يعطى العَزَب، ويعطى كل رجل على قدر أهل بيته.

وحُدّثنا عن بعض هذه الطائفة قال صحبنا أقواما كان برّهم لنا الألوف من الدراهم، انقرضوا وجاء آخرون كان برّهم لنا المئين، ونحن بين قوم صلتهم لنا العشرات، نخاف أن يجىء قوم شرّ من هؤلاء. وقال بعض السلف رأينا قوما كانو يفعلون، ونخاف أن يجىء قوم يقولون ولا يفعلون. وإنْ اتفق ذو ديْن فى عيلة من مساكين فذلك غنيمة المتقين وذخيرة المنفقين، والمعروف فى مثله واقع فى حقيقته. وسئل **ابن عمر** عن جُهد البلاء ماهو، فقال كثرة العيال وقلة المال. وقد جاء فى الخبر لا تأكل إلاّ طعام تقّى ولا يأكل طعامك إلاّ تقى، لأن التقى تستعين به على البّر والتقوى فيشركه فى قصده. وفى الخبر أيضا أطعموا طعامكم الأتقياء وأوْلُوا معروفكم المؤمنين. وفى لفظ آخر أضفْ بطعامك من تحبه للّه تعالى. وينبغى للموقن أن يفرح ويُسَر بقبول معروفه من الاتقياء لأن ذلك عمله. ومن ردّ عليه فقير برّه فلم يحزنه ذلك أو سرّه ذلك دلّ على ضعف نيته فى الإخراج وقلة إخلاصه بمعروفه، لأن الصادق يسوؤه ردّ معروفه إليه ويُحزنه، وينبغى أن لا يتملك ذلك إنْ ردّه عليه بل يدفعه إلى فقير آخر لأنه قد أخرجه للّه تعالى فلا يرجع فيه، والفقراء شركاء فى العطاء يُرَدّ عليهم من بعضهم إلى بعض. وكذلك إن أخرج صدقة باسم فقير بعينه ليعطيه إياها فصادف غيره فذكر من هو أحوج منه أو أفضل فلا بأس أن يدفعها إلى الثانى مالم تخرج عن يده أو يكون قد وعده بها. وكذلك إنْ دفعها إلى من يدفعها إلى فقير بعينه، ثم رأى من أثَر فى قلبه فله أن يسترجعها من المأمور

ويدفعهاإليه مالم يكن قد نفدها أو أعلمه بها. وينبغى أن يستبشر بقبول العارفين معروفه لأن ذلك قبول من الله تعالى لعلمه، إذ كان العارف بالله تعالى وأيامه يتصرف عن الله تعالى فى الأفعال كما أنه ينطق عنه فى المقال، وليس قبوله منه كقبول غيره ولا ردّه عليه كردّ غيره إذ كان الشاهد فيه من الله سبحانه أقوى وأعلى من الشاهد فى غيره، ولما هو إلى التوفيق والعصمة أقرب مما سواه من الفقراء.

وحدّثنى بعض إخوانى أن فقيراً بمكة ردّ على بعض الأغنياء معروفه فأخذ يبكى، فقيل له، فقال أليس هذا عملى قد رُدّ علىّ، قيل له فإنّ غيره يقبله، فقال من أين لى مثل هذه العين. وهذا كما قال لأن المؤمن ينظر بعين اليقين ونور الله تعالى، فردّه عن الله تعالى كما قال تعالى ويتلوه شاهدٌ منه. والجاهل يتصرف بهواه عن نفسه فردُّه كقبوله، لأنه يأخذه لنفسه ويردّ بنفسه، والعارف إنْ أخذ فبربّ، وإنْ ردّ فعن ربّ تعالى. وليزدد فى عينه من قَبَلَ منه معروفه نُبلاً وجلالة، ويعظم فى عينه محبةً ومهابة، لأنه قد أعانه على برّه وتقواه، وأكرمه بقبول جدواه، فليشهد ذلك نعمةً من الله تعالى وإحساناً منه إليه. وعلى العبد أن يجتهد فى طلب الأتقياء وذوى الحاجة من الفقراء ويبلغ غاية علمه بذلك، فإنْ قَصُرَ علمه ولم تنفذ فراسته ومعرفته فى الخصوص، استعان بعلم من هو أعلم منه وأنفذ نظراً وأعرف بالصالحين وأهل الخير منه، ممن يوثَّق بدينه وأمانته من علماء الآخرة لا من علماء الدنيا. وعلماء الآخرة هم الزاهدون فى الدنيا الورعون عن التكاثر منها، فإنّ حُبّ الدنيا غامض قد هلك فيه خلق كثير، لم ينج منه إلا العلماء، ولم يسلم من الدنيا إلاّ المتحققون بالعلم واليقين، وهم المتقللون من الدنيا، وقد قال الله تعالى وتثبيتاً من أنفسهم، أى يقينا، يعنى أنهم يتثبتون فى صدقاتهم أن لا يضعوها إلاّ فى يقين يستروح إليه القلب وتطمئن به النفس. وقد كان بعض العلماء يؤثر بالعطاء **فقراء الصوفية** دون غيرهم،فقيل له لو عممت بمعروفك جميع الفقراء، فقال لا أفعل بل أوثر هؤلاء على غيرهم، قيل ولِمَ، قال لأن هؤلاء همّهم الله سبحانه وتعالى فإذا طرَقَتْهم فاقة تشتّت همّ أحدهم، فَلأن أرُدّ همّة واحدٍ إلى الله تعالى أحب إلّى من أنْ أُعطى ألفا من غيرهم ممن همّه الدنيا. فذُكِر هذا الكلام **لأبى القاسم الجنيد** فاستحسنه، وقال هذا كلام ولىّ من أولياء الله تعالى، ثم قال ما سمعت منذ زمان كلاماً أحسن من هذا. وبلغنى أن هذا الرجل اختّل حاله فى أمر الدنيا حتى همّ بترك الحانوت فوجّه إليه الجنيد بمالٍ كان صُرِفَ إليه، فقال اجعل هذا فى بضاعتك ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضر مثلك. ويقال إن هذا الرجل كان بَقّالا ولم

يكن يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه. وأما ابن المبارك رحمه الله تعالى فإنه كان يجعل معروفه في أهل العلم خاصة، فقيل له لو عممّت به غيرهم، فقال إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء، فإذا اشتغل قلب العالم بالحاجة أو العيْلة لم يتفرغ للعلم ولا يقبل على تعليم الناس، فرأيت أن أعينهم وأكفيهم حاجاتهم لتفرّغ قلوبُهم للعلم وينشطوا لتعليم الناس. هذا طريق السلف الصالح. والتوفيق من الله تعالى للعبد في وضْع صدقته في الأفضل كالتوفيق منه في إطعام الحلال الذي في غيبه يوفقه لأوليائه ويستخرجه لهم من علمه كيف شاء بقدرته.

شرح رابع ما بني الإسلام عليه وهو الصيام

ذكر فرائض الصيام واعتقاد الصوم إيجابا لله تعالى عليه وقربة منه إليه وإخلاصا له، وسقوط الفرض عنه، وأن يجتنب الاكل والشرب والجماع بعد طلوع الفجر الثاني، وأن يتم الصيام إلى سقوط قرص الشمس، وأن لا ينوي في تضاعيف النهار الخروج من الصوم

ذكر فضائل الصوم ووصف الصائمين

صوم الخصوص: حفظ الجوارح الست: غض **البصر** عن الاتساع في النظر، وصون **السمع** عن الإصغاء إلى محرّم أو الوزر أو القعود مع أهل الباطل، وحفظ **اللسان** عن الخوض فيما لا يعني جملةً مما إنْ كتب عنه كان عليه، وإنْ حُفِظ له لم يكن له، ومراعاة **القلب** بعكوف الهمّ عليه، وقطع الخواطر والأفكار التي كفّ عن فعلها، وترك التمنّي الذي لا يجدي، وكفّ **اليد** عن البطش إلى محرّم من مكسب أو فاحشة، وحبس **الرِجْل** عن السعي فيما لم يُؤمر ولم يُندب إليه من غير أعمال البرّ، فمن صام تطوعا بهذه الجوارح الست وأفطر بجارحتين - الأكل والشرب والجماع فهو عند الله تعالى من الصائمين في الفضل، لأنه من الموقنين الحافظين للحدود، ومن أفطر بهذه الست أو ببعضها أو صام بجارحتين - البطن والفرج، فما ضيّع أكثر مما حفظ، فهذا مفطر عند العلماء، صائم عند نفسه.

ومن فضائل الصوم أن يجتنب من حظوظ هذه الجوارح الشبهات من الأشياء وفضول الحلال، ويرفض الشهوات الداعية إلى العادات، ولا يفطر إلاّ على حلال متقللاً منه، فبذلك يزكو الصيام. ولا يقبّل امرأته في صومه ولا يباشرها بظاهر جسمه، فإن ذلك إنْ لم يُبطل

صومه فإنه ينقصه، وتركُه أفضل، إلاّ لقوّى متمكنٍ مالكٍ لإربه. وليقلْ نومه بالنهار ليعقل صومه بعمارة الإذكار، وليجد مس جوعه وعطشه. وقد كانوا يتسحرون بالتمرتين والثلاث، وبالحبات من الزبيب والجرعة من الماء، ومنهم من كان يقضم من شعير دابته التماساً لبركة السحور. وليُكثرْ ذكر الله تعالى، وليُقللْ ذكر الخلق بلسانه ويسقط الاهتمام بهم عن قلبه فذلك أزكى لصومه، ولا يجادل ولا يخاصم، وإن شُتِم أو ضُرِب لم يُكافِىء على ذلك لأجل حُرمة الصوم. ولا يهتم لعشائه قبل محل وقته. ويقال إن الصائم إذا اهتم بعشائه قبل محل وقته أو من أول النهار كُتبت عليه خطيئة، وليرض باليسير مما قُسِمَ له أن يفطر عليه، ويشكر الله تعالى عز وجل كثيرا عليه.

ومن فضائل الصيام التقلل من الطعام والشراب وتعجيل الفطر وتأخير السحور. وليُفطرْ على رُطب إنْ كان، وإلا على تمر إنْ وجَد فإنه بركة، أو على شُربةٍ من ماء فإنه طهور. هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر على جرعة من ماء أو مُذقة من لبن أو تمرات قبل أن يصلى. وفى الخبر كم من صائم حظّه من صيامه الجوع والعطش، قيل هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على حرام، وقيل هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر بالغيبة من لحوم الناس، وقيل هو الذى لا يغض بصره ولا يحفظ لسانه عن الآثام. وفى الحديث الصوم جُنّة ما لم يخرقها بكذب أو غيبة، وكانوا يقولون الغيبة تفطر الصائم.

وروينا عن **ليث** عن **مجاهد** خصلتان يفسدان الصوم **الغيبة والكذب**. وروى عن **جابر** عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** خمس يفطرن الصائم الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة. وفى الخبر من اغتاب حرَّق صومه فليرفع صومه بالاستغفار. ويقال إن الله تعالى لم يفترض شيئاً ويرضى بدونه، وأنه يطالب بما فرضه ويحاسب على ما أوجبه. **والمراد من الصيام** مجانبة الآثام لا الجوع والعطش، كما ذكرناه من أمر الصلاة أن المراد بها الانتهاء عن الفحشاء والمنكر. كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يترك قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يترك طعامه وشرابه.

شرح خامس ما بنى الإسلام عليه وهو الحج. وبالحج كمال الشريعة وتمام الملة

ذكر فرائض الحج

قال الله تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا، وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم **الاستطاعة** بالزاد والراحلة، فإذا وجد العبد زاداً وراحلة لزمه فرض الحج،

فإنْ أخّره بعد وجود ذلك كان مكروهاً، فإن مات ولم يحج أو مات على عدم الإمكان بعد وجوده كان عاصياً لله تعالى من حين أمكنه إلى يوم موته ولم يكن كامل الإسلام، لأن الله تعالى أكمل الإسلام بالحج لمّا أنزل هذه الآية فى الحج يومَ عرفة - اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا . وفى الخبر من لم يمنعه من الحج مرض قاطع أو سلطان جائر ومات ولم يحج فلا يبالى مات يهوديا أو نصرانيا . وقال **عمر**: لقد هممت أن أكتب إلى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلا. وعن **سعيد بن جبير وإبراهيم النخعى ومجاهد وطاوس**: لو علمت رجلا غنيا وجب عليه الحج ثم مات قبل أنْ يحج ما صليّت عليه. وكان **ابن عباس** يقول: مَن مات ولم يُزَكّ ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا . وكان يفسره فى هذه الآية قال ربِ أرجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت، قال أحج. ومثله فيقول رب لولا أخّرتنى إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين، قال أزكى أو أحج. وكان يقول هذه الآية أشد شىء على أهل التوحيد، ومن كان ذا قوة على المشى أو ممن يصلح أنْ يؤجر نفسه وأمِنَ التهلكة فى خروجه فحج على ذلك كان فاضلا فى فعله.**والحاج الماشى** بكل قدم يخطوها سبعمائة حسنة، **والراكب** بكل خطوة تخطوها دابته سبعون حسنة. والقوّة على المشى من الاستطاعة عند بعض العلماء.

فأمّا **فرائض الحج** عند جملة العلماء **فستة** اختلفوا منها فى ثلاث، وهن السعى، والبيتوتة بمزدلفة عند المشْعر ليلة النحر، ورمى جمرْة العقبة يوم النحر. وأجمعوا على ثلاث وهن الإحرام به، والوقوف بعرفة، وطواف الزيارة. ولم يختلفوا فى أن ما سوى هذه سنّة واستحباب. **ومذهبى** فى هذا وهو مذهب الأكثر من العلماء أنّ فرائض الحج **أربعة** أولها الإحرام به، والوقوف بعرفة بعد زوال الشمس يوم عرفة وآخر حدّ الوقوف قبل طلوع الفجر من يوم النحر، وطواف الزيارة بعد الوقوف بعرفة وبعد رمى جمرة العقبة، والسعى بين الصفا والمروة بعد الإحرام بالحج إن شئت قبل الوقوف بعرفة وان شئت بعده. وما سوى ذلك من المناسك فمسنون ومستحب، وبعضه أوكد من بعض، وفى ترك بعضه كفّارة، وفى بعضه لا حرج فيه. **وطواف الحج** ثلاثة، واحد فريضة إنْ تركه بطل حجه، وهو طواف الزيارة، وواحد سنّة إنْ تركه كان عليه دم وحجُه تام، وهو طواف الوداع، وواحد مستحب إنْ تركه فلا شىء عليه وهو طواف الورود. ولم نذكر من فرائض الحج وأحكامه وهيأته فى هذا الباب إلاّ **قوت الأعمال** مثل ما ذكرناه من سائر الأبواب فى هذا الكتاب على ما يليق بيانه للمعنى الذى قصدناه فيه، وقد أشبعنا أحكام الحج وما يقال فى المشاعر فى كتاب مناسك الحج المفرد.

* * * *

ذكر فضائل الحج وآدابه وهيآته وفضائل الحجاج وطريق السلف السالكين للمنهاج

قال الله سبحانه وتعالى: **الحج أشهر معلومات، فمن فرض فيهن الحج»** يعنى من أوجبه على نفسه فى هذه الأشهر فأحرم به وهو شوال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة. ـ «**فلا رَفَثَ ولا فُسوق ولا جدال فى الحج». الرفث**: اسم جامع لكل لغو وخَنَى وفُجر من الكلام ومغازلة النساء ومداعبتهن والتحدث فى شأن الجماع. **والفسوق**: جمع فِسْق وهو اسم جامع لكل خروج من طاعة ولكل تعدى حدٍ من حدود الله تعالى. **والجدال**: وصفٌ مبالغ للخصومة والمِرَاء فيما يورث الضغائن وفيما لا نفع فيه. فهذه **ثلاثة** أسماء جامعة مختصرة لهذه المعانى المثبتة أمر الله تعالى بتنزيه شعائره ومناسكه منها، لأنها مشتملة على الآثام وهن أصول الخطايا والإجرام.

والحج فى اللغة: هو القصد إلى من يُعَظّم، وكانت العرب تقول نحج إلى **النعمان**، أى نقصده تعظيما له وتعزيزا، فينبغى أن يكون الحاج مُعظّما لمن قصده بالحج ليتحقق بمعنى هذا الاسم.

والحج أيضا سلوك الطريق الواضح الذى يخرج إلى البَغْيَة ويوقف على المنفعة، واشتقاقه من المحجة بمنزلة **النسك**، وهو اسم للطريق مشتق من **المنسك** وهو من أسماء الطريق، ومنه سمى **الناسك** لأنه سالك لطريق الآخرة.

فأول فضائل الحج: حقيقة الإخلاص به لوجه الله تعالى، وأن تكون النفقة حلالاً، واليد فارغة من تجارة تشغل القلب وتفرّق الهمّ، ويكون الهمّ مجردا، والقلب ساكنا مطمئناً مملوأً بالذكر، فارغاً من الهوى، ناظراً أمامه غير ملتفت إلى ورائه. وصحة القصد بحُسن الصدق، ثم طيب النفس بالبذل والإنفاق والتوسع فى النفقة والزاد وبذل ذلك، لأن النفقة فى الحج بمنزلة النفقة فى سبيل الله تعالى، الدرهم بسبعمائة درهم، والحج من سبيل الله، روى ذلك عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم**. وقال **ابن عمر** وغيره: مِنْ كَرَم الرجل طيب زاده فى سفر. وكان يقول: أفضل الحجاج أخلصهم نية وأزكاهم نفقة وأحسنهم يقينا. وفى حديث **ابن المنكدر** عن **جابر** عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم**: الحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة. وقال سُئل **رسول الله صلى الله عليه وسلم**: ما بِرّ الحج، قال: طيب الكلام وإطعام الطعام... ويقال إنما سمى **سفر** لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال، وبعضهم يقول يسفر عن صفات النفس وجوهرها، إذ ليس كل من حسُنت صحبته فى الحضَرَ حسُنت صحبته فى

السفر. وقال رجل لآخر إنه يعرفه، فقال له هل صحبته فى السفر الذى يُستدل به على مكارم الأخلاق، قال لا، قال ما أراك تعرفه... ولا يجادل، ولا يخاصم، ولا يُكثر المراء، ولا يرفث بلسانه. وروينا عن **بشر بن الحارث** قال قال **سفيان:** من رفث فَسد حجه. وليتعلم أحكام المناسك ومعالم الحج وهيآته وآداب المشاهد قبل الخروج، وليكن ذلك أهم شيء إليه، وليقدمه على جميع أسباب السفر فإن هذا هو المقصود والبُغية، فلا يتهاون عنه، وليُعدّ له رفيقا صالحا محبا للخير مُعينا عليه، إنْ نسى ذكّره، وإنْ ذَكَر أعانه، وإنْ جُبن شجّعه، وإنْ عجز قوّاه، وإنْ أساء ظنه وضاق صدره وسّع صدره وصبّره وحسّن ظنّه. ولا يخالف رفيقه ولا يكثر الاعتراض عليه. وليُحسن خلقه مع جميع الناس، ويلين جانبه، ويخفض جناحه، ويكف أذاه عَن الخلْق ويحتمل أذاهم، فبهذه المعانى يفضل الحج. وأنْ يَحج على رحْل أو زاملة فإن ذلك حج المتّقين وطريق السلف. يقال حَج الأبرار على الرحال. وحدّث **سفيان الثورى** عن أبيه قال: برزت من الكوفةإلى القادسية للحج، ووافيت الرفاق من البلدان، فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجوالقات ورواحل، وما رأيت فى جميعهم إلاّ مَحْمَلَيْن. وقال مجاهد **لابن عمر** وقد دخلت القوافل: ما أكثر الحجاج، فقال: ما أقلّهم، ولكن قلْ ما أكثر الراكب. قال وكان **ابن عمر** إذا نظر إلى ما أحدث الحاج من الزوامل والمحامل يقول: الحاج قليل والركب كثير - ثم نظر إلى رجل مسكين رثّ الهيئة تحته جوالق فقال: هذا نِعْمَ الحاج. فينبغى أن يكون رثّ الهيئة خفيف المؤنة متقللاً من كل شيء، لا يحمل معه من الزاد إلاّ ما لا بد له منه مما يحتاج إليه، ولا يسرف فى المبالغة والتناهى فيه، ولا يقتر ولا يضيّق على نفسه ورفيقه، بل يستعمل الاقتصار فى كل شيء والكفاية، ويجتنب من الزى الحمرة فإن ذلك مكروه. وروى عن **النبى صلى الله عليه وسلم** أنه كان فى سفر، فنزل أصحابه منزلا، فسرَحت الإبل إلى أكسية حُمر على الأقتاب، فقال: أرى هذه الحُمرة قد غلبت عليكم - قال فقمنا نتساعى حتى نزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الإبل. ثم ليجتنب من **الزى** الشُهْرة وكل منظور إليه من الأثاث ولا يتشبّه بالمترفين ولا بأهل التفاخر والتكاثر فيُكتَب من المتكبرين. ولا يُكثر التنعم والرفاهة فإن ذلك غير مستحب فى سبيل الله تعالى، لأن المشقة والظمأ والمخمَصة كلما كثر فى سبيل الله كان أفضل وأثوب. حجّ **رسول الله صلى الله عليه وسلم** على راحلة وكان تحته رَحْل رث وقطيفة خَلقة قيمته أربعة دراهم، وطاف على الراحلة لينظر الناس إليه ويهتدوا بشمائله، وقال **عليه الصلاة والسلام** خذوا عنى مناسككم - وكان يقول: لبيك اللّهم لبيك، حجاً لا رياءَ فيه ولا سمعة. وقال: لبيك إن العيش عيش الآخرة - وأمر **صلى الله عليه وسلم** بالشَعَث

والاختفاء، ونهى عن التنعم والرفاهية فى حديث **فضالة بن عبيد**. وفى الخبر إنما الحاج الشَعث التَفِل. يقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى زوّار بيتى قد جاؤنى شُعْثاً غُبْراً من كل فجٍ عميق. وقال الله عز وجل **ثم ليقضوا تفثهم**، التفث الشَعَث والاغبرار، وقضاؤه حلق الرأس وقص الأظافر، وكتب **عمر بن الخطاب** إلى أمراء الأجناد: اخلولْقوا واخشوْشنوا ـ أى البسوا الخُلْقان واستعملوا الخشونة من الأشياء. وبعض أصحاب الحديث يُصحّف هذه الحروف يقول احْلولقوا من الحلْق ولا يجوز أن يأمرهم بإسقاط سُنّة. كيف وقد قال **لصبيغ** حين توسّم فيه مذهب **الخوارج**: اكشف رأسك ـ فرآه ذا ضفيرتين، فقال: لو كنتَ محلوقا لضربتُ عنقك... وَلْيَنْحُ مثال أهل اليمن فى الزى والأثاث، فإن الاقتداء بهم والاتّباع لشمائلهم فى الحج طريقة السلف. على ذلك الهدى والوصف كان **رسول الله صلى الله عليه وسلم** وأصحابه، وما عدا وصْفَهم وخالف هديَهم فهو مُحدث ومبتدع. ولهذا المعنى قيل: **زَيْن الحجيج أهل اليمن** ـ لأنهم على منهاج الصحابة وطريقة السلف. وقيل فى مدحهم بالتقلل والانفراد لا يغلون سِعْراً ولا يضيّقون طريقاً.. وقد كان العملاء قديما إذا نظروا إلى المترفين قد خرجوا إلى مكة يقولون: لا تقولوا خرج فلان حاجاً ولكن قولوا خرج مسافراً: ويقال إن هذه المحامل والقباب أحدثها **الحجّاج بن يوسف** فركب الناس سنّته. وقد كان العلماء فى وقته ينكرونها ويكرهون الركوب فيها. وأخاف أن بعض ما يكون من تماوت الإبل يكون ذلك سببه لثقل ما يحمل.. وينبغى أن يقلل من نومه على الدابة فإنه يقال إن النائم يُثْقِل على البعير. وقد كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلاّ من قعود، يغفون غفوة بعد غفوة. وفى الحديث: لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى.

وبعض علماء الظاهر يقول: إن **الحج راكبا** أفضل لما فيه من الإنفاق والمؤنة، ولأنه أبعد لضجر النفس وأقل لأذاه وأقرب لسلامته وتمام حجّه، فهذا عندى بمنزلة الإفطار أفضل يكون إذا ساء عليه خلُقُه وضاق به ذرعه وكثر عليه ضجره، لأن حسن الخلق وانشراح الصدر أفضل. وقد يكون كذلك لبعض الناس دون بعض ممن يكون حاله الضجر ووصفه التسخط وقلة الصبر، أو لم يكن يستطيع المشى. وسألت بعض فقهائنا أى ذلك أفضل ـ المشى فى العمرة أو يكترى حماراً يعتمر عليه؟ فيقال يختلف ذلك على قدر شدته على الناس، فإنْ كان إنفاق الدرهم أشد عليه؟ من المشى فالاكتراء أفضل لما فيه من إكراه النفس عليه وشدته عليها، ومن كان المشى عليه أشق فالمشى أفضل لما فيه من المشقة. وهذا يختلف لاختلاف أحوال الناس من أهل الرفاهية والنعمة فيكون المشى عليهما أشد. **وعندى أن الاعتمار**

ماشيا أفضل، وكذلك الحج ماشيا لمن أطاق المشى ولم يتضجر به وكان له هِمّة وقلب. وقد روينا فى خبر من طريق أهل البيت: إذا كان الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف: سلاطينهم للنزهة، وأغنياؤهم للتجارة، وفقراؤهم للمسئلة، وقرّاؤهم للسُّمْعة.

ويُكره **أخذ الأجرة على الحج**، وقد كرّه ذلك بعض العلماء. ولأنه من أعمال الآخرة ويُتقرّب به إلى الله، يَجرى مجرى الصلاة والأذان والجهاد، فلا يأخذ على ذلك أجراً إلاّ فى الآخرة، وقد قال **رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبى العاص**: لا تأخذ على الأذان أجراً... وسُئل عن رجل خرج مجاهداً فأخذ ثلاثة دنانير، فقال: ليس له من دنياه وآخرته إلاّ ما أخذ.. فإنْ كان نية عبدٍ الآخرة أو همّته المجاورة واضطُر إلى ذلك، فإن الله تعالى قد يُعطى الدنيا على نية الآخرة، ولا يعطى الآخرة على نية الدنيا. وفى الخبر: يؤجر على الحجة الواحدة **ثلاثة** يدخلون الجنة: الموصِى بها، والمنفِّذ للوصية، والحاجّ الذى يقيمها لأنه ينوى خلاص أخيه المسلم والقيام بفرشه.

ومن فضائل الحج أنْ لا يقوّى أعداء الله الصادّين عن المسجد الحرام بالمال، فإن المعونة والتقوية بالمال تضاهى المعونة بالنفس، والصدّ عن المسجد الحرام يكون بالمنع والإحصار، ويكون بطلب المال، فليحتل فى التخلص من ذلك فإن بعض علمائنا كان يقول ترك التنفّل بالحج والرجوع عنه أفضل من تقوية الظالمين بالمال، لأن ذلك عنده دخيلة فى الدين ووليجة فى طريق المؤمنين.وقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم**: كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام، فإنْ تَرَكَ المسلمون فاشددْ لئلا يؤتىَ الإسلام من قِبَلك.. وفى الخبر المشهور: المسلمون كرجل واحد، ومثل المسلم من المسلمين كمثل الرأس من الجسد، يألم الجسد لما يألم الرأس، ويألم الرأس لما يألم الجسد.

وينبغى أن يكون فى المشاعر والمناسك أشعث أغبر فإنه سنّة،ويُكثِر ذِكْر الله فى طريقه وجميع مناسكه، ويذكّر به الغافلين، ويُقل ذِكْر الناس ويَلْزَم الصمت فيما لا يعنيه، ولا يتكلف ما قد كُفِى، ولا يدخل فيما لم يكلّف. وإنْ رأى موضعا للمعروف أمر به، أو منكراً نهى عنه، فهذه المعانى تضاعف أمر الحج وتفضل الحجاج.

واستحبُ أن يُقرن بين حجة وعُمرة من ميقاته، لأن فيه إيجاب هَدْىٍ يقرّبه، وليكون جامعا بين نُسكين من ميقات بلده، ويكون قد أتى بالعمرة لأنها مقرونة بالحج فى الكتاب، ولأن مذهب كثير من العلماء أنها فريضة كالحج، وجماعة من السلف كانوا يستحسنون الابتداء

بالعمرة وتقديمها على الحج، منهم **الحسن وعطاء وابن سيرين والنخعى**، وقد روى أن **النبى صلى الله عليه وسلم** جمع بينهما وأهلّ بهما معا فى حديث **أنس**. وإنْ قَدِمَ العمرة فحج متمتعا ثم أفرد الحج بعدها من عامه فهو أفضل، وهذا اختيار جماعة من العلماء. وإنْ حج مفرداً كما روى عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنه أفرد الحج فيما روينا عن **عائشة وجابر**. وإذا فرغ من حجه رجع إلى ميقات بلده فاعتمر من هناك فحَسَن. وقد قال الله عز وجل: **وأتموا الحج والعمرة لله**، فإفرادهما من إتمامهما، وهذا قول **عمر وعثمان** فى الإتمام... وليطفْ لقرانه ويَسع طوافين وسعيين ليخرج بذلك من اختلاف العلماء، جمعهما أو فرّقهما... وليكثر العبد من التلبية فى حال إحرامه فهى من أفضل الأذكار فيه، وليرفع بها صوته. وإنْ قال فى تلبية لبيك: ياذا المعارج لبيك، حجاً حقاً، تعبداً ورقاً، والرغباء إليك والعمل- فقد روى هذا عن الصحابة. وإنْ اقتصر على تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم فحسَنَ، وفيها كفاية وبلاغ. وأحبُ أن يذبح، وليجتنب الأكل من ذبح ماكان واجبا عليه، وأستحُب أن يأكل مما لم يكن عليه واجبا. وليجتنب **المعايب الثمانية** فى ذبيحته التى وردت بها الآثار، وكذلك فى الأضحية، فقد نُهى أن يُضحّىَ بالجدعاء والعضباء والجرباء، ونُهى عن الشرقاء والخرقاء، والمقابلة والمدابرة، والعجفاء التى لا تنقى، يعنى المهزولة. وهذا جميع ماجاء فى عيوب الأضاحى بأخبار متفرقة، **فالجدع** فى الأنف والأذن، **والقطع** فيهما، **والعَضَب** الكسر فى القرن وفى نقصان القوائم، **والجرباء** من الجرب، **والشرقاء** المشقوقة الأذن من فوق، **والخرقاء** المشقوقة من أسفل، **والمقابلة** المخروقة الأذن من قدّام، **والمدابرة** المخروقة من خلف، والتى **لا تُنْقى** المهزولة التى لا نَقى لها، والنِّقى هو المخ. وقد روينا فى تفسير قوله تعالى ذلك: **ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ـ قيل تسمين الهَدى وتحسينه. وأفضل الهدى بدَنَة، ثم بقرة، ثم كبش أقرن أبيض، ثم الثَنِى من المعز.

وفى حديث **ابن المنكدر** عن جابر: سئل **رسول الله صلى الله عليه وسلم**: مابرّ الحج؟ قال: **العَجّ والثَجّ** ـ فالعج هو رفع الصوت بالتلبية، والثج هو نحر البدن... وفى حديث **عائشة** رضى الله تعالى عنهاعن النبى **صلى الله عليه وسلم**: ماعمل آدمى يوم النحر عملاً أحب إلى الله عز وجل من إهراق دم، وإنهالتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها، فإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع بالأرض، فطيبوا بها نفْساً وفى الخبر: لكم بكل صوفة من شعرها، وبكل قطرة من دمها حَسَنة، وإنها لتوضع فى الميزان فابشروا... ولا يُضحّى بجذع إلاّ من الضأن فقط وهو ماكان فى آخر حوله، وبالثنى من المعز والبقر والإبل، فالثّنى من المعز

مادخل فى السنة الثانية، والثَنى من البقر مادخل فى الثالثة، والثنى من الإبل مادخل فى السنة الخامسة.

وإنْ أحرم من بلده فقد قيل إنه من إتمام الحج والعمرة ومن عزائم الأعمال. وروينا عن **عمر وعلّى وابن مسعود** رضى الله عنهم: **وأتمّوا الحج والعمرة لله**، قالوا **إتمامها** أن تُحرم بهما من دويرة أهلك... ولتكن حاضر القلب مشاهد القُرب عند المواطن المرجوّ فيها الإجابة، وفى المشاهد المبتغى منها المنفعة، كما قال الله سبحانه وتعالى: **ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم...** وأستحبُ له أن يمشى فى المشاعر من حين يخرج من مكة إلى أن يقف بعرفة وإلى أن يرجع من طواف الزيارة إلى مِنَى. ومَن استحبّ للحاج الركوب فإنه يُستحب له المشى إلى مكة فى المناسك إلى انقضاء حجّه، ولأن **عبد الله بن عباس** أوصى بنيه عند موته فقال: يا بَنِيّ حجّوا مشاة، فإن للحاج الماشى بكل قدم يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم، قيل وما حسنات الحرم، قال الحسنة بمائة ألف... وأوكد ما مشى فيه من المناسك وأفضله من مسجد **إبراهيم** صلى الله عليه وسلم إلى الموقف، ومن **الموقف إلى المزدلفة** فى الإفاضة، ومن **المشعر الحرام** غداة النحر إلى **مِنَى**، وفى أيام رميه الجُمار.

وصومه **يوم عرفه** فيه فضل إنْ قَوِىَ معه على الدعاء والتلبية ولم يقطعه الصوم عن ذلك، فإنْ أضعفه فالفطر أفضل. ولم يصمه **رسول الله صلى الله عليه وسلم** بعرفة، **ولا أبو بكر، ولا عمر**، وصامه **عثمان** رضى الله عنه وعنهم. وليعتبر فى طريقه وسيره بالآيات وما يرى من الحكمة والقُدرة من تصريف الخلْق، وما يُحدث الله تبارك وتعالى فى كل وقت، فيكون له فى كل شىء عبرة، ومن كل شىء موعظة، فإنه على مثال طريق الآخرة. وليكن بكل شىء تذكرة، وفى كل شىء فطنة وتبصرة تردّه إلى الله تعالى وتدلّه عليه وتذكّره به، ويشهده منها فيتفكر فى أمره، ويستدل به على حكمته، ويشهد منه قدرته. وسُئل **الحسن**: ما علامة الحج المبرور؟ فقال: أن يرجع العبد زاهداً فى الدنيا راغباً فى الآخرة... وقيل فى وصف الحج المبرور هو كفّ الأذى، واحتمال الأذى، وحُسن الصحبة، وبذل الزاد. ويقال إنّ علامة قبول الحج: ترك ما كان عليه العبد من المعاصى، والاستبدال بإخوانه البطّالين إخوانا صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكْر واليقظة، فمن وُفقّ للعمل بما ذكرناه فهو علامة قبول حجه، ودليل نظر الله إليه فى قصده. ومن أُصيب بمصيبة فى نفسه وماله فهو من دلائل قبول حجه، فإنّ المصيبة فى طريق الحج تعدل النفقة فى سبيل الله تعالى، الدرهم بسبعمائة،

وبمثابة الشدائد فى طريق الجهاد.

وليستكثر من **الطواف** بالبيت لأنه يستوعب بطواف أسبوع مائة وعشرين رحمة، يكون بكل رحمة ما شاء الله، لأنه سبحانه يختص برحمته من يشاء، وأقل ما له بكل رحمة عشر حسنات، لأن فى حديث **عطاء** عن **ابن عباس** عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم**: ينزل الله على هذا البيت فى كل يوم مائة وعشرين رحمة، ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين... وفى الحديث: استكثروا من الطواف بالبيت، فإنه من أقل شيء تجدونه **فى صحفكم يوم القيامة، وأغبط عمل تجدونه**... ولا تتحدثْ فى طوافك، وعليك بكثرة ذكر الله سبحانه وتعالى من التسبيح والتهليل والحمد وتلاوة القرآن. وامش بسكينة ووقار وخشوع وانكسار، ولا تزاحمنّ أحداً، واقرَبْ من البيت ما أمكن، واستلم الركنين اليمانيين مع تقبيل الحجر فى كل وِتر من طوافك إنْ أمكن. وقد روينا فى الخبر: من طاف بالبيت حافياً حاسراً كان له كعتق رقبة، ومن طاف أسبوعا فى المطر غُفِر له ما سلف من ذنوبه... رُوِى ذلك عن **الحسن بن علىّ**، قاله لأصحابه ورفعه إلى **رسول الله صلى الله عليه وسلم.**

واتقِ الهمّة الرديّة، والأفكار الدنيّة، فيقال إنّ العبد يؤاخذ بالهمّة فى ذلك البلد. وعن **ابن مسعود**: ما من بلد يؤاخذ العبد فيه بالإرادة قبل العمل إلاّ بمكة... وقال أيضا: لَوْ همّ العبد أن يعمل سوأ بمكة عاقبه الله تعالى.. ثم تلا: **ومَن يُرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم** - يعنى أنه علّق العذاب بالإرادة دون الفعل. ويقال إن السيآت تضاعَف بمكة كما تضاعَف الحسنات، وأنّ السيآت التى تُكتَسب هنالك لا تُكفَّر إلاّ هنالك. وكان **ابن عباس** يقول: الاحتكار بمكة من الإلحاد فى الحرم. وقيل الكذب فيه من الإلحاد. وروى عن **عمر بن الخطاب** رضى الله تعالى عنه: لأنْ أذنب سبعين ذنبا بركية أحبّ إلىّ من أن أذنب ذنبا واحدا بمكة.. وركية منزلة بين مكة والطائف. وقد كان الورعون من السلف منهم **عبد الله بن عمر، وعمر بن عبد العزيز**، وغيرهما، يضرب أحدهم فُسطاطاً فى الحرم وفسطاطا فى الحِلّ، فإذا أراد أن يصلى أو يعمل شيأً من الطاعات دخل فسطاط الحرم ليدرك فضل المسجد الحرام، لأن المسجد الحرام عندهم فى جميع ما يُذكَر إنما هو الحرم كله. وإذا أراد أن يأكل أو يكلم أهله أو يتغوّط خرج إلى فسطاط الحلّ. ويقال إن **آل الحجاج** فى سالف الدهر كانوا إذا قدموا مكة خلعوا نعالهم بذِى طُوَى تعظيماً للحرم. وقد سمعنا مَن لم يكن يتغوط ولا يبول فى الحرم من المقيمين بمكة. ورأينا بعضهم لا يتغوط حتى يخرج إلى الحلّ تعظيماً لشعائر الله تعالى وتنزيهاً لحَرمه وأمنه. وأعمال البّر كلها تُضاعَف بمكة، والحسنة بمائة ألف حسنة،

على مثال الصلاة فى المسجد الحرام. رُوِى معنى ذلك عن **ابن عباس وأنس**، وعن **الحسن البصرى**: أن صوم يوم بمائة ألف، وصدقة درهم بمائة ألف درهم... ويقال إن طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة، وأن ثلاث عُمَر تعدل حجة، وأنّ العمرة هى الحجة الصغرى. وهذا فى دليل الخطاب من قوله تعالى **يوم الحج الأكبر**، فدلّ أنّ **الحج الأصغر هو العمرة**. ومن العرب من يسمى العمرة حجا. وفى الخبر: عمرة فى رمضان تعدّل حجة.. فمن وُفّق للعمل بما ذكرناه فهو علامة قبول حجّة، ودليل نظر الله إليه فى قصده.

ذكر فضائل الحج والحاجين لوجه الله

روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنه قال: مَن حجّ هذا البيت فلم يرفُث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.. وفى حديثٍ آخر: من خرج من بيته حاجا أو معتمرا فمات أُجْرِىَ له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة، ومن مات فى أحد الحرمين لم يُعرَض ولم يُحاسَب وقيل له ادخل الجنة... وروى فى الخبر: **حجة مبرورة** خير من الدنيا وما فيها، وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة... وفى الحديث: الحُجّاج والعُمّار وفد الله تعالى وزوّاره، إنْ سألوه أعطاهم، وإنْ استغفروه غفر لهم، وإنْ دعوه استُجيب لهم، وإنْ شفّعوا أُشفعوا... وذكر بعضهم أنّ **إبليس** ظهر له فى صورة شخص بعرفة، فإذا هو ناحل الجسم مصفر اللون باكى العين مقصوم الظهر، فقال له: ما الذى أبكى عينك؟ فقال: خروج الحاج إليه بلا تجارة. أقول قصدوه أخاف أن لا يخيّبهم فيحزننى ذلك.. قال: فما الذى أنحل جسمك؟ قال: صهيل الخيل فى سبيل الله تعالى، ولو كانت فى سبيلى كان أحب إلىّ قال: فما الذى غيّر لونك؟ قال: تعاون الجماعة على الطاعة، ولو تعاونوا على المعصية كان أحب إلىّ. قال: فما الذى قصَم ظهرك؟ قال: قول العبد أسألك حُسن الخاتمة، أقول يا ويلتى، متى يُعجَب هذا بعمله.. ولقى رجل **ابن المبارك** وقد أفاض من عرفة إلى مزدلفة، فقال: من أعظم الناس جُرما يا أبا عبد الرحمن فى هذا الوقت؟ فقال: من قال إنّ الله عز وجل لم يغفر لهؤلاء.. وقد روينا حديثا مسندا من طريق أهل البيت: أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله عز وجل لم يغفر له... ويقال إنّ من الذنوب ذنوبا لا يكفّرها إلاّ الوقوف بعرفة. وقد رفعه **جعفر بن محمد** فأسنده. ويقال إنّ الله عز وجل إذا غفر لعبد ذنباً فى الموقف، غفره لكل من أصابه فى ذلك الموقف.

وزعم بعض السلف إذا وافق **يوم عرفة يوم جمعة** غُفِر لكل أهل الموقف... وهو أفضل

يوم فى الدنيا، وفيه حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، ولم يحج بعد نزول فرض الحج غيرها، وعليه نزلت هذه الآية وهو واقف بعرفة: **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا..** وقال علماء أهل الكتاب: لو أنزلت علينا هذه الآية لجعلنا يومها عيدا.. فقال **عمر بن الخطاب رضى الله عنه:** أشْهَد، لقد أُنزلت فى يوم عيدين اثنين، يوم عرفة ويوم جمعة، على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة... وقد روينا فى تفسير قوله تعالى: **ليشهدوا منافع لهم** - عن جماعة من السلف، قال غفر لهم ورب الكعبة. وفى تفسير قوله تعالى: **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** - قال طريق مكة يصدهم عنه. وروينا عن **مجاهد** وغيره من العلماء دخل حديث أحدهما فى الآخر، كانوا يتلقون الحاج يدْعون لهم قبل أنْ يتدنّسوا، ويقولون تقبّل الله منا ومنكم، وأنّ الحاج إذا قَدموا مكة تلقتهم الملائكة فسلّموا على رُكبان الإبل، وصافحوا ركبان الحمير، واعتنقوا المشاة اعتناقا. وقال **الحسن:** من مات يَعقُب شهر رمضان، أو يَعقُب غزوا، أو يعقب حجا، مات شهيدا. وقال **عمر رضى الله تعالى** عنه: الحاج مغفور له، ولمن استُغفر له شهر ذى الحجة والمحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول... وقد كان من سُنّة السلف أن يشيّعوا الغزاة، وأن يستقبلوا الحاج ويقبّلوا بين أعينهم ويسألونهم الدعاء لهم. وفى الخبر: اللّهم اغفر للحاج ولمن استغفَر له الحاج.

وحدثونا عن **علىّ بن الموفق** قال: حججت سنةً فلما كان ليلة عرفة بتّ بمنى فى مسجد الخيف، فرأيت فى المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثيابٌ خُضر، فنادى أحدهما صاحبه يا عبد الله، فقال الآخر لبيك يا عبد الله، قال تدرى كم حجّ بيت ربنا فى هذه السنة، قال لا أدرى، قال حجّ بيت ربنا ستمائة ألف، فتدرى كم قُبِلَ منهم، قال لا، قال قُبِل منهم ستة أنفس. قال ثم ارتفعا فى الهواء فغابا عنى، فانتبهت فزعاً، فاغتممت غماً شديداً وأهمّنى أمرى، فقلت إذا قُبل حج ستة أنفس فأين أكون أنا فى ستة أنفس. فلما أفضنا من عرفة وبتُّ عند المشعر الحرام جعلت أفكر فى كثرة الخلق وفى قلة من قُبِل منهم، فحملنى النوم فإذا الشخصان قد نزلا من السماء على هيئتهما، فنادى أحدهما يا عبد الله، قال لبيك يا عبد الله، قال تدرى كم حج بيت ربنا، قال نعم، ستمائة ألف، قال فتدرى كم قُبل منهم، قال نعم، ستة أنفس، قال فتدرى ماذا حكم ربنا فى هذه الليلة، قال لا، قال فإنه وَهب لكل واحد من الستة مائة ألف، قال فانتبهت وبى من السرور ما يجلّ عن الوصف... ذُكر فى هذه القصة ستة ولم يذْكَر السابع. وهؤلاء هم **الأبدال السبعة،** أوتاد الأرض المنظور إليهم كفاحاً، ثم ينظر إلى

قلوب الأولياء من وراء قلوبهم، فأنوار هؤلاء عن نور الجلال، وأنوار الأولياء من أنوارهم، وأنصبتهم وعلومهم من أنصبة هؤلاء وعلومهم، فلم يذكر السابع وهو **قطب الأرض**، والأبدال كلهم فى ميزانه، ويقال إنه هو الذى يضاهى **الخضر** من هذه الأمة فى الحال ويجاريه فى العلم، وأنهما يتفاوضان العلم ويجد أحدهما المزيد من الآخرة، فإنما لم يُذْكرْ والله أعلم لأنه يوهب له من مات ولم يحج من هذه الأمة، لأنه أوسع جاها من جميعهم، وأنفذ قولاً فى الشفاعة من الجملة. وقد روينا عن **ابن الموّفق** قال: حججت سنة فلما قضيت مناسكى، تفكرت فيمن لا يُتقبّل حجه، فقلت: اللّهم إنى قد وهبت حجتى هذه وجعلت ثوابها لمن لا يُتقبل حجه. قال فرأيت رب العزة فى النوم قال لى: يا علىّ تَتَسَخّى علىّ وأنا خلقتُ السخاء وخلقت الأسخياء، وأنا أجوُد الأجودين وأكرم الأكرمين وأحق بالجود والكرم من العالمين. وقد وهبتُ كل من لم يقبل حجه لمن قبلته... وكان **ابن الموفق** هذا قد حجّ عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** حججا، وقال فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا ابن الموفق - حججت عنى؟ قلت نعم يا رسول الله.. ولبيتَ عنى؟ قلت نعم. قال: فهذه يدٌ لك عندى أكافئك بها يوم القيامة، آخذ بيدك فى الموقف فأدْخلك الجنة والخلائق فى كرب الحساب.

ذكر فضائل البيت الحرام

جاء فى الخبر أنّ الله تعالى وعد هذا البيت أن يحجّه فى كل سنة ستمائة ألف، فإن نقصوا كمّلهم الله تعالى بالملائكة، وأن الكعبة تُحشَر كالعروس المزفوف، وكل من حجّها متعلق بأستارها، يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها. وفى الخبر أن **الحجر** ياقوتة من يواقيت الجنة، وأنه يُبعث يوم القيامة وله عينان، ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحقٍ وصدق. وكان **رسول الله صلى الله عليه وسلم** يُقبّله كثيرا. وروينا أنه سجد عليه، وكان يطوف على الراحلة فيجعل المِحجَن عليه ثم يقبّل طرف المحجن، وقبّله **عمر** ثم قال: إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبلُك لما قبلتك.. ثم بكى حتى علا نشيجه، فالتفت إلى ورائه فإذا علىّ، فقال: يا أبا الحسن - ههنا تُسكب العبرات. فقال **علىّ**: يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع. قال: وكيف؟ قال: إن الله عز وجل لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتابا ثم ألقمه هذا الحجر، فهو يشهد للمؤمن بالوفاء ويشهد على الكافر بالجحود.. قيل فذلك معنى قول الناس عند الاستلام: إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاءً بعهدك، يعنون هذا الكتاب والعهد.

وفى الخبر عن **النبى صلى الله عليه وسلم:** أنا أوّل من تنشقّ عنه الأرض، ثم آتى البقيع فيُحشَرون معى، ثم آتى أهل مكة فأُحشر بين الحرمين... وفى الخبر: أن آدم لما قضَى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا برّ حجّك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام. وجاء فى الخبر: أن الله تعالى ينظر فى كل ليلة إلى أهل الأرض، فأوّل من ينظر إليه أهل الحرم، وأوّل من ينظر إليه من أهل الحرم أهل المسجد الحرام، فمن رآه طائفا غفر له، ومن رآه منهم مصليا غفر له، ومن رآه نائما مستقبل القبلة غفر له... وذُكرتْ الصلاة بعبادان **لأبى تراب النخشبى** فقال: نوْمة فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة **بعبادان...** وكوشف بعض الأولياء، قال: رأيت الثغور كلها تسجد لعبادان، ورأيت عبادان ساجدة **لجدة** لأنها خزانة الحرم وفُرضة أهل المسجد الحرام.

ذكر من كره المقام بمكة

كان **سفيان الثورى** يقول: والله ما أدرى أى البلاد أسكن؟ فقيل له: **خراسان.** قال: مذاهب مختلفة وآراء فاسدة، قيل: **الشام.** قال: يشار إليك بالأصابع. قيل: **فالعراق.** قال: بلدة الجبابرة، قيل: **مكة.** قال: تذيب الكِيس والبدن... وقال رجل **للثورى** قد عزمتُ على المجاورة بمكة فاوصنى، قال: أوصيك بثلاث: لا تصلّين فى الصف الأول، ولا تصحبنّ قرشيّا، ولا تُظهرنّ صدقة.. إنما كَرِه له الصلاة فى الصف الأول لأنه يُفتقد فيُسأل عنه إذا غاب فيُشتهر ويُعرف إذا واظب، فيذهب الإخلاص ويحصل التزيّن والتصنّع. وجاء رجل إلى **سفيان** بمكة فسأله فقال: أرسل معى رجلٌ بمالٍ فقال ضعه فى سدانة الكعبة - أو قال فى سدنة الكعبة - فما ترى؟ قال سفيان: قد جهل فيما أمرك به، وإنّ الكعبة لغنية عن ذلك. قال فما ترى؟ قال: اصرفه للفقراء والأرامل، وإياك وبنى فلان فإنهم سرّاق الحاج.

وقد كان بعض السلف يكره **المجاورة بمكة،** ويحب قصد البيت للحج والخروج منه، إمّا لأجل الشوق إليه، أو خشية الخطايا فيه، أوحباً للعود. وقد قال الله تعالى: **وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمنا** - أى يثوبون إليه، يعودون مرة بعد مرة ولا يقضون منه وطَرا. وكان بعضهم يقول: تكون فى بلد وقلبك مشتاق متعلق بهذا البيت، خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بمقامك أو قلبك متعلق إلى بلد غيره. وروى **ابن عيينة** عن **الشعبى:** لأنْ أقيم **بحمام أعين** أحبّ إلىّ من أن أقيم بمكة.. قال **سفيان:** يعنى إعظاماً لها وتوقّياً عن الذنب فيها.. وقد كان **عمر بن الخطاب** رضى الله تعالى عنه يضرب الحجّاج إذا حجّوا، ويقول: يا أهل

اليمن يمنُكم، ويا أهل الشام شامُكم، ويا أهل العراق عراقُكم... وكان **ابن عباس** يقول: أجور بيوت مكة حرام، ولا تقوم الساعة حتى يستحل الناس اثنين، إتيان النساء في أدبارهن، وأجور بيوت مكة... وكان **الثورى وبشر** وجماعة من الفقهاء وأهل الورع يكرهون أن يدفع الرجل كِراء بيت مكة، حتى قال **الثورى** إذا طالبوك ولم يكن لك بد من أن تعطيهم، فخذْ لهم من البيت قيمة ما أخذوا منك. وقال بعض السلف: كم من رجل بأرض **خراسان** أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به.

ويقال إن لله عباداً تطوف بهم الكعبة تقرباً إلى الله عز وجل، وحدثنى شيخ لنا عن **أبى على الكرمانى** شيخنا بمكة ـ وكان من الأبدال إلاّ أنى سمعت هذه الحكاية منه ـ قال سمعته يقول: رأيت الكعبة ذات ليلة تطوف بشخص من المؤمنين... ويقال لا تغرب الشمس من يوم إلاّ يطوف بهذا البيت رجل من **الأبدال**، ولا يطلع الفجر من ليلة إلاّ طاف به واحدٌ من **الأوتاد**، وإذا انقطع ذلك كان سبب رفعه من الأرض، فيصبح الناس وقد رُفعت الكعبة ولا يرون لها أثراً، وهذا إذا أتى عليها **سبع سنين** لم يحجها أحد، ثم يرفع القرآن من المصاحف فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف، ثم يُنسخ القرآن من القلوب فلا تذكر منه كلمة، ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغانى وأخبار الجاهلية، ثم يخرج **الدجّال** وينزل **عيسى ابن مريم** عليه السلام فيقتله، والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل يُتوقّع ولادتها.

وروينا عن **وهيب بن الورد المكّى** قال: كنت ذات ليلة أصلى فى الحِجْر فسمعت كلاماً بين الكعبة والأستار يقول: إلى الله تعالى أشكو ثم إليك يا جبريل، ما ألقَى من الطائفين حولى تفكههم فى الحديث ولغوهم ولهوهم، لئن لم ينتهوا من ذلك لانتفضنّ انتفاضة يرجع كل حجر منى إلى الجبل الذى قطع منه... وفى الخبر: لا تقوم الساعة حتى يُرفع الركن والمقام... وروى أنّ الحبشة يغزون الكعبة فيكون أولهم عند الحجر الأسود وآخرهم على ساحل البحر بجدة، فينقضونها حجرا حجراً، يناول بعضهم بعضا حتى يرمونها فى البحر. وكذلك يُذكَر عن بعض الصحابة وقرّاء الكتب السالفة: كأنى أنظر حبشيا أصلع أجدع قائما عليها، يعنى الكعبة، هدمها بمعوله حجراً حجراً... وفى الخبر: استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يُرفع، فقد هُدِم مرتين ويرفع فى الثالثة... ورفعه الذى ذكرناه يكون بعد هدمه، لأنه يُبنَى من ذى قبل حتى يعود إلى مثل حاله، ويُحج مرارا ثم يُرفع بعد ذلك. وروينا فى حديث **أبى رافع** عن علىّ عن **النبى صلى الله عليه وسلم**: يقول الله تعالى: إذا أردت أنْ أخرب الدنيا بدأت ببيتى فخرّبته، ثم أخرب الدنيا على أثره.

وليس بعد مكة مكان أفضل من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأعمال فيها مضاعفة، رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم: صلاةٌ فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلاّ المسجد الحرام... وكذلك قيل: إن فضل الأعمال بالمدينة كفضل الصلاة، كل عمل بألف عمل. وبعد ذلك الأرض المقدسة فإن فضل الصلاة فيها بخمسمائة صلاة، وكل عمل يضاعف بخمسمائة مثله... وروينا عن عطاء عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم: صلاةٌ فى مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة.. وصلاةٌ فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، وصلاةٌ فى المسجد الأقصى بألف صلاة، ثم يستوى الأرض بعد ذلك فلا يتبقى مندوب إليه مقصود لفضل دلّ الشرع عليه، كما جاء فى الخبر: لا تُشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى، وبعد ذلك فأى موضع صلُح فيه قلبك، وسلِم لك دينك، واستقام فيه حالك فهو أفضل المواضع لك.

وقد جاء فى الخبر: البلاد بلاد الله تعالى، والخلْق عباده ، فأى موضع رأيتَ فيه رفيقا فأقمْ واحمد الله تعالى... وفى الخبر المشهور: من حضر له فى شىء فلزمه، ومن جُعِلت معيشته فى شىء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه... وقال نعيم: رأيت الثورى قد جعل جرابه على كتفه وأخذ قُلّته بيده، فقلت إلى أين يا أبا عبد الله، فقال إلى بلد أملأ فيه جرابى بدرهم.. وفى حكاية أخرى: بلغنى أن قريةً فيها رُخْص فأخرج إليها. فقلت وتفعل هذا يا أبا عبد الله؟ فقال نعم، إذا سمعتَ فى بلد برخص فاقصده، فإنه أسلَم لدينك وأقل لهمّك... وكان يقول: هذا زمان سوء لايؤمَن فيه على الخاملين فكيف بالمشهورين! هذا زمان تَنَقُّل الرجل، ينتقل من قرية إلى قرية يَفِرُّ بدينه من الفتَن... وقد كان الفقراء والمريدون يقصدون الأمصار للقاء العلماء والصالحين للنظر إليهم والتبرّك والتأدّب بهم. وكان العلماء ينتقلون فى البلاد ليعلّموا ويردّوا الخلق إلى الله تعالى ويعرّفوا الطريق إليه، فإذا فُقد العاملون وعَدِم المريدون فالزم موضعاً ترى فيه أدنى سلامةِ دين، وأقرب صلاح قلب، وأيسر نفس، ولا تنزعج إلى غيره فإنك لا تأمن أن تقع فى شرٍ منه، وتطلب المكان الأول فلا تقدر عليه، والله غالبٌ على أمره، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلى العظيم.

الفصل الرابع والثلاثون

فى تفضيل الإسلام والإيمان وشرح عقود معاملة القلب من مذاهب أهل الجماعة

قال الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود،وقال سبحانه وتعالى: ولكن

يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان. وقال تعالى : **ولاجناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم**. وقال جل ثناؤه : **ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** ... فعمْدُ القلوب وكسْبُها هو عقودها وأعمالها وعقود القلب التى هى السنّة المجتمع عليها، نقلها الخلف عن السلف ولم يختلف فيها اثنان من المؤمنين، فيها **ست عشرة** خصلة - ثمان واجبات فى الدنيا، وثمان واقعات فى الآخرة - فأما اللاتى هن فى الدنيا: * **أن يعتقد العبد أنّ الإيمان قول وعمل**، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل ؛ * **وأنّ القرآن كلام الله عز وجلّ غير مخلوق**، وعلمه القديم صفة من صفاته ، هو متكلم به بذاته. وفى **الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم** : ما تقرّب العبد إلى الله عز وجل بفضل من شيء خرج منه، وهو كلامه ... وروينا عن **ابن عباس** أن **عليّا** رضى الله تعالى عنهما دعا عند قتال **صفين** : يا كهيعص ، أعوذ بك من الذنوب التى توجب النقمة، وأعوذ بك من الذنوب التى تغير النعم، وأعوذ بك من الذنوب التى تهتك الحُرُم، وأعوذ بك من الذنوب التى تحبس غيْث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التى تديل الأعداء، انصرنا على من ظلمنا... قال **الضحّاك بن مزاحم** فكان **عليّ** رضى الله عنه يقدّم هذه بين يدّى كل شديدة. وفيما روينا عن **النبى صلى الله عليه وسلم** من قوله أعوذ بكلمات الله وأسمائه كلها، كما قال أعوذ بعزة الله وقدرته، دليلٌ أن الكلام والأسماء صفات. وعن **عليّ** رضى الله تعالى عنه حين حكّم الحكمين فنقم عليه الخوارج ذلك، فقالوا حكّم فى دين الله من المخلوقين، فقال والله ما حكّمت مخلوقا، ما حكمّت إلاّ القرآن. وقال **أبو بكر الصديق** رضى الله تعالى عنه حين سمع قرآن **مسيلمة الكذّاب** الذى افتعله وتخرّصه يضاهى به كلام الله تعالى والله ماخرج هذا من الـ ولا من تقىّ. قال **أبو عبيدة** يعنى ما خرج من الله تعالى، قال وفيه دليل أنّ القرآن غير مخلوق ، وأنه خرج من الله تعالى، تكلم به. قال ومن هذا قوله تعالى : **لا يرقبون فى مؤمن إلاّ ولاذمة**، معناه الله عز وجل لا يرقبونه . وقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** بمعنى ذلك فى قوله فضلُ كلام الله عز وجل على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلْقه .. وذلك أنه خرج منه. وقرأت فى مصحف **ابن مسعود** ، قال ياموسى قد فضّلتك برسالاتى وبكلامى على الناس، وهذا لا يجوز فيه إلا التكلم بالذات، مع قوله سبحانه وتعالى : **وكلّم الله موسى تكليما**. قال أهل اللغة المصدر إذا أدخل فى الفعل فهو للمواجهة والوصف لا للأمر بالفعل ولا على المجاز. * **ثم تسليم أخبار الصفات** فيما ثبتت به الرويات وصحّ

النقل، ولايتأول ذلك ولا يُشَبِّه بالقياس والعقل، ولكن يعتقد إثبات الأسماء والصفات بمعانيها وحقائقها لله تعالى ، وينفى التشبيه والتكييف عنها، إذ لا كفؤ للموصوف فيُشبَّه به، ولا مِثْل له فيجنَّس منه، ولانُشَبِّه ونصف ، ولا نُمثِّل ونعرِّف ونُكيِّف. وفى رد أخبار الصفات بطلان شرائع الإسلام منْ قبلَ أنّ الناقلين إلينا ذلك هم ناقلو شرائع الدين وأحكام الإيمان، فإنْ كانوا عُدولا فيما نقلوه من الشريعة فالعَدل مقبول القول فى كل ما نقله، وإنْ كانوا كذبوا فيما نقلوا من أخبار الصفات فالكذّاب مردود القول فى كل ماجاء به، والكذب على الله كفر، فكيف تُقبل شهادة كافر؟ وإذ جاز أن يجترؤا على الله عز وجل بأنْ يزيدوا فى صفاته مالم يسمعوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم إلى أنْ يكذبوا على الرسول فيما كان من الأحكام أولى، ففى ذلك إبطال الشريعة وتكفير النَقَلة من الصحابة والتابعين بإحسان، فلذلك كفّر أصحاب الحديث من نفَى أخبار الصفات .* **ويعتقد تفضيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته رضى الله عنهم** ورضوا عنه كافة، ويسكت عما شجر بينهم، وينشر محاسنهم وفضائلهم، لتأتلف القلوب بذلك ونسلِّم لكل واحد منهم مافعله، لأنهم أوفر وأعلى عقولا منا ، فقد عمل كل واحد بعلمه ومنتهى عقله فيما أدّى إليه اجتهاده، وإنْ كان بعضهم أعلم من بعض، كما أن بعضهم أفضل من بعض، إلاّ أن علومنا وعقولنا تضعف وتنقص عن علم أدناهم علما، كمافضلوا علينا بالسوابق سبقا.* **وأنْ يقدّم مَن قدّم الله ورسوله** وأجمع المسلمون الذين تولّى الله إجماعهم على الهداية، وضمن لرسوله الله صلى الله عليه وسلم تفضيلا وتشريفا لهم أن لا يجتمعوا على ضلالة . وقد قال **علّى** لمّا قيل له ألاّ تستخلف علينا، فقال لا أستخلف عليكم بل أكِلُكُم إلى الله عز وجل، فإنْ يُرِدْ بكم خيراً جمعكم بعد نبيّكم على خَيْركم. قال **إبراهيم النخعى** فلمّا سلّم **الحسن بن علىّ** رضى الله تعالى عنهما الأمر إلى **معاوية** سُميت سَنَةُ الجماعة، وقال له رجل من **الشيعة** يامُذِلّ المؤمنين، فقال بل أنا مُعِزّ المؤمنين، سمعت أبى عليه السلام يقول لا تكرهوا إمارة معاوية فإنه سيلى هذا الأمر بعدى، وإن فقدتموه رأيتم السيوف تبدر عن كواهلها كأنها الحنظل. فليعتقد بقلبه من رضى الصحابة بإمامته وأجمعوا على خلافته. واتفق الأئمة من **أهل الشورى** على تقدمته على حديث **ابن عمر** فى التفضيل، قال : كنا نقول على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم **أبو بكر ثم عمر ثم عثمان،** فيبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينكر... وعلى حديث **سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم** قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون مُلْكا... فهؤلاء **الأربعة** خلفاء النبوة ، وهم أئمة الأئمة من **العشرة**، وعيون أهل الهجرة والنُّصرة، وخيار الخيار من الأصحاب. كما روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** : إن الله عز وجل اختار أصحابى على العالمين، واختار من أصحابى **أربعة** فجعلهم خير أصحابى، وفى كل أصحابى خير، واختار أمتى على الأمم، واختار من أمتى **أربعة قرون**، فكل قرن **سبعون سنة**... فإنّا نحن قوم متّبعون نقفو الأثر، غير مبتدعين بالرأى والمعقول نرد به الخبر، إذ لا مدخل **للقياس والرأى** فى التفضيل، كما لا مدخل لهما فى الصفات وأصول العبادات، وإنما يؤخذ التفضيل توقيفا وتسليما ، ومن طريق **الإجماع والاتباع** خشية الشذوذ والابتداع، لقول **رسول الله صلى الله عليه وسلم** : بسنتى وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى، عُضّوا عليها بالنواجذ ومن شذّ ففى النار ... وقال تعالى فى تصديق ذلك : **ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم** ... وإنما جاء الترتيب فى التفضيل والخلافة مخالفاً للقياس والمعقول ، توكيداً للنبوة ، وتأييداً للرسالة، لئلا تلتبس النبوة بالمُلك ، ولا ينحو النبى صلى الله عليه وسلم فى الخلافة نحو الأكاسرة والأقاصرة فى الملكة، وكما كانت النبوة مخالفة للمُلك جاءت الخلافة على غير سيرة الملوك من استخلاف أبنائهم وأهل بيتهم. ولو كان للمعقول والقياس مدخل فى التفضيل لكان أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم **الحسن** ابنه، لأن فيه البنوة، **والعباس** عمه إذ فيه الأبوة، وقد أجمعوا على خلاف ذلك. وبمعنى هذا من إخراج الخلْق من المألوف ورفع سكونهم عن المعهود أنّ **أبا قحافة وأبا سفيان** ماتا مؤمنين، وأنّ أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمه ماتا كافريْن، أجمع أهل النقل والتواريخ على ذلك. وقال **أبو بكر الصديق** رضى الله تعالى عنه لمّا أسلم أبوه بين يدّى رسول الله عام فتحُ مكة : والله يارسول الله لإسلام **أبى طالب** كان أحب إلّى لو أسلم من إسلام أبى ليقرّ الله به عينك - فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأيضا فلما سبق فى علم الله تعالى أن يجعل هؤلاء **الأربعة** خلفاء النبوة بما قدّر الله من أعمارهم، فلم يكن يتم ذلك إلا بترتيبهم على مارُتبّوا فى الخلافة، فكان آخرهم استخلافا هو آخرهم موتاً، فدبّر خلافتهم على ما عَلِمَ من آجالهم ووفىّ لهم بما وعدهم من استخلافهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من خلائف أنبيائه السوالف، ومكّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وبدّلهم أمنا بعد خوفهم، كما قال الصادق فيما عَهَد ومَن أوفى بعهده من الله، فذلك تأويل قوله عز وجل : **وَعَد الله الذين آمنوا وعملوا**

الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم - الآية.* **وأنْ يعتقد أن الإمامة فى قريش خاصة** دون سائر العرب كافة إلى يوم القيامة. وأن لا يخرج على الأئمة بالسيف ويصبر على جورهم إن كان منهم، ويشكر على المعروف والعدل ، ويطيع إذا أمر بالتقوى والبرّ حتى تأتيه يدٌ خاطئة أو منّية قاضية، كذلك السُّنة. قال عالمنا **أبو محمد سهل** رحمه الله تعالى :هذه الأمة **ثلاث وسبعون** فرقة، **اثنتان وسبعون** هالكة، كلهم يبغض السلطان ، والناجية هذه الواحدة التى مع السلطان... وسئل أى الناس خير؟ فقال : السلطان. قيل : كنا نرى أن شر الناس السلطان ؟ فقال : مهلاً ، إن لله تعالى فى كل يوم نظرتين، نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ودمائهم ، ونظرة إلى سلامة أفكارهم، فيطلّع فى صحيفته فيغفر له ذنوبه... وقال **أبو محمد:** الخليفة إذا كان غير صالح فهو من **الأبدال**، وإذا كان صالحا فهو **القطب** الذى تدور عليه الدنيا... قوله من الأبدال يعنى أبدال المَلك... كما حدّثنا عن **جعفر بن محمد الصادق** أنه قال : أبدال الدنيا سبعة، على مقاديرهم يكون الناس فى كل زمان من العبّاد والعلماء والتجار والخليفة والوزير وأمير الجيش وصاحب الشرطة والقاضى وشهوده. وروينا فى الخبر : عدل ساعة من إمام عادل خيرٌ من عبادة ستين سنة. ويقال إن الإمام العادل يوضع فى ميزانه جميع أعمال رعيته. وكان **عمرو بن العاص** يقول إمامٌ غشوم خير من فتنة تدوم. وقال **النبى صلى الله عليه وسلم :** يكون عليكم أمراء يفسدون وما يُصلح الله تعالى بهم أكثر، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإنْ أساؤا فعليهم الوزر وعليكم الصبر. وفى الخبر الآخر: يليكم أمراء يقولون مالم يعرفون ، ويفعلون ما ينكرون، وفى لفظ يفعلون مالم يؤمروا. قلنا أفلا نقاتلهم، قال : لا ، ما صلّوا. وفى الحديث الآخر : ما أقاموا الصلاة... وكان **سهل** رحمه الله تعالى يقول من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق. ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل... وكان يقول الخشيبات السودالمعلقة على أبوابهم أنفع للمسلمين من سبعين قاضيا يقضون فى المسجد... وقد كان **أحمد بن حنبل** رحمه الله تعالى يقول إذا كان السلطان صالحا فهو خير من صالحى الأمة، وإذا كان فاسقا فصالحو الأمة خير منه. وهذا قول عدل.* ولا يكفّر أحداً **من أهل القِبْلة بذنب وإنْ عظُم**، ولا ينزله جنة ولا ناراً بل يرجو له ويخاف عليه، وأنّ من مات مُصرّاً على الكبائر عن غير توبة منها فى مشيئة الله تعالى ، إنْ أثبت وعيده عليه كان عدلا، وإنْ عفا عنه وسمح له بحقه كان ذلك منه فضلا. ولا نحكم ولا نقطع على الله تعالى

بشيء ، ولا نوجب لنا عليه شيأً ، إنما نحن بين عدله وفضله ، وبمشيئته واختياره،إن حققّ علينا وعيده فنحن أهل ذلك، وإنْ غفر لنا فهو أهل التقوى وأهل المغفرة. كيف وقد روينا عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلّم** أنه قال : من وعده الله تعالى على عمل ثوابا فهو منجزه له، ومن أوعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار... والحديث الآخر أنّ **النبى صلّى الله عليه وسلّم** سئل عن قوله تعالى **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها**، فقال : جزاؤه جهنم إنْ جازاه.. ففى كل قضاء الله تعالى حكمة بالغة وعدل وحكم صادق وحق.* **وأنْ يُصدّق بجميع أقدار الله تعالى خيرها وشرها**، أنها من الله تعالى، سابقة فى علمه، جارية فى خلقه بحُكمه، وأنهم لاحول لهم عن معصيته إلاّ بعصمته، ولا قوّة لهم على طاعته إلاّ برحمته، وأنهم لا يطيقون ما حمّلهم إلاّ به، ولا يستطيعون لأنفسهم نفعا ولا ضُراً إلاّ بمشيئته. ونؤمن بقدرة الله وآياته فى مُلكه وغيب ملكوته ، مما ذكر فى الأخبار من كراماته لأوليائه وإجاباته لإحبابه ، وإظهار القدرة للصدّيقين والصالحين ، مزيداً لإيمانهم ، وتثبتاً ليقينهم ، وتكرمةً وتشريفاً لهم، وأنه ليس فى ذلك إبطال لنبوّة الأنبياء ، ولا إدحاض حججهم من قبَل أنّ هؤلاء غير مثبتين ولا مخالفين للأنبياء ولا ادّعوا ماظهر لهم بحوْلهم وقوّتهم، ولا أظهروا دعوة إلى أنفسهم ، ولا تظاهراً به ، ولا اجتلاءً بالدنيا ، ولا طلباً للرياسة على أهلها، وإنما هو شيء كشفه الله تعالى لهم من سر ملكوته كيف شاء، وأظهرهم عليه من غيب قُدرته أين شاء كما شاء، تخصيصاً لهم وتعريفاً، وهم للأنبياء متبّعون، وعلى آثارهم مقتفون، ولسُنّتهم مقتدون، فآتاهم الله تعالى ذلك ببركة الأنبياء وبحُسن اتبّاعهم لهم، ولأنهم إخوانهم أبدالاً لا أشكالاً لهم، وعنهم أمثالا. وقد تواترت الأخبار عن الصحابة والتابعين الأخيار بما ذكرناه فغنينا بالتواتر عن التناظر.

وأما **الثمانى** الواقعات فى الآخرة : * **فأنْ يعتقد العبد مساءلة منكر ونكير**، يُقعِدان العبد فى قبره سوياً ذا روُح وجسد، فيسألانه عن التوحيد وعن الرسالة، وهى آخر فتنة تُعرَض على المؤمن، وهما فتّانا القبر. كذلك روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو معنى قول الله عز وجل **يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة**، قيل عند مساءلة منكر ونكير، **ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء**.* **وعذاب القبر حق وحكمة وعدل** على الجسم والروح والنفس، يشتركون فى ذلك حسب اشتراكهم فى المعصية، وإنْ كان نعيماً كان ذلك على الجسم والروح والنفس، يشتركون فى النعيم كما

اشتركوا فى الطاعة.وهذا من أحكام الآخرة يكون بمجارى القُدرة، ليس على ترتيب المعقول ولا عُرف العقول، يوصل الله العذاب والنعيم إلى الأرواح والأجسام وهى متفرقة فيتصل ذلك بهما كأنهما متفقان، وليس فى القدرة مسافة ولا ترتيب ولا بعد ولا توقيت * **ويؤمن بالميزان** ذى الكفتين واللسان أنه حق وعدل وحكمة وفضل ، كما جاء وصفه من أن طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى والصنج يومئذ مثاقيل الذرّ والخَرْدل بحقيقة العدل، **وقد خاب من حمل ظلما**، فتكون الحسنات فى صورة تُطرح فى كفة النور فيثقل بها الميزان برحمة الله تعالى، وتكون السيآت فى صورة سيئة تطرح فى كفة الظُلمة ، فيخف بها الميزان بعدل الله تعالى. * **ويعتقد أن الصراط حق** على ماجاء وصفه فى الآثار كدقة الشعرة وحدّ السيف، وهو طريق الفريقين إلى الجنة أو النار، يثبّت عليه أقدام المؤمنين بقدرة اللهّ عز وجل ، فيحملهم إلى الجنة بفضل الله تعالى ، وتزلّ عنه أقدام المنافقين فتهوى بهم فى النار بحكم الله عز وجل * **ويؤمن بوقوع الحساب** وتفاوت الخلْق فيه، فمنهم من يحاسب حساباً يسيرا، ومنهم من يدخل النار بغير حساب وهم الكفرون. وكان إمامنا **أبو محمد** رحمه الله تعالى يقول : يُسأل الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ويُسأل الكفار عن تكذيب المرسلين، ويُسأل المبتدعة عن السنّة، ويسأل المسلمون عن الأعمال . * **ويؤمن بالنظر إلى الله جلّ جلاله عياناً بالأبصار** كفاحاً، مواجهةً تكشف الحُجُب والأستار بقدرة الله ومشيئته ونوره ورحمته كيف شاء ، وهو معنى قول الله تعالى **للذين أحسنوا الحُسنى وزيادة**، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى الله تبارك وتعالى. وكذلك فسرّه رسول الله صلى الله عليه وسلم.* **ويعتقد إخراج الموّحدين من النار بعد الانتقام** ، حتى لا يبقى فى جهنم موّحد ، بفضل الله ، ثم بشفاعة الشافعين من النبيين والصدّقين، وأنّ لكل مؤمن شفاعة بإذن الله فيشفع النبيّون والصدّيقون والعلماء والشهداء وسائر المؤمنين ، كل واحد وُسْعَ جاهه وقَدْر منزلته، أجمعت الرواة بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إثبات الشفاعة وفى إخراج الموحدين من النار، وهم الجهنميون من أهل الطبقة العليا من النار، وهو معنى قول الله تعالى : **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين**، قال أهل التفسير ذلك عند إخراج الموحدين من النار ، ويبقى الباقى لرحمة أرحم الراحمين، فيخرج من النار بمشيئته وسعة رحمته وفضل فضله من لم يشفع لهم الشافعون ، ولم يقدم فى الشفاعة لهم المرسلون. هكذا روينا معناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .... فهذه عقود السنّة الهادية ، وطريقة الأمة

الراضية . وقد أجمع السلف من المؤمنين على ماذكرناه من قبل أنه لم ينقل عن أحد منهم خلافه ، ولا رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضده، بل قد رُوِى فى كل ماذكرناه أخبار توجب إيجابه، ومعان تشهد لإثباته، وتولّى الله تعالى إجماعهم على سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تولى إظهار دينه على الدين كله.

وروينا عن النبى صلىّ الله عليه وسلم إن الله عز وجل ضمن لى، وفى لفظ آخر أعطانى، أن لا تجتمع أمتى على ضلالة، فإذا رأيتم خلافا فكونوا مع السواد الأعظم. والسواد الأعظم يعبّر به عن الكثرة، فالمختلفون متفقون على أن السواد الأعظم ما عليه العامة من المسلمين والكافة من العموم، وأنّ المبتدعة والمخالفة لما ذكرناه إنما هم فرق وشراذم قليلون ، وشيّع وأحزاب متفرقون، لأن كل مبتدعة منهم فرقة، وكل شرذمة منهم مختلفة، وليس السواد الأعظم والجم الغفير الدهماء إلاّ **أهل السنة والجماعة**، وهم السواد والعامة، ولذلك كان **عمر بن عبد العزيز** وغيره من الصالحين يقولون ديننا دين العجائز وصبيان المكاتب ودين الأعراب، أى هو القوّى السليم العام، وفسّر ذلك **رسول الله صلى الله عليه وسلم** فى الحديث الآخر فقال : مَن كان على ماأنتم عليه اليوم... فأجمعت الأمة على أن ما أحدثت الفرق المختلفة لم تكن عليه الصحابة ولا تكلموا فيه ولا نُقِلَ عنهم، وأنهم كانوا على ماذكرناه آنفا لأنه لم يُرْوَ عن أحد منهم خلافه،بل قد نقل عنهم وفاقه فى القرن الأول والثانى، ثم حدث ماذكرناه من الخلاف فى بعض القرن الثالث وفى القرن الرابع. **فلله** الحمد ربّ السموات وربّ الأرض ربّ العالمين على حُسن توفيقه وجميل هدايته، وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله. فنعمة الله تعالى علينا بالسُنّة كنعمته علينا بالإسلام، إذ نعمته علينا برسول الله صلى الله عليه وسلم كنعمته علينا بمعرفته، لاقتران طاعته بطاعته، ولحاجة الكتاب العزيز إلى تفسير سُنته. وقد روينا فى حديث **عمر** عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** : الشيطان مع الواحد ، وهو من اثنين أبعد. ذئبُ أحدكم كذئب الشاة يتبع الشاذة والقاصية، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم **الجماعة**، ومن شذّ ففى النار. وروينا عن **أبى غالب** عن **أبى أمامة** أنه نظر إلى رءوس **الحرورية** جيء بها من البصرة فنُصِبت على الخشب بدمشق، قال شر قتلى تحت ظل السماء ، ثم قال كلاب النار، ثم قرأ **فأمّا الذين فى قلوبهم زيْغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة**، ثم قرأ يوم **تبيض وجوه وتسوّد وجوه، فأمّا الذين اسوّدت وجوهم أكفرتم بعد إيمانكم** ، ويشير بإصبعه إليهم، ثم بكى ، فقلت ياأبا أمامة تقول فيهم

ماتقول ثم تبكى، فقال قاتل الله إبليس ماصنع بهؤلاء الناس ياأباغالب، إنهم كانوا على ديننا فأبكى مما هم لاقون، هؤلاء بأرضك كثير فأعيذك بالله منهم ثلاث مرات، فقلت آمين يا أبا امامة ، أشيءٌ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو شيءٌ تقوله من قِبَل رأيك، قال لقد سمعت **رسول الله صلى الله عليه وسلم** غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع يقول: تفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، تزيد أمتى عليها فرقة، كلها فى النار إلاّ السواد الأعظم، والجماعة خير من الفُرقة، والطاعة خير من المعصية... هؤلاء **الخوارج،** وهم **الحرورية** الذين خرجوا على أمير المؤمنين **علّى بن أبى طالب** رضى الله تعالى عنه، وهم **أوّل قرن** نبغ من المبتدعة، **وأوّل بدعة** ابتُدعت فى الإسلام، وكانوا قرّاء، المصاحف فى أعناقهم، والسَجَّادات كركب المِعْزَى فى جباهم، فأنكروا عليه تحكيم الحكميْن، وسألوه أنْ يَنْقُض حكمه فيرجع عنه، وقالوا لاحكم إلا لله ، وأنكروا أمر السلطان، ورأو الخروج على الإمام ، وكفروّا عثمان ، وصوّبوا قتل غوغاء المصريين له، وطالبوا علياً عليه السلام أنْ يوافقهم على رأيهم ويتابعهم على أهوائهم على أنْ يقاتلوا معه المسلمين إنْ رجع عن تحكيم الحَكَمَيْن، وكفروّا أهل الكبائر بالمعاصى ، فرأى علىّ ما أراه الله تعالى ، وبماعهد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قتل المارقين فقتلهم، فهؤلاء فى النار، وقاتلوهم – علّى وأصحابه – خيرُ أهل الأرض فى الجنة. وكان رئيسهم فى الضلال وفى القتال **عبد الله بن الكوّا الأعور** ، وكان علىّ يبغضه ويسبّه قبل أن يظهر منه ماظهر، فخرج عليه عبد الله بن الكوّا فى ستة آلاف، فأرسل علىّ عليه السلام **عبد الله بن عباس** إليهم يناظرهم ويحاجّهم فسبّوه وبطشوا به، وجرأهم عليه بن الكوّا هذا، فقام خطيباً فيهم فقال أتعرّفونى بهذا، أنا أُعرفْكموه، هذا من القوم الذين قال الله فيهم **ما ضربوه لك إلاّ جدلاً، بل هم قوم خصمون**، ثم تراجع بعضهم إلى ابن عباس فسأله، فكشف له عن الحق واستتاب منهم ألفين، وقاتل علىّ كرّم الله وجهه أربعة آلاف، فهذه **أوّل فرقة** مرقت من الدين واتّبعت غير سبيل المؤمنين، ثم افترقت **الفرقة الثانية** بالمدائن فرأوا دين **الإرجاء** وأن الإيمان قول وعمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص، وكتبوا بذلك إلى أمير الشام، فَهَمّ بقتالهم ثم شغل عنهم بقتال الروم ، ثم افترقت **الفرقة الثالثة** بالبصرة **وهم القدرية**، إمامهم **معبد الجهنى** وتابعه **عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزّال** وأصحابهم، ثم خرجت **الفرقة الرابعة** من الكوفة وهم **الرافضة** ، سموا بذلك لمّا رفضوا **زيد بن على بن الحسين** حين خرج يقاتل **هشاما**،

فقالوا له تبّرأ من أبى بكر وعمر رضى اللّه تعالى عنهما، قال هما جداى ، إماما عدل، لا أتبرأ منهما، فرفضوه. ثم افترقت كل **فرقة ثمانى عشرة** فرقة، فتّمت **اثنتان وسبعون** فرقة، وكلها نبع بأرض **العراق** ومنه طلع قرن الشيطان، وظهرت الفتن نعوذ باللّه منها، ماظهر منها ومابطن. وقد روينا عن **ابن عباس** عن **النبى صلى اللّه عليه وسلم** أن للّه عز وجل ثلاثة أملاك، ملَك على ظهر بيت اللّه تعالى، وملك على مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وملَك على ظهر بيت المقدس، ينادون فى كل يوم، يقول الملَك الذى على ظهر بيت اللّه تعالى من ضيّع فرائض اللّه خرج من أمان اللّه، ويقول الملَك الذى على ظهر مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مَن خالف سنّة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم تنله شفاعة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ويقول الملك الذى على ظهر بيت المقدس من أكل حراما ، يقبل منه صرْف ولا عدْل.

شرح معاملة القلب من العلم الظاهر وذكر مبانى الإسلام وأركان الإيمان

قال اللّه تعالى : **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا**، وقال عز وجل : **واذكروا نعمة اللّه عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا**، وقال تعالى : **ومالكم لا تؤمنون باللّه والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إنْ كنتم مؤمنين**. فمبانى الإسلام **خمسة**: أوّلها شهادة أنْ لا إله إلاّ اللّه وحده ، وأن محمدا صلّى اللّه عليه وسلم عبده ورسوله، وهما كواحدة لاتصال إحداهما بالأخرى فى الوجوب والحكم؛ وإقام الصلاة الخمس، وهن كواحدة منها لتعلّق كل واحدة بصاحبتها؛ وإيتاء الزكاة، وهى كالصلاة لاقترانها بها والاشتراط بها ؛ وصوم رمضان؛ وحج البيت وهما كشىء واحد من الفرض. فهذه **الخمس** كواحدة منهن فى إيجاب العقد واعتقاد الوجوب ، وإنْ اختلف الحُكم فى سقوط فعل بعضها بشرط. وروينا عن **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** أنه قال : بنى الإسلام على **خمس**: شهادة أن لا إله إلاّ اللّه، وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة الخمس، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت .

وأركان الإيمان سبعة: الإيمان بأسماء اللّه وصفاته، والإيمان بكتب اللّهّ تعالى وأنبيائه والإيمان بالملائكة والشياطين، والإيمان بالجنّة والنار وأنهما قد خلقتا قبل آدم صلى اللّه عليه

وسلم، والإيمان بالبعث بعد الموت ، والإيمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها، حلوها ومرّها، أنها من الله تعالى قضاء وقدراً أو مشيئةً وحكما، وأنّ ذلك عدلٌ منه وحكمة بالغة استأثر بعلم غيبها ومعنى حقائقها، لا يُسئل عما يفعل، ولا تُضرب له الأمثال بملزمات العقول وتمثيلات المعقول، تعالى عن ذلك علوا كبيرا. وقد شهد الله سبحانه وتعالى بالضلالة على من ضرب لعبده الأمثال، فقال تعالى جدُّه : **انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا**، فكيف بمن ضرب المَثَل للسيد الأجّل بعد نهيه عن ذلك وإخباره بعلم غيب ذلك، إذ يقول : **فلا تضربوا لله الأمثال إنّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون** . والإيمان بما صحّ من حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وقبول جميعه، وافتراض طاعته وأمره على العباد، والتزام ذلك، إذ قد جعل الله تعالى طاعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من شرط الإيمان وقرنها بطاعته، فقال تعالى : **أطيعوا الله ورسوله إنْ كنتم مؤمنين**، واشترط للرحمة طاعة الرسول، كما اشترط لها تقواه، فقال : **وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون**، وحذّر من مخالفة أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، في الاستجابة له مقامه ، وجعله في المبالغة في الوصف والمدح بدلا عنه، فقال تعالى : **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أنْ تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**، كما قال سبحانه وتعالى : **ويحذركم الله نفسه**، وقال تعالى : **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**، لأنه قال : **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله**، وهذه أمدح آية في كتاب الله تعالى وأبلغ فضيلة فيه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، لأنه جعله في اللفظ بدلاً عنه، وفي الحكم مقامه، ولم يدخل بينه وبينه كاف التشبيه **كأنما**، ولا لام المِلك فيقول **لله** تعالى، وليس هذا المقام من الربوبية لخلْقٍ غيْر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ذكر اتصال الإيمان بالإسلام في المعنى والحكم . وافتراقهما في التفصيل والاسم .وأنّ كل مؤمن مسلم . وتحقيق القول بالعمل . وإبطال مذهب الجهمية والكرامية والحرورية. وبيان مذهب أهل السنة والجماعة . وفقنا الله تعالى لذلك

قال قائلون: **الإيمان هو الإسلام**، وهذا قد أذهب التفاوت والمقامات، وهذا يَقرُب من مذهب **المرجئة** . وقال آخرون **إن الإسلام غير الإيمان**، وهؤلاء قد أدخلوا التضاد والتغاير، وهذا قريب من قول **الأباضية**. فهذه مسئلة مشكلة تحتاج إلى شرح وتفصيل، فمثِّل الإسلام

من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى فى المعنى والحكم، فشهادة الرسول غير شهادة التوحيد، فهما شيآن فى الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى، فهما كشىء واحد، لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصحّ إسلامه، ولا بد للمسلم من إيمان به يحق إيمانه ، من حيث اشترط الله سبحانه وتعالى للأعمال الصالحة الإيمان، واشترط للإيمان الأعمال الصالحة، فقال فى تحقيق ذلك : **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه**، وقال فى تحقيق الإيمان بالعمل : **ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى**. ومن كان ظاهره أعمال الإسلام لا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق نفاقا يَنْقُلُ عن الملة. ومن كان عقدُه الإيمان بالغيب لا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفراً لا يثبت معه توحيد. ومن كان مؤمنا بالغيب مما أخبر به الرسول عن الله سبحانه، عاملا بما أمر به، فهو مؤمن مسلم، ولولا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز أن لا يسمى مسلما، ولجاز أن لا يسمى كل مسلم مؤمنا بالله تعالى ورسله وكتبه،

ومثل الإيمان من الأعمال كمثل القلب من الجسم لا ينفك أحدهما من الآخر، فلا يكون ذو جسم حى لا قلب له، ولا ذو قلب لا جسم له، فهما سببان منفردان ، وفى المعنى والحكم متصلان. ومثلهما أيضا مثل حبة لها ظاهر وباطن وهى واحدة، لا يقال حبتان، لتقارب وصفيهما، فكذلك أعمال الإسلام من الإيمان، الإسلام هو ظاهر الإيمان، وهو أعمال الجوارح، والإيمان باطن الإسلام، وهو أعمال القلوب. روى **عن النبى صلى الله عليه وسلم**: الإسلام علانية والإيمان سرّ، وفى لفظ آخر والإيمان فى القلب،.. فالإسلام إعلام الإيمان، والإيمان عقود الإسلام، فلا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بعقد، ومثل ذلك مثل العلم الظاهر والباطن، أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وأعمال الجوارح، ومثله **قول رسول الله صلى الله عليه وسلم** : إنما الأعمال بالنية... أى لا عمل إلاّ بعقد وقصد، لأن قوله صلى الله عليه وسلم «إنما» تحقيق للشىء ونفى لما سواه، فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وأعمال القلوب من النيات، فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان، لا يصح الكلام إلا بهما ، لأن الشفتين ، تجمع الحروف، واللسان يظهر الكلام، وفى سقوط أحدهما بطلان الكلام، كذلك فى سقوط العمل ذهاب الإيمان، ولذلك عددّ الله تعالى فى نعمته على الإنسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان فى قوله تعالى «**ألم نجعل له عينين ولسانا**

وشفتين ، المعنى ألم نجعله ناظراً متكلماً ، فعبر عن الكلام باللسان والشفتين لأنهما مكان له ، وذكره الشفتين لأن الكلام الذى جرت النعمة به لايتم إلا بهما .

ومثل الإيمان والإسلام أيضاً كفسطاط قائم فى الأرض له ظاهر متجاف وأطناب ، وله عمود فى باطنه ، فالفسطاط مثل الإسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح وهى الأطناب التى تمسك أرجاء الفسطاط ، والعمود الذى فى باطن الفسطاط مثله كالإيمان لاقوام للفسطاط إلا به ، فقد احتاج الفسطاط إليهما إذ لا إستقامة له ولا قوة إلا بهما ، وكذلك الإسلام من أعمال الجوارح ولا قوام له إلا بالإيمان ، والإيمان من **أعمال القلوب** لا نفع له إلا بالإسلام ، وهو صالح الأعمال ، وقد عبر الله تعالى عن الإيمان بالإسلام ، فلولا أنهما كشىء واحد ما عبر عن أحدهما بالآخر ، فقال سبحانه **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ، ولم يكونا بيتين ، إنما هم أهل بيت واحد ، لوط وبناته ، وقال عز وجل فى مثله **إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ، فعطف بقوله إن كنتم مسلمين على قوله إن كنتم آمنتم ، فدلّ على أنهما اسمان بمعنى واحد ، وهذا كقوله تعالى فيما عبر عن الأيام بالليالى ، لأن اليوم مرتبط بالليلة ، وأنت تعلم أنهما شيئان ، فقال فى قصة واحدة **قال آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً** ، وقال أيضاً سبحانه **آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً** ، وأيضاً فان الله تعالى قد جعل ضد الإسلام والإيمان واحداً ، فلولا أنهما كشىء واحد من الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحداً ، فقال سبحانه **كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم** ، وقال **أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون** ، فجعل ضدهما الكفر .

وعلى مثل هذا خبر **رسول الله**ﷺ عن الإيمان والإسلام بوصف واحدة فقال فى حديث بن عمر بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاه ، وصوم رمضان ، وحج البيت . وفى حديث **ابن عباس** عن وفد **عبد القيس** أنهم سألوه عن الإيمان فذكر هذه الأوصاف ، فدل بذلك أنه لا إيمان باطن إلا بإسلام ظاهر ، ولا إسلام علانية إلا بالإيمان سرا ، وأن الإيمان والعمل قرينان لا ينفع أحدهما بغير صاحبه ، ولا يصح أحدهما إلا بالآخر ، كما لا يصحان ولايوجدان معا إلا بنفى ضدهما وهو الكفر .

وقد اشترط الله تعالى للإيمان العمل الصالح ونفّى النفع بالإيمان إلا بوجود العمل، كما شرط للإيمان الإسلام، فقال تعالى **«إلاّ من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات»** ، والإجماع من أهل التفسير إلاّ من تاب من الشرك كقوله تعالى **«فإنْ تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم»** ، بعد قوله **وخذوهم واحصروهم**. وقال سبحانه وتعالى **«وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنازلفى إلاّ من آمن وعمل صالحا»**. وقال تعالى **«الذين آمنوا وكانوا يتّقون»** ، كما قال تعالى **«الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين»** ، فاشترط للإيمان الأعمال والتقوى، كما اشترط للأعمال الصالحة الإيمان، فكما لو عمل العبد بالصالحات كلها لم تنفعه إلاّ بالإيمان، كذلك لو آمن الإيمان كله لم ينفعه إلاّ بالأعمال. وفى وصية **لقمان** لابنه: يا بنى كما لا يصلح الزرع إلاّ بالماء والتراب، فكذلك لا يصلح الإيمان إلاّ بالعمل والعلم... فأمّا تفرقة **النبى صلى الله عليه وسلم** فى حديث جبريل عليه السلام لمّا سأله ما الإيمان، فقال : أنْ تؤمن بالله وملائكته ورسله ، وبالبعث بعد الموت ، وبالحساب، وبالقدر خير وشره.. ثم قال ما الإسلام، فذكر الخصال الخمس، فإنّ ذلك تفصيل أعمال القلوب وعقودها على ما توجب هذه المعانى فيما توجب الأفعال الظاهرة أن تكون علانية، إلاّ أنّ ذلك يفرّق بين الإسلام والإيمان فى المعنى باختلافٍ وتضاد، وليس دليل أنهما مختلفان فى الحُكم إذ قد يجتمعان فى عبدٍ واحدٍ مسلم مؤمن، فيكون ما ذكره من عقود القلب وصفٌ لقلبه، وما ذكره من العلانية وصفٌ لظاهر جسمه، والدليل على ذلك أنه جعل وصف الاسمين معنىً واحداً فى حديث **ابن عمر** وفى حديث وفد **عبد القيس** الذى ذكرناه عن **ابن عباس**. وقد روى ذلك مفصّلا فى حديث **علّى** رضى الله عنه: الإيمان قول باللسان، وعقدٌ بالقلب، وعملٌ بالأركان... فأدخل أعمال الجوارح فى عقود الإيمان. وأيضا فإن الأمة مجمعة أن العبد لو آمن بجميع ماذكرناه من عقود القلب فى حديث جبريل عليه السلام من وصف الإيمان، ولم يعمل بما ذكرناه من وصف الإسلام لا يسمى مؤمنا، وأنه إنْ عمل بجميع ما وصف به الإسلام، ثم لم يعتقد ما وصفه من الإيمان لا يكون مسلما. وقد أخبر **صلىّ الله عليه وسلّم** أن الأمة لا تجتمع على ضلالة، وليس فيه دليل على أن الإسلام غير الإيمان، أو أنّ المسلمين سوى المؤمنين، أو أنّ الإيمان ضد الإسلام.

والوجه الثانى من تأويل الخبر أن معنى قوله **أو مسلم** يعنى به أو مستسلم، فإذا جمع بين عقود القلب وبين أعمال الجوارح كان مسلما مؤمنا. ومن لم يقل بهذا الذى ذكرناه فقد

كفرّ **أبا بكر** رضى الله تعالى عنه وجهّله فى قتال **أهل الردّة**، وادّعى عليه أنه قتل المؤمنين، لأن القوم جاؤا بعقود الإيمان ولم يجحدوا التوحيد ولا أكثر الأعمال، وإنمّا أنكروا **الزكاة**، فاستحلّ قتلهم ، وواطأه الصحابة على ذلك حتى استتاب من رجع منهم. وأما الحديث الآخر الذى جاء ظاهره أن النبى صلّى الله عليه وسلم فرّق بين المؤمن والمسلم فى أنه أعطى رجلا ولم يعط الآخر، فقال له **سعد** يا رسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن، فقال **أو مسلم**، فأعاد عليه فأعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم **أو مسلم**، فإنما فى هذا دليل على تفرقة الإيمان والإسلام فى التفاضل والمقامات، أى ليس هو من خصوص المؤمنين ولا أفاضلهم، فكشف مقامه الذى خفى على **سعد** كما كشف مقام **حارثة** عن حقيقة إيمانه إذ كان خاملا لا يؤبه له، فقال كيف أصبحت فنطق بوجْده عن مشاهدته، فقال عرفتَ فالزمْ، فهذا دليل لنا فى تفضيل مقام الإيمان على مقام الإسلام، وأنّ المؤمنين يتفاضلون فى الإيمان وإنْ تساووا فى أعمال الجوارح من الإسلام، وأنّ الإيمان لا حدّ له وإنْ كانت صحته بمحدود الإسلام، فآثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى آمن طوعا على المُكْرَه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يعطى مِنْ المُؤلفّة الرؤساء، ومَنْ لا يُؤمنُ عاديتَه وجَمْعَه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحريضَه المشركين، كما أكرم الرجل بعد أنْ تكلم فيه، فقيل له فى ذلك فقال هذا أحمق مطاع، أو مَنْ يَكثُر عشيرته واتباعه فيكون ظهيراً على المؤمنين، أو من فيه غنىً للمسلمين ومنفعةً وعزةً للمسلمين. فأمّا الاتباع والسَفَلة من المُؤلفّة فلم يكن يؤثرهم بالعطاء، بل كان يؤثر المؤمنين ويقدّمهم على أراذل المؤلفة وضعفائهم، كما فعل بالقسم الذى قسمه بين المؤمنين فأعطاهم إلاّ رجلاً من الغُزاة له سجادة محلوق الرأس، فإنه لم يعطه، فقال إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى، والله ما عدل، فقال صلى الله عليه وسلم إنْ لم أعدل فمَن يعدل. وكان ذلك **أول قرن نبغ من الخوارج**. أفلا تراه لم يعطِ هذا شيأً ولم يَستَمِلْه لأنه لم يكن من خصوص المؤمنين ولا ممن يُتّقَى بأسه أو يظهر فى الإسلام غناه فيُتألف بالعطاء، وهذا مثل قول **فرعون** حين ألجمه الله الغرق فاضطره إلى الإسلام بقوله **آمنتُ أنّه لا إله إلاّ الذى آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** – أجمع أهل التفسير أن معناه من **المستسلمين**. فإنْ قيل فقد روى فى آخر هذا الخبر فى بعض الروايات ما يدل على ضد هذا التأويل وأن الرجل كان فاضلا لا أنه كان مستسلما، وهو أن فى الحديث أنْ **النبى صلى الله عليه وسلم** قال إنى لأعطِى قوما وأمنع آخرين، أكِلهم إلى ما جعل الله تعالى فى قلوبهم

من الإيمان، منهم فلان... قيل إنّ هذا كلام مستأنَف من رسول الله صلى الله عليه وسلم أفاده القائل، لأنه بُعِثَ بجوامع الكلم، وكان يُسئل عن الشىء فيخبر به ويزيد عليه للبيان والهداية الذى أُعطَى، فكأنه أراد أنْ يخبر بتنويع عطائه وبضروب المُعطين من الناس، هذا للحاجة، وهذا للفضل ، وهذا للتآلف، لأن الذى منعه أفضل من الذى أعطاه، إذ لو كان الأمر كما قال هذاالقائل لكان الإسلام أفضل من الإيمان، ولكان المسلمون أفضل من المؤمنين، ولم يقل بهذا أحد من العلماء، إلاّ أنّ الإيمان خاصٌ فيه التفاوت والمقامات، فهو يشتمل على الإسلام، والإسلام داخل فيه، والمؤمنون هم خصوص المسلمين، منهم المقرّبون والصدّيقون والشهداء ، والإسلام عام محدود يوصف به عموم المؤمنين،ودخل فيه أهل الكبائر والإجرام، ولا يخرج منه مَن فارق الكفر ووقع عليه اسم الإيمان، كما قال تعالى «**فمن افترى على الله الكذب**» ، وأخبر عنه **بالفسوق** ، «**ومَن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يُدعى إلى الإسلام، والله لا يهدى القوم الظالمين**» ، - فعلى إجماعهم أن الإيمان أعلن إسقاط وَهْم مَنْ تَوهّم أن الرجل كان أفضل، كيف وقد روينا تخصيص الإيمان عن النبى صلى الله عليه وسلم نصاً أنه سُئل أى الأعمال أفضل ، قال الإسلام، قيل فأى الإسلام أفضل، قال الإيمان، فجعل الإيمان مقاما فى الإسلام. ففى هذا الحديث أيضا تخصيص للإيمان على الإسلام لا تفرقة بينهما، بمعنى قوله فى وصف الرجل «**أو مسلم**»، فدلّ على بطلان ما تأوّله القائل لأن هذه اللفظة بألِف الاستفهام لا تستعمل فى عُرف الكلام إلاّ فى الوصف الأنقص والحال الأدنى، فافهم.

وأما قوله تعالى **قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا**، فإنّ هذا أيضا من هذا النوع، معناه قولوا استسلمنا حَذَرَ القتل. وهؤلاء ضعفاء المؤلفة وأراذلهم كانوا ينقمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم إيثاره وتقديمه المؤمنين بالعطاء عليهم، وإرجاءه إياهم، فقالوا لِمَ لا يعطينا كما يعطى المؤمنين فإنّا مؤمنون كَهُمْ، فأخبر الله تعالى بذلك عنهم وأَكْذَبَهُم فى دعواهم. وهم الذين قصّ الله تعالى أخبارهم فى قوله تعالى «**ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإنْ أعطوا منها رضوا، وإنْ لم يعطوا منها إذا هم يسخطون**» ، ففى هذه الآية دليل على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يعطى هذا الضرب من المؤلفة. وليس فى الآية تفرقة بين الإيمان والإسلام بدليل قوله تعالى فى الآية التى بعدها «**يمنّون عليك أنْ أسلموا، قل لا تمنّوا علىّ إسلامكم، بل الله يَمُنّ عليكم أنْ**

هداكم للإيمان» ، فسمّى إسلامهم إيمانا لأنه عطف ببعض الكلام على بعض وردّ أوله إلى آخره، وإنما أسْقطَ المنّة به على رسوله وأثبت المنّ عليهم بنفسه، وعطف بآخر الاسم على أوله، وغاير بين اللفظين لاتساع لسان العرب، وليفيدنا أفضل بيان ، **وأنّ الإسلام والإيمان اسمان بمعنى واحد ،** كما قال تعالى «**هل من خالق غير الله يرزقكم** » ، ولم يقل يخلقكم، ليبين أنّ الرازق هو الخالق ، وليفيد وصفاً ثانياً وَصَفَ به نفسه تعالى. فأمّا ما روى عن **أبى جعفر محمد بن علىّ** الإيمان مقصور فى الإسلام، فمعناه هو باطنه ، قال وأدار دائرة كبيرة فقال هذا الإسلام، ثم أدار فى وسطها دارة صغيرة فقال وهذا الإيمان فى الإسلام، فإذا فعل وفعل خرج من الإيمان وصار فى الإسلام، يريد أنه خرج من حقيقة الإيمان وكماله ، ولم يكن من الموصوفين الممدوحين من المؤمنين ، لأنه خرج من الاسم والمعنى إلى الدارة الصغيرة غير خارجة من الدارة الكبيرة التى أدارها حولها فجعلها فيها وضرب المثل بها، لكنها خالصُها أو لُبُّها ومخصوصةٌ فيها، ولو أراد أنهما منفصلان لجعلهما دائرتين منفردتين ولم يجعل إحداهما جوف الأخرى.وكذلك جاء الخبر لا يزنى الزانى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن ، معناه كامل الإيمان أو مؤمن حقا ، لأن حقيقة الإيمان وكماله بالخوف والورع، إذ الأمة مجمعة أن أهل الكبائر ليسوا بكافرين، وإذا فسق بالزنا وشرب الخمر خرج من حقيقة الإيمان وهو الخوف والورع، ولم يخرج من اسمه ومعناه وهو التصديق والتزام الشريعة، وفيه معنى لطيف كأنه يرتفع عنه إيمان الحياء لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال الحياء من الإيمان، والمستحيى لا يكشف عورته على حرام. ويبقى إيمان الإسلام والتوحيد وإيجاب الأحكام. وقد روينا عن **الحسن** بيان ذلك أنه قال الإيمان حقيقة الإسلام. وقيل **لحذيفة** مَن المنافق؟ فقال الذى يتكلم بالإسلام ولا يعمل به، فسمّى الإيمان إسلاماً وقرَن القول بالعمل. وقال **الثورى** رحمه الله الناس عندنا مؤمنون مسلمون فى حدودهم وفرائضهم، وفى النكاح وفى المواريث وفى الصلاة خلفهم والصلاة عليهم، لا يُحاسب الأحياء ولا يقضى على الأموات ، ونَكِلُ ما لم نعلم من سرائرهم إلى الله تعالى، ونسمع بالتشديد فنخافه، ونسمع اللين فنرجوه لأهل القبْلة، ونتهم رأينا لرأى السلف قبلنا، وما ذكرناه من **أن الإسلام والإيمان قرينان** لا يفترقان فهذا مذهب فقهاء أصحاب الحديث وطريقة أئمة السلف رضى الله عنهم أجمعين.

باب ذكر تفضيل بيان ما نقل عن المُحدثين من التفرقة بينهما وما جاء فى معناه

فأما ما حكى عن **بعض أصحاب الحديث** أنه فرّق بين الإيمان والإسلام، فقال **الزهرى** الإسلام الكلمة، والإيمان العمل ؛ وقال **عبد الرحمن بن مهدى** وقد سئل عن الإيمان والإسلام فقال هما شيآن ، وقول **حماد بن زيد** الإسلام عام والإيمان خاص، فإنّ قول هؤلاء على جملة قولنا، وهو دليل له وشاهد عليه، وأنهم لم يفرقوا بين الإيمان والإسلام تفرقة اختلاف ولا تضاد، ولم يريدوا أنّ أحدهما يوجد ويصح بعدم الآخر ليواطؤا **مذهب المرجئة**، لأنهم أبعد شىء منهم، إذ هم أصحاب أثر وتوقيف، وإنما فرقوا بينهما تفريق تفاوت وتخصيص، أى أنّ الإيمان أخص وأعلى لأن الزيادة والنقصان فيه ، والفضائل والمقامات عنه، والاستثناء واجب فيه ، وأن الإسلام عام لا يخرج منه إلا الكافرون إذ ليس وراءه شىء. وعند، جماعة من العلماء أن الاستثناء غير واجب فى الإسلام لأنه محدود معلوم. فهذا كان قصد من فرّق بين الإسلام والإيمان، وهى طريقة بعض السلف وعبارة القدماء، وهو على نحو ما فصلناه وبمعنى ما بيناه، وإنْ كنا نحن أظهر تفصيلاً وأبيْن ترتيبا. وهذا مثل الخبر الذى روى أن النبى صلى الله عله وسلم سُئل أى الإيمان أفضل، قال الإسلام، قيل فأى الإسلام خير، قال الإيمان، فلم يفرق بينهما، ولكنه خصّص فجعل الإيمان حقيقة الإسلام وخالصه، لأنه أخبر أنه منه، فهذا من قوله من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، أى من تحققه بالإسلام، ومن أعلى إسلامه هذا الوصف، وهذا هو نعت المؤمن الموقن الزاهد، وهذا يشبه ما مثّله **أبو جعفر محمد بن علىّ** فى أنه أدار دائرة كبيرة وأدار فيها دارةً صغيرة تخصيصاً. وجميع ما شرحناه وذكرناه عن السلف يُبطل قول **المرجئة والكرامية والأباضية**، ويدحض دعواهم فى أن الإيمان قول أو معرفة وعقد بلا عمل. وهو أيضا ردٌّ على **المعتزلة** القائلين بالمنزلة بين المنزلتين، الذين يقولون مؤمن وفاسق وكافر، فلا يجعلون الفاسق مؤمنا. وهو ردٌّ على **الحشوية والجرمية والقطعية والحرورية**، أصناف من الخوارج، يقولون من أتى كبيرة خرج من الإيمان، وأن أهل الكبائر كفار يحل قتلهم. ويقولون إن أهل البغى من الأئمة كفرة يجب على الرعية قتالهم، ومنهم من يقول إنّ من بَغىَ على الإمام فقد كفر بخلاف قول الله "تعالى **وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله**"، فأمَرَ بقتال أهل البغى بتسميته إياهم مؤمنين ولم يجعل لهم منزلة ثالثة. وقد ابتلينا بطائفتين مبتدعتين متضادتين في المقالة : **المرجئة والمعتزلة**. قال المرجئة إنّ الموحدين لا يدخلون النار وإنْ عملوا بالكبائر والفسوق

كله، لأن ذلك لا ينقص إيمانهم. وقالت **المعتزلة** إنّ الفاسق ليس بمؤمن، وإنْ مات على صغيرة من الصغائر من غير توبة دخل النار لا محالة ولم يخرج منها، خالداً مع الكفار. والصواب من ذلك أن الفاسق مؤمن لا يخرجه فسقه من اسم الإيمان وحكمه، ولكن لا يُدخله فى المؤمنين حقاً من الصدّيقين والشهداء، وأنّ أهل الكبائر قد استوجبوا الوعيد ودخول النار، وجائز أن يعفو اللهّ تعالى عنهم بكرمه ويسمح لهم بجوده، كما روينا عن **علىّ** أنه قال : عليكم **بالنمط** الأوسط الذى يرجع إليه الغالى. وقد قال **صلى الله عليه وسلم** فى وصف علماء السنّة ومدحهم : يحمل هذا العلم من كل خلف عدُوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين... **فالغالون** هم المجاوزون للسنن والآثار، **والمبطلون** هم المدّعون بالرأى والقياس، **والجاهلون** هم الشاطحون من المتصوّفة الضُلاّل. وعدول كل خلق من اتبّع سنّة صالحٍ من سلفٍ ولم يبتدع فى الدين، ولا اتخذ وليجة دون طريق المؤمنين، وهم رواة الأخبار وجملة الآثار من المحدّثين وفقهاء المسلمين. ويوضح قولنا ويصححه قول اللّه تعالى **اليوم أكملت لكم دينكم**، إجماعا من المسلمين، وأنها نزلت بعد نزول الفرائض وإتمام الشرائع وفى حجة الوداع، وهى آخر حجة حجهّا رسول اللّه صلّى عليه وسلم بعد نزول فرض الحج، لأن سورة المائدة مدنية بإجماعٍ من القرّاء، وهى من آخر ما نزل من القرآن باتفاقٍ من الفقهاء، ولم يلبث رسول اللّه صلّى عليه وسلم بعد نزول هذه الآية إلا **ثلاثة أشهر وثلاثة أيام**، اتفق عليه أهل التاريخ، لأنها نزلت يوم **التاسع من ذى الحجة** من آخر يوم عرفة، وقُبض رسول اللّه صلّى عليه وسلم **لاثنتى عشرة خلون من ربيع الأول**، فقال اللّه تعالى بعد نزول الأحكام وإحكام الحلال والحرام **اليوم أكملت لكم دينكم** ،والإكمال هو إتمام الشىء الذى بعضه متعلق ببعض، فلا يقال أكمل لما كان بعضه قبل بعض، فإذا وجد جميعه قيل قد أُكمِل وتُمِم. هذا هو حقيقة هذه الكلمة، فلما كان الإيمان قد تقدّم بمكة وأنزل اللّه تعالى الفرائض والدين شيئاً بعد شىء، وكان الإكمال من الدين دلّ أن بعضه متعلق ببعض إلى أكْمله، فصارت الأعمال متعلقة بالإيمان وهما الدين المُكَمَّل.

وقال بعض السلّف مَن لم يقل من **المرجئة** إن إبليس مؤمن لأنه قد أقرّ بالإيمان وقال به انكسر عليه مذهبه. ولعمرى إن **إبليس** لعنه اللّه موّحد لّه تعالى عارفٌ به، إلاّ أنه لم يعمل بالتوحيد، ولم يطع من عرفه وآمن به فكفر. فأمّا تعلّقهم بقول اللّه تعالى **فأثابهم اللّه بما قالوا جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار** فإنه شرَط القول للجنات، أو علّق الجنات بالقول،

فإنما ذلك إثبات منه تعالى لتحقيق القول وأنه قول إيمان ويقين، وأنهم غير متعوذين بالقول ولا متخذوه جنّة كالمنافقين، إذ المنافقون قد قالوا كقولهم إلا أنه أخبر عن سرائرهم بضده، فقال "**هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم**، فأراد سبحانه بأن قول هؤلاء قول المؤمنين، وأن قولهم إيمان من أعمالهم لأنهم منفردون بالقول دون العمل. وفيه أيضا دليل أن القول الحق من الإيمان، وأنه يستحق عليه ثوابا لأنه من أعمال البرّ بمنزلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، **فإمّا** أنْ يكون فيه دليل أن القول هو الإيمان كله، وأن الإيمان يكون قولاً لايحتاج إلى عمل ، فهذا باطل بالأدلة التى قدمّنا ذكرها من الآى التى شرط الله تعالى فيها الأعمال، ومن قوله فى الكفّار **فإنْ تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم**. وأيضا فإن فى نفس هذه الآية بطلان دعوى المرجئة، لأنّ اللّه تعالى لم يقل فلم يثُبهُم اللّه إلاّ بماقالوا جنات، وإنما قال عزّ وجلّ **فأثابهم اللّه بما قالوا جنات**، فأخبر أنه أجرَهم على قولهم بالحق، كما قال **فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا**، ثم أحكم ذلك وقيّده بقوله تعالى **وما أمروا إلاّ ليعبدوا اللّه مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**"، ولكن هؤلاء كما قال اللّه تعالى **فأمّا الذين فى قلوبهم زيْغ فيتّبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله**، وكما قال **رسول اللّه صلّى عليه وسلم** : إذا رأيتم الذين يتبّعون ما تشابه من القرآن فهم الذين عنَى اللّه تعالى فاحذروهم .. وذلك أن اللّه تعالى قرَن الأعمال بالإيمان فى كل المواضع فلم تقف **المرجئة** مع شىء من هذا البيان والإحكام، فلمّا أجمل القول فى موضع واحد لماَ ذكرناه من السبب تعلقّوا به ووفقوا معه. وقد قال **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** : صنفان لا نصيب لهما فى الإسلام ، وفى لفظ آخر لا ينالهم شفاعتى القدرية والمرجئة... وفى الحديث الغريب طائفتان لا يدخلون الجنة – من قال إن الإيمان كلام. ورواه **حُذيْفة** فقال إنى لأعلم أهل دينيْن فى النار، قوم شرار بلا علم، وقوم فى آخر الزمان يقولون كانوا ألوفاً ضُلاّلاً، نسأل اللّه أن لا يصرفنا عن فهم آياته ولا يبلونا بالكِبر، وأنْ يرينا سبيل الرشد ويوفقنالاتخاذه سبيلا، وأنْ يرينا سبيل الغَىّ ويعصمنا من اتخاذه سبيلاً. كما أخبر بذلك عمّن بلاه به فقال تعالى **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وإنْ يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإنْ يروا سبيل الغَىّ يتخذوه سبيلا الآية.**

ذكر الاستثناء فى الإيمان والإشفاق من النفاق وطريقة السلف فى ذلك

فأما الاستثناء فى الإيمان فإنه سنّة ماضية وفعل الإئمة الراضية على معنى الخوف والتقصير وكراهية التزكية للنفس، لا على وجه الارتياب فى اليقين، ولا بمعنى الشكّ فى التصدّيق، إذ الإيمان مقامات والمؤمنون فيه درجات، ولذلك قال الله تعالى لقوم موصوفين بأعيانهم **أولئك هم المؤمنون حقاً**، فهذا وصفهم بالكمال ومدحهم بخصال الأعمال، ففى دليل خطابه أن ثمّ مؤمنين غير حق. كيف وقد قال **وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون، يجادلونك فى الحق بعد ماتبّين**. وقال سبحانه وتعالى فى وصف آخرين **يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون**. وقال فى نعت الصادقين **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون**. وقال فى مثل وصفهم **ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة** الآية، فذكر عشرين وصفا إلى قوله **أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**، منها الإيثار بالمال على حبه، والوفاء بالعهد، والصبر فى الأمراض والجوع والشدائد، فبعد ذلك شهد لهم بالصدق والتقوى. وقال فى وصف المحبوبين من الموقنين **إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم**. وقال فى نعت عموم المؤمنين **وإنْ تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم، إنْ يسألكموها فيُحفكم تبخلوا ويُخرج أضغانكم**. فشتّان بين من وُصف بالمجاهدة والصدق وبين من نُعت بالخُلْف وعُرّض للمقت، وبين من وُصف بالحق وبين من يجادل فى الحق، وبين من قُبلَ منه المال والنّفس وبين من رُدّ عليه المال ولم يسأله لِمَا عَلِمَ منه من البخل والضغن. واسم الإيمان يجمعهم ومعناه يجتمع عليهم، إلاّ أن مقامات الإيمان ترفع بعضهم على بعض وتفاوت بين بعضهم وبعض. كما قال تعالى **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**. وكقوله **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلاً وعد الله الحسنى**، يعنى الجنة على تفاوت الدرجات فيها، فجمع بينهم فى الدار كما جمع بينهم فى اسم الإيمان، ورفعهم فى الدرجات علواً فى المقامات، كما قال تعالى **هم درجات عند الله، والله بصير بما يعملون**.

وقد روينا فى خبر: الإيمان عُريان، ولباسه التقوى وحلْيته الورع، وثمرته العلم. ففيه دليل

أن مَنْ لا تقوى له فلا لِبْس لإيمانه، ومن لا ورَع له فلا زينة لإيمانه، ومن لا علم له فلا ثمرة لإيمانه، فإنْ اتفق فاسق ظالم جاهل كان بالمنافقين أشبه منه بالمؤمنين، وكان إيمانه إلى النفاق أقرب، ويقينه إلى الشك أميل، ولم يخرجه من اسم الإيمان إلاّ أنّ إيمانه، عريان لا لبسة له، معطلٌ لا كسْبَ له ، كما قال **أو كَسَبَتْ فى إيمانها خيراً** .

والنفاق مقامات، قيل سبعون باباً. **والشرك** مثل ذلك فيها طبقات. وروى عن **النبى صلى الله عليه وسلم** : أربع من كن فيه، فهو منافق خالص، وإنْ صام وصلّى وزعم أنه مؤمن. من إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذاائتمن خان، وإذا خاصم فجَر... وفى بعض هذا الحديث وإذا عاهد غدَر، فصارت خمسا ، فإنْ كانت فيه واحدة منهن ففيه شعبة من نفاقٍ حتى يدعها... وفى حديث **أبى سعيد الخدرى وأبى كبشة الأنمارى:** القلوب أربعة، قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب مُصَفَّح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كالبقلة يمدها الماء العذب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحة يمدها القيح والصديد، فأى المدتَّين غلبت عليه حُكِمَ له بها. وفى لفظ آخر أيهما غلبت عليه ذهب به.

وفى الخبر: الإيمان بضعٌ وسبعون شُعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق... ففى تبعيض أخلاق الإيمان، وفى وجود دقائق الشرْك وشُعَب النفاق، ما يوجب الاستثناء فى كمال الإيمان، لجواز اجتماع الإيمان والنفاق فى القلب، ولوجود شُعَب النفاق، وعدم بعض شُعَب الإيمان من القلب. كيف وقد جاء فى الخبر :أكثر منافقى أمتى قُرّاؤها... والحديث الآخر: الشرك أخفَى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا... وقال **حذيفة** كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلّى عليه وسلم يصير بها منافقا إلى أن يموت. إنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات. وفى حديث **علّى** كرم الله وجهه أن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء، فإذا عمل العبد الصالحات نما وزاد حتى يبيّض القلب كله . وإنّ النفاق ليبدو نُكتةً سوداء، فإذا انتُهكت الحرمات نمت وزادت حتى يسوّد القلب فيُطبَع عليه، فذلك الختم. ثم قال **كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون.** فهذا كله موجب للاستثناء فى الإيمان خشية خفايا الشرك ووجود دقائق النفاق، وخوفاً من الدعوى للحقيقة والكمال، لأن من قال إنى مؤمنٌ حقاً فقد زكّى نفسه وعصَى ربه، لأنّ الله تعالى نهى عن التزكية للنفس، ولأن المُزكّى يعرض نفسه للكذب فى قوله تعالى فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم

بمن اتقى، وبقوله **ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم، بل الله يزكّى من يشاء**، ثم قال تعالى **انظر كيف يفترون على الله الكذب**. وقد قال **إبراهيم عليه السلام** فى تفسير أحد الوجهين من قوله تعالى **ولا أخاف ما تشركون به إلاّ أنْ يشاء ربى شيئا**، أو مثله، قال شعيب **وما يكون لنا أن نعود فيها**، يعنى ملة الكفر، **إلاّ أن يشاء الله ربنا**، ثم علّلا جميعا بسعة العلم وسبق المشيئة به ، فلم يأمنا أن يكونا فى سعة علم الله عز وجل وفى خفّى مشيئته، وهذا هو خوف المكر. وحقيقة المكر معنيان، أحدهما أن يُظهر شيأ ويخفى ضده، والثانى أن يكشف ما كان ستَرَه ويُفشى ماكان أسرّه بعد الطمأنينة والعزة، والأنبياء مع فضلهم ومكانهم يُستثنون فى الكفر خيفة المكر، ولا يُستثنى الضعيف الجاهل فى الإيمان ويغتر بظاهر أمره، بل ينبغى أن يُستثنى فى الإسلام أيضا وفى جميع أعمال البّر، لأن القبول غير العمل، والسابقة غير ماظهر من المعاملة، ولا ينبغى أن يدع الاستثناء فى شىء من الأحوال.

وقال بعض العلماء فى معنى قوله تعالى **وجاءت سكرة الموت بالحق**، قال بالسابقة. وقال بعض السلف إنما يوزن من الأعمال خواتيمها. وكان **أبو الدرداء** يحلف بالله عز وجل ماأحد أمِن أنْ يُسلَب إيمانه إلا سلِبه. ويقال من الذنوب ذنوب تؤخّر عقوبتها إلى سوء الخاتمة، وهذا من أخوف ماخافه العاملون مع قوله تعالى **ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون**، وقيل من الذنوب ذنوب لا عقوبة لها إلاّ سلب التوحيد فى آخر نَفَسٍ، نعوذ بالله تعالى من ذلك. وقيل هذا يكون عقوبة الدعوى للولاية والكرامات للافتراء على الله تعالى. وكان **سهل** رحمه الله تعالى يقول من علامة الأولياء أنهم يُستثنون فى كل شىء، وقال مَن قال أفعل كذا ولم يقل إن شاء الله تعالى سئُل عن هذا القول يوم القيامة، فإن شاء عذّبه ، وإن شاء غفر له. وقد نهى الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يقول شيأ حتى يستثنى، وأمره بالاستثناء إذا نسى فقال تعالى **ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلاّ أنْ يشاء الله**، ثم قال **واذكر ربك إذا نسيت**، أى الاستثناء، أى فاستثن إذا ذكرت، فتأدّب صلّى الله عليه وسلم بذلك أحسن الأدب، فكان يستثنى فى الشىء يقع لا محالة، فروى أنه دخل المقابر فقال السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنّا إنْ شاء الله بكم لاحقون. وقال سبحانه معلماً لعباده الاستثناء، ورادهم إليه بمشيئته وهو أصدق القائلين وأعلم العالمين **لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين**. والاستثناء أصلٌ يُرَدّ إليه مَن عرفه ولم ينكر الاستثناء. والأصل هو أن

يزيد وينقص، فأمّا زيادته بنصّ الكتاب من قوله تعالى **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى**، ومن قوله تعالى **فزادهم إيماناً**، ومايزيد فهو ينقص، لأن معناه موجود فى الكتاب بدليل الخطاب من قوله تعالى **ولا يزيد الظالمين إلا خسارا**، وقوله **وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفرا**. وفى قوله تعالى **وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجْسا إلى رجسهم**، فما يزيد الظالمين إلاّ خسارا ينقصهم رجحانا وربحا، وما يزيدهم إلاّ كفرا ينقصهم إيمانا، وما يكون عليهم عمّى ينقصهم بصيرة، ومايكون لهم رجسا يكون لهم من الطهارة نقصا من قِبَل أن مزيد الشر نقصان الخير، كما أن مزيد الخير نقصان الشر، فإذا ثبت أنّ الإيمان يزيد بالصالحات وينقص بالسيئات وجب الاستثناء فيه، لأن الصالحات درجات يعلو فيها المؤمنون بحُسن الولايات والمجاهدات. قال الله تعالى فى المُجمل من الخطاب **وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، وقال والله ولى المؤمنين**، وقال فى المفسّر **ولكل درجات مما عملوا**، وقال فى مثله **وهو وليّهم بما كانوا يعملون**، وقال **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله**، إلى قوله **وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما**.

وروينا فى حديث **واثلة بن الأسقع** الإيمان يزيد وينقص. وروى ذلك عن جماعة من الصحابة ومَن لا يُحصَى من التابعين. وقيل **لأحمد بن حنبل** رضى الله عنهما مامعنى **الاستثناء فى الإيمان**؟ قال أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قيل نعم. قال فالتصديق بالقول، والاستثناء بالعمل. وقال بعض العلماء أقرب الناس من النفاق من يرى أنه منه برىء. وقال مرة أمنهم له. وقال **عمر مولى** عفرة أقرب الناس إلى النفاق الذى إذا زُكّى بما ليس فيه ارتاح لذلك قلبه، وأبعد الناس منه من يتخوّف أنه لا يُنجيه حقيقة ماهو فيه. وقال **بشر بن الحارث** سكون القلب إلى قبول المدح أضر عليه من المعاصى . وكان **سهل** يقول غفلة العالم السكون إلى الشىء، وغفلة الجاهل الافتخار بالشىء. والسكون عندهم من الدعوى، والدعوى من المعاصى . وقال **حذيفة** اليوم المنافقون أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. كانوا إذذاك يخفونه وهم اليوم يُظهرونه. وقيل **للحسن** إن قوما يقولون لا نفاق اليوم، فقال يا ابن أخى لو هلك المنافقون لاستوحشتم فى الطرقات. وعنه وعن غيره لو نبت للمنافقين أذناب ما قَدِرْنا أن نطأ على الأرض. وسمع **ابن عمر** رجلا يطعن على الحجّاج، فقال أرأيت لو كان حاضراً بين يديك، أكنت تتكلم فيه بما تكلمت الآن؟ قال لا. قال كنا نعُدّ هذا نفاقاً على

عهد رسول اللّه صلّى عليه وسلم. وقال **رسول اللّه صلّى عليه وسلم:** من كان ذا لسانين في الدنيا جُعِلَ له لسانان من نار في الآخرة.. وفي خبر آخر: شرّ الناس ذو الوجهين، يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه.. وقيل **للحسن** إن قوما يقولون لا نخاف النفاق، فقال واللّه لأنْ أكون أعلم أني برىء من النفاق أحبّ إليّ من تلاع الأرض ذهباً.

وقال **الحسن** إنّ من النفاق اختلاف اللسان والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج. وقال رجل **لحذيْفة** إني أخاف أن أكون منافقا، فقال لوكنت منافقا ما خِفْتَ أن تكون منافقاً. إنّ المنافق قدأ أمِنَ النفاق لأن النفاق على ضربين: نفاق ينقل عن الملّة وهو الشكّ في دين اللّه تعالى والردّ لشرع رسول اللّهَ صلى اللّه عليه وسلم، ونفاق لا ينقل عن الملة ولا يُخرج عن الإسلام، ولكنه ينُقص الإيمان، ويُذهب حقيقته، ويطُفىء أنواره، ويحرم مزيده، ويُحبط الأعمال ويوجب المقت والإعراض، وهو الرياء والمداهنة، والتصنّع للخلق والتزين بالحق، وائتلاف الألسنة واختلاف القلوب، وتفاوت القول والعمل، ومخالفة الأمر إلى ما يُنْهَى عنه. واختلاف السرّ والعلانية، وزيادة الظواهر على السرائر. وهذا المعنى من النفاق الذى خافه السلف وكانوا منه على إشفاق. وكان **سهل** يقول المرائي حقا الذى يُحُسن ظاهره حتى لا تُنكر العامة والعلماء من ظاهره شيأ وباطنه خراب، وقد كان **الحسن** وأصحابه يسمّون **أهل البدع** منافقين. وكان **ابن سيرين** وأصحابه يسمونهم **خوارج**. وقال **ابن أبى مليكة** أدركت ثلاثين ومائة، وفي راوية خمسمائة، من أصحاب النبى صلى اللّه عليه وسلم، كلهم يخاف النفاق على نفسه. وقال مرة مامنهم أحد يقول إنّا على إيمان جبريل وميكائيل عليهما السلام.

وقد روينا عن **عليّ وأبي سعيد** قالا الإرجاء بدعة. وقال **أبو أيوب** أنا أكبر من الإرجاء، وأول من أحدث الإرجاء رجل من **أهل المدينة** ذكره. وقال **قتادة** لعن اللّه دينا أنا أكبر منه،وإنما ظهر الإرجاء بعد هزيمة **ابن الأشعث**، يعني في ولاية الحجّاج. وقال **سفيان الثورى** من قال أنا مؤمن عند اللّه فهو من الكذابين، ومن قال أنا مؤمن حقا فهو بدعة. قيل فما يقول؟ قال **قولوا آمنا باللّه، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم** الآية، فقيل **للحسن** أمؤمن أنت؟ قال إن شاء اللّه. فقيل تستثنى يا أبا سعيد في الإيمان؟ فقال أخاف أن أقول نعم فيقول اللّه تعالى كذبت ياحسن، فيحق عليّ الكلمة. وكان يقول ما يؤمنني أن يكون اللّه عز وجل قد اطّلع عليّ في بعض مايكره فمقتني وقال اذهب لا قبلتُ لك عملا أبدا،

فأنا أعمل فى غير معمل . وكان جماعة من أهل العلم يرون السؤال عن قوله أمؤمن أنت ، بدعة، ويقول بعضهم إذا قيل لك أمؤمن أنت، فقل آمنت بالله وكتبه ورسله. وقال **إبراهيم** إذا قيل لك أمؤمن أنت، فقل ماأشك فى الإيمان، وسؤالك إياى بدعة. وروينا عن **الثورى** عن **الحسن بن عبيد الله** عن **إبراهيم النخعى**: إذا سُئلت أمؤمن أنت، فقل لا إله إلا الله . وعن **منصور** عن **إبراهيم** قال سئل **علقمة** أمؤمن أنت ،فقال أرجو ذاك إن شاء الله . وكان **الثورى** يقول نحن مؤمنون بالله وملائكته ورسله، وماندرى مانحن عند الله. وقال بعض العلماء أنا مؤمن بالإيمان غير شاكّ فيه، ولا أدرى أنا ممن قال الله سبحانه **أولئك هم المؤمنون حقا** أم لا. وقال بعض العارفين لو عُرِضت علىّ الشهادة عند باب الدار، والموت، على التوحيد عند باب الحجرة، لاخترت الموت على الشهادة .قيل ولِمَ، قال لأنى لا أدرى مايعرض لقلبى من التغير عن التوحيد من باب الحجرة إلى باب الدار . وقال **أبو سليمان الدارانى** سمعت فلانا، يعنى بعض الأمراء، يتكلم على المنبر بكلام أردت ان أقوم فأنكر عليه، فخشيت أن يأمر بقتلى، فلم يكن بى أن أموت، ولكن خشيت أن يعرض لقلبى التزّين للخلْق بأنى أمُرت بالمعروف على الإمام وقُتلت فى الله عز وجل عند خروج روحى، فكففت عن ذلك. وقال بعض العارفين لو عرفت أحدا على التوحيد خمسين سنة، ثم حالت بينى وبينه سارية، ثم مات، لم أحكم أنه مات على التوحيد، لعلمى بسرعة تقليب القلوب. وقال **منصور بن زاذان** كان الرجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم إذا سئل قال أنا مؤمن إن شاء الله. وقال **أبو وائل** قال رجل **لابن مسعود** لقيتُ ركبا فقالوا نحن المؤمنون، فقال الا قالوا نحن من أهل الجنة .وقال بعض أصحاب **عبد الله** لرجل: أمؤمن أنت؟ قال نعم . فذُكر ذلك **لابن مسعود**، فقال سلوه أمِنْ أهل الجنة أنت؟ فقال أرجو. فقال الا رجيت الأولى كما رجيت الثانية. ونقش ابنٌ لبعض التابعين على خاتمه فلان "**لا يشرك بالله تعالى شيأ**"، فقال أبوه هذا أقبح من الشرك . وقال بعض السلف أقرب الناس من النفاق من يرى انه أبعدهم منه عند نفسه . وفى الخبر **أن رسول الله صلّى عليه وسلم** كان جالساً فى جماعة من أصحابه، فذكروا رجلا ومدحوه، وأحسنوا الثناء عليه، فبينا هم كذلك، إذ طلع عليه الرجل يقطر وجهه ماء من أثر الوضوء، قد علّق نعليه بيديه، وبين عينيه أثر السجود، فقالوا يارسول اللهّ هذا هو الرجل الذى وصفنا لك آنفا، فلما نظر إليه **رسول الله صلّى عليه وسلم** قال : أرى على وجهه سفعة من الشيطان- يعنى ظلمة. فجاء الرجل حتى سلّم وجلس مع القوم،

فقال له النبى **صلّى الله عليه وسلم** : نشدتك الله ! هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك؟ فقال اللّهم نعم. وفى الحديث: من قال إنى مؤمن فهو كافر، ومن قال إنى عالم فهو جاهل، ومن قال إنى فى الجنة فهو فى النار.. وعلّم **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أبا بكر الصدّيق رضى اللهّ تعالى دعاءً قال، قل فيه: اللّهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم... واستغفرك لما لا أعلم. وجاء فى الخبر الشرك فى أمّتى أخفىً من دبيب النمل على الصفا... وكان من دعاء **رسول الله صلى الله عليه وسلم** :إنى أستغفرك لما علمت ومالم أعلم. فقيل له أتخاف يا رسول اللّه؟ قال ومايؤمننى والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء ... وقال الله تعالى **وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون** ، قيل عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات، فلما كان عند الحساب والميزان وجدوها سيآت. **وقيل كانت هذه الآية مبكاة العابدين**. وقيل فى معنى قوله تعالى **وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً**، قيل صدقا لمن مات على الإيمان، عدلاً لمن مات على الشرك، كقوله تعالى **إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية** ، وقال سبحانه **ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون** ، وقال **ينالهم نصيبهم من الكتاب وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص**، وقال **ولله عاقبة الأمور**، وقال **لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله**، فالاستثناء فى الإيمان هو من الإيمان، والاستثناء فى كل شىء من علامة الأولياء، والإشفاق من الشرك والنفاق هو من مزيد الإيمان، لئلا يسكن العبد إلى شىء، ولا يُزكّى نفسه بشىء. وقال **سّرى السقطى** لو أن رجلا دخل إلى بستان فيه من جميع الأشجار، عليها من جميع الأطيار، فخاطبه كل طير منها بلغة، فقال السلام عليك ياولىّ الله، فسكنت نفسه إلى ذلك، كان أسيراً فى أيديها.

الفصل الخامس والثلاثون

فى فضائل أهل السنة والطريقة وطرق السلف من الائمة

السّنّة اسم من أسماء الطريق، وهو اسم للطريق الأقوم. يقال طريق وطريقة، وسُنن وسنّة، وحجة ومحجة، فمن فضائل السّنّة وطريق أهلها التقلل من الدنيا فى كل شىء، والقناعة من الله تعالى بأدنى شىء، والتواضع لله بكل شىء. وفى الخبر فضل العبادة التواضع. وروينا عن **رسول الله صلّى عليه وسلم**: **أربع** لا يوجدن إلا بعجب: التواضع وهو أوّل العبادة، والصمت، وذكر الله تعالى، وقلة الشىء... واعلم أن **التواضع** يظهر بمعان **خمسة**:

بالقول، والفعل، والزىّ، والأثاث، والمنزل. يكون فى المؤمن بعضها، فمن كملت فيه فهو متواضع. **والكِبْر** ضد التواضع، وهو يظهر أيضا بأضداد هذه الخمسة، يبتلى المؤمن ببعضها ويعافى من البعض، فمن كملت فيه فهو متكبّر، وحقيقتها فى القلب، وظاهرها بالأفعال والأقوال.

ثم الورع عن الشبهات والمشكلات من العلوم والأعمال، أنْ يُقدِم عليها بنطق أو عمل، ولا يعتقد نفيها ولا إثباتها خشية أن يكون معتقداً الباطل أو نافياً لحق، بل يكون اعتقاده فيها تسليماً لله عز وجل، ويقول آمنت بحقائقها عند الله تعالى، فذلك تعبُّد من الله عز وجل للمؤمنين فيما تشابه من الأمور، أن يسكتوا أو يسلّموا، وبذلك وصفَ الراسخين فى العلم، وأقسم بنفسه على نفى إيمان مَنْ لم يُسلّم تسليما، وجعل **التسليم** مزيد الإيمان فى قوله تعالى **ومازادهم إلا إيمانا وتسليما**. وفى الخبر: إنما الأمور ثلاثة: أمرٌ استبان رشده فاتّبِعْهُ، وأمرٌ استبان غيّه فاجتنبه، وأمرٌ أُشكِل عليه فكِلْه إلى عالمه. وكذلك **ابن مسعود** يقول: إن لهذا القرآن مناراً كمنار الطريق، فماعرفتم منه فاعملوا به، ومالم تعلموه فكِلُوه إلى عالمه. وكان أيضا يقول: أنتم اليوم فى زمان خَيرُكُم فيه المسارع، وسيأتى عليكم زمان يكون خيرُكم فيه المتبيّن. يعنى لوضوح الحق فى القرن الأوّل، ولدخول الشُبهات فى زماننا هذا فصار الحق غامضا، فكان خيرُ الناس اليوم المتثّبت بالورع، كما أخبر أن خيرهم يومئذ المسارع بالفضل. ومما يدلّك أن الإيمان هو التسليم، كما أن الإيمان هو التصديق أنّ فى قراءة بعض التابعين، منهم **جعفر بن محمد**، وقد رويناه عن **أبى جعفر محمد بن على**، أنهما قرآ **واجعلنا مسلمين لك**، وقرآ أيضا **الذين آمنوا بآيتنا وكانوا مسلمين**، فلولا أنهما بمعنى واحد لم يجْز أنْ يخالفوا المعنى فى المقروء. وكذلك قال **رسول الله صلّى عليه وسلم** فى الأمر المتشابه ، الذى يشبه الحق من جهة، ويشبه الباطل من جهة" لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، ولكن قولوا آمنا بالله وماأُنزل إلينا وما أنزل إليكم". هذا لأن الله سبحانه وتعالى أنزل التوراة فهى حق، ثم أخبر أنهم قد حرّفوا فاحتمل أن يكون مايخبرون به المؤمنين مما أنزل الله تعالى فلا يحل التكذيب به، ولا اعتقادُ نفيه، واحتمل ما يخبرون به المؤمنين أنهم حرّفوا، فلا يحل قبوله، ولا اعتقاد ثبوته، فأمرهم النبى صلّى عليه وسلم بإيقاف ذلك، والإيمان بما أنزل الله تعالى جملة، فإن كان ماأخبروهم حقاً دخل فيه، وإن كان باطلا لم يضرهم، فالمسلّم هو الذى يسلّم مالم يظهر دليله فى العقل، لأجل القدرة والسُنّة والنقل،

كما أن المؤمن هو الذى يصدق بما لم يظهر بمشاهدة العين الإيمان بالغيب ، لأن العقل بصره القلب ، كالعين بصر الجسم ، وقد قال النبى صلى عليه وسلم : رفع القلم عن المجنون حتى يعقل كما قال الله تعالى ليس على الأعمى حرج ، ثم ترك مالا يعنى مما قد كُفِىَ ومما لم يكل إليه من القول والفعل ، لأن الدخول فيما لا يعنى هو التكلف المنهى عنه ، الذى أخبر رسول الله صلىّ الله عليه وسلم أن الأتقياء من أمته براء منه ، وهو يشغل ويقطع عما يعنى ، وفيما يعنى شغل عما لا يعنى لكل فَطِن عاقل ، وهو أصل الحكمة فيما أخبر به لقمان لما سُئل أنى أوتى الحكمة ، قال بشيئين لا أتكلف ما كُفيت ، ولا أضيع ما كلفت فهذا شئ لا يضر جهله ولا ينفع فعله ، ولأنه شئ كتب عليه لم يكن له فيه فضل وإن سُمع منه وظهر به ، ولم يكن له فيه مزيد ، ولا لغيره نفع

ثم كفُّ الأذى فإن ذلك من الورع وكان سهل رحمه الله تعالى يقول : كفُّ الأذى كسب العقل ، واحتمال الأذى كسْب العلم ، والنصيحة للخْلق والرحمة لهم كسب الإيمان .. ومنْ العملَ فى قطع ما قد اعتاد من عاجل حظوظ النفس مما يقطعه عن العمل لأجل الآخرة ، وإعمال النفس وإجهادها ، وأن لا يكون لها معتاد من شهوة تعود على النفس منه منازعة ، فإن العادة جند غالب ، لأجلها تعذرت التوبة ، ولغلبتها رجع العبد عن الاستقامة ، وهى باب من أبواب الهوى ، إلا فيما أمُر به العبد أو نُدب إليه قال أبو سليمان الدارانى إن قَدرتْ أنْ لا يكون لك وقت معتاد فى الأكل تنازعك نفسك إليه فافعل وقال لأنْ أترك لقمة من عشائى أحبُّ إلى من قيام ليلة ، أى لنقص النفس من المعتاد ، والتقلل أيضاً وقال أيضاً ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها . هذا كله خشية إيلاف العادات ، فتنازع النفس إلى الإلف ، فلا يمكن ضبطها لغلبة الوصف . ثم حُسن الصبر على ما أُمر به ، وحُسن الصبر عما نُهى عنه ، فإن ذلك من أفضل الأعمال ، وله فضائل المزيد والكمال وفى حديث أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقِ المحارم تكن من أعبد الناس ، وفى لفظ آخر تكن من أورع الناس ومن أحسن ما سمعته من عظيم المثوبة فى الصبر عن المعصية . كما حدثونا فى الإسرائيليات ، أنّ رجلاً تزّوج امرأة من بلدة وكان بينهما مسيرة شهر ، فأرسل إلي غلام له من تلك البلدة ليحملها إليه، فسار بها يوماً ، فلما جنّه الليل أتاه الشيطان فقال له : إن بينك وبين زوجها مسيرة شهر ، فلو تمتعت بها ليالى هذا الشهر إلى أن تصل إلى زوجها فإنها لا تكره ذلك ، وتثنى عليك عند سيدك فتكون أحظى لك عنده ، فقام الغلام يصلى فقال : يارب إنّ

عدوك هذا جاءني فسوّل لي معصيتك وإنه لا طاقة لي به في مدة شهر ، وأنا أستعيذك عليه يارب ، فأعذني عليه ، واكفني مؤنته . فلم تزل نفسه تراوده ليلته أجمع وهو يجاهدها حتى أسحر ، فشد على دابة المرأة وحملها وسار بها ، قال : فرحمه الله تعالى فطوى له مسيرة شهر ، فما برق الفجر حتى أشرف علي مدينة مولاه ، قال : وشكر الله تعالى له هربه إليه من معصيته فنبأة فكان نبياً من أنبياء بني إسرائيل .

ثم إعداد العدة لما يستقبل إذا كان ذلك من مريدى السعى للآخرة ، والشغل بالنفس والإقبال عليها دون الناس ، فقد وجب ذلك ، والزهد في فضول الشهوات واجتناب كثير من الشبهات ، فقد افتُرض ذلك وقلة الذكر للناس ولأمور الدنيا ، فقد حُسن ذلك ، ومنه غفلة وقسوة للقلب، وكثرة الذكر لله تعالى والتذكير به ، وذكر آلائه ونعمائه ، وحُسن الثناء عليه والمدح له ، وقد كان بعض العلماء يقول مَنْ جالسنا فليجتنب ذكر ثلاث خصال وليقض فيما يشاء يجتنب ذكر الناس فإنهم داء ، ويجتنب ذكر الدنيا فإنها قسوة ، ويجتنب كثرة الطعام فإنها شره وقال عالم آخر من جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده ، فإن كان لابد من ذكر غيره فليذكر الآخرة ، وليذكر الصالحين وكان سهل رحمه الله تعالي ورضى عنه يقول : السُنة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأول السنة الزهد في الدنيا ، لأنهم كانوا زاهدين .. وكذلك جاء الخبر في وصف الفرقة الناجية : من كان على ما أنا عليه وأصحابى ..فقد كانوا على هذه الأوصاف التى ذكرناها فمن كان على ذلك فهو على السُنة فهذه فضائل السنة ، وهو مزيد الإيمان وحسن اليقين .

ذكر عرى الإيمان وجمل الشريعة

قال الله جلّ ثناؤه وصدقت أنباؤه **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتّبعها** فالشريعة اسم من أسماء الطريق ، وهو اسم الطريق الواضح المستقيم الواسع ، وهو وصف لطريق جامع لجوامع المحاج كلها ، كأنه طريق يستوعب ويجمع سائر الطرق . وللطريق أسماء كثيرة ، منها الصراط المستقيم، والسبيل ، والمنهاج ، والمحجة ، والمنسك وجاء من اشتقاق هذا اللفظ أربعة أسماء شارع ومشرَعة وشِرْعه وشريعة ، وهو اسم لأوسعهما وأوعبها لجميع الطرق ، فالشريعة تشتمل على اثنتىعشرة خصلة هى جامعة لأوصاف الإيمان ، أول ذلك الشهادتان وهى الفطرة ، **والصلوات الخمس** وهى الملة،**والزكاة** وهى الطُهْرة ، **والصيام** .

وهو الجُنّة ، **والحجّ** وهو الكمال ، والجهاد هو النصر ، **والأمر بالمعروف** وهو الحُجّة ، **والنهى عن المنكر** وهو الوقاية ، **والجماعة** وهى الألفة ،**والاستقامة** وهى العصمة ، **وأكل الحلال** وهو الورع ، والحب والبغض فى الله وهو الوثيقة ، قد روينا بعض هذه الخصال عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم . وقد جاء نحوها عن **ابن عباس وابن مسعود** رضى الله تعالى عنهما .

ذكر شرط المسلم الذى يكون به مسلما

لا يكون المسلم معتقد البدعة ، ولا مقيمًا على كبيرة ، ولا آكل الحرام ، ولا طاعنا على صالح السلف ، ويكون كافَّ اللسان واليد عن أعراض المسلمين وأموالهم ، ويكون ناصحًا لجميع المسلمين مشفقًا عليهم ، يسّره ما يسّرهم ، ويسوءه ما يسوءهم ، لاسيما لأئمتهم ، داعيا لجملتهم، ويكون مخلصًا لأعماله كلها لله تعالى . وروى عن **النبى صلّى الله عليه وسلم** : والذى نفسى بيده ، لا يسلم عبدٌ حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه . وروى عنه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله تعالى ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم الجماعة فإن دعْوتَهم تحيط من ورائهم ، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال فى زماننا هذا فهو من أولياء الله عز وجل ، وهذا أول ولاية ، وأول نظرة من الله تعالى حامية عاصمة راحمة . وكتب **عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله** : اكتُب إلىّ بسيرة عمر رضى الله تعالى عنه فى الناس ، فإنى أحب أن أسير بها ، فكتب إليه : أما بعد ، فإنك لستَ فى زمان عمر ، ولا لك رجال كرجال عمر ، فإن عملت فى زمانك هذا ورجالك هؤلاء بسيرة عمر ، فأنت خيرٌ من عمر رضى الله تعالى عنه .

ذكر حسن إسلام المرء وعلامات محبة الله تعالى له

من حُسن إسلام المرء أن يكون محبًا للخير وأهله ، مجانبًا للشر وأهله ، مسارعًا إلى ما نُدب إليه أو أمر به إذا قدر عليه ، حزينا على ما فات من ذلك إذا أعجزه ، تاركاً لما لا يعنيه من الأقوال والأفعال ، بريئًا من التكلف وهو اجتناب ما لم يؤمر به ولم يُندب إليه من ترك وفعل ، مصليًا للخمس فى جماعة إذا أمِن الفتنة وسَلم له دينة ، مجتنبًا للغيبة ولذكر الناس ، يحب للكافة ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ، مسارعًا إلى الخيرات ، مسابقاً إلى أعمال البرّ والقربات ، طويل الصمت ، لين الجانب ، ذليلاً للمؤمنين ، عزيزاً على المتكّبرين ، لا يمارى فى الباطل ، ولا يداهن فى الدين ، ولا يبغض على شئ من الحق وإن كان عليه ، أو من أبعد

الناس منه ، ولا يحب على شئ من الباطل وإن كان له أو من أقرب الناس إليه ، كارهًا للمدح ممن يحبه ، قائلاً للنصح ممن يبغضه ، يكون المدح والذم يجريان من قلبه مجرى واحداً ، صدوقًا فيما يضره ، غير متصنع بما يستعجل نفعه ، سريرته أفضل من علانيته ، محتملاً لأذى الخلق ، صابراً على بلائهم ، منفرداً بحاله عنهم ، تاركًا لكثير من مجالسهم واجتماعهم ، خشية دخول الشبهات عليه ، وخوفًا من تغيّر قلبه له ، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال فى زماننا هذا فهو من المريدين للآخرة ، وهذه ولاية ثانية ونظرة ثانية ، ويقال إن أبدال كل قرن على قدر زمانهم ، وفى كل قرن سابقون ومقرّبون .

وقال بعض أهل التفسير في قوله تعالى { **لتركَبُنّ طبقا عن طبق** } ، قال لتركبنّ في كل قرن فى طبقة من الناس على حال لم يكونوا عليه . وأكثر ما قيل فى القرن مائة سنة ، وأقل ما قيل فيه أربعون ، وأوسط ذلك وأعْدَلُه وأشبهه بحمل الأحاديث والأخبار فيه أن القرن سبعون سنة ، وهو قول **عليّ** رضى الله عنه ، لأن رأس المائتين تمام ثلاثة قرون من المبعث ، ونحن الآن فى القرن السادس من أول سنة أربعين وثلاثمائة ، وآخره سنة عشر وأربعمائة ، ويقال إن الشمس تطلع من المغرب بعد القرن السابع وهو رأس الثمانين وأربعمائة . وعلى قول من قال القرن مائة سنة تطلع بعد سبعمائة سنة .

ذكر حق المسلم على المسلم

وهو وجوب حرمة الإسلام على المسلمين ، وذلك عشر خصال مجموعة من ستة أحاديث : حديث **عليّ** رضى الله عنه : للمسلم على المسلم ست خصال واجبة ، وحديث **أبى أيوب الأنصارى**: حق المسلم على المسلم ست خصال ، إنْ ترك منها شيئًا ترك حقًا واجبًا عليه ؛ وحديث **البراء بن عازب** : أمرنا **رسول الله صلى الله عليه وسلم** بسبع ، ونهانا عن سبع ؛ وحديث **ابن مسعود** : للمسلم على المسلم أربع خلال واجبات ؛ وحديث **سعد وأبى هريرة** فى معنى ذلك ؛ وحديث **أنس** : أربعٌ من حق المسلم عليك ـ إلاّ أنه ذكر غير ذلك فاختلفت الألفاظ فى الخصال واتفقت المعانى . وذكر بعضهم فى حديثه ما لم يذكره الآخر ، فجمعنا اختلافهم وعدد جمل الخصال فكانت **عشرة** ، إلاّ ما رواه **أنس بن مالك** رضى الله عنه فإنه حديثٌ غريبٌ مؤكدٌ للخصال وزائدٌ عليها فى الألفاظ نذكره بعدها .

فأما **الخصال العشر** التى كثرت الأخبار بها فهى : أن يسلّم عليه إذا لقيه ، ويحييه إذا

دعاه ، ويُشمتة إذا غطس ، ويعودُه إذا مرض ، ويشهد جنازته إذا مات ، ويبّر قسمه إذا أقسم عليه ، وينصح له إذا استنصحه ، ويحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنه ، ويُحب له ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه . فأماً حديث **أنس** فروينا عن **اسماعيل بن أبى زياد** عن أبّان بن **عيّاش** عن **أنس** ، قال : قال **رسول الله صلى الله عليه وسلم** : أربعٌ من حق المسلم : أنْ تعين محُسنهم ، وأنْ تستغفر لُمذنبهم ، وأنْ تدعو لُمدبرهم ، وأنْ تُحب تائبهم . فهذه الخصال داخلة فى تلك الخصال وجامعة لها فى معنى النصيحة لأخيك ، وفى أن تحب له ما تحب لنفسك . وقد كان ابن عباس يؤكد هذا المعنى خاصةً للمسلم على المسلم ، ويفرضه فرض الحلال والحرام ، ويفسر به قول الله عز وجل { رحماء بينهم } يعني متوادين بينهم ، يدعو صالحهم لصالحهم إذا نظر الصالح إلى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال : اللّهم بارك له فيما قَسَمْتَ له من الخير ، وثبّته عليه وانفعنا به ، وإذا نظر الصالح إلى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال : اللّهم اهْده وتُب عليه واغفر له ، قال ابن عباس هذه الآية من حلالكم وحرامكم .

فهذه الخصال المذكورة جامعة مختصرة فى حُرمة المسلمين ووجوب حق بعضهم على بعض ، لا عذر لأحد منهم فى تركها إلا مَن عذَرته السُنّة ويشهد له العلم ، وبعضها أوكد من بعض ، وأكمل المؤمنين إيمانا أقومهم بها وأسرعهم إليها ، قد كثرت بها الروايات ، وقد كان بعض السلف تركوا منها **ثلاثة** - إجابة الدعوة ، وعيادة المرضي ، وشهود الجنائز ، إلاّ أن هؤلاء اعتزلوا الناس أصلاً وكانوا أحلاس بيوتهم . وقال سهل ما أعلم شيئًا أشد من حقوق الناس . وكان يقول من كفّ أذاه عن الخلق مشى على الماء . وقال أبو يزيد وغيره بغية العقلاء السلامة من الله تعالى، ومن أراد السلامة من الله فليسلم الناس منه ، فمن أراد أنْ يسلم الناس منه فليَبعُد عنهم ولبعضهم فى معناه :

الناسُ بحرٌ عميق	والبُعدُ منهم سلامة
وقد نصحتك فانظرْ	لا تدركنك ندّامه

وقد روينا عن **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه اتقوا الله واتقوا الناس . وعن **ابن عباس** مثلها لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس ، وقال مرة وهل يفسد الناس إلاّ الناس . وقال بعض السلف كلما كثُرت المعارف كثُرت الغرماء ، وكلما أطالت الصحبة توكّدَت الحقوق .

وقال بعض العلماء من عرف نفسه استراح ، ومن عرف الناس تعنّى ، وقد قيل فى معنى قوله **عليه الصلاة والسلام** مداراة الناس صدقة ، قال مداراتهم فى العلوم ومفارقتهم فى العقول ، وفى أحد الوجوه من قوله تعالى { **ادفع بالتى هى أحسن** } ، قال هى المداراة . وفى الخبر عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** مَن أُعطى حظه من الرفق أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن مُنع حظه من الرفق مُنع حظه من الدنيا والآخرة .

ذكر سُننَ الجسد

وفى الجسد **اثنتا عشرة سُنّة** ، وذلك مأخوذ من ثلاثة أحاديث متفرقة ، منها حديث **جبريل** عليه السلام حين استبطأه **النبى صلى الله عليه وسلم** بالوحى ، **خمس** منها فى الرأس وهى المضمضة والاستنشاق والسواك وقصّ الشارب وفَرْق شعر الرأس ، ومنها **سبع** فى الجسد وهى الختان والاستحداد وانتفاض الماء وهو الاستنجاء ونتف الرِّبْط وتقليم الأظافر وغسل البراجم وتنظيف الرواجب ، فأمّا **البراجم** فهى معاطف ظهور الأنامل ، فلم تكن العرب تكثر غسل ذلك لتركها غسل أيديها عُقَيبْ الطعام ، فكان يجتمع فى تلك المكاسر الوَسَخَ ، فأمروا بغسلها ، قال **أبو هريرة** وغيره من **أهل الصُفّة** : كنا نأكل الشواء ، ثم تُقام الصلاة فنُدخل أصابعنا فى الحصباء ، ثم نفركها فى التراب ونكبّر . وقال **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه : ماكنّا نعرف الاثنان على عهد **رسول الله صلى الله عليه وسلم** ، وإنما كانت مناديلنا بواطن أرجلنا . وكنا إذا أكلنا الغَمْر مسحنا بها . ويقال أول ما ظهر من البدع بعد **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أربع : المناخل ، والأشنان ، والموائد ، والشِبَع . فهذه كلها فى شأن الجَوْف ، وهو شَر وعاء مُجَوّف . وأما الرواجب فهى جمع راجبة وهى واحدة الأنامل . ولم تكن العرب يتفق لها الغلمان فى وقت فيقصون أظافرهم ، فوقّت لهم **رسول الله صلى الله عليه وسلم** لقص الأظافر ، ونتفى الإبط ، وحلق العانة ، أربعين يوما ، إلا أنه أمر بتنظيف ما تحت الأظافر لأنه مجمع النَفْث ، وهى الرواجب إلى أن يقصوا أظافرهم . وجاء فى الأثر أن **النبى صلى الله عليه وسلم** استبطأ الوحى ، فلما هبط **جبريل عليه السلام** قال له : كيف ننزل عليكم وأنتم لا تغسلون براجمكم ، ولا تنظفون رواجبكم وقُلْحاً لا تستاكون . مُرْ أُمّتَك بذلك . ويقال لما تحت الأظافر من الوَسَخ الأُفّ ، وهو الذى يقال أُفٌّ وتُفٌّ ، فالأُفّ وسَخ الظفر ، والتُفّ وسخ الأذن . وقيل بل التُفّ كلمة اتّباع للمبالغة فى التأذّى بالقذر المؤذى . ومن ذلك قولهم فى الاتباع جائعٌ

نائع، وعطشان نطشان. وقيل من هذا قول الله تعالى **فلا تقل لهما أف** أى لا تُعبها بما تحت الظُفر من الوسخ. وقيل لا تؤذهما تأذيك بما تحت ظُفرك من الأذى، أو لا تؤذهما بمقدار ذلك.

ذكر ما فى اللحية من المعاصى والبدع المحدثة

اللحية من تمام خَلْقْ الرجل، وبها تَميّز الرجال من النساء فى ظاهر الخلْق. وفى وصف **رسول الله صلّى الله عليه وسلّم** أنه كان كثّ اللحية، وكذلك كان **أبو بكر**، وكان **عثمان** طويل اللحية دقيقها. وكان **علّى** رضى الله تعالى عنه عريض اللحية، قد ملأت ما بين منكبيْه. ويقال إن أهل الجنة مُرْد إلا **هرون أخا موسى** عليهما السلام، فإن له لحية إلى صدره، تخصيصاً له وتفضيلا. وقد روينا من غريب قوله تعالى **يزيد فى الخلق ما يشاء**، قال اللِحَى، وفيه وجوه كثيرة. وذُكِر عن **شريح القاضى** قال وددتُ لو أن لى لحية بعشرة آلاف. وقال بعض الأدباء فى اللحية **خصال نافعة**، منها تعظيم الرجل والنظر إليه بعين العلم والوقار، ومنها رفعه فى المجالس والإقبال عليه، ومنها تقديمه على الجماعة وتعقيله. وقال **أبو يوسف القاضى** مَن عظُمت لحيته جلّت معرفته.

وفى اللحية من خفايا الهوى ودقائق آفات النفوس ومن البدع المحدّثة **اثنتا عشرة خصلة** بعضها أعظم من بعض، وكلها مكروهة. وقد كنا أجملنا ذلك عدداً فى باب آفات النفوس، فأمّا تفسيره فإنّ من ذلك خضَابها بالسواد لأجل الهوى، وتدليس الشيبة وخضابها بالحُمْرة والصُفْرة من غير نيّة تشبّهاً بالصالحين والقرّاء من السنّة، وتبييضها بالكبريت وغيره استعجالاً لإظهار علو السن وستر الحداثة لأجل الرياسة والتعظيم، ليشهد عند الحكام، أو لينفق بذلك حديثه، ويدّعى بالسِن مشاهدة من لم يره، فَعل ذلك بعض المحدثين وبعض الشهود، ومنْ ذلك نتفها أو نتف الشيْب منها تغطية للتكهّل، ومنها تقصيصها طاقةً على طاقة للتزيّن والتصنّع؛ ومن ذلك النقصان منها والزيادة فيها، وهو أنْ يزيد فى شعر العارضيْن من الصدُغ من شعر الرأس حتى يجاوز عظم اللَحْى وذلك هو حد اللِّحية، أو يُنقص من العظمين إلى نصف الخدّ وذلك مُثْلة وهو نقصان من اللحية، ومن ذلك تسريحها لأجل الناس تصنّعاً، أو تركها لأجل الناس شَعثَة مُفَتّلة مُغَبّرة ، إظهاراً للزهد ، أو التهاون بالقيام على النفس لأنه قد عُرِف بذلك؛ ومن ذلك النظر إلى سوادها عُجباً بها وخُيلاً وغِرّةً بالشباب وفخرا؛ ومن ذلك النظر إلى بياضها تكبراً بِكبَر السن، وتطاولاً على الشبان ، فيحجبه نظره إليها عن النظر

إلى نفسه من تعلّم العلم، وتعلّم القرآن الذى لا يسعه جهله، والسؤال عما يجهله استصغاراً لغيره من الشباب، أو حياءً من شيبه أو استنكافاً منه، فيظن بجهله أنّ كثرة الأيام التى بيّضت شعر لحيته أعطته فضْلاً أو جعلت فيه علماً، ولا يعلم أنّ العقل غرائز فى القلوب، وأن العلم مواهب من علاّم الغيوب. ومن كانت غريزته الحُمق وطبيعته الجهل كثُرت حماقته كلما كبُر، وعظمت جهالته إذا أسنّ. وقد رأينا جميع ذلك فى كثير من الناس وهذا كله مُحدَث، وهو يضاهى سُنَن الجسد الاثنتى عشرة فى العدد.

ومما جاء فى جُمَل معانى ماذكرناه من الكراهة أنّ **رسول الله صلّى عليه وسلم** قال: حُفّوا الشوارب، واعفوا اللِحىَ .. فقوله حفوا أى اجعلوها حفافى الشفة أى حولها، لأن حفاف الشىء حوله. ومن ذلك قوله عز وجل "**وترى الملائكة حافّين من حول العرش.**". وكان بعض العلماء يكره حلق الشارب حتى تظهر البشرة ويراه بدعة. وقد كان **مالك بن أنس** وبعض علماء المدينة يقولون حلْق الشارب مُثْلة، إنما هو الأخذ منه حتى يبدُ الإطار، والإطار حروف الشفَة من فوق. وفى الحدّيث لفظة أخرى أحفو الشوارب"، والإحفاء هو الاستئصال والاستقصاء. وهو أبلغ من قوله حفّوا. ومن هذا قوله عز وجل " **إنْ يسألكمُوُها فيحفكم تبخلوا**"، أى يستقصى عليكم. وقد كان كثير من أصحاب رسول الله صلّى عليه وسلم يُحفى شاربه. ونظر بعض التابعين إلى رجل أحفَى شاربه فقال ذكّرتنى أصحاب رسول الله صلّى عليه وسلم، قال فقلت هكذا كانوا يحفون شواربهم؟ فقال نعم، وأشد من هذا كالحلق، وليس الإحفاء إلاّ شبيه به. وقد روِينا فى هذا الحديث ثلاثة ألفاظ أخر وهو **خذوا** من الشوارب فإن رسول الله صلّى عليه وسلم كان يأخذ من شاربه. ورُوِى **قصّوا** الشوارب، **وجزّوا** الشوارب، فهذه الثلاثة بمعنى واحد وهو يقتضى **أخذ بعضه وترك البعض، ليست كالإحفاء .**

وقال المغيرة بن شعبة نظر إلىّ **رسول الله صلّى عليه وسلم** وقد عفا شاربى فقال تعال فقصّهُ لى على سِواك. فهذا نصٌ من فعْله فى أخذ الشارب. وقد رُويت لفظة غريبة طُرّوا الشوارب طراً. **والطرّ** أنْ يؤخذ من فوق الشارب ومن تحته حتى يستدق. والطَرّ الدقيق المستطيل المستخرج من شىء أكثر منه حتى يُحمَل على وصفٍ دونه أو أصغر منه، ومن هذا سميت الطُرّة كأنها مستخرجة من شىء كثير، مجعولة على وصفٍ لطيف. وكان بعض السلف يترك سِباليْه ، وهما طرفا الشارب، ويحفى وسط شاربه. ورُوِى هذا عن **عمر** وغيره. وكذلك

رأيت **أبا الحسن بن سالم** رحمه الله تعالى يفعله.

فأمّا قوله واعفوا اللحى يعنى كثّروها ومن هذا قول اللهّ عز وجل «**حتى عَفَوْا**»، أى كثروا. وفى الخبر أن **اليهود** يعفون شواربهم ويقُصّون لحاهم فخالفوهم.وردّ **عمر بن الخطاب وابن أبى ليلى** قاضى المدينة شهادة رجل كان ينتف لحيته. ونَتْفُ الفَنْيَكين بدعة، وهما جنبتا العَنْفَقة. وشهد رجل عند **عمر بن عبد العزيز** بشهادة وكان ينتف فينكيْه فردّ شهادته. وورد عن **رسول الله صلّى عليه وسلم** النهى عن نتف الشيْب، وقال «هو نور المؤمن»، ونهى عليه السلام عن الخِضَاب بالسواد؛ قال «هو خضاب أهل النار»، وفى لفظ آخر «الخِضاَب بالسواد خضاب الكُفّار» ، وأمر رسول الله صلّى عليه وسلم **أبا بكر** أنْ يغيّر شيب أبيه وقال جنّبه السواد، وقال «هو خضاب أهل النار» . وتزوج رجل على عهد **عمر** رضى الله عنه، وكان يخضّب بالسواد ، فنَصَل خضابه وظهرت شيْبته، فرفعه أهل المرأة إلى عمر فردّ نكاحه وأوجعه ضربا، وقال غرّرت القوم بالشباب ودلّست عليهم شيبتك. وقال **رسول الله صلّى عليه وسلم** «الصُفرة خضاب المسلمين، والحُمرة خضاب المؤمنين» . وكانوا يخضبون بالحناء للحُمرة ، وبالخَلُوق والكَتَم للصُفرة . ويقالُ أوّل من خضّب بالسواد **فرعون** لعنه الله. وقال **سعيد بن جبير** عن **ابن عباس** عن **النبّى صلىّ الله عليه وسلم** يكون فى آخر الزمان قومٌ يُخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة ... وكان **ابن عمر** يقول للحلاّق أبلغ العظمين فإنهما منتهى اللّحيْة ، يعنى حدّها ، ولذلك سميت لحية لأن حدها اللّحْى، فالزيادة على ذلك الحدّ والنقصان منه مُحدَث.

ذكر ماجاء فى فعل بعض ذلك واستحبابه

من العلماء من كان يأخذ من لحيته فى المناسك وغيرها، وإنْ قَبَضَ الرجل على لحيته وأخذ ماتحت القَبْضة فلا بأس ، وقد فعله **ابن عمر** وجماعة من التابعين واستحسنه **الشعبى وابن سيرين،** وكرّهه الحسن وقتاده ، وتركُها عافيةً على خلْقتها أَحَبُّ إلىّ ، وقد كان رسولالله صلّى عليه وسلم، ثم الصالحون بعده ، يسرّحون لحاهم لأجل الدين والسنّة، وتنظيفاً للطهارة ونزع التَفَث من القَمْل وغيره، ولإسقاط شعرٍ ميت إنْ كان هناك. وقد كان من الزهاد من يترك لحيته مُتفتّلة لا يسرّحها شُغلاً عن نفسه. والصدق بعينه حسن، والصدق فى كل شىء حسن. قال بعضهم رأيت **داود الطائى** منفتل اللحية ، فقلت يا أبا سليمان لو

سرّحت لحيتك، فقال إنى إذاً لفارغ. إلا أنّ رسول صلى الله عليه وسلم كان يدهن شعره ويُرجّله غباً وأمر بذلك فقال «وادهنوا غبّا» . وقال ، «من كانت له شعرة فليكرمها» ، ودخل رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال «أمَا كان لهذا دهْن يُسْكِن به شعره» ، ثم قال «يدْخُلُ أحدكم كأنه شيطان» . وقد روينا فى خبر غريب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرّح لحيته فى كل يوم مرتين، وفى خبر أغرب منه قالت **عائشة** رضى الله تعالى عنها اجتمع قوم بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج عليهم ، فرأيته يَطّلع فى الحُبّ لِيُسَوِّى من رأسه ولحيته. وفى الخبر المشهور أنه كان يمشّط لحيته فى كل يوم، وأنّ المِشْط والمِدْرَى لم يكن يفارقه فى سفر ولا حضر. فهذه سنّة العرب المعروفة فيهم ، وكان عليه الصلاة والسلام عليها، وكانت من أخلاقه.

وقد كان الشباب يتشبّهونَ بالكهول تفضيلاً للكهول غير عُجْب بالشباب، ولا فخر بالحداثة. وفى الخبر خير شبابكم من تشّبه بشيوخكم، وشر شيوخكم من تشّبه بشبابكم. وفى الحديث أنّ من إجلال الله تعالى إجلال ذى الشيبة المسلم. وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب ويرون فضلهم بالعلم والدين تواضعاً وإخباتاً لا تكبرًا ولا غلواً . وكان **عمر** رضى الله تعالى عنه يقدّم **ابن عباس** وهو حدَث السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم. وروى عن **ابن عباس** وغيره ما آتى الله تعالى عبداً العلم قط إلا شابا، والخير كله فى الشباب، ثم تلا قوله تعالى «**قالوا سمعنا فتى يذكُرهم يقال له إبراهيم**» ، وتلا قوله سبحانه «**إنهم فتية آمنوا بربهم**» ، وقوله تعالى «**وآتيناه الحكم صبيا**». وقد كان **أنس بن مالك** إذا ذُكِر **رسول الله صلى الله عليه وسلم** قال قُبض وليس فى شعر رأسه وشعر لحيته عشرون شعرة بيضاء، فقيل ولِمَ يا أبا حمزة وقد أسنّ ، قال لم يُشنه الله تعالى بالشيْب، قيل أوشينٌ هو، قال كلكم يكرهه. ويقال إن **يحيى بن أكتم** وَلِىَ القضاء وسنُه إحدى وعشرون سنة، فقال له رجل ذات يوم وهو فى مجلسه يريد أن يحشمه بذلك : كم سن القاضى أيّده الله تعالى ؟ فقال مثل سن **بن أسَيْد** حيث ولاّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة مكة وقَضاءها، فأفحمه. وروينا عن **مالك بن مغول** قال قرأت فى بعض كتب الله عز وجل لا تغرنّكم اللحى فإن التّيْس له لحية. وقال بعض الأدباء كلما طالت اللحية تشمّر العقل. وقال **أبو عمرو بن العلاء** إذا رأيته طويل القامة صغير الهامة عريض اللحية فاقض عليه بالحُمق ولو كان **أمية بن عبد شمس**. وقال **معاوية** رحمه الله تعالى يتبين حُمق الرجل من طول قامته، وعِظَم لحيته

وفى كُنيته، ونَقْش خاتمه. وكان **إبراهيم النخعى** ومثله من السلف يقول عجبت لرجل عاقل طويل اللّحية كيف لا يأخذ من لحيته فيجعلها بين لحيتين، فإنّ التوسط فى كل شىء حَسَن. وأُنشدت لبعض الظرفاء:

لا تعجـبن بلـحيـة ❊ كـبرت منابتها طويلـه
يهـوى بها عصـف الـريا ❊ ح كأنها ذنب الحسيـله
قـد يدرك الـشرف الـفتى ❊ يومـا ولحيته قليلـه

وأنشد لبعض العرب:

لعمرك ما الفتيان أن تنبُتَ اللحى ❊ ولكنما الفتيان كل فتى نـدى

ولم يكن الأشياخ يستنكفون أن يتعلموا من الشباب ماجهلوا، ولا يزرون عليهم لصغر سنهم، إذ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، لا مانع لما أعطى الله من صبىٍ أو غيره، ولا مُعطى لما منع الله من كبيرٍ أو غيره. وقال **أبو أيوب السختيانى** إنى أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه، فيقال له تتعلم من هذا ، فيقول نعم أنا عبده مادمت أتعلم منه. وقال **علىّ بن الحسن** مَن سبق إليه العلم فهو إمامُك فيه وإنْ كان أصغر سناً منك. **وقيل لأبى عمرو بن العلاء** أيحسُن للشيخ الكبير أن يتعلم من الصغير، فقال إنْ كانت الحياة تحَسُن به فإنّ التعلم يَحسُن به، فإنه يحتاج إلى العلم مادام حيا. وقال **يحيى بن معين لأحمد بن حنبل** وقد رآه يمشى خلف بغلة **الشافعى** رضى الله تعالى عنه، يا أبا عبد الله تترك حديث سفيان بِعُلوٍ وتمشى خلْف بغلة هذا الفتى وتسمع منه، فقال أحمد لو عرفت منه ما أعرف لكنتَ تمشى من الجانب الآخر، إنّ علْم سفيان إنْ فاتنى بعلو أدركته بنزول. وإنّ عقل هذا الشاب إنْ فاتنى لم أدركه بعلو ولا نزول. وسمعت **أبا بكر بن الجلاء** يقول إنى لأرى الصبى يعمل الشىء فاستحسنه فاقتدى به فيكون إمامى فيه، وما رأيت أشد تواضعا منه على علمه وزهده. فأمّا معنى الخبر الذى روى لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم عن أكابرهم، فإذا أتاهم عن أصاغرهم هلكوا ، فإنّ **ابن المبارك** سُئل عن معنى ذلك فقال أصاغرهم أهل البدع لأنه لا صغير من أهل السنّة ممن عنده علم، ثم قال كم مَن صغير السن حَمَلْنا عنه كبير علْم. وقد قيل إنّ قوله عن أكابرهم يعنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا مواطىء للخبر الآخر لا تزال أمتى بخير مادام فيهم من رآنى، ولَيأتّين عليهم

زمان يُطلَب فى أقطار الأرض فلا يوجد أحد رآنى. كيف وقد جاءت بذلك لفظة ذكرتها لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أكابرهم، فإذا أتاهم عن أصاغرهم استعصى الكبير على الصغير فهلكوا، أى فذلك خشية أنْ لا يتعلم منه لما ذكرنا من الحياء والتكبّر والاستنكاف. ووجه آخر هذا مجازه عندى على الخبر لا على الذم، لأنه قد جاء فى الأثر وصف هذه الأمة فى أوّل الزمان يتعلم صغارها من كبارها، فإذا كان آخر الزمان تعلّم كبارهم من صغارهم، فإذا كان كذلك فهذا تفضيل الأصاغر وتشريف هذه الأمة على سالف الأمم، لأنهم لم يكونوا يحملون العلم إلاّ عن القسيسين والرُهبان والأشياخ العُبّاد والزُهّاد. وأخبر أن هذه الأمة فى آخر الزمان تفضل سالف الأمم فى أول أزمنتهم، بأنْ يتعلم الكبير من الصغير كما فضّلهم الله تعالى به. فذلك أشد وطأً للخبر الآخر أمتى كالمطر لا يدرى أوّله خير أم آخره. ولمثله من الشاهد كيف تهلك أمةٌ أنا فى أولها والمسيح ابن مريم صلّى الله عليه وسلم فى آخرها. وقد روينا فى الخبر لا تحقّروا عبدا آتاه الله تعالى علماً فإن الله تعالى لم يحقّره أنْ جعل العلم عنده. وكان **شُعبة** يقول مَن كتبتُ عنه حديثا أو تعلمتُ منه علما فأنا عبده. وقال مرة إذا كتبت عن الرجل سبعة أحاديث فقد استرقّنى. فأمّا الخضاب بالسواد فقد يُروى أن بعض العلماء ممن كان يقاتل فى سبيل الله تعالى كان يخضب بالسواد، ولكن لم يكن هذا يخضب به لأجل الهوى وتدليس الشيْب، إنما كان يعد هذا من إعداد القوة من العدة لأعداء الله تعالى، بمعنى قول الله عز وجل «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**»، وإظهار الشباب من القوة، وقد رمل رسول الله صلى الله عليه وسلم واضطجع هو أصحابه ليراهم الكفّار فيعلموا أن فيهم جَلَدا وقوة، ومن صنع شيأً بنيّة خالصة صالحة يريد بذلك وجه الله تعالى، وكان عالماً بمذهب له ذهب إليه فهو فاضل فى علمه وفعله، وإنْ كان ذلك من أدْون أعماله لم يتبّع أنْ يُستّن به فيه، لأنا روينا عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** مِن شرّ الناس منزلةً من يقتدى بسيئة المؤمن ويترك حسنته، فأخبر أنّ للمؤمن سيئة، وأن من شرّ الناس من تأسّى بها معذرةً لنفسه فى هواها.

باب ما ذكر من نوافل الركوع وما يكره من النقصان منه

قال الله سبحانه وتعالى «**ومن الليل فسبّحه وإدبار النجوم**»، وروينا عن **علّى** رضى الله تعالى عنه أنه فسرّه قال ركعتا الفجر. وكذلك فسرّ قوله تعالى «**ومن الليل فسبّحه**

وإدبار السجود» ، قال ركعتا المغرب، وهذا على قراءة من كَسَر الألف، فأمّا من نصبها فإن معناه أدبار الصلوات أى أعقابها وأواخرها. والتسبيح اسم الصلاة النافلة لكون التسبيح فيها، وتسمّى النافلة سُبْحة، فمن سُنَن الركوع واستحبابه أدبار الصلوات وقبلها الذى لا استحبُّ ترك شيء منه، وبعضه أوكد من بعض، **سبع عشرة** ركعة مجموع من خمسة أحاديث : حديث **علّى** رضى اللّه تعالى عنه أنه سُئل عن صلاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بالنهار فقال **ست عشرة** ركعة، وحديث **ابن عمر** حفَظتُ من رسول اللّه صلى اللّه عليه **عشر** ركعات، وحديث **أبى أيوب الأنصارى** فى الصلاة قبل الظهر، وحديث **أنس بن مالك وعائشة** فى الصلاة بعد العشاء الآخرة وفى الوِتر، وخبر **أم حبيبة** الوارد بالفضل مِن العدد مَن صلّى فى يوم **إثنتى عشرة** ركعة غير المكتوبة بنى اللّه تعالى له بيتاً فى الجنة، وخبر غريب رواه أهل البيت مواطىء لبعض ما ذكرناه أنّ اللّه تعالى فرض عليكم فى اليوم والليلة **سبع عشرة** ركعة، وسننتُ لكم مثلَها، أول ذلك **ركعتا** الفجر وهما سنّة مؤكدة، **وأربع** قبل الظهر وهنّ مستحباتٌ مؤثَّرةٌ فى الاستحباب، **وركعتان** بعدها وهما سنة، **وأربع** قبل العصر ، رجاء أن يدخل فى دعوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم، **وركعتان** بعد المغرب وهما سنّة مؤكدة، **وثلاث** ركعات الوِتْر مؤكدة. فأما حديث **علّى** رضى اللّه عنه فإنه ذكر من صلاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم شيئاً لم يذكره غيره، أنّه صلّى اللّه عليه وسلم كان يصلى الضحَى **ست** ركعات فى وقتين – إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام فصلّى ركعتين، وهذا هو الإشراق وهو الورد الثانى من النهار، وإذا انبسطت الشمس وكانت فى رُبْع السماء من المشرق، ومثلها حين تكون فى ثلاثة أرباع السماء من صلاة العصر صلّى **أربعا**، وهذا هو الضحى الأعلى والورد الثالث من النهار. والمواظبة على هذه الصلاة بمراعاة هذين الوقتين مَن عزائم الأعمال وفواضلها. وذكرتْ **أم هانئ** أخت **علّى** رضى اللّه عنه أنه صلّى الضحى **ثمانى** ركعات أطالهن وحَسّنهن ، ولم ينقل هذا العدد غيرها. وأما **عائشة** رضى اللّه تعالى عنها فإنها ذكرت أنه صلّى اللّه عليه وسلم كان يصلى الضحى **أربعا** ويزيد ماشاء اللّه فلم تحدّ. وقد روينا فى حديث منفرد أنّ النبى صلى اللّه عليه وسلم كان يصلّى الضحى **ست** ركعات. وقد روى **أبو أيوب الأنصارى** عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم شيئاً تفردّ به أنه لم يكن يدع أنْ يصلى **أربعا** بعد الزوال وقبل صلاة الظهر، يقرأ فيهن بمقدار سورة البقرة، قال فسألته عن هذه الصلاة، فقال إنّ أبواب السماء تُفَتح هذه الساعة ويُستجاب الدعاء، فأنا

أحب أنْ يُرفَع لى فيها عمل صالح. وقد جاء فى حديث **أم حبيبة** زوج النبى صلّى الله عليه وسلم مفسّراً مَن صلّى فى يومٍ اثنتى عشرة ركعة غير المكتوبة بنى الله له بيتا فى الجنة، ركعتين قبل الفجر، وأربعا قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين قبل العصر، وركعتين بعد المغرب. ورواه **ابن عمر** فى حديثه: حفظتُ من رسول الله صلى عليه وسلم فى كل يوم عشر ركعات ... فذكرها، إلاّ قوله وركعتين قبل الفجر فإنه قال تلك الساعة لم تكن ندخل فيها على رسول الله صلى عليه وسلم، ولكن حدثتنى أختى **حفصة** أنه كان يصلى ركعتين فى بيتها ثم يخرج. وقال فى حديثه ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعد العشاء. وقالت **عائشة** كان رسول الله صلى عليه وسلم يصلى بعد العشاء الأخيرة أربع ركعات ثم ينام. وقال **أنس بن مالك** كان رسول الله صلى عليه وسلم يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات، يقرأ فى الأولى **سبّح اسم ربك الأعلى**، وفى الثانية **قل يا أيها الكافرون**، وفى الثالثة **قل هو الله أحد**. وقد جاء فى خبر أنه كان يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا، وفى بعضها متربعا، وفى بعض الخبر إذا أراد أن يدخل فى فراشه زحف إليه وصلّى فوقه ركعتين قبل أن يرقد، يقرأ فيهما **إذا زلزلت الأرض** وسورة **ألهاكم التكاثر**، وفى رواية أخرى **وقل يا أيها الكافرون**. فإنْ أضْعفَ العبد هذه السبع عشرة ركعة فجعلها أربعا وثلاثين يداوم عليها ويجعلها وِرده من الصلاة فهو أفضل، وهذا مذهب أهل البيت، واحتّجوا فيه بخبر رووه عن **رسول الله صلى عليه وسلم** أنه قال – فرض الله تعالى على أمّتى فى اليوم والليلة سبع عشرة ركعة، وسننتُ لهم مثلهما – وإنْ كان الحفّاظ من أهل النقل يضّعفون هذا الحديث إلا أنه قال عليه الصلاة والسلام – الصلاة خير موضوع، فمن شاء أكثر، ومن شاء أقل. وقال بين كل أذان وإقامة صلاةٌ لمن شاء. فإن فعل ذلك وراعاها على ما يرتبه فهو مقارب لماذكرناه آنفا من السنن . والاستحباب قبل الصلوات الخمس وبعدها **ركعتان** قبل الفجر، **وأربع** من الضحى، **وأربع** قبل الظهر، وأربع بعدها، **وأربع** قبل العصر، **وست** بعد المغرب، **وأربع** قبل العشاء ، **وست** بعدها، ثم يوتر بواحدة. فهذا حينئذ نحو ما رسمناه وهو مُشْبِهٌ لما نقلنا من الآثار، وليستند إلى الخبر المأثور وإلى فعل أهل البيت. وأكثر ماروى من صلاته بين العشاءين مما نقل عدده **ست** ركعات. وأكثر ما روى من صلاة الضحى **ثمانى** ركعات. ومن صلاته بالليل **ثلاث عشرة** ركعة. إلاّ حديثا مقطوعا موقوفا على **طاوس** رواه **ابن المبارك** أنّ رسول الله صلى عليه وسلم كان يصلى من الليل **سبع عشرة** ركعة فهو حديث شاذ ، وسائر الأخبار المسْندة عن **ابن عباس**

وعائشة وميمونة وأم حبيبة إنما هى إحدى عشرة ركعة وثلاث عشرة ركعة. وأستحبُ أنْ يصلى العبد قبل كل صلاة أربعا وبعدها أربعا، إلاّ مالا صلاة قبلها ولا صلاة بعدها، ثم يزيد بعد ذلك ما قسم اللّه تعالى له، وأنْ يصلى الضحى ثمانى ركعات ويواظب عليهن، إذا أنشط أطالهن، وإذا أفتر قصّرهن، فإنّ المداومة على العمل عملٌ ثان وهو من أفضل الأعمال وأحبّه إلى اللّه تعالى، وإلاّ اقتصر على أربع يديمهن. ولا أكره أن يصلى قبل المغرب ركعتين بعد غروب الشمس ، فقد قال أنس بن مالك كان اللُباب من أصحاب رسول اللّه صلى عليه وسلم يصلّون ركعتين قبل المغرب، وكان أبىّ بن كعب وعبادة بن الصامت وأبو ذر وزيد بن ثابت وغيرهم من أكابر أصحاب رسول اللّه صلى عليه وسلم يصلونها. وقال عبادة أو غيره كان المؤذن إذا أذنّ لصلاة المغرب ابتدر أصحاب رسول اللّه صلى عليه وسلم السوارى يصلّون ركعتين. وقال أيضا بعضهم كنا نصلّى ركعتين قبل المغرب، وذاك داخل فى عموم قوله صلى اللّه عليه وسلم بين كل أذانين صلاة لمن شاء، وقد كان أحمد بن حنبل رحمه اللّه تعالى يصليهما فعابهما الناس عليه، وقال مرة لم أر الناس يصلونهما فتركتهما، وقال إنْ صلاّهما الرجل فى بيته أو حيث لا يراه الناس فحسن ، وذلك أستحب.

الفصل السادس والثلاثون

فى شرح الكبائر التى تحبط الأعمال وتوبق العمال وتفصيل ذلك ومنازل أهلها فيها ومسئلة محاسبة الكفار

قال اللّه تعالى« إنْ تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيآتكم»، فاشترط لتكفير الصغائر من السيآت اجتناب الكبائر الموبقات. وقال صلى اللّه عليه وسلم الصوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفّر ما بينهن لمن اجتنب الكبائر، وفى لفظ آخر كفّارات لما بينهن إلاّ الكبائر، فاستثني من كفّارات الذنوب الكبائر، فاختلف العلماء من الصحابة والتابعين فى الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك، فكان ابن مسعود يقول هن أربع، وكان ابن عمر يقول الكبائر سبع، وقال عبد اللّه بن عمرو هن تسع، وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر أنّ الكبائر سبع يقول هى إلى سبعين أقرب منها إلى سبع، وقال مرة كل ما نهى اللّه تعالى عنه فهو من الكبائر، وقال هو وغيره كل ماتوَعّد اللّه تعالى عليه بالنار فهو من الكبائر، وقال بعض السلف كل ما أوجب الحدّ فى

الدنيا فهو كبيرة. والصغائر عندهم من اللمَم وهو مالا حدّ فيه ومالم يُتهدد بالنار عليه، فقد روى هذا عن **أبى هريرة** وغيره . وقيل إنها مبهمة لا يُعرف حقيقة عددها، كإبهام ليلة القدر، وساعة يوم الجمعة، والصلاة الوسطى، ليكون الناس على خوف ورجاء فلا يقطعون بشىء ولا يسكنون إلى شىء، وقد قال **ابن مسعود** فيها قولاً حسناً من طريق الاستنباط وقد سئل عن الكبائر، فقال إقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله «**أنْ تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيآتكم**» ، فكل ما نهى اللّه تعالى عنه من أول السورة إلى هاهنا فهو من الكبائر، فأشْبَه هذا استدلال قول **ابن عباس** فى استنباط ليلة القدر أنها ليلة سبع وعشرين، أنّه عدّ كَلِم سورة القدر حتى انتهى إلى قوله هى فكان سبعا وعشرين كلمة، واللّه أعلم بحقيقة هذين القولين، والذى عندى فى جملة ذلك مجتمعاً من المتفرق **سبع عشرة**، تفصيلها **أربعة** من أعمال القلوب وهن: الشرك باللّه تعالى، والإصرار على معصية اللّه تعالى، والقنوط من رحمة اللّه تعالى، والأمن من مكر اللّه تعالى، **وأربعة** فى اللسان وهن: شهادة الزور، وقذف المحصن ، وهو الحر البالغ المسلم ، واليمين الغَمُوس ، وهى التى تُبطل بها حقاً وتحق بها باطلاً، وقيل هى التى يُقطَع بها مال مسلم ظلما، وسميت غموسا لأنها تغمسه فى غضب اللّه تعالى. وقيل لأنها تغمس صاحبها فى النار، والسِحْر ، وهو ماكان من كلام أو فعل يقلب الأعيان أو يغيّر الإنسان ، وينقل المعانى عن موضوعات خَلْقها، والسَحَرة هم النفاثات فى العُقَد الذين أمر اللّه تعالى بالاستعاذة منهم . **وثلاثة** فى البطن ، وهى شرب الخمر ، والسُكر من الأشربة ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم . **واثنتان** فى الفرج ، وهما الزنا ، وأن يعمل عمل قوم لوط فى الأدبار . **واثنتان** فى اليدين ، وهما القتل والسرقة. **وواحدة** فى الرجلين وهى الفرار من الزحف. **وواحدة** فى جميع الجسد وهى عقوق الوالدين . وتفسير العقوق جملةً أنْ يقسما عليه فى حقٍ فلا يبرّ قسَمهما، وأن يسألاه فى حاجة فلا يعطيهما، وأن يأمناه فيخونهما، وأنْ يجوعا فيشبع ولا يطعمهما. وذكر **ابن منبه اليمانى** أصل البرّ بالوالدين فى التوراة أن تقى مالهما بمالك وتؤخر مالهما، وتطعمهما من مالك. وأصل العقوق أنْ تقى مالك بمالهما، وتوفر مالك وتأكل مالهما.

وفى حديث **أبى هريرة** الصلاة إلى الصلاة كفّارة، ورمضان إلى رمضان كفّارة، إلاّ من **ثلاثة**: إشراك باللّه، وترك السنّة، ونكث الصفقة أنْ تبايع الرجل ثم تخرج عليه بالسيف تقاتله. وقد روينا عن **أبى هريرة** قال قال **رسول اللّه صلى عليه وسلم** «من الكبائر

استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم بغير حق، ومن الكبائر السُبّتان بالسُبّة»، وأما **عبادة بن الصامت وأبو سعيد الخدرى** وغيرهما من الصحابة فكانوا يقولون إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى عليه وسلم من الكبائر، وهى فى بعض الألفاظ من الموبقات.

والذى ذكرناه من الخصائل هو من أوسط الأقوال وأعدلها، وهو ما اتفقوا عليه وكثرت الأخبار فيه، فهذه الكبائر الموبقات التى من اجتنبها كفّرت عنه السيآت وثبّتت له النوافل من الفرائض الخمس التى هى أبنية الإسلام، وذلك أنْ دعائم الإسلام وهذه الكبائر قرينان يعتلجان، ويتقاومان فى العظم والمعنى بالتضاد، فالكبائر كبرت فكفّر اجتنابها ما دونها من الصغائر. والفرائض الخمس التى هى أبنية الإسلام إذا تُممت كفّرت مابعدها من السيئات وثبّتت للعبد نوافله وبدّلت سيآته حسنات. قال الله تعالى «**إنْ تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيآتكم**» ، وقال من بعد الكبائر «**إلاّ من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدّل الله سيآتهم حسنات**» . وقال **رسول اللهّ صلّى الله عليه وسلم** «الصلوات الخمس كفّارات لما بينهن ما اجتنُبت الكبائر» ، فالفرائض الأربع التى هى أبنية الإسلام منوطة بالصلوات الخمس لا تصح إلاّ بها، كالشىء الواحد بمنزلة الأربع، فالصلوات مرتبطة بالشهادتين، إنْ تَركَ خصلة منها كان كتَرْكِ الخمس ، لأنها أسّ الإسلام وأبنية الإيمان . واجتناب الكبائر منوط بالشهادتين لا يقع جميع ذلك إلا بهما، فإذا انتُهكت الكبائر أحبطت الأعمال الفرائض الخمس، وهو الذى حذّر الله تعالى المؤمنين عنه قال «**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**» . ومنه قوله تعالى «**بَلَى مَن كسب سيئة وأحاطت به خطيئته**» ، قيل هى الكبائر أحاطت بجميع حسناته فمحقتها. وعلى الوجه الآخر «**وأحاطت به خطيئته**» هى الشرْك الذى خُتِم له به فلم ينفعه عمل كان قبله، فإنْ قصّر فى الفرائض الخمس التى هى مبانى الإسلام إلا أنه مجتنبُ الكبائر كُفّرت عنه سيآته كلها، وتُممّت فرائضه بسائر نوافله ، لأنها ثابتة له بعد أنْ يحصل له صحة التوحيد ويسلم من كبائر البدع التى تنقل عن الملة. وهذا ممن استوت حسناته وسيآته فيطول وقوفه للحساب ،ويُجعل من أصحاب الأعراف بين الجنة والنار إلى أنْ يتفضل الله تعالى عليه بفضل رحمته، فإنْ سَمَح له مولاه فعفا عنه سقط عنه هذا كله وأُدخل الجنة فى أصحاب اليمين، فإنْ لم يكن له نوافل مع نقصان فرائضه لم يبق له من أعماله إلاّاجتناب الكبائر، فيوزن ما بقى من عمله

وهو اجتنابه الكبائر بفرائضه النواقص، فإنْ رجح اجتناب الكبائر مثقال ذرة أو فضلت له حسنة واحدة ضاعفها الله تعالى بالمزيد ، وتجاوز عن سيآته فى أصحاب الجنة ، ولم تكن له مقامات المقربين ولا درجات السابقين، وهو ممن قال الله سبحانه وتعالى **«إن اللهَّ لا يظلم مثقال ذرة ، وإنْ تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدّنه أجراً عظيما»**، يعنى الجنة. وإنْ خفّ إضاعته الفرائض لسُنّته كان من الموقنين للحساب الطويل واحتاج إلى شفاعة الشافعين، فإنْ كان فرائضه الخمس ناقصة وكان مرتكبا للكبائر فهو من الهالكين لأنه ممن خفّت موازينه من المؤمنين، وهذا من المسرفين هم أصحاب النار، فيدخل النار لنقص إسلامه ولوفور سيآته عليه إذ لم تمحها حسناته، إلاّ أنه لا يكون من المخلّدين لصحة توحيده، وعلى أنه أول من يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان، فهو فى أول طبقة يخرج، هذا إلى زنة شعيرة، إلى ذرة من إيمان، وهؤلاء آخر الطبقات خروجا، إلى أنْ يبدو لبعضهم من الله تعالى مالا يحتبسه ويظهر له غدا ما لا يعلمه ، فيعفى عن البعض ولا يُجعل ممن حقّ عليه الوعيد لما سبق له من الكلمة الحسنى، ويتجاوز عن سيآتهم في أصحاب الجنة.

وقد جاء فى الخبر إنّ العبد ليوقَف بين يدّى الله عز وجل وله من الحسنات أمثال الجبال ، لو سلمت له لكان من أهل الجنة، فيقوم أصحاب المظالم، فيوجد قد سبّ عِرض هذا، وأكل مال هذا، وضرب هذا، فيُقصّ من حسناته حتى لا تبقى له حسنة، فيقول الملائكة ياربنا قد فنيت حسناته وبقى طالبون كثير، فيقال ألقوا من سيآتهم على سيآته وصكّوا له صكّا إلى النار. وقد جاء فى العِلم إنّ آخر من يبقى فى جهنم من الموّحدين سبعة آلاف سنة. وروينا عن **أبى سعيد الخدرى** وغيره من الصحابة وفيه شدة ، قال والله لا يخرج عبد من النار بعد أن دخلها حتى يقيم فيها سبعة آلاف سنة ، وهذا والله أعلم آخر من يخرج من النار، لأنهم يخرجون زُمُراً متفاوتون من اليوم والجمعة والشهر والسنة إلى ستة آلاف سنة، فأكثرهم إيمانا أقلّهم مقاما، وأقلّهم مُكثا أولهم خروجا. أما أول زمرة تخرج مّن فى قلبه مثقال من الإيمان ، فهذا أقلهم لبثا وأسرعهم خروجا، إلى شعيرة إلى ذرة ، فهؤلاء أقلهم إيمانا، وأنقصهم توحيدا، وأعظمهم جُرما، وأشدّهم على الله عتّياً ، وهم أكثرهم مقاما.

ومجمل ماذكرناه أن أكثر ما يوبق الناس من الكبائر المظالم، وأكثر ما يدخلهم النار ذنوب غيرهم إذا طُرِحت عليهم، وكثير يدخلون الجنة بحسنات غيرهم إذا طُرِحت عليهم لأنها

صحيحة ثابته، وقد تبطل حسناتهم لدخول الآفات عليها.

فى الحديث ذنبٌ يُغفَر وذنب لا يُترك، فالذنب الذى يُغفَر ظلمك نفسك، والذنب الذى لا يُترك مظالم العباد، **والتوبة** طريق الكل، والرحمة تسعهم، وباب التوبة مفتوح للكافة إلى طلوع الشمس من مغربها، وكل عبد توبته متقبلة ما لم تبلغ الروح الحلقوم ولم يعاين الملائكة، فإذا بلغت الروح التراقى وعاينت الأملاك غُلق عليه باب التوبة ومات على الإصرار، فإن مات عن غير توبة كان ممن قال الله عز وجل «**وحيل بينهم وبين ما يشتهون**» ، قيل التوبة، ولما قال تعالى «**وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن**» وهو الوقت الذى قال الله عز وجل «**يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين**» ، وهو الذى خوّف منه فى قوله تعالى «**هل ينظرون إلاّ أنْ تأتيهم الملائكة**» ، يعنى عند الموت، وهذا لأهل المعاينة، «**أو يأتى ربك**» يعنى يوم القيامة وهذا لأهل البرزخ، «**يوم يأتى بعضُ آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل**» ، أى من قبل المعاينة ، «**أو كسبت فى إيمانها خيرا**» ، قيل التوبة، وهو الوقت الذى قال الله «**فلما رأوا بأسنا**»، يعنى كشْف الغطاء، «**قالوا آمنا بالله وحده وكَفَرنا بما كنا به مشركين، فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا، سنّة الله التى قد خلَت فى عباده**» ، يعنى طريقته وشأنه الذى مضى فى الخلق لا تبديل له، «**ولن تجد لسنّة الله تبديلا**» . وحُكم العباد كلهم فى المعاد إلى الله عز وجل، إنْ عذّبهم فبما اكتسبوا ويعفو عن كثير، وإنْ شاء أنْ يغفر لهم وهو الغفور الرحيم.

وقد يتفاوت الناس فى جميع ماذكرناه من أداء الفرائض، ومن ارتكاب المعاصى والعرف والتخلّق بأخلاق النفس ، من عادات أبناء الدنيا وعُرف معاشرتهم فيما بينهم، فإنّ ذلك حال الغافلين ومقام الجاهلين، غير محمود العاقبة ولا مغبوط الخاتمة. ولا يترك العمل الصالح أيضا خشية دخول الآفة، ولا يدَعه إنْ كان داخلاً فيه، لكن يكون على نيته الأولى من جهة القصد، فإنْ دخلت عليه علّة وضَع عليها دواءها فعمل فى نفيها وإزالتها ، وثبت على حُسن نيته وصالح معاملته. ولا يدع عملا لأجل الخَلق حياءً منهم وكراهة اعتقادهم فضله، لأن العمل لأجل الناس شرك، وتركه لأجلهم رياء، وترك العمل لأجل دخول الآفة فيه جهل، وتركه عند دخول العلّة عليه ضعف ووهن. ومَن دخل فى العمل لله تعالى وخرج منه لله تعالى لم يضره ما

كان بين ذلك بعد أن ينفيه ولا يساكنه، وقد يضره ما يكون بعد ذلك مثل إنْ كان سراً فأظهره بعد زمان فصار علانية، فنُقل من ديوان السرّ إلى ديوان العلانية. ومثل أنْ يتظاهر به ويفتخر ويدلّ به ويتكبر، فيحبط ذلك عمله لأنه قد أفسده ، والله لا يصلح عمل المفسدين. ومن دخل فى العمل للّه تعالى ودخل عليه في وسط العمل علّة فخرج من العمل بها بَطُل عمله. ومن دخل فى العمل بآفة وخرج منه بصحة سلِم له عمله وجَبّر بآخره أوّله. وأفضل الأعمال ما دخل فى أوّله للّه تعالى، وخرج منه باللّه تعالى ولمّا تطرّقه فيما بينهما آفة، فيكون اللّه تعالى هو الأول فالآخر معه وعنده، ثم يُظهره بعد ذلك ولا يتظاهر به. وأفضل النيّات أنْ لا تريد بعملك إلاّ وجه اللّه تعالى وحده، تعظيماً لحق الربوبية ، وإلزاماً للنفس وصْف العبودية، فإنْ لم يكن هذا المقام عن مشاهدة وجه ذى الجلال والإكرام، فمشاهدة مارغب فيه وشُوّق إليه من الآخرة عن مقام الرجاء. ولا ينبغى للعبد أنْ يدخل فى شيء حتى يعلم علمه فيكون داخلاً فى علم يعلم مثله، لأن للّه سبحانه وتعالى فى كل شيء حكماً، فما علم من ذلك حمد اللّه تعالى عليه وعمله، وماجهل سأل عنه من هو أعلم به، وما أُشكل عليه أمسك عنه حتى يستبين له وجهه فيُقدم عليه أو يتركه. ولكن ماتحرك فيه أو سكن عنه أو توقف عن الإقدام عليه إبتغاء مرضاة اللّه تعالى تقريباً إليه لأجل اللّه تعالى، فهذا أعلى النيات وهو غاية الإخلاص.

ومن أراد بأعماله ماعند اللّه تعالى من ثواب الآخرة، من حظوظ نفسه، ومعانى شهواته ولذته من النعيم فى الجنان، واتخاذ الحور الحسان مما وصف اللّه تعالى وندب، لم يقدح ذلك فى إخلاصه، ولم يغير صحة نيتّه من قِبل أنّ اللهّ تعالى مدحه ورغّب فيه ووصفه، إلاّ أن هذا نقصٌ في مقام المحبين ، وعيْبٌ عندهم كعيْب من عَمِل لعاجل حظه من دنياه، وهو شرْك فى إخلاص الموّحدين الذين اختُصوا بالعبودية فعُتقوا من أسْر الهوى بالحرية، فلم يسترقهم سوى الوحدانية لِما شهدوا من خالص الربوبية. وإخلاص العبودية للربوبية أشد من إخلاص المعاملة ضرورة، إلاّ أنّ مَن رُزق المقام منها دخل بحقيقة الإخلاص ضرورةً ، فلا ينقّيه ولا يصفّيه عمل ولا مجاهدة، فكانوا مخلصين وهذا مقام المحبين، وإنما أتعب المريدين بالتنقية والتصفية للمعاملة لما بقى عليهم من الشرْك الخفىّ والشهوة الخفيّة، كما أتعب خُدّام الدنيا بالجمع لها لِما استرقّهم من الهوى، فأمّا الأحرار فهم من خدمة الخلْق بُرآء، وهذا يُذهب الإخلاص ويُفسد النية ويُدخل الانتقاص . ومات **حماد بن أبى سليمان** ، وقد كان أحد علماء أهل الكوفة ، فقيل **للثورى** ألا تشهد جنازته، فقال لو كانت لى نيّة لفعلت. ومات **الحسن**

البصرى فلم يحضر **ابن سيرين** جنازته فسُئل عن ذلك، فقال لم يكن لى نية. وقد كان العلماء إذا سئلوا عن عمل شىء أو سعىٍ فيه يقولون إنْ رَزَقنا الله نيةً فعلنا ذلك. وقال **يحيى بن كثير** حُسن النيّة فى العمل أبلغ من العمل. وقال بعض السلف كانوا يستحبون أنْ يكون لهم فى كل شيىء نيّة. **وقال الفضيل بن عياض** لا تتحدث إلاّ بنيّة. وكان بعضهم يقول الخوف على فساد النية، وتغيّرها أشد من ترك الأعمال. وقال **الثورى** من دعا رجلا إلى طعامه وليس له نية فى أنْ يأكل ، فإنْ أجابه فأكل فعليه وزران، وإنْ لم يجبه فعليه وزر واحد، فصّير عليه وزرين مع أكل طعامه بغير نيّة لتعرّضه للمقت وحَمْله أخاه على مايكره، إذ لو علم لما أجابه. فَمْن أفهمه الله تعالى إخلاص النيّة وزاده معرفة الإخلاص، أخرجه ذلك إلى الهرب من الناس ليُخلص له معاملته، لأنه ينظر بعين اليقين. وهذا المعنى هو الذى أخرج طائفة الأبدال إلى الكهوف تخلّياً من أبناء الدنيا لخلاص أعمالهم، فهم وإن فارقوا فضائل الأعمال من صلاة الجماعة وغيرها فقد تقرر عندهم أنّ اجتناب معصية واحدة خير من عمل سبعين طاعة، فلذلك فارقوا فضول النوافل خشية دخول معصية واحدة عليهم.

وقد تختلف النيّات لاختلاف المقاصد، فيصير ما كان سيئاً حسناً بحسن النية، وماكان حسناً سيأً لسوء النية به. وقال **الحسن** النيّة أبلغ من العمل. وقال **يوسف بن أسباط** تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد. وحدثونا عن بعض الصوفية ، قال كنت قائما مع **أبى عبيد التسترى** وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمّر به بعض إخوانه من **الأبدال** فسارّه بشىء ، فقال أبو عبيد لا ، فقلت لأبى عبيد ماقال لك، فقال سألنى أن أحج معه فقلت ليس لى فى الحج نية، وقد نويت أنْ أتمّم هذه الأرض العشية ، فأخاف إنْ حججت معه لأجله أتعرض لمقت الله تعالى ، لأنى أُدخِل فى عمل الله تعالى شيأً غيره، فيكون هذا عندى أعظم من سبعين حجة.

ومن كان له فى مباح نيّة ولم تكن له نيّة فى فضيلة فالأفضل هو المباح حينئذ. وقد انتقل المعنى فصار المباح هو الفضيلة، وصارت الفضيلة هى النقيصة لعدم النيّة فيها، وهذا لا يعلمه إلاّ العلماء بباطن العلم، وهو من غوامض التصريف، مِثْل أنْ يكون رجل قد ظُلم فله أنْ ينتصر ، وإن عفا كان أفضل ، إلا أنه له نية فى الانتصار وليس له نية فى العفو ، فالانتصار هو الأفضل . ومثل أن تكون له نيّة فى الأكل والشرب والنوم ليتقوّى بها على الطاعة ويريح بها

نفسه لوقت آخر، وليس له فى الصوم ولا فى القيام نيّة، فقد صار الأكل والنوم حينئذ هو الأفضل. وقد كان **أبو الدرداء** يقول إنى لأستجم نفسى ببعض اللهو ليكون ذلك عوناً لى على الحق. وكل عمل مباح للعبد فيه نيّة فهو مأجور عليه، وكل عمل فاضل لا نيّة للعبد فيه فأحسن حاله السلامة منه لا له ولا عليه،وكل عمل مباح أو فضْل ليس للعبد فيه نيّة فهو عقل لا شيء له فيه، وإنْ كان قد خفى عليه الهوى أودقّ عليه لطيف حب الدنيا لجهله بالعلم فهو مأثوم فيه، لتقصيره في طلب العلم الذي يعرف به الإخلاص، وسكوته على الجهل الذى يدخل منه الانتقاص، ولا عذر له فى ذلك. وقد جاء فى الخبر أنّ اللّه تعالى لا يعذر على الجهل. ولا يحل للجاهل أنْ يسكت على جهله، ولا للعالم أنْ يسكت عن علمه. وقد قال اللّه سبحانه وتعالى **فاسألوا أهل الذكر إنْ كنتم لا تعلمون**.

وقد كان **سهل** رحمه اللّه تعالى سُئل ماعُصى اللّه تعالى بمعصية أعظم من **الجهل**، قال نعم، قيل ما هو ، قال الجهل بالجهل، يعنى أنْ يكون العبد جاهلاً وهو لا يعلم أنه جاهل ، أو يحسب بجهله أنه عالم فيسكت عن جهله ويرضى به ، فلا يتعلم، فيضيع فرض الفرائض وأصل الفرائض كلها وهو طلب العلم. ولعله أن يفتى الجهل أو يتكلم بالشبهات وهو يظن أنه علم، فهذا أعظم من سكوته. وكذلك أيضا ما أطيع اللّه تعالى بمثل العلم. ومن العلم العلم بالعلم أى شيء هو، وذلك أيضا واجب من حيث كان العلم واجباً ليكون على بصيرة من تعلّم العلم، لأنه قد دخل مذهب المتكلمين وأقوال الغالطين من الصوفية والقُصّاص فى شبهات العلم، فصار زخرفا من القول غروراً، يشبه العلم وليس بعلم، لالتباس المعنى بعضه ببعض، ولإشكال دقائق العلوم وغرائبه وخفاء السنّة من طريقة علماء السلَف، فاختلط لذلك القُصّاص والمتكلمون بالعلماء، فصار معرفة العلم أى شيء هو، والعلم بالعالِم من هو، علماً آخر، وصار العالِم بالعلم ماهو دون الزخرف من القول كأنه عالِم، فكان أيضا العِلم بالمعلم بمنزلة فضْل العلم ووجوب وجوبه، كما كان الجهل بالجهل أعظم من الجهل.وقد كان **سهل** رحمه اللّه تعالى يقول قسوة القلب بالجهل من قسوته بالمعاصى، لأن الجهل ظُلمة لا ينفع البصر فيه شيأ، ونور العلم يهتدى به القاصد وإن لم يمش.

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى **وبدا لهم من اللّه مالم يكونوا يحتسبون** ، قال عملوا أعمالا لجهلهم ظنوا أنها حسنات فوجدوها سيآت. وقيل ذنوب غيرهم طُرحت عليهم فعُذّبوا بها

ولم يكونوا يحتسبون بها فى الدنيا، يعنى هذا مثل ماروى فى الخبر إنّ العبد ليرى من أعماله الحسنات مما يرجو به المنازل فى الجنة، فتُلْقىَ عليه سيآت لم يعملها، فترجح بحسناته كلها فيستوجب النار، فيقول يارب هذه سيآت ماعملتها هلكتُ بها، فيقول هذه ذنوب القوم الذين اغتبتهم وآذيتهم وظلمتهم أُلقيتْ عليك وتخلّصوا منها. وقد روينا فى معناه حديثاً مسندا عن **النبى صلى الله عليه وسلم** إنّ العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلُصت له دخل الجنة، ويأتى قد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا، فيُقتص لهذا من حسناته، ولهذا من حسناته، حتى لا تبقى له حسنة، فتقول الملائكة ياربنا قد فنيت حسناته وقد بقى طالبون كثير، فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكّوا له صكاً إلى النار.

وينبغى للعبد إنْ أراد أنْ يعمل عملاً أنْ يثبُت له فيجدّد له نية حسنة، ثم يقف وقفة فيتفقد هل يُدخِل عليه في ذلك آفة واحدة أو أكثر، فيُخرِج مادخل عليه من الآفات بمشاهدة اليقين، ثم يعمل ذلك العمل، لله وحده لا شريك له فى قصده ووجْده وطلبه وثوابه سواه، ثم يستقيم على ذلك العمل فإنْ دخلت عليه آفة نفاها حتى يكون قائما بشهادته، فهذا هو **الإخلاص**، لأن **المخلص** يحتاج فى إخلاصه إلى شيئين ليس أحدهما أوْلَى به من الآخر: صحة القصد لوجه الله تعالى، وطلبه ماعنده من الآخرة، ثم إخراج الآفات والحذر على ذلك العمل من دخولها عليه إلى فراغه منه، فبذلك يتم إخلاصه ويصفو من كدْرة الهوى، ويخلص من الشهوة الخفّية فيكون خالصا من الرياء بالإخلاص، صافياً من الشهوة يتفقد دخول الآفة. كما روى فى الخبر: «أخوف ماأخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية» ، قيل حب الدينا، وقيل العمل لأنْ يؤجَر العبد ويُحمد. ثم إذا همّ العبد بعمل وقف قبلَه وقفةً فتدبّره وتفكّر كم فيه من نيّة، فربما وجد فى العمل الواحد عشرنيات ، أو خمسا ومابين ذلك، لما يحتمل ذلك العمل من وجوه البرّ ومعانى القرُبات المندوب إليها، فيكون له بكل نيّة عمل فيؤجَر على العمل الواحد عشرة أجور، لأنه عشرة أعمال أو خمسة، يكون لكل نية عمل، وبكل عمل أجر، وهو من فضائل الأعمال وتضاعيف الحسنات ولا يعلمه إلاّ العلماء بالله تعالى وأحكامه، وهو طريق الأبدال من صالحى أهل الأحوال، فبذلك زكت أعمالهم وارتفعت مقاماتهم وكثُرت أجورهم وحسُنت حالاتهم، لا بكثرة الأعمال لكن بتحسينها ووجود النيّات الكثيرة فيها. وقد جاء فى الأثر مَن عَملَ عملاً لا يريد به وجه الله لم يزل فى مَقت من الله حتى يفرغ. وقد قال بعض الأدباء من لم يشكر لك حُسن النية فيه لم يشكر لك حُسن الصنيعة إليه. وأنشدوا فى معناه :

لأشكرنك معروفاً هممت به ... * إنّ اهتمامك بالمعروف معروف

ولا ألومك إذ لم يُمضه قدَر * فالشيء بالقدَر المكتوب مصروف

ولو لم يكن فى تجديد النية الحسنة وتفقُّد الهمّة العالية إلاّ أنّ صاحبها لا يزال عاملا من عمّال الله تعالى بقلبه وهمّه ، وإنْ لم يساعده القدر على الأفعال بجوارحه ، فيكون أبداً مأجورا . وقال بعضهم إنى لأستعد النيّة فى كل شىء قبل الدخول فيه حتى فى أكلى ونومى ودخولى الخلاء . والنية فى هذا التقوى، ونيّة التطهر من التحلّى لأجل الدين. فكان الناس لشدة تفقُّدهم وحُسن رعايتهم صادقين فى ترك كثير من أعمال البرّ لضعف النية. قال **ابن عيينة** إنما حرموا الوصول لتضييع الأصول. **والنيّة أصل الأصول لأنها فرض الفرائض**. وقال بعضهم إنما أبعد القلب من الله عز وجل مظاهر أعمال الجوارح بغير مواطأة من القلب بصحة القصد، يعنى بذلك نقص الإخلاص بها لأجل الله تبارك وتعالى، فالنكاح مثلاً من معظم شأن الدين، فنيّته فيه أن لا يتزوج المرأة لجمالها ولا لمالها ولا لحُسنها، بل لدينها وعقلها، وفى الخبر من نكح لله عز وجل وأنكح للهّ تعالى استحق ولاية اللهّ تعالى.

وأفضل الأعمال مادخل فيه لله عز وجل، وخرج منه لله ولم يعتوره بعد ذلك علّة. وأعلى من هذا مَن دخل فى الأعمال بالله عزّ وجل، وثبت فيها مع الله، وخرج منها بالله تعالى ، وهذا مقام الموّحدين من الموقنين والعارفين. فأصحّ الأعمال وأخلصها ماكان لله تبارك تعالى ، هو الأول فى أولها، ومع العامل فى أوسطها، والله تعالى هو الآخرة عند آخرها. ثم لا يظهرها بعد ذلك ولا يتظاهر بها، ولا يطالع عوضا عنها من الكبير الأكبر ، بل ينساها ويشتغل بذكر مولاه عنها. والقعود فى المساجد مثلاً من أفضل شأن الدين وفضائل أعمال المتقين ، فليكن له فيه عشرنيّات، منها زيارة مولاه عز وجل فى بيته، كما رُوى مَن قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى، وحقّ على المزور إكرام زائره . ومنها انتظار الصلاة بعد الصلاة كما روى فى معنى قوله تعالى "**ورابطوا**" وهى المرابطة، ومنها كفّ سمعه وبصره وترهّبه كما رُوى: رهبانية أمتى القعود فى المساجد. ومنها العكوف وحقيقته عكوف الهمّ على القلب، وعكوف السرّ بالتأله إلى الله عز وجل. ومنها ذكر الله تعالى واستماع ذِكْره والتذكير به، كما روى مَن عدا إلى المسجد يذكُر الله تعالى ويُذكّر به كان كالمجاهد فى سبيل الله، ومثل ذلك إذا جلس ليعلّم علما أو يتعلمه كان أيضا كالمجاهد، أو جلس لاستفادة أخ فى الله عز وجل، أو لتنزّل رحمة الله، أو

لترك الذنوب للخشية والحياء. كما روينا فى حديث **الحسن بن علىّ** عليهما السلام: مَن أدمن الاختلاف إلى المساجد رزقه الله تعالى إحدى سبع خصال: أخاً مستفاداً فى الله تعالى، أو رحمةً مستنزلة، أو علماً مستطرفاً، أو كلمة تدلُّه على هدى، أو تصرفه عن ردًى، أو ترك الذنوب خشيةً أو حياءً منه. فإخلاص النية هو بخروج أضدادها من القلب، وعن القصد والهمّة، وإنْ كثر أعداده، لتنفرد النية بقصدها ، ويخلص العمل بانفراد النيّة لوجه الواحد الفرد المقصود بها. ويروىَ عن بعضهم قال غزوت فى البحر فعرض بعضنا مخلاة، فقلت اشتريها وانتفع بها فى غزاتى، فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها، فاشتريتها، فرأيت تلك الليلة فى النوم كأن شخصين نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه اكتب الغُزاة، فأملَى عليه: اكتُب خرج فلان متنزها، وفلان مرائيا، وفلان تاجرا، وفلان فى سبيل الله، ثم نظر إلىّ فقال اكتب خرج فلان تاجرا، فقلت الله الله فىّ ، والله ماخرجت أتّجر، ولا معى تجارة أتّجر فيها، ماخرجت إلا للغزو، فقال لى يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها، فبكيت وقلت لا تكتبونى تاجرا، فنظر إلى صاحبه وقال ماترى، فقال اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى فى طريقه مخلاة ليربح فيها، حتى يحكم الله عز وجل فيه مايرى.

ومن المناقص المُشْبِهة للفضائل، المُلْتبِسة على الأفاضل، ترك العبد حاله فى مقامه طلباً للفضيلة، ليزداد بها قُربا إلى الله عز وجل، فينقلب عليه فيهلك، فالعالِم عند العلماء مَن علِمَ خيّر الخيْرين فسبق إليه قبل فوته، وعلم شرّ الخيريْن فأعرض عنه لئلا يشغله عن الأخير منها، وعلم أيضا خير الشرّين ففعله إذا اضطر إليه وابتُلى به، وعلم شرّ الشرّين فأمعن فى الهرب منه واحتجب بحجابين عنه. وهذا من دقائق العلوم.

وقد تلتبس النية بالأمنيّة فتخفى، والهمّة بالوسوسة فتشتبه. **والنية** ماكان يراد به وجه الله عز وجل ويطلب به ماعنده، **والأمنية** ماتعلّق بالخَلْق وطلب منه عاجل الحظ من المُلْك الفانى. وقد تلتبس الإرادة بالمحبة والحاجة بالشهوة ، **فالإرادة** أن يريد وقوع الأمر، أو يريد أيضا وجود ضده .**والمحبة** ماقهر العقل وغلب الوجْد وحلّ فى مجامع القلب وكرِهَ وجود غيره ولم يُرِد فقده، **والحاجة** ما اضطررت إليه ولم يكن منه بد، أو لا يُستَغنَى عنه بغيره، **والشهوة** مزيد لذة. وقد يختلط الذكر بالقلب بالفكر فى معانى القُرب، **فالذكر** ما كشف الغى وأذْكَر الشكر، **والفكر** ماصوّر الأمر وأظهر الخبر. وقد يلتبس الرجاء بالمحبة والهوى بالنية، **فالرجاء** ما

طمعت فيه بسبب ما، **والمحبة** ماتطمّعت ذوقه ووجدته بغير تسبب تستخرجه. وقد يلتبس **ذُلّ القلب** بضعفه وموته للطمع فى الخلق **بِذُلّ النفس** لمشاهدة عز الخالق سبحانه وتعالى. وقد يتداخل **ذل الطمع** لدناءة الهمّة والنفس **بذل العقل** للاعتراف بالحق وخضوع العلم له. وقد يلتبس **ذل النفس** لغلبة الهوى وقهره للعقل **بذل القلب** لسرعة الانقياد للعالِم. وقد يختلط **عزة القلب** بمُقلّبه بدوام النظر إليه **وعزة العقل** بعلمه الذى كبر عنده. وقد تلتبس **عزة النفس** بوصفها المتسلّط **بعزة الإيمان** المعزّز بغيبة اليقين. فهذه فروق ظاهرة للعارفين وخروق متسعة تُرهب الغافلين. وقد تلتبس **العبادة بالعادة**، مثل أن يكون للعبد نيّة فى علم أو عمل أو صدقة أو نفقة، ثم تعزب نيته فيبقى على عادته وحاله الذى قد عُرف به لا يحب أن يخرج من عُرْف الناس، فيتعمّل لاستقامة الحال على التكلّف بتلك الأعمال، فتذهب النيّة وتبقى العادة فيخرج بذلك من إرادة الآخرة والسعى لها، ويدخل فى إرادة الدنيا بالشهوات على جريان العادة بها. وقد يشهد شهادة الدنيا من طلب الرياسة لوجود الهوى بطرقات الآخرة فى معنى العلوم والأعمال، مما أريد به تأديب النفس ويُعلَم به الزهد فى الدنيا. فهذه **طرقات الآخرة**، وماكان على ضده فهو طرقات الدنيا إذ هو ضدها. وقالوا كان الناس إذا علموا عملوا، وإذا عملوا شُغلوا، وإذا شُغلوا هربوا. وقالوا تفقّه ثم اعتزل. وقد يلتبس إظهار الأعمال وكشف ما كُتم من الأحوال لأجل التأديب به والاتباع عليه، أو لإظهار قُدرة الله عز وجل وآياته لمزيد السامع من المعرفة به، بفعل مثل ذلك للتزين والفخر أو للمدح به وطلب الذكْر.

ويحتاج التارك للنهى أو المكروه، فرضاً أو ورعاً، إلى نيّة حسنة، أن يتركه للّه عز وجل **طلباً لمأمنه** أو رغبة فيما عنده، لا لوجود الخلْق ولا ليربَّ به حاله، أو يقيم به عند العبيد جاهه، لأن ترك المعصية من أفضل الأعمال فيحتاج إلى أحسن النيات، إذ عليها من الله تعالى أجزل المثوبات، لبلوى النفس بها واضطراب الوصف إليها. وقال بعضهم من أحب أن يَعرِف ورَعه غيرُ الله تعالى فليس من الله فى شىء. وروى عن **زكريا** عليه السلام أن قوما دخلوا عليه وكان يعمل فى حائط القوم بالطين، وكان صانعا يأكل من كدّ يديْه، فقدّموا إليه عندهم رغيفين، وجعل يأكل ولم يدْعُهم حتى فرغ، فسألوه عن ذلك لعلمهم بزهده وكرمه، فقال إنى أعمل لقوم بأجرة وقرّبوا إلىّ هذين الرغيفين لأتقوّى بهما على عملهم، فلو أكلتم معى لم يكفكم ولم يكفنى وضعفتُ عن عملهم. فهذا ممن ترك فضلا لفرض، وممن كانت له نية فى الترك كما تكون له فى الفعل. وقال بعضهم دخلت على **سفيان بن أبى عاصم** وهو يأكل فما كلّمنى

حتى لعق أصابعه، ثم قال لولا أنى أخذته بدين لأحببتُ أن تأكل منه. وقد روينا فى الخبر أنّ أعجميا مرّ بنفرٍ قعود يتكلمون بكلام فيه استهزاء ولهو، فظن أنهم يدعون الله عز وجل فقال مثل مايقولون بحُسن نيته، قال فغفر الله لهم بحسن نيته. وقال **الحسن** من علامة المسلم أن لا يُبدره لسانه ولا يسبقه بصره ولا تقصر به نيتّه، يعنى لا يضعف ولا تقعد به عن المسارعة إلى القُربات. وقال المؤمن تبلغ نيته وتضعف قوته، والمنافق تضعف نيته وتبلغ قوته.

وقال **النبى صلى الله عليه وسلم** "لكل حق حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يُحب أن يُحمد على شيء من عمل الله عز وجل". وقال الحواريون **لعيسى بن مريم** عليه الصلاة والسلام ياروح الله ما الإخلاص لله عز وجل، قال الذى يعمل العمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد من الناس، قالوا فمن الناصح لله عز وجل، قال الذى يبدأ بحق الله تعالى قبل حق الناس، وإذا عُرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة بدأ بأمر الله تعالى قبل أمرالدنيا.

كما روى أنّ عابداً من بنى إسرائيل عبد الله تعالى أربعين سنة فكانت الملائكة ترفع عمله فى السماء فلا يُقبَل، فقالت ربنا وعزتك مارفعنا إليك إلاّ حقاً، فقال عز وجل صدقتم ملائكتى ولكنه يحُب أن يَعرف مكانه... فلذلك قال بعض السلف من نجا من الكِبْر والرياء وحب الشهرة فقد سلِم. وقال **الثورى** ما عالجت شيأ أشد علىّ من نيتى، لأنها تفلت علىّ؛ يعنى تشرد أوتضعف فتحتاج إلى مداواة لها .كما قال **المنصور** المداومة على العمل حتى يخلص أشد من العمل. وقال **الثورى** ما أعتدُّ بما ظهرمن عملى. وقال **على** رضى الله تعالى عنه كونوا بقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل، فإنه لا يقل عملٌ مع تقوى، وكيف يقل عمل يُتقبّل. وقال بعضهم من استوحش من الوحدة وأنس بالجماعة لم يسلم من الرياء. وقال **مالك بن دينار** الخوف على العمل أن يُتقبّل أشد من العمل. وقال **ابن عجلان** العمل لا يصلح إلا بثلاث: التقوى لله عز وجل، والنية الحسنة، والإصابة. وقد فسّر **الفضيل** قوله تعالى «**ليبلوكم أيكم أحسن عملا**» قال أخلصه وأصوبه، قيل وماذاك، قال العمل إذا كان خالصا ولم يكن صواباً لم يُقبَل. وقيل **للعمل أربع خصال** لا يتم إلاّ بهن: معرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، والإخلاص به، والعمل على السنّة، فأى عمل كان قبل هذه الأربع لا ينفع.

ومن الناس من يكون حَسَن الأداء لفرضه، كثير الندم والإشفاق من معاصيه، فيكون هذا

أحسن حالا. ومنهم من يكون سيء الأداء قليل الحزن والندم على ذنوبه، فيكون هذا أسوأ حالاً. وليس الناس فى ذلك على قياس واحد، والله يغفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذّب من يشاء على الذنب الصغير لما سبق لهما فى علمه، ولما نفذ لهما من مشيئته وحكمه. وقد يشترك الاثنان فى معصية ويتفاوتان فى حكم المشيئة، ويتوب الله على من أحب، ويتقبل ممن يحب، ويردّ ما يشاء ممن يشاء. والسابقة غير المعصية، **السابقة** فى المشيئة، يغفر لمن سبقت له الحُسنى جميع معاصيه السوأى، ويعذب من حقّت عليه كلمة العذاب ويحبط أعماله الحسنى. والخلق مردودون إلى السابقة، ومحكوم عليهم بعلم الله تعالى فيهم. وفى الخبر هلك المصرّون قُدُماً إلى النار، والإصرار يكون بمعنى أن يعتقد بقلبه متى قدر على الذنب فعله، أو لا يعقد الندم عليه، ولا التوبة منه. وأكبر الإصرار السعى فى طلب الأوزار. وفى الخبر سبق المفرّدون المستهترون بذكر الله تعالى، (أى الملازمون للذكر) وضع الذكر أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً، فهؤلاء الذين سبقت لهم منا الحُسنى من المقرّبين. أخبر **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنّ لهم أوزاراً وضعتها الأذكار. وقال تعالى «**والسابقون السابقون، أولئك المقربون**»، وهذا ما علمناه من أدلة العلوم وتأويل التنزيل، وعفو الله تعالى وإرادته من وراء ذلك كله وعلمه القديم، ولله عاقبة الأمور

مسئلة محاسبة الكفار

فأما محاسبة الكفّار فهذه مسئلة اختلف الناس فيها، فمنهم من ذهب إلى أنهم يُحاسَبون، ومنهم من أنكر حسابهم. وقد اختلفت الآثار فى ذلك، فقد جاء فى بعضها ما يدل على حسابهم وبه تعلّق من قال به. وجاء فى كثير منها ما يدل على أنهم لا يحاسبون وبه احتج من أنكر حسابهم. وإنما يرجّع عند الاختلاف إلى كتاب الله تعالى، ففيه الشفاء، وبه الغنَى، فيُفصّل ما أجمل القائلون، ونعدّل فى القول الشديد فيما تأوّله المتأولون، فنقول والله أعلم: إنّ الله سبحانه ذكر فى كتابه آيتين تدل على مسئلة الكفار عن الشرك الذى أدخلوا فى التوحيد، وعن أجابة المرسلين وتكذيبهم - قال الله تعالى **ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون**، ثم قال فى الآية الأخرى **ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين** - فنقول أنهم على هذا يُسئلون عن **التوحيد** فقط، وعن تكذيب المرسلين حسب هاتين الآيتين. وقال فى آيتين أخرتين - **ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون**، وقال فى الأخرى **فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنسٌ ولاجان**، ثم قال **يُعرَف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام** - فهذا نصٌ فى ترك المسألة على الذنوب والأعمال، فنقول بهاتين

الآيتين، إنهم لا يُسـئَلون عن الأعمال وإنما يحاسب على العمل من كـانت بينه وبينه مـعاملة، ومن ثبتت له حسنات يقع بها ترجيح وموازنة. وقد روينا عن **أنس بن مالك** رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى **وقِفُوهم إنهم مسؤلون**، قال عن قول لا إله إلاّ الله. وقد رويناه مرفوعا إلى **النبّى صلّى الله عليـه وسلم**، فهذا على معنى ماذكرناه أنهم يُسئلون عن التوحيد، فالناس من أهل **الجنة والنار** يُحشَرون يوم القيامة على **ست** طبقات: طائفة تدخل الجنة بغير حساب وهم السابقون المقرَّبون، وطائفة تدخل الجنة بعد الحساب اليسير وهم خصوص المؤمنين والصالحين، ومنهم من يدخل بعد الحساب الطويل والمناقشة وهم أصحاب اليمين وعموم المؤمنين. وكذلك أهل النار **ثلاث** طبقات: طائفة تدخل النار بغير سؤال ولاحساب خُلقوا للنار، وطائفة تدخل النار بعد الحساب الطويل والمناقشة وهم أهل الكبائر والمنافقون، وطائفة بسؤالٍ وتوقيفٍ من غير محاسبة على الأعمال، وهم أمم **الأنبياء المرسَل إليهم المرسلون**، لقوله تعالى **فلنسـألن الذين أرسِل إليهم** الآية. وقد روينا فى الخبر المشهور: من نوقش الحساب عُذّب، فقيل يا رسول الله، أليس الله تعالى يقول **فسوف يُحاسب حسابا يسيرا**، فقال ذلك العرض ومن نوقش الحساب عُذّب. وقد كان إمامنا **سهل بن عبد الله** يقول: يسئَل الكفّار عن التوحيد ولا يسئَلون عن السنّة، ويسئل المبتدعون عن السنة، ويسئل المسلمون عن الأعمال.

فأمّا قوله تعالى "**إنّ إلينا إيابهم ثم إنّ علينا حسابهم**" ففيها وجهان: أحد الوجهين أنْ يكون هذا كلاماً منفصلا عما قبله يرُاد به المسلمون، لأنه ذكَر خبر الكفّار فختمه بالعذاب، فقال فى أول الكلام **إلاّ من تولّى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر**، هذا آخر خبرهم. ثم استأنف مخبراً عن غيرهم فقال «**إنّ إلينا إيابهم ثم إنّ علينا حسابهم**». والوجه الآخر أن يكون قوله تعالى «**ثم إنّ علينا حسابهم**»، أى جزاؤهم، فالحساب أيمّا ذُكر للكفار يكون بمعنى المجازاة على أعمالهم السيئة. وكذلك قوله تعالى «**ووجد الله عنده فوفّاه حسابه**» يعنى جزاءه، إلاّ أنّ **القرّاء** وغيره من أهل اللسان خالفونا فى هذا فاعتبروه بمابعده فجعلوه دليلا على المحاسبة، قالوا احتمل أنْ يكون قوله "**فوفّاه حسابه**" أنْ يكون جزاءه كما قلنا، واحتمل أن يريد محاسبته فلّما قيل **والله سريع الحساب** كشف التنزيل التأويل بذلك أنّ حسابه يعنى محاسبته. وكذلك قال **الزجّاج** فى تأويل ماذكرناه آنفا من قوله «**ولا يسئَل عن ذنوبهم المجرمون**»، فقال معناه لا يُسئلون من علِم ذلك وسبقه عليهم، أى قد فرغ اللهّ عز وجل من ذلك فأحكمه بما سبق من علِمه. وواطأه **مقاتل بن سليمان** على هذا التأويل، فقال

معنى ذلك ولا يسأل هؤلاء المجرمون عن ذنوب السالفين، فجعل الهاء والميم على من تقدّم من **قارون** وأصحابه والقرون السالفة، لأن ذكرهم كان سياق هذا الخطاب فى قوله تعالى **أو لم يعلم أنّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا**، ثم قال **ولا يُسأل عن ذنوبهم**، يعنى هؤلاء المجرمون، يعنى مشركى هذه الأمة. وقال أيضا هو غيره أنّ الكفار سألوا فقالوا تُرى ماذا فعل الله تعالى بالقرون الأولى الذين يقص علينا نبأهم، قال فنزلت هذه الآية فهى بمنزلة قول فرعون، **قال فما بال القرون الأولى**، فقال موسى عليه السلام **علمها عند ربى**، إلاّ أنّ الله عز وجل قد قال فى ذِكْر الحساب بمعنى الجزاء **عطاءً حسابا**، يعنى مجازةً، وقيل كفايةً، بمعنى كفاهم وأحسبهم ذلك، كما قال تعالى **حسبُهم جهنم**، أى كافيهم ذلك .

الفصل السابع والثلاثون

فى الإخلاص

شرح النيات والأمر بتحسينها فى تصريف الأحوال، والتحذير من دخول الآفات عليها فى الأفعال

قال الله الكبير المتعال "**وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين**"، وقال **رسول الله صلى الله عليه وسلم**: ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم: إخلاص العمل لله تعالى، وقال إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى... وقد روينا فى الحديث من طريق أهل البيت عليهم السلام: لا يقبل الله تعالى قولاً إلا بعمل، ولا قولاً وعملاً إلاّ بنيّة. وقال **عمر بن الخطاب** رضى الله تعالى عنه أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرّم الله تعالى، وصدْق النيّة فيما عند الله عزوجل. فينبغى أن يكون للعبد فى كل شىء نّية حتى فى مطعمه ومشربه وملبسه ونومه ونكاحه، فإن ذلك كله من أعماله التى يُسأل عنها، فإنْ كانت لله تعالى وفيه، كانت فى ميزان حسناته، وإنْ كانت فى سبيل الهوى ولغير المولى كانت فى ميزان سيآته إذ لكل عبد ما نوى، وإنْ كان ذلك غفلةً وسهواً من غير نية ولا عقْد طوية ولا حسبة، لم يكن له فى ذلك شىء، ولم يجد عمله فى الآخرة شيأ، وكان فيه لا له ولا عليه، وكان ذلك فى الدنيا على مثال الأنعام التى تتصرف عن غير عقول ولا تكليف ولكن بإلهام وتوقيف، وأخاف أنْ يدخل فى وصف من قال اللهّ تعالى «**أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطا**»، أى غفلةً وسهواً، وقيل تفريطاً وتضييعاً، وقيل مقدماً إلى الهلاك. فالنية

الصالحة هى أول العمل الصالح، وأول العطاء من الله تعالى وهو مكان الجزاء، وإنما يكون للعبد من ثواب الأعمال على حسب ما يهب الله تعالى له من النيات، فربما اتفق فى العمل الواحد نيات كثيرة على مقدار ما يحتمل العبد من النية، وعلى مقدار علم العامل فيكون له بكل نية حسنة، ثم يضاعف كل حسنة عشر أمثالها لأنها أعمال تجتمع فى عمل. وصورة النية صحة قصد القلب إلى العمل بحسن التيقظ فيه والإخلاص به لوجه الله تعالى، ابتغاء ماعنده من الأجر، فكل عمل كان على علم بهذه النية فهو صالح متقبّل بفضل الله تعالى وبرحمته، لأن صاحبه قد اتقّى الشرْك والجهل والهوى فعمله مرفوع فى الخزائن، مدّخرٌ له الجزاء. وحقيقة الإخلاص سلامته من وصفين: وهما الرياء والهوى، ليكون خالصا، كما وصف الله تعالى الخالص من اللبن فكان بذلك تمام النعمة علينا، فقال «**من بين فرث ودم لبنا خالصا**»، فلو وجد فيه أحد الوصفين من فرث أو دم لم يكن خالصا ولم تتم النعمة به علينا ولم تقبله نفوسنا، فكذلك معاملتنا لله عز وجل إذا شابها رياء بخُلُق أو هوى من شهوة نفس، ولم تكن خالصة، لم يتم بها الصدق والأدب فى المعاملة، ولم يقبلها الله تعالى منّا فاعتبروا.

وروينا عن كتاب **عمر بن الخطاب** رضى الله تعالى عنه إلى **أبى موسى الأشعرى** أنه من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، وكتب **سالم بن عبد الله** إلى **عمر بن عبد العزيز** إعلم ياعمر أنّ الله تعالى عونٌ للعبد بقدر النية، فمن تمّت نيته تم عون الله تعالى إياه، ومن قصُرت عنه نيته قصُر عنه من عون الله تعالى بقدر ذلك. وقد قال الله تعالى فى تصديق ذلك «**إنْ يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما**»، فجعل سبب التوفيق إرادة الإصلاح، فذلك هو أول التوفيق من الموفّق المُصلح للعامل الصالح. وقال بعض السلف رأيت الخير إنما يجمعه حُسن النية، ورُبّ عمل صغير تُعظّمه النية، ورُبّ عمل كبير تُصغّره النية. وكتب بعض الأدباء إلى أخيه أخلص النية فى أعمالك يكفك القليل من العمل. وقال **داود الطائى** مَن أكبر همّه التقوى لو تعلّقت جميع جوارحه بالدنيا لردّته نيته يوماً إلى نية صالحة. وقال **محمد بن الحسن** ينبغى للرجل أن تكون نيته بين يدّى عمله. وقال **الثورى** كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العلم. وقال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العلم، ومادمت تنوى الخير فأنت بخير. وقال **زيد بن أسلم** خصلتان هما كمال أمرك: تُصبح ولا تهتم لله تعالى بمعصية، وتمُسى ولا تهتم لله تعالى بمعصية. وكذلك قال بعض السلف فى معناه أنّ نعمة الله تعالى أكثر من أنْ تُحصوها، وأنّ ذنوبكم أخفى من أنْ تعلموها، ولكن أصبحُوا توّابين وأمسُوا توّابين يغفر لكم ما بين ذلك. وروينا فى الخبر عن بعض المريدين أنه كان يطوف على العلماء

يقول من يدلنى على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى، فإنى أحب أن لا تجىء علىّ ساعة من ليل أو نهار إلاّ وأنا عامل من عمّال الله تعالى، فقيل له اعملْ الخير ما استطعت، فإذا فترت أو تركته فهمّ بعمله فإنّ الهامّ بعمل الخير كعامله. وروينا عن **عيسى** عليه الصلاة والسلام طوبى لعين نامت ولا تهمّ بمعصية وانتهت إلى غير إثم. وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم**: مَن همّ بحسنة ولم يعملها كُتبت له حسنة، ومن همّ بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة.

وجاء فى الخبر المشهور نية المرء خيرٌ من عمله. وتفسير ذلك قيل إن النية سرّ، وأعمال السرّ تضاعَف. وقيل لأنها غيب لا يطّلع عليها غير الله تعالى. وأيضا فإن الله عز وجل يهبها للعبد خالصة لا يشوبها شىء ولا يدخل عليها الآفات، وأيضا لأنها من شرط العمل حتى لا يصحّ عمل إلاّ بها، وهى تصح بمجردها. وكان **عبد الرحيم بن يحيى** يقول معنى قوله نية المرء خير من عمله يعنى إخلاصه فى العمل خير من العمل، قال فالإخلاص بغير عمل خيرٌ من عمل غير مخلص. والنية عنده هو نفس الإخلاص، وعند غيره هو الصدق فى الحال باستواء السريرة والعلانية. وقد قيل أيضا فى معنى قوله نية المرء خير من عمله لأن نية المؤمن دائمة ومتصلة، والأعمال منقطعة، وبالنية خلّد أهل التوحيد فى الجنة، وخلّد أهل الشرك فى النار، لدوام نياتهم على التوحيد، ودوام نيات الآخرين على الشرك مدة الدهر. فهذه المعانى كلها على هذا الوجه الذى يقول فيه إنّ معناه أنّ النية خير من العمل. وفيه وجهٌ آخر يكون الكلام فيه على التقديم والتأخير، أى نية المؤمن هى من عمله خير، كأنه قال هى بعض أعماله الخير، فهذا كقوله تعالى« **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها**»، معناه نأت منها بخير، وكما قال «**يسألونك كأنك حفىٌّ عنها**» معناه يسألونك عنها كأنك حفى بهم فأخّر قوله عنها ومعناه التقديم، فيكون هذا على التأويل أن النية من أعمال القلوب، وأنها من أعمال العبد خير كثير. وهذه الأقوال كلها صحيحة، وهى موجودة فى النية، ففضلت النية العمل لأن هذه المعانى من صفتها. وقال بعض التابعين قلوب الأبرار تغلى بالبرّ، وقلوب الفجار تغلى بالفجور، والله تعالى مطّلع على نياتهم فيثيبهم بقدر ذلك، فانظر ماهمُّك ومانيتك.

وروينا عن الله سبحانه وتعالى فى بعض الكتب أنه قال ليس كل كلام الحكيم أتقبل، ولكنى أنظر إلى همّه وهواه، فمن كان همّه وهواه لى جعلت صمته ذِكْراً، ونظره عبراً. وهذا داخل فى عموم الخبر الذى رويناه عن **نبيّنا صلى الله عليه وسلم** إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. وسئل **سفيان الثورى** هل

يؤاخذ العبد بالنية، قال نعم، إذا كانت عزما أخذ بها. وفي الخبر إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختمة، فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول القوا هذه الصحيفة فإنه لم يُرد بذلك وجهي، ثم ينادي الملائكة اكتبو له كذا واكتبوا له كذا، فيقولون ربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك، فيقال إنه نواه. وفي الحديث الناس **أربعة**، رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله، فيقول رجل لو آتاني الله تعالى ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الخير سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يتخبط بجهله في ماله، فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما في الوزر سواء. ألا ترى كيف شرّكه بحُسن النية في محاسن عمله، وشركه الآخر بسيّء النية بنيّته في مساويء عمله؟ وكذلك في حديث **أنس بن مالك** لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في **غزوة تبوك** قال إن بالمدينة أقواما ماقطعنا وادياً، ولا وطئنا موطأً يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقةً، ولا نصبنا نصبا، ولا أصابتنا مخمصة، إلاّ شركونا في ذلك وهُمْ بالمدينة، قالوا وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا؟ قال حبّسهم العذر فشركونا بحُسن النية. وقال بعض السلف صلاح الأعمال وفسادها بصلاح النيات وفسادها. وكذلك جاء في الخبر وهو أصل من أصول الدين قوله **صلى الله عليه وسلم** إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوج بها فهجرته إلى ماهاجر إليه، فأخبر أنْ لا عمل إلاّ بالنية، ثم جعل لكل عبدٍ نية، وحكم عليهم بها وجعلها نصيبهم من الله تعالى، وفّق ذلك لهم أو لم يوفقه. وفي حديث **ابن مسعود** مَن هاجر يبتغي شيئا فهو له، فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر **أم قيس**. وفي حديث **أبي عبادة** عن **النبي صلى الله عليه وسلم**: من غزا وهو لا ينوي إلاّ عقالاً فله ما نوى. وقال إني استعنت رجلاً يغزو معي فقال لا حتى تجعل لي جُعلا، فجعلتُ له، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال له ليس له من دنياه وآخرته إلاّ ما جعلت له.

وروينا في **الإسرائيليات** أن رجلاً مر بكثبان من رمل في مجاعة، فقال في نفسه لو كان لي هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس، قال فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم أنْ قل له إنّ الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حُسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدّقت به. وفي أخبار كثيرة مَن همّ بحَسَنَة فلم يعملها كُتبت له حسنة. وفي حديث **عبد الله بن عمر** مَن تكنْ الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينَيه وفارقها أرغب ما يكون فيها، ومن تكن الآخرة نيته جعل

الله غناه فى قلبه، وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يكون فيها. وحديث **أم سلمة** ذكر النبى **صلى الله عليه وسلم** جيشاً يُخسف بهم فى البيداء، فقلت يا رسول الله يكون فيهم المُكرَه والأجير،فقال يُحشَـرون على نياتهم. وفى حديث **عمر** مثله، سمعتُ **رسول الله صلى الله عليه وسلم** يقول إنما يقتتل المقتتلون على النيات. وفى حديث **فضالة** من مات على مرتبة من المراتب بُعث عليها. وعن **جابر** عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** يبعث كل عبد على ما مات عليه. وفى حديث **الأحنف بن قيس** عن **أبى بكر** إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار، قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول، قال لأنه أراد قتل صاحبه.

والنية عند قوم الإخلاص بعينه، وعند آخرين الصدق، وعند الجملة أنها صحة العقد وحُسن القصد، وهى عند الجماعة من أعمال القلوب مقدّمة فى الأعمال وأوّل كل عمل. وقد قال الله تعالى «**واذكروا الله ذكراً كثيراً**»، قيل فى التفسير خالصاً، فسمىّ الخالص كثيراً، وهو ما خلصت فيه النية لوجه الله تعالى. ووَصَفَ ذِكر المنافقين بالقلّة فقال «**يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً**»، يعنى غير خالص. وسميت سورة «قل هو الله أحد» **سورة الإخلاص** لأنها فى ذكر صفات الله تعالى وحده، لا يختلط بذكره جنة ولا نار، ولا وعد ولا وعيد، ولا أمر ولا نهى. وكذلك قيل **سورة التوحيد** إذ لا شريك فيها من سواه.

وأول سلطان على القلب عند فساد النية هو العدو، فإذا تغيرتْ من العبد نيته طمع فيه العدو فيتسلط عليه. وأوّل ارتداد العبد عن الاستقامة ضعف النية، فإذا ضعفت النية قويت النفس فتمكن الهوى، فإذا قويت النية صحّ العزم وضعفت صفات النفس. وقد ضرب **النبى صلى الله عليه وسلم** مثل القلب بالملك، والجوارح جنوده، قال فإذا صلح القلب صلح الجسد، وإذا فسد فسد الجسد. معناه إذا صلحت للعبد نيته دامت للعبد استقامته، وإذا خلص وصَفَا من شوْب الكدر والهوى خلصت الأعمال من الرياء وصفت من الشهوات والأهواء، وإذا فسدت نيته بحب الدنيا فسدت أعمال الجوارح بحب المدح والرياء. وروينا فى خبر مقطوع من تطيّب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيّب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة. وليس الطيب من أكبر المأمور به، ولا من الإثم المنهى عنه، وإنما لصاحبه منه نيته، فإن كانت نيته اتّباع سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإظهار النعمة لله تعالى كان بذلك مطيعا، وكان له ثواب ما نواه، وإنْ تطيّب لغير ذلك كان به

عاصياً لاتباعه هواه. وحدّثونا أن بعض الفقراء كان يصحب **أبا سعيد الخرّاز** فكان يخفّ بين يديه في حوائجه ويخدم الفقراء ويسارع فى قضاء حوائج أبى سعيد وأصحابه، قال فتكلم أبو سعيد يوما فى إخلاص الحركة فوقر ذلك فى قلب الشاب، فكأنه أخذ الإخلاص والتفقد لحركته وخدمته فترك ما كان يعمله من قضاء حوائج أبى سعيد في الخفة بين يدى إخوانه حتى أضرّ ذلك بأبى سعيد، فقال له يابنى قد كنت تسعى فى حوائج إخوانك ثم قطعت ذلك فما السبب؟ فقال يا أستاذ إنك تكلمت فى الإخلاص، وإنى خشيت أن تكون أفعالى مدخولة فتركتها. قال أبو سعيد لا تغفل أنّ الإخلاص لا يقطع المعاملة، ولا ينبغى للعاقل أن يترك العمل لأجل الإخلاص فيفوته الإخلاص والعمل، ولم أقل لك أترك ما أنت عليه إنما قلت لك أخلص فيه، فإنّ طلبك للإخلاص قد قطعك عن عمل البرّ وقد أضرّ ذلك بنا. فارجع إلى ما كنتَ فيه وأخلص فيه لله تعالى... فينبغى للعبد أن يكون له نية خالصة فى جميع تصرّفه فى حركته وسكونه وسعيه وتركه، فإنّ الحركة والسكون اللذيْن هما أصلا الأعمال من أعماله التى يُسئل عنها فيحتاج إلى النية والإخلاص فيهما. وقال بعضهم القصد إلى الله تعالى بالقلوب أبلغ من حركات الأعمال بالصلاة والصيام ونحوه. وقال **الأنطاكى** إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الجوارح. وروى عن **علىّ** عليه السلام من كان ظاهره أرجح من باطنه خفّ ميزانه، ومن كان باطنه أرجح من ظاهره ثَقُل ميزانه يوم القيامة. وروى عن **الحسن** في تفسير قوله تعالى «**وآتيناه أجره فى الدنيا**»، قال نيته الصادقة اكتسب بها الأجر فى الآخرة.

وقد تلتبس الفضائل بالناقص لدقة معانيها وخفىّ علومها كصلاة العبد النفل وهو يحسب أنه الأوجب. من ذلك أنّ رجلاً كان يصلى فدعاه **رسول الله صلى الله عليه وسلم** فلم يجبه، فظن أنّ وقوفه بين يدىّ الله تعالى بالغيب أفضل له، فلم سلّم جاءه فقال له صلّى الله عليه وسلّم ما منعك أن تجيبنى حين دعوتك، فقال كنت أصلى، فقال ألم تسمع قول الله تعالى **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم؟** فكانت إجابة النبى صلى الله عليه وسلم أفضل له لأن صلاته نافلة وإجابة الرسول صلّى الله عليه وسلم فرض عليه. وقال بعضهم **من كان طلبُ الفضائل أهمّ إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع ، ومن شغل بغيره عن نفسه فقد مكِرَ به.** وقال **سفيان** إنما حُرِموا الوصول بتضييع الأصول، فأفضل شىء للعبد معرفته بنفسه، ثم وقوفه على حده، ثم إحكامه لحاله التى أقيم فيها، ثم قيامه بعمله الذى فُتح

له، فيبتدىء العمل بما افتُرض عليه بعد اجتنابه ما نَهى عنه مبلغ علمه ووسْع وجْده، لا يشتغل بطلب فضل حتى يُحكم عمل فرض، لأن الفضل ربح لا يصح إلاّ بعد رأس المال، ولكل فضل آفة قاطعة، فمن سلم منها حاز فضله، ولكل أمر نفيس مؤنة ثقيلة فمن تحملها أدرك نفيسها، ومن تعذرت عليه السلامة فهيهات أن يصير إلى فضل كرامة، ومن لم يصبر على تحمّل غرامة لم يدرك علو مقامه.

وقد يلتبس التكلّف بالإخلاص، وإظهار العلم بظهور التزيّن به - قال **الثورى** رحمه الله زيّن نفسك بالعلم ولا تَزّين به، أى أدّبها لله عز وجل فتكون زيناً فى أوليائه، ولا تتزين به عند الناس ليمدحوك عليه ويلتبس الاختبار بالاختيار، فالاختبار ما كان عن حاجة وتطرّقت به إلى الله عز وجل، والاختيار مازاد فى الشهوة وكان سُلّما إلى الخلْق، كالتباس ستر العورة من الثياب بالفاخر منها للنعمة والتكثر من الأسباب. وقد يتطوع العبد بعمل يضّيع به فرضا، وإحكام الفرض لجواز السلامة هو الفضل. وقد روى إذا دعى أحدكم للطعام فإنْ كان مفطراً فليجب، وإنْ كان صائما فليقل إنى صائم، فأمره بإظهار عمله وهو يعلم أنّ الإخفاء أفضل، ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر فى قلب أخيه وجْداً أفضل من إخفائه لنفسه مع تأثر ذلك فى قلب أخيه، لتفضيل العمال على الأعمال، إذ الأعمال موقوفة على العامل، فإنما يعُطى الثواب على قدر العامل لا على قدر العمل، لتضعيف الجزاء لمن يشاء عز وجل على غيره فى العمل الواحد، فدلّ ذلك أن المؤمن أفضل من العمل، فقيل له ارفع التأثير والكراهة عن قلب أخيك بإظهار عملك، فهو خير من إخفاء العمل مع وجْد أخيك عليك، لأن أخاك إذا دعاك إلى طعام صنعه لك فلم تجبه ولم تعتذر إليه عذراً بيّناً يقبله منك ويعرفه، شقّ عليه ذلك إن كان صادقاً فى دعائك. وقال **سرى السقطى** ركعتان تُخلصهما خيرٌ لك من أنْ تكتب سبعين حديثا، أو قال سبعمائة حديث.

الفصل الثامن والثلاثون
فى ترتيب الاقوات بالنقصان منها او بزيادة الاوقات

أما **الأقوات** فقد كان بعض السلف يُنقص منها حتى يردّ النفس إلى أقل قوامها، فمن أراد هذا الطريق فلينْقص فى كل أكلة ربع سُبع رغيف فيكون تاركا لرغيف فى شهر برياضة وتمهل، فلا يؤثر النقصان عليه شيأً حتى تقف النفس على الأكل فى ثلث بطنها، وهو ثلث أكله المعتاد، **وهذا طريق المريدين**. ومن العلماء من لم يكن يعرض للأقوات ولكن يعمل فى زيادة

الأوقات، فيؤخر أكله وقتا بعد وقت حتى ينتهى إلى أكثر طاقة النفس لحمل الجوع بضعف الجسم عن الفرض أو خشية اضطراب العقل، فمن أراد هذا الطريق أخّر فطره كل ليلة إلى نصف سبع الليل حتى يكون قد طوى ليلة فى نصف شهر، وهذا طريق من أراد الطىّ السبعَ والعشرَ والخمسَ عشرة يوماً إلى الأربعين، لأنه يعمل فى تجوّعه على مزيد الأيام ولا يعمل فى نقصان الطعام، فلا يؤثر ذلك نقصا فى عقله ولا ضعفاً عن أداء الفرائض، إذا كان على صحة قصد وحُسن نية وصدْق عقد فإنه يُعان على ذلك ويحفظ فيه، ويكون طعامه إذا أكل عند كل وقت يزيد فيه النقص ضرورة عن غير تعمّل لنقصانه، لأن معاه تضيق لا محالة، فكلما زاد جوعه نقص أكله على هذا إلى أن ينتهى فى الجوع وينتهى فى قلة الطعام.

ولا يُنال فضيلة الجوع التى وردت به الأخبار إلاّ بالطىّ. ومن الناس من يقول حدّ الجوع الأول من الوقت إلى مثله كالغد أربعة وعشرون ساعة، وحدّه الآخر اثنان وسبعون ساعة، فهذا حّد الجوع من الأوقات. فأما حدّه فى الأقوات فكان بعضهم يقول حدّ الجوع أن لا تطلب نفسُك الأدم، فمتى طلبت نفسك الأدم مع الخبز فلست جائعا. فهذا حدّه الأول. وقيل حدّ الجوع أن تطلب الخبز فلا تميز بينه وبين غيره، فمتى تاقت النفس إلى الخبز بعينه فليست بجائعة، لأن لها شهوة فى التخيّر. ومتى لم تميز بين خبز وغيره من مأكول فهذا هو حدّ الجوع، وهو الفاقة والحاجة إلى الطعام الذى جعله الله تبارك وتعالى غذاء للأجسام، ويكون طلب العبد عند هذا الجوع القوام من العيش والضرورة من القوت، وهو ماسدّ الجوعة وأعان على أداء الفريضة، وهذا **حال الصدّيقين**. وقد سمعت بعض هذه الطائفة يقول حدّ الجوع أن يبزق العبد فإذا لم يقع على بزاقه ذباب فقد خلت معدته من الطعام، يريد أن بزاقه قد خلا من الدسومة والدهنية وصار صافيا مثل الماء فلا يسقط عليه الذباب. فأمّا أكل العادات، والتنقل فى الشهوات، والأكل حتى يشبع، فهذا عند العلماء مكروه، وأهله عندهم بمنزلة البهائم، وأما الأكل على شبع والامتلاء حتى يُتخم فهذا فسق عند العلماء. وقد قاله لى بعض العارفين. وروينا أنه قيل **لأبى بكر** أنّ ابنك أكل البارحة حتى بَشِم، فقال لو مات ما صلّيتُ عليه.

فأما **الصوم** فليس هو عندهم الجوع المقصود لإسكان النفس وإخماد الطبع، لأن الصوم يصير عادة ويرجع الصائم إلى قوة طبعه إذا أفطر. فأمّا إذا كان يصوم ويفطر على الشهوات ويمتلىء من الأكل فإن صومْ هذا لا يزيده إلاّ قوة طبع وظهور نفس، وتفتّق عليه الشهوات

ويدخل عليه الفتور عن الطاعات ويجلب عليه الكسل والسبات، وربما قوى طبعه جملة واحدة فظهرت عليه نفسه بقوة مجملة، إلاّ أنه لا يجرى فى نهاره إلاّ فيما أجريت عادته عليه وجعل حاله فيه من أبواب الدنيا والتنقل فى الهوى، وإنْ كان ظاهر حاله أسباب الآخرة لقصور علمه. فالتقلل وأخذ البلغة من القوت فى الأوقات مع الإفطار أصلح لقلب هذا وأدوْم لعمله وأبلغ فى آخرته من مثل هذا الصوم، لأن هذا الذى وصفناه هو صوم أبناء الدنيا المترفين، ليس بصوم أهل الآخرة الزاهدين. ولكن بالتقلل والطَىّ وترك الشهوات واجتناب الشبهات، تنكسر النفس وتذل ويخمد الطبع وتضعف الصفة عن العادة، وتقوى إرادة الآخرة ويعمل المريد فى سعيها، وتخرج حلاوة الدنيا مع القلب، فيصير العبد مع التجوّع والطى وترك النزهات كأنه زاهد. وروينا فى حديث **أسامة بن زيد وأبى يزيد الطويل** اختصرته أنّ أقرب الناس من اللّه عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه فى الدنيا، الأحفياء الأتقياء الذين إنْ شهدوا لم يُعرفوا، وإن غابوا لم يُفتَقَدوا، تعرفهم بقاع الأرض وتحفّ بهم ملائكة السماء، نَعِمَ الناس بالدنيا ونَعِمُوا بطاعة اللّه عز وجل. افترش الناس الفُرُش، وافترشوا الجباه والرُكَب. ضيّع الناس فِعْل النبيين وأخلاقهم، وحفظوهم. تبكى الأرض إذا فقدتهم، ويسخط اللّه تعالى على كل بلدة ليس فيها منهم. لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف. أكلوا الفَلَق ولبسوا الخرق، شُعْثاً غُبْراً، يراهم الناس يظنون أن بهم داء. يقال قد خولطوا وقد ذهبت عقولهم، ولكن نظر القوم بقلوبهم إلى أن ذهبت الدنيا عنهم، فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول. عقلوا حيث ذهبت عقول الناس. لهم الشرف فى الآخرة. ياأسامة إذا رأيتهم فى بلدة فاعلم أنهم أمان لتلك البلدة. لا يعذب اللّه عز وجل قوماً هم فيهم. الأرض بهم رحيمة، والجبّار عنهم راض. اتخذْهم لنفسك أخداناً عسى أن تنجو بهم.وإنْ استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فإنك تدرك بذلك شرف المنازل، وتحل مع النبيين، وتفرح بقدوم روحك الملائكة، ويصلى عليك الجبّار عز وجل.

وممن اشتهر بالطىّ الخمس عشرة يوما، إلى عشرين، إلى شهر، جماعة من العلماء يكثر عددهم، منهم : **ابن عمر، والعوفى، وعبد الرحمن بن إبراهيم، وإبراهيم التيمى، وحجاج بن فرانصة، وحفص بن العابد المصيصى، والمسلم بن سعد، وزهير البنانى،**

وسليمان **الخواص**، وسهل بن عبد الله، وإبراهيم الخواص. وقد كان **أبو بكر الصدّيق** رضى الله عنه يطوى ستاً، وكان **عبد الله بن الزبير** يطوى سبعة أيام، وكان **أبو الجوزاء** صاحب ابن عباس يطوى سبعاً، وروى أنّ **الثورى وإبراهيم بن أدهم** كانا يطويان ثلاثاً ثلاثاً. وقد رأينا من كان يطوى تسعا وخمسا، وكثيرا ممن يطوى ثلاثا ثلاثا. وقد قال بعض العلماء من طوى أربعين يوما من الطعام ظهرت له قدرة من الملكوت. وكان يقول لا يزهد العبد حقيقة الزهد الذى لا مشوبة فيه الا بمشاهدة قُدرةٍ من غيب الملكوت. وبعضهم يقول لا يوقن العبد يقيناً ثابتاً لاستقامةٍ فيه، ولبسة حالٍ لازمة، وعلمٍ نافذٍ فى الملكوت، إلاّ بمشاهدة قُدرةٍ من قُدرة الغيب برأىٍ عين، تظهر له بشهادة دائمة يقوم بها، فعند هذا يعرف من الله تعالى. ويصحّ للعبد المراد بهذا الطريق أن يطوى حتى الأربعين يوما فى السنة على ما نزلنا من تأخير الأوقات وقتاً بعد وقت، ورتّبنا من رياضة النفس فى الأوقات حتى تندرج الليالى فى الأيام وتدخل الأيام فى الليالى، فتكون الأربعون بمنزلة يوم واحد وليلة واحدة. وهذا طريق بعض المقرّبين، لا يقدر عليه إلا مرادٌ به محمولٌ فيه، مكاشَفٌ بشهادة تشغله عن نفسه، وتقطعه عن طبعه وعادته، وتنسيه جوعه، وتكشف له حقيقته ومرجوعه. وقد عرفنا من كان فعل ذلك وظهرت له آيات من الملكوت، وكُشف له عن معانى قُدرةٍ من الجبروت، تجلّى الله له عز وجل بها ومنها كيف شاء.

وقد وقف بعض هذه الطائفة على **راهب**، فذاكره بحاله وطمع فى إسلامه وترْك ماهو عليه من الغرور، فكلّمه فى ذلك بكلام كثير، إلى أنْ قال له الراهب فإنّ **المسيح** كان يطوى أربعين يوما وأنا معتقد إعجاز هذا، وأنه لا يكون إلاّ لنبى، فقال له **الصوفى** فإنْ طويت خمسين يوما ما تترك ما أنت عليه ، وتدخل فى دين الإسلام، وتعلم أنّ ما نحن عليه حق وأنك على باطل؟ قال نعم، فقعد عنده لا يبرح ولا يذهب إلاّ من حيث يراه الراهب إلى أنْ طوى خمسين يوما، فقال أزيدك أيضا ، فطوى إلى تمام الستين ، فعجب الراهب منه ، واعتقد فضله وفضل دينه ، وقال ما كنت أظن أن أحداً يجاوز فعل المسيح عليه السلام، ولكن هذه أمة تُشبّه بالأنبياء فى العلم والفضل، فكان سبب إسلامه.

وممن كان يطوى أربعين يوما **إبراهيم التيمى وحجّاج بن فرافصة**. فأمّا الثلاثون

والعشرون فقد حُكى عن عدد كثير، منهم **سهل بن عبد الله** وجماعة من البصريين. وأمّا من يأكل فى الشهر أكلتين وثلاثة وأربعة فهم كثير من الشاميين والجزريين. وإنْ حَبّ المريد أن يقسمم فطره قسمين، فيأكل رغيفا عند إفطاره فى أول الليل فيسكن بذلك جوعه، ويأكل رغيفا عند السحر يستعين به على صومه فحسن. وإنْ أحبّ تأخير الإفطار على رياضة، ووقف عند السحر فلم يجاوزه، فيكون أكله سحراً، فيحصل له بذلك **خمسة** أشياء – جوع النهار للصائم، وجوع الليل للقائم، وخلو القلب لفراغ المعدة، ورقة الفكر، واجتماع الهمّ لخلو القلب، وسكون النفس للمعلوم فلا ينازعه قبل وقته – وهذا أوسط الطرقات وأحبّها إلىّ، وهو **طريق السائرين**.

وفى حديث **عاصم بن كليب** عن أبيه عن **أبى هريرة** قال: ماقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط وإنْ كان ليقوم حتى تزلع رجلاه، وما واصل وصالكم هذا قط غير أنه قد أخّر الفطر إلى السحر. وفى حديث **عائشة** رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواصل إلى السحر.

فإنْ كان المريد يصوم يوما ويفطر يوما، وهو أعدل طرقات الصيام أيضا، أكل يوم فطره بعد الظهر، وليلة صومه عند الفجر، فإنْ لم يفعل فليأكل يوم فطره نصفَ أكله بالأمس، فكأنه صائم، فإن لم يفعل اضطرب جسمه وداخله الفتور فى حاله. ومن لم يكن له معلوم فلا بأس أن يأكل شبعه ثم يتربص حتى ينتهى جوعه. فعلامة جوعه أن لا تختار نفسه الخبز دون غيره من المأكولات ، فإنْ اختارت نفسه الخبز ففيه بقية من الشبع. **وعلامة شبعه** بعد الأكل أن يأكل الخبز البحت على شهوة ، فإذا تاقت نفسه إلى الأدم فقد ابتدأ شبعه، فإنْ تخيّرت الإدام فهو شبعان. وترك المعلوم فى الطعام **طريق صوفية البغداديين،** والوقوف مع المعلوم **طريقة البصريين** . ولمّا قَدِم صوفية أهل البصرة على **أبى القاسم الجنيد** بعد وفاة **سهل** رحمه الله تعالى ، قال لهم كيف تعملون فى الصوم، فقالوا نصوم بالنهار فإذا أمسينا قمنا إلى قِفافنا، فقال آه آه لو كنتم تصومون بلا قِفاف كان أتمّ لحالكم، أى لا تسكنون إلى معلوم، فقالوا لا نقوى على هذا. ولعمرى إنّ **طريق البغداديين** بترك المعلوم من المطعوم أعلى، وهو **طريق المتوكلين من الأقوياء. وطريقة البصريين** بالمعلوم والتوقيت أسلم من آفات النفوس وأقطع للتشرّف والتطلّع ، وهو **طريق المريدين والعاملين**.

ذكر رياضة المريدين فى المأكول وفضل الجوع وطريقة السلف فى التقلل والأكل

كان **أبوذر** يقول فى بعض إنكاره قد غيّرتم بنخلكم الشعير ولم يكن منخل، وخبزتم المرقّق، وجمعتم بين أدمين، واختلف عليكم بألوان الطعام، وغدا أحدكم فى ثوب ورجع فى آخر، ولم يكونوا هكذا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان يقول قوُتى فى كل جمعة صاع من شعير، والله العظيم لا أزيد عليه حتى ألقاه، فإنى سمعته يقول صلى الله عليه وسلم: أحبّكُم إلىّ وأقربُكم منى مجلساً يوم القيامة، مَن مات على مثل ما تركتُه عليه... وقد كان قوت جماعة من الصحابة صاع من حنطة فى كل جمعة، فإذا أكلوا التمر اقتاتوا صاعاً ونصفا. وكان قوت **أهل الصُفّة** مدر من تمر بين اثنين فى كل يوم، والمدر رطل وثلث، وكان **الحسن** يقول المؤمن مثل العُنيزة ، يكفيه الكفّ من الحَشَف، والقبضة من السويق، والجرعة من الماء. والمنافق مثل السبع سرْطاً سرطا، وبلْعاً بلعا، لا يطوى بطنه لجاره ولا يؤثر أخاه بفضله.وكان **أبو يزيد البسطامى** يقول إذا وجد الفقير الماء سقط عنك فرضُه. وفى الحديث المشهور العام: المؤمن يأكل فى مَعًى واحد، والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء . هذا على التمثيل فى الاتساع والكثرة، أى يأكل أضعاف أكل المؤمن، فكأن المؤمن يأكل سُبع أكل المنافق. والعرب ترفع فى ذكر ضِعف الشىء وأضعافه إلى سبعة. وقد فسّر ذلك عالمنا **أبو محمد سهل** فقال معنى يأكل فى سبعة أمعاء، شهوة و شَرَه وطَمَع وحرْص ورغبة وغفلة وعادة، أى فالمنافق يأكل بهذه المعانى، والمؤمن يأكل بمعنى الفاقة والزهد. ولهذا كان يقول لو كانت الدنيا دماً غبيطاً كان قوت المؤمن منها حلالاً، لأن أكل المؤمن عنده ضرورة للقّوام. ومن الناس من يضيف هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله علية وسلم وهو مخطىء فى ذلك، إنما هو كلام إمامنا **سهل بن عبد الله التسترى** رحمه الله. وقد سئل عن قوت المؤمن، فقال قوته الله تعالى، قال سألت عن قوامه، فقال الذكر، فقال إنما سألت عن غذائه، فقال غذاؤه العلم، قلت سألت عن طُعمة الجسم، فقال مالَكَ والجسم، دعْ الجسم علَى مَن تولاّه قديما يتولاه الآن. ثم قال الجسد صنْعة إذا عابت رُدّها إلى صانعها. وكان يقول القوت للمؤمنين ،والقّوام للصالحين، والضرورة للصدّيقين . ومن كان ذا معلوم فالمستحب له أن لا يزيد على رغيفين فى يوم وليلة، وليجعل بينهما وقتا طويلا مرة، وقصيراً أخرى، على حسب

الحاجة وتوقان النفس إلى الغذاء، لا على طرد العادة والشهوة. والرغيف **ستة وثلاثون** لقمة، يكون قَوام النفس فى كل ساعة **ثلاث** لقمات، فإذا أراد أن يأكل الرغيف على هذا التقسيم فليجرع بعد كل **ثلاث** لقم جرعة ماء، فذلك **اثنتا عشرة** جرعة فى تضاعيف **ست وثلاثين** لقمة، ففى ذلك قَوام الجسم وصلاحه فى كل يوم وليلة على هذا الترتيب. وقد روينا فى مجمل هذا أثراً ، كان **أبوذر** يقول كان قوتى على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم صاعاً فى كل جمعة ، واللّه العظيم لا أزيد عليه حتى ألقاه. فهذا يكون فى كل يوم رطل أو نحوه. والأصل فى جُمْل ما ذكرناه من التنزّل فى القوت مارويناه أنّ النبى صلى اللّه عليه وسلم نظر إلى رجل سمين فأومأ إلى بطنه بإصبعه فقال: لو كان هذا فى غير هذا كان خيرا لك، : يعنى لو قدّمته لآخرتك وآثرتَ به إخوانك فكان فى غير جوفك لكان ذلك خيراً لك، ويعنى قلة الطعام خيْر من كثرته.وتجشأ **أبو جحيفة** عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من ثريد ولحم قال كنتُ أكلتُه، فقال أكففْ عنا جُشاءك فإنّ أكثركم شبعا فى الدنيا أطولكم جوعا يوم القيامة. قال فواللّه ماملأتُ بطنى من طعام بعدها إلى يومى هذا، وأرجو أن يعصمنى اللّه فيما بقى.

وقد روينا عن **الحسن** عن **أبى هريرة** أن **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** قال: البِسوا الصوف وشمّروا وكُلوا فى أنصاف البطون تدخلوا فى ملكوت السماء... وروينا عن **عيسى** عليه السلام أجيعوا أكبادك، واعروا أجسادكم، لعل قلوبكم ترى اللّه عز وجل. وقيل **لأبى يزيد البسطامى** وهو أعلى هذه الطائفة إشارةً، بأى شىء نلتَ هذه المعرفة، قال ببطن جائع وجسد عار. وفى **التوراة** مكتوب أن اللّه تبارك وتعالى ليبغض الحبْر السمين. وفى بعض الكتب ويمقت أهل بيتٍ لَحِمين . وقد روينا عن **ابن مسعود** أن اللّه عز وجل يبغض القارىء السمين. وفى خبر مرسل أنّ الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فضيّقوا مجاريه بالجوع والعطش.. فإذا جعل العبد شبعه بين جوعين كان جوعه أكثر من شبعه وسلِم من حديث أبى جحيفة. ومن كانت له جوعة بعد كل شبعة اعتدل جوعه وشبعه، ومن أكل فى كل يوم مرتين فقد تابع الشبع، وتحقق بخبر أبى جحيفة، وشبعه حينئذ أكثر من جوعه وليس ذلك من السنّة، وهو من فعل المترفين، وكانوا يعدّونه سرفا.

وقد روينا عن **أبى سعيد الخدرى** عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه كان إذا تغدّى لم يتعشّ، وإذا تعشّى لم يتغدّ . وكان السلف يأكلون فى كل يوم أكلة. وقد روى أن **النبى**

صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى اللّه عنها: إياك والإسراف، فإن أكلتين فى كل يوم من الإسراف. وقد قال اللّه عز وجل "**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا** "، فكأن **أكلتين** فى يوم ، إسراف **وأكلة** فى **يومين** إقتار، **وأكلة** فى يوم قواما بين ذلك. وأقول على هذا إنّ أكل أربعة أرغفة سرف ، ورغيفين وثلاثة أرغفة قوام حسن ، وهذا أعدل الأقوات . ولا يعجبني أكل أربعة أرغفة فى مقام واحد، لأنى لا آمن به ازدياداً فيصير ذلك مقتا. وقد روى فى خبر الأكل على الشبع يورث البَرص . وقال بعض السلف إنّ من السرف أن يأكل العبد كلما يشتهيه. وقد كان للصحابة أكلتان وشربتان، فالأكلتان الوجبة والغَبُوق، فالوجبة من الوقت إلى الوقت، والغبوق أن يشرب مَذْقة لبن أو يأكل كفّ تمر عند النوم أو بعد عتمة، أو يكون عند الظهيرة، وقد يكون سَحَرا، والشربتان العَلَل والنَّهَل، فالنهل الشَّرْبة الأولى من اللبن بمنزلة الوجبة، والعلل الشربة الثانية بمنزلة الغَبوق ، من نقيع تمر أو زبيب يقوم مقام الأكلتين فهن تمام الرى، والأولى عُلالة النفس من العطش فسمى عَلَلاً.

وكان من أخلاق السلف ترك الشبع اختياراً لأنفسهم لخفة الجسم، أو مواساة الفقراء ،أو مساواةٍ لهم فى الحال لئلا يفضلوا عليهم فى حالهم، ولهذا قالت **عائشة** رضى اللّه عنها **أول بدعة** حدثت بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الشبع، أنّ القوم لمّا شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى الدنيا. وروينا فى خبر كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يجوع لا من عَوَز، أى مختاراً له مع الإمكان فى الأوقات. وقال بعض العلماء أبغض الأشياء إلى اللّه عز وجل بطنٌ ملىء ولو من حلال. وقد روينا معناه مسنداً. وقد كان من أخلاق التابعين الصبر على الطعام إلى أحد حدّى الجوع، الأول منها وهو أربعة وعشرون ساعة. ولم يكن من أخلاقهم الأكل لعادة ، ولا تخيّر الأطعمة . وكان **أبو سليمان الدارانى** يقول إذا عرضت لك حاجة من حوائج الآخرة فاقضها قبل أن تأكل، فما من أحد شبع إلاّ نقص من عقله، أو قال تغيّر عقله عما كان عليه. وكان يقول لأن أترك من عشائى لقمة أحَبُّ إلىّ من قيام ليلة . وروينا عن **وهب بن منبه** وغيره أنّ عابداً دعا بعض إخوانه فقرّب إليه رغيْفات، فجعل أخوه يقلّب بعض الأرغفة ليختار أجودها، فقال له العابد مَه أى شىء تصنع؟ أما علمت أنّ هذا الرغيف الذى رغبتَ عنه ولم تقنع به قد عمل فيه كذا وكذا صانع، وظهرت فيه كذا وكذا صنعة، منها السحاب الذى يحمل الماء، والماء الذى يسقى الأرض، والأرض التى أنبتت، والرياح والبهائم وبنو آدم، حتى صار إليك، ثم أنت بعد هذا تقلّب لا ترضى به؟ وقال الآخر زيادة فى الخبر:

إنّ الرغيف لا يستدير فيوضع بين يديك حتى يعمل فيه **ثلاثمائة وستون** صانعا وصنعة، أولهم **ميكائيل** الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة، ثم الملائكة التى تزجر السحاب والشمس والقمر والأفلاك وملكوت الهواء ودواب الأرض، وآخر ذلك الخبّاز، وإنْ تعدُّوا نعمة اللّه لا تحصوها.

والخبر المشهور ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطن، فدلّ أنّ ما نقصَ من ملء البطن فذلك خير، ثم قال حسْب ابن آدم لقيمات يشددن صلُبه. ففى قوله لقيمات معنيان، التقلل والتصغير، لأن التاء تدخل للجمع القليل وهو مادون العشرة من العدد، والمعنى الآخر هو بالتصغير لأن لقيْمة تصغير لقمة، ثم قال فإنْ لم يفعل فثلثٌ طعام ، وثلثٌ شراب ،وثلثٌ للنَّفَس، وفى لفظ آخر وثلثٌ للذكْر فدلّ أيضا أنّ ملء البطن يمنع من الذكر، وما منع من الذكر فهو شرّ، قال اللّه سبحانه وتعالى «**واللّه خير وأبقى**» ، وقال «**والآخرة خير وأبقى**»، ومعنى قوله صلى اللّه عليه وسلم **ثلث طعام** أن يأكل شبعه المعتاد فيصير ثلث الشبع قَوام الجسد باعتيادٍ ثانٍ، كما كان ملء البطن من الشبع هو العادة الأولى. وثلث الشبع هو ثمان أوآق. فهذا على معنى الخبر الآخر طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الأربعة، ففى هذا خمسة أوجه: قال بعض علمائنا البصريين طعام الواحد شبعاً يكفى الاثنين قوتا، وطعام الاثنين شبعاً يكفى الأربعة قوتاً، ومنهم من قال طعام المسلم يكفى مؤمنْين، وطعام مسلميْن يكفى أربعة من خصوص المؤمنين. ويجوز أيضا أن يكون طعام الواحد من المنافقين يكفى مسلميْن على معنى قوله المؤمن يأكل فى معىً واحد، والمنافق فى سبعة أمعاء. ويصلح أن يكون معناه طعام الواحد من الصنّاع المتصرفين فى المعايش يكفى اثنين ممن هو قاعدلا يتصرف، ويصلح أيضا طعام الواحد من المفطرين يكفى طعام صائميْن من الخصوص.

وفى خبر **عمر** رضى اللّه عنه حين قال **لابن مسعود وأبى موسى** فى قصة المرتّد الذى قتلاه قبل أن يستتيباه ويْحكُما، ألا طيّنتم عليه بيتا وألقيتم إليه كل يوم رغيفا ثلاثة أيام ، فلعله أن يتوب ويرجع إلى الإسلام . اللّهم إنى لم آمر ولم أعلم ولم أرض إذ بلغنى .

فدلّ هذا أن فى كل رغيف كفاية يوم، وثلاثة أرغفة عندنا بالحجاز رطل ، لأن الرطل المكّى عدد ستة أقراص منذ ذاك إلى يومنا هذا، فيكون كل رغيف ثمان أواق، فهذا كما قلناه أنّ ثمان أواق ثلث الشبع، لقوله ثلث طعام بعد قوله لقيمات جمعٌ لما دون العشرة، وهذا مواطىء لما روى عن **عمر** رضى اللّه عنه أنه كان يأكل سبع لقم.

وحدثونا فى أخبار الخلفاء أنّ **الرشيد** جمع أربعة أطباء : **هندى** ورومى وعراقى وسوادى، فقال لهم ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لا داء فيه، فقال الهندى الدواء الذى لاداء فيه عندى هو الإهليلج الأسود، وقال الرومى الدواء الذى لاداء فيه حبّ الرشاد الأبيض، وقال العراقى الدواء الذى لا داء فيه الماء الحار، فقال السوادى وكان أعلمهم أنّ الإهليلج يُعفِص المعدة وهذا داء ، وأنّ حبّ الرشاد يرقّ المعدة وهذا داء، وأنّ الماء الحار يُرخِى المعدة وهذا داء، قالوا فما عندك ؟ قال الدواء الذى لا داء فيه: أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه، وترفع يدك عنه وأنت تشتهيه، فقالوا صَدَق.

وحدثنى بعض العلماء قال ذكرتُ لبعض الفلاسفة من أطباء **أهل الكتاب** قول النبى صلى الله عليه وسلم ثُلث طعام ، وثلث شراب وثلث نَفَس، فتعجّب منه واستحسنه. وقال ما سمعت كلاماً فى قلة الأكل أحكم من هذا ، وإنه لكلامُ حكيمٍ. ثم قال جَهِدتْ الأطباء من الفلاسفة أن يقولوا مثل هذا فى التقلل من الأكل فلم يهتدوا إليه، فأكثر ماقالوا لا تقعد على طعامك حتى تشتهيه، وترفع يدك عنه وأنت تشتهيه. ومنهم من قال لا يأكل إلاّ بعد الجوع ويرفع قبل الشبع، ومنهم من قال لا يأكل إلاّ بعد الجوع المفرط ، ولا يشبع شديدا. وإنما كان مراده هذا الذى ذكره نبيكم. وقد كان بعض علمائنا يقول من أكل **خبز الحنطة** بأدب لم يعتل إلاّ علّة الموت. والأصل فى هذا أن العلل داخلة على الأجسام من اختلاف نبات الأرض، لأن المعدة مركبة على طبائع أربع، الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وكذلك منابت الأرض على هذه الطبائع الأربع، فإذا أكثر من اختلاف منابتها، أمالت الحرارة والبرودة من النبات غرائز الطبائع من الحرارة والبرودة من المعدة، وأمالت الرطوبة واليبوسة من النبات غرائز الطبائع من الرطوبة واليبوسة، فزاد بعضٌ على بعض وقوى، وصِفَ على مِثْله ، فكانت الأمراض من مثل ذلك، لأن كل مأكول من نبات الأكل يعمل فى وصفٍ من معانى الجسم، وأن الحنطة ، وأن الحنطة مخالفة لسائر نبات الأرض المعتدلة فى الطبائع الأربع كاعتدال الماء فى سائر الأشربة، وقد شبهوا لحم الدرّاج فى خفّته وقلة دهنه من سائر اللحوم بطبع الحنطة فى سائر الحبوب . وقال بعض الأطباء كلْ من الخبز بحتاً ماشئت فإنه لا يضرك، وقال غيره أكْلُ الخبز وحده خيرٌ من الأدم المُردِى ، وقال بعضهم لم يُدخل الإنسان إلى معدته أنفع من **الرمّان** ولا أضرّ من **المالح** ، ولأن يتقلل من المالح خير له من أن يستكثر من الرمّان . وقد مثّل الأُتْرُج من سائر الفاكهة على سائر المعدة فى الطبائع الأربعة . وقد شبّه رسول الله صلى الله عليه

وسلم المؤمن بالأُتْرُجة ، طعمها طيب ، وريحها طيب . فهذه لطيفة من اللطيف، وحكمة من الحكيم تعالى، إذا أراد صحة جسم عبدٍ أوحى إلى المعدة أن يأخذ كل طبع منها ضده من نبات الأرض الذى وقع فى المعدة، فيأخذ طبع الحرارة طبع البرودة، ويأخذ طبع الرطوبة طبع اليبوسة من المأكول، فتعتدل الطبائع، فيستوى المزاج، فيكون ذلك سببا لصحة الجسم من علله، فإذا أراد إسقام جسم أمر كل طبيعة أن تأخذ جنسها ومثلها من المأكولات من نبات الأرض، ثم يدور ذلك فى الجسد بمجارى العروق ومصباتها إلى الأعضاء المتفاوتة الأدوات ، فتقع كل أداة فى عضو أفضل ضدها فتثقل بها، ويغشى كل آلة من جارحة مالا يلائمها من طبعها فيسقم الجسم وتتفاوت العلل، فيكون هذا سبب الأمراض والعوارض نعوذ بالله.

وقد روينا أصل بنية الإنسان فى **التوراة** عن الله تعالى فى صفة خلق آدم عليه السلام حين خلقه الله عز وجل وابتدعه ، فقال إنى خلقتُ آدم وركّبتُ جسده من **أربعة** أشياء ، من رُطب ويابس وسُخن وبارد، لأنى خلقته من التراب، ورطوبته من الماء، وحرارته من قِبَل النَفْس ، وبرودته من قبل الروح، ثم جعلتُ فى الروح أربعة أنواع من الخلْق هن ملاك الجسم وقوامه، ولا يقوم منهن واحدة إلاّ بأخرى، منهن المِرّة السوداء، والمرة الصفراء ، والدم ، والبلغم، ثم أسكنت بعض هذا فى بعض ، فجعلت مسكن اليبوسة فى المِرّة السوداء ، ومسكن الرطوبة فى المرة الصفراء، ومسكن الحرارة فى الدم، ومسكن البرودة فى البلغم، فأيما جسد اعتدَلَت فيه هذه الفطر الأربع فكانت كل واحدة منهن رُبعا لا تزيد ولا تنقص ، كملُت صحته واعتدلت بِنْيته، فإن زاد منهن واحدة عليهن قهرتهن ومالت بهن ودخل عليه السُقم بقدر غلبتها. وقد تغلب الحرارة على بعض المريدين من قِبَل قوة المزاج وحدّة الشبهات فيظهر الطبع فيتسع المَنِىّ على العَزِب، كما تقوى الحرارة فينبع الدم، لأن أصل المنى هو الدم يتصاعد فى خرزات الصلُب وهناك مسكنه، فتُنضجه الحرارة فيستحيل أبيض، فإذا امتلأت منه خرزات الصلب وهو الفقار، طلب الخروج من مسلكه فقويت الصحة بذلك، فهذا حين هيجان الإنسان إلى النكاح. ولا يصلح لمثل هذا أن يأكل الحرارات من الأطعمة، وليطفىء ذلك يأكل البرودات ، وليجتنب أكل كل حار يابس أو بارد رطب فإنه يهيج الطبع ويقوّى العضو.

وقد روينا عن **قتادة** فى تفسير قوله تعالى « **ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به**» قال الغُلمة.

وقال **فيّاض بن نجيح** إذا قام ذكَر الرجل ذهب ثلث عقله، وقد روينا عن **ابن عباس** فى قوله تعالى "**ومن شر غاسق إذا وقب**" قال قيام الذكَر، وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ أنه قال الذكَر إذا دخل . وعن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنه كان يقول أعوذ بك من شرّ سمعى وبصرى ولسانى وقلبى ومَنِيّى، وروينا عن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليهن أجمعين السلام أنهن كن يأكلن الخلّ والبرودات بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطعن به الشهوة.

وقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنّ لكل شىء باباً، وباب العبادة الصوم، والخبر المشهور صوموا تصّحوا . وقد نوّع **أبو سعيد الخراز** مقامات أهل الجوع فى مقاصدهم عن مواجيدهم وهممهم، وقال عن **عبد الواحد بن زيد** أنه كان يُقسِم بالله ما صافى أحداً إلا بالجوع ، ولا مشوا على الماء إلا بالجوع ، ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع . وكان يعد الأخلاق السنية الشريفة المحمودة ويحلف أنهم ما نالوها إلا بالجوع . وقال **أبو سعيد** معنى الجوع اسم معلّق على الخلْق، افترقوا فى الدخول فيه والعمل به لعلل كثيرة، فمنهم من يجوع وَرَعاً إذا لم يصب الشىء الصافى، ومنهم من وجد الشىء الصافى فتركه زهداً فيه من مخافة طول الحساب والوقوف والسؤال، ومنهم من استلذّ العبادة والنشاط بها والخفة، فرأى النيل من الطعام والشراب قاطعاً له وشُغلاً عن الخدمة والخلوة، ومنهم من قرُب من الله عز وجل فلزم قلبه حقيقة الحياء حين علم أن الله تبارك وتعالى مشاهِدُه، وكان الحياء مقامه لا غير، فتوهم أن الله تعالى يراه وهو يمضغ بين يديه ويأكل ويشرب، فيؤديه ذلك إلى الكنيف ، فيجوع من هذه العين، وهكذا كان **أبو بكر الصدّيق** رضى الله عنه، ومنهم من أدركه السهو عن حاجاته فسلا عن نيل مصلحتين حتى يذكر فى الغيب أو يُذكَر، وحدثونا عن بعض هذه الطائفة قال أتيت **قاسماً الجوعى** فسألته عن الزهد أى شىء هو ، فقال اعلم أنّ البطن دنيا العبد، وبمقدار ما يملك من بطنه يملك من الزهد، وبمقدار ما يملكه بطنه تملكه الدنيا. وعلى هذا المعنى قال **وهب بن منبه** حكيم هذه الأمة لكل شىء وسط وطرفان، فإذا أمسكتَ أحد الطرفين مال الآخر، وإنْ أمسكتَ الوسط اعتدل الطرفان، فكذلك البطن وسطاً بين الجوارح، إن أمسكتها اعتدلتْ الأطراف ، السمع والبصر واللسان والفرج والرجلان. وكذلك كان شيخنا **ابن سالم** يقول إذا أعطيت البطن حظه من الشّبع، طلبتْ كل جارحة حظها من اللهو، فجمحت بك النفس إلى الهلَكة، وإذا منعت البطن حظه قصرت عنك كل

جارحة عن حظها فاستقام القلب لذلك.

ويُستحب للعبد إذا كان جائعا فتاقت نفسه إلى **الجماع** أنْ لا يأكل لئلا يجمع لنفسه بين حظين فيطلبهما، فربما طلبتّ الجماع للتعفف وهى تريد الأكل لتنبسط به إلى الجماع. وفى الجمع بين شهوتين تقوية النفس وإجراء عادة لها. ويستُحب للعبد إذا أكل أنْ لا ينام على أكله فيجمع بين غفلتين فيعتاد الفتور ويقسو قلبه لذلك، ولكن ليُصلِّ أو يجلس فيذكر اللّه تعالى فإنه أقرب إلى الشكر. وفى الحديث أذيبوا طعامكم بالصلاة والذِكْر، لا تناموا فتقسو قلوبكم. فأقل ذلك أن يصلى أربع ركعات ، ويسبح مائة تسبيحة ، ويقرأ جزأ من القرآن عُقيب كل أكلة . وقد كان **سفيان الثورى** إذا شبع فى ليلةٍ أحياها، وإذا شبع فى يوم واصله بالصلاة والذِكر. وكان يتمثل فيقول أشبعْ الزنجى وكِده. ومرة يقول أشبِع الحِمار وكِده. وكان إذا جاع كأنه يتراخى فى ذلك.

وينبغى للمتقشف أنْ يأكل اللحم والدسم فى الشهر **مرتين**، فإنْ أكله **أربعاً** فلا بأس، وقد كان السلف يفعلون ذلك. وفى خبر عن **علىّ** عليه السلام من ترك أكل اللحم **أربعين** يوما ساء خُلُقه، ومن داوم عليه أربعين يوما قسا قلبه. وقد نُهِى عن مداومة اللحم ، وقيل إن له ضراوة كضراوة الخمر. وقد كان **أبو محمد سهل** رحمه اللّه يقول للمتقللين من أهل **عبادان** احفظوا عقولكم وتعاهدوها بالأدهان والدّسَم فإنه ما كان ولىٌ للّه عزّ وجلّ ناقص العقل. وإنْ أحبّ المريد أن يأكل شيأ من الطيبات والفاكهة فليجعل ذلك بدلا من الخبز ويقطع به جوعه، فيكون ذلك له قوتا عند الحاجة إلى طعم، ولا يكون تفكّها لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة. ونظر **أبو محمد سهل** إلى **ابن سالم** شيخنا رحمه اللّه وفى يده خبز وتمر، فقال له ابتدِ بالتمر فإنْ قامت كفايتك به وإلاّ أخذتَ من الخبز بعده حاجتك، وقال إنّ التمر مبارك والخبز شؤم، يعنى أنه كان سبب إخراج **آدم** من الجنة، وأمّا بركة التمر فإنّ اللّه تعالى ضرب النخلة مثلاً لكلمة التوحيد فى قوله تعالى« **ألم تر كيف ضرب اللّه مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء**»، قال **ابن عباس** كلمة التوحيد لا شىء أحلى منها، كشجرة طيبة وهى النخلة، وليس فى الثمار أحلى من الرطب، ولذلك شبّه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المؤمن فى حلاوته ولينه وقوته وثبات أصله بالنخلة، فقال لا يسقط ورقها، مِثلها كمثل المؤمن.

وقال **سهل** رحمه الله إذا استغنيت عن الخبز بغيره من الطعم كان خيراً لك، يريد أن لا توقف نفسك مع عادة فتنازعك إليها. وقد ذكرتُ هذه الحكاية **لأبى بكر بن الجلاّء** فأعجبته وقال هذا كلام الحكماء. وكان هذا يلائم حاله. وإنْ خشى المريد أن يكون شيء من المآكل والطيبات له عادة ولم يأمن توقان نفسه إليه ومنازعتها إياه ، وكان مبتدئا غراً لا يعرف خبء النفس ودواعيها، ولا يفطن لمكرها وآفاتها، فإن ترْكَ ذلك أفضل، فليتركه حينئذ لأجل الله خوفاً أن يشتهيه فيحرص على مثله، ويدخل مداخل السوء من أجله، ويبيع دينه فيه، أو خشية تمكّن العادة فيه فتعذُر عليه التوبة لدخوله فى الشبهات عند اعتياد الشهوات، لأن **العادة** جند الله تغلب العقل، **والابتلاء** سلطان من سلطان الله تعالى يقهر العلم، لأجله تعذرت الاستقامة. ولولا العادة لكان الناس تائبين، ولولا الابتلاء لكان التائبون مستقيمين، فليترك حينئذ أكل الطيبات إذا صارت شهوات وخشى منها مطالبة العادات ودعاوى النفس بالآفات، ناويا بذلك ماذكرناه لصلاح قلبه وتسكين نفسه ، ليملك بذلك نفسه قبل أن تملكه، ويفطم عادتها قبل أن تهلكه، ويغلب بالترك طبعه وهواه قبل أن يكونا بالشهوة يغلبانه، كما قال بعض الحكماء إنى لأقضى عامة حوائجى بالترك فيكون أروْح لنفسى، وكما قال آخر إذا أردت أنْ استقرض من غيرى لشهوة استقرضت من نفسى، فتركت الشهوة فهى خير غريم لى، فيصير الترك حينئذ والمنع للنفس غذاء وعادة ، كما كان الأخذ والأكل عادة، ففى هذا عون له على صلاح قلبه ودوام حاله. وكان **إبراهيم بن ادهم** يسأل أصحابه عن الشيء من المأكول فيقال إنه غال، فيقول له أرخصوه بتركه. وقال بعض الأدباء فى معناه :

وإذا غلا شيء علىّ تركته * فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وهو حينئذ تارك للشهوات لأجل الله تعالى، وعاملٌ من عمال الله. وقد كان هذا طريق طائفة من السلف إلى الله تعالى، ثم انقرضوا فانمحى طريقهم، وخلف بعدهم خلف من العلماء ابتغوا الشهوات، ولم يقاموا فى هذه المقامات ولا سلك بهم هذه الطرقات، فلم يتكلموا فى ترك الشهوات ، فلذلك درس هذا الطريق وعفا أثره لفقْد سالكه وعُدْم كاشفه، فمن عمل به وسلكه فقد أظهره، ومن أظهره فقد أحيا أهله.

واعلم أن الشهوات لا حدّ لها ، فإن لم تقطع الشهوات وتحسمها أحب ماكانت إليك، أعطتك أرغب ماتكون فيها، فلا تقعد عن التوبة تنتظر آخرها فإن النفس لا آخر لشهواتها،

فإنْ لم تترك الشهوات المعتادة فلا تعمل فى مثلها من الزيادة، بل يكون عملك فى النقصان فهو أقرب إلى أخلاق الإيمان. وقد كان بعضهم يقول لأصحابه لا تأكلوا الشهوات، فإن أكلتموها فلا تطلبوها، فإنْ طلبتموها فلا تحبوها. وكانوا يقولون مازاد على الخبز فهو شهوة حتى الملح. وقال بعضهم **الخبز** من أكبر الشهوات. واعلم أنّ مازاد على الخبز فهو **فاكهة** يُتفكّه به، فإن كان لابد من التفكّه بفاكهة مع الخبز فهو التوسط فى الإدام، مثل الخبز واللبن، لأن أعلى الإدام اللحم والحلو، وأدناه الملح والخل، فلم يأمر سبحانه وتعالى بأعلاه لأنه يشق على الأغنياء، ولم يأمر بالأدنى لأنه يشق على الفقراء، وتوسط الأمر بينهما فقال عز **من** قائل« من **أوسط ما تطعمون أهليكم** » فهو ما ذكرناه ، وعلى ذلك فإن ابتلى العبد بأكل الشهوات وحبها فليظهر ذلك ولا يخفيه، وليشترها بنفسه ولا يستسرها فإنّ هذا من صدق الحال، وهو طريق السلف، إنْ فاته المجاهدة فى الأعمال فلا يفوته الصدق فى الحال، وإنْ لم يكن صدّيقا فليصدُق فى كذبه فإنّ الصدق فى الكذب أحد الصدقينْ، وإنّ إخفاء الكذب والنقص وإظهار ضده من الإخلاص والتمام هو كذبان، لأنه نَقَص وأظهر حال الكاملين ، واعتلّ وأبدى شعار المعصومين، فكَذَب من طريقين ، واستحق المقت من وجهين ، فلذلك غضب اللّه عز وجل على المنافقين ومقتهم مقتين، ثم لم يرض منهم إلا بتوبتين، واشترط عليهم شرطين، فقال تعالى« **إنّ المنافقين فى الدرك الأسفل من النار**»، يعنى أسفل من الكفّار، لأن الكافر أخلص فى كفره فسوّى بين باطنه وظاهره، والمنافق كَفَر وأشرك فى إيمانه فخالف بين باطنه وظاهره، واستخفّ بنظر اللّه عز وجل إلى قلبه وعظّم عين المخلوق، فزاد اللّه عز وجل فى هوانه، وشدّد فى توبته بما وكّد من شرطه، فقال تعالى« **إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا باللّه وأخلصوا دينهم للّه**» الآية. وهذا الضرب من الرياء مما يُمتحن به عالم باللّه عز وجل ، ولا عاقل عن اللّه عز وجل وللّه الحمد. وإنْ ابتلوا بأكل الشهوات وببعض المعاصى كما تجرى الذنوب على العارفين فإنهم لا يبتلون برياء المخلوقين. وليس للسلف فى هذا الباب إلاّ طريقان، **طريق** هو المجاهدة للنفس وترك الشهوات ، فمنهم من كان يخفيه لأنه أسلم له، ومنهم من كان يُظهره لأنه مؤمن قوى، نيته فى ذلك القدوة والتأسّى. **وطريق** آخر كان فيه طائفة من العلماء والعاملين ، وكانوا يأكلون الطيبات ويتسعون فى المآكل إذا وجدوها، إلاّ أنهم كانوا يظهرون ذلك ويكشفون نفوسهم به. فإنْ فاتك الطريق الأعلى فاسلك الطريق الأوسط الأسلم. فأماّ أنْ يكون العبد يأكل الشهوات فى السرّ ويخفيها فى العلانية،

أو يظهر شعاراً ضدها من الترك لها والزهد فيها، فليس هذا طريق الموقنين ولامسلك الصادقين. وقد كان من شأن الصادقين من السلف اشتراء الشهوات بأنفسهم وتعليقها فى منازلهم ، يظهرون للناس شعار الراغبين وهم فيها عند الله عز وجل من الزاهدين، لا يأكلونها إنما يريدون بذلك إسقاط منزلتهم من قلوب الجاهلين وإخفاء حالهم عن الناظرين، وليصرفوا عنهم قلوب الغافلين، لأن هذا مقام مَن زَهّد فى الأشياء وأخفى زهده، فمن نهاية إخفاء الزهد إظهار ضده واستشعار المزهود فيه، ثم لا يتناول ولا يتمتع به، فيكون هذا أشد على النفس من المجاهدة، لأنه حمل عليها ثُقلين، ثُقل المنع من الحظ، وثقل سقوط المنزلة عنه، فعدمت النفس لذة المتعة به، وفقدت أسباب المنزلة بتركه، فجرّعها كأس الصبر مرتين، فهذا حال الصادقين فى تلك الشهوات، وطريق الأقوياء من أهل الإرادات، وهو يشبه فعل الزاهدين فى باب العطاءات. منهم مَن كان يأخذ العطاء علانية ثم يخرجه سراً، فيكون له فى الأخذ سقوط الجاه بظهور الرغبة، ويكون له فى الإخراج معاملة السر بحقيقة الزهد، فلا هو متّع نفسه بالجاه مع الردّ، ولاهو أنالها حظها بتناوله مع الأخذ، فهذا أشد شىء على النفس، وهو طريق علماء الزهد، ومن سلكه أخرجه إلى مقام الصدّيقين. وهذان طريقان قد درسا وقد عفا أثرهما فى وقتنا هذا، لا يسلكه إلاّ الفرد بعد الفرد، والسابلة من القرّاء على طرقات التصنّع والتزيّن.

ورُوى عن **جعفر الصادق** رضوان الله عليه إذا قدمت إلىّ شهوة نظرتُ إلى نفسى، فإنْ أظهرتْ شهوتَها لها أطعمتّها منها، وكان ذلك أفضل من منعها، وإنْ أخفتْ شهوتها وأظهرتْ العزوف عنها عاقبتُها بالترك ولم أُنلها منها شيئاً.و تفسير ذلك أنّ إظهار النفس الشهوة يعنى أنها لا تبالى أن تُعَرف بأكل الشهوات، وأنها تُحب أن تظهر على ذلك. وإخفاء النفس الشهوة يعنى أنها تشتهى وتحب أن لا يُعلم أنها تشتهى، وتكره أن تُعرف بأنها ممن تشتهى، فهذ **شهوة الشهوات**، فقد وقع فى أعظم مما كَره، وتَمتُعه بشهوة النظر إليها والمدح له أكثر من تمتعه بترك شهوته المأكولة، وهذا من **الشهوة الخفية** التى جاء فى الخبر أخوف ما أخاف على أُمّتى الرياء والشهوة الخفية .**.والرياء** بالمعاملات، **وخفى الشهوة** أنْ تشتهى أن تُعرَف وتوصف بترك الشهوات.

وسئل بعض العلماء عن بعض الزهّاد فسكت عنه، فقال تعلم به بأساً ، فقال ما أعلم به

بأساً إلاّ فى شىء واحد مكروه، يأكل فى الخلوة مالا يأكله فى الجماعة. فإنْ اتفق للعبد لونان أحدهما ألطف من الآخر، ابتدأ فأكل الألطف منهما فلعل كفايته تتم به فيستريح من الآخر، فإنما قدّم أهل الدنيا غليظ الألوان على رقيقه ليتسعوا فى الأكل وتنفتق شهواتهم ، فيكون لكل لون لطيف مكان آخر. وشبّه بعضهم المعدة بمنزلة جِراب ملأتّه جوزاً حتى لم يبق فيه فضلٌ للجوز، فجئتَ بسمسم فصببته عليه، فأخذ لنفسه موضعا فى خلال الجوز، فوسع الجراب السمسم لطفه مع الجوز. فكذلك المعدة إذا ألقيت فيها طعاماً رقيقاً لطيفاً بعد طعام غليظ خشن، أخذته الشهوات فى أماكنها فتمكّن فيها بعد الشبع ، والعرب تعيب ذلك ولا تفعله، إذ من سنتها أنْ تبتدىء باللحم قبل الثريد. قال رجل لبعض الأنباط أنت من الذين يبتدئون بالثريد قبل الشواء، يذم **أهل العراق** بذلك. هذا إذا استوى اللونان فى الحكم، أو لم يكن للمريد فى ترك الأفضل منهما نيّة. فأمّا إنْ كان قد ترك الشهوات ثم قُدّمت إليه، وكان على نيته وقوة عزمه، فلا بأس بأكل الأدوْن، وقد كان بعض الصادقين ممن ترك أكل الشهوات فى الانفراد، إذا قُدّمت إليه نال منها شيأً يسيراً ليستر عن نفسه أبصار الناظرين، ويصرف عنه قلوب المادحين. فأمّا إنْ كان قد اعتقد ترك شهوة لمعنى دخل عليه منها يخرجه من الورع، أو يعزم على المجاهدة ثم أتى بها، فهذا اختبار من الله سبحانه وتعالى لينظر كيف يعمل فى الوفاء بالعقد، فأحبّ إلىّ أنْ لا ينال منها شيأً، وليتعلل ويدافع عن نفسه بالمعاريض والمعانى حتى لا يُفطَن به أنه قد تركها للمجاهدة، فيكون قد فعل الوصفين معا، الوفاء بالعقد فى تركها، والتورية بلطيف الحيلة من الفطنة له فى قصده، وهذا طريق المريدين وصفات المتقين، وهو الطريق الأدنى الذى ذكرناه أولاً. فإنْ ظهر قرب الله تعالى منه وغلب نظره إليه أغناه عن الحيلة والاحتيال لقربه وشهادته ذا الجلال والإكرام، وهو الطريق الأعلى الذى ذكرناه آخراً، وهذا للموقنين. فأمّا إنْ كان الغليظ الخشن هو الأحّل فى الحكم وأبعد من الشبهة فهو الأطيب والأفضل فى العلم فلا يأكل إلاّ منه. يقال أول لقمة يأكلها العبد من حلال يُغفَر له ما سلف من ذنبه، فلعل الله تعالى أنْ يشكر له ترك لقمة شبهة لذيذة فى الطعم إنْ كانت كريهة فى الحكم، يتركها لأجله فيغفر له ما سلف من ذنبه إنه غفور شكور.

هذه رياضة المريدين وطريق المجاهدين. فأمّا **العارفون** فليس لهم فى الأكل تجربة وتقسيم، إذا أُطعموا تقللوا وشكروا، فإنْ رأوا له مكانا آثروا، وإنْ جُوّعوا عملوا وصبروا. قالت **عائشة** كان **رسول الله صلى الله عليه وسلم** يدخل على أهله فيقول هل عندكم من

شيء، فإنْ قالوا نعم أكل، وإنْ قالوا لا قال إني صائم. وكان يقدَّم إليه الشيء فيقول أمَا إني كنت أردتُ الصوم ثم ياكل. وفى الخبر أنه خرج **صلّى الله عليه وسلم** يوماً فقال إنى صائم، ثم دخل فقالت **عائشة** قد أُهدى لنا حَيْس، فقال قد كنت أردت الصوم ولكن قرّبيه. وكانت بينه وبين الله علامة فى فطره وصومه. كان الوجود علامة فطرة يكون مراداً به، وكان العدم علامة صومه يكون معه مراداً. وعلى المعنى تصريف قلوب العارفين، ومن هذه المشكاة تضيء بصائر الشاهدين، ولا يوكلون إلى حال ولا يوقفون مع مقام. ولا تصح هذه الثلاث إلاّ بثلاث خِلال، **أحدها** عدم الهوى وتوقان النفس بالعادة، **والثانية** أن يكون له فى أكله نية كما له فى صومه نية، فيكون أكله للّه فيستوى أكله وصومه إذ كان العامل فيهما واحدا، **والثالثة** أن يحفظ الجوارح الست بُحسن الرعاية فيكون صائما بماهو فرضٌ عليه وأفضل له. والجوارح **الست** هى البصر والسمع واللسان والقلب واليد والرِجْل . ويكون مفطراً بالبطن والفرج، فيكون ماحفظ أكثر وأبلغ وأحب إلى الله عز وجل، ويكون أفضل ممن صام بجارحتين. وقد روينا أن **النبى صلى الله عليه وسلم** لما قال أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية، فقال أنْ يُصبح أحدكم صائما ثم يعرض له الطعام يشتهيه فيفطر لأجله. فالأفضل لمن عقد للّه صوما أنْ يتمه، فإنْ فَسَخَه لغير الله تعالى عوقب على ذلك من عقوبات القلوب أو عقوبات الجوارح فى طرقات الآخرة، فتلك عقوبة ترك فضائل الأعمال. وقيل **لبشر بن الحارث** إن فلانا الغنى يصوم الدهر، فقال المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره. إنما حاله أنْ يُطعِم الجياع ويكسو العراة ويواسى المحتاجين، فهذا أفضل له من صيامه الدهر. وقد كان **معروف الكرخى** يهْدَى إليه طيبات الطعام فياكل، فيقال له إن أخاك **بشراً** لا ياكل من هذا، فيقول أخى **بشر** قَبَضَهُ الورع، وأنا بسطتنى المعرفة، ثم قال إنما أنا ضيف فى دار مولاى، إذا أطعمنى أكلت، وإذا جوّعنى صبرت، مالى والاعتراض والتخير!!

وكان بعض هذه الطائفة يقول إذا أعطاك مولاك بقطعة فقد شهّاك أنْ تشترى ماتشاء وتشتهى، وإنْ أعطاك ماكولا بعينه فكُلْ ذاك ولا تتخير سواه. ودفع **إبراهيم بن أدهم** إلى بعض إخوانه دراهم فقال خذ لنا بهذه زبدا وعسلا وخبزا حورانيا، فقلت يا أباإسحق بهذا كله؟ فقال ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال.. وأصلَح ذات يوم طعاما فأكثر ودعا نفراً يسيراً ، منهم **الثورى والأوزاعى**، فقال له أما تخاف أنْ يكون هذا إسرافا، فقال ليس فى الطعام إسراف، إنما الإسراف فى الأثاث واللباس.

وكان **أبو سليمان الدارانى** يقول لاتضر الشهوات من لم يتكلفها، إنما تضر من حرص عليها. وكان يدعو أصحابه فيقدّم إليهم الطيبات فيقولون له تنهانا عنها وتقدمها إلينا؟ فقال لأنى أعلم أنكم تشتهونها، فتأكلونها عندى خيراً، ولو جاءنى من يزهد ما زدته على الملح شيأً. وكان يقول أكل الطيبات يورث الرضا عن الله تعالى. وقال بعض الخلفاء شرب الماء بثلج يُخلص الشكر لله تعالى.

الفصل التاسع والثلاثون

فيه كتاب الأطعمة. وذكر ما يجمع الأكل من السنن والآداب. وما يشتمل على الطعام من الكراهة والاستحباب.

قال الله الجليل جلّ جلاله «**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله**» فقدّم الأمر بالأكل على الأمر بالشكر. وقال سبحانه" **ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**" ، فقدّم النهى عن الأكل للحرام على القتل للنفس ، تفضيلا للأكل الحلال وتعظيما للأكل بالباطل.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الرجل ليؤجر حتى فى اللقمة يرفعها إلى فيه أو إلى فىّ امرأته .. وروى عنه **صلى الله عليه وسلم** ما أطعم المسلم نفسه وأهل بيته فهو صدقة له. وسئل **صلى الله عليه وسلم** ما الإيمان ، فقال إطعام الطعام وبذل السلام. وقال **عليه السلام** فى الكفّارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام. وسئل عن الحج المبرور فقال إطعام الطعام ولين الكلام .. وكان **ابن عمر** يقول مِن كَرَمِ الرجل طيب زاده فى سفره وبذله لأصحابه. وروينا عن **علّى** عليه السلام لأن أجمع إخوانى على صاع من طعام أحبُّ إلىّ من أنْ أعتق رقبة. وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنه قال إذا وضع الطعام وأقيمت الصلاة فابدؤا بالعشاء قبل الصلاة. قال فكان **ابن عمر** ربما سمع الإقامة وقراءة الإمام فلا يقوم من عشائه. وعن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أفضل الطعام ما كثرت عليه الأيدى. وقال **عليه السلام** فضل **عائشة** على النساء كفضل الثريد على الطعام. وقال **صلى الله عليه وسلم** الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر ، وبَعْده ينفى اللمم ويصحّ البصر .. يعنى بالوضوء غسل اليد . وقال **أحمد بن حنبل** الأكل من الطيّب قدّمه الله عز وجل على العمل، فقال عز وجل «**كلوا من الطيّبات واعملوا صالحا**». وكان **سهل** يقول من لم يُحسن

أدب الأكل لم يحسن أدب العمل. قال والذى يتصنّع فى الأكل هو الذى يتصنّع فى العمل. وقال مرة الذى يؤدى فى الأكل هو الذى يؤدى فى الصلاة. وكان بعض السلف يقول إنى لأحب أنْ يكون لى نيّة فى كل شىء حتى فى الأكل والنوم. وقد كان السلف الصالح يكون لأحدهم فى الأكل نية صالحة، كما يكون له فى الجوع نية صالحة. والذى يأكل بغير نية الآخرة، للعادة والشهوة والمتعة، قد يجوع لغير الآخرة، للعادة والشهوة أيضا والتزيّن للخَلْق، وهذا من دقيق آفات النفوس، فحُسْن مَن أكَل بنية الآخرة، ولأجل الله سبحانه وتعالى كحُسْن من جا ع لأجل الله تعالى وبنيّة الآخرة، وإلاّ كان من أبواب الدنيا.

فالطعام والأكل يشتمل على **مائة وسبعين خصلة** ، مابين فرض وسنة، وأدب وفضيلة، واستحباب وكراهة، ومروءة وفتوة، من طريق السلف وصنائع العرب. **أول ذلك** أن يكون المأكول حلالاً، وعلامة الحلال **ثلاث**: تكون عينه معروفة لم يخالطها عينٌ ذمّها العلِم من ظلم وخيانة، ويكون سببه مباحاً لم تحتوه بسبب محظور فى الشرع لأجل هوى أو مداهنة فى دين ودنيا، ويكون قد وافق فيه حكم السنّة لا يكون على وصف مكروه، ثم ينوى بالأكل التقّوى على البرّ ، والتقوّى والاستعانة على خدمة المولى، ويعرف النعمة فيها أنها من المنْعم وحده لاشريك له فيها، ويعتقد الشكر له عليها، ويؤثر التقلل على الاتساع، والقناعة على الحرص، والأدب فيه على الشره، ثم غَسْل اليد فى أوله للاستحباب، وفى آخره للنظافة، والتسمية فى أوله والحمد فى آخره، والأكل باليمين، ويبتدى بالملح ويختم به، وأنْ لا يذم مأكولا ولا يعيبه، إنْ أعجبه أكل وإلاّ تركه، والقناعة بالمأكول من القَسْم، والرضا بالموجود من الرزق، وأن تَكثُر الأيدى على الطعام، وفى الخبر اجتمعوا على طعامكم يُبارَك لكم فيه، وتصغير اللقمة، وتجويد المضغ، وأن لا ينظر فى وجوه الآكلين ولا يتفقد مأكلهم، وأن يقعد على رجله اليسرى وينصب اليمنى ، ولا يأكل متكئا ولا مضطجعا، ولا يكون أول من يبتدىء بالأكل حتى يسبق صاحب المنزل ، والأكبر فالأكبر إلاّ أن يكون إماما يُقتدى به، أو يكون القوم منقبضين فيبسطهم بالابتداء، ولا يجمع بين التمر والنوى فى طبق ، ولا يجمعهما فى كفه، ويستحب أنْ يأكل من التمر وتْراً ، سبعا أو إحدى عشرة أوإحدى وعشرين، وأنْ يفطر على رُطَب إنْ وجده وإلاّ فتمر، فإنْ لم يجد فعلى الماء. وكان **وهب بن منبه** يقول الصائم يزيغ بصره ، فإذا أفطر على حلاوة رجع بصره. ولا يقرن بين تمرتين فى الجماعة إلا أن يفعلوا ذلك أو يستأذنهم، وأن يأكل بعد الجوع، ويرفع يده قبل الامتلاء بمقدار ثلث بطنه أو نصفه، كذلك سنّة السلف وهو أصحّ

للجسم، وليأكل مما يليه إلاّ الفاكهة فله أن يجيل يده فيها، ويأكل بثلاثة أصابع، إلاّ الثريد فيأكل بأصابعه كلها، وأنْ يأكل من ذروة القصعة ولاوسط الطعام، وليأكل من نواحيه، وأن لا يصمتوا على الطعام فإنه من سيرة العَجَم، فليتكلموا بالمعروف، ولايكثر قول« كُلْ »على أخيه فإنّ ذلك يحشمه وربما قطعه، ولا ينبغى لأخيه أنْ يُحوجه إلى تفقدّه فى الأكل وتكرير قوله له «كُلْ». وقال بعض الأدباء أحسن الآكلين أكلاً من لم يحوج صاحبه إلى تفقدّه فى الأكل، ومن حمل عن أخيه مؤنة القول، ولا يدع شيأ من المأكول يشتهيه لأجل نظر الغير إليه فإنه من التصنّع، فإنْ تركه إيثاراً لإخوانه أو قدّمه إلى أخيه فحَسَن، ولا يُنقص من أكله المعتاد، وإن زاد لأجل مساعدة الجماعة أو بنيّة فضل الأكل مع الإخوان فلا بأس بذلك. والشرب فى تضاعيف الأكل مستحب من جهة الطب مالم يبتديه أو يُكثِر منه، يقال إنّه دبّاغ المعدة. والشُرب متكئاً مكروه للمعدة أيضا من جهة الطب، والأكل متكئا ونائما ليس من السُنّة إلا ما يُتناول أو يتنقل به من الحبوب ومافى معناها. ويقال إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بَقْل، ودعا بعض الرؤساء إخوانه فانفق مائتى درهم ، فقال له بعض الحكماء لم تكن تحتاج إلى هذا كله إذا كان خبزك جيد ، أو خلّك حامضا، وماؤك باردا فهو كفاية. وقال بعضهم الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان، والتمكن على المائدة خير من زيادة لونين. وقال آخر شرب الماء البارد على الطعام خير من زيادة الألوان. وقال **أبو سليمان الدارانى** أكل الطيبات يورث الرضا عن الله عز وجل. وقال المأمون رحمه الله شرب الماء بثلج يُخلص الشكر لله عز وجل. **وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم** مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه. ومن إكرام الضيف تعجيل الطعام لهم. وأفضل ماقُدّم إليهم اللحم، وخير اللحم السمين النضيج، فإن كان بعد اللحم حلاوة فقد جمع لهم الطيبات. ينتظم هذه المعانى قوله عز وجل «**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين**» قيل فى المكرمين قولان أحدهما خدمته إياهم بنفسه، والثانى أكرمهم بتعجيل الطعام إليهم. وقوله تعالى« **فما لبث أن جاء بعجل حنيذ**» أى فما احتبس ولا أقام، والحنيذ النضيج. وقال تعالى «**فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين**،» الروغان الذهاب بسرعة، وقيل الذهاب بخفية، وقيل إنه جاء بفخذ من لحم فسُمّى عجلا لأنه عجّلة ولم يلبث به. ثم وُصِف بأنه سمين نضيج، يقال حنيذ ومحنوذ أيضا، قال كان نضيجا.

وليأكل الرجل فى منزل أخيه سجية أكله فى منزله بغير تكلّف ولا تزيّن، لأنه قد يدخل من الرياء والتزين فى الطعام مثل ما يدخل فى سائر الأعمال من الصلاة والصيام، والأكل عمل، وكل عمل يحتاج إلى نية وإخلاص، فلتكن نيته فى أكله الاستعانة على الطاعة ، ولتكن نيته مع إخوانه إكرامهم بذلك وإدخال السرور عليهم، والتبرّك بالجماعة لقول **النبى صلى الله عليه وسلم** الجماعة بركة. وينوى إقامة السنّة فى إجابة الدعوة ليكون مأجوراً فى أكله عاملاً فى جميع ذلك بسُنّة نبيه صلى الله عليه وسلم، وهذا كله داخل فى حُسن الخلق، وهو فى معنى قول **الرسول صلى الله عليه وسلم** إنّ العبد ليدرك بحسن خُلُقه درجة الصائم القائم، وقد قال بعضهم هو الرجل يسأل إخوانه أنْ يفطر معهم نهارا أو يسهر معهم ليلا، ويكون من عادته الصيام والقيام فيساعدهم تخلقا معهم، فيدرك بحُسن خلقه درجة الصائم القائم. وقال بعض العلماء من أهل الأدب ليس من السنّة والمروءة أن يزور الرجل إخوانه فيتشاغل عنهم بالصلاة النافلة، أو يستزيره إخوانه فيقدّمون إليه الطعام فلا يساعدهم عليه لأجل الصيام، ولا يقصر عن بغيته من المأكول فيترك الأكل مع حاجته إليه، فإنه غير محمود ولا مأجور عليه إن لم يكن سبب أوجب عليه ذلك. وقال **جعفر بن محمد** عليه السلام أحبُّ إخوانى إلىّ أكثرهم أكلاً وأعظمهم لقمة. وأثقلهم علىّ من يحْوِجُنى إلى تعاهده فى الأكل . وقال أيضا يتبين محبة الرجل لأخيه بجودة أكله فى منزله ، فإنْ قلل الأكل مع الفقراء إيثاراً لهم أو لقلة الطعام فحسن . وروينا أن **سفيان الثورى** دعا **إبراهيم بن أدهم** وأصحابة إلى طعام فقصروا فى الأكل ، فلما رفعوا الطعام قال له **الثورى** إنك قصّرت فى الأكل ، فقال إبراهيم لأنك قصّرت فى الطعام فقصّرنا فى الأكل . قال ودعا **إبراهيم الثورى** وأصحابة إلى طعام فأكثر منه ، فقال له يا أبا إسحق أما تخاف أن يكون هذا إسرافا ، فقال إبراهيم ليس فى الطعام سَرَف.

وليلعق أصابعه قبل أن يمسحها بالخرقة ، وليأكل ما سقط من فتات الطعام ، يقال إنه مهور الحور العين ، يقال من لعق الصحفة وشرب ماءها كان له عتق رقبة . وإنْ أكَلَ حلالاً فليقل الحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات. اللهّم صلّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وأطعمنا طيباً واستعملنا صالحا. وليكثر شكر الله تعالى على ذلك. وإنْ أكل شُبهة فليقل الحمد الله على كل حال، اللهّم صلّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ولا تجعله قوّة لنا على معصيتك، وليكثر الحزن والاستغفار. وفى خبر إذا دعى أحدكم إلى طعام فلم يُجب فلا يقل كُلْ فلعله يكون أخذه من غير حلّه ، ولكن ليقل أطعمك الله طيبا . وليقل إذا

أكل لبناً اللهّم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، وبارك لنا فيما رزقنا ، وارزقتنا خيرا منه . كذلك روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول، لأن اللبن أعم نفعا من غيره. وليقل فى **أول** لقمة بسم الله، وفى **الثانية** بسم الله الرحمن، وفى الثالثة بسم الله الرحمن الرحيم، وليشرب الكوز فى **ثلاثة** أنفاس يقطعه، وليقل فى أول جرعة الحمد لله، وفى **الثانية** الحمد لله رب العالمين ، وفى **الثالثة** يزيد الرحمن الرحيم. وإنْ سَمّى فى أول كل لقمة فحَسَن، وليقرأ بعد فراغه من الطعام قل هو الله أحد ولئيلاف قريش.

وتقديم الفاكهة قبل الطعام أوفق. وفى كتاب الله عز وجل ترتيب ذلك من قوله سبحانه وتعالى «**وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون**»، ولا يرفع يده قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون أو يحتاجون إلى بسط، فإنْ كان قليل الأكل تربّص حتى يضعوا أيديهم فيأكلوا صدراً من الطعام ثم يقعد بعدهم ليستوى أكله مع أكلهم، فإن كانوا علماء لم يكرهوا ذلك منه وقد فعله كثير من الصحابة، ولا يتكلف لإخوانه من المأكول ما يثقل عليه ثمنه أو يأخذه بديْن أو يكتسبه بمشقة أو من شبهة. ولا يدخر عنهم ما بحضرته، ولا يستأثر بشىء دونهم، ولا يضر بعياله. وليس من السنّة أن يقصد الرجل قوما يتحين حضور طعامهم ليصادفه فإنّ ذلك من المفاجاة فقد نهى عنه، قال الله سبحانه وتعالى «**لا تدخلوا بيوت النبى إلاّ أنْ يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين أناه**»، يعنى منتظرين حينه ونضجه. وفى الخبر من مشى إلى طعام لم يُدْع إليه مشى فاسقا وأكل حراما، ولكن إنْ صادفهم يأكلون فسألوه أنْ يأكل معهم وعلم أنهم يحبون أكله معهم فلا بأس وليس ذلك داخلا فى المفاجأة، فإنْ لم يعلم أنهم يحبون أنْ يأكل معهم وإنما قالوه تعزيزاً وحياءً كرهتُ له الأكل معهم. وإنْ كان جائعا فقصد بعض إخوانه ليطعمه ولم يتحين وقت أكله فلا بأس بذلك. وقد قصد **رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر** رضى الله عنهم منزل **أبى الهيتم بن التيهان وأبا أيوب الأنصاريين** لأجل طعام يأكلونه وكانوا جياعا. ومن السنّة أن يخرج الرجل مع ضيفه إذا انصرف إلى باب الدار. وليس من السنّة أنْ يخرج الضيف من المنزل عن غير إذن صاحبه، ولا أن يقيم للضيافة فوق ثلاثة أيام حتى يخرجه أو يتبرم به. وروينا عن **أنس بن مالك** وغيره من الصحابة كانوا يقدمون إلى إخوانهم ماحضر من الكسر اليابسة والحشف من التمر والدقل ويقولون لا ندرى أيهما أعظم وزراً، الذى يحتقر ما يُقدّم إليه، أو الذى يحتقر ماعنده أن يقدمه. وقد كان **أنس** وغيره يقولون إن الاجتماع على الطعام من مكارم

الأخلاق. وفى الخبر أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يجتمعون على قراءة القرآن والذكر ولا يفطرون إلاّ عن ذَوَاق. ولا ينبغى للمدعو أن يقترح على الداعى شيئاً بعينه فيقول أريد كذا فليس ذلك من القناعة، فإنْ خيّره أخوه بين طعامين فليختر أقربهما منه وأيسرهما عليه، كذلك السنة. وفى الخبر عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** ما خُيّر بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما . فإنْ شهّاه أخوه وسأله فلا بأس أن يذكر له شهوةً ليصنعها فيعينه على فضيلتها ، فقد روينا فى فضل ذلك غير حديث، منها **الحديث** المشهور من صادف من أخيه ~~شهوة غفر له، ومن سرّ أخاه المؤمن فقد سرّ الله عز وجل، وروينا عن **ابن الزبير** عن **جابر**~~ قال قال **رسول الله صلى الله عليه وسلم** من لذّذ أخاه بما يشتهى كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف درجة، وأطعمه الله تعالى من ثلاث جنات ، جنة الفردوس وجنة عدن، وجنة الخُلد.

و**الخلال** بعد الأكل حَسَن فلا يبين عنه. ولا بأس بغَسل اليد فى الطست، وروينا أنّ **أنس بن مالك** اجتمع هو و**ثابت البنّانى** على طعام فقدّم الطست إلى ثابت ليغسل يده فامتنع، فقال **أنس** إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا ترده فإنه إنما يكرم الله عز وجل. وروى أن **هرون الرشيد** دعا **أبا معاوية الضرير** فصبّ على يده فى الطست، فلما فرغ قال له ياأبا معاوية تدرى من صبّ على يدك قال لا، قال أمير المؤمنين، قال يا أمير المؤمنين إنما أكرمتَ العلم وأجللته فأجلّك الله عز وجل وأكرمك كما أجللت العلم وأكرمته. ولا يزدردن ما أخرج الخِلال من أسنانه فإنه داء ومكروه، وليتمضمض بعد الخلال ففيه أثر عن بعض أهل البيت عليهم السلام. وليقل عند فراغه من الطعام الحمد لله حمداً كثيراً دائماً طيباً نافعاً مباركاً فيه، اللّهم صلّ على محمد وعلى آله، وأطعمنا طيباً، واستعملنا صالحاً، واجعله عوناً لنا على طاعتك، ونعوذ بك أن نستعين به على معاصيك.

وفى الأكل مع الإخوان **ثلاث** فضائل – روى عن **جعفر بن محمد** عليهما السلام : إذا قعدتم مع الإخوان على المائدة فأطيلوا الجلوس فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم.وفى خبر عن بعض السلف لا يحاسب العبد على ما يأكله مع إخوانه، فكان بعضهم يكثر من الأكل فى الجماعة ويتقلل إذا أكل وحده. وروينا عن **ابن مسعود** قال نهينا أن نجيب دعوة من يباهى بطعامه. وقد كره جماعة من الصحابة أكل **طعام المباهاة والمباراة**، وهذا مكروه لمن

يقدمه بهذه النية إلى إخوانه لأنه قد عرّضهم لتناول ما يكرهون، وقد دلّس عليهم مالا يعلمون. وأيضا فإن ما يقدم لأجل الله تعالى فلا يصلح أنْ يسْتثنى ارتجاع شيء منه. ولا ينبغى له أن يقدم إلا ما يحب أن يأكلوه من كل شيء أيضا، ومقدار الحاجة والكفاية من المأكول. وإذا حضر الطعام والصلاة فإنْ كانت نفوسهم تتوق إليه وفى الوقت سعة قدّمواالأكل، وإنْ كانت نفوسهم ساكنة أو ضاق الوقت أو خشوا أن يتطاول بهم الأكل صلّوا أوّلا. وينبغى إذا حضرت الألوان أن يبتدىء بتقدمة الألطف فالألطف، والأطيب فالأطيب. والأمثل أن يبتدىء بالشواء قبل الثريد فذلك سُنّة العرب، ليصادف جوعهم أطيب الطعام فيستوفوا من ذلك أوفر النصيب فيكون أثوب لصاحبه وأقل لأكلهم، فإنْ احتاجوا إلى مابعد من غليظ الألوان والطعام تناولوا منه قليلا، فإنما قدّم أهل الدنيا اللون الغليظ على اللطيف ليتسع أكلهم وتتفتق شهوتهم فيكون اللون اللطيف فى موضع آخر، وليكونوا قد أكلوا من اللون الأجود الأطيب أقل، وهذا غير مستحب عند أبناء الآخرة. وقد كان من سُنّة المتقدمين أن يقدموا جملة الألوان فى مكان واحد مما يُشتهى، وليكون ما تقدم معلوماً لهم. وإذا لم يكن عنده إلا لون واحد يقول لهم ليس يحضر إلاّ هذا ليستوفوا منه ولا يتطلعوا إلى غيره. وينبغى أن يمكنهم من بقية الألوان ولا يرفعها حتى يرفعوا أيديهم فإنه من الأدب، ولعل فيهم ما يكون عنده ما قُدّم أشهى إليه مما يقُدّم بعد، وقد يكون فيهم من به حاجة إلى فضل أكل فينقص عليه برفعه قبل أن يستوفى مافى نفسه.

وكان بعض السلف يقول فى تفسير **التكلّف** أنْ تطعم أخاك مالا تأكله أنت، أى لا يكون من مأكلك فى الجودة ومما له قيمة فتشق على نفسك بذلك. وكان **الفضيل** يقول إنما تَقَاطَع الناس بالتكلّف ، يدعو أحدهم أخاه فيكلف له فيقطعه عن الرجوع إليه. وكان بعض السلف يأمر بتقديم ماحضر فإنه أدوم للرجوع وأذهب لكراهة صاحب المنزل.ومن دُعى إلى طعام وعنده إنسان أو جماعة من حيث يعملون فليستثن الواحد أو الجماعة معه فإنه من السنّة والأدب، فإن دعى وحده أو مع نفر بأعيانهم أو أعدادهم فتبعهم واحد لم يكن فى العدد فليذكر للداعى قبل دخولهم إليه ليأذن له معهم، كذلك السنة. ومن دعى فى جماعة وفُوّض إليه الأمر فيهم فليعرّف صاحب المنزل عُدّتهم قبل مجيئهم ليستعد لهم بعد أن يعرض عددهم. ومن دعا رجلاً فى غير دعوة عامة وعنده قوم أو رجل بعينه فليُعلمه بمن عنده ليدخل على بصيرة، فلعل أن يكون عنده من يكره هذا المدعو الاجتماع معه، لأن الأكل معاشرة، وليس كل إنسان يحب

أن يعاشر كل أحد خاصةً الرؤساء. ومن دخل عليه داخل وهو يأكل فلا يرفع الطعام فليس ذلك من السنّة ولا من فعل أهل المروءة، ولعل الداخل أحوج إليه منه وقد بُعث إليه اختباراً له. وإذا عرضت على أخيك الطعام مرة أو مرتين فلا تُلحن عليه، وكذلك إذا دعوته فكَره فقد قالوا لا تُكرم أخاك بما يشُق عليه، ولا تزيدن على ثلاث مرات، فإن الإلحّاح واللجاج مازاد على ثلاث مرات وليس ذلك من الأدب. قالوا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خوطب فى شىء ثلاثا لم يُراجَع بعد ثلاث .

وكان **الحسن بن علّى** رضى الله عنهما يقول الطعام أهون من أنْ يحُلف عليه، وقال مرة من أن يُدعَى إليه، ذلك لعظيم حق المؤمن. وكان **الثورى** يقول إذا زارك أخوك فلا تقل له تأكل أو أقدّم إليك، ولكن قدّم ماعندك، فإنْ أكل وإلاّ فارفعه. وكان **الحسن وابن المبارك** إذا أرادا الغداء أو العشاء فتحا بابهما فمن دخل عرضا عليه الأكل. وقد كان هذا من سيرة السلف أنهم يفتحون الباب عند حضور الطعام، ومن صادف دخوله أكل معهم. ومنهم من كان يقعد فى دهليز داره ويفتح الباب فكل من مرّ عليه فى الطريق دعاه إلى طعامه من غنى أو فقير. وقال بعض التابعين إلاّ أنّ خياركم آكلكم فى الأفنية وأوسعكم آنية وأحلاكم أطلية، إلاّ أنّ شراركم آكلكم فى الأخبية وأصغركم أطلية. ومن دعا رجلاً إلى طعامه وهو يعلم أنّ **الأحبّ** إليه أنْ لا يأكل فمكروه له أن يأكل ولا يعبأ بقوله إذا علم منه خلافه، فإنْ لم يعلم حقيقة ذلك فله أن يجيبه على ظاهر قوله، وليس له أن يسىء الظن به . ودعا رجل **الأحنف بن قيس** فى سفر إلى طعامه فقال له الأحنف لعلك من **العارضين**، قال وما العارضون، قال الذين يحبون أنْ يُحمَدوا بما لم يفعلوا ، فسكت الرجل فلم يجبه الأحنف إلى الطعام. وكان **الثورى** يمشى مع رجل فمر بباب منزله فعرض عليه الدخول ليأكل عنده، فقال له الثورى أصدقنى عن شىء أسألك.أيما أحب إليك ، أدخل أو انصرف؟ فسكت فانصرف الثورى. ومن عَلِم من أخيه أنه يحب أن يأكل من طعامه فلا بأس أن يأكل بغير إذن، لأن علمه بحقيقة حاله ينوب عن إذنه له فى الأكل. وقد كان **محمد بن واسع** وأصحابه يدخلون منزل **الحسن** فيأكلون ما يجدون بغير إذن، وكان الحسن ربما دخل فيجدهم كذلك فيُسر ويقول هكذا كنا . وروى عنه أنه كان يأكل من متاع بقّال يأخذ من هذه الجونة تينة ، ومن هذه فستقة، فقال له **هاشم الأوقص** ياأبا سعيد تأكل من متاع الرجل بغير إذنه، فقال يا لكع، أما قرأت آية الأكل، ثم تلا عليه «**ولاعلى أنفسكم أنْ تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم**» إلى قوله تعالى« **أو صديقكم**» . ثم قال

الحسن: الصديق مَن استروَحتْ إليه النفس واطمأن إليه القلب، فإذا كان كذلك فلا يأذن له في ماله. وقد أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم لحماً تصدّق به على **بريرة** من غير أنْ يستأذنها ولم تكن حاضرة، لعلمه أنها تسرّ بذلك. وقال إن الصدقة قد بلغت محلها،هو عليها صدقة، ولنا هدية. وقال **صلى الله عليه وسلم** – رسول الرجل إلى الرجل إذْنُه، أى قد علم بإذنه له في الدخول عليه فأغناه من الاستئذان. ففى تدبّر فعله عليه السلام أنّ مَن علمتَ كراهته لأكلك من طعامه أنْ لا تأكل.

وقد كان بعض الصوفية يقول لا تُجب دعوةَ إلا مَن يرى لك أنك أكلت رزقك وأنه سلّمه إليك وديعة كانت لك عنده، ويرى لك الفضل عليه فى قبولها منه، فهذه شهادة العارف من الداعين. كذلك شهادة المدعوين من الموحدين: أن يشهدوا الداعى الأول، والمجيب الآخر، والمعطى الباطن، والرازق الظاهر.

وروينا عن **ابن عباس** أنه قال من أفضل الحسنات إكرام الجلساء، مَن لم يُرد أن يطعم قوماً من طعام فلا يظهرهم عليه ولا يصفه لهم سواء كان هو قد أكله أو لم يأكله. وينبغى أن يكون للمجيب إلى الدعوة **نيّات سبع** إذ الأعمال بالنيات، ولكل امرىء ما نوى، إذ الإجابة من الأعمال، فمن نواها دنيا كانت له دنيا لعاجل حظه، ومن أراد بها آخرة فهى له آخرة بحسب نيته، وإنْ لم تحضر نية أو اعتلّ بفسادها توقف حتى يهيىء الله عز وجل له نية صالحة تكون الإجابة عليها، أو ترك الإجابة إذا كانت بغير نية ، لأنها من أفاضل الأعمال فتحتاج إلى أحسن النيات، لوجود العلم فيها فتكثر بها الحسنات، ولفقد الهوى منها فيسلم فيها من السيآت، وإلاّ كانت إجابته هُزواً وكان عاملا فى باب من أبواب الدنيا وساعياً فى حظ نفسه وملء جوفه. وقد قال **الرسول عليه السلام** من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها فهجرته إلى ماهاجر إليه، فيصير مأزوراً بفساد النية، أو يكون غير مأجور لعدمها، **فأول النيات** طاعة الله تعالى وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقوله عليه السلام من لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. **والثانية** إقامة السنّة لقوله عليه السلام لو دعيتُ إلى كراعِ لأجبت (وهو موضع على أميال من المدينة أفطر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان لمّا بلغه وقصر عنده فى سفره). وقال فى الخبر الآخر لو دعيت إلى ذراع لأجبت.. فهذا ظاهر فى الاجابة على القليل، والأول محتمل فى الإجابة إلى الموضع البعيد، **والنية**

الثالثة إكرام أخيه ، وفى الخبر من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله تعالى . **والنية الرابعة** إدخال السرور على أخيك المؤمن. والخبر الآخر من سرّ مؤمنا فقد سرّ الله عز وجل. **والنية الخامسة** رفع الغَمّ عن قلبه، ووضع الهَمّ عن نفسه، فى ترك إجابته، من ترجيم الظنون به وتوقيع الرجم بالغيب فيه لمّا لم يُجب ، ولعله يجيب وإلاّ كان يجيب فيرفع عنه ذلك ويسقط عنه مؤنة سوء الظن به وتنزيل الشك فيه باليقين به. **والنية السادسة** أن ينوى زيارته، فقد جاء فى فضل الزيارة فى الله تعالى، وأنّ بها يستحق ولاية الله تعالى، وأنها علامة ولاية المتحابين فى الله ، فاشترط لذلك شيآن التباذل لله والتزاور فيه. **والنية السابعة** أن يزوره ، فقد حصل البذل من أحدهما، بقيت الزيارة من الآخر، على الخبر السائرأن الإجابة من التواضع ، كما ذكرنا من قبل أن المتكبرين لا يجيبون الداعى. فهذه **سبعة** أعمال نيات لمن وفّق لعملها والعمل بها.

ومن طَرَقته فاقة من الفقراء فقصد بعض إخوانه يتصدى للأكل عنده فجائز له ذلك بشرطين، لا يكون عنده موجود من طعام، ونيته أن يؤجر أخاه، فهذا داخل فى التعاون على البر والتقوى ، وداخل فى التحاض على طعام المسكين، ونفسه كفيره من الفقراء، ولأن أخاه لا يعلم بصورة حاله ، ولو علمه لسّره ذلك ، ففيه إدخال السرور عليه من حيث يعلم، وقد فعل هذا جماعة من السلف . وقد روى بمعناه أثر من ثلاثة طرق للسلف الصالح، منهم **عون بن عبد الله المسعودى**، كان له ثلثمائة وستون صديقا، وكان يكون عند كل واحد يوما وآخر، وكان له ثلاثون صديقا كان يكون عند كل واحد يوما وليلة، وكانوا يقدمون هذه الأخلاق السَنية مع إخوانهم فيؤثرونها على المكاسب والمعلوم، فكان إخوانهم معلومهم، ولم يكن هؤلاء يكتسبون ولا يدخرون، وكان لإخوانهم فيهم نية صالحة، يسألونم ذلك ويقسمون عليهم فيه، ويرونه من أفضل أعمالهم. وكان هؤلاء للإنصاف يكرمون إخوانهم بإجابتهم وكونهم عندهم. ولم يكن **سعيد بن أبى عروبة** يعرض على إخوانه الطعام ولكنه كان يظهره ويعرض به، فكان اللحم مسلوخا مصلقا، والخبز موجودا ظاهرا، وكذلك كان يفعل بالثياب والأثاث. وكان جميع مافى منزله مُظْهَراً مسبَلاً، فكل من دخل عليه من إخوانه إن شاء قطع من المسلوخ فشوى وطبخ، وإن شاء أكل من الخبز بما وجد من الأدم، ومن شاء لبس من الثياب ماشاء، فكان ذلك مشاعا فى منزله لمن أراد تناوله. ومنهم من كان منقطعا فى منزل أخيه قد أفرده بمكان يقوم بكفايته ولا يبرح من منزله على الدوام، يحكم فيه ويتحكم كما يكون فى منزل نفسه. وقال

بعض العلماء أكلتان لا يحاسب العبد عليهما ، ما أكله فى سحور ، وما أكله عند إخوانه إكراما لهم بذلك . ومن أكلف عند قوم فليقل عند فراغه : أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلّت عليكم الملائكة.

وليس كل أحد يُحسن **أدب غسل اليد**، كما ليس كل إنسان يعرف سُنّة الأكل، فمن غسل يده بأشنان ابتدأ بغسل أصابعه أولا، ثم يجعل الأشنان فى راحته اليسرى وأمَرّه على شفتيه جَسًا، وأنعم غسل فيه بإصبعيْه، وظاهر أسنانه وباطنه وحنكه ولسانه، ثم غسل أصابعه من ذلك بالماء، ثم دلّك ببقية الأشنان اليابس أصابعه ظهراً وبطنا، ثم لم يدخل الأشنان ثانيا إلى فيه لئلا يعود بالغمر إليه من يديه. وهذا يكفيه من تثنية الغسل. ومن غسل يد إخوانه بعد أكلهم من طعامه فمن الأدب أن يصب على أيديهم بالماء العذب، فبمثل هذه اللطيفة ونحوها يُعرف حُسن تفقد الدعاة وليستبين تعاهد الرعاة.

ومما جاء فى الآثار فى الأطعمة والأكل من طرائق السلف وصنائع العرب أن اللحم ينبت اللحم، والثريد طعام العرب، ولن تستشفى النّفساء بشىء أفضل من الرطب، والسمك يذيب الجسد، والسواك يُذهب البلغم، ومن أراد البقاء ولابقاء فليباكر الغداء وليُقِلّ غشيان النساء وليخفف الرداء. وفى أخبار الأمراء أن الحجّاج قال **لبنادق المطبِّب** صفْ لى صفةً آخذ بها ولا أعددها، قال له لا تنكح من النساء إلاّ فتاة، ولا تأكل من اللحم إلاّ فتيا، ولا تأكل المطبوخ حتى ينعم نضجه، ولا تشربن دواء إلاّ من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلاّ نضيجها، ولا تأكل طعاما إلا أجدْت مضغه، وكُلْ ما أحببت من الطعام ولا تشرب عليه، فإذا شربت فلا تأكل عليه شيأ، ولا تحبس الغائط والبول، وإذا أكلت بالنهار فَنَمْ، وإذا أكلت بالليل فامشِ قبل أن تنام ولو مائة خطوة. وفيما قاله الفيلسوف ترك العشاء مهرمة، والعرب تقول ترك الغداء يُذهب بشحم الكاذة يعنى الإلية. وقال بعضهم نهانى الأطباء عن الشُرب فى تضاعيف الطعام. والعرب تقول تعشّ وتمشّ وتْغدّ وتْمدّ، يريدون تمدد فأبدلوا الألف من الدال الثانية كراهية التكرار ولازدواج الكلام.

وأما فى حبس الغائط فقد قال بعض الفلاسفة الطعام إذا خرج قبل ست ساعات فهو مكروه من المعدة، وإذا بقى فيها أكثر من أربع وعشرين ساعة فهو ضرر على المعدة. ويقال إنّ حبس البول يفسد من الجسد كما يفسد النهر ماحوله إذا سُدّ مجراه ففاض من جوانب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقيل **لجالينوس** إنك تُقلّ من الطعام، فقال غرضى من الطعام أنْ آكل لأحيا، وغرض غيرى من الطعام أنْ يحيا ليأكل.وقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنه قال لما جاء نعى **جعفر بن أبى طالب** إنّ آل جعفر شُغلوا بميتهم عن صنيع طعامهم فاحملوا إليهم ما يأكلون. فهذا سنّة فى حمل الطعام إلى أهل الميت.

الفصل الأربعون

فى ذكر فضائل الفقر وفرائضه. ونعت عموم الفقراء وخصوصهم. وتفصيل قبول العطاء ورده. وطريقة السلف فيه

قال الله الكبير المتعال« **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم**» وقال تبارك وتعالى« **للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض**»، فقدّم وصف أوليائه بالفقر على مدحهم بالهجرة والحصر، والله تعالى لا يصف من يحب إلاّ بما يحب، فلولا أنّ الفقر أحب الأوصاف إليه ما مدح به أحباءه وشرّفهم به. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر وأخبر بفضله فى غير حديث، منها عن **ابن عمر** أن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** قال لأصحابه أى الناس خير، فقالوا موسر من المال يعطى حق الله عز وجل فى نفسه وماله، فقال نِعْمَ الرجل هذا وليس به، قالوا مَن خير الناس يارسول الله، قال فقيرٌ يعطى جهده.. ومنها حديث **بلال** أنّ **رسول الله صلى الله عليه وسلم** قال له الق الله عز وجل فقيراً ولا تلقه غنيا. وفى الحديث الذى روى عن **ابن الأعرابى** أنّ **النبى صلى الله عليه وسلم** قال له لا أفْضَلَ من الفقير إذا كان راضيا.. وفى الحديث الآخر أن الله تبارك وتعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال.. وفى الخبرين المشهورين يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام، والحديث الآخر اللهّم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زُمرة المساكين. فهذا منه صلى الله عليه وسلم تفضيلٌ للفقراء وإكرامٌ لهم وتنبيهٌ وحثٌ على فضل الفقر. وروينا عنه **صلى الله عليه وسلم** خيرُ هذه الأمة فقراؤها، وأسرعها تضجيعا فى الجنة ضعفاؤها. وروينا فى خبر **إسمعيل** النبى عليه السلام المفسِّر لخبر **موسى** عليه السلام أنّ إسمعيل قال يارب أين أطلبك؟ فقال الله عز وجل عند المنكسرة قلوبهم من أجلى. قال ومن هم؟ فقال تعالى الفقراء الصادقون. وقد روينا فى تفسير قوله تعالى «**والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم**» قال الفقر فى

الدنيا، فمن فرائض الفقر عند الفقراء الصبر عليه بترك المسئلة قبل ورود الفاقة، وقطع الهمّ عن التشرّف إلى الخلْق، وأنْ لا يتناول عند الحاجة ما حظره عليه العلم، ولا يجاوز حداً من حدود الأحكام، وإنْ سأل عند حاجة لم يستكثر ولم يدخر، فإنْ أعطى فوق كفايته فاقتناه ليكف عن المسئلة فلا بأس به، ويتوخى فى مسئلته المتّقين ومن يعلم أنه يتحرى فى مكسبه، فإنّ مسئلته عملٌ له يلزمه التورع فيها كما يلزمه الورع فى مكسبه، ولا يسأل من يعلم أنه لا يبالى من أين يأكل، ومَن لا يُردَع عن الحرام فى مكسبه. والعبد بنفس الحاجة والجوع يستحق على إخوانه شبعة يقيم بها صُلبه ويُسكِن بها نفسه، وبنفس العُرى والعُدم يستحق عليهم ثوباً يوارى به عورته، وذلك لازم للمسلمين وواجب له،فإنّ قام به بعضهم سقط عن بعض وجوبه. وإنْ سأل ذلك فلا شىء عليه. ويقال إنّ كفارة المسئلة صدق السائل فى مسئلته، وصدقه أن لايسأل إلاّ بعد فاقته ومع خوف التقصير فى أداء فرائضه من اختلاف عقله وتشتت قلبه، وأنْ يكف مع أول الكفاية، ولا يدخر بعد الشبع ليستكثر، ولايجعل المسئلة إنْ دُفِعَ إليها له عادة وكدا ولا جرفة، ومهما استغنى عن السؤال فليكن الفقر أحب إليه فإنه أفضل له.

وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** للسائل حق وإنْ جاء على فرس.فلو كانت المسئلة إثما وعدواناً لم يُحَثّ على الإعطاء فيكون معاونا على الإثم والاعتداء، ولكن ذلك من البرّ والتقوى لأنه سببٌ منه ودالٌ عليه، فعاون بالأمر به لحُرمة الإسلام، ولأن المواساة من المعروف والإحسان. وسمع **عمر** رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال يا **يرفا** عَشِّ الرجل، فعشّاه، ثم سمعه ثانية يسأل، فقال ألم أقل لك عشِّ الرجل، فقال قد عشيته، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوأة خبزاً، فقال لستَ سائلا ولكنك تاجر، ثم نثر المخلاة بين يدىّ إبل الصدقة وضربه بالدِرّة. وروينا عن **علىّ** عليه السلام أن الله عز وجل فى خلقه **مثوبات** فقر **وعقوبات** فقر، فمِنْ علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يَحسُن خُلُقُه، ويطيع به ربه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره. ومن علامات الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلُقه، ويعصى به ربه، ويُكثر الشكاية، ويتسخّط القضاء. وهذا النوع الذى هو عقوبة من الفقر هو الذى استعاذ منه النبى صلى الله عليه وسلم وهو **فقر النفس**، لأن الفقر من المال إنما هو **الافتقار** إلى الخلْق، **والفقر** إلى الأشياء مع عدم صدق الحال.

وبايع **رسول الله صلى الله عليه وسلم** قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع

والطاعة، ثم قال كلمة خفيفة- ولا تسألوا الناس شيأ ، فكان صلى الله عليه وسلم يأمر بالتعفف والكفّ عن المسئلة، ويقول من سألنا أعطيناه، ومن استغنى أغناه الله عز وجل. وقال مَن لم يسألنا فهو أحب إلينا . وقال عليه السلام استغنوا عن الناس وماقلّ من السؤال فهو خير، قالوا ومنك يا رسول الله، قال ومنى. فلو لم يكن فى ترك المسئلة إلاّ دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن سأل عن غنًى فإنما يستكثر من جمر جهنم، ومَن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع ليس عليه لحم. وفى خبر آخر كانت مسئلته خُدوجا وكدوحا فى وجهه. وفى الحديث استغنوا بغنًى الله عز وجل، قالوا وماهو، قال غداء يوم أو عشاء ليلة. وفى الخبر مَن سأل وله خمسون درهما أو عدْلها من الذهب فقد سأل إلحافا . ومَن كان معه هذا القدر من الدنيا لم يخرجه من عموم الفقراء، فإنْ سأل مع ذلك أخرجه من عمومهم. ومن سأل قبل الجوع أو بعد الشبع، أو سأل ليدخر، أو سأل وله غداء يوم أو عشاء ليلة، أخرجه ذلك من خصوص الفقراء.

وسئل **سفيان الثورى** عن أفضل الأعمال فقال التجمل عند المحنة، وعلى الفقير أن لا يزكّى غنياً لأجل عطائه، ولا يذمّه ولا يمقته لأجل منعه، ولا يعظّم أهل الدنيا ولا يكرمهم لأجل دنياهم. وقال **ابن المبارك** مِن تواضع الفقير أن يتكبّر على الأغنياء. وعن **علّى** عليه السلام ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبةً فى ثواب الله عز وجل، وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل. ومن **فرائض الفقر** أنْ لا يسكت الفقير عن حق ولا يتكلم بهوى لأجل دوام العطاء من أحد، ولا لاجتلاب نفع، فإنّ ذلك وليجة فى الدين ومداهنة للمؤمنين. ومن **فضائل الفقر** أنْ لا يدخر لأكثر من أربعين يوما، ولا يكون المدّخَر أكثر من أربعين درهما، والأصل فى ذلك أن الله تبارك وتعالى قال «**وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة**»، فإذا فسح له فى تأميل أربعين فالادخار من الأمل، فإنْ أمِل حياة أربعين يوما جاز له أنْ يدخّر لأربعين، ومن قَصُر أملُه إلى يوم وليلة لم يدخر إلاّ ليومه وليلته، فترْكُ الادخار مقتضى قِصَر الأمل. وقد جعل غِنَى الفقير فى أربعين درهما فهذا لعموم الفقراء، فأمّا خصوصهم فإن غناهم غداء يوم أو عشاء ليلة لقِصَر أملهم.

ومن **فضل الفقير** أنْ لا يهتم برزقِ غدٍ، كما أنّ الله تبارك تعالى لا يطالبه بعمل غد قبل مجيئه، ولأن الرزق معلوم مقسوم والوكيل حفيظ قيوم، وأن يكون راضيا بفقره شاكراً عليه،

ويغتبط بالفقر لعظيم نعمة الله عز وجل عليه فيه، ويخاف أن يُسلَب فقره أشد من خوف الغنى أنْ يُسلَب غناه، لشدة اغتباطه به. وفى الخبر عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** يامعشر الفقراء، اعطوا الله عز وجل الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلاّ فلا.

وفى الخبر عن الله عز وجل إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبته. وقال **موسى** يارب مَن أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك، فقال كل فقير فقير. التكرار فيه لمعنيين، أحدهما المتحقق بالفقر، والثانى الشديد الحاجة والضُّر. وقال **عيسى صلّى الله عليه وسلم** إنى لأحب المسكنة وأبغض الغنىَ. وقيل كان من أحب أسمائه إليه أنْ يقال له يامسكين. وقال **رسول الله صلّى الله عليه وسلّم** فى دعائه الذى تلّقاه من ربه وأمره به: أسألك الطيبات وفعل الخيرات وحب المساكين.

ومما يعتبر به فضل الفقر على الغنى أنّ أفضل الخلق هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن شاركه وقارنه بمعنى وصفه فهو الأفضل لأنه الأمثل فالأمثل، وهم الفقراء وصفهم الله عز وجل بوصفه فقال تعالى« **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه**» الآية، فلمّا شاركوه فى العُدم وكان حال الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو الأفضل والأتّم، دلّ على فضل حالهم على غيرهم. وقد قال الله عز وجل« **إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء**»، وقال تعالى «**كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**»، فوصف الأغنياء بالطُغو وأوقع عليهم الحجة. وقال فى وصف الفقراء «يحسبهم الجاهل أغنياء»، فلولا أنّ الغنَى مفضول ما نُسِب مَن وصفهم به إلى النقص. والغنَى باب الدنيا وأصل التفاخر والتكاثر المذموم. والفقر باب الآخرة وأصل الزهد والتواضع المحمود. وعند أهل المعرفة أن الغنَى من الصفات التى لا ينبغى أنْ يُنازَع فيها، ومكروهة لِمَن ابتُلى بمعانيها، وأنه مثل العز والكبر وحب المدح والذكر، فمن أحب شيأ من ذلك وطلبه فقد نازع الله تعالى لِبْسته، وتركوا ذلك لأجل الله عز وجل لأنه من صفات الربوبية، وسلّموه له خوفاً منه أو حباً له، وأنّ الفقر من صفات العبودية مثل الرجاء والخوف والتواضع والذل، فمن طلب ذلك وأحبه فقد تحقق بوصف العبودية، ومن أحب الغنىَ دل على حبه البقاء. وكان **سهل** يقول حُبُّ الغنَى شِرْك فى الربوبية، أى لأن البقاء من صفات الباقى. ومَن فضّل الغنى على الفقر دلّ على حبه للغنَى فظهر بذلك محبة الأغنياء، لأن حب الوصف دليل على حب الموصوف. وحب

الشيء أيضا دليل على بُغض ضده، فإذا أبغض الفقراء أبغض الفقر ، وبغّض الفقر لحُبّ الغنَى، فقد اختار الرغبة على الزهد، والكثرة على القلة، والعز في الدنيا على الذل، وفي هذا إيثار الدنيا على الآخرة.

ويقال كان الفقر شرف المؤمن، وكان الفقراء فيما سلف في المؤمنين بمنزلة الأشراف. ثم إنّ الفقراء على منازل **ثلاث**: **فقراء الأغنياء** وهم السؤّال عند الفاقات الكافّون نفوسهم مع الكفاية، القانعون بالكفاف، وهم طُهرة الأغنياء ومزيدهم من الله تعالى، وهم الذين جعل الله لهم في أموال الأغنياء سهما لأن منهم **السائل والمحروم**، ومنهم **القانع والمعتّر**. **والطبقة الثانية فقراء الفقراء** وهم المتحققون بالفقر، المختارون له، المؤثرون إياه على الغنى، لا يبتذلون للسؤال، ولا يعرضون في المقال، راضون بالميسور من مولاهم، تعرفهم من سيماهم، يحسبهم الجاهل أغنياء لترك المسئلة والشكوى، ومنهم **المحروم**، حُرِم السعي للدنيا، ومنهم **المحُارِف** انحرفت عنه الأسباب، ومنهم **القانع** قنع بما يصل إله من غير امتهان وتبذّل فيه، ومنهم **المعتّر** رضى عن الله عز وجل بما يعتريه. وأما **الطبقة الثالثة فهم أغنياء الفقراء**، وهم الأجواد الأسخياء أهل البذل والعطاء، يأخذون ويخرجون ولا يستكرون ولا يدخرون، إنْ مُنعوا شكروا المانع لأنه هو المعطى، فصار منعه عطاء، وإنْ ضُيِّق عليهم حمدوا الواسع لأنه هو المحمودُ فصار ضيقه رخاء، وإن أُعطوا بذلوا وآثروا، فهم الزاهدون في الدنيا لأنهم موقنون فكفاهم اليقين غِنًى. وقد كان **بشر** يقول الفقراء **ثلاثة**: فقير **لا يسأل** وإنْ أُعطى **لم يأخذ**، فهذا مع الروحانيين في علّيين، وفقير **لا يسأل** وإنْ أُعطى **أخذ**، فهو مع المقرّبين في حظيرة القدس، وفقير **يسأل عند فاقته** فهذا مع الصادقين، وصدقه في حاله كفّارة مسئلته.

ودُفِع إلى **إبراهيم بن أدهم** ستون ألفا وكان عليه دين وبه حاجات إليها، فردّها فعوتب في ذلك، فقال كرهت أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء لستين ألفا .وقد كانت **عائشة** رضى الله عنها تفرّق مائة ألف في حين أنّ درعها لمرقوع، فقالت لها الخادمة لو اشتريتُ لك بدرهم لحماً تفطرين عليه، فقالت لو ذكّرتني لفعلت. وكان **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أوصاها فقال: إنْ أردتِ اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تنزعي ثوباً حتى تُرقّعيه.

ونحن لم نقل ليس الغنى طريقا للأغنياء إلى الله، وإنما فضّلنا طريق الفقراء لأنهم الأمثل

فالأمثل بالأنبياء. وعن **الحسن** فى قوله عز وجل **وما يستوى الأحياء ولا الأموات**، قال الفقراء والأغنياء فجعل الفقراء أحياء بمولاهم، وجعل الأغنياء موتى بدنياهم. وقال **الثورى** رحمه الله إذا رأيت الفقير يداخل الأغنياء فاعلم أنه مُراء، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص، فمن فضّل الغنّى على الفقر بعد الأخبار التى وردت فى تفضيل الفقر والفقراء فأحسن حاله الجهل بالسنن لإيثار الرأى والهوى على مافيه أثر وسنّة، لأن الأثر إذا جاء فى شىء لم يكن للرأى فيه مدخل، وكان فى مخالفته مع العلم به عناد ومحادّة.

فإن لم يكن للفقير معلوم من الدنيا، وكان رزقه قد أُجرى على أيدى العباد من غير تعويض منه لهم من صنائع الدنيا، فقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أن هذا المال مال الله، فمن أخذه بحقه بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، فكان كالآكل ولا يشبع. وروينا من أتاه شيءٌ من هذا المال من غير مسئلة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه، وفى لفظ آخر فلا يردّه. فإنْ كان محتاجاً إليه وإلاّ فليصرفه إلى من هو إليه أحوج منه. وروينا عن **الحسن وعطاء** حديثاً مرسلاً أنّ **النبى صلى الله عليه وسلم** قال من أتاه رزقه من غير مسئلة فردّه فإنما يردّه على الله. وروينا عن **أنس بن مالك** عن النبى **صلى الله عليه وسلم** ما المعطى من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً. وقال بعض العلماء لو هرب العبد من رزقه لطلبه حتى يصل إليه، كما لو هرب من الموت لأدركه. وقال **أبو محمد** رحمه الله لو أن العبد سأل ربه فقال لا ترزقنى لما استجاب له وكان عاصيا، ويقال له ياجاهل لابد أنْ أرزقك كما خلقتك.

ثم إنّ **الرزق** على **وجهين**، عن معان لا تحصى وأسباب لا تعدّ ولا تضبط، فمن الرزق ما يأتى العبد بسكونه وقعوده فيكون الرزق هو الذى تحرك إليه ويأتيه، ومنه ما يأتى العبد بحركته وقيامه، والرزق فيهما واحد، والرازق بهما واحد، والحكمة والقدرة فى المتحرك القائم وفى الساكن القاعد واحد، إلاّ أن الأحكام فيهما متفاوتة. ثم إنّ **الأشياء** كلها على **ضربين**، مُسخّر لك ومسلّط عليك، فما سُخّر لك سلّطتَ عليه وهو نعمة عليك، وعليك الشكر عليه، وهذا مقام الشكر على معنى الرزق، وما سلّط عليك فقد سُخّرتَ له أنت وهو بلاء عليك، وعليك الصبر فيه، وهذا مقام الصبر عن معنى الابتلاء.

ولا يُستَحبّ للفقير أن يأخذ إلاّ من صديق، ولا يقبل إلاّ ممن يحب، لأن لأهل المعرفة بالله

عز وجل أن يحكموا فى الأسباب بما أراهم الله تعالى من الردّ أو من القبول. وحدثونا عن **موسى** صلى الله عليه وسلم أنه قال يارب جعلتَ رزقى هكذا على أيدى بنى إسرائيل، يُغدّينى يوما هذا، ويُعشّينى هذا الليلة، فأوحى الله إليه هكذا أصنع بأوليائى، أُجرى أرزاقهم على أيدى الطالبين من عبادى ليؤجَروا فيهم. والعالِم القاعد عندهم أفضل من الجاهل المتصرّف، والعالم المتكسّب أفضل من القاعد الجاهل، والقوى التارك للتصرّف أفضل عندهم من الضعيف المتصرّف، والقوى المتصرّف أفضل من الضعيف التارك للتصرّف.

وقد جعل الله **المستحقين للعطاء ستة**، ذكرهم فى آيات **ثلاث**، فقال عز وجل فى الآية الأولى «**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**»، وقال فى الثانية «**وفى أموالهم حق للسائل والمحروم**»، وقال فى الثالثة «**فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر**»، فمن لا معلوم له من تكسّبٍ أو تصرّف فهو أدخل شىء فى هذه الآيات وأحوج إلى الإعطاء. ومن كان ذا معلوم يحتاج إلى أكثر منه لفضل عيْلة أو كثرة نفقة، فإنه يدخل بمعنى من أوصافهم. وكان **ابن عباس** رضى الله عنه يقول فى الآية «**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**»، نزلت فى أهل الصفّة ومن كان فى معناهم إلى يوم القيامة، وكانوا **أربعمائة وخمسين** رجلا لم تكن لهم عشائر بالمدينة ولا أموال كالمهاجرين والأنصار. وكانوا نزّاع القبائل، أسكنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صفّة المسجد وقسّم الله عز وجل لهم الأموال. ثم إن الله سبحانه وتعالى أفرد **طبقة سابعة** عن جُمَل هؤلاء الستة، ووصفهم بأحسن الصفات فقال« **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم**»، وقال «**وما تنفقوا من خير يوف إليكم**»، وكل هذا متصل متعلق بقوله عز وجل «**للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض**» إلى آخر أوصافهم، فوصفهم بالإحصار فى سبيله، وبالعفة عن الدنيا وأبنائها، وأنهم لا يلتحفونها التحافاً لزهدهم فيها، وسَمّى من لا يعرف أوصافهم جاهلاً، فهذه الطائفة فوق الطبقات الموسومة بالصدقات، المقسوم عليها الزكوات، بل أمر المؤمنين بالإنفاق عليهم من الاكتساب للطيبات من بعد وصف أحسن الخالقين لهم، والله تبارك وتعالى لا يحب عبداً إلاّ وصفه، والوصف دليل على الحب، والمحبة تدل على الفضل العظيم.

وقد قال بعض **الصوفية** فى معنى قول **النبى صلى الله عليه وسلم** يد المُعطِى هى العليا، ويد المُعطَى هى السفلى، أنّ المُعطِى هو الفقير وأنّ المعطَى هو الغنى، ويكون دليل هذا

القول قوله إنّ الصدقة تقع بيد الله سبحانه تعالى قبل أن تقع بيد السائل، وهو يضعها فى يد السائل، فقد صارت يد الفقير هى العليا، لأنها تتلقى عن الله، والله تعالى يقول يد الله فوق أيديهم، ذلك أنها فوق الكل، ولأنه هو المُعطِى الأوّل لهما جميعا، فكما لا أول أول منه فى العطاء، فكذلك لا يد فوق يده فى الإعطاء، وإنما الترتيب بين الغنى والفقير أيهما المعطِى بعد يد الله تعالى، فقلنا إنّ المعطى فى الحقيقة إذ كان العطاء الحقيقى هو ما يبقى ويدوم لا ما يفنَى ويزول، وذلك هو العطاء من الآخرة الباقية فصار الفقير هو المُعطِى للغنى فى الدنيا نصيبه من الآخرة، فأما يد الله تعالى فإنها فوقهما والذى أعطاهما جميعا، لأن يده فوق الفوق، وفوق التحت، لا يوصف بتحت ولا بأسفل، تعالت أوصافه العليا عن نعوت الخلْق السفلى، وهو لا يدخل تحت القياس والتشبيه. فقد حدثنا بعض إخواننا عن شيخ له فقال رأيت **أبا الحسن النورى** يمد يده ويسأل الناس فى بعض المواطن، قال فأعظمت ذلك واستقبحته، فأتيت **الجنيد** فأخبرته فقال لا يعظُم هذا عليك فإن النورى لم يسأل الناس إلاّ ليعطيهم. إنما سأل لهم ليثيبهم من الآخرة فُيؤجَرون من حيث لا يضره.

ذكر اختلافهم فى إخفاء العطاء وإظهاره

ومن رأى أن الإظهار أفضل وتفضيل ذلك، قداختلف فعل المخلصين فى ذلك، فرأى بعضهم أن يُخفِى ما يأخذ من العطاء، لأنه أدخل فى التعفف، وأقرب إلى التصوّن، وأنه أسلم لقلوب الغيْر، وأصلح لنفوس العامة، وأنّ فيه النُصرة لإخوانه من الغيبة والتهمة، بمثل ذلك أو بأكثر منه، وفيه الاحتياط لأخيه، وعونٌ له على البرّ والتقوى فى قوله عز وجل «**إنْ تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم**»، وللخبر الذى جاء أفضل الصدقة جُهد المقل إلى فقير فى سرّ، لأن عمل السرّ يفضل على عمل العلانية بسبعين ضعفا. وقد روى عن **النبى صلى الله عليه وسلم** استعينوا على أموركم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود. وهذا **مذهب القُرّاء** من العابدين. وقال **أيوب السختيانى** إنى لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يُحدث فى جيرانى حسداً. وقال **بعض الزاهدين** ربما تركت استعمال الشيء لأجل إخوانى يقولون من أين هذا. ودفع رجل إلى **بعض العلماء** شيأ ظاهراً فردّه، ودفع إليه آخر شيأ فى السرّ فقبله، فقيل له فى ذلك فقال إنّ هذا أخفى معروفه وعمل بالأدب فى معاملته فقبلنا عمله، والذى أظهر معروفه أساء فى الأدب فى المعاملة فرددنا عمله عليه. ودفع بعض الناس إلى **بعض الصوفية** شيأً بين الملأ فردّه، فقيل له لِمَ تردّ على الله عز وجل ما أعطاك، فقال إنك أشركت غير الله سبحانه

وتعالى فيما لله ولم تقنع بعين الله عز وجل، فرددت عليك شركك. وقد كان **بعض العلماء** لا يقبل فى العلانية ويأخذ فى السرّ، فسُئل عن ذلك فقال إنّ فى إظهار الصدقة إذلالاً للعلم وامتهاناً لأهله. وكذلك حدُثنا أن رجلاً دفع إلى **بعض العارفين** شياً علانية فردّه، ثم دفعه إليه فى السرّ فقبله، فقيل له رددت فى الجهر وقبلت فى السرّ، فقال لأنك أطعت الله تعالى فى السرّ فأعنتك على برّك بقبوله، وعصيته بالجهر فلم أكن عونا لك على المعصية. وقد كان **سفيان الثورى** يقول لو علمتُ أنّ أحدهم لا يذكر صلته ولا يتحدث بها لقبلتُ صلته. وفى هذا لعمرى مواطأة لما ندب الله تعالى إليه من الإخفاء، ولما أمَر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضّله من أعمال السر.

وذهب آخرون من **أهل المعرفة** الموصوفين بالتوحيد إلى أن الإظهار للآخذ أفضل، لأنه أسلم له وأدخل فى الإخلاص والصدق، فليس علينا إذ علمنا فى سلامتنا وحُكم حالنا من إسقاط جاهنا بالأخذ علانية ماوراء ذلك من أقوال الناس، يتولى الله عز وجل من ذلك من به ابتلاه. وقالوا ولأن فى التوحيد أن الظاهر والباطن هو المُعطي فلا معنى للردّ عليه فى الظاهر. وقد قال بعضهم سرّ العارف وعلانيته واحد لأن المعبود فيهما واحد، فاختلاف فعل أحدهما شرك فى التوحيد. وقال بعض العارفين إذا أخذتَ فأظهر فإنها نعمة من الله إظهارها أفضل، وإذا رددت فاخفِ فإنه عمل لك وإسراره أفضل. وهذا لعمرى قول فصل، وهو طريق العارفين. وقال بعض علمائنا إظهار العطاء من الآخذ آخرة، وكتمانه دنيا، وهذا كما قال الله تعالى **وأما بنعمة ربك فحدّث**. وقد ذمّ الله تبارك وتعالى من كتم ما أتاه الله من فضله وقرنه بالبخل، والبخل باب كبير من الدنيا، فقال تعالى **الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله**. وقال **النبى صلى الله عليه وسلم** إذا أنعم الله عز وجل على عبد نعمة أحب أن تُرى عليه.. وهذا هو الأقرب إلى قلوب الموّحدين من العارفين، لاستواء ظروف الأيدى عندهم من العبيد، ونفاذ نظرهم إلى المُعطي الأول فاستوى سرّهم وعلانيتهم فى الأخذ من يده.

وفصل الخطاب فى هذا الباب عندى أنه يحتاج إلى تفصيل، فنقول والله أعلم إن الخلْق مبتلًى بعضه ببعض، وفرض كل عبد القيام بحكم حاله ليفضُل بقيامه ويسلَم فى حاله، فعلى المُعطي أنْ يُخفي ويُسّر جهده، فإنْ أظهر تَرَك علْمَ حاله فنقص بذلك، فكانت هذه آفة من آفات نفسه، وباباً من أبواب دنياه، وعلى المُعطَى أنْ يذْكُر وينشر، فإنْ أخفَى وكتم فقد ترك الإخلاص فى عمله ونقص لذلك، وكانت آفة من آفات نفسه وباباً من دنياه مثله. وروينا أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أُسدِى إليه معروفٌ فليكافِىء به، فإنْ لم يستطع فليثن به. وفى لفظ آخر من أسدَى إليكم معروفا فكافؤه، فإنْ لم تستطيعوا فاثنوا به خيراً وادعوا له حتى يعلم أنْ قد كافئتموه. والخبر العام بمعنى ذلك من لم يشكر الناس لم يشكر الله.

والنوع الثانى من التفضيل أن على المعطِى أن لا يحب أن يُذكَر معروفه، ولا يُشكر، فإن علمتَ من يقصد ذلك ويحبه منك فتركُ الثناء على مثل هذا والكتم من الفقير أفضل.

ومن الناس من يستوى عنده إظهاره للعطاء وإخفاؤه، لصحة يقينه بذلك، وإخلاص نيته فيه، ونفاذ مشاهدته بدوام نظره إلى المنْعِم الأول، فهذا إن قبلتَ منه علانيته صلُح، وإنْ أثنيتَ عليه بذلك جاز، لقوة معرفته وكمال عقله وسبق نظره إلى مولاه فيما وفّقه به وتولاّه، فيشكر له ذلك ويراه نعمة منه. ولمثل هذا جاء الخبر المشهور إذا مُدِحَ المؤمن رَباَ الإيمان فى قلبه. وقال بعض العارفين يُمدَح الرجل على قدر عقله. وقال **الثورى** من عرَف نفسَه لم يضره مدح الناس له.

والنوع الرابع من التفضيل من الناس مَن إذا أظهر معروفه فسد قصده بذلك، واعتورته الآفات من التزيّن والتصنّع، فمثل هذا لا يصلح أن يَقبَل منه ما أعلن به، لأنه يكون معينا له على معصيته، وهذا أيضا لا يصلح أنْ يُثنىَ عليه، فإنْ ذكِّر بمعروفه أو مُدِح به كان ذلك مفسدة له واغتراراً منه، لقوة نظره إلى نفسه ونقصان معرفته بربه، فمن مدح هذا فقد قَبِله، ومن ذكّره بمعروفه فقد أعانه على شِرْكه.

ثم اختلفوا فى الأخذ، منْ الواجب أفضل أم من التطوع، فرأى بعضهم أنْ يأخذ من الواجب ولا يقبل من التطوع، لأن الواجب يؤخذ بإذن الله تعالى، والله تعالى أوجب عليه أن يأخذه من حيث أوجب الزكاة، فلو أن الفقراء والمساكين تواطؤا على أن لا يقبلوا الزكوات، أثِموا أجمعون، ولعصوا كلهم بذلك، لإسقاطهم فرض الله عز وجل من الأموال بالزكوات وأيضا لأن هذا أدخل له فى جملة الضعفاء والمساكين، وأقرب إلى التواضع والذلّة، قالوا ولا مِنّة لأحد علينا فيه، ولاحقّ يلزمنا عليه إذا كنا نستحق ذلك منه. قالوا لأنه أسلم لديننا لئلا يدخل علينا الأكل بالدِّين، لأنّا إنما نستوجبه بالحاجة وحرمة الإسلام فقط، ونخاف أن يكون أخذنا بالتطوع أكلاً بديننا، أو أنّا أُعطينا لصلاحنا واعتقاد فضلنا فلا نحب ان نُخَص بشىء دون الفقراء. وهذا **مذهب القُرّاء** من العابدين. واختارت طائفة أنْ يأخذوا من النوافل دون

الفرائض، أجروه مجرى الهدية، وقالوا قد أُمر بقبولها ونُدب إلى التهادى للتآلف والتحبب. وقالوا ولا نزاحم المساكين فى حقوقهم، ولعلنا لا نكمل أوصافهم ونخاف أن لا يوجد فينا ما شرط الله عز وجل لواجبه، ولا نضعه فى حقيقة موضعه، أو لا نحتاط لمن يسقط عنه الواجب به، فالتطوع أوسع علينا، ومع هذا فإنهم يشهدون النعمة من الله تعالى، وأن الدين إنما هو لله عز وجل كما قال «**ألا لله الدين الخالص**»، وأنهم مستعمَلون بأنفسهم من حيث كانوا مُنعَماً عليهم لا منعمين على أنفسهم. وهذه طريقة بعض أهل المعرفة، وممن ذهب إلى هذا **إبراهيم الخواص وأبو القاسم الجنيد** ومن وافقهما. والأمر فى ذلك عندى أن من لم يأخذ من كل إنسان ولا فى كل أوان، ولم يقبل إلا عند الحاجة وما لا بدّ له منه، ثم قام بحكم الله تعالى فى الواجب وحكمه فى التطوع، أنّ الحالين يتقاربان، لأن الواجب أمرُ الله تبارك وتعالى فيه حكم، والتطوع ندبٌ، وله عزّ وجلّ فيه حُكم، فعلى العبد أن ينظر لدينه ويحتاط لأخيه فيعمل بما يوجب الوقت من الحكم من أيهما كان، فسواءٌ ذلك، ولا ينظر بُظلمة النفس فى هوى الحظ، ففى ذلك سلامته.

الفصل الحادى والأربعون
فى كتاب حكم المسافر والمقاصد فى الأسفار

فإن سنح لهذا المريد سفرٌ ففى الحديث البلاد بلاد الله عز وجل، والخلق عباده، فحيث ما وجدتَ رزقاً فأقمْ واحمدْ الله عز وجل. والخبر المشهور سافروا تغنموا. فغنيمة أبناء الآخرة ربح تجارة الآخرة. وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين «**ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها**»، وقال عز وجل «**قل سيروا فى الأرض فانظروا**»، وقال تعالى «**وفى الأرض آيات للموقنين**». وقال جلّ وعلا «**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**»، فمن جُعلت آياته فى نفسه تبصّر ففطن، ومن جُعلت له الآيات فى الآفاق سَرّب وسَرّى، وكذلك قال الله عز وجل «**وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون**»، ومثله «**وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون**». فمَن سار فكانت له بصيرة اعتبر وعقل، ومن مرّ على الآيات فنظر إليها تذكّر وأقبل. وقد أمر الله عز وجل بالمشى فى مناكب بساطه، والأكل من رزقه بعد إظهار نعمته بتذليل مهاده، فقال سبحانه وتعالى «**هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه**»، قيل فى أسواقها، وقيل، قُراها، وقيل جبالها لأنها أعاليها.

وكان **بشر الحافى** يقول يامعشر القرّاء سيحوا تطيبوا فإن الماء إذا كثر مقامه فى موضع تغّير. وقيل إنما سمى سَفَراً لأنه يُسفر عن أخلاق النفس، وأيضاً يسفر عن آيات اللّه سبحانه وقَدَرِه وحُكمه فى أرضه. فإذا عزم على السفر فليصلِّ ركعتى الاستخارة، وليعقد التوكلَ على اللّه عز وجل، فكفى ناظراً وساكناً إليه تبارك وتعالى، واثقا به ومعتمدا عليه، مستوراً حاله، راضياً عنه عز وجل فى تقلبه ومثواه. ولْينْوِ فى سفره الاعتبار بالآثار، والنظر إلى الآيات بالاستبصار، والابتغاء من فضل اللّه سبحانه فيما ندبه إليه من الأسباب. ويقال إن اللّه تبارك وتعالى يعطى المسافرين كل واحد على نحو نيّته، فمن كانت نيته طلب الدنيا أُعطَى منها ونَقُص من آخرته أضعافه، وفُرِّق عليه همّه، وكثُر بالحرص والرغبة شُغله. ومن كانت نيّته طلب الآخرة وأهلها، أُعطَى من البصيرة والفطنة، وفُتِح له من التذكرة والعبرة بقدْر نيته، وجُمع له همّه، وملّك من الدنيا بالقناعة والزهد شغله. فلتكن نية هذا المسافر استصلاح قلبه، ورياضة نفسه، واستكشاف حاله، وامتحان أوصافه، لأن النفس إنما أظهرت الإذعان والانقياد فى الحَضَر، وربما استكانت وأجابت فى السفر، فإذا وقعت عليها أثقال الأسفار، وخرجت عن معتاد ذلك المعيار، فأسفرت حقيقتها، وانكشفت دواعيها، فيكون المسافر فى علوم وبصائر يَعرف بها خفايا نفسه ومكانها، ويكون هذا من خَبْء الأرض الذى يخرجه اللّه عز وجل لمحبيه متى شاء، كما قال جل وعلا «**يُخرج الخبء فى السموات والأرض**». فإن خرج سائحاً فى طلب العلم فقد جاء ذلك فى تفسير قوله عز وجل «**السائحون**»، قيل فى طلب العلم. وقيل هم طلبة العلم. وقد كان **سعيد بن المسيب** يسافر الأيام فى طلب الحديث الواحد. وقال **الشعبى** لو سافر رجل من الشام الى أقصى اليمن فى كلمة تدل على هُدَى، مارأيت أن سفره كان ضائعا. ورحل **جابر بن عبد اللّه** من المدينة وغيره من الصحابة إلى مصر، فساروا شهراً فى حديثٍ بلَغَه عن **عبد اللّه بن أنيس الأنصارى**، يحدّثه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى سمعوه. ومَن سافر فى طلب العلم من عهد الصحابة إلى يومنا هذا أكثر من أن يُحصى. وفى الخبر مَن خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل اللّه عز وجل حتى يرجع. وفى خبر آخر مَن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل اللّه عز وجل له طريقا إلى الجنة.

ويقال إنّ النفقة فى العلم كالنفقة فى سبيل اللّه، الدرهم بسبعمائة. وإنْ سافر فى لقاء الصالحين، فقد جاء فى الأثر كانوا يحجون للّقاء، والحج من أفضل الأسفار، فجعلوه سبباً للقاء الأخيار، فإنْ نوى القُرب من الأمصار طمعاً فى سلامة دينه، وبُعداً من تعلّق النفس بما

في الحَضَر من حظ دنياه فحسَن. وربما خرج طلباً للخمول والذلّة خشية الفتنة بالشُهرة، ورجاء صلاح قلبه واستقامة حاله في البُعد من الناس، ورياضةً بالتفرّق والتوّحد إلى أنْ يقوى يقينه ويطمئن قلبه، فيستوى عنده الحضر والسفر، ويعتدل عنده وجود الخَلْق وعدمهم بإسقاط الاهتمام بهم. وقد قال **الثورى** هذا زمان سوء لا يؤمَن فيه على الخامل فكيف بالمشهورين؟ وهذا زمانُ رجل ينتقل من بلدٍ إلى بلد كلما عُرف في موضع تحوّل إلى غيره. وقال **أبو نعيم** رأيت **الثورى** وقد علّق قُلّته بيده ووضع جرابه على ظهره، فقلت له إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال له قد بلغنى عن قرية فيها **رُخْص** فأنا أريد أن أقيم بها.فقلت وتفعل هذا يا أبا عبد الله؟ قال نعم، إذا بَلَغَك عن قرية فيها رُخْص فأقم بها، فإنه أسلم لدينك وأقّل لهمّك. وقد كان **سرى السقطى** يقول للصوفية إذا خرج الشتاء ودخل **أذار** وأورَقت الأشجار طاب الانتشار.

ومن أفضل الأسفار ما خُرِج له في سبيل الله عز وجل من الجهاد، والحج، والرباط، وزيارة قبر النبى صلّى الله عليه وسلم، ثم زيارة أصحابه، محتسباً بذلك ما عند اللّه عز وجل. والسفر في زيارة الأخ في اللّه عز وجل مستحب مندوب إليه، وروينا ذلك في خبر عن بعض أهل البيت عليهم السلام. وقيل مكتوبٌ في **التوراة** سر ميلاً عُدْ مريضا، سر ميلين شيّع جنازة، سر ثلاثة أميال أجبْ دعْوة، سر أربعة أميال زُرْ أخًا في اللّه تعالى. وإن سافر إلى بعض الثغور ناوياً رباط أربعين يوماً أو ثلاثة أيام فحسَن. وإنْ قصَد **عبادان** فرابط فيها ثلاثاً فقد أثابها ثلاثمائة من العلماء والعباد للرباط فيها ما يجل وصفه. وروى عن **علىّ عليه السلام** أنه سأل رجلاً بالبصرة أنْ يرابط بعبادان ثلاثا ويُشركه في صحبته. وقال بعض العارفين كوشفتُ بالأمصار فرأيت الثغور كلها تسجد لعبادان.

ومن قصد في سفره أحد **المساجد الثلاثة** المندوب إليها لشد الرحال فهو أفضل، أولاها **المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد بيت المقدس**، فيقال من جمع الصلاة في هذه المساجد الثلاثة من سُنّته غُفرت له ذنوبه كلُها، ومَنْ أهَلّ بحج أو عُمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. وخرج **ابن عمر** من المدينة قاصداً إلى بيت المقدس حتى صلّى فيه الصلوات الخمس، ثم كرّ راجعاً من الغد إلى المدينة. وسأل **سليمان** عليه السلام ربّه تعالى أنّ مَن قصد هذا المسجد لا يهمه إلاّ الصلاة فيه، أنْ لا تصرف نظرك عنه مادام مقيماً فيه حتى يخرج منه، وأنْ تُخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فأعطاه اللّه تعالى ذلك. وأما فضائل المسجدين في الحرمين، حَرَم اللّه عز وجل، وحَرَم رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم، فأكثر من أنْ نذكرها. وإن سافر طلباً للحلال وهو

يأمن طُعْمة الحرام، فذانك له قُربتان، وقد فعله صالحو السلف فى كل زمان.

وليكن العبد فى سفره مراعياً لهمّه حافظاً لقلبه من التشتّت والطمع فى الخلْق والتعرّض للمسئلة، فإنْ لم يكن ذا معلوم معهود كان معلومه العلاّم الودود، وكان طريقه إليه صدق التوكل، وزاده فى طريقه حُسن التقوى له بصحة الإياس من الناس، وعليه حينئذ الصبر على بلائه، والرضا بتصريفه فى قضائه، والشُكر على لطائف نعمائه من منعٍ أو عطاءٍ أو شدةٍ أو رخاء، لأنه فى يد الوكيل يقلّبه كيف يشاء. والتوكل عند المتوكلين هو فى الصبر للصبور، وتسليم الحكم للحاكم، ومنه قوله تعالى «**الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون**»، وقوله «**إنْ الحكم إلا للّه عليه توكلت**». وقال رجل **لبشر بن الحارث** إنى أريد سفراً ولكنى منعنى أنه ليس عندى شىء. فقال لا يمنعك العُدم من سفرك. واخرجْ لقصدك فإن لم يعطك ما لغيرك لم يمنعك مالك. وكان **إبراهيم الخواص** يقول كفٌ فارغ وقلبٌ طيب ومُرّ حيث شئت. ومَن طرقته فاقة أو رهقته حاجة لم يخرجه من التوكل أنْ يسأل إذا عدم القوة والصبر، لأنه حينئذ يسأل لربه لا لنفسه، يحرّكه العلم لا الهوى لإقامة فرضه وحفظ عقله الذى هو مكان تكليفه.

وحدثونا عن **أبى جعفر الحدّاد** وكان شيخاً للجنيد له علم فى التوكل وحال من الزهد، كان يقتات بخروجه بين العشاءين، فيسأل من باب أو بابين، فيكون ذلك معلومه إلى بعض حاجاته من يوم أو يومين، ولم يعب هذا عليه أحدٌ من الخصوص. وقد رأى بعض الناس رجلاً من **الصوفية** دُفع إليه كيس فيه مئون دراهم فى أول النهار ففرّقه كلّه، ثم سأل قوتاً فى يده بعد عشاء الآخرة، فعاتبه على ذلك، وقال دُفع إليك شىء أخرجته كله فلو تركت منه لعشائك شيئاً، فقال ما ظننت أنى أعيش إلى المساء، ولو علمت ذلك فعلت. وكان هذا زاهداً قصير الأمل. إلاّ أنّ السؤال للمتوكل عند **الخوّاص** يخرجه من التوكل. وقد كان **سهل** يقول المتوكل لا يسأل ولا يردُّ ولا يحتكر، وليس يخرجه عندى من التوكل المسألة عند الفاقة بل عدم الصبر والقوة، ففقد ذينك وجود الإذن من اللّه له فى السؤال إذا كان ناظرا إلى تصريف الوكيل فى كل حال، ولأن الولىّ الحميد يقلّب وليّه فى جميع الأحوال. ألَمْ تَرَ إلى إمامَى أهل الظاهر والكُتب وأهل الباطن والقلوب، استطعما أهلها، لأن المسلم يستحق على إخوانه سدّ جوْعته لحُرمة الإسلام.

وقال **النبى صلى اللّه عليه وسلم** ليلة الضيف واجبة. وقال **عليه الصلاة والسلام** الضيافة حق. وفى الخبر ولك أن تأخذ من ماله مقدار ليلة. وفى الحديث أيمّا أهل عرْصَة أو

قرية بات فيهم رجل من المسلمين جائعاً فقد برئت منهم الذمة. وكان **الثورى** يسأل فى البوادى من الحجاز إلى صنعاء اليمن، فقال كنت أذكّرهم حديث عبد الله هذا فى الضيافة، قال فيخرجون إلىّ طعاماً فآكل شبعى وأترك مابقى. **والمسافر** هو ابن السبيل الذى أوجب الله حقّه فى الأموال، لأن السبيل هو الطريق، وراكبها ابنها، لأنه صاحب طريق وسالكه. وليس عليه أيضا فى الثواء عند أخيه المسلم ثلاثة أيام شىء، لأنه مقيم على ما أبيح له. وقال **رسول الله صلى الله عليه وسلم** الضيافة ثلاثة فمازاد فهو صدقة،فلا يقيمن فوق ثلاث فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال ولا يقم فوق ثلاث، فيحْوِجه أنْ يضيّق عليه. وتأويل قوله عندى فما زاد فهو صدقة أى مكروه لا مندوب إليه ولا مأمور به. فإنْ اختار الصدقة ولم ينزّه نفسه عنها فهو أعلم، أى وما كان فى الثلاث فهو حقٌ له وواجبٌ على مضيفه، فإنْ سألوه الإقامة فوق ثلاث، أو علم أنهم يحبون الإقامة فلا بأس بذلك، وقد تأوّل بعض **الصوفية** قول النبى صلى الله عليه وسلم فما زاد فوق ثلاث فهو صدقة، أنه صدقة على أصحاب المنزل من الضيف، تصدّق عليهم بإقامته لأنه مثوبةٌ لهم. ولا يعجبنى هذا التأويل.

وليحافظ على صلاته فى أوقاتها بحُسن طهارة وجميل أداء، وليحفظ قلبه أن يتشتت، فإنّ السفر قد يُشتت همّ المريد، ويجمع همّ العارفين، ويُشغل قلوب الضعفاء، ويروّح قلوب الأقوياء، وهو محنة وكشف لأخلاق العبد. وقال **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه للرجل الذى زكّى عنده رجلاً لمّا سأله عنه ليقبل شهادته، فقال له هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق، فقال لا، قال ما أراك تعرفه. وعن بعض السلف إذا أثنى على الرجل معاملوه فى الحَضَر ورفقاؤه فى السفر فلا تشكّوا فى صلاحه إذ ذاك، لأن السفر يسيىء الأخلاق، ويُكثر الضجر، ويخرج مكامن النفس من الشُح والشَرَه. وكل من صلُحت صحبته فى السفر صلحت صحبته فى الحضر. وليس كل من صُحِب فى الحضر صلُح أن يُصحَب فى السفر. وقال بعض السلف **ثلاثة** لا يلامون على الضجر، الصائم والمريض والمسافر. ولا ينبغى أنْ يفارقه من الأسباب **أربعة**، الركْوة والحبْل والإبرة بخيوطها والمقراض. وكان **الخوّاص** من المتوكلين ولم تكن هذه الأربعة تفارقه، وكان يقول ليست من الدنيا. وبعض **الصوفية** كان يقول إذا لم يكن مع الفقير ركْوة وحبل دلّ ذلك على نقصان دينه. وكان جماعة من أرباب القلوب وأهل المعاينة بالأحوال إذا استوطنت نفوسهم مصْر، أو سكنت إلى موضع، عملوا فى الغُربة لرفع العادة إيثاراً للقِلّة والذِلّة. وقالوا لا يخلو المؤمن من قلّة أو علّة أو ذلّة. وكانوا إذا خافوا الاستشراف إلى الخلق خرجوا فى الأسفار لقطع ذلك وحسمه من الأذكار. وقد كان **الخوّاص** لا يقيم فى

بلد أكثر من أربعين يوما، ويرى أنّ ذلك علّة فى توكله، فيعمل فى اختيار نفسه وكشف حاله.

وعلى المسافر من أهل القلوب أنْ يفرّق بين سكون القلب إلى الوطن والسفر، وبين سكون النفس إليهما، فإن ذلك قد يلتبس فيحسب مَن لا بصيرة له ولا تفتيش لحاله ولا صدق فى أحواله، أن سكون النفس هو سكون القلب، فينقُص بذلك ولا يفطن لنقصانه، فإنْ كان قلبه يسكن إلى أحدهما وفيه صلاح دينه وعمارة آخرته ومحبة ربه فهذا سكون القلب، لأنه يسكن إلى أخلاق الإيمان وما ورد العلم به، وإنْ كانت نفسه تسكن إلى أحدهما مما فيه عاجل حظوظ وعمارة دنياه وموافقة هواه فهذا سكون نفس، لأنها تسكن إلى معانى الهوى، فليتحول من الوطن إلى الغربة، وليرجع من الغربة إلى المصر. ومَن كان فى سفر على غير هذا النعت من التفقد لحاله وحُسن القيام بأحكامه فهو على هوى وفتنة، وسفره بلاءٌ عليه ومحنة. وفصل الخطاب أنّ مَن لم يكن له فى سفره حالٌ يشغله، وهَمٌّ يجمعه، ووقتٌ يحبسه، ومأوى يُظله، ومسكن يؤنسه، وزاد من باطنه، وعلم من عالمه، فإن الحضر أرفق لحاله وأصلح لقلبه وأسكن لنفسه من السفر، لأنه يكون فى السفر مشتت السرّ مفرّق الهمّ، تارةً بوجود معلوم يخاف عليه، ومرةً بفقد معتاد يحّن إليه، ومرة باستشراف إلى خلْقٍ يطمع فيه، فمرةً يضعفُ قلبه مع العُدم، وتارة يقوى بالاستطلاع إلى البشر، ومرة يفزع بفقد ماعنده قد حضر، فمثل هذا يكون فى السفر نقصان ما ادّعى. والسفر يجمع همّ الأقوياء، ويشتّت قلوب الضعفاء، ويُذهب أحوال أهل الابتداء. ثم إنّ من لم يصلح قلبه ولم يستقم حاله فى الحضَر، فإنه لا يصلح حاله ولا يستقيم قلبه فى السفر. وأنشدوا لبعض السائحين فى التغرب:

الفـتُ التـفـرد والغربـه * فـفـى كل يـوم أطـى تربـه

فيـومٌ مقيـمٌ علـى نِعْمـه * ويـومٌ مطـلٌ علـى نكْبـه

وممـا يُطيب نفـسَ الغريـ * ـب حبيبٌ تطيب به الصُحْبَه

وقد نهى **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أن يسافر الرجل وحده فقال **الثلاثة** نفر. وقال إذا كنتم فى سفرٍ ثلاثة فأمّروا أحدكم. قال فكانوا يفعلون ذلك ويقولون ذاك أمير أمّره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك يُستحب.

وقد جاء فى الخبر خيْر الأصحاب **أربعة**، والأسفار والنُزَه لا تطيب إلاّ فى جماعة، وأقل الجماعة اثنان، والثلاثة والأربعة أفضل، والسياحة لا تحسُن إلاّ على الانفراد والوحدة، فإنْ اتفق ثلاثة فى سياحة بقلبٍ واحد، وهَمٍّ واحد، على حالٍ واحد، فهم كعبدٍ واحد، فهو حَسَن وفيه

معاونة على البرّ والتقوى. وقال الله عز وجل فيمن منعه النُصرة وحرمه منه الصُحبة **«ولا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يُصحبون»**، فمن نصره الله على نفسه فقد صحبه، ومن لم يصحبه سلّط عليه نفسه وسخّره لها. وجملة الأمر أن **السفر** عمل من الأعمال يحتاج إلى نيّة وإخلاص، فمنه **فرْض** وهو ماهُرِب به من معصية، ومنه **فضْل** وهو ما طُلِب به طاعة، ومنه مباح وهو ما ضُرِب به فى تجارة، ومنه **معصية** وهو ماسُعِى به فى فساد.

الفصل الثانى والأربعون

فيه كتاب حكم الإمام ووصف الإمامة والمأموم

فإن كان هذا المريد إماماً لحيّه كان عليه أن يقوم بحُكم الإمامة حتى يتُمها، فيستحق الإمام بأن يكون له مِثل أجر مَن صلّى خلفه، بأن يكون داعياً إلى الله عز وجل، قائماً بين الله تعالى وبين عباده، هو وجهتهم وطريقتهم إليه. وفى **الخبر** إنما الإمام أمير، فإذا ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا. وفى **الحديث** فإن تمّ فله ولهم، وأنْ نقص فعليه ولا عليهم. وفى الخبر أئمتكم وفدكم إلى الله عز وجل، فإنْ أردتم أنْ تزكوا صلاتكم فقدّموا خياركم. وفى **الخبر** المشهور الإمام ضامن، والمؤذّن مؤتَمن. اللّهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين. وفى **الحديث** ثلاثة لا تُقبل لهم صلاة، وفى لفظ آخر لا تجاوز صلاتُهم رؤسَهم: العبد الآبق، وامرأة زوجها عليها ساخط، وإمام قومٍ وهم له كارهون.

وأول ماعلَى الإمام من **الشروط** أن يكون مجتنباً للفسوق والكبائر، وغير مصرٍ على الصغائر، قارئا لكتاب الله عز وجل، أو لما يُحسِن منه بغير لحن ولا إحالة معنى، عالماً بفرائض الصلاة وسُننها، وما يُفسدها، وما يوجب السهو ومالا يوجبه منها. وإنْ حدثت عليه حادثة فى الصلاة، أو ذَكَر أنه على غير وضوء، ورِع واتقّى الله عز وجل، وخرج من صلاته وأخذ بيد أقرب الناس منه فاستخلفه فى مقامه. وقد أصاب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، إمام الأمة، فى الصلاة فخرج منها، وذلك أنه ذكر أنه كان جنباً فاغتسل، ثم رجع فدخل فى الصلاة، فإنْ كانت الحادثة فى الصلاة فَعَل ذلك، وإن كان ذكر أنه دخل فى الصلاة على غير طهارة خرج ولم يستخلف وابتدأ القوم صلاتهم. فليكن الإمام مأموناً على طهارته بإكمالها، مأموناً فى صلاته بإقامتها، مخلصاً بالإمامة، يريد بها وجه الله تعالى وما عنده. ولا يحل له أن يأخذ على الصلاة أجراً، ولا على الأذان الذى هو طريقٌ إليها. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم **عثمان بن أبى العاص الثقفى** فقال واتخذْ مؤذناً لا يأخذ على الأذان أجراً، فهذا

الداعى إلى الصلاة لا يحل له أن يأخذ على دعائه أجراً، فكيف المصلى القائم بين الله وبين عباده؟

وقد كان بعض السلف يقول ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء، ولابعد العلماء أفضل من أئمة المصلين، لأن هؤلاء قاموا بين الله تبارك وتعالى وبين خلقه، هذا بالنبوّة، وهذا بالعلم، وهذا بعماد الدين وهى الصلاة. وبهذه الحجة احتُج على **علّى** رضى الله عنه فى تقدمة **أبى بكر** رضى الله تعالى عنه للخلافة، لما أهّله رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا، قال فنظرنا فإذا الصلاة عماد الدين، فاخترنا لدنيانا مَن رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا. وقال رجل يارسول الله دلّنى على عمل يُدخلنى الجنة، فقال كن مؤذّنا، قال لا أستطيع، قال كن إماما، قال لا أستطيع، قال فصلّ بإزاء الإمام. وقد كان بعض الورعين يَرَع عن الإمامة لما فيها، ولما على الإمام من ثُقلها وتحملها، وكانوا يختارون الأذان على الإمامة ويفضلونه عليها، منهم كثير من الصحابة.

وعلى الإمام أن يراعى أوقات الصلوات ليصلى فى أوائلها فيدرك رضوان الله عز وجل، وبين فضْل الصلاة فى أول وقتها على الصلاة فى آخر وقتها كفضل الآخرة على الدنيا، كذلك رُوى عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم**. وليتم الركوع والسجود، والاعتدال والقعود بينهما، فيكون ذلك قريبا من السواء معتدلاً كله، حتى يدرك من وراءه من الضعفاء والمرضى، فتلك كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وينبغى أن يكون له **ثلاث** سكتات، كذلك روى **سمرة بن جندب وعمران بن حصين** عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، **أولهن** إذا كبّر، وهى الطولى منها، مقدار ما يقرأ مَن خلفه فاتحة الكتاب، لئلا يقرؤا فى قراءته فيكون عليه مانقص من صلاتهم، فإن لم يقرؤا فاتحة الكتاب فى سكوته واشتغلوا بغيرها فذلك حينئذ عليهم، وقد فعل هو ماعليه، والسكتة **الثانية** إذا فرغ هو من قراءة الحمد ليتمم من بقى عليه شىء من فاتحة الكتاب فى هذه السكتة، وهى على النصف من السكتة الأولى، والسكتة **الثالثة** إذا فرغ من قراءة السورة قبل أنْ يركع وهى أخفّهن على النصف من السكتة الثانية، لئلا يكون مواصلاً فى صلاته بأن يصل الكبيرة بالقراءة، ويصل القراءة بالركوع، فقد نُهِىَ عن ذلك. وعلى المأموم أيضا أن لا يصل تكبيرة الإحرام ولا تسليمه بتسليم الإمام، وعليهما أنْ لا يصلا التسليمتين ليفصلا بينهما فقد نُهى عن المواصلة فى الصلاة. وعلى المأموم أن يكبّر ويركع ويسجد ويرفع ويضع بعد الإمام، ولا يخرّون سجّداً حتى تقع جبهة الإمام على الأرض وهم قيام، ثم يخرّون بعده. كذلك كانت صلاة الصحابة خلف رسول الله صلّى الله

عليه وسلم. ولا يكبّر حتى يعتدل الصف وراءه، وليلتفت يميناًوشمالاً فإنْ كان أعوج أشار بيده، وإنْ رأى خللاً أمر بسدّه فإنّ تسوية الصف من تمام الصلاة. وكانوا يُحاذون بين المناكب ويتضامّون فى الكعاب. وقد قيل إنّ الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام: طائفة بخمس وعشرين صلاة وهم الذين يتمّون صلاتهم بعد ركوع الإمام وسجوده، وطائفة بصلاة واحدة وهم الذين يكبّرون ويركعون ويسجدون معه مواصلةً له ومبادرة، وطائفة تخرج بغير صلاة وهم الذين يرفعون ويضعون قبله فيسابقون إمامهم. وليقرأ فى صلاة الغداة بسورتين من المثانى وهى ما دون المائة، فإنّ الإطالة فى قراءة الفجر والتغليس سنّة، ولا يضرّه خروجه منها مسفراً إذا كان قد دخل فيها مغلساً. ولا أكره أنْ يقرأ فى الركعة الثانية منها بأواخر السور من نحو الثلاثين أو العشرين إلى أنْ يختمها، لأن فى ذلك مزيد تذكرة وفضْل تبصرة، لأنه يبعد طروقه على الأسماع لكثرة الاعتياد لتلاوة السور القصار، فهى أدنى إلى الانقطاع والتفكّر، وإنما كُره أن يقرأ من أوّلها كذلك ثم يقطع، أو يقرأ من وسطها ثم يركع قبل أنْ يختمها، هذا الذى كرهه بعض العلماء.

وقد روينا أنّ **النبّى صلّى الله عليه وسلم** قرأ بعض سورة يونس، فلما انتهى إلى ذِكْر **موسى وفرعون** قطع فركع. وروينا حديثاً أشهر منه أن **النبى صلى الله عليه وسلم** قرأ فى ركعتى الفجر مائة من سورة البقرة قوله تعالى **قولوا آمنا بالله** الآية، وفى الثانية **ربنا آمنا بما أنزلت**. وفى رواية أنه قرأ فيهما **شهد الله أنه لا إله إلاّ هو**، وأنه سمع **بلالاً** يقرأ من ههنا وههنا فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب، فقال أحسنتَ أو أصبتَ. والخبر المشهور عن **أبى بكر الصدّيق** قال **الصنابحى** صلّيتُ خلفه المغرب فأصغيت إليه فى الركعة الثالثة فإذا هو يقرأ هذه الآية **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا** الآية. فكذلك يُستحب أنْ يُقرأ بهذه الآية خاصة فى الثالثة من صلاة المغرب. وروينا عن **ابن مسعود** أنه أمّ الناس فى صلاة العشاء الآخرة فقرأ فى الركعة الثانية بالعشر الأواخر من سورة آل عمران، وأنه قرأ أيضا فى هذه الصلاة بآخر سورة الفرقان من قوله تبارك وتعالى **تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً**. وقد قال الفقهاء فى المستحب من القراءة بعد سورة الحمد من الزيادة عليها أنْ يقرأ **ثلاث** آيات من سورة، وبعضهم يقول **آيتين** من سورة، فإنْ اكتفى بسورة الحمد أجزأه. وقد روينا عن **جابر بن زيد** فقيه أهل البصرة، وكان **ابن عباس** يستخلفه فى الفتيا ويأمر أنْ يُستفتى، أنه افتتح الصلاة ثم قرأ الحمد ثم قال **مدهامتان** وركع، وهذه أقصر آية فى كتاب الله عز وجل، وبعدها ثمّ نظر. وقد رأيت بعض الأئمة فى جامع عظيم من جوامع

المسلمين قرأ فى الركعة الثانية من صلاة العشاء الآخرة بآخر سورة يونس وخلفه العلماء والأشهاد فما أنكر عليه أحد.

وليقرأ الإمام فى صلاة الظهر بطوال المفصّل إلى الثلاثين آية، وفى صلاة العصر بوسط المفصّل على نصف صلاة الظهر، وفى المغرب بأواخر المفصّل. وآخر صلاة صلاّها رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت المغرب قرأ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة والمرسلات، ماصلّى بعدها حتى قُبض صلى الله عليه وسلم. وقال **أنس** كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخفّ الناس صلاةً فى تمام، ثم قال أيضا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالتخفيف فى الصلاة، وإنْ كان لَيؤُمنا بسورة والصافات. وقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** فى الرُخَص إذا صلّى أحدكم بالناس فليخفف فإنّ فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة، وإذا صلّى لنفسه فليطوّل ماشاء. وقد كان **معاذ بن جبل** يصلّى بقومه صلاة عشاء الآخرة فافتتح بسورة البقرة فخرج رجل من الصلاة وأتمّ لنفسه ثم انصرف، فقالوا نافق الرجل، ثم تشاكيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتكى الرجل وزر معاذ، وقال أفتّان أنت؟ إقرأ بسورة سبّح، والسماء والطارق، والشمس وضحُاها.

وليسبّح الإمام فى ركوعه وسجوده سبعاً أو خمساً ليدرك مَن وراءه ثلاثاً ثلاثاً، لأنهم يركعون ويسجدون بعده. وروينا أنّ **أنس بن مالك** لمّا صلّى خلف **عمر بن عبد العزيز** وكان أميراً بالمدينة، قال ماصلّيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مثْل صلاة هذا الشاب، قال وكنا نسبّح وراءه فى الركوع والسجود عشراً عشرا. وقد روينا مجهّلاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كنا نسبّح وراءه فى الركوع والسجود عشراً عشرا. فإنْ قرأ فى الأخيرتين من الظهر والعصر وعشاء الآخرة بعد الحمد بسورة قصيرة أو آيتين من سورة فحَسَن، ليدرك مَن وراءه قراءة الحمد على مهل. وقد اختلف مذهب السلف فى الإمام يكون راكعاً فيسمَع خفق النعال، هل ينتظر فى ركوعه ويتوقف حتى يدخلوا فى الركعة أو لا يباليهم، فقال بعضهم ينتظر حتى يلحقوا معه، وممن اختاره **الشعبى**، وقال آخرون لا ينتظرهم فإنّ حُرمة من معه فى الصلاة أعظم من حُرمة من تأخّر عنها، وقال بهذا **إبراهيم النخعى**. وكذلك قال **فقهاء الحجاز** لاينتظرهم فإنه زيادة فى الصلاة، ومن الإخلاص بها ترك التوقف بها لأجلهم. وقال بعض **فقهاء الكوفة** إنْ انتظرهم فحَسَن ليدركوا معه الجماعة فيكون له فضل إدراكهم. وقد قدّم **عثمان** القُنوت قبل الركوع فى صلاة الغداة ليدرك الناس الركوع. والذى عندى فى هذا **التوسط**، وهو أنه ينتظر، فإنْ سمع خفْق نعالهم فى أوّل ركوعه فلا بأس أنْ يمدّ حتى

يلحقوا، وإنْ سمعها في آخر ركوعه عند رفع رأسه لم أحب أنْ لا يزيد في الصلاة لأجلهم، فليرفع ولايبالي. وأفضل التشهّد عندي الذي رواه **ابن مسعود وجابر**. وقد اختلفت الروايات في ألفاظ التشهّد، والذي اختاره وأقوله ماروبناه عن **عبد الله** بإثبات الواوات، وبتقديم اسم الله عز وجل في أوله، وبزيادة المباركات، فأكون بذلك جامعاً بين جميع الروايات، لأن في حديث **عمر** ذِكْر المباركات وتأخير قوله لله عز وجل. ومن راوية **ابن عمر** ذكْر التسمية، وقد روينا ذلك في حديث **الثوري** عن **أيمن بن وائل** عن **أبي الزبير** عن **جابر** أنّ **رسول الله صلى الله عليه وسلم** كان يقول «**بسم الله وبالله، التحيات لله، والصلوات والطيبات لله عز وجل**»، فهذا هو الأفضل عندي لأنه هو الأحوط، ولدخول روايات الجماعات فيه. ثم اختلفوا في مواجهة النبّي صلّى الله عليه وسلم بالإشارة إليه في السلام أو تركها، فالذي أختارُه «**السلام علي النبيّ صلى الله عليه وسلم**» إلى« **ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**»، لأنه قد جاء في بعض الأخبار كالتفسير لماذكرناه، قال كنا نقول إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا «**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**»، فلمّا قُبِض صلّى الله عليه وسلم صرنا نقول «**السلام على النبي**» ، وفي كل الروايات قوله «**وأشهد أن محمداً عبده ورسوله**»، فكذلك أختار، إلاّ في راوية **عمر** فإنه ذكره «**رسول الله صلى الله عليه وسلم**». وحدّثني بعض العلماء عن بعض الصالحين، قال رأيت النبي صلّى الله عليه وسلم في المنام، فقلت يارسول الله قد اختلف العلماء علينا في التشهّد، فبم نأخذ، فقال التشهّد هو الذي رواه **ابن أم عبد**. ولا يدع الإمام أنْ يستعيذ في تشهده بالكلمات الخمس، فيقول أعوذبك من عذاب جهنم، وعذاب القبر، وأعوذبك من فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجّال، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون، وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر به. (والمسيح بنصب الميم مع التخفيف لأنه قيل سمّي كذلك، معدولٌ به من ماسح، أي يمسح الأرض مسحا، لأنه قيل تُطوَى له الأرض. وبعض أهل اللغة يقول عُدِل به عن ممسوح العين أي مطموسها). والتكبير والتسليم جزم، والأذان جزم، قد قيل ذلك. وأُستحبُّ أن يكون المؤذن غير الإمام. وقد روينا في الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كره أنْ يكون الإمام مؤذناً. وقد كان **عمر** رضي الله عنه إذا ذُكِر فضل الأذان يقول لولا الإمامة لأذّنت. وروينا عن **النبي صلّى الله عليه وسلم** الأذان إلى المؤذن، والإقامة إلى الإمام أي هو أمْلَك بها، وللمؤذن أن ينتظر الإمام، وليس على الإمام والمأموم انتظار المؤذن إذا دخل الوقت، ولا على المؤذن انتظار أحد إذا انتظر الإمام ودخل الوقت.

والصلاة فى أول وقتها أفضل من انتظار الجماعة لها، وأفضل من قراءة طوال السور فيها. وقيل قد كانوا إذا حضر اثنان فى الصلاة لم ينتظروا الثالث، واذا حضر أربعة فى الجنازة لم ينتظروا الخامس. وقيل انتظار المأموم مع شهود الإمام مكروه، والنعى بالميت والإيذان به بدعة. وقد تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاة الفجر وكانوا فى سفر، وإنما تأخّر للطهارة فلم ينتظروا وقدّموا **عبد الرحمن بن عوف** فصلّى بهم، حتى فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة فقام يقضيها، قال فأشفقنا من ذلك فقال أحسنتم، هكذا فافعلوا. وقد تأخّر فى صلاة الظهر فقدّموا **أبا بكر** رضى الله عنه حتى جاءهم فى الصلاة فقام إلى جانبه. وليدخل الإمام فى الصلاة مكبراً إذا قال المؤذن قد قامت الصلاة، ويكون الناس قد قاموا إذا قال المؤذن حىّ على الصلاة. كذلك السنّة وعليه كان السلف، ورويناه عن **علّى** عليه السلام **وعبد الله**. وكانوا إذا قال المؤذن حىّ على الصلاة قام الناس للدعوة، فإذا قال قد قامت الصلاة كبّر الإمام ويبقى المؤذن وحده يتم الإقامة، ثم يدخل فى الصلاة والإمام يقرأ سورة الحمد، لأن حقيقة قوله قد قامت الصلاة أى قد قام الناس للصلاة وقد قام المصلون، لأن الصلاة لا تقوم، فإذا قاموا عند قوله قد قامت الصلاة كان المؤذن صادقاً فى قوله، وإنْ كان جائزاً على المجاز لقرب الوقت وظهور سبب القيام، ولذلك كُرِه أنْ يكون الإمام مؤذنا، لأنه حينئذ يحتاج أنْ يكبّر ويدخل الناس فى الصلاة عند قوله قد قامت الصلاة. وكذلك جاء عن السلف من السنّة أنْ يكون الأذان فى المنارة والإقامة فى المسجد، ليقرب على المؤذن الدخول فى الصلاة. وكذلك قال **بلال** لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبقنى بآمين أى تمهّل حتى أدرك التأمين معك، لفضله، إذ قد عُلم أنه يسبقه بافتتاح الحمد، وفى هذا دليل على صحة اختيارنا فيما ذكرنا من انتظار الإمام لمن سمع خفْق نعله إذا كان فى أول الركوع، لقول **بلال** لا تسبقنى بآمين ولم يقل لا تسبقنى بالحمد. ولا أستحبُّ للإمام الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم وإن كانت آية من سورة الحمد، فأكثر الروايات وأثبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترْك الجهر بها، وأنه الآخر مِن فعِله، فقد كانوا يأخذون بالآخر فالآخر من أفعاله صلّى الله عليه وسلم، ولأنه مذهب أكثر العلماء. وروينا عن **ابن مسعود** أنه قال مِن السنّة أنْ لا يُخفى الإمام أربعاً: سبحانك اللّهم، والاستعاذة، وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم، والتأمين. وقد روينا عن **علّى** كرّم الله وجهه الجهر بها. وعن **ابن عباس** ليس من السنّة الجهر بها. ولا أكره القنوت فى صلاة الغداة بالكلمات الثمانية التى رويت عن **الحسن** عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم**، أن يقولها سراً ولا يرفع يديه، لأنها تجرى

مجرى الدعاء، وإنْ تَرَك ذلك فحَسَن، وقد تركه أكثر الفقهاء. وأستحبُّ أن يقرأ في **ليلة الجمعة** وغداتها من السور ما روينا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم في حديثَين، المشهور منهما أنه كان يقرأ في صلاة الغداة يوم الجمعة بسورة السجدة وهل أتى، والحديث الآخر أنه كان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد، وفي عشاء الآخرة بسورة الجمعة وسورة المنافقين. وأستحبُّ أن يقول في تشهّده من الدعاء ماعلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم **عائشة** من الجوامع والكوامل: اللّهم إني أسألك من الخير كله، عاجله وآجله، ماعلمتُ منه ومالم أعلم، أسألك مما سألك منه محمد صلّى الله عليه وسلم، وأعوذ بك مما استعاذك منه محمد صلّى الله عليه وسلم. أسألك الجنة وماقرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وماقرّب إليها من قول وعمل. اللّهم ماقضيت لي من أمرٍ فاجعل عاقبته رَشَداً....ثم يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ويقول: **ربنا لا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا** الآية، **ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**. وليس بعد هذا دعاء مفضّل ولا كلام مأثور ، سوى ماذكرناه آنفا من الاستعاذة بالكلمات الخمس، وإنْ اقتصر عليها أجزأته. ويُكره للإمام أن يخص نفسه بدعاء دون مَن خلْفه، فإن دعا في صلاته فليجمع بالنون فيقول نسألك ونستعيذُك، وهو ينوي بذلك نفسه ومَن خلْفه. وفي الخبر من أمّ قوْماً فلا يخص نفسه بدعوة دونهم.

فإنْ اختار المريد التأذين على الإمامة فقد قال بعض السلف من العلماء، أنّ الأذان أفضل من الإمامة، وأنّ الأذان أعظم أجراً، لقول **النبي صلّى الله عليه وسلم** الإمام أمير، ولقوله الإمام ضامن، فشبهّها بالإمارة والضمان، ثم قال فإن نقص فعليه لا عليهم، فالأذان أسلم. ولعله لا يقوم بحكم الإمامة، ولا يُتم وصف الإمام، فيكون عليه بعض صلاة المصلين، كما يكون له أيضا في الإتمام أجورهم. وأيضا فإن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** دعا للمؤذنين دعاءً هو أمدح من دعائه للإمام ،بقوله اللّهم ارشد الأئمة، واغفر للمؤذّنين، وبقوله يُغفر للمؤذّن مدى صوته، ويشهد له كل رُطَب ويابس. ووصفه أيضا بوصف هو أبلغ، فقال المؤذّن مؤتمن، وفي لفظ آخر مؤذنوكم أمناؤكم، وأئمتكم ضمناؤكم. فالأمين أرفع حالاً من الضامن، لأن الضامن غارم وقد لا يكون أمينا ، والأمين مكينٌ ولاضمان عليه. ومن هذا كَرِه **سهل بن سعد الساعدي** الإمامة، قال **أبو حازم** قلت لسهل بن سعد، وكان يقدّم فتيان قومه يصلون به، فقلت أنت صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ولك من السابقة والفضل لو تقدّمت فصلّيتَ بقومك، فقال ياابن أخي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الإمام ضامن

فأكره أنْ أكون ضامناً، وفى الخبر مَن أذّن فى مسجدٍ سبع سنين وجبَت له الجنة، ومَن أذّن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب. وروينا فى تفسير قوله تعالى «**ومَن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله**»، قال نزلت فى المؤذّنين، «وعمل صالحاً» قال الصلاة بين الأذان والإقامة، ويستحب إذا فرغ المؤذن مَن الأذان أن يقول وأنا من المسلمين الحمد لله رب العالمين. وأستحبُّ أن يصلى المؤذن بين الأذان والإقامة وأنْ يجهد فى الدعاء.

وكان السلف يكرهون **أربعا** ويتدافعونها عنهم - الإمامة والفتيا والوصية والوديعة. وقال بعضهم ماشىء أحب إلىّ من الصلاة فى جماعة وأكون مأموما، فأُكفَى سهوها، ويتحمل غيرى ثُقلها. ولكن إذا أقيمت الصلاة فليتقدم مَن أُمِر بالتقدم ولا يتدافعونها، فقد جاء فى العلم أنّ قوما تدافعوا الإمامة بعد إقامة الصلاة فخُسِف بهم، ولكن لا يقيم المؤذن حتى يحضر الإمام، ولا ينتظروا الإمام قياماً فإنه مكروه. وقال **رسول الله عليه وسلم** لا تقوموا حتى ترونى. وكان **بشر بن الحارث** يقول من أراد سلامة الدنيا وعزّ الآخرة فليجتنب **أربعاً** - لا يحدّث، ولايشهد، ولا يؤم، ولا يفتى، وفى بعضها ولا يجيب دعوة. وقال مرة ولايقبل هدية. وهذا من تشديده. والذى اختارُ من التأذين والإقامة **مذهب أهل الحجاز** بتثنية الأذان بالترجيع، وإفراد الإقامة، وأنْ يزيد فى أذان الفجر الصلاة خيرٌ من النوم مرتين، وأنْ يؤذّن لها قبل دخول الوقت خاصة ليتأهب لها المصلون، فليدعْ الاختيار للآثار، وأنْ يمدّ المؤذّن صوته ويرفعه جهده ويترسّل أذانه. وقيل كانوا يستحبون خفض الصوت فى كل موطن إلاّ فى موضعين، فى الأذان وعند التلبية. وفى الخبر يتمهل المؤذن بين أذانه وإقامته قدر ما يفرغ الآكل من طعامه، والمعتصر من اعتصاره، فهذا توقيت من مقدار المصلّين بين الأذانين، فمن كانت به حاجة إلى هذين فليقدّم ذلك قبل دخوله فى الصلاة لئلا يشغله شىء عن صلاته. ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مدافعة الأخبثين فى الصلاة، وأمر بتبدئة العشاء فى قوله إذا وضع العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤا بالعشاء، ذلك ليكون القلب فارغاً لربه خالياً من نوائبه، فذلك من إقامة الصلاة وتمامها.

وأكره الإمامة لمن كثُر سهوه فى الصلاة، أو دام اشتغال قلبه عن فهم المناجاة، أو لمن علم أنّ وراءه من هو أقرأ منه أو أفقه فى الدين والعلم، وإنْ كان هو عابداً صالحاً، أو لفقيه بالعلم إذا كان وراءه اتقى منه وأصلح وأورع. ولا يؤم الأمّى القُرّاء، ولا الأعجمى الفصحاء، ولا المتيممون المتوضئين، وإنْ اتفق أمّيون قُدّم أقرؤهم، وإنْ حضر أئمةٌ قرّاء فليتقدم أفقههم

بالعلم، وإنْ اتفق رجلان أحدهما قد جمع كل القرآن إلاّ أنّ الآخر أحسن تجويداً وتثقيفاً لما يقرأه وليس يحفظ جميعه، فليُقدَّم أقومهم قراءةً إذا كان عالما بالصلاة. وفى الخبر يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله عز وجل، فإنْ كانوا فى القراءة سواء فأفقههم فى الدين، فإنْ كانوا فى الفقه سواء فاكبرهم سناً، فلذلك الأمر الرجل أُحق بالإمامة إذا كان فى منزله إلاّ أنْ يأذن. وأستحَبُّ للإمام إذا سلّم أنْ يسرع الانفتال بوجهه إلى الناس، وأكره للمأموم القيام قبل انفتال إمامه، فقد روينا فى ذلك سُنّة حسنة عن **طلحة والزبير** أنهما صليا فى البصرة خلف إمام، فلمّا سلّما قالا للإمام ما أحسن صلاتك وأتمّها كما كنا نصلى، إلاّ شيأً واحداً أنك لمّا سلّمت لم تنفتل بوجهك، ثم قالوا للناس ما أحسن ما صلّيتم إلاّ أنكم انصرفتم قبل أنْ ينفتل إمامكم. ومن كرهه جيرانه أو كرهه مَن وراءه من المأمومين فلا يحل له أنْ يتقدم، فإنْ اختلفوا فكرهه قوم وأحبه آخرون نظر إلى أهل الدين والعلم منهم فحكم بقولهم، ولا يعتبر الأكثر إذا كان الأقلون هو الأخير. ولايُصلّى خلف مبتدع فمن صلّى خلف مبتدع ولايعلم فليُعِد. ومَن سمع الأذان من مسجد وهو فى طريقٍ يمشى فليدخل فليصل ولا يؤخر إلى مسجد آخر، إلاّ لأحد معنيين أنْ يكون على يقين من لحوق إمام آخر أفضل من هذا، أو يكون يعرف هذا ببدعة أو فسوق، وإلاّ فالصلاة مع أوّل من قام بها من المسلمين أفضل.

وفى الخبر لاصلاة لجار المسجد إلاّ فى المسجد. وفى جار المسجد قولان أحدهما مَن سمع الأذان، وروى هذا عن **علّى** عليه السلام، والثانى مَن كان بينه وبين المسجد ثلاث دور وهو الرابع. والتشديد فى ترك الجماعة على من سمع التأذين ومَن كان فى جنبه مسجدان، فأوْلاهما بالصلاة فيه أقربهما منه، وهذا مذهب **الحسن**، إلاّ أنْ يكون له نية فى كثرة الخُطا إلى الأبعد، أو يكون إمام الأبعد هو الأفضل. وقيل أقدمهما، وروى هذا عن **أنس بن مالك** وبعض الصحابة أنهم كانوا يجاوزون المساجد المحدّثة إلى العُتُق. ومن كان مأموما فلا يقرأ سورة مع الحمد فيما يجهر به الإمام أصلا، ولا يقرأ الحمد أيضا إلاّ فى سكتات الإمام وإن قطعها، فإنْ لم يكن للإمام سكتات قرأ الحمد فقط فيما يجهر به الإمام، وكان ماعليه من وِزْر قراءته فى قراءة الإمام على إمامه، لأنه قد نقّص صلاته وترك ماعليه، فالله عز وجل حسيبه. فإذا أسرّ الإمام فليقرأ الحمد وسورة إذا أمكنه، ولابد من قراءة الحمد وحدها. وأستحبُ للإمام أنْ يتحوّل إذا صلّى المكتوبة فلا يُصلى فى موضعه نافلة. ففى الخبر أن

النبّى صلى الله عليه وسلم كان إذا سلّم وثب. وكان **أبو بكر** رضى الله عنه إذا سلمّ وثب. وكان **عمر** رضى الله عنه إذا سلّم وثب. وفى الخبر المشهور أنه لم يكن يقعد إلاّ قدْرَ قوله اللّهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام، ثم ينصرف. وإنْ تحول المأموم فصلّى النافلة فى غير مكان الفريضة ولو بقدم فحَسَن، ففى ذلك أثر، فإنْ جلسا قليلا للتسبيح والدعاء فلا بأس. وهذا آخر كتاب الإمامة.

الفصل الثالث والأربعون

فى كتاب الأخوة فى الله تبارك وتعالى، والصحبة والمحبة للإخوان، وأحكام المؤاخاة وأوصاف المحبين

ذَكّر الله عز وجل عباده المؤمنين نعمته عليهم فى الدين إذ ألفّ بين قلوبهم بعد أنْ كفروا متفرقين، فأصبحوا بنعمته إخوانا بالألفة متفقين، وعلى البرّ والتقوى مضطجعين، ثم ضمّ التذكرة بالنعمة عليهم إلى تقواه، وأمر بالاعتصام بحبله وهُداه، ونهى عن التفرّق إذ جمعتهم الدار وقرن ذلك بالمِنّة منه عليهم، إذ أنقذهم من شفا حُفرة النار. وقد جعل ذلك كله من آياته الدالّة عليه سبحانه وتعالى وسُبُله الواصلة بالهداية إليه، فقال فى جُمل ما شرحناه «**ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تفرّقوا**» إلى «**ولعلكم تهتدون**».

وقد كانت **المؤاخاة** فى الله تعالى **والصُحبة** لأجله، **والمحبة** له فى الحضَر والسفَر، طرائق للعاملين. فى كل طريق فريق، لما فى ذلك من الفضل، ولما جاء فيه من الأمر والندْب، إذ كان الحب فى الله عز وجل من أوثق عرى الإيمان، وكانت الألفة والصحبة لأجله والمحبة والتزاور من أحسن أسباب المتقين. وقد كثرت الأخبار فى تفضيل ذلك والحثّ عليه. وليس قصدنا الجمع لما روى لميلنا إلى الإيجاز فى كل فن، ولكن نذكر الأفعال المستحسنة وما تعلّق بها مما لابد منه. على أنّ رأى التابعين قد اختلف فى التعرّف، فمنهم من كان يقول أقلّل من المعارف فإنه أسلم لدينك وأقلّ غداً لفضحيتك، وأخفّ لسقوط الحقوق عنك، لأنه يُقال كلما كثُرت المعارف كثُرت الحقوق، وكلما طالت الصُحبة توكدت المراعاة. وقال بعضهم هل رأيت شراً إلاّ ممن تعرف، فكلما نقص من هذا فهو خير. وقال بعضهم أنكرْ من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعرف. وممن مال إلى هذا الرأى **سفيان الثورى وإبراهيم بن أدهم وداود الطائى والفضيل بن عياض وسليمان الخواص ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشى**

ويشر الحافى. وقال أكثر التابعين باستحباب كثرة الإخوان فى الله عز وجل بالتأليف والتحبب إلى المؤمنين، لأن ذلك زَيْنٌ فى الرخاء وعوْنٌ فى الشدائد، وتعاوُنٌ على البرّ والتقوى وألفةٌ فى الدين. وقال بعضهم استكثِرْ من الإخوان فإنّ لكل مؤمن شفاعة، فلعلك تدخل فى شفاعة أخيك. وكانوا يأمرون بالأخوة ويتحاضّون على الألفة. ويقال إذا غُفر للعبد شفع فى إخوانه. وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** حديثا غريباً فى تفسير قوله تعالى «**ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله**»، قال يشفّعهم فى إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم. وممن مال إلى هذا الطريق **ابن المسيب والشعبى وابن أبى ليلى وهشام بن عروة وابن شبرمة وشريح وشريك بن عبد الله وابن عيينة وابن المبارك والشافعى وأحمد بن حنبل** ومن وافقهم. وقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنّ أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقاً، الموَطّؤن أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون. وروينا عنه **صلى الله عليه وسلم المؤمن** مألوف ولا خير فيمن يألف ولا يؤلف. وقد قيل أول مايُرفع من هذه الأمة الخشوع ثم الورَع ثم الأمانة ثم الألفة. وفى **الخبر** من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً، إنْ نسى ذكّره، وإنْ ذكر أعانه. وروينا فى **خبر** مَثَل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، وماالتقى مؤمنان إلاّ أفاد الله عز وجل أحدهما من صاحبه خيرا. وروينا فى خبر عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** من آخى أخاً فى الله عز وجل رفعه الله عز وجل درجة فى الجنة لا ينالها بشىء من عمله. ويقال إنّ الأخوين فى الله عز وجل إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه، وأنه يلحق به كما تُلحق الذرية بالأبوين والأهل بعضهم ببعض، لأن الأخوّة عمل كالولادة. وقد قال الله سبحانه بعد قوله «**ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء**»، أى وما نقصناهم. وقال تعالى مخبراً عمّن لا صديق له حميم تنفعه شفاعته «**فمالنا من شافعين ولا صديق حميم**»، ومعنى حميم أى هميم، أبدلت الحاء هاء لتقاربهما، مأخوذ من الاهتمام، أى مهتم بأمره، ففيه دليل أن الصديق لك هو المهتم بك، وأنّ الاهتمام حقيقة الصداقة.

وروينا عن **النبى صلى الله عليه وسلم** المؤمن كثيرٌ بأخيه. وعن **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه ما أُعطى عبدٌ بعد الإسلام خيراً من أخٍ صالح. وقال أيضا إذا رأى أحدكم ودّاً من أخيه فليتمسك به، فقلما تصيب ذلك. وقد قال بعض الحكماء فى معناه كلاما منظوماً:

مـا نـالـت الـنـفس عـلى بُغية * الاّ مـن وُدّ صـديـق أمـين
مـن فاتـه ودّ أخ صـالـح * فـذلك المقـطوع منـه الوتـين

وقد يروى هذا المصراع الثاني **فذلك المغبون حقاً يقين**.

وقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** كـونوا مـؤلّفين ولا تكونوا منفّرين. وفى الحديث إنّ أحبكم إلى الله عز وجل الذين يألفون ويؤلفون، وإنّ أبغضكم إلى الله عز وجل المشّاؤن بالنميمة المفرّقون بين الإخوان. وفى أخبار **داود** صلى الله عليه وسلم أنه قال: يارب كيف لى أن يحبنى الناس كلهم وأسْلم فيما بينى وبينك. قال: خالِقْ الناس بأخلاقهم وأحسِنْ فيما بينى وبينك. وفى بعضها خالقْ أهل الدنيا بأخلاق الدنيا، وخالقْ أهل الآخرة بأخلاق الآخرة. وقال **الشعبى** لابن أخيه خصلتان أوصيك بهما فاحفظهما، خالصْ المؤمن مخالصة، وخالقْ الفاجر مخالقة، فإن الفاجر يرضى منك بالخلُق الحَسَن، وإنه لحقٌ عليك أن تخالص المؤمن. وقد قال **أبو الدرداء** قبله إنّا لنشكر فى وجوه أقوام، وإنّ قلوبنا لتعلتنهم، فمعنى هذا على الثقة والمداراة ليدفع بذلك شرّه وأذاه، كما جاء فى تفسير قوله تعالى «ادفع بالتى هى أحسن»، قيل السلام، «فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌّ حميم». وكان **ابن عباس** يقول فى معنى قوله عز وجل «ويدرؤن بالحسنة السيئة»، قال يدفعون الفُحش والأذى وهو السيئة، بالسلام والمداراة وهو الحَسَنة. وقد كان أفضل الحسنات إكرام الجلساء، ومنه قوله عز وجل «**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض**»، قيل بالرغبة والرهبة والحياء والمداراة. وكذلك معنى قولهم خالص المؤمن وخالق الفاجر، فالمخالصة بالقلوب من المودّة واعتقاد المؤاخاة فى الله عز وجل، والمخالفة المخالطة فى المعاملة والمبايعة وعند اللقاء. وقد قال **محمد بن الحنفية بن علّى بن أبى طالب** رضى الله عنهم ليس بحكيم مَن لم يعاشر بالمعروف مَن لا يجد من معاشرته بداً حتى يجعل الله عز وجل له منه فرجا. فمعاملة غير تقىٍّ ومكالمته من أحوال الاضطرار، ومعاشرة التقىّ ومصافاته من حُسن الاختيار.

وأفضل الأخوّة كما قال بعض العلماء المحبة الدائمة والألفة اللازمة من قِبَل أنّ الأخوة والمحبة عمل، وكل عمل يحتاج إلى حسن خاتمة به ليتم العمل فيكمل أجره، فإنْ لم يختم له بالآخرة، ولم يُحسن عاقبة الصحبة والمحبة، فقد أدركه سوء الخاتمة، وبطل عنه ما كان قبل ذلك، فقد يصطحب الاثنان ويتواخى الرجلان عشرين سنة، ثم لا يُختم لهما بحُسن الأخوّة،

فيحبط بذلك ما سلف من الصُحبة، فلذلك شرط العالم المحبة الدائمة والألفة اللازمة إلى الوفاة ليُختَم له به. وقد يقال ما تواخى اثنان فى الله عز وجل ففرّق بينهما إلاّ بذنب يرتكبه أحدهما، فقال بشرٌ إذا قصّر العبد فى طاعة الله تبارك وتعالى سلبه الله عز وجل من يؤنسه. ويقال للعدو شيطان قد وكله بالتفريق بين المتواخيين ليس له عمل إلاّ ذلك قد تفرّغ له. ومن علامة التُقَى حُسن المقال عند التفرّق وجميل البشر عند التقاطع. وأنشدنا بعض العلماء الحكماء فى معناه:

إنّ الكريم إذا تقضّى ودّه ❊ يُخفي القبيح ويُظهر الإحسانا

وترى اللئيم إذا تصرّم حبله ❊ يُخفي الجميل ويُظهر البهتانا

فوصف الكريم فى هذا المعنى التخلّق بخلُق الربوبية. ألَم تسمع إلى الدعاء المأثور عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** فى أوله: يا من أظهر الجميل، وستر القبيح، ولم يؤاخذ بالجريرة ولم يهتك الستر... فكذلك صفات المؤمنين على معانى أخلاق **المؤمن الأعلى**. وقد كان **أبو الدرداء** يقول: معاتبة الصديق خير من فقده. وقد روينا عن **علىّ** عليه السلام: أحببْ حبيبك هوْناً ما، عسى أنْ يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما، وقد روينا عن **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه معناه: لايكن حبك كَلَفاً وبغضك تلفاً. يعنى إذا أحببت فلا تَكَلّف كما يكلف الصبى بالشيء يحبه، وإذا أبغضتّ فلا تبغض بغضاً تحب أنْ يتلف صاحبك ويهلك. وفى وصية **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه: عليك بإخوان الصدق تعِشْ فى أكنافهم فإنهم زينة فى الرخاء وُعدّة فى البلاء، وضعْ أمر أخيك على أحسنه حتى يحبك ما يغلبك منه، واعتزلْ عدوك، واحذر صديقك من القوم إلاّ الأمين، ولا أمين إلاّ مَن خشى الله عز وجل، ولا تصحبْ الفاجر فتعلم فجوره، ولا تطلعه على سرّك، واستشرْ فى أمرك الذين يخشون الله تبارك وتعالى. وقيل **للأحنف بن قيس** أى إخوانك أحبّ إليك؟ فقال من يسد خللى ويستر زَلّلى ويقبل عِللى. وقال: من حق الصديق أن يُحتَمل له ثلاث، أن يجاوز عن ظلم الغضب، وظلم الهفوة، وظلم الدالّة. ويقال: من لم يظلم نفسه للناس، ويتظالم لهم، ويتغافل عنهم لم يسلم منهم. وكان **أسماء بن خارجة الفزارى** يقول: ماشتمت أحدا قط، لأنه إنما يشتمنى أحد رجلين، كريم كانت منه زلة وهفوة فأنا ، أحق مَن غفرها وآخذ عليها

بالفضل فيها، أو لئيم فلم أكن أجعل عرضي له غرضا. ثم تمثّل شعراً:

واغفر عوراء الكريم اصطناعه ※ واعرض عن ذات اللئيم تكرما

وأنشدونا لمحمد بن عامر فى الإخوان شعراً:

فلا تعجل على أحد بظلم ※ فإن الظلمَ مرتعه وخيم

ولا تفحش وإنْ مُلئتَ غيظا ※ علّى أحد فإن الفحش لوم

ولا تقطع أخاً لك عند ذنب ※ فإنّ الذنب يغفره الكريم

ولكن داوِ عورته برقع ※ كما قد يُرقَع الخَلَق القديم

ولا تجزع لريْبِ الدهر واصبر ※ فإنّ الصبر فى العُقبى سليم

وأنشدونا فى معناه عن أحمد بن يحيى بن ثعلب، قال أنشدنى عبد الله بن شبيب:

إخاء الناس ممتزج ※ وأكثر فعلهم سمج

فإن بدهتك مقطعة ※ فليس وراءهم فَرَج

فقوّمهم بوصلهم ※ فإنْ لم يوصلوا اعتوَجوا

صروف الدهر دائبة ※ تُقطع دونها المُهج

وروينا عن عكرمة عن ابن عباس أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال لاتمار أخاً لك ولاتمازحه، ولا تَعده موعداً فتُخلفه. وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم لا تَسَعُون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسْطُ وجوه وحُسن خلق. وعن أبى نجيح عن مجاهد فى قول الله عز وجل« خذ العفو وأمر بالعُرف» ، قال خذ من أخلاق الناس ومن أعمالهم ماظهر من غير تحسس. وقد أنشدنا بعض الحكماء فى ذلك:

خذ من خليلك ماصفا ※ وذَر الذى فيه الكدَر

فالعمر أقصر من مُعا ※ تبة الخليل على الغيَر

ومن عرف فضل الأخوّة فى الله عز وجل، وعلم درجة المحبة لله تعالى، صبر لأخيه وشكر له وحلم عنه، واحتمل له لينال ما أمله فيه ، ويبلغ ما طلبه به ، فإنّ الصبر يُحتاج إليه ليتم العمل، والشكر لا بد له منه لدوام النعمة. ومن طلب نفيسا خاطر بنفيس، ومن رغب فى رغبة بذل لها مرغوبا، والله عز وجل الموفّق مَن يحب لما يحب.

وروينا فى حديث **عبادة بن الصامت** يقول الله عز وجل حقّت محبتى للمتحابين فىّ، والمتزاورين فىّ، والمتباذلين والمتصادقين فىّ. وكان **ابن مسعود** يقول فى قوله عز وجل« **لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم**» ، قال نزلت هذه الآية فى المتحابين فى الله عز وجل. وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** سبعة يظلهم الله عز وجل فى ظل عرشه يوم لا ظل إلاّ ظله، منهم كذا، واثنان تواخيا فى الله عز وجل، اجتمعا على ذلك وتفرّقا. وكان **الفضيل بن عياض** وغيره يقول نظرُ الأخ إلى وجه أخيه على المودّة والرحمة عبادة. فلا تصحّ المحبة فى الله عز وجل إلا بما شُرط فيها من الرحمة فى الاجتماع والخُلطة عند الافتراق، بظهور النصيحة واجتناب الغيبة، وتمام الوفاء ووجود الأنس، وفقْد الجفاء وارتفاع الوحشة، ووجْد الانبساط وزوال الاحتشام. وكان **الفضيل** يقول إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوّة. وقال **الجنيد** ماتواخى اثنان فى الله عز وجل ، فاستوحش أحدهما من صاحبه، واحتشم منه، إلاّ لعلّة فى أحدهما. ومن ذلك ماروى عن **النبى صلى الله عله وسلم** ماتحابّ اثنان فى الله عز وجل إلاّ كان أحبهما إلى الله عز وجل أشدهما حباً لصاحبه، وفى خبر كان أفضلهما. وفى الخبر الآخر أحب الإخوان إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه. وفى الخبر المشهور لا يذوق العبد طعم الإيمان حتى يحب المرء، لا يحبه إلاّ لله. وقال **ابن عباس** فى وصيته **لمجاهد** ولاتذكُر أخاك إذا تغيب عنك إلاّ بمثل ماتحب أن تُذكَر به إذا غبت، واعفه بما تحب أن تُعفىَ به. وقال **يحيى بن معاذ** رحمه الله ثلاثةٌ عزيزة فى وقتنا هذا. ذكرَ منها حُسن الإخاء مع الوفا، ويعنى بالوفاء أن يكون له فى غيبته ومن حيث لا يعلم ولا يبلغه مثل ما كان له فى شهوده ومعاشرته، ويكون له بعد موته ولأهله من بعده كما كان له فى حياته، فهذا هو الوفاء، وهو الذى شرّطه النبى صلى الله عليه وسلم للمؤاخاة فى قوله اجتمعا على ذلك أو تفرقا. وكذلك قال بعض الأدباء قليل الوفاء بعد الوفاة خيرٌ من كثيره فى حال الحياة. وكذلك كان السلف فيما ذكره **الحسن** وغيره، قالوا كان أحدهم يخلُف أخاه فى عياله بعد موته أربعين سنة، لا يفقدون إلاّ وجهه. ويقال إنّ **مسروقا** أدان دَيْنا ثقيلاً وكان على

أخيه **خيثمة** دين، قال فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق سراً وهو لا يعلم، فمن حقيقة المؤاخاة فى الله عز وجل إخلاص المودة له بالغيب والشهادة، واستواء القلب مع اللسان، واعتدال السرّ مع العلانية فى الجماعة والخلوة، فإذا لم يختلف ذلك فهو إخلاص الأخوّة، وإنْ اختلف ذلك ففيه مداهنة فى الأخوة وممازقة فى المودة، وذلك نَخَلٌ فى الدين ووليجة فى طريق المؤمنين، ولا يكون ذلك مع حقيقة الإيمان. وقد سأل **أبو رزين العقيلى** النبى صلّى الله عليه وسلم، فشرط له أشياء منها أن يحب غير ذى نسب، لا يحبه إلاّ لله عز وجل. ومن شرط المحبة فى الله تعالى أن لا يكون لرحم يصلها أو لنعمة يربُّها كما جاء فى الأثر عن **رسول الله صلىّ الله عليه وسلم** أن رجلاً زار أخاً فى الله تعالى فى قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملَكا، فقال أين تريد؟ قال أردت أخاً لى فى هذه القرية. قال هل بينك وبينه رحم تصلها؟ أو له عليك نعمة تربّها؟ قال لا، إلاّ أنى أحببته فى الله تعالى، قال فإنى رسول الله إليك أنّ الله تبارك وتعالى قد أحبك كما أحببته فيه.

وقد اختلف **مذهب الصحابة** فى الأخ يحب أخاه فى الله عز وجل ثم ينقلب الآخر عما كان عليه ويتغير، هل يبغضه بعد ذلك أم لا؟ فكان **أبوذر** يقول إذا انقلب عمّا كان عليه وتغيّر فأبغضه من حيث أحببته. وروينا عن **أبى الدرداء** أنّ شاباً غلب على مجلسه حتى أحبه أبو الدرداء، فكان يقدمه على الأشياخ ويقرّبه فحسدوه، وأنّ الشاب وقع فى كبيرة من الكبائر، فجاؤا إلى أبى الدرداء فحدّثوه وقالوا له لو أبعدته، فقال سبحان الله لا نترك صاحبنا لشىء من الأشياء. وروينا عن بعض التابعين وعن الصحابة فى مثل ذلك وقد قيل له فيه، فقال إنما أبغض عمله وإلاّ فهو أخى. وكذلك قال الله عز وجل لنبيّه فى عشيرته «**فإنْ عصوك فقل إنى برىء مما تعملون**» ، ولم يقل قل إنى برىء منكم، للُحمة النسَب. وقد قيل للصداقة لُحمة كلُحمة النسب. وقيل **لحكيم بن مُرّة** أيمّا أحبّ إليك، أخوك أو صديقك؟ فقال إنما أحب أخى إذا كان صديقاً. وكان **الحسن** يقول كم من أخ لك لم تلده أمك . ولذلك قيل القرابة تحتاج إلى مودّة، والمودّة لا تحتاج إلى قرابة. وفى حديث **النبى صلّى عليه وسلم** ، لمّا شتم القوم الرجل الذى أتى فاحشة، فقال مَهٍ، وزَبَرَهم، لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم. وفى أثرعن بعض العلماء فى مثل زلاّت الإخوان، قال ودّ الشيطان أن يُلقى على أخيكم مثل هذا حتى تقطعوه وتهجروه. وقد كان **أبو الدرداء** يقول إذا تغيّر أخوك وحالَ عما كان ، فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يَعْوّج مرة ويستقيم أخرى. وكان يقول داوِ أخاك ولا تُطع فيه حاسداً

فتكون مثله. وقال **إبراهيم النخعي** لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب، فإنه يركبه اليوم ويتركه غداً. وقال أيضا لا تحدّثوا الناس بزلّة العالم فإنّ العالم يزلّ الزلّة ثم يتركها. وفى الخبر اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه، وانتظروا فيئته. وعن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** شرار عباد الله المشّاؤن بالنميمة، المفرّقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العَيْب. وقال **سعيد بن المسيب** إنى لأكره أن أفرق بين المتألفين، وقال مرة بين المتحابين.

ومن أفضل **فضيلة الحب فى الله تعالى** أنه جُعل علما لوجود الإيمان، وقُرن بحب الله تعالى ورسوله صلّى الله عله وسلم، كما فى الخبر لايؤمن عبدى حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ثم جاء مثله- لايجد العبد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لله عز وجل. وكان **محمد بن واسع** يقول مابقى فى الدنيا شىء ألَذّه إلا ثلاث : الصلاة فى جماعة، والتهجد من الليل، ولقاء الإخوان. وكان بعضهم يقول **لقاء الإخوان** مسلاة للهمّ ومذهبةٌ للأحزان. وكان **الحسن** يقول إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا، لأن أهلينا يذكّرونا الدنيا ، وإخواننا يذكّرونا الآخرة. وقال **أحدهم** لأن الأهل والولد من الدنيا ، والإخوان فى الله عز وجل من آلة الآخرة. وعن **عطاء** قال، كان **الحسن** يقول تفقّدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإنْ كانوا مرضى فعودوهم، وإنْ كانوا مشاغيل فأعينوهم، وإنْ نسوا فذكّروهم. وكان **الشعبى** يقول فى الرجل يجالس الرجل فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه، ذلك **معرفة النوكى**. وقد روينا عن **النبى صلى الله عليه وسلم** أنه رأى **عمر** يلتفت يميناً وشمالاً فسأله، فقال يارسول الله أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه، فقال ياأبا عبد الله: إذا أحببت أحداً فسلْه عن اسمه واسم أبيه وعن منزله، فإنْ كان مريضاً عدته، وإن كان مشغولا أعنته . وكان **سعيد بن العاص** يقول لجليسى علىّ ثلاث، إذا دنا رحّبت به، وإذا حدّث أقبلتُ عليه، وإذا جلس أوسعت له. وقال **أكثم بن صيفى** لبنيه : يا بنّى- تقاربوا فى **المودة** ولا تتكلوا على القرابة. وقد قيل **لأبى حازم** ما القرابة؟ قال المودّة. وكان **عبد الله بن الحسن البصرى** يصرف إخوان الحسن إذا جاءوه لطول لبثهم عنده ، ولشدة شُغله بهم ، فيقول لهم لا تملّوا الشيخ؟ فكان الحسن إذا علم ذلك يقول دعهم يا لكع فإنهم أحبّ إلىّ منكم . هؤلاء يحبونى لله عز وجل ، وأنتم تريدونى للدنيا . وقال **أبو معاوية الأسود** إخوانى كلهم خيرٌ منى ، قيل وكيف ذاك؟ قال كلهم يرى الفضل لى عليه ، ومن فضّلنى على نفسى فهو خيرٌ منى . وقد روينا عن **رسول الله صلىّ الله عليه وسلم** المرء على دين خليله . ولا خير فى صُحبة من لايرى لك مثل ما يرى لنفسه .

وقد روى عن علّى بن أبى طالب كرّم الله وجهه، أنه قال لرجل كره له صُحبة رجل رَهِق:

لا تصحب أخا الجهل * وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى * حليماً حين آخاه
يُقاس المرء بالمرء * إذا ماهو ماشاه
وللشيء من الشيء * مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب * دليلٌ حين يلقاه

وأنشد محمد بن جامع الفقيه شعراً:

تذلل لمن إنْ تذللت له * يرىٰ ذاك للفضل لا للبَلَه
وجانبْ صداقة مَن لا يزال * على الأصدقاء يرىٰ الفضل له

وأنشدنا لبعض الأدباء:

كم من صديق عرّفته بصديق * صار حظى من الصديق العتيق
ورفيق رأيته فى طريق * صار عندى محض الصديق الحقيق

وروينا عن الحسن بن علّى عليهما السلام في وصف الأخ كلاماً رجزاً جامعاً مختصراً:

إن أخاك الحق من كان معك * ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك * شتتّ شمل نفسه ليجمعك

ولا تصحّ مؤاخاة مبتدع فى الله تعالى، ولامحبة فاسق يُصحبّ على فسوقه، ولامحبة فقير أحبّ غنيا لأجل دنياه وما يناله من عاجل مهناه. وقد تصح المحبة بين الغنى والفقير، ولا توجد الأخوّة إنْ لم يقم الغنى بحقوق أخيه، وإذا لم يؤثره أخوه بما يحب أنْ يوثره به فلم يفتضّه. وقد تصح الأخوّة بين العالِم والجاهل، وبين الصالح والطالح، لأجل التدين من أحدهما والتقربة إلى الله عز وجل، ويكون من الأعلى منهما النيّات تكون له فيها، لحُسن

خلقه أو لجميل معاملته، أو لمعانٍ محمودة تكون فيه، أو لتواضع العالم والصالح فى نفسه فيراه فى كل حال فوقه، أو لأجل الستر عليه لئلا يلحقه النقص والشَّين من الغير. فهذه طرقات الإخوان فيها حُسن نيّات. وينبغى على ذلك أنْ تعلّمه ماجهل، فيعينه بعلمه كما يعينه بماله، فإنّ فقر الجهل أشد من فقر المال، وإنّ الحاجة إلى العلم ليست بدون الحاجة إلى المال. وكان **الفضيل** يقول إنما سمى الصديق، لتصدّقه والرفيق لترفُّقه. فإن كنت أغنى منه فارفقه بمالك، وإنْ كنت أعلم منه فارفقه بعلمك. وينبغى أنْ ينصح له فيما بينه وبينه، ولا يوبخّه بين الملأ ، ولا يُطلع على غيبه أحداً، فقد إن نصائح المؤمنين فى آذانهم. وقال **جعفر بن برقان**، قال لى **ميمون بن مهران:** قل لى فى وجهى ما أكره، فإنّ الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه مايكره.. فإن كان أخوه الذى نصح له صادقاً فى حاله ، أحبّه على نُصحه، فإن لم يحبه وكره ذلك منه، دلّ على كذب الحال. قال اللّه سبحانه وتعالى فى وصف الكاذبين «**ولكن لا تحبون الناصحين**» . وقد كان بعض الصالحين يقول أحبّ الناس إلىّ من أهدىَ عيوبى. وكان **عمربن الخطاب** رضى الله عنه يقول ويأمر الإخوان بذلك - رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوب نفسه. ولكن قد قيل **لمسعر بن كدام** تحب من يخبرك بعيوبك، فقال إنْ نصحنى فيما بينى وبينه فنَعَم، وإنْ قرّعنى فى الملأ فلا.

ومن أخلاق السلف قال كان لرجل إذا كره من أخيه خُلُقا عاتبه فيما بينه وبينه، أو كاتبه فى صحيفة، وهذا لعمرى فرقٌ بين **النصيحة والفضيحة**، فما كان فى السرّ فهو نصيحة، وماكان على العلانية فهو فضيحة، وقلّما تصحّ فيه النية لوجه اللّه تعالى لأن فيه شناعة. وكذلك الفرق بين **العتاب والتوبيخ**، فالعتاب ما كان فى خَلوة، والتوبيخ لا يكون إلاّ فى جماعة. وكذلك الفرق بين **المداراة والمداهنة**، فالمداراة ما أردتَ به وجه اللّه تعالى وطريق الآخرة من دفع عن دين، وقصدتَ به سلامة أخيك من الإثم، وصلاح قلبه للّه تبارك وتعالى، والمداهنة ما اجتلبتَ به دنيا وأردت به حظّ نفسك. وكذلك الفرق بين **الغبطة والحسد**، أنّ الغبطة أن تحب لنفسك ما رأيته من أخيك، ولا تحب زواله عنه بل تبقيته له وإتمامه عليه، والحسد ما أردتَ أن يكون ذلك منه لك، وأحببتَ زواله عنه، وكرهت تبقيته عليه، فهذا مكروه. فإن سعيتَ فى ذلك بقول أو فعل فهو البَغى زيادة على الحسد ، وهو من كبائر المعاصى . وكذلك الفرق بين **الفراسة وسوء الظن**، أنّ الفراسة ما توسمته من أخيك بدليل يظهر لك،

أو شاهدٍ يبدو منه، أو علامة تشهدها فيه، فتتفرس ذلك فيه ولا تنطق به إنْ كان سوأً، ولا تُظهره ولا تحكم عليه ولا تقطع به فتأثم، وسوء الظن ما ظننته من سوء رأيك فيه، أو لأجل حقد في نفسك عليه، أو لسوء نيّة أو خبث حالٍ فيك تعرفها من نفسك فتحمل حال أخيك عليها وتقيسه بك، فهذا هو سوء الظن والإثم، وهو غيْبة القلب، وذلك محرّم لقول **النبى صلى الله عليه وسلم** إن الله تعالى حرّم من المؤمن دمه وماله وعرضه، وأنْ تظن به ظنّ السوء. وقوله عليه السلام إياكم والظن فإنّ الظن أكذب الحديث. فهذه **خمس معان وأضدادها** بينها فرْقٌ عند العلماء، فاعرفْ ذلك.

وينبغى أن ينصر أخاه ويعينه بماله ولسانه وقلبه وأفعاله، فإن النُصرة فى الله تعالى تكون بهذه المعانى **الأربع**: بالنفس إن احتاج إليك فى الأفعال، وباللسان إنْ ظلم فى المقال، وبالمواساة إنْ احتاج إلى المال، وأقل ذلك بالقلب أنْ يساعده فى الهمّ والكرْب فى اعتقاد السلامة فيه وجميل النية له. وعليه أنْ يحفظ غيبه، وأنْ يحْسن الثناء عليه ، وينشر فضله ويطوى زلله ، ويقْبل علله. ويُقال ما من الناس إلاّ له محاسن ومساوٍ، فمن ظهرت محاسنه فغلبت مساويه فهو **المؤمن المقتصد**. فالأخ الشفيق الكريم يذكر أحسن ما يعلم فى أخيه، والمنافق اللئيم يذكر أسوأ ما يعلم فيه. ومن هذا جاء فى الخبر أستعيذ بالله من **جار السوء** الذى إنْ رأى خيراً ستره، وإنْ رأى شراً أظهره. وهذا المعنى هو سبب قول **النبى صلّى الله عليه وسلم** إنّ من البيان سحراً، إذ لكل حيث يروى آخره سببٌ ، يكون أوله خرج الحديث عليه، وهو أن رجلا أثنى على رجل عند رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فلما كان الغد ذمّه وعابه، فقال **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** أنت بالأمس تُثنى عليه واليوم تذمّه، فقال والله لقد صدقتُ عليه بالأمس وما كذبتُ عليه اليوم، إنه أرضانى بالأمس فقلت أحسن ما أعلم فيه، وأغضبنى اليوم فقلت أسوأ ما أعلم فيه، فقال **رسول الله صلى الله عله وسلم** عند ذلك، إنّ من البيان سحراً... كأنه كره ذلك أنْ شبّهه بالسحر لأن السحْر حرام، ولهذا قال **صلّى الله عليه وسلم** فى الخبر الآخر: البَذاء والبيان شُعبتان من النفاق. وفى الحديث الآخر: إنّ الله تعالى كره لكم البيان... كل البيان. وقد قال **الإمام الشافعّى** رحمه الله فى وصف **العدالة** قولاً استحسنه العلماء، قال: ما أحدٌ من المسلمين يطيع الله عزّ وجلّ حتى لا يعصيه، ولا أحد يعصى الله عز وجل حتى لا يطيعه، فمن كانت طاعاته أكثر من معاصيه فهو العَدل. وقال أيضا قولاً فصلاً فى التوسط بن **الانقباض والانبساط**. قال: الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكنْ بن الانقباض والانبساط.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بالصبر والرحمة فى قوله عزّ وجلّ «**وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة**» ، ونعتهم بالذّلة فى قوله تعالى «**أذلةٌ على المؤمنين أعزةٌ على الكافرين**» وقال تعالى «**رحماء بينهم**» . وهذا كله داخل فى الاهتمام به وهو حقيقة صدقه فى الصداقة له، كما قال **ولا صديقٌ حميم** ، أى **حميم** من **الاهتمام** به. وقد قال **عيسى** عليه السلام لأصحابه: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما فكشفت الريح عنه ثوبه؟ قالوا: نستره ونغّطيه، فقال: بل تكشفون عورته! قالوا سبحان الله من يفعل هذا؟ فقال ، أحدكم يسمع فى أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويُشيعها بأعظم منها... وهذا مخرجه من الحسد الكائن فى النفس والغل المستكّن فى القلب: أنّ يزيد الرجل على الشىء مما يسمع أو يتبعه بمثله، فيُظهر هذا غلهّ. وهذا الذى استعاذ منه المؤمنون فى قولهم «**ولا تجعل فى قلوبنا غلاّ** » الآية. وينبغى أن لا يخالفه فى شىء ولا يعترض عليه فى مراد. قال بعض العلماء إذا قال الأخ لأخيه قُم بنا، فقال إلى أين فلا تصحبه. وقال الآخر إذا قال اعطنى من مالك، فقال كم تريد، أو ماذا تصنع به، لم يقم بحق الإخاء. قال **أبو سليمان الدارانى** كان لى أخ بالعراق، فكنت أجيئه فى النوائب فاقول اعطنى من مالك شيأ، فكان يلقى إلىّ كيسه فآخذ منه ما أريد، فجئته ذات يوم فقلت أحتاج إلى شىء، فقال كم تريد، فخرجت حلاوة إخاه من قلبى.

وروينا عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يحرمه، ولا يخذله. بحسب المرء من الشر أن يُحقر أخاه المسلم. وفى حديث **علّى** عليه السلام عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** قال: من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدّثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يُخلفهم، فهو من كمُلت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحَرُمت غيبته. وفى حديث **أبى أسامة الباهلى** خرج علينا **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** ونحن نتمارى فغضب، ثم قال ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء فإنّ نفعه قليل، وهو يهيج العداوة بين الإخوان. وقال بعض السلف من لاَحَى الإخوان وماراهم قلّت وذهبت كرامته. وقال **عبد الله بن الحسن** إيّاك ومعاداة الرجال، فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم. وقال **بعض الحكماء** ظاهر العتاب خيرٌ من مكنون الحقد، ولا يزيدك لطف الحقد إلاّ وحشةً منه. وقد روينا فى الحقد على الإخوان لفظة شديدة وهو ماحدثونا عن **عبد الرحمن بن جبير** عن أبيه، قال كنت باليمن وكان لى جار يهودى يخبرنى عن التوراة، فقدم علينا يهودى من سَفر، فقلت إنّ الله تبارك

وتعالى قد بعث فينا نبياً فدعا إلى الإسلام فأسلمنا، وقد نزل علينا مصدّقا للتوراة، فقال اليهودى صدقت ، ولكنكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به. إنّا نجد نعته ونعت أمّته، أنه لايحل لامرىء يعلم منهم أن يخرج من عتّبة بابه وفى قلبه سخيمة على أخيه المسلم. وقال **بعض السلف** أعجز الناس من قصّر فى طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيّع مَن ظفر به منهم. وقال **الحسن** لا تشترِ عداوة رجل بمودّة ألف رجل. وقال **عمر بن عبد العزيز** إياك ومَن مودّته على قدر حاجته إليك، فإذا قضيتَ حاجته انقضتْ مودّته.

ومن أخلاق السلف لم يكن أحد يقول فى رَحْله هذا لى وهذا لك، بل كان كل من احتاج إلى شىء استعمله عن غير مؤامرة، وقد وصف الله عز وجل المؤمنين بهذا فى قوله تعالى «**وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون**» ، معنى **أمرهم** أى أمورهم، ذكر جُماعها كالشىء الواحد بينهم، **شورى** أى مشاع غير مقسوم ولا يستبدّ به واحدهم، **ومما رزقناهم ينفقون** أى كانوا خلطاء فى الأموال، لا يميز بعضهم رَحْلَه من بعض، أى شركاء. وجاء **عُتبة الغلام** إلى منزل رجل كان قد آخاه، فقال أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف، فقال خذ ألفين، فأعرض عنه وقال آثرتَ الدنيا على الله عز وجل. أما استحييت أنْ تدّعى الأخوة فى الله عز وجل وتقول هذا! وجاء **فتح الموصلى** إلى منزل أخٍ له وكان غائباً ، فأمر أهله فأخرجَتْ صندوقه، ففتحه فأخذ من كيسه حاجته، فذهبت الجارية إلى مولاها فأعلمته، فقال إنْ كنتِ صادقة فأنتِ حرة لوجه الله تعالى سروراً بما فعل. ورُوى أنّ **ابن أبى شبرمة** قضى لبعض إخوانه حاجة كبيرة، فجاء الرجل بهدية جليلة، فقال ماهذا، فقال ما أسديت إلىّ، فقال خذ مالك عافاك الله. إذا سألت أخاك حاجة فإنما يجهد نفسه فى قضائها. ثم توضأ للصلاة وكبّر عليه أربع تكبيرات وعدّه فى الموتى!... وعلى ذلك قال بعضهم إذا استقضَيْتَ أخاك الحاجة فلم يقضها لله، فذكّره ثانية فلعله يكون قد نسى، فإنْ لم يقضها فعاوده ثالثة فقد يكون شُغل عنها بعذر، فإنْ لم يقضها فكبّر عليه واقرأ عليه هذه الآية «**والموتى يبعثهم الله**». وقال **ميمون بن مهران** من رضى من الإخوان بترك الأفضال، فليواخِ أهل القبور. وجاء رجل الى **أبى هريرة** ، فقال إنى أريد أن أواخيك فى الله عز وجل، فقال أتدرى ماحقّ الإخاء؟ قال عرّفنى. قال لا تكون بدرهمك ودينارك أحق منى. قال لم أبلغ هذه المنزلة بعد. قال فاذهب عنى. وقال **علىّ بن الحسين** رضى الله عنهما لرجل: هل يُدخِل أحدكم يده فى كُمّ أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد من غير إذن؟ قال لا. قال فلستم بإخوان! وقيل إن **إبراهيم بن**

أدهم أعطى مرة حماراً كان لرفيقه بغير إذنه لرجل رآه راجلاً، فلما جاء رفيقه سكت فلم يكره ذلك. وقد روى عن **ابن مسعود**: لا تسأل امرأ عن ودّه إياك، ولكن انظر مافى قلبك فإنّ فى قلبه لك مثل ذلك.

وقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** من طريق أهل البيت، قال ثلاثة من المروءة فى الحضر: تلاوة كتاب الله عز وجل، وعمارة مساجده، واتخاذ الإخوان فى الله تعالى. فمن فَضْل المؤاخاة فى الله تعالى أنه قرنها بتلاوة كتابه وعمارة بيوته. وقد جعل الاختلاف إلى المسجد سبب اجتلاب الإخاء. وفى حديث **ابن عباس والحسن بن علىّ** من أدمن الاختلاف إلى المسجد أصاب **إحدى** خمس خصال: أخاً مستفاداً فى الله عز وجل. وقال **أبو عيينة** وقد أنشد هذا البيت:

وجدت مصيبات الزمان جميعها ✻ سوى فُرقة الإخوان هيّنة الخطْب

فقال لقد عهدت أقواماً فارقتهم منذ ثلاثين سنة، ما تخيل لى أنّ حسرتهم ذهبت من قلبى. وقال بعضهم ما هدّنى شيء كما هدّنى موت الأقران. ويقال إذا مات صديق الرجل فقْد فَقَد عضوا من أعضائه. وأنشدونا عن **العتبىّ**:

ولقد بلوت الناس ثم خبرتهم ✻ ووصلت ماقطعوا من الأسباب

فإذا القرابة لا تقرّب قاطعا ✻ وإذا المودة أقرب الأنساب

وبلغنى ان أخوين ابتلى أحدهما بهوًى فأظهر عليه أخاه، وقال إنى قد اعتللت بالهوى فإنْ شئت أن لا تعقد على محبتى لله تعالى فافعل، فقال ما كنتُ لأَحلّ عَقْد أخوّتك لأجل خطيئتك أبدا، قال ثم عقد أخوه بينه وبين الله عز وجل أن لا يأكل ولا يشرب ، حتى يعافى الله عز وجل أخاه من هواه، فطوى أربعين يوماً فى كلها يسأله عن هواه كيف أنت منه، فكان يقول القلب مقيمٌ على حاله. ومازال أخوه الآخر ينحلّ ويسقم من الغمّ عليه، ومن تركه الطعام والشراب. قال فأزال الله الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين، فأخبره بذلك فأكل وشرب بعد أنْ كاد يتلف هزلاً وضراً. وبمعناه حُدّثت عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه التقىّ ألاّ تقطعه وتهجره؟ فقال هو أحوج ماكان إلىّ فى هذا الوقت لما وقع فى عثرته، أنْ آخذ بيده وأتلطّف له فى المعاتبة، وأدعو له بالعوْد إلى ماكان عليه. وفيما

رويناه من **الإسرائيليات** أنّ أخوين عابدين فى جبل نزل أحدهما ليشترى من المصْر لحماً بدرهم، فبصر ببغىّ عند اللحّام فهويها فواقعها، ثم أقام عندها ثلاثاً، واستحىَ أن يرجع إلى أخيه من جنايته، قال فافتقده أخوه واهتّم بشأنه، فنزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دُلّ عليه، فدخل عليه وهو جالس مع البغىّ فاعتنقه، وجعل يُقلّبه ويلزمه، وأنكر الآخر أنه يعرفه لفرط استحيائه منه، فقال قم يا أخى فقد علمتُ بشأنك وقصتك، وماكنتَ أعزّ علّى وأحبّ منك فى يومك هذا، ولا فى ساعتك هذه. فلمّا رأى ذلك لا يسقطه عنده، قام فانصرف معه. فهذا من أحسن النيّات، وهو طريق العارفين من ذوى الآداب والمروآت، فإنْ أحبّ هذا الأخ أن يؤثر أخاه بما آثره به، ولا يقتضيه حقّ إخائه، فحَسَن، وقد فعل ذلك **عبد الرحمن بن عوف** لمّا آثره **سعد بن الربيع** بالمال والنفس، فقال بارك الله لك فيهما، فآثره بما به آثره، فكأنه استأنف هِبَتَه له، لأنه قد كان ملّكه إياه، لسخاوة نفسه وحقيقة زهده وصِدْق مودّته، فكانت **المساواة** لسعد، **والإيثار** لعبد الرحمن فزاد عليه، وهذا من فضل المهاجرين على الأنصار، إذ كانت **المساواة دون الإيثار**. وقد كان **مضر بن عيسى وسليمان** يقولان مَن أحبّ رجلاً، ثم قصّر فى حقه فهو كاذب فى حبه. وكان **أبو سليمان الدارانى** يقول: هو صادق فى حبه، مفرّط فى حقه. ثم قال: لو أن الدنيا كلها لى فجعلتها فى فم أخٍ من إخوانى لاستقللتها له. وقال: إنى لألقم الأخ من إخوانى اللقمة فأجد طعمها فى حلقى!

واعلم أن إطعام الطعام والإنفاق على الإخوان، مضاعفٌ على الصدقات وعلى العطاء للأجانب، بمنزلة تضعيف الثواب فى الأهل والقرابات. وروى عن **علّى** عليه السلام لَعشرون درهما أعطيها أخى فى الله عز وجل أحبّ إلىّ من أن أتصدّق بمائة درهم على المساكين. وقال أيضا لأن أصنع من طعام، وأجمع عليه إخوانى فى الله عز وجل، أحبّ إلىّ من أن أعتق رقبة. وأوصى **بعض الحكماء** ابنه، فقال يابنى ادخل بين الأعداء ولا تدخلنّ بين الأصدقاء، قال وكيف ذلك؟ قال الدخول بين الأعداء يكسب الصداقة، والدخول بين الأصدقاء يورّث العداوة.

ولا ينبغى للأخ أن يخون أخاه فى غيبه بمايكرهه، إن كان ذلك فى شيىء مباح إذا كرهه، ولاينكر عليه مالا يقوم فى علمه إذا فعله ، إن كان أخوه أعلم منه، أو كان له وجه يخرج عليه. ولا ينبغى أنْ يكذّبه فى أمره، ولا يفشينّ له سراً، ولايعرضنّه لغيبة ولا نميمة، ولا

يُحوجه إلى مداراة، ولا يُلجئة إلى اعتذار، ولا يتكلّفن له مايشق عليه، أو مالا يحبه هو منه. وقال **العباس** لابنه **عبد الله** إنى أرى هذا الرجل، يعنى **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه، يُقدّمك على الأشياخ ويقرّبك دونهم، فاحفظ عنى ثلاثاً، لا تفشّين له سراً، ولا تغتابنّ عنده أحداً، ولايجربنّ عليك كذبة. وفى بعض الروايات ولا تعصينّ له أمراً، ولا يطّلعن منك على خيانة. قال فقلت **للشعبى** وقد رواه، كل كلمة خيرٌ من ألف. قال كل كلمة خير من عشرة آلاف - وأفشى **بعضهم** إلى أخيه سراً ثم قال له حفظت؟ قال بل نسيت. وقيل **لبعض الأدباء** كيف حفظك السرّ؟ قال أنا قبره. وقيل لآخر كيف تحفظ السرّ؟ فقال أجحد المخبر وأحلف للمستخبّر.

ومن أحسن ماسمعت فى حفظ السرّ، ما حدّثنى بعض أشياخنا عن إخوانٍ له دخلوا على **عبد الله بن المعتز**، فاستنشدوه شيأً من شعره فى حفظ السرّ فأنشدهم على البديهة:

ومستودعى سراً تبوأت كتمه ❊ فأودعته صدرى فصار له قبرا

قال فخرجنا من عنده فاستقبلنا **محمد بن داود الأصبهانى** فسألنا من أين جئنا، فأخبرناه بما أنشدنا **ابن المعتز** فى السرّ، فاستوقفنا ثم أطرق ملياً ثم قال اسمعوا قولى:

وما السرّ فى صدرى كثاوٍ بقبرة ❊ لأنى أرى المقبور ينتظر النشرا
ولكننى أنساه حتى كأننى ❊ بما كان منه لم أحَط ساعةً خبرا لم
ولو جاز كتمُ السرّ بينى وبينه ❊ عن السرّ والأحشا لم يعلم السرّا

وقال **الثورى** إذا أردت أن تؤاخى رجلاً فاغضبه ثم دسّ عليه من يسأله عنك، فإنْ قال خيراً فاصحبه . وقال **غيره** لا تواخينّ أحداً حتى تبلوه وتُفشى إليه سرّاً ، ثم اجفّه واستغضبه وانظرْ فإنْ أفشاه عليك فاجتنبه . وقيل **لأبى يزيد** من أصحبُ من الناس؟ قال من يعلم منك مايعلم الله عز وجل، ويستر عليك ما يستر الله تعالى. وقيل **لبعض العلماء** من يصحب من الناس؟ قال من يرفع عنك ثُقل التكلّف ، وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ . وقد كان **جعفر بن محمد الصادق** عليهما السلام يقول أثقل إخوانى علىّ من يتكلف لى وأتحفظ منه، وأخفّهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى. يريدون بهذا كله أنّ مَن لم يكن على هذه الأوصاف دخل عليه التصنّع والتزيّن، فأخرجاه إلى الرياء والتكلّف، فذهبت بركة الصُحبة، وبطلت

منفعة الأخوة. وقال **بعض الصوفية** لا تعاشر من الناس إلاّ مَن لا تزيد عنده ببرّ ولا تنقص بإثم، ومن يتوب عنك إذا أذنبت، ويعتذر إليك إذا أسأت ، ويحمل عنك مؤنة نفسه ويكفيك مؤنة نفسك، وهذه من أعز الاوصاف فى هذا الوقت كما قال رجل **للجنيد قد** عزّ فى هذا الزمان أخ فى الله تعالى ، قال فسكت عنه، ثم عاد ذلك فقال له **الجنيد** اذا أردت أخاف فى الله عز وجل يكفيك مؤنتك ويتحمل أذاك فهذا لعمرى قليل ، وإنْ أردت أخا فى الله تتحمل أنت مؤنته وتصبر على أذاه فعندى جماعة أدلّك عليهم إنْ أحببت، فهذا لعمرى يكون **محبا لنفسه** إذا اقتضى هذا من أخيه ، لا محباً لأخ فى الله تعالى ، وليس الإخاء كفّ الأذى لأن هذا واجب ولكن الإخاء **الصبر على الأذى** .

وقال **بعض العلماء** لا تصحب إلاّ أحدى رجلين ، رجلاً تتعلم منه شيئاً من أمر دينك فينفعك، أوْ رجلا تعلّمه شيئاً من دينه فيقبل منك، والثالث اهربْ منه ، وقال **ابن أبى الحوارى** قال لى استاذى **أبو سليمان** يا أحمد لا تصحب إلاّ أحد رجلين ، رجل ترتفق به فى دنياك ، أو رجل تزيد معه وتنتفع به فى آخرتك... والاشتغال بغير هذين حُمق كبير، وكان **المأمون** يقول: الإخوان **ثلاثة** ، **أحدهم** مثله مثل الغذاء لا يُستغنى عنه، **والآخر** مثله مثل الدواء يُحتاج إليه فى وقت ، **والثالث** مثله مثل الداء لا يُحتاج إليه... فالعبد مبتلَى بهذا الثالث، وهو الذى لا أنس فيه ولا نفع عنه ، والأول نعمة من الله سبحانه وتعالى على العبد، فيه ألفة وأنس، ومعه غنيمة ونفع. وكان **أبو ذر** يقول: الوحْدة خير من جليس السوء ، والجليس الصالح خير من الوحدة . وقال **بشر بن الحارث:** يكون للرجل ثلاثة إخوان ، أخٌ لآخرته، وأخٌ لدنيا، وأخٌ يأنس به ... فأخبر أنّ أخ المؤانسة قد لايكون متقرباً عابداً. وأنّ الأنس مخصوص، يقال لا يوجد إلاّ فى كريم.

واعلم أن **الأنس** لا يوجد فى كل عالِم، ولا فى كل عاقل، ولا فى كل عابد زاهد. ويحتاج **الأنس** إلى وجود معان تكون فى الولىّ، فإذا اجتمعت فيه كَمُل فيه الأنس وارتفعت عنه الوَحْشَة والحِشْمة، ومن لم تكن فيه لم يوجد فيه أنس، ومن لم تكمل فيه وُجِدَ فيه بعض الأنس، وإذا حصل الأنس ففيه الروح من الكروب والاستراحة من الغمّ والسكون وطمأنينة القلب ، فكذلك عزّ من يوجد فيه الأنس لعزّة خصاله وهى **سبع:** علم، وعقل، وأدب، وحُسن خلق، وسخاء نفس، وسلامة قلب، وتواضع، فإن فَقَدَ بعضها لم يجد خِلاّ يأنس بكماله، من قِبَل أنّ

أضدادها وَحشة كلها، لأن الجاهل لا أنس فيه، والأحمق لا أنس به، والبخيل سيئ الخلق لا أنس عنده ، والخبيث والمتكبّر لا أنس معه، فاعرفْ هذا.

وروينا عن **الأصمعى** أنه ذكر عن بعض الحكماء قال: عاملوا أحرار الناس بمحض المودّة، وعاملوا العامة بالرغبة والرهبة، وسوُسوُا السفلة بالمخافة. ومثّلْ جُملة الناس كمثَل جُملة الشجر، منهم مَن له ظل وليس فيه ثمر، وهذا الذى فيه نفع من الدنيا ولا ثمرة له فى العُقبَى، ويُحتاج إليه فى وقت، ومنهم من فيه ثمر وليس له ظل، وهذا يصلح للآخرة ولا يصلح للدنيا، ومنهم من فيه ظل وثمر فهذا الذى يصلح للدين والدنيا، وهو أعزّها، ومنهم مَن لاظل له ولا ثمر، وهذا هو الذى لا يُحتاج إليه، فمثله فى الشجر مثل شجر الغَضَا، وهو شوك البرية التى تسميه العامة **أم غيلان**، تمزّق الثياب، لا طعام فيه ولاشراب، فهؤلاء من الناس من يضر ولا ينفع، ويكثر ولا يدفع، مثله كما قال الله تبارك وتعالى "**يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه لَبئس المولى ولَبئس العشير**"، مثّله فى الدواب مثل الفارة والعقرب، وقد قيل فى وصفهم:

الناس شتّى إذا ما أنت ذقتهم ❊ لا يستوون كما لا يستوى الشجر

ذا رَبُّ ظلٍ وهذا عنده ثمر ❊ وذاك ليس له ظل ولاثمر

وقد أنشدنا فى مثل وصف هذا لبعض الأدباء

إذا كنتَ لا تُرجَى لدفع مهمة ❊ ولم تك يومَ الحشر ممن يُشفّع

ولا أنت ذا مال يجود بماله ❊ فعوُد خِلالٍ من إخائك أنفع

وقال بعض السلف إذا وَلِيَ أخوك ولاية فثبّتَ على نصف مودّتك فكثير. وحدثنا **محمد بن القاسم القرشى** عن **الربيع بن سليمان** عن **الإمام الشافعى** رحمه الله، أنه آخى رجلاً ببغداد، ثم أنّ أخاه ولِى السيبيْن فتغيّر للشافعى كما كان يعهده منه، فكتب إليه الشافعى رضى الله عنه هذه الأبيات :

إذهبْ فودّك من ودادى طالق ❊ منى وليس طلاق ذات البيْن

فإن ارعويْت فإنها تطليقة ❊ ويدوم ودّك لى على ثِنتين

وإذا امتنعتَ شفعتها بمثالها ❊ فتكون تطليقتين فى حيضين

فإذا الثلاث أتتك منى بتةً * لم تُغنِ عنك ولاية السيبين

فذُكِر هذا الكلام لبعض الفقهاء فاستحسنه، وقال هذا الطلاق فقهى إلاّ أنه طلّق قبل النكاح.
وقد كان الشافعى عليه السلام آخى **محمد بن عبد الحكم المصرى**، وكان يحبه ويقرّبه ويقول ما يقيمنى بمصر غيره، واعتلّ محمد فعاده الشافعى، فحدّثنى القرشى عن الربيع، قال سمعت الشافعى ينشد وقد عاد محمداً :

مَرِض الحبيبُ فعُدْتُه * فمرضتُ من حذرى عليه

وأتى الحبيبُ يعودنى * فبرأتُ من نظرى إليه

وماشكّ أهل مصر أن الشافعى يفوّض أمر حلقته إليه، وأنه يستخلفه بعد موته ويأمر الناس بالحضور عنده، حتى سُئل عن ذلك فى علّته، فقيل له ياأبا عبد الله إلى من نجلس بعدك، ومن يكون صاحب الحلقة، وهم يظنون أنه يشير إلى محمد، فاستشرف لذلك محمد وتطاول لها، وكان جالسا عند رأسه، فقال سبحان الله، أيُشَكّ فى هذا؟ **أبو يعقوب البويطى**. فانكسر لها محمد ووجد فى نفسه، ومال أصحابه إلى **أبى يعقوب البويطى**. وقد كان محمد حمل عِلم الشافعى ومذهبه وفارق مذهب **مالك**، إلاّ أن البويطى كان أزهد وأورع، فحمل الشافعى نصحه للدين والنصيحة للمسلمين، ولم يداهن فى ذلك، بأن وجّه الأمر إلى أبى يعقوب وآثره، لأنه كان أولى، فلما قُبض الشافعى رضى الله عنه انتقل محمد بن عبد الحكم من مذهبه، وفارق أصحابه، ورجع إلى مذهب مالك، وروى كتب أبيه عن مالك وتفقّه فيها، فهو اليوم من كبار أصحاب مالك رضى الله عنه. وأخْمَلَ البويطى رحمه الله نفسه، واعتزل عن الناس بالبويْطة من سواد مصر، وصنّف **كتاب الأم** الذى يُنسب الآن إلى **الربيع بن سليمان** ويُعرف به، وإنما هو جَمْعُ البويطى، لم يذكر نفسه فيه وأخرجه إلى الربيع، فزاد فيه وأظهره وسمّعه منه. وقد كان البويطى حُمِل فى المحنة، ورُفع من مصر إلى السلطان، وحُبس فى شأن القرآن، فحدثّنا عن الربيع، قال : كتب إلىّ البويطى من السجن يحثنى على المجالس، ويأمرنى بالمواظبة على العلم والرفق بالمتعلمين والإقبال عليهم، وأن أتواضع لهم . وقال كثيراً ما كنت أسمع الشافعى رضى الله عنه يقول :

أهين لهم نفسى لكى يكرمونها * ولن تُكرم النفس التى لا تهينها

ومن حق الأخوة في الله عز وجل ما نُقل إلينا من سيرة السلف، قال كان الرجل يجيء إلى منزل أخيه من حيث لا يعلم، فيقول لأهله هل عندكم دقيق؟ ألكم زيت؟ تحتاجون إلى كذا؟ فإنْ قالوا ليس عندنا اشترى لهم مصالحهم. قال ولم يكن الأخ يفرّق بين عياله وعيال أخيه يقاسمهم المؤنة، قال ويلقى أخاه فلا يُعلمه بشيء من ذلك. وكان **أبو الدرداء** يقول إنى لأدعو لأربعين من إخوانى فى سجودى، أسمّيهم بأسمائهم. وقد جاء فى الحديث دعاء الأخ لأخيه بالغيب لا يُرّد. والحديث المشهور يستجاب للمرء فى أخيه مالا يستجاب له فى نفسه. فمن واجب الأخوّة تخصيصه وإفراده بالدعاء والاستغفار له فى الغيب، فلو لم يكن من بركة الأخوة إلاّ هذا كان كثير. وكان **محمد بن يوسف الأصبهانى** يقول: وأين مِثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك، وهو منفرد بحسرتك، مهتّم بما قدّمت، يدعو لك فى ظُلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى. فقد أشبّه الأخ الصالح الملائكة، لأنه جاء فى الخبر إذا مات العبد قال الناس ماخلّف؟ وقالت الملائكة ماقدّم؟ يفرحون بما قدّم من خير ويشفقون عليه، وقال بعض العلماء لو لم يكن فى اتخاذ الإخوان إلاّ أن أحدهم يبلغه موت أخيه فيترحّم عليه ويدعو له، فلعله يُغفر له بُحسن نيته له. ويقال مَن بلّغه موت أخيه فترحّم عليه واستغفر له كأنه شهد جنازته وصلّى عليه. ويقال الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء . فقد كان الإخوان يوصون إخوانهم بعدهم بدوام الدعاء لهم ويرغّبون فى ذلك، لحُسن يقينهم وصِدق نيّاتهم. وإنّ أعظم الحسرة مَن خرج من الدنيا ولم يؤاخ أخاً فى الله عز وجل، فيدرك بذلك فضائل المؤاخاة، وينال به منازل المحبين عند الله تعالى. ومن أشد الناس وَحشة فى الدنيا من لم يكن له خليل يأنس به، وصديق صِدْقٍ يسكن إليه، كما قال **علّى** عليه السلام : وغريبٌ من لم يكن له حبيب، ولا يوحشنك من صديق سوء ظن. وأنشد بعض الشيوخ لبعضهم :

وليس غريباً من تناءت دياره ❊ ولكن من يجفّى فذاك غريب

ومن كان ذا عهد قديم وذا وفا ❊ فلو جاوز السدّين فهو قريب

وكان **بعضهم** يقول: أنا بمودّة من غاب عنى من بعض إخوانى أوثق منى بمودّة من يغدو علىّ ويروح فى كل يوم مرتين. وقال **محمد بن داود** قُرب القلوب على بعد المزار خيرٌ من قرب الديار من الديار. وليتق أن يعاشر أخاه بخَمس خصال فليست من الأدب ولا المروءة: **أولها** أن لا يُلزمه بما يكره مما يشق عليه، **والثانية** أن لا يسمع فيه بلاغة ، ولا يصدّق عليه مقالة،

والثالثة أن لا يكثر مسألته من أين تجيء وإلى أين تذهب، وأن لا يتجسس عليه ولا يتحسس عنه، والفرق بينهما أن التجسس يكون في قفو الآثار، والتحسس يكون في تطلّع الأخبار، فقد روينا كراهة هذه **الخمس** في سيرة السلف.

واعلم أن للناس في **التعارف سبع مقامات**، بعضها فوق بعض، فأوّل ذلك **المعرفة** عن الرؤية أو السمع فقط، فلهذا حُرمة الإسلام وحق العامة؛ ثم **المجاورة** وله حق الجوار، وهو ثاني **حقوق الإسلام** وهذا هو **الجار الجنب**؛ ثم **المرافقة** في طريقٍ أو سفر، وهذا هو **الصاحب بالجنب** في أحد الوجهين من الآية، فلهذا **ثلاثة** حقوق، لأنه قد جمع حُرمة الإسلام، وحُرمة الجوار، وزاد عليها بأنه ابن سبيل؛ ثم **الصُحبة** وهي الملازمة والاتباع، فهذا فوق ذلك؛ ثم **الصداقة** وهي حقيقة الأخوة، ومعها تكون **المعاشرة**، وهو اسم تكون معه المخالطة، وتوجد فيه المؤانسة، وهو يحكم بالمزاورة والمباتة والمؤاكلة، وهذا جملة العِشْرة، فالمعاشرة مأخوذة من العشير هو الخليط المقارب، ولذلك سمي الزوج عشيراً في قول النبي **صلى الله عليه وسلم** ويكفّرْن العشير. وقد قال الله عز وجل في تسمية المعاشر وفي قربه "**لبئس المولى ولبئس العشير**" يعني ابن العم المختلط به، فقيل منه معاشرة على زنة مفاعلة، لأنه شئ يقع بين اثنين لا محالة كان كل واحد قد فعل مثله، أي يفعل هذا مثل ما يفعل هذا، مثل المضاربة والمقاتلة والمشاتمة، إذا فعل كل واحد بصاحبه كفعله به؛ ثم **الأخوة** فوق الصداقة وهذا لا يكاد يكون إلا بين النظراء في الحال والمتقاربين في الحُسن والمعاني، بأنْ يوجد في أحدهما من القلب والهمّة والعلم والخُلُق ما يوجد في الآخر وإنْ تفاوتا، كما قال تبارك وتعالى "**إنّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين**"، وليسوا من جنسهم ولا على وصفهم في الخِلْقة، ولكن لمّا تشابهت قلوبهم وأحوالهم آخى بينهم، فهذه **أخوّة الحال**، وهي حقيقة الصداقة؛ ثم **المحبة** وهي خاصية الأخوّة، وهذا يجعله الله تبارك وتعالى من الألفة، ويوجده من الأنس في القلوب، يتولاّه بصُنعه ولا يوليه غيره، وهذا ارتياح القلوب، وانشراح الصدور ووجْد السرور، وفقْد الوحشة، وزوال الحشمة؛ ثم **الخليل** وهذا فوق الحبيب، ولا يكون هذا إلا في عاقلَيْن عاملَيْن عارفَيْن، على معيارٍ واحد، وطريقٍ واحد، وهذا أعز موجود وأغرب معهود. **والخُلة** مأخوذة من تخلّلِ الأسرار، ومعها تكون حقيقة الحب والإيثار، فكل خليلٍ حبيب، وليس كل حبيب خليلا، لأن الخلة تحتاج إلى فضل عقل ومزيد علم وقوة تمكين، وقد لا يوجد ذلك في كل محبوب، فلذلك عزّ طلبه وجلّ وصفه .وقد رفع الله عز وجل نبيّه محمداً صلّى الله

عليه وسلّم فى مقام المحبة فأعطاه الخلة ليلحقه بمقام إبراهيم ، فكانت الخلة مزيد المحبة. ومنه ما روى عن النبى صلّى الله عليه وسلّم لوكنتُ متخذاً من الخلق خليلاً لاتخذت أبابكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله عز وجل... فلما اتخذه خليلاً لم يصلُح أن يُشرك فى خلة الخالق ، ثم قال ولكنْ أخوّة الإسلام ، فأوقفه مع الأخوة، لأن فيها مشاركة فى الحال، كما فعل بعلىّ عليه السلام، وعدّل به عن النبوّة كما عدل بأبى بكر عن الخلة. وفى الحديث الآخر أن النبى صلى الله عليه وسلّم صعد المنبر فرحاً مستبشراً فقال: الا إنّ الله تبارك وتعالى قد اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلا ، فأنا حبيب الله عز وجل، وأنا خليل الله.

واعلم أنه ليس بين الأخوّين والصاحبين رياء فى أعمالهما ، وليس بين الرجل وأهل بيته، ولا بين المسافر ورفقائه رياء ولا سمعة ، ولا عليه منهم اختفاء ولا خلوة ، فإنْ صحبَه أخوه هذا فى سفر كانت حرمته عليه ألزم، وحقه أوجب، فينبغى أن لا يخالفه ولا يعترض عليه، إنْ أحب النزول فى منزل لم يكره أخوه ذلك ، وإنْ اختار أحدهما الرحيل لم يحب الآخر المقام ، وإن سار أحدهما لم يقف صاحبه ، وإن استراح الآخر وقف له رفيقه، وإنْ اشترى شيئا لم ينهه عنه، ولا يستأثر بمطعوم ولا مشروب عليه بل يؤثره بذينك. وفى الخبر ما اصطحب اثنان قط إلاّ كان أحبهما إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه، وروينا أيضا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه دخل غيضة مع بعض أصحابه، فاجتنّى منها سواكيْن من أراك، أحدهما معوّج والآخر مستقيم، فحبّس المعوج لنفسه ودفع المستقيم إلى صاحبه، فقال يا رسول الله أنت كنت أحق بالمستقيم، فقال ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعة من نهار، إلاّ ساله الله عن صُحبته، هل أقام فيه حق الله تعالى أو أضاعه. ومن كان ناظراً فى أخوة أخيه أو فى صحبته إلى كثرة أعماله، أو واقفاً مع أكمل أحواله، دلّ على جهله بهذا الطريق، وإنما المُعَوّل على حقائق القلوب وسلامة العقول لأن إليها الأمر مردود.

وقد جاء فى مخالطة المسلمين، وفى الأكل مع الإخوان، والاختلاط بالعامة، والمشى فى الأسواق، واشتراء الحوائج، وحملها للتواضع، ما يكثُر رسمه ويطول وصفه. وكذلك كان سيرة الصحابة وشيمة التابعين بإحسان، منهم عمر رضى الله عنه، كان يحمل القِرْبة على ظهره لأهله، وعلّى رضى الله عنه، كان يحمل التمر والملح فى ثوبه ويده ويقول :

ومنهم **أبيّ وابن مسعود وحذيفة وأبو هريرة**، كانوا يحملون حزَم الحطب وجرَب الدقيق على أكتافهم وظهورهم، **وسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين محمد صلّى الله عليه وسلم**، كان يشترى الشيء فيحمله بنفسه، فيقول له صاحبه اعطنى أحمله عنك، فيقول صاحب الشيء أحق بحمله، وكان **الحسن بن علّى** عليهما السلام يمر على السؤّال فى الطريق وبين أيديهم كِسَر ملقاة فى فى الأرض فيسلّم عليهم، فيقولون هلّم الغداء يا ابن بنت رسول الله، فيُثنى رجله عن بغلته، وينزل فيقعد معهم على الأرض ويأكل، ثم يركب ويقول إن الله تبارك وتعالى لا يحب المستكبرين، ثم يدعوهم بعد ذلك إلى منزله، فيقول للخادم هلّمى ما كنت تدخرين، فيأكلون معه.

وروينا فى **الإسرائيليات** أن حكيماً من الحكماء صنّف ثلاثمائة وستين مصنّفاً فى الحكمة، حتى ظن أنه نال منزلة عند الله تعالى، فأوحى الله إلى نبيّه، قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقاً، وإنى لا أقبل من نفاقك شيئاً، قال فتخلّى وانفرد فى سرْب تحت الأرض، وقال قد بلغت محبة ربى، فأوحى الله عز وجل إلى النبى قل له إنك لم تبلغ رضاى، قال فدخل الأسواق، وخالط العامة وجالسهم، وأكل الطعام بينهم، ومشى فى الأسواق معهم، فأوحى الله تبارك وتعالى الآن بلَغْتَ رضاىّ. فلو أيقن البائس المتصنّع للخلْق، الأسير فى أيديهم، الرهين لنظرهم، أنّ الخلْق لا يُنقصون من رزق ولا يزيدون فى عُمر، ولا يرفعون عند الله ولا يضعون لديه، وأنّ هذا كله بيد الله عز وجل لا يملكه سواه، ولو سمع خطاب المولى لاستراح من جهد البلاء، إذ يقول الله عز وجل "**إن الذين تدْعُون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه**" مع قوله تعالى "**إنّ الذين تدْعُون من دون الله عباد أمثالكم**"، فلو عقل ذلك لاطّرح الخلْق عن قلبه، اشتغالاً بمُقلّبه، ولأعرض عن الناس بهمّة نظراً منه إلى مُهِّمه، وأظهر حاله وكشف أمره تقوّياً بربه، وغُنيةً بعمله، فلم يُبال أنْ يراه الناس على كل حال يراه فيه مولاه، إذ كان لا يعبد إلاّ إياّه، ولا يضره ولا ينفعه سواه، فعمل ما يصلحه وإنْ كان عند الناس يضعه، وسعى فيما يحتاج إليه وإنْ كان عند المولى يُزرى عليه، ولكن ضَعُفَ يقينه فقَوِىَ إلى الخلق نظره، وأحب أن يستتر عنهم خَبَره، لإثبات المنزلة عندهم، ولاستخراج الجاه لنفسه، فموّه بحالٍ على مَن لا حال له، ووَهَمَ بمقام عند مَن ليس له مقام،

واعتقدوا فضله بذلك لنقصهم، وتوهموا به علمه لجهلهم، ولو صدقوا الله لكان خيرا لهم. حدّثونا عن **يونس بن عبد الأعلى** قال قال لى **الشافعى** رضى الله عنه: والله ما أقول لك إلا نصحا، أنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل، فانظر ما يُصلحك فافعله. وحدثونا عن **الثورى** قال: رضا الناس غاية لا تُدرك، فأحمقُ الناس مَن طلب ما لا يدرَك. وقد قال **بعض الحكماء** فى معناه قولا منظوماً :

من راقب الناس مات غماً * وفاز باللذة الجسور

ونظر **أبو محمد سهل** إلى رجل من الفقراء فقال له اعمل كذا وكذا، فقال يا أستاذ لا أقدر على هذا لأجل الناس، فالتفت إلى أصحابه فقال لا ينال العبد حقيقةً من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين: عبدٌ يُسقط الناس عن عينه لا يرى فى الدار إلاّ هو وخالقه، وأنّ أحداً لا يقدر أنّ يضره ولا ينفعه، أو عبد أسقط الناس عن قلبه فلا يبالى بأى حال يرونه... وحدثونا عن إمام الأئمة **الحسن بن يسار البصرى** رحمه الله، أن رجلا قال له يا أبا سعيد، إنّ قوماً يحضرون مجلسك ليس بُغيتهم الفائدة منك ولا الأخذ عنك، إنما همّهم تتبع سقَط كلامك وتعنتك فى السؤال ليعيبوك بذلك، فتبّسم الحسن ثم قال هوّن عليك يا ابن أخى، فإنى حدّثت نفسى بسكنى الجنان فطمعت، وحدثت نفسى بمعانقة الحور الحسان فطمعت، وحدّثت نفسى بمجاورة الرحمن فطمعت، وما حدّثت نفسى قط بالسلامة من الناس، لأنى قد علمت أنّ خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم، فكيف أحدّث نفسى بالسلامة منهم؟ وبمعناه ما روى عن **موسى صلّى الله عليه وسلّم**، أنه قال: يارب احبس عنى ألسنة الناس، فقال الله تبارك وتعالى: يا موسى، هذا شىء لم أفعله بنفسى فكيف أفعله بك، وفى لفظ آخر: لو خَصَّصْتُ بهذا أحداً لخصصت به نفسى. وقد كان **أبو الدرداء** رضى الله عنه يقول ما من يوم أصبح فيه حيا وأمسى ولا يرمينى فيه الناس بداهية، إلاّ عددته نعمةً من الله تعالى علىّ، وأنشد :

وإن امرأ يُمسى ويُصبح سالماً * من الناس إلاّ ما جنا لسعيد

وقد جعل الله تبارك وتعالى فى المخالطة للمؤمنين من البركة ما لو لم يجىء فيه الأثر إلا هذا كان فيه كفاية. وروينا أن النبى **صلّى الله عليه وسلّم** كان يقول اسقونى من هذا الذى يشرب منه الناس، التمس بركة أيدى المسلمين. وروينا فى الخبر خير الأصحاب عند الله عز

وجل أرفقهم بصاحبه، وخير الجيران أرفقهم بجاره، وإياك أنْ تصحب جاهلاً فتجهل بصُحبته، أو غافلا عن مولاه متبّعا لهواه فيصدك عن سبيله فتردّى، كما قال سبحانه وتعالى "**فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون**"، فأول الاستقامة **صُحبة العلماء بالله عز وجل**، وقال تعالى "**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه**"، وقال تعالى "**فلا يصدّنك عنها من لا يؤمن بها واتّبع هواه فتردى**"، أى فتكون رَدِيّاً، وقيل فتهلك. وقال تعالى "**فأعْرِضْ عمّن تولّى عن ذكرنا**"، ففى دليله الإقبال بالصُحبة على من أقبل إلى ذِكْره تعالى، والإعراض عمّن أعرض عن وجهه، فلا تصحبَن إلاّ مقبلاً عليه كما قال الله عز وجل "**واتّبِعْ سبيل من أناب إلىّ**"، وإياك أنْ تصحب من الناس خمسة: المبتدع، والفاسق، والجاهل، والحريص على الدنيا، والكثير الغيبة للناس، فإنّ هؤلاء مفسدة للقلوب مَذهبة للأحوال، مَضَرّة فى الحال والمآل... وقد كان **سفيان الثورى** رحمه الله يقول: النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة. وقال **سعيد بن المسيب**: لا تنظروا إلى الظلمة فتَحبَط أعمالكم الصالحة. وقد كان **صعصعة بن صوحان** يقول : إذا لقيت المؤمن فخالطه مخالطة، وإذا لقيتَ المنافق فخالفه مخالفة. وقد قال أحسن الواصفين فى وصف أوليائه المتّقين "**وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**"، أى سلامةً، الألف بدل من الهاء لازدواج الكَلِم، والمعنى أى سلمنا من إثمكم وسلمتم من شرّنا، وقد كان **أبو الدرداء** يقول فى زمانه: كان الناس وَرَقاً لا شوك فيه، وهم اليوم شوك لا ورق فيه، إنْ ناقدتهم ناقدوك، وإنْ تركتهم لم يتركوك، فاقرضهم من عَرَضك ليوم فقرك. وكان يقول كل يوم أصبح لا يرمينى الناس فيه بداهية أعُدّه نعمةً من الله تعالى علىّ. وقال حكيم الحكماء **صلّى الله عليه وسلم** مَن خالط الناس وصبر على أذاهم أفضل ممن لم يخالطهم ولم يصبر على أذاهم. وقال العلاّم ذو الجلال والإكرام "**أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة**"، أى يدفعون بالكلام الحسن الكلام السيىء. وقال عز وجل فى الكلام المفسّر "**إدفع بالتى هى أحسن**"، يعنى بالكلمة الحسنى، "**فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم**"، ثم قال عز وجل "**وما يُلَقّاها**" يعنى الكلمة، "**إلاّ الذين صبروا**" أى على أمر الله تعالى وعلى الغيظ وعن الغضب، "**وما يُلقّاها إلاّ ذو حظ عظيم**"، أى من الحِلم والعِلم، وقيل ذو حظ عظيم عند الله عز وجل من النصيب والجزاء. وقد قال **لقمان الحكيم** قولاً متوسطا: يا بُنّى لا تكن حلواً فتُبلع، ولا مُرّاً فتُلفَظ. المعنى لا تمكّن الناس من نفسك، ولا تتابعهم فى كل شىء فلا يبقوا عليك وينبسطوا إليك، ولا تنافرهم

وتخالفهم في كل شيء فيجانبوك ويرفضوك فيقعوا فيك. وقال **بعض السلف:** لا تصحب إلاّ مريداً، وكل خليل لا يريد ما تريد فانبذْ عنك صُحبته. وقال **بعض علماء العرب:** الصاحب كالرقعة في الثوب، إنْ لم تكن من جنسه شانته. وقال بعض الحكماء : كل إنسان مع شكله كما أنّ كل طير مع جنسه. وقد كان **مالك ابن دينار** يقول مثل هذا، وقد لا يتفق اثنان في عِشْرة ودوام صُحبة إلاّ وفي أحدهما وصفٌ من الآخر، وإنّ أشكال الناس كأجناس الطير. قال ورأى يوما غراباً مع حمامة فعجب من ذلك وقال: كيف اتفقا وليسا من شكل. قال ثم طارا فإذا هما أعرجان، فقال: من ههنا اتفقا. يُقالُ إذا اصطحب اثنان برهة من الزمان ولم يتشاكلا في الحال، فلابد أنْ يفترقا. وقد أنشدنا بعض العرب لبعض الحكماء في معناه :

وقائــل لمــا تفرقتمــا ❊ فقلتُ قولاً فيه إنصاف

لم يكُ من شكلي ففــارقتهُ ❊ والناس أشكــال وإلاّف

وقد روينا في حديث أنّ الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. قيل معناه في المذهب والخلُق. وفي هذا الخبر زيادة -ولو أن مؤمناً دخل إلى مجلس فيه مائة منافق، وفيه مؤمن واحد، لجاء حتى يجلس إليه، ولو أنّ منافقاً دخل إلى مجلس فيه مائة مؤمن، وفيه منافق واحد، لجاء حتى يجلس إليه. وليس الائتلاف يقع بنفس الاجتماع ووقت الاتفاق، فإنما الائتلاف يكون بمجالسة الحال ومشاكلة الأخلاق، لأنهم شبّهوا أجناس الناس بأجناس الطير، وقد يتفق الطيران من جنسين، ويتجامعان في مكان، فلا يكون ذلك ائتلافا في الحقيقة، ولا اتفاقاً في الخُلُقية، لتباينهما في التشاكل. ولا يتبين ذلك في الاجتماع، وإنما يتبين في الطيران إذا كانا معاً، فأمّا إذا ارتفع أحدهما ووقع الآخر، وعلا أحدهما وقصّر الآخر، فلابد من افتراقٍ حينئذ لفقد التشاكل، ولابد من مباينةٍ لعدم التجانس عند الطيران، فهذا مثال ما ذكرناه من الافتراق لعدم حقيقة تشاكل الحال.

واعلم أنّ الائتلاف والاختلاف يقع بين اثنين إذا اشتركا وافترقا في **أربعة** معان: إذا استويا في **العقود**، واشتركا في **الحال**، وتقاربا في **العلم**، واتفقا في **الأخلاق**، فإنْ اجتمعا في هذه **الأربع** فهي التشاكل والتجانس، ومعه يكون الائتلاف والاتفاق. وإنْ اختلفا في جميعها فهو التباعد والتضاد، وعنده يكون التباين والافتراق. وإنْ اتفقا في بعضها واختلفا في البعض كان بعض الاتفاق وبعض الاختلاف، فيوجد من الائتلاف بمقدار ما وُجِد من

التعارف، ويوجد من الاختلاف نحو ما فُقد من الاتفاق، وهذا هو تناكر الأرواح لتباعد نشأتها وتشامّها في الهواء. وذلك الأول هو تعارف الأرواح بقرب التشامّ باجتماع الأوصاف.

وحدّثت عن **يعقوب** ابن أخي معروف رحمهما الله، قال جاء **الأسود بن سالم** إلى عمّي **معروف** وكان مؤاخياً له، فقال إن **بشر بن الحارث** رحمه الله يحب مؤاخاتك، وهو يستحي أنْ يشافهك بذلك، وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوّة يحتسبها ويَعْتَدّ بها، إلاّ أنه يشترط فيها شروطا: لا يحب أنْ يُشتهر بذلك، ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقاة فإنه يكره كثرة الالتقاء. فقال **معروف** رحمه الله: أما أنا فلو أحببت واحداً لم أحب أنْ أفارقه ليلاً ولا نهاراً، ولزرته في كل وقت، ولآثرته على نفسي في كل حالٌ. ثم ذكر من فضل الأخوّة والحب في الله عز وجل أحاديث كثيرة، ثم قال فيها: وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين **عليّ** عليه السلام، فشاركه في العلم، وقاسمه في البدن، وأنكحه أفضل بناته وأحبّهن إليه، وخصّه بذلك لمؤاخاته. وإني أشهدك أني قد عقدت له أخوّة بيني وبينه، وأعتقده أخاً في الله عز وجل لرسالته، ولمسألتك عليّ أنْ لا يزورني إنْ كره ذلك، ولكني أزوره متى أحببت، وآمره بلقائي في مواضع نلتقي فيها، وآمره أنْ لا يُخفي عليّ شيئاً من شأنه، وأن يُطلعني على جميع أحواله. قال فانصرف بذلك **أسود بن سالم** فأخبره **بشراً** فرضي بذلك وسُرّ به. فهذا **أسود بن سالم** أحد عقلاء الناس وفضلائهم فكان فيه اتساع للأصحاب وصبر عليهم، وهو الذي أشار **معروف** به على الرجل الذي سأله مستشيرا، فقال يا أبا محفوظ، هذان الرجلان إماما هذا البلد فأشرْ عليّ أيهما أصحب، فإني أريد أن أتأدّب به: **أحمد بن حنبل** أو **بشر بن الحارث** رضى الله عنهما. قال له **معروف** لا تصحب أحدهما، فإن **أحمد** صاحب حديث، وفي الحديث اشتغال بالناس، فإنْ صحبته ذهب ما تجد في قلبك من حلاوة الذكر وحب الخَلوة، وأما **بشر** فلا يتفرغ لك ولا يُقبل عليك شُغلاً بحاله، ولكن اصحب **أسوَد بن سالم** فإنه يصلح لك ويقبل عليك. ففعل الرجل ذلك فانتفع به، وإنمّا ضمّه **معروف** رضى الله عنه إلى **أسود** دونهما، لأنه كان أليق بحاله وأشبه بوصفه. وكذلك روينا في حديث المؤاخاة الذي آخى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، فآخى بين اثنين شكلين في العلم والحال، آخى بين **أبي بكر وعمر** وبين **عثمان وعبد الرحمن** وهما نظيران، وآخى بين **سلمان وأبي الدرداء** وهما شكلان في العلم والزهد، وآخى بين **عمّار وسعد** وكانا نظيرين، وآخى بين **عليّ وبينه** رضى الله عنهم أجمعين، وصلى الله على سيدنا

محمد وآله أجمعين، وهذا من أعلى فضائله، لأن عمله من علمه، وحاله من وصفه، ثم آخى بين **الغنى والفقير** ليعتدلا فى الحال، وليعود الغنى على أخيه الفقير بالمال.

وقال **أبو سليمان الدارانى لأحمد بن أبى الحوارى** إذا آخيت أحداً فى هذا الزمان، فلا تعاتبه على أمر تكرهه منه، فإنك لا تأمن أن يعنيك بشرّ من الأمر الأول. قال **أحمد** فجرّبته فوجدته كما قال. وقال **بعض العلماء:** الصبر على مضض الأخ خيرٌ من معاتبته، ومعاتبته خير من القطيعة، والقطيعة أحسن من الوقيعة. وقال **بعضهم:** كَدر الجماعة خيرٌ من صفو الفُرقة، ومثل الأخوّة مثل الزجاجة الرقيقة مالم تحفظها وتوّقها كانت معرّضة للآفات. واستتمام الإخاء إلى خير الوفاة أشد من ابتدائها فى حال الحياة. وقال **بعض الأدباء:** الناس أربعة: فواحد حلو كله فهذا لا يُشبَع منه، وآخر كله مُرّ وهذا لا يؤكل منه، وواحد فيه حموضة فخذ من هذا قبل أنْ يأخذ منك، وآخر فيه ملوحة فخذ منه إذا احتجت إليه. وقال **بعض الأئمة:** الناس أربعة: فاصحب ثلاثة ولا تصحب واحداً: رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فهذا عالم فاتّبعه، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فهذا نائم فنبهّوه، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فهذا جاهل فعلمّوه، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فهذا منافق فاجتنبوه. ومثل هذا الرابع قول **سهل:** ماعُصِى الله عزّ وجلّ بمعصية شرّ من الجهل، وأعظم من الجهل الجهل بالجهل. وقال **بعض الأدباء:** الناس ثلاثة، فاصحبْ رجلين واهرب من الثالث: رجل أعلم منك فاصحبه تتعلم منه، ورجل أنت أعلم منه يقبل منك فاصحبه تُعلّمه، ورجل معجب بنفسه لا علم عنده ولا تعلّم فاهرب من هذا. وكان **أبو مهران** يقول: أخرجُ من منزلى فأنا بين ثلاثة : إنْ لقيتُ مَن هو أعلم منى فهو يومٌ فائدتى أتعلّم منه، وإنْ لقيتُ من هو مثلى فهو يوم مذاكرتى، وإنْ لقيت من هو دونى فهو يوم مثوبتى، أعلّمه فاحتسب فيه الأجر. وقال **أبو جعفر محمد بن علّى** لابنه **جعفر بن محمد** عليهم السلام: لا تصحبنّ من الناس خمسة واصحب من شئت: **الكذّاب** فإنك منه على غرَر، وهو مثل السراب يقرّب منك البعيد ويبعّد منك القريب، **والأحمق** فإنك لست منه على شيء، يريد أن ينفعك فيضرك، **والبخيل** فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، **والجبان** فإنه يُسلمك وماله ونفسه عند الشدة، **والفاجر** فإنه يبيعك بأكلة أو بأقل منها.

واعلم أنّ الأخوّة فى الله عز وجل، والمحبة فى الله تعالى، وحُسن الصُحبة، كانت طرائق

السلف الصالح، قد درست اليوم محاجُّها وعفّت آثارها، فمن عمل بها فقد أحياها، ومَن أحياها كان له مثل أجر مَن عمل بها، فمن رزقه الله أخا صالحاتطمئن به نفسه ويصلح معه قلبه فهي نعمة من الله عز وجل مضافة إلى محاسن نِعَمِه، والحمد لله وحده وصلّى على سيدنا محمد وآله.

الفصل الرابع والأربعون

فيه ذكر التزويج وتركه أيهما أفضل، ومختصر أحكام النساء في ذلك

قال سبحانه وتعالى **وأنكحوا الأيامى منكم** الآية، فأمر المحتاجين وندبَ المعصومين، فالنكاح فرضٌ مع الحاجة، وسنّة على الكفاية، ثم وعدهم تعالى الغِنَى على الفقر، فالغِنَى على الغَنِيّ يجعله على نحو الفقر من الفقير، فقد يكون فقيراً من الزجر فيغنيه بالأجر، ويكون فقيراً من عدم الحكم فيغنيه بإيجاب الحكم عليه، ويكون فقيرا بالضيْعة والشتات وفقْد المنزل والأثاث فيغنيه بوجود ذلك. وأحكمه عز وجل بما عقبه من قوله تعالى وهو الحكيم "**والله واسع عليم**"، فهو واسع لغناهم عن معاني فقرهم عليهم بحالهم، وما يصلحهم فيما لا يعلمون على مقادير رتبهم. وروى **الحسن** عن **أبي سعيد** عن **النبي صلّى الله عليه وسلم** من ترك التزويج مخافة العيْلة فليس منا. وروينا عن **النبي صلى الله عليه وسلم** إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فانكحوه. الاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. وفي الخبر من نكح لله عز وجل وأنكح لله تبارك وتعالى استحق ولاية الله تعالى. وهذا أدنى حال تُنال به الولاية، لأنها مقامات، لكل مقام عمل من الصالحات. إلاّ أنّا روينا أنّ **بشر بن الحارث** قيل له إنّ الناس يتكلمون فيك، فقال وماعسى يقولون، قيل يقولون إنك تاركُ السنّة، يعنون النكاح، فقال قلّ لهم إني مشغولٌ بالفرض عن السنّة. وقال مرة ما يمنعني من ذلك إلاّ آية في كتاب الله تعالى قوله "**ولهن مثل الذي عليهن**"، ولعسى أن لا أقوم بذلك. وكان يقول لو كنت أعول دجاجة لخفتُ أنْ أكون جلاداً على الجسر. هذا يقوله في **سنة عشرين ومائتين**، والحلال والنساء أحمد عاقبةً، فكيف بوقتنا هذا؟ فالأفضل للمريد في مثل زماننا هذا ترك التزويج إذا أمنَ الفتنة ولم تنازعه نفسه إلى معصية، ولم تترادف خواطر النساء على قلبه فيتشتت همّه، أو تقطعه عن حُسن الإقبال على الخدمة من مسامرة الفكر ومحادثة النفس

بأمر النساء، وما لم يجمح بصره إلى محظور، ولم يخالط ذِكْره شهوة تستولى عليه، **لأن أول خطايا الفرج** شهوة القلب بمسامرة الفكر، **والخطيئة الثانية** إنعاظ الفرْج عن شهوة القلب، وقبْضُ الرجل على فرجه منعظا **معصيةٌ ثالثة**، فإنْ ظهرت الشهوة من الفرج فهو **معصية رابعة**، ومسّ الفرج باليمين مكروه. فمتى وقعت هذه المعانى فإنها تغيّر القلب عن الخشوع، وتُدخل عليه النقصان، ومتى لم يُبتَل العبد بها فإن الخَلْوة أفضل المعانى، وفيها يجد لذة الوجود وحلاوة المعاملة، فيُقبل على نفسه ويشتغل بحاله ولا يهتم بحال غيره، حتى لا يحمد حاله على حال غيره فيقصّر، أو يقوم بحكم آخر فيعجز، فيعالج شيطاناً آخر مع شيطانه، وتنضمّ نفس أخرى إلى نفسه، وله فى مجاهدة نفسه ومصابرة هواه وعدوّه أكبر الأشغال. ومنها أن المكاسب قد فسدت فليس يُنال أكثرها إلاّ بمعصية، وهو مسؤل من أين اكتسبه وفيم أنفقه، فإنْ كان كُسِب من غير حِلّه حُسِب ذلك عليه، وإنْ أنفق على هواه لم يُحسَب ذلك له. ومنها أنّ أكثر النساء قليلات الدين والصلاح، والأغلب عليهن الجهل والهوى، فلا يأمن أنْ ينقاد لهن لأجل هواه فيخسر آخرته، أو يمانعهن فيغالطهن فلا ينقدن له، فيتنغص عليه عيش دنياه. وقال **الحسن** رحمه الله: والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوىَ إلاّ أكبّه الله فى النار... ومنها أنّ الأغنياء فى مقام الظالمين للفقراء، لبخس حقوقهم عنهم، وتقصيرهم عما أوجب الله عز وجل عليهم لهم، فإنْ كان المتأهل فقيراً لقى شدة وجهداً وعنتاً وكدأ، ولم يأمن دخول الآفات عليه لأجل عيْلته. وقد سئل **ابن عمر** رضى الله عنه عن جهد البلاء، فقال كثرة العيال وقلة المال. وقال بعض السلف قلة العيال أحد اليساريْن، وكثرة العيال أحد الفقريْن. ويقال إنّ العيال عقبوية شهوة الحلال، وأنّ الحرص عقوبة طلب فوق الكفاية، فهو عقوبة الموَحدين. وقد جاء فى الأثر الوحدة خيرٌ من قرين السوء، وهو من القرين الصالح على غير يقين، فلا يزال اليقين بالشك، فإن أكثر النساء مَن لا صلاح فيه ، لغلبة الهوى وحب الدنيا عليهن. وفى الخبر مَثّل المرأة الصالحة فى النساء، كمثل الغراب الأعصم من مائة غراب، يعنى الأبيض البطن. وفى وصية **لقمان** لابنه: يابنى اتق المرأة السوء، فإنها تشيّبك قبل المشيب، واتق شرار النساء فإنهن لا يدعون إلى خير، وكن من خيارهن على حذر... وفى الخبر عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** ما أفلح قوم تملكهم امرأة. وقال الله تعالى مخبراً بعداوة بعض الأزواج والأولاد "**إنّ من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم**"، يعنى فى الآخرة لانحطاطكم فى أهوائهم وميلكم إلى وَهَن آرائهن، فصاروا عدواً غداً، فكيف وقد تكون المرأة

والولد أعدى عدو للرجل اليوم قبل يوم القيامة، إذا خالفهم فى أهوائهم، وعمل بالعلم في أحوالهم، وقد كان إبراهيم بن أدهم يقول من تعوّد أفخاذ النساء لم يفلح.

فالوحدة أروح للقلب وأقل للهمّ، لخفة المؤنة وقلة المطالبة وأمْن المنازعة، وسقوط حكم من أحكام الشرع عنه. وقد كان السلف يعملون فى إسقاط الحكم عنهم للعجز عن القيام بها ويغتنمون ذلك. وفى التخلّى قلة الاهتمام بالادخار والجمع، وترك المراعاة والتحفظ للمبيت فى البيت، وسقوط المساءلة والاستخبار، وترك التجسس للآثار التى نهى الله ورسوله عنها، إذ لا يأمن ذلك مع الزوجة السوء. وإنما زهد الزاهدون فى الدنيا لراحة القلب واطّراح الهمّ وسقوط المطالبة.

وقد أبيحت العُزْبة وفُضّل التعزّب لهذه الأمة فى آخر الزمان، وفى خبر إذا كان بعد المائتين أبيحت العُزْبة لأمتى، ولأن يُربّى أحدكم جرو كلب خيرٌ من أن يربى ولداً. والخبر المشهور خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذّ الذى لا أهل له ولا ولد. وفى خبر آخر يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يدىّ زوجته وأبويه وولده، يعيّرونه بالفقر ويحمّلونه مالا يطيق فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك. وربما كانت المرأة عقوبة للعبد. وقد حدثونا فى أخبار الأنبياء عليهم السلام أن قوما دخلوا على **يونس عليه السلام** فأضافهم، وكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت، فعجبوا من ذلك وهابوا أن يسألوه، فقال لا تعجبوا من هذا فإنى سألت الله عز وجل، فقلت يارب ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجّله لى فى الدنيا، فقال إنّ عقوبتك ابنة فلان فتزوّج بها، فتزوّجت بها وأنا صابر على ماترون منها.

وهذا كله لمن لم يخش العنَت. فأمّا مَن خاف العنت وهو الزنا، (وأصل العنَت فى اللغة هو الكسر بعد جبر، يقال للدابة إذا كُسرت بعد ما جُبرت قد عنتت، فكأنه كان مجبوراً بالعصمة وبالتوبة ثم كُسِر بالزلل أو العادة السوداء)، فنكاح الأمَة حينئذ خيرٌ له من العنَت، والصبر عن نكاح الأمَة خير من نكاحها، أو هذا معنى قوله عز وجل فى نكاح الأمَة "**ذلك لمن خشى العنت منكم**". وكذلك إنْ كثرت الخواطر الردّية والوساوس الدنيّة فى قلبه بذكر النكاح، فشغله ذلك عن فرضه أو شتّت ذلك همّه، فإنّ نكاح الأمَة أيضا خيرٌ له. على أن نكاح الأمة محرّم على من وجد طولاً بحرّة. وروى أن الناس انصرفوا ذات يوم من مجلس **ابن عباس**

وبقى شاب لم يبرح فأطال القعود، فقال له **ابن عباس** هل لك من حاجة ؟ فقال نعم لى حاجة استحييت أنْ أسألك عنها بحضرة الملأ، قال سلنى عما شئت، قال إنى أهابك وأجلّك، فقال **ابن عباس** إنما العالم بمنزلة الوالد، لا حشمة على السائل منه، فمهما أفضيتَ به إلى أبيك فأفضِ به إلىّ فإنه لا عيب عليك عندى، فقال رحمك الله إنى شاب لا زوجة لى، وربما خشيت العنَتَ على نفسى، وربما استمنيت بذَكَرى، فهل لى فى ذلك معصية ؟ فأعرض عنه **ابن عباس** رضى الله عنهما ثم قال: أفٍّ وتُفٍّ، نكاح الأمَة خيرٌ من هذا، وهذا (أى الاستمناء) خيرٌ من الزنا.

ونكاح **الأمة** عند **علماء العراق** حرامٌ على من وجد عشرة دراهم، وعند **بعض علماء الحجاز** إذا كان واجداً ثلاثة دراهم لم يحلّ له نكاح الأمة. وعن **بعض أصحاب ابن المسيّب** إنْ وَجَد الرجل درهمين حُرِم عليه الأمة. وقال بعض الناس: أحمق الناس حرٌ تزوّج بأمة، وأعقل الناس عبدٌ تزوّج بحرة، لأن هذا يعتق بعضه، وذلك يرقّ بعضه، لأنه يرقّ ولده.

وقد جاء فى كراهة **الاستمناء** وتحريمه والتغليظ فيه أخبار شديدة. روينا أن الله عز وجل أهلك أمة من الأمم كانوا يعبثون بمذا كيرهم. وقد أسنده **إسماعيل بن أبان** عن **أنس بن مالك**.

وسئل **أبو محمد** عن **النساء** فقال الصبر عنهن ولا الصبر عليهن. والصبر عليهن خير من الصبر على النار. وكذلك قال بعض العلماء قبله معالجة العُزْبة خير من معالجة النساء. وقال بعض علمائنا البصريين من أهل الورع واليقين وقد سئل عن التزويج فى مثل زماننا، فذكر ضيق المكاسب، وقلّة الحلال، وكثرة فساد النساء، فكرّهه للورع، وأمره بالمدافعة، فأعيد عليه فى ذلك، فقال إنه يدخل فى المعاصى لدخول الإنسان فى الآفات وفى المكاسب المحرمات، ومن أكْله بدينه، وتصنّعه للخلق، فلا يصلح التزويج فى هذا الوقت، إلاّ لرجل يدركه من الشبق ما يدرك الحمار إذا نظر إلى أتان، لم يملك نفسه أنْ يثب عليها حتى يُضرب رأسه وهو لا ينثنى، فإن كان الإنسان على مثل هذا الوصف كان التزويج له أفضل. وقد روينا عن **قتادة** فى قوله عز وجل "**ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**"، قال الغُلمة. وعن **عكرمة ومجاهد** رضى الله عنهما "**وخُلق الإنسان ضعيفا**"، قال لا يصبر عن النساء. وروينا عن **فياض بن نجيح** إذا قام ذَكَر الرجل ذهب ثلثا عقله، وبعضهم يقول ذهب ثلث دينه. وروينا فى نوادر التفسير

عن ابن عباس "ومن شرّ غاسقٍ إذا وقب"، قال قيام الذكَر. وقد أسنده بعض الرواة إلا أنه قال فيه الذكّر إذا دخل ولم يذكر قام. وفي الخبر إذا تزوّج الرجل فقد أحرز نصف دينه، فليتق الله في الشطر الآخر. وفي دعاء البراء بن عازب أعوذ بك من شرّ سمعي وبصري، وقلبي ومنيي. فكان المنيّ إذا امتلأ به خَرَزُ الصلب طلب الخروج، فخيف منه فساد القلب أو مرضه بمنزلة الدم إذا كان في العروق، فإذا تصاعد من القلب طبخه وغيّره فابيّض وصار منياً بإذن الله عز وجل.

وذُكرتْ النساء في مجلس معاوية فذمّهن قوم، فقال لا تفعلوا، فما علّل المريض، ولا ندب الميت، ولا عمّر البيوت مثلهن، ولا احتاجت الرجال إلى مثلهن. وفي بعض التفسير قال "إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها"، قال النساء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال لا يتم نُسك الشاب حتى يتزوّج. وكان يجمع غلمانه لما أدركوا فيقول إن أردتم النكاح أنكحتكم، فإنّ العبد إذا زنا نُزع نور الإيمان من قلبه. وقد قال عمر رضي الله عنه لأبي الزوائد ما يمنعك من النكاح إلاّ عَجْز أو فجور. وحدثنا بعض علماء خراسان عن شيخ له من الصالحين كان يصحب عبدان صاحب ابن المبارك ووصف من صلاحه وعلمه ، قال فكان يكثر التزويج حتى لم يكن يخلو من اثنتين أو ثلاثة، فعوتب في ذلك، فقال هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدّي الله عز وجل مجلسا، أو وقف بين يدّي الله موقفا في معاملته، فخطر على قلبه خاطر شهوة وأفكر في ذلك؟ فقيل قد يصيبنا هذا كثيراً، فقال لو رضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد لما تزوّجت، ثم قال لكني ما خطر على قلبي خاطر شغلني عن حالي إلا نفّذته لأستريح منه وأرجع إلى شُغلي. ثم قال منذ أربعين سنة ما خطر على قلبي خاطر معصية...

وسمع بعض العلماء بعض الجهّال يطعن على الصوفية فقال ياهذا ما الذي نقصهم عندك، فقال يأكلون كثيرا، فقال وأنت أيضا لو جعت كما يجوعون لأكلت كما يأكلون، ثم قال ويتزوّجون كثيرا، فقال وأنت أيضا لو حفظت فرْجك كما يحفظون لتزوّجتَ كما يتزوّجون.

وقد سئل بعض العلماء عن القُرّاء لِمَ يكثرون الأكل ويكثرون الجماع وتعجبهم الحلاوة؟ فقال لأنه يطول جوعهم ويتعذر عليهم موجود الطعام، فإذا وجدوا استكثروا منه، وأما الحلاوة، فإنهم تركوا شرب الخمر وكثرة لذّات النفوس فاجتمعت لذتهم في الحلاوة، وأما الجماع فإنهم غضّوا أبصارهم في الظاهر فضيّقوا على قلوبهم في الخواطر ، فاتسعوا في

النكاح، فأكثروا منه لمّا ضيّقوا على جوارحهم عن الانتشار فى الإبصار... وقد كان **الجنيد** رحمة الله يقول احتاجُ إلى **الجماع** كما احتاج إلى القوت. وكان **ابن عمرو** رضى الله عنه من زهّاد أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وعلمائهم، وكان يصوم كثيرا، وكان يفطر على **الجماع** قبل الأكل ، وربما جامع قبل أنْ يصلى المغرب، ثم يغتسل ويصلى. وروينا عنه أنه جامع أربعاً من جواريه فى رمضان قبل صلاة عشاء الآخرة، وقد كان **ابن عباس** رضى الله عنه يقول خير هذه الأمة أكثرها نكاحا. وكان **سفيان بن عيينة** يقول كثرة النساء ليست من الدنيا ، لأن **علياً** رضى الله تعالى عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له **أربع نسوة وسبعة عشر سرية** ... فالنكاح سنّة ماضية وخُلُق من أخلاق الأنبياء صلوات الله عليهم . وقد روينافى أخبار الأنبياء أن **يحيى بن زكريا عليهما السلام** تزوج امرأة ولم يكن يقربها ، قيل لغضّ البصر ، وقيل للفضل فى ذلك كأنه أراد أن يجمع الفضائل كلها، وقيل للسنّة . وكان **بشر بن الحارث** رحمة الله يعتقد **أحمد بن حنبل** رحمه الله، ويقول ُفضّل علىّ بثلاث: بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلب الحلال لنفسى ، واتساعه للنكاح وضيقى عنه ، وقد جُعل إماماً للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى. ويقال إن **أحمد بن حنبل** رضى الله عنه تزوج اليوم الثانى من وفاة أم عبد الله ولده، ويقال إنه لم يبت عزباً بعد وفاتها إلا ليلة. وأمّا **بشر** رحمه الله فقد كان يحتّج لنفسه بحُجة ، قيل له إن الناس يتكلمون فيك، فقال وما عسى أن يقولوا ، قال يقولون هو تارك للسنّة فى ترك النكاح ، فقال قل لهم هو مشغول بالفرض عن السنة. وعوتب مرة أخرى فى ترك التزوج ، فقال ما يمنعنى من ذلك إلا حرْف فى كتاب الله عز وجل« **ولهن مثل الذى عليهن** »، قال فذُكر ذلك ذلك **لأحمد بن حنبل** فقال وأين مثل **بشر**؟ إنه قعد على مثل حد السنان ... وعلى ذلك فقد بلغنا أنه رحمه الله رؤى فى المنام بعد وفاته فسُئل عن حاله ، فقال رُفعت سبعين درجة فى علّيين ، وأشرف بى على مقامات الأنبياء ولم أبلغ منزل المتأهّلين . وبلغنا عنه أنه قال وعاتبنى ربى عز وجل ، وقال يابشر ماكنت أحبُ أن تلقانى عَزّبا... قال فقلت له ما فعل **أبو نصر التمار**؟ فقال رُفع فوقى سبعين درجة ، فقلنا بماذا وقد كنا نراك فوقه؟ فقال بصبره على بناته والعيال. وقد كان **ابن مسعود** يقول لو لم يبق من عمرى إلاّ عشرة أيام أموت فى آخرها، لأحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عز وجل وأنا أعزب . وماتت امرأة **معاذ بن جبل** رضى الله عنه فى الطاعون، وكان هو أيضا مطعونا فقال ، زوجونى فإنى أكره أن ألقى الله عز وجل عزّبا.

وقد كان بعض الصحابة انقطع إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم يخدمه ويبيت عنده لحاجة إنْ طرقته، فقال له ألا تتزوج؟ فقال يا رسول الله أنا فقير لاشئ لى، وأنقطع عن خدمتك؟ فسكت عنه ثم أعاد عليه ثانية ألا تتزوج ؟ فقال له مثل ذلك، ثم تذكّر الصحابيّ فى نفسه فقال والله لَرسول الله أعلم بما يصلح فى دنياى وآخرتى ، وما يقرّبنى إلى الله عز وجل منى ، لئن قال لى الثالثة لأفعلن. فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلم ألا تتزوج؟ قال فقلت يا رسول الله زوّجنى! قال اذهب إلى بنى فلان، فقل لهم إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم يأمركم أن تُنكحونى فتاتكم، قال فقلت يا رسول الله إنه لا شئ لى، فقال لأصحابه اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب، فجمعوا له، وذهب إلى القوم فأنكحوه ، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلم أوْلِمْ، فقال يا رسول الله لا شئ عندى، فقال لأصحابه اجمعوا لأخيكم ثمن شاة، فجمعوا له ، وأصلح طعاما ، ودعا عليه رسول الله صلى الله وأصحابه .

وفى الخبر المشهور من كان ذا طَوْل فليتزوج ، وفى لفظ آخر من استطاع منكم الباءة ، يعنى الجماع، فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لا فليصم فإنّ الصوم له وِجاء (وأصل **الوجاء** رضّ الخصيتين للفحل من الغنم لتذهب فحُولته وضِرابه، فكانت العرب تجأ بحجرين فتقطع ضرابه فيسكن لذلك عُهره ويسمن).

وروينا عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة ، حتى بالسُقْط والرضيع. وفى الخبر الآخر من أحبنى فليستنْ بسنتى ، يعنى النكاح . وحديث **أبى سعيد الخدرى** من ترك النكاح مخافة العيْلة فليس منا.

وقد كان **عمر** يكثر النكاح ويقول ما أتزوج إلا لأجل الولد. وقد كانت نية جماعة من السلف يتزوجون لأجل أنْ يولد لهم ، فيعيش فيوحّد الله تعالى ويذكره، أو يموت فيكون فرْطاً صالحا يثقّل به ميزانه . كيف وقد روينا عن **رسول الله صلّى الله عليه** وسلم أن الطفل يجرّ أبويه بسَرَره إلى الجنة، وأنّ المولود يقال له ادخل الجنة، قال فيقف على باب الجنة فيظل محبنطئاً (أى ممتلئا غيظاً وغضباً) ، فيقول لا أدخلُ إلا وأبواى معى، فيقال أدخلوا أبويه معه الجنة.وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** من مات له اثنان من الولد فقد احتُظر له بحِظَار من النار . وفى خبر آخر من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنْث أدخله الله عز وجل الجنة بفضل رحمته إياهم ، قيل يا رسول الله فاثنان، قال واثنان.

وروينا عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** خير نسائكم الودود الولود. وروى أيضا حصيرة فى البيت خير من امرأة لا تلد . وروى أيضا سوداء ولود خير من حسناء لا تلد . وروينا عن رسول الله صلىّ الله عليه وسلم من رغب عن سنتى فليس منى ، وإن من سُنّتى النكاح ، ومن أحبنى فليستنّ بسنّتى .

ويقال إن اللّه تعالى لم يذكر فى كتابه من الأنبياء إلاّ المتأهّلين وهم **خمس وثلاثون**.. وقد قيل إنّ فضل المتأهل على العزّب كفضل المجاهد على القاعد، وإن ركعتين من متأهل أفضل من سبعين ركعه من أعزب ، وقال اللّه تعالى فى وصف الرسل ومدحهم «**ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية** »، فعدّ الأزواج والذرية من مدحهم .وكذلك ألحق بهم أولياءه فى المدح والفضل فى قوله عز وجل« **والذين يقولون ربنا هبْ لنا من أزواجنا وذريتنا قُرة أعين**».

وكل ما ذكرناه من فضل النكاح يشترك فى فضل ذلك **النساء**، بل هو لهن أفضل وأثوب لسقوط المكاسب عنهن. وقد أمر النبى صلى اللّه عليه وسلم المرأة بالتزوج ، وندَبها إليه، وأخبر بفضل الرجل وفضل المتزوجة على العزباء فى غير حديث، وقال **صلّى اللّه عله وسلم** لعن اللّه المتبتلين من الرجال الذين يقولون لا نتزوج. لعن اللّه المتبتلات من النساء اللاتى يقلن لا نتزوج. والأخبار فى فضل النكاح للزوجين معا أكثر، وليس مذهبنا الإطالة والإكثار فى الجمع. وقد ندب اللّه تعالى إلى النكاح فى قوله تعالى« **فأتوا حرثكم أنّى شئتم**»، بمعنى كيف شئتم من ليل أو نهار ، فكيف شئتم مقبلة أو مدبرة ، وبينّ ذلك بعد أن يكون فى موضع الحدَث، ثم قال عز وجل« **وقدّموا لأنفسكم** »، قيل النكاح معطوف به الإتيان، لما فيه من فضل الاغتسال من الجنابة، ولماَ فيه من فضل مباشرة المرأة، وأنّ المرأة إذا لاعبها بَعلُها وقبّلها كثُرت له الحسنات، ولما فى ذلك من التحصين لهما ووضع النطفة فى محلها، وفى ذلك فضائل جمّة، وقد أمر به **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** فى قوله ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولسانا ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينُه على آخرته. **والوجه الثانى** فى قوله تعالى «**وقدّموا لأنفسكم** »، قيل الولد، قدّموا لآخرتكم لأنه عمل من أعمالكم ، كما قال عز وجل «**ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء**»، أى ما نقصناهم أولادهم، أى جازيناهم بهم وجعلناهم مزيدا فى حسناتهم، لأنهم من أعمالهم وأكسابهم. وكما قال عز

وجل «**ما أغنى ماله وماكسب**». يعنى ولده، ففى تدبره أنّ الولد يُغنى المؤمن فى الآخرة كما يغنى المال عنه إذا أنفقه فى سبيل الله تعالى. وفى الخبر ولَد الرجل من كسْبه فأحلّ ما أكل من كسب ولده. **والوجه الثالث فى** قوله عز وجل« **وقدّموا لأنفسكم**»، قيل التسمية عند الجماع، أى اذكروا اسم الله تعالى عنده، فذلك تقدمةٌ لكم، وأنه يُستَحب للمجامع أن يسمّى الله عز وجل عند جِماعه، ويقرأ« **قل هو الله أحد**» قبله. وكان بعض أصحاب الحديث إذا أراد الجماع هلّل وكبّر حتى يسمع أهل الدار تكبيره.

وإذا كانت المرأة معينة لزوجها على الطاعة، طالبةً للتقلل والقناعة، فهى نعمة من الله عليه يطالبه بشكرها، قال الله عز وجل« **وأصلحنا له زوجه**»، فعدّ ذلك من نعمة الله عليه وإحسانه إليه. وروينا عن نبينا **صلّى الله عليه وسلم** فُضّلتُ على **آدم** عليه السلام بخصلتين، كانت له زوجة عوناً على المعصية وأزواجى عوناً لى على الطاعة، وكان شيطانه كافراً وشيطانى مسلماً لا يأمرنى إلاّ بخير، فعدّ ذلك صلّى الله عليه وسلم فى فضائله.

وإذا كانت المرأة حسنة الوجه، خيّرة الأخلاق، سوداء الحدقة والشعر، كبيرة العين، بيضاء اللون، محبة لزوجها، قاصرة الطرف، فهذه على صورة الحور العين، قال الله تعالى فى ذلك «**فيهن خيّرات حسان**»، قيل خيّرات الأخلاق ، حِسان الوجوه. وقال تعالى« **حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون**»، والحور البيض، والعِين كبار الأعين هو جمع عيناء، والحوراء هى البيضاء شديدة بياض العين شديدة سوادها وسواد الشعر. وقال عز وجل« **عُرباً** »، العَربة على معنيين، تكون العاشقة لزوجها وتكون المشتهية للجماع، وذلك يكون من تمام اللذة فى الوقاع، لأن المرأة إذا لم تكن محبة لزوجها ولا مشتهية لإفضائه إليها نقص ذلك من لذته، فلذلك وصف الله عز وجل نساء أهل الجنة بتمام اللذة. ويقال رجل شبق وامرأة عُربة، يوصفان بشهوة الجماع، كيف وقد روى خير نسائكم الغَلِمة على زوجها، وقال بعض الحكماء ثلاث من اللذات لا يؤبه لهن:المشى فى الصيف بلا سراويل ، والتبرز على الشط، ومجامعة الرّبوخ، يعنى المشتهية للجماع. وقال عز وجل فى تمام وصفهن« **قاصرات الطرف**»، أى قد قصر طرفها على زوجها وحده فليست ترى أحسن منه ولا تريد بدلاً غيره. وقال **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** خير نسائكم التى إذا نظر إليها الرجل سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته فى نفسه وماله. وروينا عن **محمد بن كعب القرظى**

رضى الله عنه فى معنى قوله عز وجل "ربنا آتنا فى الدنيا حسنة"، قال المرأة الصالحة ليست من الدنيا لأنها تُفرغك للآخرة، إلاّ أنه كان يقول المنفرد يجد من حلاوة العبادة مالا يجد المتزوج. وكان **عمر بن الخطّاب** رضى الله تعالى عنه يقول ما أعُطى عبد بعد إيمان بالله عز وجل خيراً من امرأة صالحة. ووصف النساء فقال منهن غُنْمٌ لا يُجْزأ منه، يعنى غنيمة لا يُعتاض منها ، ومنهن غُلٌ لا يُفدى منه، أى لا قيمة له فيفدى منها، ويجوز أن لا راحة منه كالغل، فصاحبها أسير بحبها لا يُفتدّى أبداً إلا بموتها. وقيل كانت العرب من نهاية تعذيبها للأسير تسلخ جلد الشاة ثم تلبسه إياه لحما طريا، فيلتزق على جسده وينقّبض ، ثم لا تنزعه عنه حتى يقمل وينتشر منه الهوام ، فذلك الغل مثل المكّربة.

واعلم أن النساء على أوصاف النفس، فمن عرّف صفات النفس عَرف بها أوصاف النساء وقاساهن بالتجربة . والخَبّر عرف بذلك صفات النفس، فمنهن المسوّلة وهى أدناهن، ومنهن الأمّارة بالسوء وهى شرّهن، لا تستر من الأذى ولا تنى عن خُلق السوء والبذاء، ومنهن بمنزلة النفس اللوّامة وهى من صالحى النساء، ومنهن المطمئنة المرضّية، وهذه هى الصالحة الخيّرة الساكنة الراضية.

وفصل الخطاب إنْ كان صلاح قلب العبد واستقامة حاله فى العُزْبة فلا أعدل بالوحدة شيأ، لأن أقل مافيها السلامة ، والسلامة فى وقتناهذا فضيلة وغنيمة. وإنْ تاقت نفسه إلى التزويج ولم يأمن دواعى الهوى فيتزوج إذا أدّى إلى سلامة دينه، وإنْ لم تتم كفايته بواحدة ضم إليها أخرى، فإنْ لم تكن بهما غنيمته وتمام حاله وتحصينه زاد ثالثة إلى أربع، فإنّ الأربعة مع توقان النفس إلى النكاح وقوة شهوتها فى التنقل فى المناكح بمنزلة الواحدة. وإنّ الواحدة مع وقوع الكفاية ووجود الاستغناء تنوب عن الأربع. ويقال إن الله عز وجل أباح الجمع بين الأربع لأجل الطبائع الأربع، لكل طبيعة واحدة على قدر حركاتها وتوقان النفس عندها، ولا نقص على العبد فى ذلك إذا قام بما عليه لهن أو سمحن بحقوقهن من النفقة والمبيت له، بل ذلك مزيد له ودلالة على قوته وتمكّنه فى الحال، وهذه طرائق الأقوياء والأئمة من الرجال. وأيضا فإنّ الله عز وجل ما أنعم به من امتطاء الأربع من النساء من الحكمة وتلوين الطبع فى الصنعة مثل ما أنعم به من تكوين سيرة المطايا التى جعلهن مراكب عباده، فجعل تفاوت تكوين وطء الأربعة بمنزلة تغاير مشّىّ دواب البرّ الأربعة، فقال عز وجل «**والخيل**

والبغال والحمير لتركبوها وزينة»، وقال عز وجل« **من الفلك والأنعام ما تركبون** »، يعنى الإبل، فسيْر الناقة غير سير الفَرَس، وسير البغل مخالف لمشى الحمار. وكذلك جعل لمن جمع الأربع بالوطء مالا يجعل بالآحاد والمثنى والثلاث، فحسّن ذلك وأباحه لمن جمع بينهن أربعاً، كإطلاقه لمن جعل له من المطايا أربعة، ينتقل على دابة بعد دابة، فكان له فرس وبغل وحمار إذا اتسع بذلك وأقام بمؤنتهن، وقد يكتفى الواحد بدابة واحدة فيكون فيها بلاغ إلى حين، ذلك تقدير العزيز العليم واتقان صُنع المُنعم الحكيم.

وقد شرط الله تعالى مع الزوجة **ثلاثة شروط**، إنْ وجُدت تمّت بهن كفاية العبد وسكنت بها نفسه، وكان ذلك من آيات الله الدّالة عليه، وإنْ لم توجد الشروط الثلاثة مع الإحدى كان له المزيد عليها إلى الرُباع، وكُنّ فى المعنى كالآحاد، لعدم الشروط التى أخبر الله عز وجل بسكون النفس عندها ، وعند الأربع توجد الشروط فى قلوب المؤمنين لا محالة كما أخبر عز وجل، وكان ذلك أيضا من آياته وحكمته الدّالة عليه. فقال سبحانه« **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**»، فإنْ وجد العبد سكون النفس ورحمة القلب ومودّة المرأة فى الواحدة فهو من آيات الله عز وجل ، وهى كفايته وغُنيته، وإن لم يجد السكون ولا الرحمة ولا المودة إلاّ فى الأربع فهن حينئذ كفايته وقُنْيته، والله تبارك وتعالى يُغنى بالواحدة ويُقْنى بالأربع، وذلك أيضا من آيات الله تعالى واختياره لمن قوى عليه واستقام به، وقد شبّه بعض الناس الأزواج بالقُمُص، فقال ليس من السَرَف أنْ يجمع الرجل أربعة أقمصة، ومازاد على ذلك كان سرفاً. كما أنّ الله عز وجل أمر بالجمع بين الأربع من النساء ويصلُح أنْ يُستدل له بقوله تعالى «**هن لباس لكم**» فجعلهن فى معنى الملبوس، ورفع فيهن إلى الأربع فى قوله تعالى« **فانكحوا ماطاب لكم من النساء**» ، ثم ابتدأ فنصّ على مثنى ولم يقل إحدى على الندب والاستحباب للجمع بين اثنين، وأنّ العدل قد يوجد ويُقْدَر عليه معهما، ثم ردّ إلى الواحدة لمن خاف الجوْر فيهن ، فقال تعالى «**فإن خفتم أنْ لا تعدلوا فواحدة**» ، ففى دليل الخطاب **اشتراط العدل فى الأربع**، ثم ذكره بقوله «**ذلك أدنى أنْ لا تعولوا**» ، يعنى أقرب أنْ لا تجوروا. وقد قال بعض الفقهاء من أهل الحجاز واللغة **لا تعولوا** أى لا تكثر عيالكم، والأول أحب إلىّ لأنه أشبه بالقرآن، ويصلح هذا الوجه أيضا فى اللغة مَن قال عال يعول ، بمعنى أعال يعيل، وأكثر العرب فرّقت بين ذلك، يقولون عال يعول إذا جار، وأعال يُعيل من العيْلة إذا كثر عياله، وشاذ نادر من يجعلها لغتين

بمعنى فليتوخ العدل بين أزواجه مّن جمع بينهن في النفقة والكسوة والمبيت ، ولا يحيف على بعض فيقصِّر عن كفايتها وواجبها فى ذلك، فقد جاء فى **الحديث** من كانت له امرأتان فمال إلى إحداها دون الأخرى، وفى لفظ آخر فلم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وأحد شقّيه مائل. ولا عدل عليه فى المحبة والجماع ، لأن ذلك لا يملّك إذا سوّى بين البيتوتة. ولا عليه أيضا أنْ يجامع من بات عندها، إنما عليه المبيت ليلة وليلة. وفى تفسير قوله تعالى« **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم**» ، قال لا تقدروا على العدل بينهن فى الحبّ والجماع، لأن ذلك فعل الله عز وجل فى القلوب وفى شهوة النفس. وروينا عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** أنه كان يقسم بين نسائه فى العطاء والمبيت، وكان يقول: اللهّم هذا جهدى فيما أملك ، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك. يعنى فى المحبة والجماع، فقد كان يحب بعضهن أكثر من بعض، وكانت **عائشة** رضى الله عنها أحبهن، وكان يطاف به محمولاً فى مرضه فى كل يوم وليلة، فيقول أين أنا غداً، ففطنت امرأة منهن فقالت إنما يسأل عن يوم **عائشة** رضى الله عنها، فقلن يارسول الله إنه ليّشق عليك أنْ تُحمل ، فقد أذنّا لك أن تكون فى بيت **عائشة** رضى الله عنها، فقال قد رضيتن بذلك، قلن نعم، قال فحولونى إلى بيت **عائشة**، فلذلك كانت تقول قُبض فى بيتى وبين سَحرى ونَحرى، وتفتخر بذلك. ثم قال الله عز وجل« **فلا تميلوا كل الميل**» يعنى على واحدة دون الأخرى فى التقصير والنفقة،« **فتذروها كالمعلّقة**» أى موقوفة غير مستقرة كأنها لا ذات زوج ولا مطلقة، أى لا أيّم فتتحمل لنفسها، ولا ذات زوج يُنفق عليها فتستغنى بزوجها. والعرب تقول علّقتُ الأمر إذا أوقفتهُ ، وقول مُعلّق أى موقوف غير مطلق بحكم، فعليه أن يقسم بينهن أيامه ولياليه فيكون عند كل واحدة يوماً وليلة، إلاّ أن تهب لصاحبتها ليلتها أو تسمح له بذلك، فكذلك كان **رسول الله صلّى الله عله وسلم** يقسم بين نسائه، فأراد أنْ يطلّق **سودة بنت زمعة** لّما كبرت، فوهبت ليلتها لعائشة، وسألته أن يقرّها على الزوجية لتُحشَر فى نسائه، فتركها ولم يكن يقسم لها، فكان يقسم لعائشة ليلتين ولسائر أزواجه ليلة ليلة، إلاّ أنه صلّى الله عليه وسلم لشدة عدله كانت نفسه إذا تاقت إلى واحدة فى غير ليلتها، أو نهاراً فى غير يومها، أتاها فجامعها، ثم طاف فى ليلته على سائرهن. وكذلك كان يفعل فى يومه. فمن ذلك ماروى عن **عائشة** رضى الله عنها وغيرها أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم طاف على نسائه فى ليلة واحدة، وعن **أنس** طاف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على تسع نسوة فى ضحوة. ومن لم يكن له إلاّ واحدة استُحّب له أنْ

يُفضى إليها فى كل ثلاث ليال بمنزلة من له أربع نسوة، ويكون يباشرها فى الليلة الرابعة، وبهذا قضى **عمر وكعب بن الأسود** رضى الله عنهما: للرجل أن يأتيها فى كل أربع ليال ليلة. فإنْ علم أنّ حاجتها إلى أكثر من ذلك كان عليه أنْ يفعل ماهو أقرب إلى تحصينها وأثبت لعفافها. وإنْ علم منها كراهة ذلك وقلة همّتها له لم يكن عليه الإفضاء إليها إلا فى كل شهر مرة، أو فى كل سنة مرة. وعليها أنْ لا تمنعه ليلاً ولا ونهاراً فى كل وقت، وإنْ كانت صائمة فلا يحل لها أن تصوم إلاّ بإذنه.

وتزوّج **علّى** عليه السلام **بعشر** نسوة، وتوفى عن **أربع، وسبع عشرة** سرية. وكان بعض أمراء الشام إذا بلغه عنه كثرة نكاحه يقول لست بنِكحة ولا طِلقة، يُعرّض له بذلك. ويقال إنه تزوّج بعد وفاة **فاطمة** صلوات الله عليها وعلى أبيها **بتسع** ليال، ونكح **إمامة ابنة زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم**، وكانت **فاطمة** صلوات الله عليها أوصته بذلك. وتزوّج **الحسن بن علّى** رضى الله عنهما مائتين وخمسين امرأة، وقيل **ثلثمائة**، وقد كان **علّى** عليه السلام يضجر من ذلك ويكره حياءً من أهليهن إذا طلقّهن، وكان يقول إن حَسَناً مطلاقٌ فلا تنكحوه، فقال له رجل من همدان والله يا أمير المؤمنين لَننكحّنه ماشاء، فمن أحب أمسك، ومن كَرِه فارق، فسُرّ **علّى** رضى الله عنه بذلك وأنشأ يقول:

ولو كنت بوابا على باب جنة * لقلت لهمدان ادخلى بسلام

وهذا أحد ما كان **الحسن** يُشبِه فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . وكان يشبهه فى الخَلق والخُلق، فقد قال له **رسول الله صلّى الله عليه وسلم**: أشبهتَ خَلقى وخُلقى. وقال: **حسن** منى **وحسين** من **علّى**... وكان **الحسن** ربما عقد على أربعة، وربما طلّق أربعا، فأرسل غلامه بطلاق امرأتين له، وقال قل لهما اعتدّا، وأمر له أن يدفع إلى كل واحدة عشرة آلاف درهم، ففعل، فلما رجع إليه قال ماذا قالتا، فقال له الرسول أمّا إحداهما فنكست رأسها وسكتت، وأماّ الأخرى فبكت وانتحبت وسمعتُها تقول: متاع قليل من حبيب مفارق. فأطرق ورحم لها، ثم قال لو كنت مراجعاً امرأة لراجعتها. ودخل علّى **عبد الرحمن بن الحارث بن هشام** فخطب ابنته، فقال: إنك لأحبّ الناس إلىّ، ولكنك مطلاق، وأكره أن يتغير قلبى عليك، فإنْ ضمنت أنك لا تفارقها فعلت... فسكتَ ثم اتكأ على بعض أصحابه، ثم قال : ما أراد عبد الرحمن إلا أن يجعل ابنته طوقاً فى عنقى. وقد روينا عن **رسول الله**

صلى الله عليه وسلم أنّ الله عز وجل يحب النكاح ويبغض الطلاق فانكحوا ولا تطلّقوا. وهذا لا يصلح لمن أراد أكثر من أربع. وتزوّج **المغيرة بن شُعبة** بثمانين امرأة، وقد كان فى الصحابة من له الثلاث والأربع. وكثير منهم لا يُحصَى كانت له اثنتان لا يخلو منهما.

ويقال إنّ كثرة النكاح من شدة غضّ البصر وقطع المشى فى الأثر، إذا خشع الطرف وقصّر عن الحرام وانقطع المشى على الأرض ، غاص البصر والنفس فاتسع فى الحلال. ولمّا خطبت **رابعة بنت إسمعيل** - خطبت **ابن أبى الحوارى** كره ذلك، فألّحت عليه وأكثرت، فقال لها يا هذه مالى همّة فى النساء لشُغلى بحالى، فقالت ياهذا إنى لأشغَلُ بحالى من شُغلك بحالك، ومالى شهوة فى الرجال، ولكنى ورثت عن زوجى ثلثمائة ألف دينار **وهى حلال**، وأردت أن أنفقها عليك وعلى إخوانك وأعرّف بك الصالحين، فتكون طريقاً إلى الله عز وجل، فقال حتى أستاذن أستاذى. قال فجئت إلى **أبى سليمان** فذكرت قولها وقد كان ينهانى عن التزويج، ويقول ما تزّوج أحد من أصحابنا إلاّ تغيّر، فلمّا ذكرتُ له ماقالت أدخل رأسه فى جيبه وسكت ساعة ، ثم رفع رأسه وقال ياأحمد تزوّج بها، فإن هذه وليّة لله تعالى، وهذا كلام الصّديقين. قال فتزوّجت بها وتزوّجت عليها بثلاث نسوة، فكانت تطعّمنى من الطيبات وتطيبّنى وتقول إذهب بقوّتك ونشاطك إلى أزواجك. فكانت هذه من أرباب القلوب، وكان **الصوفية** يسألونها عن الأحوال، وكان أحمد يرجع إليها فى بعض المسائل، وكانت فاضلة تشبّه فى أهل الشام **برابعة العدوية** فى أهل البصرة.

وقد كان **أبو سليمان** يقول فى التزويج قولاً عدلاً: مَنْ صبر على الشدة فالتزويج له أفضل، والوحيد يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب مالا يجد المتأهّل. وقال مرة ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوّج وثبت على مرتبته الأولى. وروينا عنه أنه قال ثلاثٌ مَن طلبهن فقد رغب فى الدنيا: من طلب معاشا، أو تزوّج، أو كتب الحديث.

ولعمرى إنّ المرأة تحتاج إلى فضل مداراة، ولطيفة من الحكمة، وطرف من المواساة، وباب من الملاطفة، واتساع صدر للنفقة، وحُسن خلق ولطُف لفظ، وهو لا يحسنه إلاّ عالم حليم، ولا يقوم به إلاّ عارف حكيم، فمن لم يقم بذلك، ولم يهتد إليه، ولم يعتد للنفقة ، ولم يألف الجماعة، وكان قد ألفَ وحدته، واعتاد الانفراد بأكْلته، وكان ضيق القلب، بخيل الكف، سيء الخلُق، غليظ القلب، فظ اللفظ، فالوحدة لهذا أصلح، والبعْد من النساء لقلبه أروح،

فمتى تزوّج مَنْ هذا وصفه، عَذّب وعُذّب، وآذى وتأذى، وأثِم وأثم به، لأن النساء يحتجن إلى فضل حلم يحمل سفههن، وإلى سعة علم يغمر جهلهن، وإلى حُسن لُطف وحكمة يدارى أخلاقهن، ويتغافل عن زللهن. فإذا كان الرجل جاهلا سفيها ، أو كان سيء الخلق فظاً غليظاً، اجتمع الجهل فافترق العقل وتقادح الجفاء، وغلُظ القلب والأذى، فأفسد أكثر مما يُصلح، وتنافرا ولم يكن بينهما أبداً صُلح، وليس هو وصف العقلاء.

واستحبّ للرجل إذا أراد التزويج أن يشرح حاله ويبين أخلاقه للمرأة، حتى تكون على بصيرة من أمره ويقين من حاله، ويدخل على اختيار منها، فذلك من الورع وقد فعله بعض السلف. وقد تزوج رجل على عهد **عمر** رضى الله عنه وكان يخضّب بالسواد، فلما دخل بامرأته نصل خضابه فظهرت شيبته، فاستعدى أهل المرأة وقالوا نحن حسبناه شابا، فأوجعه **عمر** ضربا، وقال غررّت القوم، وفرّق بينهما. وروينا عن **شعيب بن حرب** لمّا أراد أن يتزوج، قال للمرأة إنى سيء الخلق، فقالت ياهذا أسوأ خلق منك مَن يحوجك إلى سوء الخلق. وروينا ضد هذا أنّ رجلا أراد أن يتزوج ، فقال للمرأة إنّ لى أخلاقا أوقفك عليها، فإن رضيت بها تزوجتُك، فقالت افعل، فقال أنا رجل مَلُول حقود ، سيء الظن غيور، ضيّق الصدر واسع الضرب، إنْ كثُرتِ عندى مللت، وإنْ أبعدتِ قلقت، وإنْ تكلمتِ أوغرتِ صدرى، وإنْ سكتِّ أشغلتِ قلبى. فقالت المرأة أمّا بعد، فقد ذكرتَ من نفسك أخلاقاً ما كنا نرضاها لبنات إبليس، فكيف نرضاها لبنات آدم. انصرف راشداً لا حاجة لنا بك.

ومن خَشِىَ على نفسه الآفات ووُفق له امرأة فيها بعض الخصال المحمودة، فالتزويج له أفضل، فليكن له حينئذ فى التزويج نيّات لأنه من أكبر الأعمال، فلتكن نيته إقامة السنّة وصلاح القلب، وسلامة دينه وغضّ بصره، وتحصين فرجه ، فقد أمر بذلك، ويُحتسب فى الكسب على العيال، ويُحتسب مثل ذلك فى نصحه له فى أمر الآخرة، وليجعل ذلك لوجه الله سبحانه ، فقد روى عن **النبى صلّى الله عليه وسلم** ما أنفق الرجل على أهله فهو له صَدَقة، وإنّ الرجل ليُؤجَر فى رفع اللقمة إلى فىّ امرأته... ومنها أنه **كالمجاهد** فى سبيل الله. وقال رجل لبعض العلماء وهو يُعَدّد نِعَم الله عزّ وجلّ عليه : مِنْ كل عمل قد أعطانى الله تعالى نصيباً ، حتى ذكر الحج والجهاد وصنوف العبادات، فقال له العالم فأين أنت من عمل الأبدال، قال وماهو، قال كسْب الحلال والنفقة على العيال. وقال **ابن المبارك** لإخوانه وهم فى الجهاد:

تعلمون عملا أفضل مما نحن فيه؟ قالوا ذاك جهاد في سبيل الله وقتالٌ لأعدائه، أي شيء أفضل منه؟ قال لكني أعلم، قالوا ماهو، قال رجل متعفف ذو عيْلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياماً متكشفين ، فسترهم وغطّاهم بثوبه، فعمله هذا أفضل من جهادنا في سبيل الله عز وجل. وقال رجل لبشر قد أضرّني الفقر والعيال فادعُ الله لي، فقال له بشر إذا قال لك عيالك ليس عندنا خبز ولا دقيق ونحن جياع فادعُ الله لي أنت ذلك الوقت فإنّ دعاءك أفضل من دعائي. وقد روى عن النبي صلّى الله عليه وسلم من حسُنت صلاته وكثُر عياله وقلّ ماله ولم يغتب المسلمين فهو معي في الجنة كهاتين. وفي حديث آخر أنّ الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال. وفي الخبر إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله تعالى بالهمّ ليكفّرها. وقال بعض السلف من الذنوب ذنوب لا يكفّرها إلاّ الغمّ بالعيال.

وقد روى في الخبر أن من أهل النار الضعيف الذي لا دين له، هو فيكم تُبّع لا يبغون أهلاً ولا مالاً، قيل هم السؤّال المنهومون في المسئلة، الذي همّه بطنه، لا يبالي كيف طلب ولا على أي حال من الفُحش تقلّب، فمن لم يشغله أهله وماله عن الله عز وجل كان أفضل ممن لا أهل له ولا ولد، فهو عبدُ بطنه وفرجه، أسيرُ هواه وشهوته. وقد أخبر الله تعالى أن للمؤمنين أموالاً وأولاداً ثم أمرهم أنْ لا يشغلهم ذلك عن الله عز وجل. وقد وصف أقواماً بأنّ بيعهم وتجارتهم لا تشغلهم عن عبادته، وأنهم أهل خوف من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار. وروينا عن ابن أبي الحواري الحديث الذي رواه :إذا أراد الله بعبد خيراً لم يشغله بأهل ولا مال. قال أحمد رضي الله عنه فناظرّنا في هذا الحديث جماعة من العلماء، إذ ليس معناه أنه لا يكون له امرأة ولا ولد، ولكن يكونون له ولا يشغلونه. فإنْ عزّم العبد على النكاح فلا يكون همّه من النساء إلاّ ذات دين وصلاح والعقل والقناعة. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم تُنكح المرأة لمالها وجمالها وحُسنها ودينها، فعليك بذات الدين، وفي لفظ آخر مّن نكح المرأة لمالها وجمالها حَرَم مالها وجمالها، ومن نكحها لدينها رزقه الله عز وجل مالها وجمالها. وروينا أيضا لا تنكحوا المرأة لجمالها فلعل جمالها يرْديها، ولا لمالها فلعل مالها يُطغيها، وانكحوا المرأة لدينها، فنكاح المرأة للدين والصلاح طريقٌ من الآخرة، والرغبة في المرأة الناقصة الخلُق، الدنيئة الصورة، الكبيرة السن، بابٌ من الزهد.

وكان مالك بن دينار يقول يترك أحدهم أن يتزوّج يتيمة فيُؤجَر فيها، إنْ أطعمها وكساها

تكون خفيفة المؤنة تَرضَى باليسير، ويتزوّج بنت فلان وفلان، يعنى أبناء الدنيا، فتشتهى الشهوات عليه وتقول اكسنى ثوب كذا، واشتر لى مِرْط جرير فيتمرّط دينه. وقد اختار **أحمد بن حنبل** رضى الله عنه امرأة عوراء على أختها صحيحة جميلة، فسأل من أعقلهما قيل العوراء، فقال زوّجونى إياها. وقد يكون فى تزويج المرذولة المجذوعة فيه بأن يرفع قلبها إذ لا يرْغب فى مثلها. وأستَحِبُّ له أن ينظر إلى وجهها قبل التزويج بها، وإلى ما يدعوه إليها ، فإن ضمّ إلى الوجه والكفين فلا بأس بذلك عند علماء الحجاز، ففى **النظر إلى الوجه** أحاديث مأثورة، منها حديث **محمد بن مسلمة**، قال رأيته يتبع النظرة فتاة فى الحى حتى توارت بالنخل، فقلت له تفعل هذا وأنت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا بهذا، قال إذا أوقع الله عز وجل فى قلب أحدكم خِطبة امرأة، فلينظر إليها ليرى منها ما يدعوه إليها. وفى الحديث الآخر إن فى أعين الأنصار شيئاً ، فإذا أراد أحدكم أنْ يتزوّج منهن فلينظر إليهن، وفى لفظ آخر إذا أوقِع فى نفس أحدكم من امرأة شىء فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤْدم بينهما، يعنى يؤدم وقوع الأدمة على الأدمة وهو أبلغ من البشرة، لأن البشرة ظاهر الجلد والأدمة باطنه. جاء هذا فى المبالغة على ضرب المَثل. وقد كان الأعمش يقول كل تزويج يقع عن غير نظر يكون آخره غماً وهماً. ولا يغالى فى **المهر** فقد تزوّج رسول الله صلّى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث البيت ، وكان رحى يد وجرّة، ووسادة من أدَم وحشوها ليف، وأوْلم على إحدى نسائه بمُدّىْ من شعير، وعلى أخرى بمدّى تمر، **فالوليمة** سنّة ، وترك الإجابة إليها معصية. وقد كان **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه ينْهىَ عن المغالاة بمهور النساء، ويقول ما تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من نسائه، ولا زوّجَ على أكثر من أربعمائة درهم. وروينا عن **عائشة** رضى الله عنها كانت مهور أزواج رسول الله صلّى الله عليه وسلم اثنى عشرة أوقية ونصفاً. وقد كان يزوّج أصحابه على وزن نواة من ذهب، والنواة صغيرة وهى نواة التمر الصيْحانى، يقال قيمتها خمسة دراهم. وفى خبرِ زوّج رسول الله صلّى الله عليه وسلم بعض أصحابه على نواة من ذهب قومت بثلاثة دراهم وثلث. وقد زوّج **سعيد بن المسيب** وهو من خيار التابعين وعلمائهم ابنته من **أبى هريرة** على درهمين، ثم حملها هو إليه ليلاً. ولا أكرهُ التزويج على عشرة دراهم وهو أكثر الاستحباب فى القلّة ليخرج من اختلاف العلماء. ولا استحبُّ أنْ لا ينقص المهر عن ثلاثة دراهم، وهذا هو القول الأوسط من مذاهب الفقهاء. وفى هذه القيمة

تُقطّع يد السارق، وهذا مذهب بعض أهل الحجاز. وقد روينا أبركهن أقلهن مهرا: وروينا أيضا من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رَحِمها، يعنى الولادة، ويُسر مهرها. قال **عروة** وأقول فإنّ من شؤمها كثرة صداقها. ولا يصلح للمتزوّج أن يسأل أى شىء للمرأة، ولا يحلّ له أنْ يدفع شيأ ليأخذ أكثر منه، ولا يحلّ لهم أنْ يهدوا إليه شيأ ليُضطروه أنْ يكافىء بأكثر منه، وليس عليه أنْ يزيد بأكثر من قيمته إنْ كافأ، وله أن لا يقبل هديتهم إنْ علم ذلك منهم. وهذا كله بدعة فى النكاح، وهو كالتجارة فى التزويج، وهو داخل فى الربا، وهو يشبه القمار. ومن زوّج أو تزوّج على هذا بهذه النية فهى نية فاسدة ، وليس نكاحه هذا للدين ولا للآخرة. وكان **الثورى** يقول إذا تزوّج الرجل وقال أى شىء للمرأة فاعلم أنه لص فلا تزوّجوه. ولا يُنكَح إلى مبتدع ، ولا فاسق، ولا ظالم، ولاشارب خمر، ولا آكل الربا، فمن فعل ذلك فقد ثلّم دينه وقطع رَحِمه ولم يحسن الولاية لكريمته، لأنه ترك الإحسان وليس هؤلاء أكْفَاء للحرة المسلمة العفيفة. وقد قال بعض السلف النكاح رقّ فلينظر أحدكم عند مَن يرق كريمته.

وقال بعضهم لا تُنكح إلاّ الأتقياء فإنه إنْ أحبها أكرمها، وإنْ أبغضها أنصفها. وقال **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكْفَاء، وأنكحوا إليهم. ولا نكاح إلاّ بولّى وشاهدىّ عدلْ وإنْ كانت ثيّباً، فإنْ لم يكن ولىّ فالسلطان ولىّ مَن لاولىّ له، أو مَن ولاّه الحكم. كذلك السنّة.

وليتعلم المتزوّج علْم الحيض، واختلاف أوقاته، وزيادته ونقصانه، وأحكام الاستحاضة من ذلك، وعلْم وقت الإطهار، ليعلّمها ذلك وليُغنيها بذلك عن السؤال والظهور إلى الرجال، ثم ليعلّم أهله علْم مالا يسعهم جهله من الفرائض وأحكام الصلاة وشرائع الإسلام واعتقادات المؤمنين من السنّة، وماعليه من مذهب الجماعة، فإذا فعل ذلك لم يكن عليها أنْ تخرج إلى العلماء. وإنْ قصّر عن علمها علم التوحيد ومبانى الإسلام وعقود الإيمان ومذهب أهل السنّة فلها أنْ تخرج إلى السؤال عمّا لا يسعها جهله. وليس لها أن تخرج بغير إذنه لطلب علم يُرجَى فضله.

وليس للمرأة أن تحمل زوجها على المكاسب الحرام، ولا تكلفه ما يقترف به الآثام، ولا للرجل أنْ يدخل فى مداخل السوء، ولا يبيع آخرته بدنياه، فإنْ صبرتْ معه على البرّ والتقوى أمسكها، وإن حملته على الإثم والعدوان فارقها ، وإنْ يتفرقا يُغْن الله كلاً من سعته. ويقال

أول من يتعلق بالرجل يوم القيامة زوجته وولده ، فيوقفونه بين يدىّ الله عز وجل ، فيقولون ياربنا **خذ لنا** حقنا من هذا ، فإنه ما علّمنا ما نجهل ، وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم ، قال فيقتص لهم منه . وفى خبرٍ إن العبد ليوقف للميزان وله من الحسنات أمثال الجبال، فيُسأل عن رعاية عياله والقيام بهم، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، حتى تَستغرق تلك المطالبات جميع أعماله فلا يبقى له حسنة ، فينادى الملائكة هذا الذى أكل عياله حسناته فى الدنيا، وارتهن اليوم أعماله . فلهذا قال بعض السلف إذا أراد الله بعبدٍ شراً سلّط عليه فى الدنيا أنياباً تنهشه، يعنى العيال.

وروينا فى الخبر لا يلقى الله عبدٌ بذنب أعظم من جهالة أهله. والخبر المشهور كفى بالمرء إثماً أنْ يضيّع من يعول. ورُوى أنّ الآبق من عياله كالعبد الآبق من سيده، لا يُقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع إليهم. وقد قال عز وجل« **يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم نارا**»، فأضاف الأهل إلى النفس، وأمرنا أنْ نقيهم النار بتعليم الأمر والنهى كما نقى أنفسنا النار باجتناب النهى. وجاء فى تفسير ذلك علموهن وأدبوهن، وقال النبى **صلّى الله عليه وسلم** كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالمرأة راعية على مال زوجها وهى مسؤلة عنه، والرجل راعٍ على أهله وهو مسئول عنهم. ويقال إذا انفقت المرأة من مال زوجها بغير إذنه لم تزل فى سَخط الله عز وجل حتى يأذن لها، فإنْ أطعمت وأنفقت عن إذنه ورضاه كان لها مثل أجره، وإنْ أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر. وينبغى أن يعرّفها أعظم حقه عليها فى مقام الوالدة، بقوله للمرأة عليك بطاعة زوجك فإنه جنّتك ونارك. وقال **صلّى الله عليه وسلم** إذا صلّت المرأة خَمْسَها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها ، دخلت جنة ربّها . فأضاف طاعة الزوج إلى أبنية الإسلام التى لا يُدخَل الجنة إلا بها ، واشترط طاعته لدخولها.. وذكر **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** النساء فقال حاملات والدات مرضعات رحيمات بأولادهن، لولا ما تأتين إلى أزواجهن دخلت مصلّياتهن الجنة. وقال **صلّى الله عليه وسلم** اطّلعتُ فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء، واطلّعتُ فى الجنة فرأيت أقل أهلها النساء، فقلت أين النساء، فقيل شَغَلَهن الأحمران الذهب والزعفران، يعنى الحُلىّ ولبس المصبّغات. وقال **صلّى الله عليه وسلم** تصدّقن من حُليّكن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار، قلن لَمَ يارسول الله، قال تُكثرن اللعن، وتكفّرن العشير، يعنى الزوج المعاشر تكفّرن نعمته عليكن، فلذلك قالت الفتاة يارسول الله فلا أتزوج!

وروينا عن **عائشة** رضى الله عنها قالت أتت فتاة إلى **النبى صلّى الله عله وسلم**، فقالت يارسول الله إنى فتاة أخطَب، وإنى أكره التزويج، فماحق الزوج على المرأة؟ فقال لو كان من فَرْقه إلى قدمه صديداً فلحَسته ما أدّت شكره، قالت فلا أتزوج ؟ قال بلى ، فتزوجى فإنه خير. وروينا عن **عكرمة** عن **ابن عباس** أن امرأة من **خثعم** أتت **النبى صلّى الله عليه وسلم** ، فقالت إنى امرأة أيِّم، وإنى أريد أن أتزوج فما حقُّ الزوج؟ فقال إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها على نفسها وهى على ظهر بعير أنْ لا تمنعه. وهذا مجمل خبر **الخثعمية** . وفى الخبر الجامع لفضائل الزوج أن **النبى صلّى الله عليه وسلم** قال لو أمرتُ أحداً أنْ يسجد لشىء سوى الله تعالى لأمرتُ المرأة أنْ تسجد لزوجها من عِظَم حقّه عليها. ومن حقّه أنْ لا تعطى شيئاً من بيته إلاّ بإذنه، فإنْ فعلت ذلك كان الإثم عليها والأجر له. ومن حقّه أنْ لا تصوم تطوعاً إلاّ بإذنه، فإنْ فعلتْ جاعت وعطشت ولم يُقْبل منها. ومن حقّه أن لا تخرج من بيتها إلاّ بإذنه، فإن فعلت لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيتها أو تتوب. وينبغى أن تعرض نفسها عليه فى كل ليلة. وروينا عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها عز وجل إذا كانت فى قَعْر بيتها، وإنّ صلاتها فى صحن دارها أفضل من صلاتها فى المسجد، وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى صحن دارها، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها. والمخدع بيت فى بيت، وذلك أنها عوْرة، فما كان أستر لها فهو أسلم، والأسلم هو الأفضل. وقد روى أنّ **المرأة عوْرة** فإذا خرجت استشرفها الشيطان. فإنْ أمَرها بما يصلحها مما أبيح لهما فخالفته وَعَظها وزجرها، فإن عادت لخلافه **هجرها** فى المضجع : فبعض العلماء يقول يوليها ظهره، وبعضهم يقول يعتزل فراشها فى ليلة إلى ثلاث إلى سبع ليال، فإن لم ينجح فيها ذلك ولم تبال به ضربها، والعلماء يقولون **ضرباً غير مبرح**، وتفسيره: أن لا يكسر لها عظما ولا يُدمى لها جسما. وله أن يغضب عليها فى الأمر من أمور الدين من **عشرة أيام إلى شهر**، فقد غضب **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** شهراً فى كلام كلّمه بعض أزواجه،فأرسل بهدية إلى بيت **زينب** فردّتها عليه، فقالت له التى هو فى بيتها لقد أقْمتك إذ ردّت عليك هديتك، فقال صلّى الله عليه وسلم أنتن أهوَن على الله أن تُقْمِينني، ثم غضب عليهم كلهن شهراً، ومعنى أقْمَتَكَ استصغرتك وأذلّتك، فهذه كلمة من الاتباع، تقول العرب أذلته وأقميته، ويقولون لتفعلن كذا صاغراً قمياً، ومازال كذلك حتى ذلّ وقَمِىَ، فيبتغون بهذه الكلمة السبّ بالتصغير، والتذلل للمبالغة فى

الوصف.

ولا ينبغى للزوج أن يفتر على أهله من **الإنفاق**. وروينا عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** خيركم خيركم لأهله . وكان **لعليّ عليه السلام** أربع نسوة، وكان يشترى لكل واحدة فى كل أربعة أيام بدرهم لحماً. وإنْ كانت من أهله زلّة أو هفوة احتمل ذلك ورفَقَ بها ولم يُعسفها. وفى الحديث خُلقتَ المرأة من ضلع أعوج، إنْ قوّمتَه كسرتَه، وإنْ تركتها استمتعتَ بها على عوج. وفى لفظ حسن وكسرُها طلاقها. وقد كان أزواج النبى صلّى الله عليه وسلم يراجعنه القول، تهجره إحداهن يوماً إلى الليل. ودفعت إحداهن فى صدره فزجرتها أمها، فقال دعيها فإنهن يصنعن أكثر من هذا. وجرى بينه وبين **عائشة رضى الله عنها** كلام حتى أدخَل **أبا بكر رضى الله عنه** بينهما حَكَماً واستشهده، فقال لها **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** تكلمين أو أتكلم، قالت بل تكلم أنت ولكن لا تقل إلاّ حقا، فلطمها **أبو بكر رضى الله عنه** حتى دَمِيَ فوها، وقال أى عدوة نفسها أَوَيقول غير الحق؟ بل أنت وأبوك تقولان الباطل ولا يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلاّ حقا، نُصرةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وغضباً له، حتى استجارت بالنبى صلّى الله عليه وسلم وقعدت خلف ظهره، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لم ندعُكَ لهذا، ولم نُرِدْ هذا منك. وقالت له مرة فى كلام غضبت عنده: أنت الذى تزعم أنك نبى،. فتبسّم رسول الله صلّى الله عليه وسلم حلماًوكرماً. وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول **لعائشة رضى الله عنها** إنى لأعرف غضبك من رضاك، قالت وكيف تعرف ذلك، قال إن رضيتِ قلت لا وإله محمد، وإذا غضبت قلت لا وإله إبراهيم، قالت صَدَقت ، إنما أهجر اسمك.

وقد كان **صلّى الله عليه وسلم** يمزح مع أزواجه، ويقاربهن فى عقولهن فى المعاملة والأخلاق، وفى الخبر كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم من أفكه الناس مع نسائه، وقد كان **لقمان الحكيم** يقول العاقل فى بيته ومع أهله كالصبى، فإذا كان فى القوم وُجد رجلاً. وفى الخبر المروى إنّ الله يبغض الشديد على أهله المتكبّر فى نفسه. وفى أحد المعانى فى قوله عز وجل« **عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم** » ، قيل الفظ اللسان الغليظ القلب على أهله.

وروينا فى الخبر غيْرة يبغضها الله عز وجل، غيْرة الرجل على أهله فى غير ريْبة، كأنه يكون من سوء الظن الذى نهى الله عز وجل ورسوله عنه. وروينا عن **علّى رضى الله عنه** لا

تُكثر الغيرة على أهلك فتُرمَى بالسوء من أجلك. ولعمري إن الغيرة لها حدّ، فإذا جاوزها الرجل قصّر عن الواجب وزاد على الحق. وقد كان **الحسن** يقول أتدعون نساءكم يزاحمن العُلوج في الأسواق! قبح الله من لا يغار! وقد قال **ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم** لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، فقال بعض ولده بلَى والله نمنعهن، فضربه وغضب عليه، وقال تسمعنى أقول - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تمنعوهن وتقول بلى تمنعهن، وقد قال الله عز وجل قد جعل الله لكل شيء قَدْراً.

وقال بعض الحكماء من جاوز الشيء فمذموم كمن قصّر عنه، فلا بأس بالحرة العفيفة أنْ تخرج لشيء لابد لها منه من قضاء حوائجها. قال **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** أذِن لكن أنْ تخرجن فى حوائجن، وكذلك تخرجن فى الأعياد خاصة. أطلق ذلك لهن رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ولكن لا يخرجن إلاّ بإذن أزواجهن وعن رضاهم، ولا يخرجن أيضا إلا فيما يعنى مما لابد منه.

والزوج مأجور على احتماله هفوات أهله وصبره على أذاهن، ومُثاب على حُسن عِشْرتهن. وقد كان **محمد بن الحنفية** يقول ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بداً حتى يجعل الله له منه فرجاً ومخرجاً. فإنْ كانت بذيّة اللسان، قليلة القبول، عظيمة الجهل، كثيرة الأذى، فطلاقها أسلم لدينهما، وأروَح لقلوبهما، فى عاجل دنياه وآجل آخرته. وقد شكى رجل إلى رسول الله صلّى عليه وسلم بذاء امرأته فقال له طلّقها، فقال إنى أحبها، قال أمسكها إذاً، فخشى عليه تشتّت همّه بفراقها مع المحبة، وتشتّت الهمّ أعظم من أذى الجسم.

ولا بأس أنْ تفتدى المرأة من زوجها إذا خافت أنْ لا تقيم حدود الله فيه، ولا تقوم بواجب حقوقه عليها. وأكرهُ أنْ يأخذ فى الفدية أكثر مما أعطاها. وقد قال الله تعالى **«فإنْ خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به»**، وهذا هو **الخُلع** الجائز عند أكثر العلماء. ولا يحل لامرأة أن تسأل زوجها طلاقها، ولا أن تختلع منه بغير رضاه. قال **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** المختلعات هن المنافقات. والنشوز قد يكون من الزوجين معاً، إلا أنه أبيح للزوج ضربها فى النشوز، وأبيح لها الصُلح فى نشوز الزوج. قال الله عز وجل **«والصلح خير»**. وأصل **النشوز** أن يعلو أحدهما على صاحبه ويرتفع عنه، كأن يجفو عليه

ويجتنبه فيكون فى نحو غير نحوه، فيكون من هذا الكلام الفاحش، ويكون منه الأذى، ويكون منه الهَجر والانفراد، ويحكم الحكَمان فى هذا ، أحدهما من أهله والآخر من أهلها ، يعدلون وينظرون فيما بينهما. وقد وعد الله عز وجل الغنَى مع الفُرقة، كما وعده مع النكاح، فقال« **وإنْ يتفرقا يُغنِ الله كلاًّ من سعته**»، كما قال« **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ،إنْ يكونوا فقراء يُغنهم الله من فضله**»، فقد يكون الغنى بالمال، ويكون بأن يستغنى كل واحد منهما عن صاحبه بما خصّه الله عز وجل من خفىّ لطفه. وجاء فى خبر: ثلاث لا يستجاب دعوتهم، رجل له امرأة سوء يقول أراحنى الله منك وقد جعل الله الطلاق بيده إنْ شاء طلّق، والآخر فى المملوك السوء، وجار السوء.

وليُحسن الرجل عشرة أهله والقيام بهن، فقد قال الله تعالى« **فإنْ أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا**» ، أى لا تطلبوا طريقا إلى الفُرقة ولا إلى خصومة ومكروه. وقد شبّه الله عز وجل حُسن القيام على الزوجة بحُسن القيام على الوالدين، فقال فيهما« **وصاحبهما فى الدنيا معروفا**»، وقال فى أمر النساء« **وعاشروهن بالمعروف**»، ثم أجمَل فى النساء مافرّقه من حق الزوج فى كلمة واحدة فقال « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف**»، وقال فى عظيم حقهن «**وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً**»، وقال عز وجل« **والصاحب بالجنب**» قيل هى المرأة. وآخر ما أوصى به رسول الله صلّى الله عليه وسلم **ثلاث**، كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه، جعل يقول: الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم، لا تكلفوهم مالا يطيقون، والله الله فى النساء فإنهن عَوَان فى أيديكم، يعنى أسرى، أخذتموهن بعهد الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله. وسُئل رسول الله صلّى الله عليه وسلم ما حقّ المرأة على الرجل؟ قال يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يقبّح الوجه ولا يهجر إلاّ فى البيت... وينبغى أيضا إذا أراد النكاح أنْ يتعلم ما تحتاج إليه المرأة من حُسن العشرة، والقيام بمالها عليه، وجميل المداراة ، ولطف المفاوضة، ويعلّمها حُسن قيامها بما يجب له عليها، ويعرّفها ما أوجب الله له عليها من ذلك. ولا تملّك المرأة شيأً من أمرك فإن الله عز وجل قد ملّكك إياها، فلا تقلب بهواك حكمة الله فينقلب الأمر عليك، فكأنك قد أطعتَ العدوّ ووافقته فى قوله «**ولآمرنهم فليغيرن خَلْق الله**». وقد قال الله عز وجل« **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله**

لكم قياما»، يعنى النساء والصبيان، ومنه قول النبى **صلّى الله عليه وسلم تَعِسَ عَبْدُ** الزوجة. لأنه إذا أطاعها فيماتهوىَ دخل تحت التَعَس، فكأنه قد بدّل نعمة الله كفراً، لأن الله عز وجل جعله سيّدها فى قوله عز وجل **«وألفيا سيدّها لَدَىَ الباب»** ، يعنى زوجها. **قال الحسن** ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوىَ إلاّ أكبّه الله فى النار. ولا يعوّدها عادة فتجترىء عليه وتطلبُ المعتاد منه، فهى على مثال أخلاق النفس سواء، إنْ أرسلتَ عِنانها جمحت بك، وإن أرخيتَ عنانها فِتراً جذبتك ذراعا، وإنْ شددت يدك عليها وكبحتها ملكتَها، فلعلها أنْ تَطَوّع لك.

وكان نساء العرب يعلمن أولادهن اختبار أزواجهن. كانت المرأة إنْ أنكحت ابنتها قالت يابنيّة اختبرى حليلك قبل أنْ تقدُمى عليه، انزعى زُجّ رمحه، فإنْ سكت لذلك فقطّعى اللحم على تُرْسه، فإنْ أقرّ فكسّرى العظام بسيفه، فإنْ صبر فاجعلى الأكاف على ظهره وامتطيه فإنما هو حمار.

وأوصى **أسماء بن خارجة الفزّارى**، وكان من حكماء العرب، ابنته ليلة زفافها فقال: يابنية، قد كانت والدتك أحق بتأديبك منى لو كانت باقية، وأما الآن فإنى أحقّ بتأديبك من غيرى. إفهمى عنى ما أقول. إنك قد خرجت من العُش الذى فيه دَرَجت وصرت إلى فراشٍ لا تعرفيه، وقرين لم تألفيه. كونى له أرْضا يكون لك سماء. وكونى له مهاداً يكون لك عماداً. فكونى له أمَةً يكون لك عبداً، لا تلحفى به فيقلاك، ولا تتباعدى عنه فينساك. إذا دنا فاقربى منه، وإنْ ناءى فأبعدى عنه. واحفظى أنفه وسمعه وعينه لا يشم منك إلاّ طيّبا، ولا يسمع إلاّ حَسنا، ولا ينظر إلاّ جميلا، وأنا الذى أقول لأمك ليلة بنائى بها :

خذى العفو منى تستديمى مودّتى ※ ولا تنطقى فىّ سوْرتى حين أغضب

ولا تنقرينى نقرك الدّف مرة ※ فإنك لا تدرين ماذا المُغيّب

فإنى رأيت الحُبّ فى القلب والأذى ※ إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

وأوصى بعض العرب بنيه فقال لا تنكحوا من النساء **ستة** : أنّانة، ولا منّانة، ولا حنّانة، ولا حدّاقة، ولا برّاقة، ولا شدّاقة. وتفسير ذلك: **الأنّانة** وهى التى تعصب رأسها كثيراً وتكثر الأنين والتوجع والتشكّى، **والمنّانة** التى تمُنّ على زوجها، تقول فعلتُ بك وفعلت، فأنا أفعل

وأفعل، **والحنّانة** تكون على وجهين، تكون ذات ولد من غيرها فهى تحن إليه، وقد تكون ذات زوْج قبله فيحن قلبها إليه، وقوله **حدّاقة** هى التى تومىء بحدّقتها، فتشترى كل شىء، وتطالب زوجها بما تشتهيه من كل شىء، وقد تلحظ الرجال كثيراً كما يلاحظ بعض الرجال النساء، والبرّاقة تحتمل تأويلين، أحدهما أن تكون غضوبا فى الطعام فتبرق لقلّته أو لسوء خلُقها، ولا تكاد البرّاقة للمأكول أن تأكل إلاّ وحدها لشرهها، وتكون أيضا تستقل نصيبها من كل شىء، وهذه لغة يمانية نعرفُها، فأشْبَه عندهم يقال قد برِقت المرأة، وبَرِق الصبى الطعام إذا غضب عليه، والوجه الثانى من **البرّاقة** أن تكون من البريق، أنْ تُكثِر صِقال وجهها وخضابه فتتصنع فى برُوقه أبداً. وأما **الشدّاقة** فهى التى تشدّق بكثرة الكلام، وتكون ذَرِبة اللسان، مفوّهة فى النطق. ومن ذلك الخبر الذى جاء أنّ الله عز وجل يبغض الثرثارين من المتشدّقين.

وفى قصة الرجل السائح الأزدى أنه لقى **إلياس عليه السلام** فى سياحته فأمره بالتزويج، وقال هو خير لك ونها عن التبتّل، وقال لا تنكح من النساء **أربعاً**، وانكح من سواهن: المختلعة، والمبارية ، والعاهر، والناشز . **فالمختلعة** هى التى تطلب الخَلْع من زوجها من غير ما بأس ، وهو مع ذلك يحبها، **والمبادية** المباهية لغَيْرها، المفاخرة بأسباب الدنيا، التى تطلب من زوجها ما تُباهى به غيرها وتفتخر به على نظائرها، **والعاهر** الفاجرة التى تُعرف بخليل أو خِدْن، وهو الذى قال الله عز وجل« **ولا متخذات أخدان**»، **والناشز** التى تعلو على زوجها فى الفعال والمقال.

وقد كان **علىّ عليه السلام** يقول شرار خصال الرجل خيار خصال النساء: **البخل والزهو والجبن**... فإنّ المرأة إذا كانت مزهوّة ، أى معجبة، استنكفت أن تكلم الرجال، وإذا كانت جبانة فَرِقَت من كل شىء فلم تخرج من بيتها.

وأكره **العزل** كراهيةً شديدة فإنه دقيقة من الشِركْ الخفّى، وفيه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكرّهه جماعة من السلف الصالح، ولم يكن خيار المتّقين يعزلون، وأقل ما فيه الخروج من التوكل على الله عز وجل، وقلة الرضا بحكم الله تعالى. وكان **ابن عباس** رضى الله عنه يقول العزل هى **الموءودة الصغرى**، لأن العبد يفعل ما لا يتأتى منه الولد فيحسب عليه قتله. وإنما قلنا إنّ العزل دقيقة من الشِرك لأن **أهل الجاهلية** كان سبب قتلهم بناتهم معانى أحدها خشية العار بهن، ومنها كراهة الإنفاق عليهن، ومنها الشُحّ وخوف الفقر

والاملاق. وكانت العرب تقول من كنّ له أحد الحوْبات الثلاث لم يشرّف عشيرته،يعنون بالحوْب **الأم والأخت والبنت**؛ والحوبات جمع حوب وهي الكبيرة، قال الله تعالى في أكلكم أموال اليتامى ظلما« كان **حُوباً كبيرا**». وكان من خيار التابعين المؤمنين من يستحب له الجمع بين هؤلاء الثلاث بمعنى أن تكون الأم والأخت والبنت، لمافيهن من عظيم المثوبة والفضل، ليخالف بذلك سنّة الجاهلية، فقد توجد هذه المعاني أو بعضها في العزل فلذلك سميناه شِركاً وكرهناه. وهو **مذهب الخوارج من النساء**، كان فيهن تقزّز وتعمّق من استعمال كثرة الماء للطهارة، ودخول الحمامات، ومجاوزة الحدّ في الطهور، وكنا أيضا يقضين الصلاة أيام الحيض، ويصمن في حيضهن، ولا يصلين في ثياب الحيض حتى يغسلنها، ولا تدخلن الخلاء إلاّ عُراةً، وكانوا يكرهون الولادة طلباً للنظافة. والتقزز خلاف السُنّة. وقد ابتدع نُساء العرب هذه البدع ففارقن بها سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنن نسائه من أنباط العراق وأهل النهر، وكان بعضهن دخل على **عائشة** رضى الله عنها لما قدمت البصرة فلم تأذن لهن في الدخول عليها. وأيضا فإن الله ورسوله ندبا إلى اتخاذ الولادة بقوله تعالى« **فأتوا حرثكم أنىّ شئتم وقدّموا لأنفسكم**»، قيل الولد، وقول **رسول الله صلى الله عليه وسلم** تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة، وقوله **صلّى الله عليه وسلم** خير نسائكم الودود الولود، وقوله **صلّى الله عليه وسلم** سوداء ولود خير من حسناء لا تلد، وحصير في البيت خير من امرأة لا تلد . ومن بَركة المرأة أن تيسّر رحمها أحوج ما يكون إلى الجماع إذا طهُرت من الحيض، وفي هذا الوقت أكثر ما يعبر النساء بالحمل ، وأحمد ما يكون المولود عاقبة إذا علق به قبل الطُهر، فلهذه المعاني عقّب الله عز وجل الأمر بالجماع والولد بعد الطهر في قوله تعالى« **فإذا تطهّرن فأتوهن من حيث أمركم الله**». ولأضدادها في الكراهة والذّم أمر الله تعالى باعتزال النساء في الحيض. ويقال إن كل مبذول كان أو مجنونا أو مجذوبا أو مختلا أو في حاله وعتلا مخّبلاً ، لأنه كان غرسه في سبخة من الأرض فلم يُزرَع ولم يزك، ومن زرع من حرث طيب زكا زرعه، وهو الغشيان في الطُهر، فلذلك قال «**من حيث أمركم الله**».

وقد رخّص طائفة في العزل. روينا في ذلك رخصة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم. وقد كان **سعد** يعزل وقد أنكره **عليّ عليه السلام** على **ابن عباس رضى الله عنهم** في قوله إن العزل هي الموءودة الصغرى، وقال إنها لا تكون موءودة إلا بعد سبع، ثم تلا قوله عز

وجل «**وإذا الموؤدة سئلت**» أنها ذُكرّت بعد سبع، ثم تلا قوله عز وجل آية تنقيل الخلقة« **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة**»، إلى قوله« **ثم أنشأناه خلقا آخر**» أى فى نفخ الروح فيه، قال فلا يكون موؤدة مقتولة إلاّ بعد هذه **السبع** الخصال. ولأن الله عز وجل ذكرها فى **كوّرت** بعد سبع معان، فاستنبط **علىّ عليه السلام** مما ذكرنا ذلك، وهذا من دقيق العلم وغامض الفهم ولطيف الاستدلال الذى تفرّد به عليه السلام.

ويكرّه الجماع مستقبل القِبلة لحُرمة القبلة. وفى الخبر إذا جامع أحدكم أهله فلا يتجرّد تجرد العيرين، يعنى الحمارين. وروينا **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم** كان إذا جامع غطّى رأسه وخفض صوته وقال للمرأة عليك السكينة. ومن جامع مرة وأراد العود فليغسل فرجه قبل ذلك، فإنْ احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول. ويكره له الجماع فى ثلاث ليال من الشهر، فى أول ليلة، وفى آخر ليلة، وفى ليلة النصف. ومن العلماء من كان يستحب الجماع فى يوم الجمعة لاحد التأويلين من قوله **صلّى الله عليه وسلم** مَن غسل واغتسل، أى غسل أهله . ويكره الجماع فى أول الليل لئلا ينام على غير طهارة. وقد جاء رخصة فى النوم بعد الجماع من غير أن يمس ماءً، فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويُنهَى الرجل أنْ يطأ جُنُباً، ولا يحل له من امرأته إلاّ الفرج لا غير على أى حال شاء.

ومن جامع فليتمهل على أهله وليتوقف حتى تقضى هى نَهْمتّها كما قضى هو نَهْمَته. فإنْ علم أنها قد سبقت بالشهوة لم يحتج إلى توقف، وليس يخفى سبقها بالشهوة على فَطِن. وأوفق ما يكون الجماع بينهما إذا اتفقت الشهوتان منهما معا، وأكثر ما يكون التباغض بين الزوجين لاختلافهما من طبع الإنزال أن يكون طبعه سابقا لطبعها أيضا. وقد كان بعض العلماء من الأدباء لا يتأخر عن المرأة حتى يستأمرها فى ذلك. وينبغى أن يعلّمها لأن المرأة إذا بلغت واحتلمت يجب علها الغُسل كما يجب على الرجل فإن فى ذلك سنّة، لأن **أم سليم** سألت عن ذلك **رسول الله صلى الله عليه** وسلم فأمرها بذلك، وقال نِعْم النساء نساء الأنصار، لا يمنعهن الحياء أنْ يتفقهن فى الدين. وإذا كانت المرأة حائضاً اتزرت بمئزر صغير من حقْويَها إلى أنصاف الفخذين، وكان له المتعة بجميع جسدها كيف شاء إلاّ تحت المئزر، وهذا **مذهب فقهاء الحجاز**، وهو أحب الوجهين إلّى. **وبعض علماء أهل العراق** يجّوز من الحائض المباشرة لما تحت، خلا الفرجين، ولا يعجبنى هذا. ولا حرج عليه من الاستمتاع

ببدنها. واستحبّ للرجل إذا دخل فى لحافها أنْ يتزر بحَقْوٍ صغير يكون فى وسطه ، وهو المئزر، لئلا يتجرد عُريانا فإنّ هذا من الأدب. ويضاجع الرجل الحائض كيف شاء، وتُناوله ماشاء، أو يؤاكلها ولا يجانبها فى شىء من الأشياء إلا الجماع فى الفرج، اتفقوا عليه واختلفوا فيما دونه، فذكر **أهل الحجاز** كما ذكرناه آنفا وهو استحباب، واتفقوا على تجويز مافوق المئزر من السُرّر إلى أنصاف الفخذين.

وينبغى للمتزوّج أن يعرف حكم الطلاق، فإنْ عَرّض عليه طلاق طلّق واحدة واحدة فى طُهر لا جماع فيه، لأن التطليقة الواحدة إذا انقضت عِدّة المرأة منها بحَيض أو أشهر تعمل عمل التحريم بالثلاث سواء ، إلا أنه يربح فى التطليقة الواحدة أربع خصال، أحدها موافقة الكتاب والسُنّة من قوله عز وجل **فطلقوهن لعدتهن**، والثانية تيسير العدة عليها وسرعة خروجها منها، فخروجهامن الطلاق محتسب من الطهر الذى طلّقها فيه من غير جماع. ويربح أيضا هو أنه إنْ ندم على طلاقها كان له رجعتها فى العدة من غير إحداث عقد ثانٍ ولا مهر آخر، وإنْ أحب رجعتها بعد انقضاء العدة كان له تزويجها ثانية من غير زوج ثان تحدثه. وهذا كله معدوم مع الثلاث دفعة واحدة وموجود فيه التحريم، وإنْ ندم لم يجعل الله له مخرجا لأنه لا تحلّ له إلا بعد زوج، ويخسر العبد خروج المرأة من يده، فإنْ ابتُلى بهواها يحتاج أنْ ينتظر فراغ الزوج الثانى أو التجا أنْ يعمل فى تزويجها لغيره فيكون محللاً لنفسه ومفسداً لنكاح الثانى بالتحليل، فيقع فى ثلاث معانٍ من المعاصى. وقد لعن رسول الله صلّى الله عليه وسلم **المحلّل والمحلّل له**. وقال بعض العلماء إن نكاح الأول بعده على التحليل لا يجوز أيضا. وهذا كله ثمرة الجهل ومخالفة السُنّة.

والأصل فيما ذكرناه من العزيمة والرخصة فى فعل النكاح وتركه قول الله عز وجل «**وأنكحوا الأيامى منكم**»، فأمر بالنكاح وهو أعلم بالخير والصلاح، والأيامَى جمع أيّم وهى التى لا بعل لها، وقد يسمى به الرجل الذى لازوجة له أيضا، كما يقال ثيّباً وبكرا. ثم قال «**والصالحين من عبادكم**»، فلولا أنّ النكاح فاضل ما خصّ به الصالحين وضمّه إلى فضلهم وهم أهل ولايته، لقوله عز وجل« **وهو يتولى الصالحين**»، والله سبحانه ما افترض النكاح ولا العُزبة، كما لم يوجب الأربع من النسوة، وافترض صلاح القلب وسلامة الدين وسكون النفس والدخول فى الأوامر عند الحاجة إليها، فمن كان صلاحه فى التزويج فهو أفضل له، ومن كان

استقامته وسكون نفسه عند الأربع فجائز له طلب السكون، وصحة الحال مع القيام بالأحكام، ومن وقعت كفايته بواحدة قالوا أصلح وأفضل لأنها إلى السلامة أقرب، ومن كان صلاح حاله واستقامة قلبه وسكون نفسه فى العُزْبة فذلك له أسلم، والأسلم لمثله فى زماننا هذا أفضل إذ لهذا يراد النكاح، فإنْ وُجِدَ لم يضر فقده.

ولعمرى إنّا إذا قلنا إنّ فى **الدين طريقين**، طريق عزيمة وطريق رخصة، فإنه فى النكاح أيضا لأنه من الدين، وفى تركه يكون لأجل الدين، **طريقان**: طريق الأقوياء، وهم أهل النكاح والصبر على أحكامه وعلى معاشرة النساء، وطريق آخر للأقوياء، بالصبر عنهن ووجود العصْمة منهن، والتفرغ للآخرة وكفى بها شُغلاً، وطريق آخر من وجود الوسوسة وخوف العنّت لقوة الطبع وضعف الحال بوجود الاختلاط، فيبدأ بالنكاح طلبا للاستقامة والصلاح، وقد كان **الثورى** رحمه الله تعالى يقول:

ياحبذا العُزْبة والمفتاح ※ ومسكن تخرقه الرياح

لا صخَب فيه ولا صياح

ولله الأمر من قبل ومن بعد، والحمد لله وحده.

الفصل الخامس والأربعون
فيه كتاب ذكر دخول الحمام

الأفضل فى وقتنا هذا ترك دخول الحمام لكثرة العُراة فيه والعجز عن القيام بأحكامه، إلاّ أن دخوله مباح. وقد اختلفت مواجيد الصحابة فى دخوله وكلّ فيه قدوة وهدى، فقال بعضهم بئس البيت الحمام، يبدى العورة ويُذهب الحياء، وروى هذا عن **ابن عمر** رضى الله عنه، وعن **على** رضى الله عنه فى معناه. ودخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام الحمامات، فمن كان داخلا إلى الحمام فلا يدخله لشهوةٍ لعاجل حظ دنياه، ولا عابثاً لأجل الهوى، لأنه عمل من أعمال العبد، والعبد مسئول عنه إن كان محاسبًا على جهل أعماله، فيقال لِمَ دخلت وكيف دخلت، ولمن دخلت، كما يقال له فى كل عمل فعله.

وفى دخول الحمام **ثمانية أحكام: أربعة فرائض وأربعة نوافل. فأمّا الفرائض**: فستر العورة، وغضّ البصر، وأنْ لا يباشر جسده غير يده، وأنْ يأمر بالمعروف، وهو أنْ يرى

عرياناً فيقول له استتر أو هذا حرام عليك، وهذا لا يحل لك، أو قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو حرّم دخول الحمام بغير إزار، فأي هذه الألفاظ قاله سقط عنه ماوراء ذلك من كل شيء يراه من المنكر. فأما **النوافل الأربع:** فأنْ يرى الطهارة لأجل الدين، والنظافة للعبادة، لأن الطهارة من أفضل أمور الآخرة، والحمام غاية الطهر؛ وأن يعطي صاحب الحمام الأجرة قبل الدخول، وكذلك يُستحب في كل ما يشتريه أو يستعمله، خاصةً الشيء المجهول مقداره من شُرب الماء وأجرة الحجّام. **والثالثة** أنْ لا يكثر صبّ الماء عليه من غير حاجة ولا يستعمل إلا ما يكفيه، سيّما من الماء الحار فإنّ له مؤنة، ولا يستعمل من ذلك إلاّ ما لو رآه الحمامي لم يكره ذلك منه ولم يسؤه، وماعلم أنّ الحمامي لو رآه يستعمله من الماء الكثير لشقّ عليه ذلك فإنه مكروه له في غيبه. **والرابعة** أنْ يتذكر النار بحرارة الحمام ولذع مسّه وغشيان ظلمته، لأن الحمام في الظلمة أشبه شيء بجهنم، الحرارة من تحتك، والظلمة من فوقك، فهذا وصف جهنم نعوذ بالله منها، فيتذكر بقلّة صبره على الحمام وعِظَم كربه فيه حبسه في جهنم، وأنه لو أقام في الحمام فضل ساعة لضعف روحه حتى يخرج خُفُوقاً، ويكون له في الحمام موعظة وعبرة، إذ عبّر أولي الأبصار ومواعظ أهل التقوى لا تنقضي، ولهم في كل شيء عبرة وموعظة، وبكل شيء تذكرة، لأن الله عز وجل قد أحياهم حياة طيّبة، وهذه علامة من كان له قلب ومن مقامه المزيد.

ولا بأس أن يُظهر ذِكْر الله عز وجل بالتسمية والاستغفار، ومكروه له قراءة القرآن إلا في نفسه سراً، ولا يسلّم على أحد فيه بلفظ السلام . وروينا أنّ رجلاً سلّم على **الحسن بن عليّ رضي الله عنهما** في الحمام فقال ليس في الحمام سلام. فإن احتاج أن يتكلم رجلٌ فيه فلا بأس أنْ يأخذ بيده استئناساً للكلام ، أو يقول له عافاك الله وأدام سلامتك. ومكروه له كثرة الكلام فيه، وأن يتكلم رجل بمالا يعنيه، ولكن يقول« **بسم الله**» إذا دخله، ويستعيذ بالله من الرجس الْخَبْث الشيطان الرجيم. وإنْ أعطى الحمّامي أجرة ليُخْليه له أجر على ذلك .

ويكره دخول الحمام عند الغروب وبين العشاءين. وليعرف بدخوله نعمة الله عز وجل وتسخيره له مَن شاء من خلقه، بالتعب منهم والكدّ فيه، فهذا من لطيف أفضال الله عز وجل على المتنعمين به. ومَن دخل الحمام وقام بهذه الأحكام كان دخوله أفضل. قال **النبي صلّى الله عليه وسلم** دخول الحمام على النساء حرام، وعلى الرجال إلاّ بمئزر. وكان **عمر** رضي

الله عنه يقول الحمام من النعيم الذى أحدثوه. وفى أحد الوجوه من قوله تعالى« **ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم**» قال الماء الحار فى الشتاء. ولا بأس أن يباشره رجل بالتدليك خلا موضع العورة. وقال **مالك رضى الله** عنه من دخل الحمام وخرج عريانا فلا شهادة له. وفى السُّنّة الاستحداد فى كل أربعين يوما لا يُستحب مجاوزة ذلك. وبعض أهل الطب يستحبون الغُسل بماء بارد بعد نومة فى الصيف، وأنه نافع للجسد، وأن الحمام عندهم فى الصيف أنفع منه فى الشتاء. ويكّره شُرب الماء البارد عند الخروج من الحمام. ولا يحل لمسلمة فى الحمام أنْ يليها للخدمة ذمّية فقد نهى **عمر وأبو عبيدة رضى الله عنهما** عن ذلك.

الفصل السادس والأربعون

فيه ذكر حكم المتسبب للمعاش وما يجب على التاجر من شروط العلم

قال الله تعالى« **وجعلنا النهار معاشاً**» فذكره فيما عّدده من آياته ونعمته، وقال عز وجل« **وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون**»، فجعل المعاش نعمةً طالبَ بالشكر عليها. ورُوى عن **النبى صلّى الله عليه وسلم** أنه قال من الذنوب ذنوب لا يكفّرها الاّ الهَمّ بطلب المعاش، وقال **صلى الله عليه وسلم** أحّل ما أكل المرء من كسب يده وكل عمل مبرور. وفى لفظ آخر أحّل ما أكل العبد من كسب يد **الصانع** إذا نصح. وفى الخبر **التاجر الصدوق** يُحشر يوم القيامة مع الصدّيقين والشهداء. وقد رُوى أنّ **النبى صلّى الله عليه وسلم** كان ذات غداة جالساً مع أصحابه فنظروا إلى شاب ذى جَلَدة وقوة، وقد بكّر يسعى، فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجَلَده فى سبيل الله عز وجل، فقال **النبى صلى الله عليه وسلم** لا تقولوا هذا فإنه إنْ كان يسعى على نفسه، ليكفها عن المسئلة ويغنيها عن الناس، فهو فى سبيل الله، وإنْ كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف، ليغنيهم ويكفيهم، فهو فى سبيل الله، وإنْ كان يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو فى سبيل الشيطان. وقال **ابن مسعود** إنى لأمقت الرجل أراه فارغاً لا فى عمل دنيا، ولا فى عمل آخرة. وقال **إبراهيم النخعى** رحمه الله كان **الصانع** بيده أحب إليهم من **التاجر**، وكان التاجر أحبّ إليهم من البطّالة. وسئل **إبراهيم** عن التاجر الصدوق ، أهو أحبّ إليك أم المتفرغ للعبادة ؟ قال التاجر الصدوق أحب إلىّ لأنه فى جهاد، يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان، ومن قِبَل الأخذ

والعطاء فيجاهده. وقد خالفه **الحسن البصرى** رضى الله عنه فى هذا. وروى عن **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه ما من موطن يأتينى فيه الموت أحبّ إلىّ من موطن أتسوّق فيه لأهلى، أبيع وأشترى فى رحلى. وكان يقول بعض السلف إتّجرْ وبعْ واشترِ ولو برأس المال يجعل لك من البركة مالا يجعل لصاحب الزرع. وكانوا يعدون الكاسب على عياله كالمجاهد فى سبيل الله عز وجل، ويرون فضله على غيره، وروى فيه أثر: إنّ الله عزّ وجلّ يحب المؤمن المحترف، وفى خبر آخر: إن اللهّ يحب العبد يتخذ المهنة يستغنى بها عن الناس. وحدّثنى بعض إخوانى عن **أبى جعفر الفرغانى قال:** كنا يوماً عند **الجنيد** فجرى ذكر ناس يجلسون فى المساجد **يتشبهون بالصوفية** ، ويقصّرون عمّا يجب عليهم من حق الجلوس، ويعيبون من يدخل السوق، فقال **الجنيد:** كم ممن هو فى السوق حكمه أنْ يدخل فى المسجد فيأخذ بإذن بعض من هو فيه فيخرجه ويجلس مكانه. إنى لأعرف رجلاً يدخل السوق وَوِردُه فى كل يوم ثلثمائة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة... قال فسبق وهمى أنه يعنى نفسه.

فإنْ كان العبد سوقياً فليبدأ فليتعلم علم البيع والشراء، والأخذ والعطاء، ومعاملة الناس فى البيوع، ومعرفة أبواب الربا ليعلم ذلك قبل الوقوع فيه فيجتنب ذلك ويتقّيه، وليغدُ إلى المفتى فيسأله عن علمِ حالِه كل يوم من وجه معاملته إنْ لم يكن قد تقدّم علمه بذلك، ولم يكن عالما به فى وقت المعاملة، فليجعل بكورُه إلى المفتى قبل غدوه إلى السوق، فإنّ لكل عمل علماً، ولله فى كل شىء حكم ، فلا يغنيك كبير علم عن علم غيره ، فإن لم تفعل ذلك دخل عليك الربا والبيوع الفاسدة. وقد كان **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه يطوف فى الأسواق ، ويضرب بعض التجار بالدِرّة، ويقول لا يبع فى سوقنا إلاّ مَن تفقّه، وإلاّ أكل الربا شاء أو أبَى. ثم لينصرف بعد العلم فيما يدخل فيه فيما أبيح له من تجارة أو صناعة، بصدق معاملة وصدق فى مبايعة، ناوياً فى ذلك إقامة سنّة، وأمراً بمعروف، ونهياً عن منكر، وجهاداً فى سبيل الله، لأن من أخذ الحق وأعطاه وعامل بصدق ونصح فهو معاون على البرّ والتقوى، وفى جهاد العدو والهوى، سيما فى زمان يكثر فيه الباطل، لأن صلاح الدين بصلاح الدنيا ، وفساده بفسادها ، لتعلّق أحدهما بالأخرى، وحاجة كل واحد منهما بصاحبه.

وفى الخبر لا يستقيم عبدٌ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه. وروى عن النبى صلّى الله عليه وسلم، عن قوله تعالى «**الذين آمنوا ولم يُلبسوا إيمانهم بظلم،**

أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» فقال من هؤلاء من برّت يمينه وصدَق لسانه واستقام قلبه وعفّ فرجه وبطنه. ثم لينو المتصرّف فى معاشه كفّ نفسه عن المسئلة، والاستغناء عن الناس، وقطع الطمع فيهم والتشرّف إليهم، فذلك عبادة إذا نوى نزعه. ثم ليحتسب السعى على نفسه وأطعمة عياله فهو له صدَقة. وعليه الصدق فى القول، والنصح فى معاملة إخوانه المسلمين لأجل الدين، ويعتقد بسلامة الناس منه نُصحاً لهم ورحمة بهم، ويعمل فى ذلك، ويكون أبداً مقدماً للدين والتقوى فى كل شىء، فإنْ انتظمت دنياه بعد ذلك حمد الله وكان ذلك ربحاً ورجحاناً، وإنْ تكدرّت لذلك دنياه، وتعذّرت لأجل الدين والتقوى أحواله فى أمور الدنيا، كان قد أحرز دينه وربّحه، وحفظَ رأس ماله من تقواه، وسلِم له، فهو المعّول عليه والحاصل له، إلاّ أن من ربح من الدنيا مثل المال وخسر عُشْر الدين فماربحت تجارته ولا هُدى سبيله، وهو عند الله من الخاسرين.

وقد قال بعض العلماء من دخل السوق ليشترى ويبيع فكان درهمه أحبّ إليه من درهم أخيه، لم ينصح المسلمين فى المعاملة. وقال عالِم آخر من باع أخاه شيأً بدرهم وهو يصلح له بخمسة دوانيق فإنه لم يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، فينبغى لهذا المتصرّف أنْ يستوى فى قلبه درهمه ودرهم أخيه، ورحْله ورحْل أخيه، ليعدل فيما يبيعه أو يشترى منه سواء بسواء، ويكون مراعياً لموافقة حكم الله تعالى الذى ورد به الشرع فى الشراء، متورعاً فى كسبه ، مراعياً أن لا يكون من خيانة، أو سرقة، أو فساد، أو غصب، أو غيلة، أو حيلة، فهذه وجوه الحرام التى تُحرّم بها المكاسب المباحة، فإذا كان متجنباً لهذه المعانى، لم يشهد أحدها بعينه، أو لم يعلمه من عدلٍ، فكسبُه حينئذ من شُبهة، ولا يكون مع ذلك حلالاً لإمكان دخول أمر هذه الأسباب فيه، ولأنه على غير يقين منه لصحة أصله وأصل أصله، لقلة المتّقين وذهاب الورعين.

وفى الخبر أنّ **النبى صلّى الله عليه وسلم** أتى له بلبن، فقال من أين لكم هذا، فقيل له من شاة كذا، فقال ومن أين لكم هذه الشاة، فقيل مِنْ وضْع كذا، فشرب منه، ثم قال إنا معاشر الأنبياء أمِرنا أنْ لا نأكل إلاّ طيباً ولا نعمل إلاّ صالحا. وقال الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال« **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم»** . فسأل النبى صلّى الله عليه وسلم عن أصل الشىء، وأصل أصله، ولم يسأل عمّا وراء ذلك لأنه قد يتعذر ولا يُوقَف على حقيقته، ولأن أموال التجار والصنّاع قد اختلطت بأموال الأجناد

يأخذون ذلك بغير استحقاق ، فكأنه من أكل المال بالباطل ، إذ قد أوقفوا نفوسهم وارتبطوا دوابهم فى سبيل الهوى ، فصاروا يأخذون العطاء بغير حق ولا يملكون ذلك ، ثم ينتشر ذلك فى أموال التجار والصنّاع ، وهم لا يميزون بين ذلك ولا يرغبون عنه، لقلة التقوى وعدم الورع، فلذلك غلب الحرام لأن الحلال إنما هو فرع للتقوى والورع، إذا كثر المتقون وظهر الورعون كثر الحلال وظهر، وإذا قلّوا فشا الحرام وانتشر، فصار الحلال مستهلكا غامضاً فى الحرام، لغُربة الورعين وخُفْية المتقين، وإنما كان الحلال فى القرن الأول موجوداً لوجود السلف الصالح، وكان الناس ورعين ، وكانوا لا يأخذون ماليس لهم بحق فكانوا متقين، وكانوا يتركون بعض حقهم خشية دخول الشُبهة عليهم، فمن أجل ذلك كان الحلال كثيراً. وقد حُكي عن بعض فقهاء العراق أحرف، أنه قال لا أقبل شهادة شحيح، قيل ولِم، قال الشُحّ يحمله على استيفاء حقه، وفى استيفاء حقه أخْذُه ماليس له. وفى الخبر كنا نترك سبعين باباً من الحلال مخافة باب واحدٍ من الحرام. وقال **الحسن** أدركتُ مَن مضى، يُعرَض على أحدهم المال الحلال فيقول لا حاجة لى به، أخاف أنْ يُفسد علىّ قلبى.

وقد قال الله تعالى« **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم**» ، يعنى وأشباههم وأعوانهم، فقال **الثورى** رحمه الله يُقال يوم القيامة ليَقمْ ولاة السوء وأعوانهم، قال فمن ناولهم دواةً، أو برىَ لهم قلَماً ، أو حمَل لهم لَبِداً، أو أعانهم على أمر، فهو معهم. وجاء رجل إلى **ابن المبارك،** فقال إنى خيّاط، وربما خطت شيئاً لبعض وكلاء السلطان، فماذا ترى؟ أكونُ من أعوان الظلمة؟ قال لستَ من أعوان الظلمة، بل أنت من الظَلَمة، إنما أعوان الظَلَمة من يبيع منك الإبَر والخيوط. وكان بعض العلماء قد جلس فى ديوان بعض الأمراء، فكتب الأمير كتاباً فقال ناولنى الطين أختم به الكتاب، فامتنَع، فقال ناولنى الكتاب الذى كتبته حتى أنظر فيه، فلم يناوله. وفعَل مثل ذلك **سفيان الثورى** مع **المهدى** ، فكان بيد المهدى دُرج أبيض، وقد أدخل عليه الثورى، فقال له يا أبا عبد الله، اعطنى الدواة حتى أكتب، فقال أخبرنى بأى شىء تكتب، فإنْ كان حقاً أعطيتك، وإلاّ كنتُ عوناً على الظلم. وقد جاء فى الخبر مَن دعا لظالم بالبقاء فقد أحبّ أن يُعصىَ الله عز وجل. وفى الحديث إنّ الله ليغضب إذا مُدح الفاسق. وفى خبر آخر من أكرم فاسقا فكأنما أعان على هدْم الإسلام.

وليجتنب هذا السوقى البيوع الفاسدة مثل بيع **الغَرَر والخطر والمجهول**، ومثل بيعتين فى

بيعة، أحدهما **مصارفة** أو **مشارطة**، ولا يبيع ماليس عنده، ولا ما اشتراه حتى يقبضه، ولا يبيع الدّين بالدّين، ولا يتبايعان الثمار حتى يبدو صلاحها ويؤمَن عليها العاهة، ومن النخيل حتى تحمرّ أو تصفّر، ومن العنب حتى يلين أو يسوّد. ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن **النّجش**، وهو أن يُعطَى بسلعة شيئاً وهو لا يريد أن يشتريها بشيء ليُغرّ غيره بها، ولا يبتاع شيئاً من ذهب وخرز مثل القلادة ونحوها حتى يفصل كل واحد على حدته، كذلك السنّة.ولا يتبايعان مالم يظهر من الحيوان والثمار. وليتّوقّ كلّ بيع وشراء أخبر العلم ببطلانه، من دخولِ رباً فيه، أو خروجٍ من حكم العلم به، فإن ذلك كله منقصةٌ للدين، مخبثةٌ للكسب، فإنْ أشكل عليه شيء من هذه الأمور لخفائها سأل أهل العلم والفتيا، فيأخذ عنهم على مذهب الورعين ورأى المتقين، وليحتط لدينه ولينظر لنفسه ولا يُغمض في أمر آخرته، فذلك خيرٌ له وأحسن توفيقا. وليجتنب الصنائع المحدثة من غير المعروفة، والمعايش المبتدعة في زماننا هذا، فإن ذلك بدعة ومكروه إذا لم يكن فيما مضى من السلف. وكل ما كان سبباً للمعصية من آلة وأداة فهو معصية، فلا يصنعه ولا يبيعه، فإنه من المعاونة على الإثم والعدوان. وكل ما أخذ من المال على عملِ بدعة أو منكر، فهو بدعة ومنكر. وكل معينٍ لمبتدع أو عاص فهو شريكه في بدعته ومعصيته. وأخذُ المال على جميع ذلك من أكل المال بالباطل، ومَن أكل الحرام فقد قتل نفسه وقتل أخاه لأنه أطعمه إياه. قال الله تعالى« **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**»، وقال تعالى« **ولا تقتلوا أنفسكم**» وليس هذا من سبيل المؤمنين، وقد قال الله تعالى« **ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم**» .

ولا ينبغي للسوقي أن يشغله معاش الدنيا عن الآخرة، ولا تقطعه تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة، ولا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، لأنه من الموقنين. وبيوت الله عز وجل في الأرض هي أسواق للآخرة، قال الله عز وجل« **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة**» ، وقال الله عز وجل« **في بيوت أذِنَ الله أن تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمُه، يُسبّح له فيها بالغُدُوّ والآصال رجالٌ**» ، فيجعل العبد طرفيّ النهار لخدمة سيده، يذكره ويسبّحه في بيته بحُسن معاملته. وقد كان **عمر** رضي الله عنه يأمر التجّار فيقول اجعلوا أول نهاركم لله عز وجل، وماسوى ذلك لنفوسكم. وفي أخبار السلف كانوا يجعلون أول النهار للآخرة، وآخره للدنيا. وقال بعض العارفين الناس ثلاثة، رجلٌ شغله مَعاده عن معاشه فتلك درجة الفائزين، ورجلٌ شغله معاشه لمعاده فتلك درجة الناجين، ورجل شغله

معاشه عن معاده فهو حال الهالكين. وكان **ابن عمر** رضى الله عنه إذا دخل السوق يقول: اللّهم إنى أعوذ بك من الكُفر والفسوق، ومن شرّ ما أحاطت به السوق. اللهّم إنى أعوذ بك من يمين فاجرة وصفقة خاسرة. ولذكر الله عزّ وجلّ فى السوق مالا يجد فى سواه، فيعتمد ذكر الله تعالى فى ساعات الغفلة وحين تزاحم الناس فى البيع والشراء. ولا تقعدنّ فى السوق لغير ذكر الله أو غير معاشٍ فقد كُره ذلك. وإذا سمعتَ التأذين للصلاة فتأخذ فى أمر الصلاة ولا تؤخرها عن الجماعة، وإلا كان فاسقاً عند بعض العلماء، إلاّ أن يكون فى الوقت سعة، أو يكون ناوياً للصلاة فى جماعة أخرى، فى مسجد آخر، فإدراكه لتكبيرة الإحرام فى الجماعة أحبّ إليه من جميع ما يربح من الدنيا إلى أن يموت، وفوْتها أشد عليه من جميع ما يخسر من الدنيا. وقد كان السلف من أهل الأسواق إذا سمعوا الأذان ابتدروا المساجد يركعون إلى وقت الإقامة، وكانت الأسواق تخلو من التجّاره، وكان فى أوقات الصلاة معايش للصبيان وأهل الذمّة، وكانوا يستأجرونهم يحفظون الحوانيت إلى أوان انصرافهم من المساجد. وهذه سنّه قد عفت مَنْ عَمِلَ بها فقد نَعَشَها. وجاء فى تفسير قوله عز وجل« **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة**» ، قيل كانوا حدّادين وخرّازين، وكان أحدهم إذا رفَع المِطرقة أو غرز الأشْفَى فسمع الأذان لم يُخرِج الأشْفَى من الغَرزة، ولم يرفع المطرقة ورمى بها، وقاموا إلى الصلاة. وروينا عن **مالك** رضى الله فى رجل باع بعد النداء يوم الجمعة هل يُفسَخ ذلك البيع؟ قيل عاملٌ تَرَكَ القيامَ إليها وهو حر"، قال يَستغفر ربه، أو قال ظَلَم وأساء.وقال **مالك** يُحرَم البيع حتى يخرج الإمام يوم الجمعة.

وليجتنب الصانع عمل **الزخرف** وما يكون فيه من لهو وزينة من التصاوير والنقوش، وتخريم العاج، ودقائق النقوش من العاج، وتشييد الجص، والتزويق بالأصباغ المشهّاة، فإن عمل ذلك **مكروه**، وأخذ الأجرة عليه **شُبْهة**. وقد كان بعض السلف يقول تخيّروا لأولادكم الصنائع. وروى عن **حذيفة** أن الله عز وجلّ خلق كل صانع وصنعته. وقد كانوا يكرهون بيع **الطعام وبيع الدقيق**. وقد روُى فى **كراهة بيعها** حديث عن رسول الله صلّى الله عله وسلم. وفى الخبر أن الله عزّ وجلّ يحبّ العبد الحاذق فى صنعته. وفى خبر آخر أن الله عز وجل إذا عمل عبده عملا أحب أنْ يُحكِمه. وفى لفظ آخر أن يُتقنه. وأوصى بعض العارفين رجلا فقال لا تُسلِم ولدك فى بيعتين ولا فى صنعتين ، **بيع الطعام وبيع الأكفان**، فإنما يتمنى الغلاء، ويتمنى موت الناس، والصنعتان أن يكون **جزاراً**، فإنها صنعة تُقسّى القلب، أو **صوّاغاً**

فإنه يُزخرف الدنيا بالفضة والذهب. وروى عن **ابن سيرين** أنه كره **الدلالة** وكره أجر الدلاّل. وقد كانوا يستحبون **التجارة فى البَزّ**. وروى فى خبر آخر لو اتّجر أهل الجنة **لاتّجروا فى البزّ**، ولو اتّجر أهل النار **لاتّجروا فى الصَّرْف**. وقد كره **الحسن وابن سيرين** رضى الله عنهما التجارة **فى الصَّرف**، وسُئل **الحسن** عن **الصيرفى** فقال الفاسق، لا تستظلن بظله، ولا تصلّين خلفه. وقد كانت هذه **الصنائع العشر** أعمال الأخيار والأبرار: الخرْز، والحمل، والخياطة، والحذو، والقصارة، وعمل الخفاف، وعمل الحديد، وعمل المغازل، وصيد البّر والبحر، والوراقة. وحدثونا عن **عبد الوهاب الورّاق** قال قال لى **أحمد بن حنبل** ماصنعتك، فقلت ورّاق، فقال كسْبك طيب وصنعتك طيبة، ولو كنتُ صانعاً شيئاً بيدى صنعتُ صنعتك. وكان **مالك بن دينار ورّاقا**، وكان السلف يستطيبون كسبه ويفضلونه. وكل عمل يُتقرب به إلى الله عز وجل ويكون من أعمال الآخرة ومن البرّ المعروف فأخْذُ الأجر مكروه عليه ، مثل تعليم القرآن، وتعليم العلم، أو مجالس الذكر والصلاة بالناس فى رمضان، وغسْل الموتى، وما كان فى هذا المعنى، لأن هذه تجارات الآخرة فلا يؤخذ أجرها إلاّ من الآخرة، ومن أخذها من الدنيا فقد خسر خسرانا مبينا، إذ ربح المحتسبون فيها وأخذوا أجورهم التى صبروا عليها فى دار الدنيا. وقد قال **النبى صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبى العاص** واتخذ مؤذنا، لا تأخذ على الأذان أجراً.

ويجتنب التاجر **الاحتكار** لما يؤكل ويُقتات من القطينة وغيرها، وأشد ذلك الحنطة التى هى قوت الكافة، فقد روى فى كراهة الاحتكار والتشديد فيه أخبار كثيرة. روى **حذيفة** عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** من احتكر طعام المسلمين فليس منا. وفى خبر آخر من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدّق به لم تكن صدقة بل كفّارة لاحتكاره. وقيل من احتكر أربعين يوما فكأنما قتل نفساً. وفى خبر آخر ألقاه الله عزّ وجلّ فى معظم جهنم. وعن **علىّ رضى الله عنه** من احتكر الطعام أربعين يوما قسا قلبه. وعنه أنه أحرق طعاما محتكراً بالنار. وروى عنه فى فضل الاحتكار من جلب طعاما فباعه بسعر يومه فكأنما تصدّق به، وفى لفظ آخر فكأنما اعتق رقبه. ومن العلماء من كان يجعل الاحتكار فى كل مأكول من الحبوب والإدام، مثل العدس والباقلا والسمن والعسل والشيرج والجبن والتمر والزيت. ويكره احتكار جميع ذلك، وروُى نحو هذا عن **ابن عباس** فى قوله عزّ جلّ **«ومن يُرد فيه بإلحادٍ بظلم نُذقه من عذاب أليم»** ، قيل إن الاحتكار من الظلم.

وحدثونا عن بعض السلف أنه كان بواسط فجّهز سفينة حنطة إلى البصرة، وكتب إلى وكيله بِعْ هذا الطعام فى يوم تدخل البصرة فلا تؤخره إلى غد، قال فوافق السعر فيه سعة، قال له التجار إنْ أخّرته جُمُعة ربحتَ فيه أضعافا، فأخّره جمعة فربح فيه أمثاله، وكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام ياهذا قد كنّا قنعنا أنْ نربح الثلث مع سلامة ديننا، وإنك قد خالفت أمرنا وقد جنيْت علينا جناية، فإذا أتاك كتابى فخذ المال كله فتصدّق به على فقراء أهل البصرة، وليتنى أنجو من الاحتكار كفافا لا علىّ ولا لى!

ثم ليتق البائع مدح السلعة وتنفيقها من خَرَف الكلام، وليحذر المشترى ذمها وعيبها بما ليس فيها للخداع. وأما الإيمان على ذلك فهو معصية وممحقة للكسب، وقد كان السلف يشددون فى ذلك. قال أبو ذر كنا نتحدث أنّ من نَفَرٍ لا ينظر الله إليهم التاجر الفاجر، وكنا نعدّ من الفجور أن يمدح السلعة بما ليس فيها. قال يونس بن عبيد وكان خزّازاً فجاءه رجل يطلب ثوب خز، فأمر غلامه أن يخرج رزمة الخز، فلما فتحها قال الغلام أسأل الله الجنة، فقال شدّ الرزمة، ولم يبع منها شيأ خشية أن يكون قد مدح. ويقال إنه كانت عنده حلل على ضربين أثمان، ضرب منها أربعمائة كل حلة، وأثمان الآخر مائتان، فذهب إلى الصلاة وخلف ابن أخيه ليبيع، فجاءه أعرابى يطلب حلّة بأربعمائة، فعرض عليه من حلل المائتين، فاستحسنها ورضيها، فاشتراها منه ومشى بها وهى على يده ينظر إليها خارجاً من السوق، فاستقبله يونس بن عبيد خارجاً من المسجد فعرف حلته، فقال بكم أخذت هذه الحلة، فقال بأربعمائة، فقال لا تَسْوَى، إنما قيمتها مائتان، فقال ياذا الرجل إنّ هذه تساوى ببلدنا خمسمائة درهم، فقال له يونس إنّ النُصح فى الدين خيرٌ من الدنيا كلها، ثم أخذ بيده فردّه إلى ابن أخيه، فجعل يخاصمه ويقول أما اتقيت الله، أما استحيت أنْ تربح مِثْل الثَمن وتترك النصح لعامة المسلمين، فقال والله ما أخذه إلاّ عن تراض، فقال وإنْ رضى ألا رضيت له ما رضيت لنفسك؟ ثم ردّ على الأعرابى مائتى درهم.

وقد سئل بعض العلماء عن الورع فى المبايعة، فقال لا يصح الورع فى البيع إلاّ بحقيقة النُصح، قال وكيف ذلك؟ قال إذا بعته شيئاً بدرهم نظرت، فإن صلح لك أن تشتريه بدرهم فقد نصحته فى البيع ، وإن كان يصلح لك بخمسة دوانيق وقد بعته بدرهم فإنك إنْ لم ترض له ما ترضى لنفسك فقد ذهب النصح، قال فإذا عَدِمَ النُصح ذهب الورع.

ويقال إن البائع يوقف يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئاً وقفة ، ويحاسب عن كل واحد محاسبة ، حتى عدد من عامله ومن اشترى منه في الدنيا. فإن كان البائع ذا ميزان فليرجح في الوزن إذا باع وأعطاه، ولينقص نفسه إذا أخذ، سيما إذا كان ذا ميزانين ، كان الأمر عليه أشد. وكان بعضهم يقول ألا اشترى الويل من الله بحبة، فكان إذا أخذ نقص نفسه بحبة، وإذا أعطى زاد غيره حبة، لقوله عز وجل «**ويل للمطففين** »، يعني الذين رضوا بالتطفيف بالحبة والحبتين ، فباعوا بذلك جنة عرضها السموات والأرض، لجهلهم بأمر الله تعالى وقلة يقينهم بالآخرة. ويقال إن هذه المظالم لا ترد أبداً ولا تصح التوبة منها لتعذر معرفة أصحابها. وقال بعض أهل السلف عجباً للتاجر والبائع كيف ينجو، يزن ويحلف بالنهار وينام بالليل. وقال **سليمان عليه السلام** كما تدخل الحية بين الحجرين كذلك تدخل الخطيئة بين المتبايعين. ولا ينبغي للمشترى أن يسأل البائع الرجحان لأن الله عز وجل قال «**وأقيموا الوزن بالقسط**» أي بالعدل وهو السواء، وهو استواء اللسان في البكرة، لا مائلاً إلى إحدى الكفتين.

ومكروه المعاملة بالمزيفة، ولا يصلح درهم تكون الفضة فيه مجهولة أو مستهلكة، ولا بما لا تعرف قيمته وما يختلط بالفضة من غيرها فلا تمتاز منه، فقد كان بعض السلف يشدد في ذلك ويحرمه، منهم **الثوري والفضيل بن عياض ووهب بن الورد وابن المبارك وبشر بن الحارث والمعافى بن عمران رضى الله عنهم**.وقد كان بعض علمائنا يقول إنفاق درهم مزيف أشد من سرقة مائة درهم، قال لأن سرقة مائة درهم معصية واحدة منقضية، وإنفاق دانق مزيف بدعة أحدثها في الدين ، وإظهار سنة سيئة يعمل بها بعده، وإفساد لمال المسلمين، فيكون عليه وزره إلى مائة سنة فأكثر ما بقي ذلك الدرهم يدور في أيدى المسلمين، ويكون عليه إثم ما أفسد ونقص من أموال المسلمين إلى آخر فنائه وانقراضه، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه بعده مائة سنة ومائتى سنة، يعذب بها في قبره، ويسئل عنها إلى آخر انقراضها. قال الله عز وجل «**ونكتب ما قدموا وآثارهم**» ، ما قدموا ما عملوا، وآثارهم ماسنوه بعدهم فعمل به. وقال في وصفه ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر، قيل بما قدم من عمل وما أخر من سنة عمل بها بعده. وقال **رسول الله صلى الله عليه وسلم** من سن سنة سيئة فعمل بها بعده كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيأ... وإنفاق الدرهم الردىء على من يعرف النقد أشد وأغلظ، وهو على

من لا يعرف أسهل فيكون به أعذر، لأن هذا لايتعمد الغش والآخر يتعمده ويقصده، فإنما كان المسلمون يتعلمون جودة النقد لأجل إخوانهم المسلمين لئلا يغشّوهم بالردىء، وإلاّ فإنّ تعلّم النقد بلاء وإثم على صاحبه لأنه عِلْمٌ عَلِمَهُ ولم يعمل به، فهو يُسئل عن علمه. ومن رُدّت عليه قطعة فليُنفقها ولا يُجوّزها على بيع آخر، ويحتسب بذلك الثواب من الله عز وجل ، فله بذلك من الأجر بوزْن كل ذرة منها حسنة. فينبغي للتاجر أن يكثر من الصدقة ليكون فيها كفارة خطاياه وأيمانه وكذبه، فقد أمر النبى صلّى الله عليه وسلم التاجر بالصدقة لذلك، فينبغى للتاجر والصانع أن يكونا مستعمليْن لهذه الخصال، فإنها جامعة له تشتمل على جُمل أعمال البّر،ليأخذوا أنفسهم بها، فإنها من أخلاق المؤمنين وطرائق المتقدمين ، وقد نُدبوا إلى جميعها، منها أنْ يسَمح إذا باع ويسَمح إذا اشترى، ويُحسن إذا قضى ويُحسن إذا اقتضى، وليمش الرجل بديْن غريمه إليه ولا يُحوجه إلى اقتضائه فيشق عليه، وليصبر صاحب الديْن على أخيه، ويُحسن تقاضيه، ويُحسن له النظرة، ويؤخر حقّه إلى مسيرته، وليغتنم دعاء رسول الله صلّى الله عليه وسلم لهم على ذلك، فينافسوا فى مدحه لمن فعل ذلك، فقد روُى عن النبى صلّى الله عليه وسلم قال إسمح يُسمح لك، وقال خير الناس أحسنهم قضاءً، وقال خُذْ حقّك فى عَفافٍ، وافياً كان أو غير وافٍ، يحاسبك الله حساباً يسيرا. وقال رحم الله عبداً سمْحَ البيع سمْحَ الشراء، حَسَنَ القضاء حَسَنَ الاقتضاء. وقال من مشى إلى غريمه بحقّه أظلّته الملائكة. وقال مَن أنْظَر معسراً أو ترك له، حاسبه الله حساباً يسيرا، وفى خبر آخر أظلّه الله فى ظل عرشه يوم لا ظّل إلاّ ظلّه. وفى خبر آخر من أقرض ديْناً إلى أجَلٍ فله بكل يوم صَدَقة إلى أجله، فإذا حلّ الأجل فأنظره بعده ، فله بكل يوم مثْل ذلك الديْن صَدقة. وفى حديثٍ مَن أدان ديْناً وهو ينوى قضاءه وُكِل به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه. وكان جماعة من السلف يدانون وهم واجدون لأجل هذا الخبر، وكان جماعة لا يحبون أنْ يقضيهم غرماؤهم دَيْنَهم لأجل ذلك الخبر الأول، إذ له بكل يوم تأخر قضاء صدقة. وفى الحديث رأيتُ على باب الجنة مكتوباً الصدَقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر، قيل معناه لأن الصدقة تقع فى يد محتاج وغيره، والقرض لا يقع إلا فى يد محتاج مضطر إليه. وكان النبى صلّى الله عليه وسلم قد أدان ديناً إلى أجل فجاءه صاحب الدين عند حلول الأجل، ولم يتفق عند النبى صلّى الله عليه وسلم، فجعل الرجل يكلّم النبى صلّى الله عليه وسلم ويشدّد عليه فى الكلام، فهمّ به أصحابه، فقال دعوه فإنّ لصاحب الحق مقالاً.

وأستحبُّ أنْ تكون أكثر معاونة الإنسان بين البائعين مع المشترى منهم، وأستحب أيضا أن يكون عونه بين المتداينين مع الذى له الدين، إلاّ أنْ يعتدى مَن له الدين أو يعتدى المشترى، فيكون حينئذ على المشترى. ويسير المغابنة فى التجارات جائز، فإنّ موضوع التجارة على الغَبْن إذا كان عن تراضٍ، فإذا تفاوتت القيمة وعُلم الغبن فمكروه. وقد يُروىّ فى حديث إنّ غبن المستغفَل حرام. وفى حديث فيه مقال المغبون لا محمود ولا ماجور. وهذا والله أعلم إذا تغابن وهو يعلم فيخسر حقه ويحمل غيره على ظلمه. وكان **الزبير بن عدى** يقول أدركت ثمانية عشر من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم ما منهم رجل يُحسن يشترى لحماً بدرهم. وقد روى أن **الحسن** باع بغلاً له بأربعمائة درهم، فلما استوجب المال قال له المشترى إسمح يا أبا سعيد، قال قد أسقطت عنك مائة، قال له المشترى فأحسِن يا أبا سعيد، قال قد وهبتُ له مائة أخرى، فنقص من حقه مائتى درهم. وفى رواية أخرى قال أحسِنْ قال وهبْت لك مائتى درهم، فقيل له يا أبا سعيد هذا نصف الثمن، فقال هكذا يكون الإحسان وإلاّ فلا.

وقد كان **الحسن والحسين** رضى الله عنهما وغيرهما من خيار السلف يستقصون فى الاشتراء ثم يهبون مع ذلك الجزيل من المال، فقيل لبعضهم تستقصى فى شرائك على اليسير، ثم تهب الكثير ولا تبالى، فقال قائلهم إنّ الواهب يعطى فضله، وإنّ المغبون يُغبن عقله. وقال آخر إنما أغبن عقلى وبصيرتى، أو قال معرفتى، ولا أمكّن الغابن من ذلك، وإذا وهَبتُ فإنما أعطى لله عز وجل فلا استكثر له شيأ. والأخبار فى هذه المعانى تكثر، والفضائل فيها تطول، ولم نقصد جمع ذلك فقد ذكرنا جُمله، وهذا كله داخل فى البرّ والتقوى، ومن العدل والإحسان، ومن تطوع الخير وفعل المعروف، فقد أمر الله بذلك فى مواضع من كتابه.

وينبغى أن يستعمل النُصح فى البيع والشراء وفى الصنعة، ويستوى عملهما فى المبيع والمشترىّ والمصنوع، ويفطّن كل واحد منهما صاحبه بعيْبٍ إنْ كان فى السلعة، ويُنقص إن كان فى الصنعة، إنْ لم يفطن المشترى لذلك والمستعمِل ليتكافأ العلمان، ويُثنى كل واحد منهما على صاحبه بإحسان. وفى الخبر البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما فى بيعهما، وإذا كذبا وكتما أنزعت بيعهما. وفى حديث آخر يد الله على الشريكيْن مالم يتخاونا، فإذا تخاونا رفع يده عنهما. ولّما بايع النبى صلّى الله عليه وسلم **جريراً** على الإسلام ذهب لينصرف، فجذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم، قال فكان **جرير** إذا أقام السلعة

ليبيعها بصّر عيوبها، ثم أخبر فقال إن شئتَ فخذْ وإنْ شئت فاترك، فقلنا له رحمك الله إنك إذا قلتَ هذا لم ينفذ لك بيع، فقال إنما بايعنا رسول الله صلّى الله عله وسلم على النصيحة لأهل الإسلام. وكان **واثلة بن الأسقع** واقفا بالناس فى الكوفة فباع رجل ناقة بثلثمائة درهم، وغفل واثلة وقد ذهب الرجل بالناقة، فسعى وراءه وجعل يصوّت به حتى رجع، وقال ياهذا ألّلحم اشتريت هذه الناقة أم للظّهر؟ فقال بل للظهر. فقال فإنّ بخفّها نقْوا قد رأيته، وإنها لا تتابع السير عليه، قال فردّها فنقّصه البائع مائة درهم، فقال لواثلة رحمك الله أفسدت البيعة، فقال إنّا بايعنا رسول الله صلّى الله عليه وسلم لا يحل لأحد يبيع شيأ إلاّ يبيّن مافيه، ولا يحلّ لمن يعلم ذلك إلاّ يبينه. فانظر رحمك الله إلى النصح للمسلمين الذى يتعذر فعله على كثير من المسلمين، إنما جعله رسول الله صلّى الله عليه وسلم من شرط صحة الإسلام وكان يبايع عليه، إلاّ أنه جعله من فضائل الدين. ولا نهاية لقرب المتّقين لأنه قال الدين النصيحة، الدين النصيحة ثلاثاً ، ثم سوّى بين طبقات الناس فيه، فقال للّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم.

وقد روى فى خبر مشهور لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن الخلق سَخَط الله مالم يُؤثروا صفقة دنياهم على آخرتهم، وفى خبر آخر مالم يبالوا ما نقص من دنياهم بسلامة دينهم.فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلاّ الله، قال الله سبحانه كذبتم لستم بها صادقين ، وفى لفظ آخر رُدّت إليهم .

وفى خبر كأنه مفسّر لحديث مُجْمَل: من قال لا إلا الله مخلصاً دخل الجنة، قيل وما إخلاصها ، قال أنْ تُحرزه عما يُحرّم الله. وخبرٌ مشهور ما آمن بالقرآن مَن استحل محارمه. والغش فى البيوع والصنائع محّرم على المسلمين. ومَن كثُر ذلك منه فهو فاسق. ومنْ الغش أنْ ينشر على المشترى أجود الطرفين من مبيع، أو يظهر من المبيع أجود الثوبين، أو يكشف من الصنعة أحسن الوجهين. وروى أنّ **النبى صلّى الله عليه وسلم** مرّ برجل يبيع طعاماً فأعجبه ظاهره، فأدخل يده فرأى بللاً فقال ماهذا، فقال أصابته السماء، فقال هلاّ جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس. مَن غشّ فليس منى.

وحدثنى بعض إخواننا أنّ رجلا حذّاءً سأل فكيف أسلم فى بيع النعال؟ فقال استجِّد الأوّل وليكونا سواء، واجعل الوجهين شيأ واحداً لا يفضل اليمين وجود الحشو، وقارب بين الخرْز، ولا تطبق أحد النعلين على الأخرى. فينبغى للبائع والصانع أن يظهرا من البيع والمصنوع أردأ ما فيه وأرذله، ليقف المشترى والصانع على عيوبه، ويكونا على بصيرة من باطنه، ويبين

دقائق الإعلام والبيان فى ذلك مما لا يعلمه المشترى أو المستعمل، فهو من النصح والصدق، وذلك يكون عن التقوى والورع فى البياعات والإجارات، ويكون الكسب عن ذلك أحلّ وأطيب. فليجتنبْ المسلم محرّم ذلك كله، وكل مكروه، فهذه سيرة السلف وطريقة صالحى الخلَف.

وأستحبُّ له أنْ يتوخى فى الشراء والبيع، ويتحرّى أهل التقوى والدين، ويسأل عمّن يريد أنْ يبايعه ويشاريه. وأكره له معاملة من لا يرغب عن الحرام أو مَن الغالب على ماله الشبهات.وحُدثنا عن بعض الشيوخ عن شيخ له من الخلف الصالح، قال أتى على الناس زمان كان الرجل يأتى إلى مشيخة الأسواق فيقول مَن ترون لى أن أعامل من الناس من أهل الصدق والوفاء، فيقال له عامل من شئت، ثم أتى عليهم وقت آخر فكان الرجل يقول مَن ترون لى أن أعامل من الناس، فيقال عامل من شئت إلاّ فلاناً وفلانا، قال ونحن فى زمن إذا قيل لنا من نعامل من الناس فيقال عامل فلان بن فلان، وأخشى أن يأتى على الناس زمان يذهب فلان بن فلان أيضا.

وينبغى أن لا يحلف ولا يكذب ولا يُخلف موعداً فإنّ اليمين الكاذبة ممحقة للكسب. وقد قيل ويلٌ للتاجر مَن يقول لا والله، وبلّى والله، وويلٌ للصانع من اليوم وغد وبعد غد. وعن **أبى هريرة** قال **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، عبدٌ متكبّر، ومنّانٌ بعطيته، ومنفقٌ سلعته بيمينه. وينبغى أن لا يمدح إذا باع أو صنع صنعةً، ولا يذم إذا اشترى أو استعمل صانعاً، فإنّ هذا لا يزيد فى رزقه ولا يُنقص منه تَركُه، وهذا من اليقين فى الرزق فى هذا الباب، وفعله يزيد فى الذنوب فيُنقص من الدين.

وعلى الصانع أنْ يبلغ غاية النصح فى صنعته لمستعمله، لأنه أعرف بصلاح صنعته وفسادها، وبسرعة فناء الصنعة وكثرة بقائها، فينبغى أنْ يتقن نهاية علم الصانع بصلاح الصنعة وحُسن بقائها مع نهاية بُغية مستعمله من تجويدها وإحكامها، ويتّقى من فساد يُسرع إلى فنائها مالا يفطن له مستعملُه، فإذا فعل الصانع والتاجر ذلك كانا قد عملا بعملهما وسلّما من المطالبة والمساءلة عنه، وإلاّ فهما يُسئلان، فيقال لهما ماذا عملتم فيما علمتم إذ كانوا على علم من التجارة والصناعة. وبهذه الأشياء عمارة المملكة فلابد أن يُسئلا عن ذلك، كما يُسئل من كان على علم من الدين والإيمان، لأن لهم فى علوم العقل والتمييز من أبواب الدنيا أحوالاً أيضا ومقامات من حيث كان عليهم فى ذلك تكليف وعبادات. ويقال إذا أثنى

على الرجل جيرانُه فى الحَضَر، وأصحابُه فى السفر ، ومعاملوه فى الأسواق، فلا تشكّوا فى صلاحه. وشهد رجل عند **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه بشهادة فقال أئتنى بمن يعرفك، فأتاه رجل فأثنى عليه خيراً، فقال له **عمر** رضى الله عنه أنت جاره الأدنى الذى تعرف مدخله ومخرجه ؟ قال لا، قال فكنت رفيقه فى السفر، الذى يُستدلّ به على مكارم الأخلاق؟ قال لا، قال فعاملته بالدينار والدرهم الذى يتبين به ورع الرجل؟ قال لا، قال أظنك رأيته قائماً فى المسجد يُصلى بخفض رأسه طوراً ويرفعه؟ قال نعم، قال اذهب فلستَ تعرفه، أو قال أنت القائل مالا تعلم.

وقد كان من سيرة السوقة فيما سلف أنه كان للبائع دفتران للحساب، أحدهما ترجمته مجهول، فيه أسماء من لا يعرفه من الفقراء الضعفاء، وذلك أن المسكين والضعيف كان يرى المأكول فيشتهيه، أو يحتاج إليه ولا يمكنه أنْ يشتريه، فيقول للبائع احتاج إلى خمسة أرطال من هذا أو عشرة وليس عندى ثمنه، فيقول خذ إلى ميسرة، فإذا رُزِقتَ فاقْض، ويكتب اسمه فى الدفتر المجهول. قال ولم يكن من يفعل هذا من خيار المسلمين، بلَ كان الخير من الباعة من لا يكتب اسمه فى دفتره ولا يجعله ديْناً حتماً عليه ولا مظلمة عنده، ولكن يقول خذ حاجتك مما تريد، فإنْ وجدتَ فاقض، وإنْ لم تجد فأنت فى حلٍّ لا تضيقن قلبك لذلك. وهذا طريق قد مات، فمن قام به فقد أحياه. فكان مثل هؤلاء فى المتقدمين أكثر من أن يسعهم كتاب، وكان من ينصح دقائق النصح وشدّد على نفسه غاية التشديد وسمح لإخوانه نهاية الجود أكثر من ذلك. وإنما ذكرنا هؤلاء لتنبيه الغافلين على أعمالهم ونكشف بعض ماعفا من طريقهم. ولم يكن هؤلاء المذكورون من السُوقة من خيار الناس كلهم، إنما كان الأخيار المسجدية العبّاد والنسّاك المنقطعون إلى الله الزهاد. فإذا حصلَت كفاية السوقى فى بعض يومه فليجعل بقيته لأخيه، فقد كان بعض السلف منهم من ينصرف من حانوته بعد صلاة الظهر ويجعل نصف يومه لربه، ومنهم من ينصرف بعد العصر فيكون آخر يومه لآخرته. وكان بعضهم إذا حصلت كفايته فى يومه وتأتّى قوت عياله فى أى وقت من نهاره غلق حانوته وانصرف إلى منزله أو مسجده يتعبّد بقية يومه. وكان منهم مَن إذا ربح دانقاً أو قيراطا انصرف قناعةً وزُهداً وقلة حرص على الدنيا. وقد كان كثير من الصناع يعمل نصف يومه، وثلثى يومه، ثم يأخذ ما استحقه من كفايته وينصرف إلى مسجده. ومنهم من كان يعمل فى الأسبوع يوماً أو يومين ويتعبّد سائر الأسبوع فى خدمة سيده. وقد كانوا يجعلون أول النهار وآخره للآخرة فى تجارة

المعاد والمرجع، ويجعلون وسط النهار لتجارة الدنيا. وفى الخبر أنّ الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد من أول النهار ومن آخره فيها خيرٌ وذكر، كفّر الله عزّ وجلّ عنه ما بينهما من سيء العمل. وقد كان علّى رضى الله عنه يمر فى سوق الكوفة ومعه الدرّة وهو يقول يا معشر التجار، خذوا الحق واعطوا الحق تسلموا، ولا تردّوا قليل الربح فتُحرموا أكثر، وما مُنع من حقّ إلاّ ذهب أضعافه فى باطل. وقيل لعبد الرحمن بن عوف ما كان سبب يسارك، فقال ثلاث: ماردت ربحاً قط، ولا طُلب منى حيوان وأخّرت بيعه، ولا بعت بنسأ. وقد كان الورعون يكرهون ركوب البحر للتجارة، ويقال من ركب البحر للتجارة فقد استقصى فى طلب الرزق. وفى الخبر لا يركب البحر إلاّ حاجّ أو غازٍ أو معتمر. وكان عمر رضى الله يقول ابتاعوا بأموال اليتامى لا تأكلها الزكاة، وثمّروها لهم بالأرباح. فإذا كان المتسبب فى المعاش والمتصرّف فى الأسواق على هذه الأوصاف المحمودة، وبهذه الشروط الموصوفة، قائماً بحكم حاله، حافظا لمقامه، فإنه فى سبيلٍ من سُبل الله عز وجل،أفعاله وآثاره حسنات وكل ما تسبب به إلى الآخرة، وكان عوناً له عليها وطريقاً إليها فهو من الآخرة، وإذا خالف هذه الشروط، ولم يستعمل العلم فى أحواله، وفارق التقوى فى تصرّفه، أو كان يسعى تكاثراً وحرصا على الدنيا، جَزوعاً على مافاته من الدنيا، مستقلا لما فى يديه منها، لا يبالى ماذهب من دينه إذا سلمت دنياه، ولا يبالى من أين اكتسب وفيما أنفق، فهذا يتقلّب فى المعاصى والمكاره ظهراً لبطن، متعرّضاً للمَقت من الله عز وجل، غيرّ مستعد للموت، ولا موقن بالحساب، أفعاله وآثاره سيآت. وتَرْك التجارة على هذه الأوصاف المكروهة خيرٌ لهذا.

ذكر مارويناه من الآثار فى البيوع والصنائع وطريقة الورعين من السلف

وروينا عن علقمة رضى الله تعالى عنه عن ابن مسعود قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم من جلب إلى مصر من أمصار المسلمين فباعه بسعر يومه، كان له عند الله تعالى أجر شهيد، ثم قرأ رسول الله صلّى الله عليه وسلم «**وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله**». وروينا عن عُقبة بن عامر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يدخل الجنة صاحب مكْس. وروينا عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقال نادماً فى بيع أقاله الله عزّ وجلّ يوم القيامة. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير مال المسلم سكّةٌ مأبورة

أو مُهرة مأمورة. قوله سكة مأبورة يعنى النخيل التى قد أبرّت فهى طريق كالسكك، وقوله مُهرة مأمورة يعنى الخيل النواتج مأمورة أى كثيرة، ومن هذا قوله تعالى «**أمّرنا مترفيها**»أى أكثرناهم، يقال أمر القوم إذا كثروا.

وقال **مروان بن الحكم لوهب بن الأسود** ما المروءة، قال برّ الوالدين، وإصلاح المال. وكتب **إبراهيم بن أدهم** إلى **عبّاد بن كثير** إجعل طوافك وسعيك وحجّك كنومة غازٍ فى سبيل الله عزّ وجلّ، فكتب **عبّاد** إلى **إبراهيم** إجعل حرسك ورباطك وغزوك كنومة كادّ على عياله من حلّه. وروينا عن **إبراهيم بن أدهم** قال ما الحاج المعتمر، ولا الغازى المرابط، ولا الصائم والقائم، بأفضل عندنا ممن أغنى نفسه عن الناس.

وروينا عن **لقمان** قال لابنه يابنى خذ من الدنيا بلاغا، ولا ترفضها كل الرفض فتكون عيالاً على الناس. وحدثونا عن **شاذان** قال سألت **الحسن بن حى** عن شىء من المكاسب، فقال إنْ نظرتَ فى هذا حَرُمَ عليك ماء الفرات، ثم قال طلب الحلال أشد من لقاء الزحف. وروينا عن **ابن المبارك** قال اركب البرّ والبحر واستغن عن الناس. وروينا عن **حمّاد بن زيد** قال قال **أيوب** كسبٌ فيه بعض الشىء أحبُّ إلىّ من الحاجة إلى الناس. وأنشدونا عن **ابن أبى الدنيا** قال أنشدنى **عمر بن عبد الله**:

لنَقلُ الصخر من قُلل الجبال * أخفُّ علىّ من مِنن الرجال

يقول الناسُ كسبٌ فيه عار * فقلت العار فى ذلّ السؤال

وركب **إبراهيم بن أدهم** البحر فأخذتهم ريحٌ عاصف أشرفوا على الهلَكة،فقالوا يا أبا إسحق، أما ترى ما نحن فيه من الشدّة، قال وهذه شدة، قالوا فأى شىء الشدة، قال الحاجة إلى الناس. وأنشدنا بعض العلماء لبعض الأدباء:

لَموت الفتى خيرٌ من البخل للفتى * ولَلبخل خيرٌ من سؤال بخيل

فلا تجْعلنّ شيا لوجهك قيْمة * ولا تلق مخلوقاً بوجه ذليل

ولا تسألّن مَن كان يسأل مرة * فلَلفقر خيرٌ من سؤال سَؤُل

وأنشدنا بعض الأشياخ:

إذا عُدّت الآفات فالبخل شرُّها ❊ وشرٌّ من البخل المواعيدُ والمَطْلُ

ولا خيرَ فى وعدٍ إذا كان كاذبا ❊ ولا خير فى قول إذا لم يكن فعلُ

وقال **سفيان الثورى** رحمه الله تعالى إذا قلتَ لصاحبك أحسنْ فأحسَنَ فهو صدقة. وكان **إبراهيم بن أدهم** ورفقاؤه فى المسجد فى شهر رمضان، فلما سلّم الإمام قام رجل فسأل فلم يُعطَ شيأ، ووضعوا عشاءهم فقالوا لإبراهيم يا أبا اسحق ندعوه، قال لا تدعوه، فبات بغير عشاء، فلما كان من الغد جاء رفيق لإبراهيم، فقال له يا أبا إسحق رأيتَ الذى سأل البارحة وعلى رأسه حزمة حطب، فقال تدرون لِمَ قلتُ لكم لا تدعوه؟ سبق إلى قلبى أنه لم يسأل قبلها، فكرهت أنْ أدعوه فيتّكل على عشائكم. وقال رجل **لإبراهيم** كيف أصبحت؟ قال بخير مالم يتحمل مؤنتى غيرى.

وكان **سليمان الخوّاص** يلقط، وكان **إبراهيم بن أدهم** يؤاجر نفسه، وكان **حذيفة** يضرب اللبِن: وقال **الحسن** : الأسواق موائد الله تعالى، فمن أتاها أصاب منها. وعن **قتادة** قال مكتوب فى **التوراة** اتّقِ توَق، وسَلْ تُعط ،واطلبْ تجد، ومكتوب فى **الإنجيل** ابن آدم اصبِر تصبرْ. وعن **أبى العالية** قال إذا اشتريت شيأ فاشترِ أجوده. وحدثونا عن **أبى بكرالمروزى** قال سألت أبا عبد الله (**أحمد بن حنبل**) عن الذى يعامِل بالربا، يُؤكَل عنده؟ قال لا. وقال **أبو الدرداء** إنّ تمام التقوى أنْ تتقى العبد فى مثقال ذرة حتى يترك بعض مايرى أنه حلال خشية أن يكون حجابا بينه وبين الحرام. وحُدثنا عن **أبى بكر المروزى** قال سألت أبا عبد الله (يعنى **أحمد بن حنبل**) عن الرجل يكون معه ثلاثة دراهم، منها درهم حرام لا يعرفه؟ قال لا يأكل منه شيأ حتى يعرفه. وقال سألت **أبا عبد الله** عن الرجل يكتسب بالأجر فيجلس فى المسجد؟ فقال إنما بُنى المسجد ليُذْكر الله تعالى فيه. وكرّه البيع والشراء فيه. وقلت **لأبى عبد الله** للرجل يعمل المغازل ويأتى المقابر، فربما أصابه المطر فيدخل فى بعض تلك القباب فيعمل فيها؟ قال المقابر إنما هى من الآخرة، وكرّه ذلك. وسُئل عن رجل له أب مراب، يرسله أن يتقاضى له، تَرى له أن يفعل؟ قال لا، ولكن يقول لا أذهب حتى تتوب. وسألت **أبآ عبد الله** عن قُبلة اليد، فلم ير بها بأسا إنْ كان على التدين. قال قد قبّل **أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب** رضى الله عنه• وسمعت أبا عبد الله ينكر على **أبى ثور** قوله إذا أجمع الأطباء أن شفاء الرجل فى الخمر أنه ليس به بأس، فأنكر إنكاراً شديداً عليه، وقال لقد كرهتَ أن يُداوىَ

الدبُر بالخمر، فكيف بشُربه؟ وتكلم بكلام غليظ. ووحُدّثت عن **شعيب بن حرب**، قال لأن أرى ابني يسرق أو يزني أحبٌ إليّ من أنْ يأتي عليه وقت لا يعرف الله تبارك وتعالى فيه.وقيل **لأبي أسامة** أجيب وليمة فيها نبيذ؟ قال لا، قلت أخاف الحديث الذي جاء عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** مَن لم يُجب فقد عصَى، فقال من لم يجب اليوم فقد أطاع الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلم. وقال **هرون بن معروف** جاءني فتى فقال إنّ أبي حلف علّي بالطلاق أن أشرب دواء مع مُسكِر، فذهبت به إلى أبي عبد الله فلم يرخص له، وقال قال **النبي صلّى الله عليه وسلم** كُل مسكر حرام وكل مسكر خمر وقال المروزي سألت **أبا عبد الله** عن الرجل يُجصّص، فقال أمّا أرض البيوت فتُوقيهم من التراب، وكره تجصيص الحيطان. وذكرت **لأبي عبد الله** مسجداً قد بُنيَ وأنفق عليه مالاً كثيرا، فاسترجع وأنكر ماقلت، وقال قد سألوا **النبي صلّى الله عليه وسلم** أن يُكَحّل المسجد، فقال لا عريش كعريش موسى، وقال أبو عبد الله إنما هو شيء من الكحل يُطلَى، فلم يرخص النبي صلّى الله عليه وسلم . وقلت **لأبي عبد الله** وما معنى قول النبي صلّى الله عليه وسلم لا شرطين في بيع؟ قال قول الرجل أبيعك أمَتي هذه على أنك إذا بعتها فأنا أحق بها. وسئل عن ربح مالم يُضمن، قال الرجل يبيع الطعام قبل أن يقبضه. وقيل **لأبي عبد الله** في الرجل يشتري العام صُبْرةً ترى له أنْ يبيعه قبل أن يكيله، فقال لا. وقلت **لأبي عبد الله** الرجل يكون له القرابة سكران- يُجفَى؟ قال أي شيء بقي إذا سكر. نعم يُجفَى أو يُجانَب. وسألته عن المُكرَه يراد على شرب الخمر؟ فقال يُروى عن **عمر** رضي الله أنه قال لا يفعل حتى يُنال بعذاب. وسألت **أبا عبد الله** عن رجل لبّي بالحج وليس عنده شيء وعليه دين، قال لا يجوز حتى يستأذن أصحاب الدين. وسألت **أبا عبد الله** عن رجل له أم ضريرة وله مال- يحج عنها؟ فقال يحج عنها إذا لم تقدر على الركوب. وقال يعجبني أن لا يحج إلاّ عن قرابة. وسئل **أبو عبد الله** عن المرأة اذا كانت موسرة وزوجها غائب- هل تحج ؟ قال تكتب إليه، فإن أذن، وإلاّ خرجت مع ذي محرم، قيل فان كان شاهداً يمنعها، تخرج من غير علمه مع محرمها؟ قال نعم ليس له أن يمنعها. قال ولا تخرج مع غيره، فإنْ كان أخوها من الرضاعة خرجت. وقيل **لأبي عبد الله** الرجل يستأجر الدار والحانوت فيؤاجره بأكثر مما استأجره؟ قال فيها اختلاف ولم يجب. وقيل له رجل له شجر في أرضه وأغصانها في أرض غيرهْ؟ قال يقطع أغصانها. قيل له فإن صالحه على أن تكون الغلّة بينهم؟ قال لا أدري.قلت **لأبي عبد الله** إن رجلاً قال من كان له امرأة يسكن

إليها، وخبزٌ يأكله، فهو من المتنعمين؟ قال صدق، وذَكرَ المطاعم ففضّل عمل اليدين. وقلت **لأبى عبد الله** إذا كان لى جار أعلم أنه يجوع؟ قال تواسيه. قلت فإذا كان قوتى رغيفين؟ وقال تطعمه شيأً، الذى جاء فى الحديث إنما هو فى الجار. وقلت **لأبى عبد الله** إذا كان للرجل قميصان أو جبّتان، تجبُ عليه المواساة؟ قال إذا كان يحتاج إليه فى هذا البرد. وقلت الأغنياء تجب عليهم المواساة؟ فقال إذا كان قوم يضعون شيأً على شىء كيف لا يجب عليهم؟ وسألت **أبا عبد الله** عن حلق القفا، فقال هو من فعال المجوس. قال ودُعِى **حذيفة** إلى شىء فرأى شيأً من زى الأعاجم فخرج، وقال من تشبّه بقوم فهو منهم. وكان **أبو عبد الله** لا يحلق قفاه إلاّ فى وقت الحجامة. وقلت **لأبى عبد الله** فما ترى فى تحذيف الوجه، قال أما الوجه فالمقاريض تأتى عليه، وكره أنْ يؤخذ الشعر بالمنقاش من الوجه، وقال لعن رسول الله صلّى الله عليه وسلم المتنمصات. وسألت **أبا عبد الله** عن المرأة تصل شعرها بقرامل، فكره ذلك. وسمعت امرأة تقول جاءت امرأة من هؤلاء الذين يمشطون إلى **أبى عبد الله**، فقالت إنى أصل رأس المرأة بقرامل وأمشطها، فترى أن أحج مما كسبت؟ قال لا، وكرّه كسبه لنهْى النبى صلّى الله عليه وسلم، وقال يكون من مال أطيب منه. وقلت **لأبى عبد الله** فالمرأة الكبيرة تصل رأسها بقرامل؟ فلم يرخص لها، وقال إن كان صوفاً أبيض، وتبسم. وعن **جابر** أن **النبى صلى الله عليه وسلم** زجر أن تصل المرأة برأسها شيأً. وقال **أبو بكر المروزى** سألت **أبا عبد الله** عن حلق الرأس فكرّهه، وقلت تكرهه؟ قال أشد الكراهية. واحتّج أبو عبد الله بحديث **عمر بن الخطاب** رضى الله تعالى عنه أنه قال لرجل لو وجدتك محلوقاً لضربت الذى فيه عيناك. وسألت **أبا عبد الله** عن الحقنة، فقال إذا اضطر إليها فلا بأس. وسألت **أبا عبد الله** عن مصحف قد بَلِى، ماترى فى دفنه؟ قال يُدفَن. وقلت الرجل تدعوه أمه وهو فى الصلاة؟ قال قد روى عن **ابن المنكدر** أنه قال إذا كان فى التطوّع فليُجبها وقلت **لأبى عبد الله**- رجل سقطت منه ورقة فيها أحاديث وفوائد، فأخذتها أن أنسخها وأسمعها، قال لا، إلاّ أنْ يأذن صاحبها. وسألت **أبا عبد الله** عن شىء من أمر الورع، فأطرق رأسه إلى الأرض وسكت. وكان ربما تغيّر وجهه يقول فى بعض ما أسأله أستغفر الله. قلت فأى شىء تقول يا **أبا عبد الله؟** قال أحب أن تعفينى. قلت فإذا أعفيتك فمن أسأل؟ لقد أصبح الأدلاّء متحيرين. قال هذا أمر شديد. وسمعته يقول أنا منذ أكثر من سبعين سنة فى فَقْد. وقال ماقلّ من الدنيا كان أقل للحساب. قلت له إن رجلا قال إن **أحمد بن حنبل وبشر بن الحارث**

ليس هما عندى زهّادا. أحمد له خبز يأكله، وبشر له دراهم تجيئه من خراسان، فتبسّم أبو عبد الله ثم قال من الزهاد أنا. وذُكر قوم من المترفين، فقال الدنو منهم فتنة، والجلوس معهم فتنة. وروينا عن سعيد بن خيثم عن محمد بن خالد، قال مرّ إبراهيم النخعي على امرأة يقال لها أم بكر من مراد وهى تغزل، فقال يا أم بكر، أما آن لك أنْ تتركينه، فقالت يا أبا عمران كيف أتركه وقد سمعت علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه يقول إنه من أطيب الكسب.

الفصل السابع والأربعون

فيه كتاب تفصيل الحلال والحرام وما بينهما من الشبهات، وفضل الحلال وذمّ الشبهة، وذكر تمثيل الحلال والحرام، وتمثيل ذلك بصور الألوان، وتعريف ذلك للعقول

روينا عن أبى هريرة عن النبى صلّي الله عليه وسلم، يأتى على الناس زمان لا يبقى فيه أحد إلاّ أكل الربا، فمن لم يأكله أصابه من غُباره. يعنى والله أعلم أنه يدخُل عليه وإنْ لم يعمل به، من غيْر قصْد له ولا اكتساب، كما يدخل الغُبار فى المشام للمجتاز، لفشو الربا وانتشار مداخله مما لا يمكن التحرز منه. وفى الخبر درْهم من ربا أعظم عند الله عزّ وجلّ من ثلاثين زينة فى الإسلام. وما تواعَد الله عز وجل ولا تهدّد فى معصية مثل ما تواعَد فى أكل الربا، فإنه عزّ وجلّ عظّم شأنه بوصفين عظيمين إعظاماً له وترهيباً منه، فذكر فى أوله المحاربة لله عزّ وجلّ ولرسوله صلّى الله عليه وسلم، وفى آخره الخلود فى النار، ينتظم ذلك فى قوله «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إنْ كنتم مؤمنين،» ثم اشترط للإيمان ترك الربا بقوله «إنْ»، وهى للشرط والجزاء، ثم قال «فإنْ لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله»، ثم أوجب التوبة منه بعد إعلامه الظلم منه فقال« وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون»، ثم نصّ على تحريمه فى قوله« وأحلّ الله البيع وحرّم الربا»، ثم تواعد بالخلود بعد ذلك كله فقال« ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»، وهذا من شديد الخطاب وعظيم العذاب.

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلّى الله عليه وسلم طلبُ الحلال فريضة بعد الفريضة، فسوّى بينه وبين العلم فى الفرض فأوجب الطلب لهما، فمثل فرْض طلب

الحلال للأكل مثل طلب العلم للجاهل. والفرائض إذا شُرعت ثبتت إلى يوم القيامة، فإذا أمر بطلبها دلّ على وجودها لأنه لا يؤمر بطلبٍ مفترضٍ علينا يكون معدوما، فالحلال موجود من حيث افترُض علينا وأمرنا بطلبه، ولكن طريقه ضيق، ووجوهه غامضة، والتسبب إليه فيه مشقة، والحاصل منه فيه خشونة وقلة، ومع ذلك فإنّ المعاون عليه قليل، والطالب غريب، وهذه أسباب تكرهها النفوس، وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم.

ثم إنّ الفرائض لها علوم وأحكام، فمن لم يعرف علومها ولم يقم بأحكامها فكأنه لم يعلمها. وكان **عمر** رضى الله عنه يضرب أهل السوق بالدرّة ويقول لا يتّجر فى سوقنا إلاّ من تفقّه وإلاّ أكل الربا. وكان بعض العلماء يقول تفقّه ثم ادخل السوق فبِعْ واشتر. وتأوّل معنى قول **النبى صلّى الله عليه وسلم** طلبُ العلم فريضة على كل مسلم، قال هو طلب عِلم الحلال والحرام. والبيع والشراء إذا أراد الإنسان أن يدخل فيه افتُرِض عليه علمه. ففى الخبر مَن سعى على عياله من حلّه فهو كالمجاهد فى سبيل الله عز وجل، ومَن طلب الدنيا حلالاً فى عفاف كان فى درجة الشهداء. ويقال إنّ أول لقمة يأكلها العبد من حلال يُغفَر له ماسلف من ذنوبه. ومن أقام نفسه فى مقام ذُلّ فى طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كما يتساقط ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس. وكان بعض العلماء يقول لبعض المجاهدين أين أنت من عمل الأبطال: كسْبُ الحلال، والنفقة على العيال. وقد كان **شعيب بن حرب** وغيره يقول لا تحقّر دانقاً من حلال تكسبه تنفقُه على نفسك وعيالك أو أخٍ من إخوانك، فلعلّه لا يصل إلى جوْفك أو لا يصل إلى غيرك حتى يُغفَر لك. وفى الخبر من أكل الحلال **أربعين** يوماً نوّر الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه، وفى بعض الروايات زهّده الله فى الدنيا. ويقال من أكل حلالاً وعمل فى سنّة فهو من **أبدال** هذه الأمة.

وقد كان **سهل** يقول: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يأكل الحلال بالورع. وروينا عن **إبراهيم بن أدهم وفضيل بن عياض** رضى الله عنهما: لم ينبُل من نَبُلَ بالحج ولا بالجهاد، ولا بالصوم ولا بالصلاة، وإنما ينبُل عندنا من كان يعقل ما يدخل جوفه، يعنى الرغيف من حلّه. وقال **يوسف بن أسباط لشعيب بن حرب**: أشعرتَ أن الصلاة جماعةً سُنّة، وأنّ كسْب الحلال فريضة؟ قال نعم. وسأل رجل **إبراهيم بن أدهم** قال أنا رجل أتكسّب فى السوق، فإذا عملتُ فاتتنى الصلاة فى جماعة فأيمّا أحب إليك، أصلى فى جماعة، أو

اكتسب؟، فقال: اكتسب من حلال وأنت فى جماعة. وقد كان **إبراهيم بن أدهم** يعمل هو وإخوانه فى الحصاد فى شهر رمضان، فكان يقول لهم: انصحوا فى عملكم بالنهار حتى تأكلوا حلالاً، ولا تصلّوا بالليل فإنّ لكم ثواب الصلاة فى جماعة وأجر المصلّين بالليل. وقال بعض السلف أفضل الأشياء **ثلاث**: عمل فى سنّة، ودرهم حلال، وصلاة فى جماعة. وكان **سهل رحمه الله** يقول: لا يبلغ العبد حقيقةً من هذا الأمر حتى يؤدى هذه **الأربع**: أداء الفرائض بالسنّة، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهى فى الظاهر والباطن، والصبر على ذلك إلى الممات. وقال: مَن لم يكن مطعمه من حلال لم يُكشَف الحجاب عن قلبه، ولمَ تُرفَع العقوبة عن قلبه، ولم يُبال بصلاته وصيامه إلاّ أن يعفو الله عزّ وجلّ عنه. وقال: من اختار أنْ يرى خوف الله فى قلبه ويكاشَف بآيات الصديّقين، لا يأكل إلاّ حلالاً، ولا يعمل إلاّ فى سنّة أو ضرورة. وكان يقول: إنما حُرموا مشاهدة الملكوت، وحُجبوا عن الوصول **بشيئين**: سوء الطُعْمة وأذى الخلق. وكان يقول: بعد سنة ثلاثمائة لا تصح لأحد توبة، قيل ولِمَ، قال يفسد الخبز وهم لا يصبرون عنه. وقد رُوى عن **أبى بكر الصدّيق** رضى الله عنه عن **النبى صلّى الله عليه وسلم**: جسمٌ غُذِىَ بحرام لا يدخل الجنة. النار أوْلَى به. وفى الخبر أنه ، أى أبو بكر، أكل من كسْب غلامه ثم سأله عنه، فقال الغلام رَقَيْتُ لقوم فأعطونى، وفى لفظ آخر تكهّنت لهم. فأدخل أبو بكر يده فى فيه وجعل يقىء حتى استقاءه عن آخر لقمة، ثم قال: اللهّم إنى أعتذر إليك مما حَمَلَت العروق وخالط الأمعاء. وقد روى أنّ **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** أخبر بذلك فقال: أوماعلمتم أنّ الصدّيق لا يدخل جوفه إلاّ طيّباً. وفى الخبر أنّ **سعد بن أبى وقاص** رضى الله عنه سأل **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** أنْ يجعله الله مُستجاب الدعوة، فقال: ياسعد أطبْ طُعْمتك تُستَجب دعوتك. وقال العلماء: الدعاء محجوبٌ عن السماء بفساد الطُعمة. ويقال إن الله لا يستجيب دعاء عبد حتى يُصلح طعمته ويُرضى عمله. وقال جماعة من السلف الجهاد عشرة أجزاء، تسعة فى طلب الحلال. وقال **علّى بن فضيل** لأبيه: يا أبَت إنّ الحلال عزيز. فقال: يابنى إنه وإنْ عزّ فقليله عند الله كثير. يقال إنّ مَن صلّى وفى جوفه طعام حرام، أو على ظهره سلك من حرام، لم تقبل صلاته. وقال بعض السلف: يامسكين، اذا صُمتَ فانظر عند من تُفطر، وطعام مَن تأكل، فإنّ العبد ليأكل الأكلة فيتقلب قلبه وينغَلّ كما ينغل الأديم، فلا يعود إلى حاله أبدا. وهذا أحد التأويلين فى قوله **صلّى الله عليه وسلم** : كم من صائم حظّه من صيامه الجوع والعطش، قال هو الذى يصوم ويفطر

على الحرام. وفي الخبر من طلب الدنيا حلالاً مفاخراً مكاثراً لقى الله عزّ وجلّ وهو عليه غضبان. وحدثونا من آثار السلف أنّ الواعظ والمُذكّر كان إذا جلس للناس ونصّب نفسه سأل أهل العلم عن مجالسته، فكانوا يقولون تفقدوا منه **ثلاثاً**: انظروا إلى صحة اعتقاده، وإلى غريزة عقله وإلى طُعمته، فإنْ كان معتقد البدعة فلا تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق، وإنْ كان سيىء الطُعمة فاعلموا أنه ينطق عن الهوى، وإن كان غير مكين العقل فإنه يُفسد بكلامه أكثر مما يُصلح فلا تجالسوه. وهذا التفقد والبحث طريق قد مات فمن عمل به فقد أحياه.

وذكر **النبى صلّى الله عليه وسلم** الحريصَ على الدنيا فذمّه، ثم قال رُبَّ أشعث أغبر مشرّد فى الآفاق، مطعمه حرام، وملبسه حرام، غُذّى بالحرام، يرفع يده فى صلاته فيقول يارب يارب فأنّى يُستجاب له ذلك. وفى الحديث عن ابن عباس عن **النبى صلّى الله عليه وسلم** أنّ لله عزّ وجلّ ملَكاً على بيت المقدس ينادى فى كل ليلة، مَن أكل حراماً لم يُقبل منه صرْفٌ ولا عدل، قيل الصرف النافلة، والعدل الفريضة. وفى حديث **أبى هريرة** المعدة حوْض البدن، والعروق إليها واردة، فإذا صحّت المعدة صدرت العروق إليها بالصحة، وإذا سقمت المعدة صدرت العروق إليها بالسُقم. ومثل الطعمة من الدين مثل الأساس من البنيان، فإذا ثبت الأساس وقوى استقام البناء وارتفع، وإذا ضعف الأساس واعوّج انهار البنيان ووقع. وقد قال الله أحسن الخالقين «**أفمن أسّس بنيانه على تقوَى من الله ورضوان خيْر أمّن أسّس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به فى نار جهنم**». وفى الحديث عن **النبى صلّى الله عليه وسلم** مَن اكتسب مالاً من حرام وإنْ تصدّق به لم يُقبل منه، وإنْ تركه وراءه كان زاده إلى النار. وقيل فى معنى قول الله عز وجل «**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ولا تقتلوا أنفسكم**»، قيل مَن أكل حراماً فقد قتل نفسه لأنه كان سبب هلاكها وتعذيبها. وفى الأخبار المشهورة عن **على** وغيره أنّ الدنيا حلالُها حسابٌ ، حرامُها عقاب. وقال **يوسف بن أسباط وسفيان الثورى** رحمهما الله لا طاعة للوالدين في الشُبهة. وقال **الفضيل بن عياض** مَن قام فى موقف ذُلٍّ فى طلب الحلال حشرة الله مع الصدّيقين، ورفعه إلى الشهداء فى موقف القيامة. وقال **أبو سليمان** أو غيره من العلماء لا يفلح من استحيا من طلب الحلال. وفى بعض التفسير «**فإنّ له معيشة ضنكا**»، قيل أكل الحرام. كما قيل فى قوله «**فلنحيينّه حياة طيبة**»، قال نرزقه حلالاً. وقد قال الله تعالى «**يا أيها الذين آمنوا كلوا**

من طيبات مارزقناكم»، قيل من الحلال. كما قال «**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا**»، أى من الحلال ، فأمر بأكل الحلال قبل العمل الصالح. وهكذا قال بعض العلماء زكاة الأعمال بأكل الحلال، فكلما كانت الطُعمة أحلّ كان العمل أزكى وأنفع. وكان **بشر بن الحارث** إذا ذُكِر **أحمد بن حنبل** يقول قد فضُل علّى بثلاث، منها صبره على العيال وأنا أضيق عن ذلك، وهو يطلب الحلال لنفسه ولغيره. وكان يقول ما أترك الطيبات زُهداً فيها وإنما أتركها لأنه لا يصفو لى درهمها، ولو صحّ لى الدرهم الذى اشتريها به لأكلتها.

وقد قال **علماء الظاهر** إن الحلال من **عشرة** أوجه، ومنهم من قال يوجد من **سبعة** أشياء، وأصل ذلك كله يرجع إلى **ثلاثة** أشياء: تجارة بصدق، وصناعة بنُصح، وعطية بحكم. ثم تنقسم العطية **أربعة** أقسام، فيكون فيئاً، أو ميراثاً، أو هبةً عن طيب نفس، أو صدقة مع وجود فقر. ومدار ذلك كله وقطبه أنّ الحلال مشتق من اسمه بمعنيين: ما انحلّ الظلم عنه، أو حلّ العلم فيه. فما انحلّ الظلم عنه انحلّت المطالبة عنه، وما حلّ فيه العلم حلّت الإباحة والأمر به. والحلال عند العلماء مالم يُعْص الله عزّ وجلّ فى أخذه. وقال بعض علماء الباطن الحلال مالم يُعْصَ الله عزّ وجلّ فى أوله، ولم يُنْسَ فى آخره، وذُكِرَ عند تناوله، وشُكِرَ بعد فراغه. وكان **سهل** إذا سُئل عن الحلال يقول هو العلم. وقال لو فتح العبد فمه إلى السماء وشرب القَطْر، ثم تقوّى بذلك على معصية أو لم يطع الله عزّ وجلّ بتلك القوة، لم يكن ذلك حلالاً. وقال طائفة من أهل العلم إنّ المتصنّع للناس والمتزّين لهم، يأكل حراما لأنه لم ينصح مولاه فى عمله. وقال بعض الموّحدين لا يكون حلالا حتى لا يشهد فيه سوى الله تعالى، وإنّ مَن أشرك فى رزق الله العباد فذلك شُبْهة وإنْ حلّ من طريق الأحكام. واحتّجوا بقول **عيسى** عليه السلام يأكلون رزقه ويُشركون فيه خلْقه. ومن **الأبدال** مَن يقول الحلال مالم يُؤخذ من أيدى الخلْق، ولم يتنقل إلى أملاكهم. وكان بعضهم لا يأكل إلاّ مما أنبتت الأرض التى هى غير مملوكة، وقوله عدْل أنّ الحلال مالم يؤخذ من أيدى الظالمين، وما أُخذ من أيدى المتّقين.

وحدِّثت عن بعض **الأبدال** فى قصة طويلة ذكرها أن بعض العامة من السيّاحين دفع إليه شيأً من الطعام فلم يأكله، فسأله عن امتناعه فقال نحن لا نأكل إلاّ حلالاً، فلذلك تستقيم قلوبنا على الزهد فى الدنيا، وتدوم على حالة واحدة، ونُكاشَف بالملكوت، ونُشاهد الآخرة. ثم قال لو أكلت مما تأكلون ثلاثة أيام لما رجعنا إلى شيئ مما نحن عليه من علم اليقين، ولذهب

الخوف والمشاهدة من قلوبنا- في كلام طويل قال له الرجل في آخره: فإنى أصوم الدهر وأختم القرآن في كل شهر ثلاثين ختْمة، فقال له البدّل هذه الشَرْبة من اللبن التى رأيتنى قد شربتُها أحبّ إلّى من ثلاثين ختْمة فى ثلثمائة ركعة من أعمالك. وكانت شَرْبة من لبن من أرْوَى وحشّية وهى الأنثى من الوعل. وقال بعض السائحين قلت لبعض **الأبدال** وقد حدّثه عن أكل الحلال بمثل هذا الحديث، أنتم تقدرون على الحلال ولا تطعمون إخوانكم من المسلمين، فقال لا يصلح لجملة الخلْق، ولم نؤمر بذلك، لأنهم لو أكلوا كلهم حلالاً لبطُلت المملكة وتعطّلت الأسواق وخرِبت الأمصار، ولكنه قليل فى قليل من الخلْق، وخصوص فى مخصوصين، أو معنى هذا الكلام.

وقال بعض العلماء لا أعلم حلالاً لا شكّ فيه إلاّ ماء الغُدران، وما أنبتت أرضٌ غير مملوكة، أو هدية من أخٍ صالح، أو معاملةِ تقىّ بصدق ونُصح. وكان **يحيى بن معين** قد صحب **أحمد بن حنبل** رضى الله عنه فى السفر سنين، ولم يكن أحمد يأكل معه لأجل كلمة بلغته عنه، وهو أنه قال أنا لا أسأل أحداً شيأ، ولو أعطانى الشيطان شيأ لأكلته، فهجره **أحمد** رضى الله عنه حتى اعتذر إليه **يحيى**، وقال إنما كنت أمزح، قال تمزح بالدين، أما علمتَ أنّ الأكل بالدين قدّمه الله على العمل، فقال «**كلوا من الطيبات واعملوا صالحا**». وقد كان كثير من الورعين يقول منذ أربعين سنة ماد خل جوفى إلاّ ماء أعلم من أين هو. وبعضهم يقول منذ ستين سنة ما أكلتُ إلاّ من حيث أعلم. وكان **وهْب بن الورد** لا يأكل إلاّ من حيث يعلم أو يشهد عنده شاهدان بصحته. وقد كان **بشر** يقول من فقَر جاع، ومن تغافل شبع. وعند العلماء أنّ مَن طلب الدنيا حلالاً فهو أزهد فيها ممن أكل الشبهات من غير طلب. وفى الخبر مَن لم يُبالِ من أين مطعمه لم يبال الله تعالى من أى أبواب النار أدخله. وقيل ذلك فى **التوراة** مكتوب.

ذكر تفصيل الحلال من الشبهة

والأصل فى ذلك حديث **النعمان بن بشير**: الحلال بيّن والحرام بيّن، والشبهات بين ذلك لا يعلمها كثير من الناس، من تركها فقد استبرأ لدينه وعِرْضه، ومَن يرتع حول الحمى يوشك أنْ يواقعه، وإنّ لكل ملَك حمَى، وإنّ حمَى الله فى أرضه محارمه. يقال إنّ هذا الحديث **ثُلث** العلم، فالحلال ماظهر وتبيّن، وكنتَ على يقين منه، واطمأن به قلب المؤمن العالم، والحرام أيضا ما تبيّن وانكشف على يقين منه، ولم يختلف أحد من المسلمين فيه، ونفَر قلب المؤمن

واشمأز منه. وقد تطمئن بعض القلوب إلى شيء لقلة ورعها. وقد تنفر بعض القلوب من شيء لقصور علمها، وليس يقع بمثل هذين القلبين اعتبار، وإنما الاعتبار بقلب المعيار الذى قد جُعِل كالمحك يُختبَر به معادن الملكوت، وهو قلب المؤمن الموقن العالِم. وهذا القلب فى القلوب أعز من الذهب الإبريز فى سائر المعادن. وقد روينا عن بعض السلف عن تفسير قوله تعالى **«وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون»**، قال إذا فسدت أعمال الناس جُعِل عليهم ولاة يشبهون أعمالهم. وقال بعض العلماء فى معناه إذا فسدت أديان الناس فسدت أرزاقهم.

والشبهات على وجوه، أحدها ما أشبه الحال من وجه، وما اختلط أيضا بها فاختلط ولم يتميز منهما. **والشُّبْهة أيضا** مادلّ باطن العلم على تحليله فهو حلال الحكم، وأظهر باطن الورع الوقوف عنه. **والشُّبهة** ما أباحه علم الظاهر وكرّهه علماء الباطنْ لحيْك القلوب وحوازها، ولعدم الطمأنينة ومواجيد القلوب، كنحو ماروى عن **النبى صلّى الله عليه وسلم:** إنكم تختصمون إلّى ولعل بعضكم أنْ يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له على ما أسمع منه وهو يعلم خلافه، فمن قضَيتُ له على أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار... فأخبر النّبى صلّى الله عليه وسلم أنه يحكم بظاهر الأمر، وردّهم إلى حقيقة عِلم العبد بما شهد وعرف من عيْب نفسه المستتر عن الأبصار. **والشبهة أيضا** ما اختُلف فيه لخفاء أدلّته ولتكافؤها بالسوية، ومالم تره عينك فتقطع على غيبه. والحلال والحرام ما أجمعوا عليه وظهرت الأدلة عليه. **والشبهة أيضا** ما حلّ سببه وصودف فيه حكمه، إلاّ أن عينه مجهولة غير متيقن تحليلها. **والشبهة أيضا** ما فُقد منه بعض القيام بالأحكام، أو ما اعتّل سببه الذى يوصل العبد ويتطرق إليه من فضول جهل أو حدوث آفة من آفات النفوس. فهذه الأنواع كلها من الشبهات. ثم تختلف نفس الشبهات فيكون ذلك **شبهة الحلال**، وتكون **شبهة الحرام** شبهة كَدِرة، وتكون **شبهة متقاربة**، لأن **الحلال** عند علماء الباطن على **ثلاث** مقامات، **حلال كافٍ** وهذا عموم وكأنه ماحلّ من طريق الحكم؛ **وحلالٌ صافٍ** وهذا خصوص، وكأنه ماظهرت الأدلة فيه، وجلّ سببه، ووُجِدت السُّنّة فيه؛ **وحلالٌ شافٍ** وهذا خصوص الخصوص، وكان ذلك ما عُلم أصله وأصلُ أصله وجرى على أيدى المتقين ولم يخالطه جهل، فلذلك تفاوتت الشبهات لتفاوت الحلال ضدها. فأمّا **الحرام** فطُعمة الفاسقين، أكلُه فسوق، وطلبُه فسوق، وإطعامُه فسوق، والمعاونةُ عليه فسوق، والمدمن عليه فاسق، وهو من الكبائر، وليس من حاجة المسلمين

ولا يغنيهم. **والحلال** هو ما أحلّه الكتاب والسنّة، وحلّلته الأحكام والعلوم، من سائر الأسباب والمعانى المطلقة والمباحة التصرّف فى العلم، وهو بُغية المؤمنين وُطعمة المتقين ومقام الصالحين، فطلبُه جهاد، وإطعامه برّ، والمعاونة عليه تقوى، وأكله عباده، والمدمن عليه مؤمن تقى. **والشُّبهة** ما اختلف العلماء فيه ولم يجمعوا عليه، أو ما التبس باطنه فاشتبه لغموض الأدلة أو خفاء الاستدلال، فلم يكن بينّا، فلم يجمع أهل الظاهر والورع عليه، كما قال **صلّى الله عليه وسلم** :لا يعلمه كثير من الناس.

فهذه طُعْمة عموم المسلمين، فإنْ ابتُليت بهذا فخذ منها حاجتك وضرورتك من كل شيء، تكُن بذلك فاضلاً، ويصح لك مقام فى الورع والاستكثار منه. **والاقتناء** مكروه، وتركُه إذا أمكن أفضل، لأن فى الخبر مَن تركه فقد استبرأ لدينه، أى تنزّه وتنظّف وتفقّد دينه واحتاط له. وقيل إن الايمان نَزِهٌ نظيف فتنّظفوا وتنّزهوا. ومعنى التنزّه التباعد من الدناءة والأوساخ. ومن ذلك قيل خرجنا نتنزه، وخرج فلان فى نزهة إذا تباعد عن المصر وفارق جملة الناس. ثم قال وعِرضه، أى استبرأ لعرضه، أنْ يتكلم الناس فيه بسوء وينسبوه إلى فُحش. وقد جعلنا الشُبهة طريقاً إلى الحرام وموقعةً فيه، لأن فى الخبر من يرتع حول الحِمَى يوشك أنْ يقع فيه، أى من يطلب الشبهة ويُدمن عليها ويستكثر منها يُسرع الوقوع فى الحرام، أى تسرع إليه وتُدخله فيه . وقال بعض العلماء ما أخذ من يد تقي عدلٍ بحكمٍ جائز فهو حلال، وما أخذ مَن يد من لا يُعرف بعدالة ولا جَرْح فهو شُبهة، وما أخذ من يد ظالم أو فاجر فهو حرام وإن أخذ بحكم جائز. وهذا القول يقرب من الحق. ومِثله من المقال مِثل ماقال بعض أهل العلم إنّ مَن لم يعرف أنّ ماله خالطه خيانة ولا معاملة ظالم، فذلك حلال، ومن خالط الظلمة واكتسب المال من خيانات فما فى يده حرام، وإنْ اختلط مالُه فلم يتمين، وكان يعامِل بعض الظلمة ويعامل أهل التقوى والإيمان، فما فى يده شُبهة. وقد جاء فى الخبر دعْ مايُريبك إلى مالا يريبك فإنّ الخير طُمأنينة، وإنّ الشرّ رِيبَة، معناه دع ماتشك فيه أنه حلال إلى شيء آخر لاشك فيه، فإن الشر ريبة وليس بيقين، وفى لفظ آخر الإثم حَيْك الصدور. وقد جاء فى الحديث الإثم حوّاز القلوب، أى ماحزّ فى القلب وأثّر فيه بنَكْتٍ فهو إثم، لأن الله تعالى علّق الإثم بالقلب وجعله من أوصافه فى قوله عزّ وجلّ «**ومن يكتمها فإنه آثم قلبه**». وفى الخبر البرّ ما اطْمأنّ إليه القلب وسكنت إليه النفس، والإثم ماحاك فى صدرك وكرهتَ أنْ يطّلع عليه الناس، فدعه لأنه قال المؤمنون شهداء الله، وقال ما رآه المؤمنون حسَناً فهو عند الله حَسَن، وما رأوه قبيحا فهو عند الله

قبيح، كما قال سبحانه «**فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**»، لأن كراهتك نَظَرَ الله إليك دليلٌ على وجود الريْبة فيك.

وفصل الخطاب من ذلك أنه ليس على العبد أكثر من جهده وطاقته، وأنْ يعمل فى دينه بمبلغ علمه وما يؤدى إليه اجتهاده ووُسْعه، وأنْ لا يخبأ لنفسه خبيئة ولا يُرّخص لنفسه بهواه رُخصة، فإنْ قصّر علمه استعان بعلم غيره، فما أخطأ حقيقته وراء ذلك فهو معفو الخطأ. وبعض الورعين يقول **الحلال** مالم يتناوله أيدى الظالمين. وقال بعضهم مالم تجر عليه يد ظالم. وقال بعض العلماء لا يكون حلالاً حتى لا يتخالج فى القلب منه شيء، وحتى يسكن القلب إليه ويطمئن به. وقال آخر **الحلال** ما عُرِض على أهل الظاهر والباطن فإذا لم ينكروا منه شيأ فذلك الحلال.

وقد كان اجتمع جماعة من العلماء يتذاكرون أى الأعمال أشد، فقال بعضهم **الجهاد**، وقال بعضهم **الصيام والصلاة**، وقال آخر **مخالفة الهوى**، وقال بعضهم الورع، فأجمعوا على **الورع** ورجعوا إلى هذا القول. وقال **حسان بن أبى سنان** ماشيء عندى أسهل من الورع، قيل وكيف، قال إذا حاك فى صدرى شيء تركته. وهذا سهلٌ على من ساعده القدر بالزُهد وقوّاه على ذى النفس الشهوانية، كما أنّ **الزُهد** سهلٌ على مَن أمدّه الله بروح التأييد باليقين، وعزيز على من ابتُلى بحب الدنيا، وقد روى عن **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه أفضل الأعمال والذى نقيم به وجوهنا عند الله عز وجل هو **الورع**، فقال له أصحاب النبى صلّى الله عليه وسلم صَدَقْتَ. ولعمرى إنّ اليقين إذا وُجِدَ والزهد إذا حُصِّل، سهّل الورع والإخلاص، وهما عُمدة الأعمال.

وحكى عن **يوسف بن أسباط وحذيفة المرعشى** وغيرهم من عُبّاد أهل الشام أن قائلهم يقول منذ ثلاثين سنة ما حاك فى صدرى شيء إلاّ تركتُه، وبعضهم يقول منذ أربعين سنة ما وقف قلبى عن شيء وتخالج فيه إلاّ تركتُه، وقال بعضهم منذ ثلاثين سنة ما أبالى على أى حال رآنى الناس إلاّ أنْ يكون حاجة الإنسان. وحكى أن بعض الورعين وقع منه دينار فانكبّ ليأخذه فوجد دينارين، فلم يعرف ديناره منهما فتركهما معا. وحكى أن امرأة من المتعبّدات من أهل القلوب سألت **إبراهيم الخوّاص** عن تغيُّرٍ وجدته فى قلبها، فقال عليك بالتفقد، فقالت قد تفقّدتُ فما وجدت شيأ أعرفه، فأطرق ساعة ثم قال ألا تذكرين ليلة المِشْعل، فقالت بلى، فقال هذا التغيّر من ذلك، فذكَرت أنها كانت تغزل فوق سطح لها، فانقطع خيطها فمرّ مِشعل

السلطان، فغزلت في ضوئه خيْطاً وأدخلت في غزلها، ونسجت منه قميصاً فلبسته. قال فنزعت القميص وباعته وتصدّقت بثمنه، فرجع قلبها إلى الصفا. وقد حكى عن **ذى النون المصرى** رحمه الله فوق ذلك،أنه لما سجُن لم يأكل طعاماً ولم يشرب أياماً، فوجهت إليه امرأة يعرفها من العابدات بطعام إلى السجن، وقالت هذا من حلال فلم يأكله، فقالت له بعد ذلك، فقال ذلك الطعام من حلال إلاّ أنه جاءنى فى طريقٍ حرام فلم آكله، فقالت وكيف ذلك، قال جاءنى فى يد السجان وهو ظالم، فلذلك لم آكله. وهذه خصال الورعين، **والورع** هو باب الزهد ومفتاح الخوف وحقيقة الصدق، **فعموم الورع** أول عموم الزهد، **وخصوصه** أول خصوص الزهد.

فينبغي للعبد أنْ يبتدىء بطلب الحلال فيكون هو همّه وقصده، فيجعل ما استطاب من المكاسب، وأعلى ما قدّر عليه مما يَسْلَم فيه، فيجعل ذلك لحاجةِ نفسه فيما يطعم ويلبس، ويجعل مادخل عليه من الشبهات، مما فى نفسه منه حزازات، فى مؤنة عياله، وفيما يرتفق به من مؤنة البيت مما لا يُطعَم ولا يُلبَس، مثل الحطب والبزّ وأجرة البيت وما أشبه ذلك. وسنذكر تمثيل ذلك بصور الألوان حتى تعرفه. وفى هذا رخصة، وله فيه مجاهدة وحُسن نية ومعاملة، إذا أخذ نفسه به وصبر عليه، وكان ذلك من باله وهمّه، فاحتسب فى ذلك ماعند الله عزّ وجلّ، وتحرّى بذلك لدين الله عزّ وجلّ، فإنّ الله عزّ وجلّ يشكر له سعيه، ويجزل عليه أجره. وهذا طريق يوصل إلى الله عزّ وجلّ، وهو محَجة كثير من السلف. ولو أنّ عبداً شكّ فى شيء فتحرّز منه، شكَرَ الله له نيته وإنْ كان قد أخطأ حقيقة الشيء عنده، فكان الشيء حلالاً فى علم الله عزّ وجلّ. ولو أنّه أقدمَ على شيء بقلة مبالاة فلم يدعه، فتناول شيأ على أنه حلال عنده، كان مأزوراً لسوء نيته وقلة ورعه.وإنْ كان أصاب الحقيقة عند الله فهو أفضل وله أجران، أجر العلم، ومقام التوفيق. ومن قصد ترك العلم، وأخطأ الحقيقة عند الله عز وجل، فعليه وزران، وزر الجهل، ونقص العصمة. ومن عمل بعلم فأخطأ الحقيقة فله أجر واحد. ومن عمل بجهل فأصاب الحقيقة فعليه إثم الجهل، وهو معصوم فى الفعل.

وحكى **وهْب اليمانى** مما نَقَل من **الزبور** أنّ الله عز وجل أوحى إلى **داود** عليه السلام: قل لبنى اسرائيل إنى لا أنظر إلى صيامكم ولا إلى صلاتكم، ولكن أنظر إلى من شكّ فى شيء فتركه لأجلى. ذلك الذى أؤيده بنصرى وأباهى به ملائكتى. وقد كان بعض العلماء يقول لأهله أرفقوا بدهن المصباح، فإنما توقدون بلحمى ودمى، قيل وكيف، قال لأنكم توقدون من كسبى، وكسبى من دينى، ودينى من لحمى ودمى. وقد كان يقال من تفقّد من أين يكتَسِب

الدرهم، تبصّر أين يضعه، ومَن لم يبالِ من أين اكتَسب لم يبال فيما أنفقه. وقد قال بعض العلماء لرجلٍ رآه بطّالاً وكان ذا عيال، قال له احترف فإنه إذا كان لك كسْب أكل عيالك دنياك، وإنْ لم يكن لك كسْب أكلوا دينك. وروُى أنّ بعض الزُهّاد وقعت منه قطعة فجعل يطلبها عامة يومه، فقيل له أنت قد زهدت فى الدنيا كلها وأنت تطلب هذه القطعة هذا الطلب، فقال إنّ طلبى هذه القطعة من زُهدى فى الدنيا، لأنى لا اعتاض منها غيرها، لأنها من حيث أعلم وأنا لا آكل إلاّ من حيث أعلم. وقد كان بشر يقول المال إذا اجتمع من الشبهات لا يُنفق إلاّ فى الشهوات. وقال سرى السقطى لا يصبر على ترك الشبهات إلاّ من ترك الشهوات. وفى الخبر أنّ رجلاً سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن كسْب الحِجام، فنهاه عنه، فأعاد مسئلته عنه، فقال إنّ لى غلاماً حجّاما، فقال النبى صلى الله عليه وسلم إنْ كان لابد فأعلفه ناضِحَك وأطعمه رقيقك. وفى الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن فأرة وقعت فى سمن فماتت، فقال لا تأكلوه. وفى خبر آخر إنّ كان جامداً فألقوها، وإنْ كان ذائبا فاستصبحوا به. وعن جماعة من علماء الكوفة لا بأس بشحوم الميتة تُطلّى بها السفن ويُدبّغ بها الجلود. وقد روينا فيه حديثا مسندا، فهذا حجة فيما ذكرناه من أنّ حكم الشبهات أنْ يُنفق منها فيما لا يُطعَم ولا يُلبَس، إلاّ أن يُضطر إليها فيتناول منها مقدار الحاجة. وروُى عن النبى صلّى الله عليه وسلم أنه أُتى بلبن فسأل عن أصله، فأُخبر به، فسأل عن أصل أصله، فأُخبر به، فلما رضيه شرب منه. فهذا حكم الحلال: أنْ تعرف عيْن الشىء ثم تعرف أصله، فإذا صحّ لك أصله وأصل أصله سقط عنك ماوراء ذلك، فإنْ لم تعلم رأى عيْن وأخبرك مسلم تقى قام إخباره لك مقام ذلك.

وفى الخبر لا تأكل إلاّ طعام تقىّ، ولا يأكل طعامك إلاّ تقىّ، لأن التقىّ قد استبرأ لدينه واجتهد بعلمه واحتاط لنفسه، فقد سقط عنك البحث والاجتهاد لأنه قد ناب عنك فيه، وقام لك به فكفاك كُلفته، فغنيت عن تكلّفه، فلذلك جاءت الأحاديث على هذا المعنى: إذا دخل أحدكم إلى منزل أخيه، فقدّم إليه طعاما، فليأكل من طعامه ولا يسأل، ويشرب من شرابه ولا يسأل، لأنه قد كُفِى، والسؤال عما قد كُفِى تكلّف، والتكلف ليس مما يعنى المسلم. وفى الخبر الآخر مِن حُسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه، فلهذا سقط عنا السؤال من البحث، ولذلك كان المتقدمون يستحبون أكل طعام العلماء والصالحين.

وأما من لا يحتاط لنفسه ولا يستبرىء لدينه ولا يتقى فى مكسبه، حتى لا يبالى من أين أكل ولا من أين اكتسب ولا من أين جاءه الدرهم أبدا، فهذا غير تقىّ، فحينئذ يلزمك أنت

البحث لنفسك والاجتهاد والاحتياط لدينك، إذا لم يقم به غيرك، ولم يكلّفه أخوك، ففى مثل هذا جاء الخبر لا يأكل طعامك إلاّ تقىّ، ولا تأكل إلاّ طعام تقىّ . والتقىّ هو الورع الديّن المتّقى للحرام، المجتنب للآثام. ففى دليل خطابه لا تأكل طعام غير تقىّ، فلا يصح التقوى من عبد يتصرف، حتى يكون مستعملاً فى تجارته وصناعته حكم الكتاب والسنّة، ويشهد له العلم بسلامته وبراءة دينه من الخيانة والمكر فى المعاملة، من الكذب والغبن فى التجارة والصناعة، بالصدق والنّصح فى جميع ذلك، وحتى يُحلّ السبب المُعتاض منهما. وكل تجارة وصناعة يخالف العبد فيها حكم الكتاب والسنّة فليست بتجارةٍ ولا صناعةٍ حلال وإنْ كان الاسم موجوداً، لعدم المعنى الذى تصحّ به الأسماء فى الحكم، لأن وجود الأسماء فارغة لا يُغنى مع عدم صحة المعانى لموافقته شيئاً، فإذا كان ما يسميه الجاهلون تجارة وصناعة، وما يسميه المستحلّون بيعاً وشراء ومعاملة، وهو غير موافق للعلم، فليس ذلك بتجارة ولا صناعة ولا معاملة، ولا يُستحلّ به أكل الحلال لأنه باطل، واسمه عند العلماء خيانة وخلابة، أو غيلة، أو حيلة، أو مخاتلة، وهذه أسماء مُحرّمة للمكاسب لفساد معانيها وعدم حقائقها، يتعلق عليها أحكام مذمومة لا يحل بها أخذ، لأن التسمية إلى العلماء من قبل أنّ إيجاب الأحكام منهم، يسمون على صحة المعانى بوقوع الأحكام إذا كانوا هم الحكّام، فقد اعتزل هذا التصرف وإنْ وجد فيه الاسم المبيح، لفقد المعنى الصحيح وهو حكم الكتاب والسنة. فإنْ وجد الاسم بحقيقة المعنى حتى تسميه العلماء تجارة وصناعة، إلاّ أنهما لم يصادفا حكم الله تعالى فيه بالسلامة من الربا واجتناب البيوع الفاسدة، فهذا حرام أيضا لعدم حكم الله عزّ وجلّ فيه بالإطلاق. وإنْ كان الشراء مباحاً وصودف الأحكام فيه، إلاّ أنّ عين المأخوذ المعتاض حرامٌ رأى عين أوخبرٍ من صدّق، فهذا الكسب حرام أيضاً لأنّا على يقين من وجود الحرام فيه، حتى يصفو العوَض المشتّبه من عين الحرام بأحد معنيين، إما بيقين أنه حلال الأصل، وحلال أصل الأصل، بأن لا تعلم فى عينه حراما رأيناه ولا أُخبرناه، فيحلّ به حينئذ أكل المال، ونسميه مع ذلك شُبهة، وهو شبهة الحلال إذ لسنا على يقين من حلاله لإمكان دخول الحرام فيه، لغلبة الأموال المأكولة بالباطل وبالأسباب المكروهة من قبل الأجناد، ومن قلّة المتّقين ،واختلاط ذلك بالأملاك الصحيحة وبأموال التجار والصنّاع، فما كنا من حلاله على علم ظنٍ سميناه **شبهة** لفقده علم اليقين.

وفى الخبر جاء **عقبة بن الحارث** إلى **رسول الله صلّى الله عليه وسلّم** فقال إنى تزوّجت امرأة، فجاءتنا امرأة سوداء فزعمت أنها قد أرضعتْنا وهى كاذبة، فقال دعها، فقلت

إنها كاذبة، فقال وكيف وقد زعمتْ أنها قد أرضعتكما، لا خير لك فيها دعها عنك. وفى لفظ آخر كيف وقد قيل.

وفى حديث **عبد الله بن زمعة** أن النبى صلّى الله عليه وسلّم قضى بالولد له، لأنه وُلِدَ على فراشه، وأبطل دعوى الرجل فيه وإنْ كان منه، فلما رأى النبى صلّى الله عليه وسلّم شَبَهاً بيّناً قال **لسودة** احتجبى عنه ياسودة وهى أخته، ثم قال الولد للفراش. وكذلك يجب التقوى فى الفراش للورع. وإنّ الأحكام على الظواهر تجيزه فيكون تركها مقاما للورعين، والحلال عند الورعين اسم ما انحلّت عنه المطالبة وحلّ فيه العلم على حلال المُقتبس فى قوله عزّ وجلّ «**وحلائل أبنائكم**»، وحلائل جمع حليلة، وقليل إنما سميت المرأة **حليلة** الرجل لأنه يحلّ معها أين حلّت، أى يوجد عندها ويقيم، كأنها فعيلة من فُعول أى حلول. والمعنى الآخر سميت **حليلة**، والرجل حليلها لأن الآثام قد انحلّت بينهما، أى لأنها تحلّ له ويحلّ لها.

والحلال فى العلم اسمٌ لما أباحه الكتاب والسنّة بسبب جائز مباح. وكان الحلال هو ماوجد فيه ثلاث معان: سبب مباح فى العلم، وعِلْم بأصل الدرهم والمعتاض به، وبأصل أصله أنه خالص من شُبهة، ومصادقة حكم الله عز وجل فى المعاملة، فإذا فُقد أحد هذ المعانى فهو شبهة إلى الحلال أقرب، وإذا فُقد معنيان فهى شُبهة الحرام، فإذا فُقدت المعانى الثلاث حتى يكون السبب الذى وصل به الدرهم والمعتاض منه مكروهاً، أو يكون عين الدرم مكروهاً مجهولاً ولم يصادف فيه حكم الشرع فى البيع والشراء أو الهبة بطيب نفس، فهذا هو الحرام بعينه. والحرام والحلال ضدان ظاهران، والشبهات أعنى شبهة الحلال وشبهة الحرام مشتبهان، فهى تشبهُ الحلال من وجه، وتشبه الحرام من وجه، فمثل الحلال والحرام من أصول الألوان مثل البياض والسواد، هما أصلان ليسا فرعين لشىء، ولا متولّدين من شىء، ومثل شبهة الحلال كمثل الصُفرة لأنه لون متولد من البياض. ومثْل شبهة الحرام كالخُضرة لون متولد من السواد. فإنْ رأيت الصُفرة فهى علامة شُبهة الحلال رددتها إليه وحكمت عليها به، كما أنّ الخضرة أقرب إلى السواد، فإنْ اجتمع فى لون صُفرة وخضُرة فهى الشبهات المخلّطة فى الشىء، فانظر إلى الأغلب منها الأكثر، فاحكم عليه، فإن كانت الصُفرة هى الأكثر والأغلب، فهذا شُبهة الحلال تتناول منه غير متسّع فيه إذ ليس حلالاً صافياً، وهذا مثل أموال التجّار والصنّاع المختلطة بأرزاق الجند والمعاملات، وإنْ رأى الخضرة أكثر وأغلب فهذا شبهة الحرام، خذ منه ضرورتك إذ ليس بشبهة صافية، وهذا مِثل أملاك أولياء السلطان لالتباس مِلك أيديهم فى خدمتهم لأمرائهم، حتى ترى البياض المحض الذى هو علامة الحلال فخذ كيف

شئت واتّسع لاجَناح عليك، على أنك لاتكون زاهداً بذلك، وهذا مِثل فيء المشركين والغنائم فى سبيل الله، ومِثل المواريث الطَيِّبة وما أنبتت الأرض التى هى غير مغصوبة، ومثل ماء السماء والسيح فى الأنهار وصيْد البر والبحر. وإنْ رأيت السواد الغريب فهو علامة الحرام فاجتنبه ولا تأخذ منه، فإنْ فعلتَ كنت بذلك فاسقا. وأكل الحرام من الكبائر وهذا مثل المغصوب والجنايات، وما أُكِل بأسباب المعاصى، وماتملك من غير طيب نفسٍ من الواهب.

واعلم أنّ الحلال والحرام فرعان للتقوى والفجور والعلم والجهل. والعلم والتقوى هما حالا المتقين العلماء، فإذا كُثّر المتّقون ووُجِد المؤمنون كان الحلال أظهر وأكثر، وظهور الحرام وكثرته بوجود الجهل والفجور ، وهما حالا الجاهلين الفجّار، فإذا كثر الجاهلون وظهر الفاسقون، كان الحرام أغلب وأكثر. وأصل وجود الحلال فى الكافة عَدْل الأئمة، واستقامة الولاة، وطاعة أوليائهم فيما لهم معهم فى سبيل الله عز وجل لصلاح الدين وحِيْلة المسلمين. كما أن أصل ظهور الحلال وانتشاره هو الرعيّة، فإذا قلّ ذلك وكان الأمر على ضده غمُض الحلال واختفى فظهر الحرام وفشا، فكان الحلال قليلا عزيزاً، وكان فى خصوص من المسلمين يخُص الله به من يشاء، ويصرفه إلى مَن أحبّ كيف أحب، من طريق التوفيق والهداية، وبمعنى العصمة والوقاية.

وقد جاء فى الخبر إذا فسدت أديان الناس فسدت أرزاقهم. وقال بعض أهل التفسير فى قوله عز وجل« **وكذلك نُوَلّى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون**»، قال إذا فسدت أعمال الناس جعل عليهم أئمة يشبهون أعمالهم. وقد روينا عن **عائشة** رضى الله تعالى عنها أنها قالت رزق المؤمن مثل قَطْر الحَبّ فهذا يحتمله معنيان، أحدهما الضيق والقلّة، والثانى فى الصفاء. وهذا على معنى ماقال **سهل** رحمه الله لو كانت الدنيا دما غبيطاً لكان قوُت المؤمن منها حلالاً، فهذا على معنيين أحدهما أن المؤمن موّفق معصوم قد عمل لله عز وجل بما عَلِم، والله قد حفظه من حيث لا يعلم، بأن يستخرج له الحلال من الحرام باختياره من عمله، كما يستخرج له العلم من الجهل والتوحيد من الشرك بلُطف قدرته، فمن تذكّر به وتبصّر به أقامه مقام التوحيد من الحكمة. والمعنى الثانى المؤمن عنده لا يتناول شيأ إلاّ فاقة أو ضرورة فقد حلّت له وإنْ حُرّمت على غيره، وهذا هو المؤمن الصدّيق. وقد قيل **لابن المبارك** يظهر بعد المائتين عدل؟ فقال تذاكرنا ذلك عند **حمّاد بن سلَمة** فغضب، وقال إنْ استطعت أنْ تموت بعد المائتين فمت، فإنه يحدث فى ذلك الزمان أمَراء فَجَرة ووزراء ظَلَمة وأمَناء خَوَنة وقرّاء فَسَقة، حديثهم فيما بينهم التلاوم، يُسمون عند الله الأنتان. وقال بعض السلف الصالح إنى

لأستحى من الله عز وجل أنْ أسأله بعد المائتين أن يرزقنى حلالاً، ولكنى أسأله رزقاً لا يعذبنى عليه. وقال **إبراهيم بن أدهم** رحمه الله ماترك لنا بنو فلان من الحلال شيأ، يعنى الملوك والأمراء.

ويقال إنّ **علياً** رضى الله عنه لم يأكل بعد قتل **عثمان** ونهْب الدار إلاّ طعاما مختوما عليه. ورُوِى فى خبر العامل الذى أراد **علّى** رضى الله عنه أن يستعمله علّى الصدقات، قال فدعا بطينة مختومة ظننت أن فيها جوهراً أو تبْراً ، ففضّ ختامها فإذا فيها سوّيق شعير، فنثره بين يدّى وقال كُلْ من طعامنا، فقلت أتختم عليه يا أمير المؤمنين، قال نعم هذا شىء اصطفيته لنفسى وأخاف أنْ يختلط فيه ماليس منه. والحديث فيه طول فاختصرت هذا منه. وروى أنّ جماعة من الصحابة ماشبعوا من الطعام منذ قتْل **عثمان** رضى الله عنه لاختلاط أموال أهل المدينة بنهّب الدار، منهم **ابن عمر وسعد وأسامة بن زيد** رضى الله عنهم. وكان **يوسف ووكيع بن الجرّاح** يقولان الدنيا عندنا على ثلاث منازل: حلال وحرام وشبهات، فحلالها حساب، وحرامها عقاب، وشبهاتها عتاب، فخذْ من الدنيا مالا يد لك منه، فإن كان ذلك حلالا كنتَ زاهداً، وإن كان شبهةً كنتَ ورعاً وكان فى عتاب يسير. وقد روينا عنهما أنهما قالا لو زهد أحد فى زماننا هذا حتى يكون **كأبى ذر وأبى الدرداء** فى الزهد ما سميناه زاهداً، قيل ولِمَ، قالا لأن الزهد عندنا إنما يكون فى الحلال المحضّ، والحلال المحضّ لا يُعرف اليوم. ومات **يوسف ووكيع** قبل المائتين. وقد كان **وكيع بن الجراح** أشبه العلماء بالسلف، وكان يشبّه **بعبد الله بن مسعود**. وقد كان يشدّد فِى الطُعمة فسئل عن الحلال، فجعل يعزّره ويقول أين الحلال وكيف لى بالحلال؟ ثم قال لو سألنا مسترشدٌ عن علِمنا فى الحلال لقلنا له كُلْ أصول البُردِى وألْق ثوبك وادخل فى الفرات. قيل وأنت ياأبا سفيان من أين تأكل؟ قال آكل من رزق الله وأرجو عفو الله.

وقد كان **بشر بن الحارث** من المتقدمين، سئُل عن الحلال، قيل له من أين تأكل ياأبا نصر؟ فقال من حيث تأكلون وليس من يأكل وهو يبكى، كمن يأكل وهو يضحك. وقال مرة أخرى فى روايةٌ عنه ولكنْ يدٌ أقصر من يد، ولقمة أصغر من لقمة. وسأله رجل عمّا لا يُسكر من النبيذ، فقال انظر فى الدرهم الذى تشترى به التمر من أين هو، فإنْ كان حلالا وإلاّ هلكت. دعْ عنك مالا يسكر. وقد كان **سرّى السقطى** يتحرى فى أكل الحال، ولم يكن يأكل إلاّ من حيث يعرف. وكان إذا ذُكِرَ **لأحمد بن حنبل** رضى الله عنه أثنى عليه، وقال تعنون ذلك الفتى المعروف بطيّب الغذاء. وكان يقول لا يقوى على ترك الشبهات إلاّ مَن ترك

الشهوات. ويُقال إن **بشر بن الحارث** كان يأكل من قِبَله. وذُكر لنا أن سَرِّياً السقطي وقف على **بشر** وهو يتكلم فاطّلع في حلقته، وقال يابشر لعل بدانقَيْن تلبسها وتستريح من هذا الاسم، يعني قولهم **بشر الحافي**، فسكت **بشر**، فظن من كان من أصحاب **سَرِي** عند **بشر** أنه قد وجَدَ عليه، فقالوا يا أبانصر إنه لم يُرد إلاّ خيراً، فقال سبحان الله هو سرِّي كما سُمِّي سَرِيّ. وكان سَرِيّ رحمه الله قد وجّه إلى **أحمد بن حنبل** رضي الله عنه بمال فردّه، فجاء سَرِيّ فكلّمه بكلام منْ هذا العلم، فعرّفه فيه ما يدق من آفة الرد فقبِل منه، ولم يكن بعد ذلك يردّ عليه شيأ. وحدثونا عنه أنه قال انتهيت ذات يوم في سفر إلى نبات من الأرض وعند غدير ماء، قال وكنت جائعا فأكلت من الحشيش وشربت من ذلك الماء بكفّي ثم استندت على ظهري، ثم خطر ببالي أني إنْ كنت أكلتُ حلالاً فاليوم، فهتف بي هاتف يقول ياسَرِيّ زعمت أنك أكلتَ حلالا، فالقوّة التي بلغتك إلى ههنا من أين هي؟ قال فاستغفرت الله تعالى مما كان وقع في قلبي.

وكان **شقيق البَلْخي** رحمه الله يقول إنّ المكاسب اليوم قد فسدت، وإنّ التجارات والصناعات شُبهات كلّها، لا يحل الاستكثار والادخار منهما لوجود الغش وعدم النُصح، قال وإنما ينبغي للمسلمين أنْ يدخلوا فيها ضرورة. وقال: الناس كقتلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأنهم أعانوا على إماتة السُنن ودرْس طرق الأنبياء، ومَن أبطل سُنَن نبي فكأنما قتله. هذا يقوله في **سنة سبعين ومائة**، فإذا كان الأمر أيها المسلم الموقن بتوحيد الله ووعيده على هذا عند العلماء من السلف والأخيار من الخلف في ذلك الوقت، فكيف بوقتك هذا؟ وقد افتُرض عليك الزهد في الدنيا، وقد وجب عليك الأخذ بالبُلغة مما لابد منه من كل شيء، فإنْ استكثرت أو جمعتَ من مثل هذه الأشياء كان ذلك معصية. وكل مايظهره الله عزّ وجلّ لك من غير الأمور وبديهات المصائب فإنما هو تزَهّد لك في الدينا إنْ فطنتَ لذلك. وكل ما صَرَف عنك مثل هذا فهو خيرٌ وإنْ كرهت. وفي الخبر ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطن ولو كان من حلال، فإنْ كان لابد فثلُثٌ طعام، وثلثٌ شراب، وثلثٌ نفَس. فقد صار الأكل في ثلُث البطن خيرٌ من الأكل مِلأه لأنه شر، وما نقص من الشر فهو خير. وفي الخبر ماشيء أبغض إلى الله من بطنٍ ملِيء ولو من حلال. وقد جاء في الخبر لا يعذب الله عبداً جعل رزقه في الدنيا قُوتاً. وفي قوله تعالى «**ورزقُ ربك خيرٌ وأبقى**»، قيل يومٌ بيوم، وقيل القناعة. وقد كان المسلمون يتورعون عن الشبهات في وقت العدل ومع وجود الفضل.

وحدثونا أنّ **الفضيل بن عياض وابن عيينة وابن المبارك** رضى الله عنهم اجتمعوا عند **وهيب بن الورد** بمكة فذكروا الرُطَب، فقال وهيب هو أحب الطعام إلىّ إلاّ أنى لا آكله، قيل ولِمَ، قال لأنه قد اختلط رطب مكة بهذه البساتين التى اشتروها هؤلاء، يعنى **زبيدة** وأشباهها. فقال له ابن المبارك رحمك الله إنْ نظرتَ إلى مثل هذا ضاق عليك الخبز، فقال وما سببه، قال نظرت فى أصول الضياع بمصر، فإذا هى قد اختلطت بالصوافى. قال فغشى على وهيب. فقال له سفيان ما أردتَ بهذا؟ قتلت الرجل. قال ابن المبارك والله ما أردتُ إلاّ أنْ أهوّن عليه. قال فلما أفاق وهيب قال لله علّى أن لا آكل خبزا أبداً حتى ألقاه. قال فكان يشرب اللبن، قال فأتته أمه بلبن، فقال من أين لك هذا، قالت من شاة بنى فلان، قال ومن أين لهم ثمنها، قالت من كذا وكذا، فرضيه، فلما أدناه مِنْ فيه قال قد بقى شىء فأين ترعى هذه الشاة، فسكتت، فقال لتخبرينى، فإذا هى ترعى مع غنم **لابن عبد الصمد الهاشمى أمير مكة** فى الحى، فقال هذا اللبن للمسلمين فيه حقّ لا يحلّ لى أنْ أشربه دونهم، وهم شركائى فيه، فقالت له أمه اشرْبه فإن الله يغفر لك، فقال ما أحبّ أنى شربته وأنه غفر لى، قالت ولِمَ، قال أكره أنْ أنال مغفرته بمعصية. وقد كان **لطاووس اليمانى** بضاعة يتّجر له فيها من التمر، فاشترى مُضاربُه ببضاعته أديماً من بعض أولياء السلطان، وكتب إليه بذلك، وكتب إليه طاوس أفسدتَ علينا مالنا. ما أحبّ أنْ أتلبس بشىء منه، فبعْ الأديم باليمن وتصدّق بثمنه ولا تدْخل منه إلى الحَرَم درهما واحداً، وأنا أستغفر الله من طُعمة الفقراء وأرجو أن أنجو كَفَافاً، لا علىّ ولا لىّ. فيقال إن ذلك كان سبب فقره، ولم يكن له مال غيره فبقى بغير معلوم من دنيا. وكان **خالد القشيرى** لمّا وَلِى مكة بعد **ابن الزبير** أجرى نهراً فى طريق أهل اليمن إلى مكة، فكان **طاووس ووهب بن منبه** اليمانيان رضى الله عنهما إذا مرّا عليه لم يتركا دوابهما أنْ تشرب منه. وقد كان **سهل** رحمه الله يقول رجل بات فى قرية جائعاً قام إلى الغداة لم يقدر أنْ يصلى من الجوع، أعطاه الله فى منزله جميع صلاة المصلّين القائمين فى قريته، قيل وكيف ذلك، قال طلب الحلال فلم يجده، فكره أن يدخل جوفه حراماً فبات طوياً، فله أجر المصلين القائمين فى تلك الليلة، وهو **سليمان التيمى** رحمه الله، ترك أكل الحنطة فقيل له فى ذلك، فقال إنها تُطحَن فى هذا الأرْحِى، والمسلمون شركاء فى الماء، وهؤلاء يأخذون خراجها دون سائر الناس. وحُدّثتُ أن امرأة أهدت إلى **بشر بن الحارث** سلّة عنب، فقالت هذه من صنيعة أبى، فردّها بشر عليها، فقالت سبحان الله، تشك فى كرْم أبى وفى صحة ملكه وميراثى منه وشهادتك مكتوبة فى كتاب الشراء، فقال صدقتِ هو ملْك أبيك، ولكنك،

أفسدت الكرْم، قالت بماذا، قال سقيته من نهر طاهر، يعنى **طاهر بن الحسين بن مصعب بن عبد الله بن طاهر صاحب المأمون**، وهذا النهر هو الخندق المعترض فى الجانب الغربى، ولم يكن يُشرب من الخندق ولا يُمشّى على الجسر. وقد كان **بشر** يقول منذ ثلاثين سنة اشتهى شواء، وما أتركه زهداً فيه، ولو صحّ لى درهمه لأكلته.

فهذه سيرة المتقدمين وطريق السالفين، مَنْ سلكها لَحق بهم وكان كأحدهم، ومن خالفها فليس على سُنّة السلف، ولا من صالحى الخلف، فاعتبروا يا أولى الأبصار.

وقد كان من سيرة القدماء من أهل الورع أنْ لا يستوعب أحدهم كليةً حقه، بل يترك شيئاً خشية أنْ يستوفى الحلال كله فيقع فى الشُبهة، فإنه يقال من استوعب الحلال حام حول الحرام، فكانوا يستحبون أنْ يتركوا بينهم وبين الحرام مِنْ حقهم حاجزاً من الحلال، لقول **الرسول صلّى الله عليه وسلم** من يرتع حول الحِمَى يوشك أنْ يواقعه. ومنهم من كان يترك من حقّه شيأً لغير هذه النية، ولكن لقول الله عزّ وجلّ «**إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان**»، قالوا فالعَدل أنْ تأخذ حقّك كله وتعطى الحق، والإحسان أن تترك بعض حقّك وتبذل فوق ماعليك من الحق لتكون محُسنا، ولأن الله تعالى كما أمر بالعدل قد أمر بالإحسان، لقوله «**حقاً على المتقين**»، «**حقاً على المحسنين**». وهذه الطريقة قد جُهلت، ومَنْ عمل بها فقد أظهرها.

وحدثونا عن بعضهم قال أتيت بعض الورعين بديْن له علّى وكان خمسين درهما، قال ففتح يده فعددتُ فيها إلى تسع وأربعين درهما فقبض يده، فقلت هذا درهم قد بقى لك من حقك، قال قد تركته لك إنى أكره أنْ استوعب مالى كله فأقع فيما ليس لى. وقد كان **عبد الله بن المبارك** وغيره يقول من اتّقى من تسعة وتسعين شيأ ولم يتّق من شىء واحد لم يكن من المتّقين، ومن تاب من تسعة وتسعين ذنباً ولم يتُب من ذنب واحد لم يكن من التوّابين، ومَن زهد فى تسعة وتسعين شيأ ولم يزهد فى شىء واحد فليس هو من الزاهدين. وقد روى **عطية السعدى** عن **النبى صلّى الله عليه وسلم** لا يكون الرجل من المتقين حتى يترك ما لا بأس به حذراً مما به البأس. وروينا عن **أبى الدرداء** إنما التقْوَى أن يتّقى الله العبد فى مثقال ذرة حتى يترك بعض مايرى انه حلال خشية أنْ يكون حراماً، يكون حجابا بينه وبين الحرام.

وبمعنى هذا ماروى عن **أبى بكر الصدّيق** رضى الله عنه، قال كنا نترك سبعين باباً من الحلال مخافة بابٍ واحدٍ من الحرام. وهذا طريق قد مات أهله فمن سلكه فقد أحياهم.

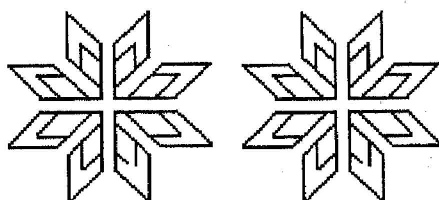
فأما أموال التجار والصناع والمتصرّفين فى المعايش المباحة بالأسباب الجائزة فى العلم مع موافقة الكتاب والسنّة فهى شبُهات، ثم تتنوع بنوعين، فتكون **شبهة حلال** إذا عاملت المتقين وأخذت من الورعين، وتكون **شبهة حرام** إذا عاملت قليلى التقوى والورع. وأما غير ذلك من أموال الجند، أى التى تؤخذ غصباً من قبَل الحاكم، فإنه حرام لفساد سببه ولمخالفة الأحاكم. فما كان عن معاملة لهم وكسبٍ، ولم تعلم شيئاً بعينه غصباً ولا جناية فهو أسهل، وما علمته فهو نص الحرام، فالله الله فى نفسك! أنظر أيها المسكين لمعادك واحفظْ لدينك، فإنّ كسبَك من دينك، وطُعمتَك من إيمانك، فإنْ تهاونت بذلك فقد تهاونت بالدين، ونبذت الأحكام، وضيّعت اليوم نفسك، ولم تنظر فيما قدّمت لغدٍ، ونعوذ بالله من سوء القضاء. ويقال إنّ العدو إذ ظفر من العبد بسوء الطُعمة لم يعترض عليه فى الأعمال، وقال قد ظفرت منك بحاجتى إعملْ الآن ما شئت، ولم يَعُدْ عليه من أعماله إلا ظلمة فى قلبه، وقسوة وضعفاً فى عزيمته، وفتوراً ومعصية، وحُرِم التوفيق والعصمة، ولم يورّث علم المكتوب والحكمة. فإنْ كان المتصرّف فى السوق على الوصف المكروه، مخالفاً للعلم فى تصرّفه، مفارقاً للأحكام، لا يبالى من أى وجه ظهر، وبأى سببٍ عليه قدّر، غير متّق فى كسبه، ولامُرْعٍ لدين الله عزّ وجلّ فى حُكمه، فهو آكل للمال بالباطل، قاتل لنفسه، مفسد لدينه، غاش للمسلمين، والله لا يصلح عمل المفسدين كمالا يضيع أجر المصلحين، ومع ذلك فهو غير ناصح لله عزّ وجلّ، ولخلْقه فى الدين، مقامه فى الظلم، وحاله الهوى، والله لا يحب الظالمين، فهو مأمور بالتوبة فى جميع تصرّفه، مفترَضٌ عليه الإنابة فى جميع تقلّبه قبل أن يبغته الموت وفجأه الفوْت، فيلقَى الله تعالى ظالماً ذا هوى، فقد قال تعالى **«ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون»**، وقال تعالى **«وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون»**. وقال بعض الحكماء الدنيا بحر عجّاج والتجّار فيه غاصة، فواحد يغوص فيُخرج دُراً، وهؤلاء أبناء الآخرة الذين لها يعملون، وآخر يغوص فيخرج آجُرّاً، وهؤلاء عمال الدنيا الذين عليها يحرصون، وآخر يُخرج سمكاً، وهؤلاء المقتصدون، وآخر فى قعره قد غرق، وهؤلاء المطرودون عن الطاعة إلى الأسواق، كلما أرادوا أعمال البرّ طُردوا عنها إلى السوق

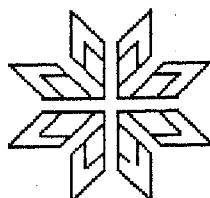
وشُغِلوا، فقد غرقوا فى بحر الخطايا، وآخر طاف مع الأمواج يضطرب، يطلب النجاة كلما رفعته موجة طمع فى النجاة، ثم تغطيه موجة أخرى فيخاف الهَلَكة، وهؤلاء المريدون الاستقامة فى زماننا هذا، ترفعهم التوبة إلى النجاة وتحطُّهم العادة إلى الهَلَكة. وروينا عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم**: لا تتخذوا الضَّيْعة فترغبوا فى الدنيا... وأوحى الله عزّ وجلّ إلى بعض أنبيائه: لا تتخذوا الأهل والمال فى زمن العقوبات. ..

ولاحول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

★★★

انتهى كتاب قوت القلوب بحمد الله ومنته





فهرس التراجم

باب الألف

- **أحمد بن يحيى بن ثعلب** (٢٩١هـ) إمام الكوفيين فى النحو واللغة، وكان رواية شعر، مشهوراً بالحفظ، ومحدثاً ج - ٣ ص٤٤٤.

- **ابن المعتز:** (٢٩٦ هـ) عبد الله بن محمد العباسى، الشاعر المبدع، اشتغل خليفة يوماً وليلة، وله التصانيف، ومنها أشعار الملوك، وطبقات الشعراء. ج - ٣ ص٤٥٥.

- أبو عبيدة بن الجراح: (١٨هـ) الأمير القائد الصحابى وأحد المبشرين بالجنة. ج - ٣ ص٥١٤.

- **إبن أبى عبلة:** إبراهيم، أدرك أنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وأبا أمامة، وروى عن عبادة بن الصامت وعبدالله بن عمر وعتبة بن غزوان السلمى **ج ٢** ص ١٢٨.

- **أبو الفيض المصرى:** أنظر ذا النون المصرى) **ج٣** ص ٨٠ ـ ٢٤٤ ـ ٢٥٤.

- **ابن الزبير:** انظر عبد الله بن الزبير **ج٣** ص ٢٣٩.

- **أبو بكر الصديق:** (٥١ق.هـ ـ ١٣هـ) أول الخلفاء، وأول المؤمنين من الرجال، وكانت العرب تلقبه عالم قريش ج١ ص٢٨ ـ ٦٨ ـ ١٢٤ ـ ١٤٥ ـ ج٣ ١٢٨ ـ ١٦١ ـ ١٧١ ـ ١٧٩ ـ ٢٢٣ ـ ٢٥٧ ـ ٢٦٨ ـ ٣٠٣.

- **أبو محمد سهل:** صاحب المدرسة السالمية من كبريات مدارس التصوف **ج** - ١ ص ١١٣ ـ **ج** - ٢ ص١٣ ـ ٢٥ ـ ٦٤ ـ ٧٦ ـ ٩٥ ـ ١١٥ ـ ١٢٦ ـ **ج** -٣ ص١١٨ ـ ١٢٩ ـ ١٣٧ ـ ١٤٢ ـ ١٤٥ ـ ١٤٨ ـ ١٥١ ـ ١٦٨ ـ ١٧٣ ـ ١٧٩ ـ ٢٠٩ ـ ٢١٩ ـ ٢٢٨ ـ ٢٢٩ - ٣٩٨ - ٤٧١.

- **ابن عباس :** انظر عبد الله بن عباس جـ - ص٢٣ ـ ٦٢ ـ ٩٠ ـ ـ٩٤ ـ ١١٠ ـ ١١١ ـ١١٦ ـ ١٣١ ـ ١٣٧ ـ ج- ٢ ٢٦ ـ ٣٦ ـ ٥٩ ـ ٦٣ ـ ٦٤ ـ ٧٠ ـ ٨١ ـ ٩٣ـ ٩٤ ـ ٩٥ ـ ٩٦ ـ ١٠٠ ـ ١٠٧ ـ ١١٩ ـ ١٢٨ ـ ١٤٢ ـ ١٤٦ـ ـ ١٥٤ ـ ١٥٥ ـ **ج** - ٣ ص١١ ـ ٢٤ ـ٣٣ ـ ٥٦ ـ ٧٦ ـ ٢٦٨ ـ ٢٨٥ ـ ٢٩٤ ـ ٣١٠ - ٣٢٤ - ٣٣٦ - ٣٥٩ - ٣٩٨ - ٤١٢ - ٤٣٦ - ٤٤٤ - ٤٤٥ - ٤٧٢.

- **أبو سعيد بن الأعرابى:** (٣٤١هـ) من علماء الحديث، صحب الجنيد ودخل فى التصوف، وله طبقات النساك وغير ذلك **ج** -٢ ص ١٣٣ ـ **ج** -٣ ص ١٤٢ - ٣٤٧.

- **أبو يزيد البسطامي:** من كبار الصوفية وأشهرهم، توفى سنة ٢٦١هـ، وعرف بشطحاته، وكان جده مجوسيا وأسلم، وهناك الكثير من المصنفات عن حياته ج ـ ٢ ص ١٣٧ ـ ج ـ٣ ص ١٤٥ ـ ٢٥٠ ـ ٢٥١ ـ ٣٥٥ ـ ٣٩٦ ـ ٤٥٥.

- **أبو عيينة:** موسى بن كعب بن عيينه (١٤١هـ) كان من جملة النقباء الذين بثوا الدعوة العباسية. ج ـ ٣ ص٤٤٠ ـ ٤٥٣ ـ ٥٣٣.

- **أبو هريرة:** (٢١ق.هـ ـ ٥٩ هـ) صحابى كان من أكثر الصحابة حفظاً للحديث، وروى منها ٥٣٧٤ حديثاً، نقلها عنه أكثر من ٨٠٠ محدث بين صحابى وتابع. ج ـ ١ ص ٤٩ ـ ٦٣ ـ ٦٥ ـ ٩٤ ـ ١١٦ ـ ١٢٩ ـ ١٣١ ـ ١٣٥ ـ ج ـ٢ ص٥١ ـ ١٥٥ ـ ج ـ٣ ص ٢١٨ ـ ٣٥٦ ـ ٣٦٦ ـ ٣٩٠ ـ ٣٩٢ ـ ٤٤٤ ـ ٤٦٢ ـ ٤٨٤ ـ ٥١٠ ـ ٥١٢ ـ ٥١٧.

- **أحمد بن عيسى الخراز:** (٢٨٦ هـ) من مشايخ الصوفية، بغدادى، أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء، وله تصانيف فى علوم الصوفية. ج ـ٣ ص ٢٩١.

- **أحمد بن غالب:** ويعرف بغلام الخليل، ج ـ ٣ ص٢٤١.

- **أبدال:** هم الأبرار، ويروون أن فى أمة الإسلام ثلاثين من الأبدال، قلوبهم على قلب إبراهيم الخليل، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا ج ـ ١ ص ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٦٨ ـ ج ـ٢ ص ٢٩ ـ ٤٤ ـ ج ـ ٣ ص٣٧١ ـ ٥٢١ ـ ٥٢٢.

- **أويس القرنى:** من كبار الزّهاد، وكان يتزر بالصوف، وبلغ من فقره وزهده أنه كان يجلس فى قويصرة من العرى، وكان قوته مما يلتقط من النوى، ونسبوه للجنون، ج ـ٣ ص ٩٦ ـ ١٤٢.

- **أبو إمامة:** صحابى كان مع علىّ فى صفين، وكان آخر من مات من الصحابة بالشام سنة ٨١هـ ـ جـ ١ ص ٦٤ ـ ٩٦ ـ جـ ٣ ١٧٥.

- **الأنباط:** قوم من العرب قطنوا قديما جنوب فلسطين وكانوا من التجار وعبدوا الأصنام، ومن سلالاتهم الحويطات شمالى الحجاز.

- **إسحق بن راهويه:** (٢٣٨ هـ) أحد كبار الحفاظ، أخذ عنه ابن حنبل والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى ج ـ٢ ص ١٥٧ ـ ج ـ٣ ص٢٨٣.

- **أبو الطفيل:** عامر بن واثلة (١٠٠هـ) شاعر كنانة، روى عن النبى تسعة أحاديث، وحمل راية علىّ فى بعض وقائعه، وكان آخر من مات بمكة من أصحابه . ج ـ٢ ص ١١٠.

- **ابن أسيد:** إسحق بن محمد، عالم بالحديث، له كتاب الشيوخ. مات سنة ٣١٢هـ. - ج - ٣ ص٣٦٠.

- **أبو الهيثم بن التيهان:** (٢٠هـ) صحابى كان يكره الأصنام فى الجاهلية ويقول بالتوحيد، وكان هو وأسعد بن زرارة أول من أسلم من الأنصار بمكة.

- **أسامة بن زيد:** (٥٤هـ) صحابى من أحباب رسول الله (ص)، له فى كتب الحديث ١٢٨ حديثاً - ج٣ ص٣٨٨ - ٥٣١.

- **أنس بن مالك:** (١٠ ق.هـ ـ ٩٣ هـ) صاحب رسول الله (ص) وخادمه، وروى عنه ٢٢٨٦ حديثا، وكان آخر من مات بالبصرة من الصحابة. ج ـ ١ ص ٢٨ ـ ٤٧ ـ ٦٤ ـ ٦٦ ـ ٦٧ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ١١٠ ـ ١٢٢ ـ ١٢٥ ـ ١٣٤ ـ ١٤٨ ـ ١٥٧ ـ ج ـ٢ ص٢٣ ـ ٢٧ ـ ٨١ ـ ٨٩ ـ١٠٧ ـ ١١٠ ـ ١١٢ ـ ١١٤ ـ ١٣٠ ـ ١٤٥ ـ ١٥٥ ـ ج ـ٣ ص٣٣ ـ ٧٥ ـ ٢١٠ ـ ٢٨٠ - ٣٥٥ - ٣٦٠ - ٣٦٣ - ٣٦٥ - ٤٠٨ - ٤٢٠ - ٤٣٤ - ٤٧١.

- **إبن جريج:** (٨٠ ـ ١٥٠هـ) عبد الملك بن عبد العزيز، فقيه الحرم المكى، وكان أول أهل مكة تصنيفا فى العلم ج - ١ ص ١٢٤ ـ ١٣١ ـ ج ـ٢ ص١٢٧.

- **إبن أبى ليلى:** (٧٤ ـ ١٤٨هـ) من أصحاب الرأى، وأخباره مع الإمام أبى حنيفة. ج ـ ١ ص ٤٧ ـ ج ـ٢ ص ٨٤ ج - ٣ ص٣٥٩ - ٤٤٠.

- **إبن الجلاّء الدمشقى:** من كبار الصوفية، صحب النخشبى وذا النون، وكان يقال فى الدنيا ثلاثة من أئمة التصوف لا رابع لهم، الجنيد ببغداد، وأبو عثمان بنيسابور، وأبو عبد الله الجلاء بالشام. ج ـ ٣ ص١٤.

- **أحمد بن منيع:** (١٦٠ ـ ٢٤٤هـ) حافظ ثقة له مسند فى الحديث ج ـ٢ ص ١٥٨.

- **أحمد بن أبى الحوارى:** (٢٣٠هـ) صوفى كبير، صحب الدارانى، وكان الجنيد

يقول الحوارى ريحانة الشام .ج - ١ ص ٦٦ . ج ـ٣ ص١٤٢. ١٤٣ . ٢٠٨ . ٢٦٨ - ٤٦٧ - ٤٨١.

ـ **أبو داود السجستانى:** (٢٠٢ ـ ٢٧٥هـ) إمام أهل الحديث فى زمانه، وله كتاب السنن جمع فيه ٤٨٠٠ حديثا ج ـ١ ص ٩١ . ج ـ٢ ص٨٢.

ـ **أحمد بن حنبل:** (٢٤١هـ) إمام المذهب الحنبلى، صنف المسند يحتوى على ثلاثين ألف حديث. ج - ١ ص٤٧ . ١٢٦ . ج -٢ ص٢٢ . ٨١ . ١٠٧ . ١١٤ . ١١٥ . ١٢٥ . ١٤١ . ١٤٣ . ١٤٤ . ١٤٥ . ١٥٧ . ١٥٨ . ج ـ٣ ص١٤٢ . ١٧٨ . ١٨٩ . ٢٨٤ - ٣٢٧ - ٣٦١ - ٤٠٤ - ٤٤١ - ٤٦٦ - ٤٧٣ - ٥٠٤ - ٥١٣ - ٥٣١ - ٥٣٢.

ـ **أبو كبشة الأنمارى:** مولى رسول الله (ص)، وكان من أهل الصفة ج - ٣ ص٣٤٤.

ـ **إباضية:** فرقة من الخوارج أتباع عبد الله بن إباض التميمى، كان ظهوره فى خلافة مروان بن محمد فى آخر دولة بنى أمية ج - ٣ ص٣٣٣ - ٣٤٠.

ـ **أبو سليمان الدارانى:** من أهل داريا إحدى قرى دمشق ومن كبار الصوفية، أسند الحديث ومات سنة ٢١٥هـ. ج ـ١ص٦٦ . ٨٠ . ٨٤ . ٩٥ . ج ـ٢ ص٨٦ . ٩٨ . ١٢٢ . ١٤٢ . ج ـ٣ ص١١٨ . ١٢٨ . ١٤٢ . ١٤٣ . ١٤٦ . ١٤٨ . ١٦٨ . ١٩٦ . ٢٠٨ . ٢١١ . ٢٦٨ - ٣٤٨ - ٤٠٤ - ٤٥١ - ٤٥٤ - ٤٦٧.

ـ **أبو أيوب الأنصارى:** (٥٢هـ) صحابى له ١٥٥ حديثا. ج - ٣ ص٣٤٧ - ٣٦٣ - ٤٠٨.

ـ **أبو يعقوب البويطى:** (٢٣١ هـ) صاحب الإمام الشافعى، مات فى سجن بغداد فى أيام الواثق فى محنة خلق القرآن، وله المختصر فى الفقه عن الشافعى. ج -٣- ٤٠٨.

ـ **أبو يعقوب السوسى:** من كبار الصوفية ج ـ٣ ص ١٦٩.

ـ **أبو حفص النيسابورى:** (٢٧٠هـ) صوفى، صحب النصراباذى والبلخى ج ـ٢ ص ١٢٠.

ـ **ابن عمر:** أنظر عبد الله بن عمر ج - ١ ص ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٦٣ ـ ١٣٢ ـ ج ـ٢ ص ٥٨ ـ ٨١ ـ ١٠٧ ـ ١٠٩ ـ ١٣٨ ـ ١٣٩ ـ ج ـ٣ ص١٩٧ ـ ٢٠٦ ـ ٣٠٦ - ٤٦٩ - ٥٣١.

ـ **أسماء بن خارجة الفزاري:** (٦٦هـ) تابعى من الطبقة الأول من أهل الكوفة، وكان سيد قومه ومقدما عند الخلفاء. ج - ٣ ص٤٤٣ - ٤٩١.

ـ **أبو الدرداء :** (٣٢هـ) صحابى، قال فيه الرسول (ص) عويمر حكيم أمتى، وكان أحد الذين جمعوا القرآن، وروى عنه ١٧٩ حديثا ج ـ١ ص٢٩ ـ ٥١ ـ ٥٤ ـ ٨٩ ـ ١٣٤ ـ ١٤٤ ـ ج ـ٢ ص٥٩ ـ ١٠٧ ـ ١٣٢ ـ ج ـ٣ ص٩٠ ـ ١٤٥ ـ ٢٠٧ ـ ٢٩١ ـ ٢٩٣ ـ ٣٠٣ - ٣٧٢ - ٤٤٢ - ٤٤٦ - ٤٦٣ - ٤٦٦ - ٥٣١ - ٥٣٤.

ـ **أبو الحسن الكرينى:** أستاذ الجنيد ج ـ٣ ص ٢٥٠.

ـ **أبو موسى الأشعرى:** (٢١ق.هـ ـ ٤٤هـ) صحابى، سيد الفوارس فى الحديث، له ٣٥٥ حديثاً. ج ـ١ ص٨٢ ـ ١١٩ ـ ١٢١ ـ ١٤٢ ـ ١٥٦ - ج ـ٢ ص١٠٨- ج - ٣ ص٣٨١ - ٣٩٤.

ـ **أبىّ بن كعب:** (٢١ هـ) صحابى أنصارى كان فى الأصل حبراً يهوديا ،ولما أسلم صار من كتّاب الوحى، وشارك فى جمع القرآن، وله ١٦٤ حديثا ـ ج ـ١ ص١١٦ ج ـ٢ ص٥٨ ـ ١٢٩ ـ ج ـ٣ ص٢٩٥ - ٢٦٥ - ٤٦٢ - ٥٣١.

ـ ابن أبى الدنيا: عبد الله (٢٠٨ ـ ٢٨١هـ) حافظ للحديث، له نحو ١٦٤ كتابا. ج ـ ١ ص ٤٧ - ج - ٣ ص٥١٣.

ـ **إبن أبى مليكة:** (١١٧هـ) من رجال الحديث الثقات ج - ٣ ص٣٤٧.

ـ **الأسود بن سالم:** صوفى كان مؤاخيا لمعروف الكرخى. ج - ٣ ص٤٦٦.

ـ **إبن سيرين:** (١١٠هـ) إمام وقته فى علوم الدين، توفى بالبصرة واشتهر بتعبير الرؤيا ج ـ١ ص ٩٣ ـ ج ـ٢ ص١١٣ ـ ١٣٤ ـ ١٤٨ ـ ١٥٥ - ج - ٣ ص٣٤٧ - ٣٥٩ - ٣٧١.

ـ **أبو تراب النخشبى:** صحب القزوينى والأصم، وعرف بالعلم والفتوة والتوكل والورع، ومات سنة ٢٤٥هـ ج ـ٣ ص٢٤٠.

- **أبو إدريس الخولاني**: أسند عن معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وغيرهم، وحدث عنه الزهري وبشر بن عبيد وغيرهما ج ١ ص٦٢ - ج ٣ ص٢١٧

- **أهل الصفة** : الصفة هي الظلة، وأهل الصفة نسبة إلى صفة مسجد الرسول (ص) في المدينة، وكان فقراء المهاجرين يأوون إليها، وهم أوائل الصوفية. ج ١ ص ١١٦ ج ٢ ص ٢٧ - ج ٣ ص١٠٣ - ١٢٧ - ٣٥٦ - ٣٩٦.

- **أبو سعيد الخدري**: (١٠ق.هـ - ٧٤هـ) صحابي، لازم الرسول (ص) وروى عنه، وله ١١٧٠ حديثا. ج - ٢ ص٥١ - ٩٣ - ١٤٢ - ج ٣ ص٧٠ - ١٣٦ - ١٤٢ - ١٨٦ - ٣٤٧ - ٣٦٦ - ٣٨٥ - ٣٩٢ - ٤٦٨ - ٤٧٤.

- **أبو حذيفة بن عتبة بن زمعة**: (١٢هـ) صحابي، هاجر إلى الحبشة، ثم المدينة، وقتل يوم اليمامة. ج - ٣ ص٢١٧ - ٢٢٣ - ٣٤٧.

- **أبو الحسن بن أبي الورد**: من كبار مشايخ العراقيين وجلّتهم ج ٢ ص ١٢٤.

- **أستاذ**: اصطلاح صوفي، وهو إمام الطريقة وفقيهها ومرشدها. ج - ١ ص٧٨.

- **الأصمعي**: عبد الملك (١٢٢ - ٢١٦هـ) راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، وتصانيفه كثيرة ج ٣ ص ٣٠٥ - ٤٥٧.

- **الأعمش**: (١٤٨هـ) تابعي كان عالما بالقرآن والحديث، ويروى عنه ١٣٠٠ حديثا جـ ١ ص ٢٧ - ٦٤ - ج ٢ ص١١٣ - ١١٤ - ١٢٠ - ج ٣ ص٢٠٨.

- **إبن المبارك**: أنظر عبد الله بن المبارك ج - ١ ص ٩١ - ٩٢ - ج ٢ ص٨٦ - ١١٧ - ج ٣ ص ٩٠ - ١٢١ - ١٤٠ - ٢٢٧ - ٣١٨ - ٤٧٢ - ٥٠١ - ٥٠٦ - ٥١٣ - ٥٣٣.

- **أبو حازم الزاهد**: (١٤٠هـ) عالم المدينة وقاضيها، وكان عابدا زاهدا، الحكمة أقرب الأشياء إليه. ج ٢ ص ١٢٦ - ج - ٣ ص١٤٣.

- **ابن السماك**: أبو العباس، من أقران يحيى بن خالد وعبدالوهاب الوراق، كان من الزهاد الواعظين ج - ٣ ص ١٤٣.

- **أبو جعفر محمد بن علي**: الملقب بالجواد (١٩٥ - ٢٢٠هـ) تاسع الأئمة الإثنى عشرية الإمامية. ج - ٣ ص٣٣٩ - ٤٣٠.

- **أبو جعفر الحداد:** صوفى، صحب أبا تراب النخشبى. ج - ٣ ص٤٢٨.

- **أبو ذر الغفارى:** (٣٢ هـ) العابد الزاهد القانت، جندب بن جناده، من بنى غفار، صحابى، روى له البخارى ومسلم ٢٨١ حديثا ج ـ١ ص٩٤ ـ ١٣٢ ـ ١٤٦ ج ـ٢ ص١١ ـ ١١٠ ـ ١٤٦ ـ ج ـ٣ ص٨٤ ـ ١٢٤ ـ ١٤٥ ـ ١٧٩ - ٣٦٥ - ٤٤٦ - ٥٠٥ - ٥٣١.

- **ابن المنكدر:** (١٣٠هـ) زاهد من رجال الحديث، له نحو ٢٠٠ حديث، إسمه محمد أبو عبد الله، وكان من أقران سفيان بن عيينة، وروى عنه من التابعين الزهرى والسختيانى وابن سوقة والرقاشى، ومن الأئمة ابن جريج ومالك ومعتمر والثورى وشعبة والأوزاعى وغيرهم جـ١ ص٦٦ ـ ٧٩ ـ ج ـ٣ ص٢٧ ـ ١١٦ - ٣١٥.

- **أبو عبيدة الجراح:** (١٨هـ) الصحابى، أحد العشرة المبشرين بالجنة، من السابقين إلى الإسلام، توفى بطاعون عمواس، وله ١٤ حديثا.

- **أم حبيبة:** زوج النبى (ص)، وأخت معاوية، وبنت أبى سفيان، كانت من فصيحات قريش، وتزوجها النبى سنة ٧ هـ، وتوفيت بالمدينة، ولها فى كتب الحديث ٦٥ حديثا - ج - ٣ ص٣٦٣.

- **أم هانىء:** أخت الإمام علىّ، فرق الإسلام بينها وبين زوجها فعاشت أيّما، وماتت بعد أخيها، وروت عن النبى ٤٦ حديثا ج ـ١ ص ٨٩ - ج - ٣ ص٣٦٣.

- **أيوب السختيانى:** (٦٦ ـ ١٣١هـ) سيد العبّاد والرهبان، أيوب بن كيسان، كان فقيها وناسكا، وقيل فيه سيد شباب أهل البصرة، وكان ابن سيرين يقول فى حديثه حدثنى الصدوق، وروى عنه نحوامن ٨٠٠ حديث. جـ ٢ ص ١١٠ ـ جـ٣ ص١٤٤ ـ ١٤٥ - ٣٦١ - ٤٤٢.

- **أم سلمة:** هند بنت سهيل (٦٢هـ) من زوجات الرسول (ص)، روت ٣٧٨ حديثا، وكانت وفاتها بالمدينة، وتزوجها فى السنة الرابعة للهجرة. ج ـ٢ ص ١١٠ ـ ج ـ٣ ص٣٠١.

- **أبو نصر التمار:** صوفى طريقتهالصبر، وكان من أقران بشر بن الحارث ج - ٢ ص١٧.

باب الباء

- **البراء بن عازب:** (٧١هـ) صحابى من أصحاب الفتوح، روى له البخارى ومسلم ٣٠٥ حديثا ج ـ١ ص ٧١.

- **بريدة الأسلمى:** (٦٣هـ) بريدة بن الحصيب، من كبار الصحابة، له ١٦٧ حديثا جـ٢ ص ١١٠.

- **بشر المريسى:** المتوفى سنة ٢١٩هـ، وكان من المرجئة ج ـ٣ ص ٢٧٠.

- **بشربن الحارث:** بشر الحافى لأنه لم يكن ينتعل شيئا، سكن بغداد وتوفى سنة ٢٢٧ هـ، وكان شديد الحب لله وللنبى، ولتصوفه قصة. ج ـ١ ص ١٣٤ ـ ج ـ٢ ص ١٧ ـ ٢٢٥ – ٨١ – ١٢٢ ـ ج ـ٣ ص٧١ ـ ١٤٥ ـ ١٥٥ ـ ١٧١ ـ ١٧٣ ـ ١٨٨ ـ ١٨٩ ـ ٢٠٨ ـ ٢١١ ـ ٢٢٣ ـ ٢٨٥ – ٤٢٦ – ٤٣٧ – ٤٤٠ – ٤٦٦ – ٥٠٦ – ٥٢٢ – ٥٣٢.

- **بلعم بن باعوراء:** كان نبيا فى بنى إسرائيل وقتله المديانيون فى حربهم مع بنى إسرائيل (سفر العدد٨) ج ـ٣ ص ٨٧.

- **بلال بن رباح:** الحبشى (٢٠هـ) مؤذن الرسول (ص) وأحد السابقين فى الإسلام وفى الحديث ج ـ١ ص ٨٢ ـ ٩٤ – ج ٣ ص٤١٥ – ٤٣٦.

- **بلال بن سعد:** من الصوفية الوعّاظ، وكان محله بالشام ومصر كمحل الحسن البصرى بالبصرة، واتخذ القصص، وحدث عنه ابن المبارك والأوزاعى وعبد الله بن أحمد بن حنبل ج ـ٣ ص٩.

البويطى: يوسف بن يحيى، أبو يعقوب، صاحب الإمام الشافعى (أنظر أبو يعقوب).

باب الثاء

- **ثابت البنانى:** أبو محمد، أسند عن غير واحد من الصحابة، منهم ابن عمر وابن الزبير وأنس، وأكثر روايته عن أنس، ج ـ١ ص ٦٦ ـ ١٠١ ـ ج ـ٢ ص١١٠.

باب الجيم

ـ جـريـر : محمـد ، المفسر الإمام ، له تـاريخ الطبرى وجامع البيـان إلخ ، وهو من ثقات المؤرخين والمفسرين . ج ـ ٣ص ٣٠٣ .

باب الحاء

ـــ حماد الراوية : (١٥٥ هـ) أول من لقب بـالراوية ، وكان من أعلم النـاس بأيام العرب وأشعارهم وأخبارهم وأنسابهم ولغاتهم ج ـــ ٢ ص ١٢٦ .

ـــ حبيب بن أبى ثابت : كان شديد النسك ، وطريقته التوكل ج ـ أ ص ٨٠ ـــ ج ـ ٢ ص ١١٤ .

ـــ الحسن بن على : الهادى الإمام الحادى عشر عنـد الإماميـة ، وكان من النسـاك ، وتوفى بسامراء سنة ٢٦٠ هـ . ج ـــ ٣ ص ٤١١ ـــ ٤٣٦ ـــ ٤٤٨ ـــ ٤٦٢ ـــ ٥٠٨ .

ـ الحسن البصرى : (١١٠ هـ) تابعى ، وحبر الأمـة فى زمنه ، ومن كبار الصوفية ، قيل غلبـه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا لـه وحـده ، وأطلقوا على أتبـاعه لـذلك اسم الخائفين ، وكان يقول من لبس الصوف تواضعاً لله عز وجل زاده الله نوراً ج ـــ ٤٦ ـــ ٤٧ ـــ ٨٢ ـ ٩٣ ـــ ١١٥ ـ ١٢١ ـ ١٣٢ ـ ١٣٨ ـــ ١٥٨ ـــ ج ـ ٢ ص ١٣ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـــ ٢٥ ـــ ٣٨ ـ ٥١ ـ ٦٢ ـ ٧٥ ـ ٧٧ ـ ٨٣ ـــ ٨٤ ـــ ٨٦ ـــ ١٠١ ـــ ١٠٩ ـــ ١١٠ ـــ ١١١ ـــ ١٢٢ ـــ ١٢٧ ـــ ١٣٤ ـــ ١٣٧ ـــ ١٣٨ ـــ ١٣٩ ـــ ١٥٤ ـــ ١٥٥ ج ـ ٣ ص ٣٥ ـــ ٤٧ ـــ ٧١ ـ ٨٤ ـــ ١٢١ ـــ ١٥٦ ـــ ١٨٩ ـــ ٢٩٣ ـــ ٣٤٧ ـــ ٣٧١ ـــ ٣٧٧ ـــ ٣٩٦ ـ ٤٢٠ ـــ ٤٤٧ ـــ ٤٦٣ ـــ ٤٦٨ ـــ ٤٩٩ ـــ ٥٠٤ .

ـ حارثة بن النعمان : من القراء من أهل الصفة وأهل برر وأحد الثمانين الذين ثبتوا يوم حنين ج ـ ٣ ص ٧١ .

ـ الحكم بن أبان : سيد أهل اليمن وكان من العباد الزاهدين .

ـــ حفصة بنت عمر : (٤٥ هـ) مـن أزواج النبى (ﷺ) ، تزوجها نحو سنة ثلاث للهجرة ، وروت ستين حديثاً .

- **الحشوية:** الذين ردهم الحسنى البصرى إلى حشا الحلقة، وقالوا بالظاهر والتجسيم. ج - ٣ ص٣٤٠.

- **الحواريون:** هم صحابة عيسى عليه السلام جـ٢ ص ٢١ - ٤٩

- **حاتم الأصم:** تلميذ شقيق البلخى، واستاذ ابن خضروية فى التصوف، مات سنة ٢٣٧هـ وكلامه فيه الكثير من الرمزية ج ٣ - ص ١٤٤.

- **الحسن بن على :** (٣ - ٥٠هـ) ثانى الأئمة الإثنى عشرية عند الإمامية، أمه فاطمة، وأبوه علىّ بن أبى طالب، صالح معاوية وسلم له الأمر سنة ٤١هـ. ج ٢ ص ١١٦ - ج ٣ ص٣٢٥.

- **الحرورية:** الخوارج، نسبة إلى قرية حروراء حيث عسكروا ج ٣ ص٧ - ٣٣٥ - ٣٤٠.

- **حجاج بن قرافصة:** من أقران الثورى وكان يكاتبه، وكان يسند عن أنس والكثير من التابعين، وروى عنه خيرة الصوفية. ج- ٣ ص٣٨٩.

- **الحارث المحاسبى:** من علماء الصوفية بعلوم الظاهر والمعلومات والإشارات، ومنذ المحاسبى صار علم القلوب فى مقابل علم العقول، وله التصانيف المشهورة، ومنها كتاب الرعاية لحقوق الله، وهو أستاذ البغداديين، وتوفى ببغداد سنة ٢٤٣ هـ ج ٢ ص ٧٨ - ١٢٥ - ١٤٣ - ١٤٥.

- **حماد بن زيد:** (٩٨ - ١٧٩هـ) من حفاظ الحديث، وكان يحفظ أربعة آلاف حديث، وخرج أحاديثه الأئمة الستة. ج ٢ ص٢٣ - ٩٧ - ج ٣ ص ٢٣٣.

- **حذيفة بن اليمان:** (٣٦هـ) كان صاحب سرّ النبى (ص) فى المنافقين، ولم يعلمهم أحد غيره، وله فى كتب الحديث ٢٢٥ حديثا ج ٢ ص ٥١ - ٦٠ - ٩١ - ١١١ - ١٣١ - ١٣٣ جـ٣ ص٢٧٩ - ٢٤٤ - ٢٧٩ - ٣٣٩ - ٣٤٦ - ٣٤٧ - ٤٦٢ - ٥١٤ - ٥١٦.

- **الحجاج:** (٩٥هـ) ابن يوسف الثقفى، كان الأول فى أشياء، فهوأول من ضرب درهما عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأول من بنى مدينة بعد الصحابة فى

الإسلام، وأول من اتخذ المحامل، وخرجت امرأة فى الهند تستنجده يا حجاجاه فبلغه عنها فقال لبيك لبيك، وأنفق سبعة آلاف ألف درهم حتى أنقذ المرأة، وأخباره كثيرة ج ٢ـ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ – ج – ٣ ص٣١٧.

باب الخاء

ـ الخليل بن أحمد: (١٠٠ ـ ١٧٠هـ) الفراهيدى، من أئمة اللغة العربية، وواضع علم العروض، وأستاذ سيبويه. كان من الزهاد، وبلغ الغاية من الفقر جـ٢ ص ٨٢ ـ ١٠٤.

باب الدال

ـ داود بن على: (٢٠١ ـ ٢٧٠ هـ) الملقب بالظاهرى كان من الأئمة المجتهدين وله تصانيف ج ـ٢ ص٧٨.

ـ داود الطائى: صوفى مات بالكوفة سنة ١٦٦هـ، اشتغل فترة بالفقه وسمع الحديث، وأقواله فيها رمزية مبكرة ج ـ٣ ص ١١٨ ـ ١٤٧ ـ ٢٤١ – ٣٥٩ – ٣٨١ – ٤٤٠.

باب الذال

ـ ذو النون المصرى: أبو الفيض، من الملامتية، توفى سنة ٢٤٥هـ، وهو نوبى من أخميم مصر، وكان فائقا فى التصوف، وأوجد وقته علما وورعا وحالا وأدبا. ج ـ٢ ص٢٢ ـ ١٢٦ ـ ج ـ ٣ ص ١٤٥ ـ ١٧٣ ـ ٢٣٤ ـ ٢٣٩ ـ ٢٤٤.

باب الراء

الربيع بن هيثم: أحد الثمانية من الزهاد، ولم يكن يستأذن على عبد الله بن مسعود، وكان يقول له لو رآك رسول الله لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين ج ـ ١ ص ٨٠ ـ ج ـ٣ ص٩٦ ـ ١٧٩ ـ ١٩٧ ـ ٢٩٢.

ـ رياح بن عمرو القيسى: صديق رابعة العدوية، من الصوفية البكائين، مات سنة ١٨٠هـ كان إذا دخل بيته أو الجبانة بكى، فيقال له أنت دهرك فى مأتم، فيقول يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا ج ـ٣ ص١٠.

- **الربيع بن سليمان:** (٢٧٠هـ) أبو محمد، المصرى، صاحب الإمام الشافعى وراوى كتبه، وأول من أملى الحديث بجامع ابن طولون ج - ٣ ص٤٥٨.

- **رابعة العدوية:** أم الخير بنت إسماعيل البصرية، مولاة آل عتيك، الصالحة المستورة، شهيدة العشق الإلهى، ماتت سنة ١٨٥ هـ أو نحوها. ج -٢ ص٣٣ - ١٢٢ - ج -٣ ص٢٠ -٢٠٨ - ٢٣٢ - ٢٣٤ - ٤٨١.

- **رأس الجالوت:** رئيس الطائفة اليهودية فى بلد إسلامى ج -٣ ص٧٠.

- **رابعة بنت إسماعيل:** الشامية زوجة أحمد بن أبى الحوارى، وقيل اسمها رايعة تمييزا لها عن رابعة العدوية، والرواة يخلطون بينهما فقد تكلمتا فى المحبة الإلهية وكانتا قمة فى التصوف. ج - ٣ ص٤٨١.

- **رجاء بن حيوة:** (١١٢هـ) شيخ أهل الشام فى عصره ومن أعلام العلماء، لزم عمر بن عبد العزيز، وله معه أخبار ج - ٢ ص ٨٥ - ١٢٨.

- **رافع بن خديج:** (٧٤هـ) صحابى من الأنصار، كان عريف قومه بالمدينة،وله ٧٨ حديثا ج -٢ ص ١٤٦.

باب الزاى

- **زيد بن ثابت:** (٤٥هـ) من أكابر الصحابة وكان كاتب الوحى للرسول، وله فى كتب الحديث ٩٢ حديثا ج -١ ص١١٦ - ج -٢ ص١٢٩ - ج -٣ص١٨١ - ٣٦٣.

- **الزُهرى:** (٥٨ - ١٢٤هـ) أول من دوّن الحديث، تابعى من المدينة، كان يحفظ ٢٢٠٠ حديث، نصفها مسند ج -٢ ص١٠٦ - ١٢٦ - ١٥٧ ج -٣ ص٧٥ - ١٤٣ - ١٤٧.

- **زهير بن نعيم البانى:** (وصحح الاسم البابى وليس البانى) صوفى، كان مهيبا، وأصيب فى بصره فى آخر عمره ومن أقرانه يحى بن أكثم ج -٣ ص ٩٠

- **زرارة بن أوفى:** من كبار الصوفية وكان يحب القصص ويجلس لذلك فى داره وأسند عن عدد من الصحابة ج -٣ ص ٩٦.

- **الزنديق:** المتشبه المبطل ج - ٣ ص٢٢ - ج -٣ ص٢٢

- **زيد بن أسلم :** (١٣٦هـ) فقيه مفسر، من المدينة، وكان مع عمر بن العزيز، وله كتاب فى التفسير ج - ٢ ص ٥٨ - ج - ٣ ص ١٢٨ - ٢٢١ - ٣٨١.

- **الزجاج:** إبراهيم (٣١١هـ) عالم بالنحو واللغة.ج - ٣ ص٣٧٩.

- **الزبير بن العوام:** قرين طلحه، أسلم وهو ابن ثمانى عشرة، ولم يتخلف عن غزوة، وكان أول من سلّ سيفه من أجل الإسلام، وقتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل سنة ٣٦هـ، وله ٣٨ حديثا. ج -٣ ص ١٤٣ - ٢٩٣

- **زياد:** زياد بن أبيه (١ - ٥٣هـ) كان كاتب للمغيره، وأصبح له شأن زمن معاوية ج -٢ ص ١٣٤.

باب السين

- **سالم مولى أبى حذيفة:** (١٢هـ) من كبار الصحابة القراءين، تبناه أبو حذيفة وزوجه ابنة أخ له، وكان من السابقين إلى الإسلام، وفى الحديث خذوا القرآن من أربعة، الثانى منهم سالم: ج -١ ص١١٩.

- **سرى السقطى:** خال الجنيد وأستاذه، وتلميذ الكرخى، وكان أوحد زمانه فى الورع، وأول من تكلم ببغداد بلسان التوحيد وحقائق الأحوال،وهو إمام البغداديين وشيخهم فى وقته. مات سنة ٢٥٣هـ جـ ١ ص ١٤٧ - ج -٢ ص ٨١ - ٨٢ - ١٤٥ - ج -٣ ص٧ - ١٦٧ - ٢١٥ - ٢٣٩ - ٤٢٧ - ٥٣١.

- **سعد بن الربيع:** (٣هـ) من كبار الصحابة، وكان أحد النقباء يوم العقبة وشهد بدرا، واستشهد يوم أحد ج -٣ ص١٦٩ - ٤٥٤.

- **سليمان الخواص:** صوفى له أقوال مأثورة وسياحات ورياضات، وكان من أقران الأوزاعى، والتقى بابن ادهم، وكان يصحح لعمر بن عبد العزيز ج -٣ ص ١٤٥ - ٣٨٩ - ٤٤٠ - ٥١٣.

- **سهل بن عبد الله:** أبو محمد التسترى، تخرج على خاله محمد بن سوار، ولقى

ذا النون بالحرم، وكان يقول أصولنا ستة القرآن والسنة وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق. ج ٢ ص١٢٣ ـ ١٥٥ ـ ج ٣ ص١٦٨ ـ ١٧٢ ـ ١٧٣ ـ ٣٧٢ - ٤٢٠ - ٤٦٧ - ٥٢١.

ـ **سعيد بن المسيب:** (٩٤هـ) أبو محمد، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والزهد، وكان يسمى راوية عمر ج ١ ص٢٦ ـ ٨٠ ـ ٨٩ ـ ١١٧ ـ ج ٢ ص١٠٧ ـ ١٢٧ ـ ١٣٠ ـ ج ٣ ص١١٨ - ٤٢٦ - ٤٦٤.

ـ **السباع الموصلي:** صوفي روى عنه أحمد بن أبي الحوارى، وكانت طريقته الزهد في الخلق والأنس بالله ج ٣ ص١٤٥.

ـ **سعد بن أبي وقاص:** (٥٥هـ) صحابي، كان أحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، أسلم وهو ابن ١٧ سنة، وله في كتب ٢٧١ حديثا ج ٢ ص ١٤٢ - ج ٣ ص٤٦٦ - ٥١٩.

ـ **سفيان الثوري:** (١٦١هـ) كانوا يسمونه أمير المؤمنين في الحديث، وعالم الأمة وعابدها وزاهدها. وكان يقول الزهد في الدنيا قصر الأمل ج١ ص ٤٢ ـ ١١٥ ـ ١٣٤ - ج - ٢ ص١٤ ـ ٢٥ ـ ٧٨ ـ ٨١ ـ ٨٤ ـ ٨٨ ـ ٩١ ـ ٩٤ ـ ٩٨ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧ ـ ١٤٣ ـ ١٤٨ ـ ج ٣ ص ٣٩ ـ ٦٢ ـ ٦٦ ـ ٦٩ ـ ٩٠ ـ ١٢٧ ـ ١٤١ ـ ١٤٢ ـ ١٤٣ ـ ١٥٧ ـ ١٦٨ ـ ٢٠٨ ـ ٢١٢ ـ ٢٨٥ ـ ٢٩٩ - ٣١٢ - ٣٢١ - ٤١٧ - ٤٦٤ - ٥١٤.

ـ **سفيان بن عيينة:** (١٩٨هـ) محدّث الحرم المكي، وكان من الحفاظ الثقات، قال فيه الشافعي لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، وله الجامع في الحديث، وكتاب في التفسير. جـ٢ ص١٢٠ ـ ١٢٧.

ـ **سهل بن سعد الساعدي:** (٩١هـ) من مشاهير أهل المدينة، وله في كتب الحديث ١٨٨ حديثا، وقيل عاش مائة سنة . ج ٢ ص ١١٠ - ج - ٣ ص٤٣٧.

ـ **سعيد بن جبير:** (٤٥ ـ ٩٥هـ) تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق، وكان حبشي الأصل ج - ١ ص ٦١ ـ ٦٣ ـ ٦٦ ـ ١٤٢ ـ ١٠٧ ـ ج ٣ ص٢٨٥ ـ ٣١٠ - ٣٥٩.

- **سليمان الأعمش:** أنظر الأعمش. جـ٢ ص ١٣٥.

- **سلمان الفارسي:** أبو عبد الله، سلمان ابن الإسلام، رافع الألوية وأحد الرفقاء، قال فيه الرسول، (ص): السباق أربع: أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبشة. جـ ١ ص ٥١ - ج ٢ ص١٠٧ - ١٣٥ - ج ٣ ص٢٤٤ - ٤٦٦.

- **سهل التستري:** (٢٨٣هـ) أبو محمد السالف الذكر، صاحب المدرسة السالمية فى التصوف، ولم يكن له نظير فى وقته فى الورع، وتوفي كما قيل نحو سنة ٢٨٣هـ. وكان دائم الترديد الله معى الله ناظر إلى، الله شاهدى. ج ٢ ص١٣٣ - ج ٣ ص١٩ - ٢٧ - ٥١ - ٦٦ - ٦٩ - ٧٣ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٥٧ - ١٦٨ - ١٧٤ - ١٧٩ - ٣٥١ - ٣٨٩ - ٣٩٦ - ٣٩٩ - ٤٦٣.

- **سلام بن مطيع:** من الزهاد، روى عنه ابن المبارك، وأدرك مالك بن دينار ج ٣ ص١٤٣.

- **سودة بنت زمعة:** (٥٤ هـ) زوجة الرسول (ص)، كان قد توفى عنها زوجها بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة فتزوجها النبى (ص) بعد خديجة ج - ٣ ص٤٧٩.

باب الشين

- **شرحبيل بن سمط:** (٤٠هـ) من القادة، وشهد صفين مع معاوية ومات فيها ج ٣ ص ٩٠.

- **شريح القاضي:** (٧٨هـ) كان ثقة فى الحديث ومن أشهر الفقهاء فى صدر الإسلام. ج - ٣ ص٣٥٧ - ٤٤٠.

- **الشطح:** كلام يصدر من الصوفى عن وجد مقرون بدعوى، وهو من زلات المحققين.

- **شقيق البلخي:** أستاذ حاتم الأصم، صحب ابن أدهم وأخذ عنه التصوف، وتوفى سنة ١٩٤هـ، وكان أول من تكلم فى التصوف بخراسان. ج ٣ ص٢٥٤ - ٥٣٢.

- **شهر بن حوشب:** (٢٠ ـ ١٠٠هـ) من رجال الحديث، سكن العراق، وقيل هو متروك الحديث ج ـ٣ ص١٧٥.

- **الشعبي:** (١٠٣) عامر بن شرحبيل، راوية من التابعين ومن رجال الحديث الثقات، كان فقيها، واستقضاه عمر بن عبد العزيز ج ـ١ ص٧٢ ـ ج ـ٢ ص١٣٨ ـ ١٥٥ ـ ج ـ٣ ص٢٩٧ ـ ٣٥٩ ـ ٤٢٦ ـ ٤٣٤ ـ ٤٤٢ ـ ٤٤٧ ـ ٤٥٥ ـ ٤٥٨.

- **الشافعي:** (٢٠٤هـ) أحد الأئمة الأربعة، من كُتبه الأم، جمعه البويطي، وبوّبه الربيع بن سليمان. ج ـ٢ ص٨٩ ـ ١٢٥ ـ ١٤٩ ج ـ٣ ص١٨٩ ـ ٢٢٠ ـ ٣٦١ ـ ٤٤١ ـ ٤٥٧.

- **شريك النخعي:** (٩٥ ـ ١٧٧هـ) شريك بن عبد الله، أبو عبد الله، عالم الحديث وفقيه، موّلده فى بخارى ووفاته بالكوفة. ج ـ ٣ ص٤٤١.

باب الصاد

- **صفوان بن سليم:** الزهري، ذكر عنه الأصبهاني أنه كان شديد التعبد والزهد. جـ١ ص٨

- صعصعة بن صوحان: (٥٦هـ) كوفي مات بالبحرين ومسجده فيها للآن حـ٣ ص٤٦٤

- **صعصعة بن ناجية:** جـ٢ ص٣٦ (بعد ٩ هجرية) جد الفرزدق الشاعر. قال فيه:

وجدى الذى منع الوائدات * وأحيا الوئيد فلم يوأد

باب الضاد

- **الضحاك بن مزاحم** (١٠٥ هـ) له كتاب فى التفسير، وكان يؤدب الأطفال، وقيل كان فى مدرسته ٣٠٠٠ طالب جـ٢ ص٢٣ ـ ٩٢ ـ ١٠٠ ـ جـ٣ ص٧٥

باب الطاء

طاووس بن كيسان: المتفقه، أول الطبقة من أهل اليمن الذين قال فيهم الرسول (ص) الإيمان يمان. توفى سنة ١٠٦هـ. جـ١ ص٨٠ ـ جـ٣ ص١٨٨ ـ ٣١٠ ـ ٥٣٤.

- **طلحة بن عبيدالله:** أشار إليه النبى (ص) وقرأ «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه». وقال من سره أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة جـ٣ ص٢٩٣.

- **طاهر بن الحسين بن مصعب:** (٢٠٧هـ) ذو اليمينين، من كبار الوزراء أدباً وحكمة، وطد الملك للمأمون. حـ٣ ص٥٣٣

باب العين

- **عامر بن عبدالله:** إبن الزبير (٥٥هـ) تابعى، كان أول من عُرِف بالنُسك، ومن أقران أويس القرنى والخولانى جـ١ ص٧٩ - جـ٣ ص٢٤١.

- **عمرو بن العاص:** (٥٠ ق -هـ - ٤٣هـ) صحابي من الفاتحين وله مكائد، توفى بالقاهرة التى كان واليها، وله فى كتب الحديث ٣٩ حديثا، وله أخطر الأدوار فى الفتنة بين علىّ ومعاوية. جـ٣ ص٣٢٧

- **عبد الرازق الصنعانى:** (١٢٦ - ٢١١هـ) من المحدثين الثقات، وكان يحفظ نحواً من ١٧ ألف حديث، وله الجامع الكبير فى الحديث، وتفسير القرآن والمصنف فى الحديث جـ٣ ص٧٥

- **عبدالله بن أنيس الأنصارى:** (٥٤هـ) أبو يحيى، صحابى من أهل المدينة، صلى إلى القبلتين وشهد العقبة جـ٣ ص٤٢٦.

- **عبدالله بن الحسن:** بن الحسن بن على بن أبى طالب (٧٠ - ١٤٥هـ) تابعى من أهل المدينة مات سجينا فى الكوفة جـ٣ ص٤٥١.

- **أبو أسامة الباهلى:** عبد الرحمن (٣٢هـ) من الصحابة. جـ٣ ص٤٥١.

- العتبى: (٢٢٨هـ) أبو عبد الرحمن، شاعر من البصرة وله أخبار جـ٣ ص٤٥٣.

- **عبد الرحمن بن أبى ليلى:** ولد فى خلافة أبى بكر وأسند عن عمر بن الخطاب، وسمع عثمانا وعليا وسعد بن أبى وقاص، وقال إنه أدرك ١٢٠ من أصحاب الرسول (ص)، وحدّث عنه من التابعين مجاهد والحكم وجماعة. جـ١ ص٨٦ - جـ٢ ص٨١.

ـ **عبد الواحد بن زيد** : من كبار الصوفية ، أدرك الحسن البصرى ، وله مواقف وأحوال مع رابعة العدوية وكان ابن تيمية يعتبره الصوفى الأول ، ومات سنة ١٧٧ هـ . جـ ٢ ص ٧٧ ـ ١١٠ ـ ١١٦ ـ جـ ٣ ص ١٧٩ ـ ١٨٢ ـ ٢٢٣ ـ ٢٩٣ .

ـ **عبد الله بن المبارك** : (١٨١ هـ) شيخ الإسلام الحافظ المجاهد صاحب التصانيف.
جـ ٣ ص ٢٢٠ ـ ٢٦١ ـ ٣٦١ ـ ٣٦٤ ـ ٤١٧ ـ ٤٤١ ـ ٤٧٢ .

ـ **عثمان بن عفان** : (٣٥ هـ) أمير المؤمنين وذو النورين ، ثالث الخلفاء وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، روى عن النبى ﷺ ١٤٦ حديثا ، وقتل صبيحة عيد الأضحى جـ ١ ص ٦٩ ـ ٨٦ ـ ٩٢ ـ ١١٦ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧ ـ ١٣٣ جـ ٢ ص ١١٠ ـ ١١١ ـ ١٤٣ ـ ١٤٨ ـ جـ ٣ ص ٨٤ ـ ٤٦٦ .

ـ **عثمان بن أبى العاص** : (٥١ هـ) صحابى له فتوح وغزوات ، وأستعمله النبى على الطائف جـ ٢ ص ٥٠ ـ جـ ٣ ص ٣١٤ ـ ٤٢١ ـ ٥٠٤ .

ـ **عبد الرحمن بن عوف** : (٤٤ ق هـ ـ ٣٢ هـ) صحابى من أكابرهم ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، وله ٦٥ حديثا جـ ١ ص ١١٦ ـ جـ ٢ ص ١٥ ـ جـ ٣ ص ٤٢ ـ ١٠٣ ـ ١٦٩ ـ ١٨٥ ـ ٤٣٦ ـ ٤٥٤ ـ ٤٦٦ ـ ٥١٢ .

ـ **عبد الله بن مغفل** : (٥٧ هـ) صحابى من أصحاب الشجرة وله ٤٣ حديثا ، وكان أحد عشرة أرسلهم عمر ليفقهوا الناس بالبصرة جـ ٢ ص ١٤٢ .

ـ **عبد الرحمن بن إبراهيم** : (٢٤٥ هـ) محدث الشام فى عصره ، وكان على مذهب الأوزاعى .

ـ **عبد الله بن عباس** : (٣ ق هـ ـ ٦٨ هـ) حبر الأمة ، لازم الرسول ص وروى عنه ، وله ١٦٦٠ حديثا جـ ١ ص ١٤٧ جـ ٣ ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ ـ ٣٦٥ ـ ٤٥٥ .

ـ **عبد الرحمن بن مهدى** : (١٩٨ هـ) من كبار الحفاظ وله فى الحديث تصانيف جـ ١ ص ١٤١ .

ـ **عطاء بن أبى رباح** : (٢٧ ـ ١١٤ هـ) تابعى ، من أجلاء الفقهاء ، ولد فى اليمن ونشأ بمكة فكان مفتى أهلها ومحدثهم . جـ ٣ ص ٤٤١ .

- **عكرمة بن أبى جهل** (١٣هـ) أبوه أبو جهل عدو الإسلام، أسلم بعد فتح مكة وحسن إسلامه جـ٣ ص٤٤٤.

- **عتبة الغلام:** قيل سمى الغلام لأنه كان نصفا من الرجال، وقيل سماه الصوفية الغلام لأنه كان فى العبادة غلام رهان، وكان حزنه يشبه حزن الحسن البصرى، وهو من أقران رياح القيسى ويحى الواسطى، واستشهد فى قرية الحباب.

- **عمرو بن قيس:** قيل هو الذى أدب سفيان الثورى وعلمه الفرائد، وكان يؤم المساجد والزوايا ويبكى أو ينوح فى المقابر، وأسند عن عدد من التابعين منهم ابن كهيل والعوفى وعجلان ومصعب بن سعد جـ٣ ص١٨٦.

- **عمرو بن ميمون:** صحب عمر بن الخطاب، وروى عنه وعن عبدالله بن مسعود وأبى أيوب الأنصارى جـ٣ ص١٩١.

- **علقمة بن قيس:** (٦٢هـ) تابعى، ولد فى حياة الرسول، وروى عن الصحابة، وروى عنه كثيرون .

- **العلاء بن الحضرمى:** (٢١ق) صحابى كان أول مسلم يركب البحر للغزو جـ٢ ص١٣٤.

- **عقبة بن عامر:** (٥٨هـ) صحابى كان رديف النبى (ص) وشهد صفين مع معاوية، وولى مصر سنة ٤٤هـ، ومات بها، وهو أحد من جمع القرآن، وله ٥٥ حديثا جـ٢ ص٢٢و - جـ٣ ص٥١٢

- **عبدالله بن أحمد بن حنبل:** (٢١٣ - ٢٩٠) له الزاوئد على كتاب الزهد لأبيه الإمام أحمد، زاد به نحو عشرة آلاف حديث حـ٢ ص١١٧ - ١٥٧ - ١٥٨.

- **عمار بن ياسر:** الصحابى، قال فيه الرسول (ص) عمار ملىء ايماناً إلى مشاشه وكان أحد أربعة تشتاق إليهم الجنة حـ١ ص١٤٧ - جـ٣ ص٤٦٦.

- **عبدالله بن عامر:** (٤ - ٥٩هـ) أمير فاتح كان شجاعا سخيا محباً للعمران. حـ٢ ص ١٤٦

- **عمير بن مسعد:** بعثة عمر على حمص فكان فيها التقى الورع، وعاش فقيرا مدقعا، وتوفى سنة ٤٥هـ جـ٣ ص ١٢٤.

- **عبد الرحمن بن غنم:** (٧٨هـ) ولد فى حياة الرسول، وقيل هو رأس التابعين، وتفقّه عليه أهل الشام . جـ٢ ص٨٥ - ٩٣.

- **عياض بن غنم:** (٢٠هـ) صحابى من الغزاة، كان يقال له زاد الراكب لكرمه. جـ٢ ص٨٥ - ٩٣ - ١٢٣ - جـ٣ ص١٢٤.

باب الفاء

- **فضيل بن عياض:** (١٨٧هـ) شيخ الحرم المكى، من كبار الصوفية، وكان ثقة فى الحديث جـ١ ص٦٦ - ٨٠ - ٨٤ - ١١٥ - ج٢ ص٨١ - ٩٦ - ١٤٩ - جـ٣ ص١٢ - ٨٠ - ١٢٦ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٥٠ - ١٥٦ - ١٨٨ - ٢٠٨ - ٢١٣ - ٢٩١ - ٣٧١ - ٤٤٠ - ٤٤٥ - ٤٤٩ - ٥٠٦ - ٥١٨ - ٥١٩.

- **الفوطية:** أصحاب هشام الفوطى من المعتزلة جـ٣ ص٩٧.

- **فتح الموصلى:** ابن سعيد، صوفى، طريقته الابتلاء، وكان يجمع عياله فى الشتاء ويغطيهم بملابسه ويقول اللّهم إنك أفقرتنى وجوعتنى وأعريتنى وعيالى، فهل تفعل ذلك بأوليائك؟ وهل أنا منهم حتى أفرح؟ جـ٣ ص١٧٤ - ٤٥٢.

فاطمة: الزهراء، بنت الرسول (ص)، وزوجة الإمام علىّ، وأم الحسن والحسين جـ١ ص٢٨ - جـ٣ ص١٢٤.

- **فضالة بن عبيد:** صحابى، له خمسون حديثاً، توفى سنة ٥٣هـ. جـ٣ ص١٧٠.

فرقد السبخى: أبو يعقوب، صوفى، يروى عنه كثيراً عبدالله بن أحمد حنبل، من أقران عبد الواحد بن زيد، والحكم بن أبان، وأسند عن أنس بن مالك، وإبراهيم النخعى، وسعيد بن جبير، وجابر بن زيد جـ٢ ص٧٧ - ١١٠.

باب القاف

- **قاسم الجوعى:** الجوعى الكبير، من كبار الصوفية، وأساس طريقته الصيام والتجويع، وجماعته هم الجوعية جـ٣ ص ١١٨- ٣٩٧.

- **القاسم بن محمد:** (١٠٧هـ) إبن أبى بكر، كان أحد الفقهاء السبعة بالمدينة جـ٢ ص١١٩.

- **قتادة:** أبو الخطاب (١١٨هـ) مفسر حافظ ضرير، وكان رأسا فى الحديث وفى العربية **جـ١** ص١٤٢ - **جـ٢** ص١٠٧ - **جـ٣** ص٢٤٢

- **القطب:** صاحب أعلى الدرجات فى الطريقة الصوفية، ويسمى أيضا بالغوث.

- **قبيصة بن مخارق:** ممن حضروا على الرسول **جـ١** ص٢٦.

- **قبيصة بن جابر الأسدى:** تابعى كوفى من رجال الحديث من الطبقة الأولى، وكان أخا لمعاوية من الرضاعة **جـ٣** ص١١٦

- **القطعية:** لقب الإمامية الذين قطعوا بموت الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق. حـ٣ ص٣٣١.

- **القدرية:** هم جاحدو القدر، ينسبون إلى التكذيب بما قدر الله للأشياء ويقولون إن كل عبد خالق لفعله. جـ٣ ص٣٣١.

- **القاسم بن المخيمرة:** (١٠٠هـ) من رجال الحديث، وكان معلما **جـ٢** ص١٣٨.

باب الكاف

- **كعب الأحبار:** (٣٢هـ) تابعى، كان من كبار علماء اليهود فى اليمن وأسلم زمن أبى بكر، وأخذ عنه الصحابة وغيرهم الكثير من أخبار الأمم الغابرة مما يتواجد فى كتب اليهود **جـ١** ص٥٤ - ٧٤ - ١٢٩ - ١٣٤ - **جـ٢** ص٣٤ - ٩٥ **جـ٣** ص٦٢ - ٢١٧ - ٢٢٠ - ٢٧٩.

الكرامية: فرقة من الصفاتية المجسمة أتباع أبى عبدالله محمد بن كرام المتوفى ٢٥٥هـ. جـ٣ ص٣٤٠.

باب اللام

- **لقمان:** من الحكماء الذين يتمثل بهم، وجاءت أخباره فى الجاهليه والإسلام، ولقب بالمعمر لطول عمره، وذكره القرآن **جـ١** ص٧٤ - **جـ٢** ص ٢٧ - ٨٦ - ٩٤ - **جـ٣** ص٦٥ - ١٦٠ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٣٣٦ - ٤٦٩ - ٥١٣.

- **اللوطى:** هو المصاب بالشذوذ الجنسى، وينسب إلى قوم لوط الذين غضب عليهم الله فأهلك بلادهم سدوم وعامورة **جـ٣** ص١٢.

- **لبيد بن ربيعة:** (٤١هـ) الشاعر المشهور، ويعد من الصحابة، وبعد إسلامه ترك الشعر ولم يقل إلا بيتا واحدا، وهو أحد أصحاب المعلقات **جـ٣** ص١٦٥.

- **الليث بن سعد:** إمام أهل مصر حديثا وفقها، قال فيه الشافعى الليث أفقه من مالك. توفى سنة ١٧٥هـ **جـ٣** ص٣٠٩.

باب الميم

- **ميمونة بنت الحارث:** (٥١هـ) آخر من تزوج الرسول (ص) وآخر من مات من زوجاته، وروت عنه ٧٦ حديثا **جـ٢** ص٢٤.

- **ميمون بن مهران:** (١١٧هـ) فقيه استوطن الرقة، وكان كثير العبادة وثقة فى الحديث **جـ٢** ص٥١ - ٤٤٩.

- **المقوقس:** ملك الإسكندرية كما أطلق عليه العرب، واسمه قيرس وكان وزيراً لهرقل وبطريرك الإسكندرية، وكان هو المنوط به شئون مصر لما فتحها عمرو بن العاص سنة ٦٣٩م **جـ٣** ص١٢٨.

- **مالك بن أنس:** إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند السنة، وتنسب إليه المالكية، وله الموطأ **جـ٢** ص ٨١ ـ ٨٦ - ١٠٧ ـ ١١٨ - ١٢٧ - ١٤١ - ١٤٤ **جـ٣** ص٢٠٢ - ٤٩٨.

- **معتمر بن بن سليمان:** (١٨٧هـ) محدّث البصرة، روى عنه كثيرون، منهم أحمد بن حنبل **جـ١** ص٣٢.

- **منصور بن زاذان:** صوفى قراء أسند عن أنس بن مالك. جـ٣ ص٣٤٨.

- **معاذ بن جبل:** (١٨هـ) صحابى كان أعلم الأمة بالحلال والحرام، وأحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبى (ص)، وله ١٥٧ حديثا. ومن كلام عمر عنه لولا معاذ لملك عمر، يفتى علم معاذ. وآخى النبى (ص) بينه وبين جعفر بن أبى طالب **جـ١**

ص٦٢ - ٨٢ - **جـ٢** ص ٨٥ - ٨٧ - ٩٣ - ١٠١ - ١١٢ - ١٢٥ - **جـ٣** ص٢٨٥ - ٤٣٤.

- **مسلم بن يسار:** روى عن الصحابة ولقى منهم عددا، وحدّث عن محمد بن سيرين وقتادة **جـ٣** ص٢٩٢.

- **مالك بن دينار:** (١٣١هـ) من كبار الصوفية رواة الحديث، وكان يتقوت من عمل الخوص، وفى بعض الأوقات يكتب المصاحف، وكان شديد الفقر، إدامه بفلسين ورغيف من الخبز، ولا يأكل اللحم إلا فى الأعياد، وكان يقول إذا تعلم العبد العلم ليعمل به كثر علمه، وإذا تعلمه لغير علمه زاده فجورا وتكبرا واحتقارا للعامة **جـ١** ص٨٠ - **جـ٢** ص٧٧ - **جـ٣** ٧٤ - ١١٢ - ١٢١ - ١٤٢ - ١٩٦ -٤٨٣.

- **محمد بن واسع:** من القراء وصنفه مالك بن دينار من قراء الرحمن، وقيل إنه من خشية الله كان وجهه كوجه ثكلى **جـ٢** ص ١١٠.

- **معروف الكرخى:** (٢٠٠هـ) من أعلام التصوف، ولابن الجوزى كتاب فى أخباره **جـ٢** ص١٢٥ - **جـ٣** ص١٧٣ - ٢٣٢ - ٤٠٣ - ٤٦٦.

- **المنازلية:** أصحاب المنزلة بين المنزلتين، من المعتزلة **جـ٣** ص٩٨.

- **المزين المكى:** (٣٢٨هـ) من أهل بغداد، صحب الجنيد وسهل بن عبدالله، وأقام بمكة مجاورا **جـ٢** ص١٢١.

- **معاوية بن أبى سفيان:** (٦٠هـ) مؤسس الدولة الأموية، وأحد دهاة العرب، أسلم سنة ٨ هجرية، وجعله الرسول (ص) ضمن كتابه، وله ١٣٠ حديثا **جـ٢** ص٨٣ - ١٤٣.

- **مسليمة الكذاب:** (١٢هـ) متنبىء نشأ بالجبيلة باليمامة، وتلقب فى الجاهلية بالرحمن: وكان يسجع كالقرآن وقتله ابن الوليد.

- **مضاء بن عيسى:** الشامى، وكان من العاملين اجتذبه الحب، واستلبه الخوف، وروى عنه ابن أبى الحوارى، وحدث عن حذيفة المرعشى **جـ٣** ص١٤٥.

- **محمد بن داود:** (٣٤٢هـ) شيخ الصوفية، وكان من حفاظ الأحاديث، وله كتاب «الأبواب» جـ٣ ص٤٥٩.

- **محمد بن سوقة:** من البكائين، قيل عددهم فى زمنه أربعة هو ثالثهم، ولما ورث عن أبيه مائة ألف درهم تصدق بها جميعا، وسار أبو حنيفة فى جنازته لما مات **جـ٢** ص١٢٠.

محمد بن يوسف الأصفهانى: من الزهاد أقران ابن المبارك، وكان يسميه عروس العباد. **جـ٣** ص١٤٣ - ٤٥٩.

- **المغيرة بن شعبة:** (٥٠هـ) صحابى يقال له مغيرة الرأى، ولما حدثت الفتنة بين علىّ ومعاوية اعتزلها، وقيل فيه دهاة العرب أربعة: معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة وزياد بن أبيه **جـ٣** ص ٢٣٩ - ٣٥٨ - ٤٨١.

- **مقاتل بن سليمان:** (٢٥٠هـ) من أعلام المفسرين، وله التفسير الكبير ونوادر التفسير إلخ. جـ٣ ص٣٧٩.

- **محمد بن الحنفية:** (٢١ - ٨١هـ) أخو الحسن والحسين، وأبوه علىّ بن أبى طالب، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية، وكانت الفرقة الكيسانيه تدعى أنه لم يمت وأنه يعيش فى جبل رضوى حتى يعود **جـ٢** ص٨٨. جـ٣ ص٤٤٢.

- **المعتزلة:** فرقة من أصحاب واصل بن عطاء، سموا كذلك لاعتزالهم مجلس الحسن البصرى لخلافهم معه حول مرتكب الكبيرة، كما اعتزلوا قول الخوارج والمرجئة، ويقال لهم أهل العدل والتوحيد والمعطلة **جـ٢** ص٧٥ - **جـ٣** ص٢٦٤ - ٢٧٠ - ٣٤٠.

- **مجاهد بن جبر:** (١٠٤هـ) مفسر من أهل مكة، أخذ التفسير عن ابن عباس، وكان يسأل أهل الكتاب **جـ١** ص٩٤ - ١٣٧ **جـ٢** ص٢٦ - ٥١ - ١١٩ - ١٥٥ - **جـ٣** ص١٨٨ - ٢٣٨ - ٢٩٨ - ٣١٠ - ٤٤٥.

- **مسروق بن الأجدع:** (٦٣هـ) تابعى ثقة من اليمن، وسكن الكوفة، وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه بالقضاء **جـ٣** ص٧٥ - ٤٤٥.

- **محمد بن سيرين:** (١١٠هـ) تابعى اشتهر بالرؤيا، وكان إمام وقته فى علوم الدين بالبصرة **جـ١** ص١٥٤ - ٤٤٥.

- **مريد:** اصطلاح صوفى، وهو من انقطع إلى الله عن نظر واستبصار وتجرد عن إرادة. جـ١ ص٢٣ - ٣٨ - ٧٨ - ٨٠ - جـ٢ ص٢٠ - جـ٣ ص٣٨٦ - ٤٠٢.

- **محمد بن واسع:** (١٢٣هـ) من ثقات أهل الحديث. جـ٣ ص٤٤٧.

- **محمد بن مسلمة:** (٤٣هـ) أبو عبد الرحمن الأنصارى، صحابى من الأمراء جـ٣ ص٤٨٤.

- **المهدى:** (١٦٩هـ) محمد بن عبدالله المنصور، من خلفاء الدولة العباسية،وكان محمود السيرة، حسن الخلق. جـ٣ ص٥٠١.

- **معافى بن عمران:** المعافى الموصلى (١٨٥هـ) من ثقات الحديث وله مصنفات فى الزهد والسنن جـ٣ ص٥٠٦.

- **مطرف بن الشخير:** (٨٧هـ) من كبار التابعين الزهاد، وكان ثقة فى الحديث، وولد فى حياة النبى (ص). جـ١ ص٧٢ - جـ٣ ص١٨٩.

- **معمر بن راشد:** (٩٠ - ١٥٣هـ) حافظ للحديث، سكن اليمن جـ٢ ص١٢٧.

- **المرجئة:** هؤلاء هم الذين قدموا الايمان وأرجأوا العمل وأسقطوا الوعيد جملة عن المسلمين جـ٣ ص٩٨ - ٣٢٣ - ٣٤٠.

- **مروان:** مروان بن الحكم (٢ - ٦٥هـ) خليفة أموى كان أول من حكم من بنى الحكم بن أبى العاص، واستحدث الكثير من الأشياء، ومن ذلك أنه أول من ضرب الدنانير الشامية وكتب عليها قل هو الله أحد جـ٢ ص١٤٢- جـ٣ ص٥١٣.

باب النون

- **النظام:** أبو اسحق إبراهيم البصرى، المتوفى سنة ٢٣١هـ، وفرقته هى النظامية، من المعتزلة جـ٣ ص٢٧٠.

- **نضر بن شميل:** (١٢٢ - ٢٠٣هـ) أحد اعلام رواية الحديث وأيام العرب جـ٢ ص١٥٦.

- **النعمان بن بشير:** (٦٥هـ) صحابى وله ١٢٤ حديثا، وكان أميرا وشاعرا. جـ٣ ص٥٢٢.

باب الهاء

- **هشام بن عروة:** (١٤٦هـ) إبن الزبير بن العوام، تابعى من أئمة الحديث، وروى منه نحو أربعمائة حديث جـ١ ص٣٢ جـ٢ ص١٤١ - جـ٣ ص٤٤١.

- **هارون الرشيد:** (١٤٩ - ١٩٣هـ) أشهر الخلفاء العباسيين، وكان عالما بالأدب والحديث وأخبار العرب والفقه.

باب الواو

وهب بن منبه: (١١٤هـ) من التابعين صحب ابن عباس ١٣ سنه، وأخبر الكثير من الإسرائيليات، وله مصنفات في القصص جـ١ ص٨٠ - جـ٢ ص٩١ - ١١٥ - جـ٣ ص١٣٦ - ١٤٧ - ١٧٧ - ٢٣٩ - ٥٠٦.

- **واثلة بن الأسقع:** من أهل الصفة. جـ١ ص١٢٧ - جـ٢ ص١٥٥ - جـ٣ ص٣٤٦ - ٥٠٩.

- **وهيب بن الورد:** صوفى من اقران السقطى والمحاسبى الحافى جـ١ ص٨٠ - جـ٢ ص٣ - ٧٧ - جـ٣ ص١٤٥ - ١٨٨ - ٢٠٨ - ٢١٢ - ٣٢٢ - ٥٢٢ - ٥٣٣.

- **وهب اليمانى:** هو نفسه وهب بن منبه الصنعانى اليمانى. جـ٣ ص٥٢٦.

- **وكيع بن الجراح:** (١٩٧هـ) محدث العراق كان يصوم الدهر، وله تفسير فى القرآن، وقال عنه الامام أحمد إمام المسلمين جـ٢ ص١٤٣ - ١٥٧ جـ٣ ص١٤٥ - ٢٩١ - ٥٣١.

بابا الياء

- **يزيد الرقاشى:** قيل فيه إنه صام اثنتين وأربعين سنة، وكان يسند عن أنس بن مالك، وروى عن الحسن، وروى عنه من الأئمة الأعلام الأعمش والاوزاعى وابن المنكدر جـ١ ص٦٢ - ٨٠ جـ٢ ص١١٢.

- **يحى بن أكثم:** (١٥٩ - ٢٤٢هـ) فقيه وقاض له كتاب الأصول، نسبه باكثم بن صيفى حكيم العرب جـ٣ ص٣٦٠.

- **يحيى بن معاذ:** توفى سنة ٢٥٨هـ، طريقته فى التصوف الذكر والوعظ ولزوم الحداد وتوقى العباد والرجاء وكان يقول اطلبوا الزهد من بطن الكتب جـ٢ ص٨٧ - ١١٥ - ١٣٩ - ١٤٦ - جـ٣ ص٦٩ - ٢٤٠ - ٤٤٥.

- **يحيى بن معين:** (٢٣٣هـ) بغدادى من أئمة الحديث، كان سيد الحفاظ وإمام الجرح والتعديل. قال عن نفسه كتبت ألف ألف حديث. جـ٣ ص٣٦١ - ٥٥٢.

- **يونس بن عبيد:** (١٣٩هـ) من أصحاب الحسن البصرى وكان محدثا وله نحو مائتى حديث جـ١ ص٤٧ - جـ٢ ص١٣١ - جـ٣ ص٥٠٥.

- **يونس بن حبيب:** (٩٤ - ١٨٢هـ) إمام نحاة البصرة وشيخ سيبويه جـ٣ ص٣٠٥.

- **يوسف بن أسباط:** صوفى من الكبار: جـ١ ص١١٦ - ١٤٧ - جـ٢ ص٧٧ - ١٣٢ - ١٥٤ - جـ٣ ص١٤٥ - ١٦٧ - ٢١٢ - ٣٧١ - ٤٤٠ - ٥١٨ - ٥٢٥ - ٥٣١.

- **يحيى بن يمان:** أبو زكريا الكوفى، كان ثقة فى الحديث، وله كتاب فى التفسير مات سنة ١٨٩هـ جـ٣ ص١٢٨.

- **يحيى بن زكريا:** النبى يحيى جـ٣ ص١٤٣.

- **يونس بن عبد الأعلى:** (٢٦٤هـ) من كبار الفقهاء بمصر، صحب الشافعى وأخذ عنه جـ٣ ص٢١٧.

- **يعقوب بن السكيت:** (١٨٦ - ٢٤٤هـ) الإمام فى اللغة والأدب، وله التصانيف جـ٣ ص٣٠٥.

- **يحيى بن سعيد القطان:** (١٩٨هـ) من أقران مالك وشعبة وكان يفتى بأقوال أبى حنيفة، وله كتاب المغازى جـ٢ ص ١٥٦.

- **يزيد بن هارون:** (١١٨ - ٢٠٦هـ) من حفاظ الحديث الثقات جـ٢ ص١٥٧.

★★★

هوامش كتاب قوت القلوب - الآيات لقرآنية

الجزء الأول

الفصل الأول

ص٢٢ - ومن أراد الأخرة وسعى لها سعيها (الإسراء ١٩).

- من كان يريد حرث الأخرة نزد له فى حرثه (الشورى ٢٠).

- وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (النجم ٣٩).

- كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية (الحاقة ٢٤).

- ولكل درجات مما عملوا (الأنعام ١٣٢).

- وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى (سبأ ٣٧).

- ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها (الأعراف ٤٣).

- فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين (السجدة ١٧).

- نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (العنكبوت ٥٨-٥٩).

- لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون (الأنعام ١٢٧).

الفصل الثانى

ص٢٢- وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر (الفرقان ٦٢).

- إن لك فى النهار سبحا طويلا (المزمل ٧).

- واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا (الإنسان ٢٥).

- وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (ق ٣٩).

- وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم (الطور ٤٨).

- إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا (المزمل ٦).

- ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى (طه ١٣٠).

- أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الأخرة... قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون (الزمر ٩).

- تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم (السجدة ١٦).

- والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما (**الفرقان ٦٤**).

- كانوا قليلا من الليل ما يهجعون (**الذاريات ١٨**).

- أقم الصلاة لدلوك الشمس (**الإسراء ٧٨**).

- وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل (**هود ١١٤**).

- فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون (**الروم ١٧**).

الفصل الثالث

ص٢٣- ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم (**الطور ٤٩**).

- قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا (**البقرة ١٣٦**).

- ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول (**آل عمران ٥٣**).

الفصل الرابع

ص٢٥- رب أعوذ بك من همزات الشيطان وأعوذ بك رب أن يحضرون (**المؤمنون ٩٧**).

- سبحان رب العزة عما يصفون (**الصافات ١٨٠**).

- فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون (**الروم ١٧**).

- آمن الرسول (**البقرة ٢٨٥**).

- شهد الله (**آل عمران ١٨**).

- قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك (**آل عمران ٢٦**).

ص٢٥- جاءكم رسول من أنفسكم (**الأنفال ١٢٨**).

- وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا (**الإسراء ١١١**).

- صدق الله رسوله الرؤيا (**الأحزاب ٢٢**).

ص ٢٦- قل أعوذ برب الناس (**الناس ١**).

- قل أعوذ برب الفلق (**الفلق ١**).

- قل هو الله أحد (**الإخلاص ١**).

- قل يا أيها الكافرون (الكافرون ١).

- فإن تولوا فقل حسبى الله (التوبة ١٢٩).

الفصل الخامس

ص٣٧ - إنى أنا الله رب العالمين (القصص ٣٠).

الفصل السادس

ص ٣٩- وذكرهم بأيام الله (إبراهيم٥).

- فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون (الأعراف ٦٩).

- يذكرون الله قياما (آل عمران ١٩١).

- واذكروا ما فيه لعلكم تتقون (البقرة ٦٣).

- لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا (طه ١١٣).

- يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (البقرة ٢١٩).

- يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون (المائدة ٨٩).

- واذكروا ما فيه لعلكم تتقون (الأعراف ١٧١).

- الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى (الكهف ١٠١).

الفصل السابع

ص ٤٠ - والصبح إذا تنفس (التكوير ١٨).

- ألم تر إلى ربك كيف مد الظل (الفرقان ٤٥).

- فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون (الروم ١٧).

ص ٤٢ - والضحى والليل إذا سجى (الضحى ١).

- اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم (الأعراف).

- إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة (النمل ٩١).

- اتل ما أوحى إليك من الكتاب (العنكبوت ٤٥).

ص ٤٣ - وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون (الروم ١٨).

- أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا (الأعراف ١٥٥).

- ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إن هديتنا (آل عمران ٨).

- ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير (الممتحنة ٤).

ص ٤٥ - كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا (طه ٣٣).

- ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها (الرعد ١٥).

- وعشياً وحين تظهرون (الروم ١٨).

- بالعشي والإشراق (ص ١٨).

- واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار (آل عمران ٤١).

- فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون (الروم ١٧).

- والشمس وضحاها (الشمس ١).

ص٤٦ - والليل إذا يغشى (الليل ١).

- وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (ق ٣٩).

ص٤٦ - بالعشي والإبكار (آل عمران ٤١).

- قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق (الفلق ٢).

- إن سعيكم لشتى (الليل ٤).

- كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين (المدثر ٣٨).

الفصل الثامن

ص ٤٧ - ومن آناء الليل فسبح (الحجر ١٣٠).

- فلا اقسم بالشفق (الانشقاق ١٦).

- تتجافى جنوبهم عن المضاجع (السجدة ١٦).

ص٤٨ - وهو عليم بذات الصدور (الحديد ٦).

- هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة (الحشر ٢٢).

ص٥٠ - كانوا قليلا من الليل (الذاريات ١٧).

ص ٥١ - وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا (الإسراء ٧٨).

- وبالأسحار هم يستغفرون (الذاريات ١٨).

ص ٥٢ - ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم (ق ٤٠).

- شهد الله أنه لا إله إلا هو (آل عمران ١٨).

الفصل العاشر

ص ٥٤ - ألم تر إلى ربك كيف مد الظل (الفرقان ٤٥).

- وجعلنا الليل والنهار آيتين (الإسراء ١٢).

ص ٥٩ - وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا (الإسراء ٧٨).

ص ٦٦ - تتجافى جنوبهم عن المضاجع (السجدة ١٦).

الفصل الثالث عشر

ص ٧١ - وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم (البقرة ١٦٣).

ص ٧٣ - وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم (الأنعام ٦٠).

ص ٧٤ - وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسئ (غافر ٥٨).

- أفنجعل المسلمين كالمجرمين (القلم ٣٥).

- أم حسب الذين اجترحوا السيئات (الجاثية ٢١).

- وخلق الله السماوات والأرض بالحق (الجاثية ٢٢).

- كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته (ص ٢٩).

- أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض (ص٢٨).

الفصل الرابع عشر

ص ٧٦ - إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه (المزمل ٢٠).

- أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما (الزمر ٩).

- هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (الزمر ٩).

- والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما (الفرقان ٦٤).

ص ٧٧ - واستعينوا بالصبر والصلاة (البقرة ٤٥).

- وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين (البقرة ٤٥).

- يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون (آل عمران ١١٣).

ص ٨٢ - ومن الليل فسبحه وأدبار السجود (ق ٤٠).

ص ٨٣ - إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل (المزمل ٢٠).

ص ٨٧ - فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون (الروم ١٧).

ص ٨٨ - وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون (الشورى ٣٨)

ص ٩٥ - كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه (المجادلة ٢٢).

ص ٩٦ - وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار (البقرة ٧٤).

ص ٩٨ - واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب (البقرة ٢٣١).

- لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم (الأنبياء ١٠).

ص ٩٩ - وأنزلنا إليكم الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم (النحل ٤٤).

- يضرب الله للناس أمثالهم (محمد ٣).

- ولقد أنزلنا إليك آيات بينات (النور ٣٤).

- واتبع ما يوحى إليك واصبر (يونس ١٠٩).

- إتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم (الأعراف ٣).

- فاستمومن تاب معك (هود ١١٢).

- هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون (الجاثية ٢٠).

- هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين (آل عمران ١٣٨).

- ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا (البقرة ٢٦٩).

- ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما الموضوع (الأنبياء ٧٩).

- إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم (الانعام ١٥).

الفصل السادس عشر

ص ١٠٠ - عليك توكلنا وإليك أنبنا (**الممتحنة ٤**).

- ولنصبرن على ما آتيتمونا (**إبراهيم ١٢**).

- فأعرض عمن تولى عن ذكرنا (**النجم ٢٩**).

- ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (**الحجرات ١١**).

ص ١٠٠- تبصرة وذكرى لكل عبد منيب (**ق ٨**).

- وما يتذكر إلا من ينيب (**غافر ١٣**).

- إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله (**الزمر ٩**).

ص ١٠١ - خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون (**السجدة ١٥**).

ص ١٠٢ - ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا (**الإسراء ١٠٩**).

- فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون (**الحاقة ٣٨**).

- فاعتبروا يا أولى الأبصار (**الحشر ٢**).

- ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (**الزاريات ٤٩**).

- ولا تجعلوا مع الله إلها آخر (**الزاريات ٥١**).

- كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (**طه ١٢٦**).

الفصل السابع عشر

ص ١٠٣ - إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين (**الأنبياء ١٠٦**).

- ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون (**القصص ٥١**).

- كتاب أحكمت آياته (**هود ١**).

- وآتينا ثمود الناقة مبصرة (**الإسراء ٥٩**).

- وهي خاوية على عروشها (**البقرة ٢٥٩**).

- ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر (**البقرة ١٧٧**).

- أقتلت نفسا زكية بغير نفس (**الكهف ٧٤**).

- من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض (المائدة ٣٢).

- من فى السموات والأرض (الرحمن ٢٩).

- فما يكذبك بالدين (التين ٧).

ص ١٠٣- لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم (التين ٤).

ص ١٠٤ - إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات (الإسراء ٧٥).

- واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا عليها (يوسف ٨٢).

- ثقلت فى السموات والأرض (الأعراف ١٨٧).

- تفتؤ تذكر يوسف (يوسف ٨٥).

- وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون. (الواقعة٨٢).

- بدلوا نعمة الله كفرا (إبراهيم ٢٨).

- وكأين من قرية أهلكناها (الحج ٤٥).

- واسئل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها (يوسف ٨٢).

- إن هذا القرآن يهدى للتى هو أقوم (الإسراء ٩).

- وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن (الاسراء٥٣).

- إدفع بالتى هى أحسن السيئة (المؤمنون ٩٦).

- إن الذين سبقت لهم منا الحسنى (الأنبياء ١٠١).

- وآتنا ما وعدتنا على رسلك (آل عمران ١٩٤).

- وما أنسانية إلا الشيطان (الكهف ٦٣).

- إنا أنزلناه فى ليلة القدر (القدر ١).

ص ١٠٥ - حتى توارت بالحجاب (ص ٣٢).

- وما يلقاها إلا الذين صبروا (فصلت ٣٥).

- ولا يلقاها إلا الصابرين (القصص ٨٠).

- وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم (البقرة ٢٠٦).

- لا تأخذه سنة ولا نوم (البقرة ٢٢٥).

ص ١٠٥ - يدعو لمن ضره أقرب من نفعه (**الحج ١٣**).

- لتنوء بالعصبة (**القصص ٧٦**).

- وطور سينين سلام على آل ياسين (**الصافات ١٣٠**).

- جعلوا القرآن عضين (**الحج ٩١**).

- وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت (**المائدة ٦٠**).

- ألا إن عادا كفروا ربهم (**هود ٦٠**).

- وللبسنا عليهم ما يلبسون (**الأنعام ٩**).

- والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم (**الزمر ٣**).

- فظللتم تفكهون إنا لمغرمون (**الواقعة ٦٥**).

ص ١٠٦ - فما لهؤلاء القوم يكادون لايفقهون حديثا (**النساء ٧٨**).

- قل كل من عند الله (**النساء ٧٨**).

- ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض (**الزخرف ٦٠**).

- وهم لها سابقون (**المؤمنون ٦١**).

- فلما تجليّ ربه للجبل (**الأعراف ١٤٣**).

- لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا (**البقرة ١٥٠**).

- ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم (**النساء ٢**).

- وأيديكم إلى المرافق (**المائدة ٦**).

ص ١٠٧ - وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء (**يونس ٦٦**).

- قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا (**الأعراف ٧٥**).

- إلا آل لوط إنا لمنجدهم أجمعين إلا امرأته (**الحجر ٥٩**).

- فلما أراد أن يبطش (**القصص ١٩**).

ص ١٠٧ - فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم (**غافر ٢١**). [وردت خطأ فلينظروا، لذا لزم التنويه].

- لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة (**الزخرف ٣٣**).

- ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شيء (النحل ٧٥).
- وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم (النحل ٧٦).
- فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء (الكهف ٧٠).

ص ١٠٨ - أم خلقوا من غير شيء (الطور ٣٥).
- قال قرينه ربنا ما أطغيته (ق ٢٧).
- وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون (الأعراف ٢٠٢).
- إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (النحل ١٠٠).
- فأثرن به نقعا فوسطنا به جمعا (العاديات ٤).
- فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات (الأعراف ٥٧).
- يشرب بها عباد الله (الإنسان ٦).
- وأنزلنا من المعصرات ماءمجاجا (النبأ ١٤) .
- شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن (البقرة ١٨٥) .

ص ١٠٩ - إنا أنزلنا في ليلة القدر (القدر ١) .
- حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة (الأحقاف١٥) .
- والعصر إن الإنسان لفي خسر (العصر ١).
- يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا (الانشقاق ٦) .
- فأما من أوتي كتابه بيمينه (الانشقاق ٧) .
- ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات (الأحزاب ٧٣).

ص ١٠٩- وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها (الشورى ٤٨) .
- كذبت قوم نوح المرسلين (الشعراء ١٠٥).
- إذ قال لهم أخوهم نوح (الشعراء ١٠٦).
- فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب (الحشر ٩).
- لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس (غافر ٥٧).
- قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم (آل عمران ١٧٣).

- ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس (البقرة ١٩٩).

ص ١١٠ - من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن (النحل ١٠٦) .

- ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة (النحل ١٠٦) .

- وقيله يارب ان هؤلاء قوم (الزخرف ٨٨) .

- فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً (الأنعام ٩٦) .

- والشمس والقمر حسباناً (الأنعام ٩٦) .

- وامسحوا برءوسكم وأرجلكم (المائدة ٦) .

ص ١١١- ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى (طه ١٢٩) .

- يسألونك كأنك حفى عنها (الأعراف ٨٧) .

- لتركبن طبقا عن طبق (الانشقاق ١٩) .

- يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا (الانشقاق ٦) .

- ولولا فضل الله ورحمته عليكم لاتبعتم الشيطان إلاقليلا (النساء ٨٣) .

- وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف اذ اعوا به إل قليلا منهم (النساء ٨٣).

- لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم (النساء ١٤٨) .

- ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم (النساء ١٤٧).

ص ١١١- والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض (الأنفعال ٧٣).

- وإن استنصركم فى الدين فعليكم النصر (الأنفال ٧٢).

- لهم مغفرة ورزق كريم (الأنفعال ٤).

- قل الأنفال لله والرسول (الأنفال ٥).

- حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه (الممتحنة ٤).

- لقد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه (الممتحنة ٤).

ص ١١٢- وما كان استغفار إبراهيم لإبيه إلا عن موعدة (التوبة ١١٤).

- ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة (المائدة ٣).

- حرمت عليكم الميتة والدم (المائدة ٣).

- وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً (الأنفال ٢).

ص ١١٣- فلما حضروه قالوا أنصتوا (الأحقاف ٢٩).

- فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون (التوبة ١٢٤).

- هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (الزمر ٩).

- يدعون ربهم خوفا وطمعا (الزمر ٩).

الفصل الثامن عشر

ص ١١٣- ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني (البقرة ٧٨).

- إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين (الجاثية ٣٢).

ص ١١٤ - وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون (يوسف١٠٥).

- نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى (الإسراء ٤٧).

ص ١١٤- أولئك الذين طبع الله على قلوبهم (محمد ١٦).

- فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب (الأعراف ١٦٩).

- ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق (الأعراف ١٦٩).

- فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا (آل عمران ١٨٧).

ص ١١٥ - سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق (الأعراف ١٤٦).

- إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا (المزمل ٥).

ص ١١٦ - واذكروا مافيه لعلكم تتقون (البقرة ٦٣).

- يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون (الأنعام ١٨٧).

- ليس كمثله شيء (الشورى ١١).

ص ١١٧ - ثقلت في السموات والأرض (الأعراف ١٨٧).

الفصل التاسع عشر

ص ١١٨ - رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون (المؤمنون ٩٧).

- إعوذ برب الناس (الناس ١).

الفصل الحادي والعشرون

ص ١٢٤ - ياأيها الذين آمنتوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة (الجمعة ٩).

- فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض (الجمعة ١٠).

ص ١٣٢ - فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض (الجمعة ١٠).

الفصل الثانى والعشرون

ص ١٤٠ - واستعينوا بالصبر والصلاة (البقرة ٤٥).

ص ١٤١ - وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا (الجن ١٨).

- إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة التى حرمها (النمل ٩١).

ص ١٤١- فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون (السجدة ١٧).

ص ١٤٣ - سماعون للكذب أكالون للسحت (المائدة ٤٢).

- لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم إلا ثم وأكلهم السحت (المائدة ٦٢).

الفصل الثالث والعشرون

ص ١٤٥ - ونضع الموازين القسط ليوم القيامة (الأنبياء ٤٧).

ص ١٤٦ - ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم (النساء ١٣١).

- وقولوا للناس حسنا (البقرة ٨٣).

- إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا (العصر ٢).

- واخفض لهما جناح الذل من الرحمة (الإسراء ٢٤).

- أذلة على المؤمنين (المائدة ٥٤).

ص ١٥٠ - فلا تزكوا أنفسكم (النجم ٣٢).

- إن فى ذلك لآيات للمتوسمين (الحجر ٧٥).

- على بصيرة أنا ومن أتبعنى (يوسف ١٠٨).

- أنظروا إلى ثمره إذا أثمر (الأنعام ٩٩).

- قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم (النور ٣٠).

ص ١٥١ - يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم (الأنفال ٢٩) .

- وما أختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم (البقرة ٢١٣).

ص ١٥٢ - فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير (البقرة ٢٥٩).

- كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون (آل عمران ٨٩).

- كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون (الأعراف ٥٨).

ص ١٥٢- وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب (ص ٢٠).

- ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا (البقرة ٢٦٩).

- فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون (الأنبياء ٧).

- فسئل به خبيرا (الفرقان ٥٩).

- سيروا فى الأرض فانظروا (النمل ٦٩).

- فإن كنت فى شك مما نزلنا إليك فسئل الذين يقرأون الكتاب (يونس ٩٤).

- إن علينا بيانه (القيامة ١٩).

- وعلم آدم الأسماء كلها (البقرة ٣١).

- ياآدم أنبئهم بأسمائهم (البقرة ٣٣).

- ألم أقل لكم إنى أعلم (البقرة ٣٣).

ص ١٥٣ - إلا عبادك منهم الخلصين (الحجر ٤٠).

ص ١٥٤ - ألا لله الدين الخالص (الزمر ٣).

- نسقيكم ممافى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا (النحل ٦٦).

- كلوا من الطيبات واعملوا صالحا (المؤمنون ٥١).

الفصل الرابع والعشرون

ص ١٥٥ - وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا (طه ٩٧).

- فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا (الطور ٤٨).

ص ١٥٦ - والذين اجتنبوا الطاغوت (الزمر ١٧).

- وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين (الروم ٣١).

- منيبين إليه واتقوه (الروم ٣١).

- واذكر ربك إذا نسيت (الكهف ٢٤).

ص ١٥٦- ففروا إلى الله (الذاريات ٥٠).

ص ١٥٧ - ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة (المائدة ٣٥).

- أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة (الإسراء ٥٧).

- قل كل يعمل على شاكلته (الإسراء ٨٤).

ص ١٥٨ - وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار (الأنعام ٦٠).

الجزء الثانى

الفصل الخامس والعشرون

ص ٣ - ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون (البقرة ١٣٢).

- ساريكم آياتى فلا تستعجلون (الأنبياء ٣٧).

- وكان الإنسان عجولا (الإسراء ١١).

- أتى أمر الله فلا تستعجلوه (النحل ١).

ص٤ - وقال لهم خزنتها سلام عليكم (الزمر ٧٣).

ص٧ - كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية (الحاقة ٢٤).

- ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله (الزمر ٥٦).

ص ٨ - تتجافى جنوبهم عن المضاجع (السجدة ١٦).

- وأولئك هم الغافلون لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون (النحل ١٠٨ - ١٠٩).

- كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (المطففون ١٤).

- ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة (النحل ١٠٧).

- أولئك الذين طبع الله على قلوبهم (محمد ١٦).

- ونهى النفس عن الهوى (النازعات ٤٠).

- طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم (محمد١٤).

ص ٨ - لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم (الأعراف ١٠٠).

ص ٩ - فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله (الزمر ٢٢).

- ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض (الحج ٥٣).

- إن الله لايحب الخائنين (الأنفال ٥٨).

الفصل السادس والعشرون

ص ١٠ - وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة (الفرقان ٦٢).

- اعملوا آل داود شكرا (سبا ١٣).

- فاتقوا الله لعلكم تشكرون (آل عمران ١٢٣).

- كما أرسلنا فيكم رسولا منكم (البقرة ١٥١).

- مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم (النساء ١٤٧).

- ولا تنس نصيبك من الدنيا (القصص ٧٧).

ص ١١ - ومن كل شىء خلقنا زوجين (الذاريات ٤٩).

- ولا تجعلوا مع الله إلها آخر (الذاريات ٥١).

- من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه (المؤمنون ٨٨).

- قل لمن الأرض ومن فيها (المؤمنون ٨٤).

ص ١٢ - فلما نسوا ما ذكروا به (الأنعام ٤٤).

- حتى إذا فرحوا بما أوتوا (الأنعام ٤٤).

- ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه (الكهف ٢٨).

- لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (ق ٢٢).

- وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر (مريم ٣٩).

ص ١٤ - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا (فصلت ٣٠).

ص ١٤- من يطع الرسول فقد أطاع الله (آل عمران ٩٠).

- إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله (الفتح ١٠).

ص ١٥ - استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم (الأنفال ٢٤).

ص ١٦ - لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم (النور ٢٧).

ص ١٨ - عفا الله عنك لم أذنت لهم (التوبة ٤٣).

- وتخفى فى نفسك ما الله مبديه (الأحزاب ٣٧).

الفصل السابع والعشرون

ص ٢٢ - واستعينوا بالصبر والصلاة (البقرة ٤٥).

ص ٢٧ - إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا (النور ١٩).

الفصل الثامن والعشرون

ص ٣٠ - كما بدأكم تعودون (الأعراف ٢٩).

- أفنجعل المسلمين كالمجرمين (القلم ٣٥).

- كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته (ص ٤٩).

- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (الرحمن ٦٠).

- من علم سيئة فلا يجزى إلا مثلها (غافر ٤٠).

- أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم (آل عمران ١٤٢).

- أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم (البقرة ٢١٤).

- أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا (الجاثية ٢١).

- الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه (الزمر ٢٨).

- وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (الزمر ٤٧).

ص٣١ - والوزن يومئذ الحق (الأعراف ٨).

ص٣١ - ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم (الأعراف ٥٢).

- فلنقصن عليكم بعلم (الأعراف ٧).

- وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (الزمر ٤٨).

- واتقوا النار التي أعدت للكافرين (آل عمران ١٣١).

- لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل (الزمر ١٦).

ص٣٢ - قالوا وهم فيها يختصمون تالله (الشعراء ٩٦).

- والله خلقكم وما تعملون (الصافات ٩٦).

- إن المجرمين في ضلال وسعر (القمر ٤٧).

- والله فضل بعضكم على بعض في الرزق (النحل ٧١).

- ضرب لكم مثلا من أنفسكم (الروم ٢٨).

- ضرب الله مثلا عبدا مملوكا (النحل ٧٢).

- وضرب الله مثل رجلين (النحل ٧٤).

- لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (الأنبياء ٢٣).

ص ٣٣ - فلا تضربوا لله الأمثال (النحيل ٧٤).

- لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (الأنبياء ٢٣).

ص ٣٤ - هل جزاء الأحسان إلا الإحسان (الرحمن ٦٠).

- أنه من يشرك فقد حرم الله عليه الجنة (المائدة ٧٢).

- إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله (النساء ١٦٧).

- وألزمهم كلمة التقوى (الفتح ٢٦).

- واتقوا الله لعلكم ترحمون (الأنعام ١٥٥).

- إن رحمة الله قريب من المحسنين (الأعراف ٥١).

ص ٣٤ - سنزيد المحسنين (الأعراف ١٦١)

- ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا (الشورى ٢٣)

ص ٣٥ - الخبيثات للخبيثين (النور ٢٦)

- الذين تتوفاهم الملائكة طيبين (النحل ٣٢).

- فلنقصن عليكم بعلم (الأعراف ٧).

- وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (الزمر ٤٨).

- واتقوا النار التى أعدت للكافرين (آل عمران ١٣١).

- لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل (الزمر ١٦).

ص٣٢ - قالوا وهم فيها يختصمون تالله (الشعراء ٩٦).

- والله خلقكم وما تعملون (الصافات (٩٦).

- إن المجرمين فى ضلال وسعر (القمر ٤٧).

- والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق (النحل ٧١).

- ضرب لكم مثلا من أنفسكم (الروم ٢٨).

- ضرب الله مثلا عبدا مملوكا (النحل ٧٢).

- وضرب الله مثل رجلين (النحل ٧٤).

- لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (الأنبياء ٢٣).

ص ٣٣ - فلا تضربوا لله الأمثال (النحيل ٧٤).

- لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (الأنبياء ٢٣).

ص ٣٤ - هل جزاء الأحسان إلا الإحسان (الرحمن ٦٠).

- أنه من يشرك فقد حرم الله عليه الجنة (المائدة ٧٢).

- إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله (النساء ١٦٧).

- وألزمهم كلمة التقوى (الفتح ٢٦).

- واتقوا الله لعلكم ترحمون (الأنعام ١٥٥).

- إن رحمة الله قريب من المحسنين (الأعراف ٥٦).

ص ٣٤ - سنزيد المحسنين (الأعراف ١٦١)

- ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا (الشورى ٢٣)

ص ٣٥ - الخبيثات للخبيثين (النور ٢٦)

- الذين تتوفاهم الملائكة طيبين (النحل ٣٢).

- واتبعوا أحسن ما أنزل من ربكم (الزمر ٥٥).

- أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله (الزمر ٥٦).

- فما يكذبك بعد بالدين (التين ٧).

- أليس الله بأحكم الحاكمين (التين ٨).

- ولا تنسى نصيبك من الدنيا (القصص ٧٧).

- حتى إذا جاءتكم الساعة بغتة (الأنعام ٣١).

- كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين (المدثر ٣٨).

- وأنذرهم يوم الحسرة إذا قضى الأمر وهم فى غفلة (مريم ٣٩).

- لينذر من كان حيا (ياسين ٧٠).

- إنما أنت منذر من يخشاها (ياسين ١١).

- فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (ق ٢٢).

ص ٤١ - وجاءت سكرة الموت بالحق (ق١٩).

- قل بئسما يأمركم به إيمانكم (البقرة٩٣).

- ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا (السجدة ١٢).

ص ٤١ - بل هم فى شك يلعبون (الدخان ٩).

- ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون (هود ٢٠).

- وكنا نكذب بيوم االدين حتى أتانا اليقين (المدثر ٤٦).

- أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا (مريم ٣٨).

- ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (الذاريات ٤٩).

- ففروا إلى الله (الذاريات ٥٠).

- ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات (الشورى ٢٦).

الفصل التاسع والعشرون

ص٤٥ – والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهادتهم قائمون (المعارج ٣٢).

- وأوفوا بعهدى أوفى بعهدكم (البقرة ٤٠).
- أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه (هود١٧).
- أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة (الإسراء ٥٧).
- وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا (الأنفال ٢).
- أولئك هم المؤمنون حقا (الأنفال ٤).
- وإن فريقا من المؤمنين لكارهون (الأنفال ٥).
- ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى (طه ٧٥).
- يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا (الأعراف ١٦٩).
- رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه (الأحزاب ٢٣).

ص ٤٦ – يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (الصف ٢).

- ولقد صدق عليهم إبليس ظنه (سبأ ٢٠).
- يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم (محمد ٣٦).

ص ٤٦– تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة (الأنفال ٦٧).

- وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين (الزخرف ٧١).

ص ٤٧ – تحيتهم يوم يلقونه سلام (الأحزاب ٤٤).

- ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم (فصلت ٣٢).
- فأما إن كان من المقربين فروح وريحان (الواقعة ٨٩).
- وهو وليهم بما كانوا يعملون (الأنعام ١٢٧).
- هم درجات عند الله، واله بصير بما يعملون (آل عمران ١٦٣).
- فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا (الفتح ١٨).
- والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حكيما (الأحزاب ٥١).

- إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا (الأنفال ٧٠).

- ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم (الأنفال ٢٣).

- أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا (الرعد ٣١).

- وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا (الأنعام ١٢٩).

- تشابهت قلوبهم فيتبعون ما تشابه منه (البقرة ١١٨).

- ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله (الروم ٤٥).

- ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط (يونس ٤).

ص ٤٨ - فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين (الشعراء ٢١٣).

- كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون (المطففين ١٥).

- فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم (الواقعة ٨٩).

ص ٤٩ - ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله (البقرة ٢٠٧).

- والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله (المائدة ٤٤).

ص ٤٩ - شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم (آل عمران ١٨).

- الصابرين والصادقين (آل عمران ٧).

ص٥٠ - كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب (الرعد ٤٣).

- إنما يخشى الله من عباده العلماء (فاطر ٢٨).

- فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا(الكهف١١٠).

الفصل الثلاثون

ص ٥٠ - ونفس وما سواها (الشمس ٧).

- ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه (ق ١٦).

- من شر الوسواس الخناس (الناس ٤).

- إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه (فاطر ٦).

- استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله (المجادلة ١٩).

- الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء (البقرة ٢٦٨).
- لأقعدن لهم صراطك المستقيم (الأعراف ١٦).
- ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم (النساء١١٩).

ص ٥١ - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا (الأعراف ٢٠١).

ص ٥٢ - واذكروا ما فيه لعلكم تتقون (البقرة ٦٣).
- يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون (الانفطار ٦).
- يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ٠(التين ٩٤).
- ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (الذاريات ٤٩).

ص ٥٣ -أعطى كل شئ خلقه ثم هدى (طه ٥٠).
- أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب (الأعراف ٣٧).

ص٥٣ - كتب عليه أنه من يتولاه يضله ويهديه إلى عذاب السعير (الحج ٤).
- إن فى ذلك لذكرى لمن له قلب (ق ٣٣).

ص ٥٤ - الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله (الرعد ٢٨).
- هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين (الفتح ٤).
- كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى (الكهف ١٠١).
- أعنده علم الغيب فهو يرى (النجم ٣٥).
- مثل الفريقين كالأعمى والأصم (هود ٢٤).
- لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون (الأعراف ١٠٠).
- واتقوا الله واسمعوا، واتقوا الله ويعلمكم الله (المائدة ١٠٨).
- ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان (آل عمران ١٩٣).
- إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما (التحريم ٤).
- فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب (الحج ٤٦).

ص ٥٥ - فاعلم أنه لا إله إلا الله (محمد ١٩).
- فاعلموا أن ما أنزل بعلم الله وأن لا إله الا هو (هود ١٤).

ص ٥٧ - وإن الفجار لفى جحيم (الانفطار ١٤).

- يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (المجادلة ١١).

ص ٥٨ - مثل نوره كمشكاة فيها مصباح (النور ٣٥).

- الا من أتى الله بقلب سليم (الشعراء ٨٩).

ص ٥٩ - يؤتى الحكمة من يشاء (البقرة ٢٦٩).

- ففهمناها سليمان (الأنبياء ٧٩).

- وإن فى ذلك لآيات للمتوسمين (الحجر ٧٥).

ص ٥٩ - قد بينا الآيات لقوم يوقنون (البقرة ١١٨).

- يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا (الأنفال ٢٩).

- ومن يتق الله يجعل له مخرجا (الطلاق ٢).

- والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (العنكبوت ٦٩).

ص٦١ - والذين جاهدوا فينا (العنكبوت ٦٩).

ص٦٢ - وإن الله لمع المحسنين (العنكبوت ٦٩).

- فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام (الأنعام ١٢٥).

- إن الله يأمر بالعدل والإحسان (النحل ٩٠).

ص٦٣ - وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى (الحج ٥٢).

- قد بينا الآيات لقوم يوقنون (البقرة ١١٨).

- وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون (يونس ٦).

- هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين (آل عمران ١٣٨).

- بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم (العنكبوت ٤٩).

- قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون (الأنعام ٩٧).

ص٦٤ - ولله خزائن السموات والأرض (المنافقون ٧).

- لهم قلوب لا يفقهون بها (الأعراف ١٧٩).

ص٦٩ - وما توفيقى إلا بالله (هود ٨٨).

- ما شاء الله لا قوة إلا بالله (الكهف ٣٩).
- يقلب الله الليل والنهار (النور ٤٤).
- بل مكر الليل والنهار (سبأ ٣٣).
- وما سكن فى الليل والنهار (الأنعام ١٣).

ص٦٩ - سرابيل تقيكم الحر (النحل ٨١).
- ونقلب أفئدتهم وأبصارهم (الأنعام ١١٠).

ص٧٠ - واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه (الأنفال ٢٤).
- إن ينصركم الله فلا غالب لكم (آل عمران ١٦٠).

ص٧١ - فإن الله لا يهدى من يضل (النحل ٣٧).
- قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا (الأعراف ١٨٨).
- قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا (الجن ٢١).

ص٧٢ - ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا (النساء ٣٨).
- فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (العنكبوت ٣).

ص٧٣ - ونعلم ما توسوس به نفسه (ق ١٦).

ص٧٤ - وكل شيء فصلناه تفصيلا (الإسراء ١٢).

ص٧٥ - إذا أردناه أن نقول له كن فيكون (النحل ٤٠).

ص٨٠ - إلا من شهد بالحق وهم يعلمون (الزخرف ٨٦).
- حتى تعلموا ما تقولون (النساء ٤٣).
- هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن (الأنعام ١٤٨).
- بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم (الروم ٢٩).
- ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون (الجاثية ١٨).
- فلعلموا أنما أنزل بعلم الله (هود ١٤).
- فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (الأنبياء ٧).

ص٨١-وإن أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه (آل عمران ١٨٧).

ص٨٢ - لا خير فى كثير من نجواهم (النساء ١١٤).

الجزء الثالث

ص ٣- وتوبوا إلى الله جميعاً لعلكم تفلحون (النور ٣١).

- يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا (التحريم ٨).

ص ٤ - ويدرءون بالحسنة السيئة (الرعد ٢٢).

- والذين آمنوا وعملوا الصالحات (العنكبوت ٩).

ص ٥ - من قبل أن يأتى أحدكم الموت (المنافقون ١٠).

ص ٦ - وهو الذى يقبل التوبة عن عباده (الشورى ٢٥).

ص ٢٠ - إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك (النساء ٤٨).

- عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم (التوبة ١٠٢).

- يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم (النجم ٣٢).

- هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض (النجم ٣٢).

ص ٢٦ - وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا (السجدة ٢٤).

- وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل (الأعراف ١٣٧).

ص ٢٩ - والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس (البقرة ١٧٧).

ص ٣٢ - واصبر وماصبرك إلا بالله (النحل ١٢٧).

ص ٣٢ - ولربك فاصبر (المدثر ٧).

- أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء (آل عمران ١٣٤).

ص ٣٤ - ولربك فاصبر (المدثر ٧).

ص٤٠ - واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى (ص ٤٥).

ص ٤١ - مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين (الأنبياء ٨٣).

- سبحانك تبت إليك (الأعراف ١٤٣).

ص ٤١ ـ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين (**الأنبياء ٨٧**).

ـ اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود (**ص ١٧**).

ص ٤٢ ـ نعم العبد إنه أواب (**ص ٣٠**).

ص ٤٣ ـ مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم (**النساء ١٤٧**).

ـ وسنجزى الشاكرين (**آل عمران ١٤٥**).

ـ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولاتكفرون (**البقرة ١٥٢**).

ـ إن الذين تعبدون من دون الله (**العنكبوت ١٧**).

ص ٤٤ وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة (**لقمان ٢٠**).

ص ٥٠ ـ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما (**المائدة ٢٣**).

ـ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين (**الواقعة ١٣**).

ـ فى قلوبهم مرض (**البقرة ١٠**).

ص ٥٦ ـ يمحو الله مايشاء ويثبت (**الرعد ٣٩**).

ص ٥٩ ـ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء (**الشورى ١٩**).

ـ والذين إذا فعلوا فاحشة (**آل عمران ١٣٥**).

ـ من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل (**الزمر ١٦**).

ص ٦٢ ـ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة (**هود ٩**).

ـ وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً (**الفتح ١٢**).

ص ٦٧ ـ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه (**الزمر٩**).

ص ٦٨ ـ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة (**المؤمنون ٦٠**).

ـ إنا كنا قبل من أهلنا مشفقين فمن الله علينا (**الطور ٢٦**).

ص٦٨ـ يوفون بالنذر ويخافون يوماً (**الإنسان ٧**).

ص ٦٩ - ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم (**غافر ١٠**).

ص ٧٠ - فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات (**٢٠٩ البقرة**).

ص ٧٨ - أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة (**الإسراء ٥٧**).

ص ٧٩ - ومايعقلها إلا العالمون (**العنكبوت ٤٣**).

- إنما يخشى الله من عباده العلماء (**فاطر ٢٨**).

- ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم (**النساء ١٣١**).

- هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون (**الأعراف ١٥٤**).

ص ٨٠ - فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين (**النساء ٦٩**).

ص ٨٦ وإبراهيم الذى وفّى (**النجم ٣٧**).

- فأوجس فى نفسه خيفة (**طه ٦٧**).

ص ٨٧ - أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض (**النحل ٤٥**).

ص ٨٩ - إنه ليس من أهلك (**هود ٤٦**).

ص ٩١ - خلق الموت والحياة ليبلوكم (**الملك ٢**).

ص ٩٥ - وإنك لعلى خلق عظيم (**القلم ٤**).

ص ١٠١ - فخرج على قومه فى زينته (**القصص ٧٩**).

- أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا (**القصص ٥٤**).

- والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم (**الرعد ٢٤**).

- ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج (**التوبة ٩١**).

- إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة (**الكهف ٧**).

- تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً (**التوبة ٩٢**).

ص١٠١- وسنزيد المحسنين (**البقرة ٥٨**).

- ماعلى المحسنين من سبيل (**التوبة ٩١**).

- للفقراء المهاجرين الذين أحصروا فى سبيل الله (**البقرة ٢٧٣**).

- وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا (**السجدة ٢٤**).

- من كان يريد حرث الآخرة نزد له من حرثه (**الشورى ٢٠**).

- زين للناس حب الشهوات (**آل عمران ١٤**).

- اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر (**الحديد ٢**).

- ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى (**النازعات ٤١**).

- فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا (**النازعات ٣٨**).

- ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة (**النساء ٧٧**).

- منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة (**آل عمران ١٥٢**).

ص١١١ - وشروه بثمن بخس دراهم معدودة (**يوسف ٢٠**).

- يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون (**التوبة ١١١**).

- ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا (**الأنعام ٨**).

ص ١١٢ - أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا (**يوسف ٢١**).

ص ١١٣ - لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم (**الحديد ٢٣**).

ص ١١٨ - الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته (**البقرة ١٢١**).

- كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (**البقرة ٢١٩**).

- ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (**الذاريات ٤٩**).

ص ١٢٩ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى (**آل عمران ٣١**).

ص ١٥٩ - ومالهم فيهما من شرك ومالهم منهم من ظهير (**سبأ ٢٢**).

ص١٥٩- صنع الله الذى أتقن كل شىء (**النمل ٨٨**).

- وإليه يرجع الأمر كله (هود ١٢٣).

- الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم (الروم ٤٠).

- أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (الواقعة ٦٣).

ص ١٦١ - قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم (السجدة ١١).

- الله يتوفى الأنفس حين موتها (الزمر ٤٢).

- فأرسلنا إليها روحنا (مريم ١٧).

- فنفخنا فيها من روحنا (التحريم ١٢).

- فإذا قرأناه فاتبع قرآنه (القيامة ١٨).

ص ١٦٢ - لاتحرك به لسانك لتعجل به (القيامة ١٦).

- ووهبنا له من رحمتنا أخاه (مريم ٥٠).

- قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم (التوبة ١٤).

- فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم (الأنفال ١٧).

- وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى (الأنفال ١٧).

- فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم (التوبة ٥٥).

- علّم بالقلم (العلق ٤).

- الرحمن علّم القرآن (الرحمن ١).

- إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم (التوبة ١١١).

- البارىء المصور (الحشر ٢٤).

- خلق الموت والحياة (الملك ٢).

ص ١٦٣ - ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (يوسف ١٠٦).

ص ١٦٣- لو هدانا الله لهديناكم (إبراهيم ٢١).

ص ١٦٤ ـ ماعندكم ينفد وماعند الله باق (النحل ٩٦).

ـ وإذ تخلق من الطين (المائدة ١١٠).

ـ وارزقوهم فيها (النساء ٥).

ـ وهزى إليك بجذع النخلة (مريم ٢٥).

ص ١٦٥ ـ هذا مغتسل بارد وشراب (ص ٤٢).

ص ١٦٧ ـ وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ماتشكرون (الأعراف ١٠).

ص ١٨١ ـ وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون (آل عمران ١٥٢).

ـ أنا ربكم الأعلى (النازعات ٢٤).

ـ كلا إن الإنسان ليطغى (العلق ٦).

ص ١٨٤ ـ ونقص من الأموال والأنفس (البقرة ١٥٥).

ص ١٩٠ ـ حافظات للغيب بما حفظ الله (النساء ٣٤).

ص ١٩٣ ـ إن الله يحب المتوكلين (آل عمران ١٥٩).

ـ وعلى الله فليتوكل المتوكلون (إبراهيم ١٢).

ص ١٩٥ ـ من قبل أن نبرأها (الحديد ٢٢).

ـ لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم (الحديد ٢٣).

ص ١٩٩ ـ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين (آل عمران ١٤١).

ـ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات (البقرة١٥٥).

ص٢٠٠ ـ وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون (القصص ٦٠).

ـ وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا (الشورى ٣٦).

ص ٢٠١ ـ أم للإنسان ماتمنى (النجم ٢٤).

ـ ولو اتبع الحق أهواءهم (المؤمنون ٧١).

- وإن من شيء إلا عندنا خزائنه (**الحجر ٢١**).

ص ٢٠٣ - ومن أوفى بعهده من الله (**التوبة ١١١**).

ص ٢٠٤ - إن الله بالغ أمره (**الطلاق ٣**).

ص ٢٠٥ - هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (**الرحمن ٦٠**).

- ومساكن طيبة في جنات عدن (**التوبة ٧٢**).

- إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (**العنكبوت ٤٥**).

ص ٢١٥ - اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة (**المائدة ٣٥**).

- يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب (**الإسراء ٥٧**).

- سابقوا إلى مغفرة من ربكم (**الحديد ٢١**).

- وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (**المطففين ٢٦**).

- يسارعون إلى الخيرات وهم لها سابقون (**المؤمنون ٦١**).

ص ٢١٦ - لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين (**آل عمران ٢٨**).

- وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض (**الجاثية ١٩**).

- وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون (**الأنعام ١٢٩**).

- ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى (**النساء ١١٥**).

ص ٢٢١ - لاعاصم اليوم من أمر الله (**هود ٤٣**).

- قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق (**المائدة ١٨**).

ص ٢٢٢ - إن أكرمكم عند الله أتقاكم (**الحجرات ١٣**).

ص ٢٢٦ - يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس (**الحج ٧٥**).

ص ٢٢٧ - يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله (**المائدة ٥٤**).

ص ٢٤٢ - فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت (**القلم ٤٨**).

- يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء (**المائدة ١٨**).

ص ٢٤٦ - ومن يتوكل على الله فهو حسبه (**الطلاق ٣**).

- ورضوان من الله أكبر (**التوبة ٧٢**).

ص ٢٥٣ - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا (**فصلت ٣**).

- ماعندكم ينفد وماعند الله باق (**النحل ٩٦**).

- لاقوة إلا بالله (**الكهف ٣٩**).

- ومابكم من رحمة فمن الله (**النحل ٥٣**).

- يدعون ربهم خوفاً وطمعاً (**السجدة ١٦**).

- إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا (**الطور ٢٧**).

- ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء (**هود ١٠**).

- وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (**المائدة ٢٣**).

- نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (**العنكبوت ٥٩**).

الفصل الثالث والثلاثون

ص ٢٦٢ - وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة (**آل عمران ٨١**).

- ومن يطع الرسول فقد أطاع الله (**النساء ٨٠**).

- إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله (**الفتح ١٠**).

ص ٢٦٣ - قل إن كنتم تحبون الله (**آل عمران ٣١**).

- ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (**الحشر ٩**).

ص ٢٦٤ - ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم (**النساء ٦٩**).

- شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم (**آل عمران ١٨**).

- هم بشهادتهم قائمون (**المعارج ٣٣**).

ص ٢٦٥ ـ يخافون ربهم من فوقهم (النحل ٥٠).

ـ سبح اسم ربك الأعلى (الأعلى ١).

ـ ألا إنه بكل شيء محيط (فصلت ٥٤).

ص ٢٦٩ ـ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم (الأعراف ١١).

ص ٢٩٩ ـ لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى (البقرة ٢٦٤).

ص ٣٠٠ ـ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء (البقرة ٢٧١).

ـ وأنفقوا مما رزقناكم سراً وعلانية (الرعد ٢٢).

ـ وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً (المزمل ٢٠).

ـ إن تبدوا الصدقات فنعما هى (البقرة ٢٧١).

ـ انفقوا من طيبات ماكسبتم (البقرة ٢٦٧).

ص ٣٠٢ ـ قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً (الأعراف ٢٦).

ص ٣٠٣ ـ واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة (الزمر ٤٥).

ص ٣٠٤ ـ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم (غافر ١٢).

ـ وفى أموالهم حق للسائل والمحروم (الذاريات ١٩).

ـ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير (الحج ٢٨).

ص ٣٠٥ ـ أو مسكيناً ذا متربة (البلد ١٦).

ـ فكانت لمساكين يعملون فى البحر (الكهف ٧٩).

ص ٣٠٩ ـ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً (آل عمران ٩٧).

ص٨٢ - وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله (الأنعام ١١٦).

ص٨٤ - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (الأنبياء ٢).

ص ٨٩ - لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون (النساء ١٦٢).

- والراسخون فى العلم يقولون آمنا به (**آل عمران ٧**).

ص٩٠ - والله أخرجكم من بلدن أمهاتكم (**النحل ٧٨**).

- وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم (**الأحقاف ٢٦**).

- ولا تقف ما ليس لك به علم (**الإسراء ٣٦**).

ص٩١ - يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم (**الأعراف ٢٦**).

- ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم (**النساء ١٣١**).

ص٩٢ - ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون (**الزخرف ٥٨**).

ص٩٤ - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (**المجادلة ١١**).

ص١٠٠ - وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم (**البقرة ١٩٩**).

ص١٠٢- فخرج على قومه فى زينته (**القصص٣٩**).

ص١٠٣ - ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (**التوبة ٣٣**).

- وتعيها أذن واعية (**الحاقة ١٢**).

- إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (**ق ٣٧**).

ص١٠٤ - والحافظون لحدود الله تعالى (**التوبة ١١٢**).

- إنما يخشىٰ الله من عباده العلماء (**فاطر ٢٨**).

- واخفض جناحك للمؤمنين (**الحجر ٨٨**).

- فبما رحمة من الله لنت لهم (**آل عمران ١٥٩**).

- وقال الذين أوتوا الكتاب ويلكم ثواب الله خير (**القصص ٨٠**).

ص١٠٥ - ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم (**التوبة ١٢٢**).

ص١٠٨ - ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض (**القصص ٥**).

- وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب (**ص٢٠**).

- يؤتى الحكمة من يشاء (**البقرة ٢٦٩**).

- فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام (**الأنعام ١٢٥**).

ص١١٠ - إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات (**الأحزاب ٣٥**).

ص١١٣ - فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله (**البقرة ٢٥٦**).

ص١١٨ - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (**الأنبياء٧**).

ص١٢٢ - لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء (**القلم ٤٩**).

ص١٢٣ - ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم (**الإسراء ٧٤**).

- واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا (**الإسراء ٨٠**).

ص١٢٤ - ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا (**فصلت ٣٣**).

- ادع إلى سبيل ربك بالحكمة (**النحل ١٢٥**).

- قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى (**يوسف ١٠٨**).

- أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين (**مريم ٥٨**).

- وجئ بالنبيين والشهداء (**الزمر ٦٩**).

ص١٢٦ - ولكم الويل مما تصفون (**الأنبياء ١٨**).

- كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا (**البقرة ٢٠**).

ص١٢٩ - وقال الذين أوتوا العلم والإيمان (**الروم ٥٦**).

ص١٣٦ - ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله (**الطلاق ٧**).

ص١٥٣ - ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا (**الأنعام ٢١**).

- فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق (**الزمر ٣٢**).

ص ٣١٠ - اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا (المائدة ٣).

ص - ٣١١ - الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج (البقرة ١٩٧).

- فلارفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج (البقرة ١٩٧).

ص ٣١٣ - ثم ليقضوا تفثهم (الحج ٢٩)

ص ٣١٥ - وأتمو الحج والعمرة لله (البقرة ١٩٦).

ص ٣١٩ - اليوم أكملت لكم دينكم.. (المائدة ٣).

- ليشهدوا منافع لهم (الحج ٢٨).

- لأقعدن لهم صراطك المستقيم (الأعراف ١٦).

الفصل الرابع والثلاثون

ص ٣٢٣ - يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود (المائدة ١).

٣٢٤ - ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به (الأحزاب ٥٥).

- ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم (المائدة ٩٩).

- لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة (التوبة ١٠).

٣٢٦ - وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض (النور ٥٥).

٣٢٨ - ومن يقتل مؤمنا متعمدا (النساء ٩٣).

٣٢٩ - يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت (إبراهيم ٢٧).

- للذين أحسنوا الحسنى وزيادة (يونس ٢٦)

- ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (الحجر ٢).

٣٣٠ - فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه (آل عمران ٧).

- يوم تبيض وجوه وتسود وجوه (آل عمران ١٠٦).

٣٣٢ - وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم (الأعراف ١٧٢).

- واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقة (المائدة ٧).

- ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم (الحديد ٨)

٣٣٣ - أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا (الإسراء ٤٨).

- فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون (النحل ٧٤).

- أطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين (النور ٥٤).

- وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون (النور ٥٦).

- فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة (النور ٦٣).

- استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم (الأنفال ٢٤).

- إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله (الفتح ١٠).

٣٣٤ - ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه (الأنبياء ٩٤).

- ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين (البلد ٨).

٣٣٥ - فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (الذاريات ٣٥).

- إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين (يونس ٨٤).

- قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا (آل عمران ٤١).

- كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم (آل عمران ٨٦).

- أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون (آل عمران ٨٠).

ص ٣٣٦ - إلا من تاب وآمن وعمل صالحا (الفرقان ٧٠).

- فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة (التوبة ١١).

- وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى (سبأ ٣٧).

- الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين (الزخرف ٦٩).

ص ٣٣٧ - آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل (يونس ٩٠).

٣٣٨ - ومن ظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام (الصف ٧).

- قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا (الحجرات ١٤).

- ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا (التوبة ٥٨).

- يمنون عليك أسلموا، قل لا تمنوا علىّ إسلامكم (الحجرات ١٧).

٣٣٩ - هل من خالق غير الله يرزقكم (فاطر ٣).

٣٤٠ - وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما (الحجرات ٩).

٣٤١ - اليوم أكملت لكم دينكم (المائدة ٣).

- فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار (المائدة ٨٥).

٣٤٢ - هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم (آل عمران ١٦٧).

- فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم (التوبة ٥).

- فأثابهم الله بما قالوا جنات (المائدة ٨٥).

فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا (سبأ ٣٧).

وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء (البينة ٥).

فأما الذين فى قلوبهم زيغ (آل عمران ٧).

سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق (الأعراف ١٤٦).

٣٤٣ - أولئك هم المؤمنون حقا (الأنفال ٤).

- وإن فريقا من المؤمنين لكارهون (الأنفال ٥).

- يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (الصف ٢).

- إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا (النور ٦٢).

- ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر (البقرة ١٧٧).

- أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (البقرة ١٧٧).

- إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم (التوبة ١١١).

- وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم (محمد ٣٦).

- يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (المجادلة ١١).

- لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل (الحديد ١٠).

- هم درجات عند الله، والله بصير بما تعملون (آل عمران ١٦٣).

٣٤٤ - أو كسبت فى إيمانها خيرا (الأنعام ١٥٨).

- كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (المطففين ١٤).

٣٤٥ - ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء (النساء ٤٩).

- أنظر كيف يفترون على الله الكذب (النساء ٥٠).

- ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا (الأنعام ٨٠).

- وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا (الأعراف ٨٩).

٣٤٥ - وجاءت سكرة الموت بالحق (ق ١٩).

- ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون (المؤمنون ٦٣).

- ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله (الكهف ٢٤).

- واذكر ربك إذا نسيت (الكهف ٢٤).

- لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين (الفتح ٢٧).

٣٤٦ - ويزيد الله الذين اهتدوا هدى (مريم ٧٦).

- فزادهم إيمانا (آل عمران ١٧٣).

- ولا يزيد الظالمين إلا خسارا (الإسراء ٨٢).

- وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا (المائدة ٦٤).

- وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادهم رجسا إلى رجسهم (التوبة ١٢٥).

- وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين (آل عمران ١٣٩).

ولكل درجات مما عملوا (الأنعام ١٣٢).

- وهو وليهم بما كانوا يعملون (الأنعام ١٢٧).

- لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر (النساء ٩٥).

- وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما (النساء ٩٥).

٣٤٧ - قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم (البقرة ١٣٦).

٣٤٨ - أولئك المؤمنون حقا (الأنفال ٤).

٣٤٩ - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (الزمر ٤٧).

- إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون (يونس ٩٦).

- ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون (المؤمنون ٦٣).

- ينالهم نصيبهم من الكتاب (الأعراف ٣٧).

- وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص (هود ١٠٩)

- ولله عاقبة الأمور (الحج ٤١).

الفصل الخامس والثلاثون

ص ٣٥٠ - ومازادهم إلا إيمانا وتسليما (الأحزاب ٢٢).

- واجعلنا مسلمين لك (البقرة ١٢٨).

٣٥١ - ليس على الأعمى حرج (النور ٦١).

٣٥٤ - لتركبن طبقا عن طبق (الانشقاق ١٩).

٣٥٥ - رحماء بينهم (الفتح ٢٩).

٣٥٦ - إدفع بالتى هىَ أحسن (المؤمنون ٩٦).

٣٥٧ - فلا تقل لهما أف (الإسراء ٢٣).

- يزيد فى الخلق ما يشاء (فاطرا).

٣٥٨ - وترى الملائكة حافين من حول العرش (الزمر ٧٥).

- إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا (محمد ٣٧).

٣٥٩ - حتى عفوا (الأعراف ٩٥).

٣٦٠ - قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم (الأنبياء ٦٠).

- إنهم فتية آمنوا بربهم (الكهف ١٣).

- وآتيناه الحكم صبيا (مريم ١٢).

٣٦٢ - ومن الليل فسبحه وأدبار السجود (ق ٤٠)

- ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم (الطور ٤٩).

الفصل السادس والثلاثون

٣٦٥ - إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم (النساء ٣١).

٣٦٧ - إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا (مريم ٦٠).

- يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم (محمد ٣٣).

- بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته (البقرة ٨١).

٣٦٨ - إن الله لا يظلم مثقال ذرة (النساء ٤٠).

٣٦٩ - وحيل بينهم وبين ما يشتهون (سبأ ٥٤).

- وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر أحدهم الموت (النساء ١٨).

- يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين (الفرقان ٢٢).

- هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة (الأنعام ١٥٨).

٣٦٩ - أو يأتى ربك (الأنعام ١٥٨).

- أو يأتى بعض آيات ربك (الأنعام ١٥٨).

- فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده (غافر ٨٤).

- ولن تجد لسنة الله تبديلا (الأحزاب ٦٢).

٣٧٢ - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (النحل ٤٣).

- وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون (الزمر ٤٧).

٣٧٤ - ورابطوا (آل عمران ٢٠٠).

٣٧٧ - ليبلوكم أيكم أحسن عملا (هود ٧).

٣٧٨ - ويوم يناديهم فيقول أين شركائى (القصص ٦٢).

- والسابقون السابقون أولئك المقربون (الواقعة ١١).

٣٧٨ - ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين (القصص ٦٥).

- ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون (القصص ٧٨).

- فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان (الرحمن ٣٩).

- يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام (الرحمن ٤١)

٣٧٩ - وقفوهم إنهم مسئولون (الصافات ٢٤).

- فلنسألن الذين أرسل إليهم (الأعراف ٦).

- فسوف يحاسب حسابا يسيرا (الانشقاق ٨).

- إن إلينا إيابهم (الغاشية ٢٥).

- إلا من تولى وكفر (الغاشية ٢٨).

٣٨٠ - أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه (القصص ٧٨).

- قال فما بال القرون الأولى (طه ٥١).

- حسبهم جهنم (المجادلة ٨).

الفصل السابع والثلاثون

٣٨٠ - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين (البينة ٥).

- أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه (الكهف ٢٨).

٣٨١ - إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما (النساء ٣٥).

- من بين فرث ودم لبنا خالصا (يوسف ١٨).

٣٨٢ - ما ننسخ من آية أو ننسها (البقرة ١٠٦).

- يسألونك كأنك حفى عنها (الأعراف ١٨٧).

٣٨٤ - اذكروا الله ذكرا كثيرا (الأحزاب ٤١)

- يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (النساء ١٤٢).

٣٨٥ - وآتيناه أجره فى الدنيا (العنكبوت ٢٧).

استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم (الأنفال ٢٤).

٣٩٤ - والآخرة خير وأبقى (الأعلى ١٧).

- والله خير وأبقى (طه ٧٣).

٣٩٦ - ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به (البقرة ٢٨٦).

٣٩٧ - ومن شر غاسق إذا وقب (الفلق ٣).

٣٩٨ - ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت (إبراهيم ٢٤).

٤٠٠ - من أوسط ما تطعمون أهليكم (المائدة ٨٩).

- إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار (النساء ١٤٥).

- إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله (البقرة ١٦٠).

الفصل التاسع والثلاثيون

٤٠٤ - كلوا من الطيبات واعملوا صالحا (المؤمنون ٥١).

٤٠٦ - هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين (الذاريات ٢٤).

- فما لبث أن جاء بعجل حنيذ (هود ٦٩).

- فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين (الذاريات ٢٦).

٤١١ - ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم (النور ٦١)

الفصل الأربعون

٤١٥ - والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم (الرعد ٢٣).

٤١٨ - ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم (التوبة ٩٢).

- كلا إن الإنسان ليطغى (العلق ٦).

٤٢١ - إنما الصدقات للفقراء والمساكين (التوبة ٦٠).

- وفى أموالهم حق للسائل والمحروم (الذاريات ١٩).

- فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر (الحج ٣٦).

٤٢١ - يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم (البقرة ٢٦٧).

- وما تنفقوا من خير يوف إليكم (البقرة ٢٧٢).

- للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض (البقرة ٢٧٣).

٤٢٣ - الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل (النساء ٣٧).

٤٢٥ - ألا لله الدين الخالص (الزمر ٣).

الفصل الحادى والأربعون

٤٢٥ - ألم تكن أرض الله واسعة (النساء ٩٧).

- قل سيروا فى الأرض فانظروا (النمل ٦٩).

- وفى أنفسكم أفلا تبصرون (الذاريات ٢١).

- وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل (الصافات ١٣٧).

- وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها (يوسف ١٠٥).

- هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها (الملك ١٥).

٤٢٦ - يخرج الخبء فى السموات والأرض (النمل ٢٥).

٤٢٨ - الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (النحل ٤٢).

الفصل الثانى والأربعون

٤٣٣ - قالوا آمنا بالله (البقرة ١٣٦).

- ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا (آل عمران ٨).

- تبارك الذى جعل فى السماء بروجا (الفرقان ٦١).

٤٣٧ - ربنا لا تزغ قلوبنا (آل عمران ٨).

- ربنا آتنا فى الدنيا حسنة (البقرة ٢٠١).

الفصل الثالث والأربعون

٤٤٠ - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته (آل عمران ١٠٢).

٤٤١ - ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات (الشورى ٢٦).

٤٤٢ - ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض (البقرة ٢٥١).

٤٤٤ - خذ العفو وأمر بالمعروف (الأعراف ١٩٩).

٤٤٥ - لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم (الأنفال ٦٣).

٤٦٤ - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا (القصص ٥٤).

- ادفع بالتى هى أحسن (المؤمنون ٩٦).

- وما يلقاها إلا الذين صبروا (فصلت ٣٥).

الفصل الرابع والاربعون

٤٦٨ - ولهن مثل الذى عليهن (البقرة ٢٢٨).

٤٦٩ - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم (التغابن ١٤).

٤٧١ - وخلق الإنسان ضعيفا (النساء ٢٨).

- ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به (البقرة ٢٨٦).

٤٧٢ - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها (الكهف ٧).

٤٧٣ - ولهن مثل الذى عليهن (البقرة ٢٢٨).

٤٧٥ - ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية (الرعد ٣٨).

- والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين (الفرقان ٧٤).

- وقدموا لأنفسكم (البقرة ٢٢٣).

- ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء (الطور ٢١).

٤٧٦ - وأصلحنا له زوجه (الأنبياء ٩٠).

- فيهن خيرات حسان (الرحمن ٧٠).

- وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون (الواقعة ٢٢).

قاصرات الطرف (الرحمن ٥٦).

٤٧٨ - ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها (الروم ٢١).

- فانكحوا ما طاب لكم من النساء (النساء ٣).

- فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة (النساء ٣).

٤٧٩ - فلا تميلوا كل الميل (النساء ١٢٩).

٤٨٦ - يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا (التحريم ٦).

٤٨٩ - فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله (البقرة ٢٢٩).

ص ٤٩٠ - وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته (النساء ١٣٠).

- وانكحوا الأيامى منكم والصالحين (النور ٣٢).

- فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا (النساء ٣٤).

- وعاشروهن بالمعروف (النساء ١٩).

- ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف (البقرة ٢٢٨).

- وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً (النساء ٢١).

- ولآمرنهم فليغيرن خلق الله (النساء ١١٩).

- ولا تؤتوا السفهاء أموالكم (النساء ٥).

٤٩١ - وألفيا سيدها لدى الباب (يوسف ٢٥).

٤٩٣ - فأتوا حرثكم أنى شئتم (البقرة ٢٢٣).

- فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله (البقرة ٢٢٢).

٤٩٤ - وإذا الموؤدة سئلت (التكوير ٨).

- ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (المؤمنون ١٢).

٤٩٥ - فطلقوهن لعدتهن (الطلاق ١).

الفصل السادس والاربعون

٤٩٩ - الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم (الأنعام ٨٢).

٥٠٠ - يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم (البقرة ١٧٢).

٥٠١ - احشروا الذين ظلموا وأزواجهم (الصافات ٢٢).

٥٠٢ - ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل (البقرة ١٨٨).

- ولا تقتلوا أنفسكم (النساء ٢٩).

- ويتبع غير سبيل المؤمنين (النساء ١١٥).

- رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع (النور ٣٧).

٥٠٦ - ونكتب ما قدموا وآثارهم (يسن ١٢).

٥١٢ - وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله (المزمل ٢٠).

الفصل السابع والأربعون

٥١٧ - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا (البقرة ٢٧٨).

٥٢٠ - أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار (التوبة ١٠٩).

- ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل (البقرة ١٨٨).

- فإن له معيشة ضنكا (طه ١٢٤).

- فلنحيينه حياة طيبة (النحل ٩٧).

يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم (البقرة ١٧٢).

٥٢٤ - ومن يكتمها فإنه آثم قلبه (البقرة ٢٨٣).

٥٢٥ - فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (التوبة ١٠٥).

٥٣٠ - وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون (الأنعام ١٢٩).

٥٣٤ - إن الله يأمر بالعدل والإحسان (النحل ٩٠).

٥٣٥ - ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (الحجرات ١١).

- وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون (الشعراء ٢٢٧).

★★★

رءوس الأحاديث النبوية

الجزء الأول

ص٦٩ - أوتروا ياأهل القران... إن أقرب ما يكون الرب عز وجل من العبد جوف الليل الأخير.. (ابن حنبل)

ص ٧٥ - من أحب أن يعلم منزلته من الله عز وجل فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه... (ابن حنبل)

ص٨٦ - لقد سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك هو لا إله إلا الله والله أكبر.. (ابن حنبل)

ص٩١ - ألا أعطيك، ألا أمنحك، ألا أحبوك بشيء إذا أنت فعلته غفر الله لك ذنبك.. (ابن حنبل)

ص٩٤ - أكثر منافقى أمّتى قرّاؤها.. (السيوطى)

ص٩٩ - والذى بعثنى بالحق لتفترق أمتى على أصل دينها وجماعتها على اثنين وسبعين فرقة.. (أبو داود)

- تعلم كتاب الله عز وجل بما فيه فهو المخرج من ذلك... (مسلم)

ص١١٣ - أهل القرآن أهل الله وخاصته من خَلْقه.. (مسلم)

ص١١٧ - فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية.. (البخارى)

ص١٢٢ - إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام، وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة. (مسلم)

ص١٢٣ - من صام ثلاثة أيام من شهر حرام بعّده الله من النار سبعمائة عام... (ابن حنبل)

ص١٢٤ - إن الله فرض عليكم الجمعة فى يومى هذا فى مقامى هذا.. (أبو داود)

- من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه.. (أبو داود)

ص١٢٥ - خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط إلى الأرض.. (أبو داود)

ص١٣٦ - من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطى نورا من حيث يقرأها إلى مكة.. (النسائى)

ص١٣٧ - دعوا أشغالكم يوم الجمعة فإنه يوم صلاة وتهجد.. (النسائى)

ص١٤٠ - الصبر نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر (النسائى)

ص١٤١ - يقول الله عز وجل كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به.. (النسائى)

ص١٤٤ - هاتان صامتا عما أحل الله عز وجل لهما، وأفطرت على ما حرم الله عز وجل عليهما.. (مسلم)

ص١٤٦ - اتق الله أينما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن.. (البخارى)

ص١٤٧ - آفة أمتى الدينار والدرهم... (أبو داود)

ص١٤٨ - ياأيهما الناس - كأن الموت فيها على غيرنا كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب... (النسائى)

الجزء الثانى

ص٦ - تعس عبد الدنيا ما تعس عبد الدرهم، تعس عبد الزوجة... (السيوطى)

ص١٥ - هلك المتعمقون المتنطعون.. (السيوطى)

ص٢٢ - ألا أدلك على ما هو أملك لك من ذلك كله... وهل يكب الناس على مناخرهم فى جهنم إلا حصائد ألسنتهم.. (مسلم)

ص٢٤ - طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله. (ابن حنبل)

ص٢٧ - وما يدريك أنه فى الجنة، فلعله كان يتكلم فيما لا ينفعه.. (ابن حنبل)

- من قال فى أخيه ما فيه فقد اغتابه.. (مسلم)

- الغيبة ما إن قلت فى أخيك لم تزكه به.. (مسلم)

- كل كلام ابن آدم عليه، لا له إلا ثلاثة، أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله عز وجل.. (مسلم)

ص٢٨ - أخوف ما أخاف على أمتى ضعف اليقين... (البخارى)

ص٣٠ - المؤمن يجزى بسيئة فى الدنيا من المصائب والجوع والعرى، والمنافق تبقى ذنوبه عليه. (البخارى)

ص٣١ - من أراد أن يعلم كيف منزلته من الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله فى قلبه... (مسلم)

ص٣٧ - ما من ساعة تاتى على ابن آدم لا يذكر فيها الله تعالى إلا كانت عليه حسرة وان دخل الجنة.. (ابن حنبل)

ص٤٢ - حبك للشيء يعمى ويصم.. (ابن حنبل)

ص٤٤ - إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز، ومنهم من يخرج أسود... (السيوطى)

ص٤٦ – إذا أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا... (ابن حنبل)

ص٥٠ – إن الشكان قعد لابن آدم باطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال أتسلم وتذر دينك.. (البخارى)

ص٥١ – إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت فى قلبه نكتة.... (البخارى)

– القلوب أربعة، قلب فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أسود منكوس.... (ابن حنبل)

ص٥٣ – ما حاك فى صدرك فدعه، والإثم حواز القلوب.... (البخارى)

ص٥٤ – التقوى هاهنا «وأشار إلى قلبه»... (البخارى)

ص٥٦ – ليس الخبر كالمعاينة. ليس المخبر كالمعاين... (مسلم)

– من أدرك من الصلاة ركعة فقد أدرك الصلاة... (مسلم)

ص٥٧ – ليس شىء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان... (أبو داود)

– فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.. (ابن ماجه)

ص ٥٨ – الشرك فى أمتى أخفى من دبيب النمل.. (ابن ماجه)

ص٧٦ – لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله.. (أبو داود)

– العلم فريضة على كل مسلم.. (ابن حنبل)

– اطلبوا العلم ولو بالصين فإن كل العلم فريضة على كل مسلم.. (أبو داود)

ص٨٠ – علم لا ينفع وجهل لا يضر.. (مسلم)

ص٨١ – ما أتى الله تعالى عالما إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينه ولا يكتمه.. (مسلم)

ص٨٩ – أمتى خمس طبقات، كل طبقة أربعون عاما، فطبقتى وطبقة أصحابى أهل العلم والإيمان والذين يلونهم إلى الثمانين البر والتقوى والذين لونهم إلى مائة وعشرين أهل التواصل والتراحم.. (أبو داود)

ص٩٢ – ما أوتى قوم المنطق إلا منعوا العمل.. (ابن ماجه)

– إن الله تعالى ليبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل الكلام بلسانه كما يتخلل الباقرة الخلاء.. (ابن ماجه)

ص٩٣ – فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى.. (البخارى)

– أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد.. (البخارى)

ص٩٦ – نشدتك الله تعالى ألم تجد فيما أنزل تعالى على موسى عليه السلام أن الله تعالى يبغض الحبر السمين.. (مسلم)

ص ٩٨ – اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبا فى ذكر الله تعالى.. (ابن حنبل)

ص١٠٠ – علماء هذه الأمة رجلان، فرجل آتاه الله علما فبذله للناس.. ورجل آتاه الله تعالى علما فى الدنيا فضن به.. (الدارمى)

ص١٠١ – من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع.. (السيوطى)

ص١٠٥ – تعلموا اليقين فإنى متعلم معكم.. (السيوطى)

ص١١٢ – أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيعلمون الناس ويفقهون فى الدين، وإنما بعثت معلما.. (السيوطى)

ص١٢٣ – إن من خيار أمتى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم، ويبكون سرا من خوف عذابه.. (السيوطى)

– كفى باليقين غنى.. (الدارمى)

ص١٣٠ – أعلم الناس.. أعرفهم بالحق إذا اشتبهت الأمور.. (أبو داود)

– طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه.. (مسلم)

ص١٥٣ – العالم والمتعلم شريكان فى العلم.. (البخارى)

– يحمل هذا العلم من كل خلق عدوله.. (السيوطى)

الجزء الثالث

ص٥ – الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.. (ابن حنبل)

ص١٠ – ينزل الله على هذا البيت فى كل يوم مائة وعشرين رحمة.. (أبو داود)

ص١٣ – من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.. (النسائى)

ص١٤ - صلاة فى مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة... (السيوطى)

ص١٥ - الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون مُلكا.. (السيوطى)

ص١٩ - بنى الإسلام على خمس... (البخارى)

ص٢٠ - إنما الأعمال بالنية... (البخارى)

ص٢٩ - إنى استغفرك لما علمت وما لم أعلم... (البخارى)

ص٣١ - والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يامن جاره بواثقه.. (مسلم)

ص٤٠ - الصلوات الخمس كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر... (مسلم)

ص٤٤ - إن العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة، ويأتى قد ظلم هذا... (ابن حنبل)

ص٤٩ - لكل حق حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحب أن يحمد على شىء من عمل الله عز وجل.. (ابن حنبل)

ص٥٠ - لا يقبل الله تعالى قولا إلا بعمل، ولا قولا وعملا إلا بنية.. (ابن حنبل)

ص٥٨ - ألبسوا الصوف وشمروا وكلوا فى أصناف البطون تدخلوا فى ملكوت السماء.. (السيوطى)

ص٥٩ - إياك والإسراف فإن أكلتين فى كل يوم من الإسراف.. (السيوطى)

ص٦٠ - ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن... (مسلم)

- المؤمن يأكل فى معىّ واحد... (مسلم)

ص٦١ - أعوذ بك من شر سمعى وبصرى ولسانى وقلبى وعينى.. (مسلم)

ص٦٣ - شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.. (مسلم)

- فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام... (السيوطى)

ص٦٥ - مما أخاف على أمتى زلة عالم وجدال منافق فى القرآن.. (أبو داود)

- يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين... (النسائى)

ص٦٧ - البيان والتثبت من الله عز وجل، والعجلة والنسيان من الشيطان.. (السيوطى)

ص٦٩ - أفضل الطعام ما كثرت عليه الأيدى... (مسلم)

ص٧٠ - التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.. (البخارى)

ص٧٥ - ما آمن بالقرآن من استحل محارمه.. (السيوطى)

ص٩٠ - الصبر فى ثلاث: الصبر عن تزكية النفس، والصبر عن شكوى المصيبة، والصبر على الرضا بقضاء الله.. (ابن حنبل)

ص٩٦ - لا تفضلوا بين الأنبياء.. (مسلم)

ص٩٧ - من نظر فى الدنيا إلى من هو دونه، ونظر فى الدين إلى من هو فوقه كتبه الله تعالى صابرا شاكرا.. (أبو داود)

ص١٠٠ - نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ.. (ابن ماجه)

ص١٠٣ - نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء، ثم الأمثل فالأمثل.. (البخارى)

ص١٠٤ - حياتى خير لكم، وموتى خير لكم.. أما حياتى فإنى أبين لكم السنن وأشرع الشرائع، وأما موتى فأعمالكم تعرض علىّ.. (ابن ماجه)

ص١٠٦ - المؤمن أفضل من الكعبة، والمؤمن طيب طاهر، والمؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة.. (النسائى)

ص١١٠ - ما خلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما يغلبه، وجعل رحمته تغلب غضبه.. (السيوطى)

ص١٤٦ - من زهد فى الدنيا أدخل الله تبارك وتعالى الحكمة قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصّره داء الدنيا ودواءها.. (السيوطى)

- تبا للدينار والدرهم.. (النسائى)

ص١٤٧ - من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث.. (ابن ماجه)

ص١٤٨ - إن من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم الذين يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام.. (ابن حنبل)

ص١٤٩ - لو أن عبدا عبد الله تعالى عبادة أهل السموات والأرض ولقيه محبا للدنيا لأقامه الله تعالى فى الموقف.. (السيوطى)

ص١٥٠ - إن أردت اللحوق بى فإياك ومجالسة الأغنياء.. (السيوطى)

ص١٥١ - من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة.. (السيوطى)

ص١٥٣ - اللهم توفنى فقيرا ولا توفنى غنيا، واحشرنى فى زمرة المساكين... (أبو داود)

ص١٥٦ - إن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا من يحب.. (أبو داود)

- الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر.. (النسائى)

ص١٥٧ - إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الخلائق لو جهدوا.. (البخارى)

- إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله.. (البخارى)

ص١٦٤ - خذها لو لم تأتها لأتتك.. (البخارى)

- عرف الحق لأهله.. (مسلم)

ص١٦٥ - أصدق بيت قاله الشاعر: ألا كل شىء ما خلا الله باطل.. (مسلم)

ص١٦٧ - أحلى ما أكل العبد من كسب يده.. (البخارى)

ص١٦٩ - من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله.. (البخارى)

ص ١٧٠ - إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين .. (ابن حنبل)

ص١٧٥ - ما من داء إلا وله دواء عرفه من عرفه.. (أبو داود)

ص١٧٦ - تداووا عباد الله.. (البخارى)

ص١٧٧ - فى المؤمنين من هو أشد فى الله عز وجل من الحجارة، وفيهم من هو ألين من اللبن. (ابن حنبل)

- المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف.. (البخارى)

- المؤمن كمثل النخلة لا يسقط ورقها..

المؤمن كمثل النخلة أكلت طيبا ووضعت طيبا.. (البخارى)

ص١٧٨ – مثل المؤمن كمثل النملة تجمع فى صيفها لشتائها.. (البخارى)

ص١٨٠ – تحبون أن تكونوا كالحمر الصيالة لا تمرضون ولا تسقمون.. (السيوطى)

ص١٨٧ – نقصان الدنيا زيادة الآخرة.. (السيوطى)

ص١٨٩ – لقد سألت الله البلاء ولكن سل العافية.. (ابن حنبل)

– كفى بالموت واعظا وبالتقوى غنى وبالعبادة شغلا.. (أبو داود)

ص٢٠٧ – اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم.. (الترمذى)

– من خير ما أعطى العبد الرضا.. (الترمذى)

– إذا أحب الله عبدا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضى اصطفاه.. (البخارى)

ص٢٠٨ – الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن.. (ابن حنبل)

ص٢٠٩ – إن الله بحكمه وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين.. (أبو داود)

ص٢١٢ – أكمل المؤمنين إيمانا من طال عمره وحسن عمله.. (الترمذى)

ص٢١٨ – اللهم لا تجعل لفاجر عندى يدا فيحبه قلبى.. (ابن ماجه)

ص٢٢١ – ما كان الله ليعذب حبيبه بالنار.. إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.. (أبو داود)

ص٢٢٢ – إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب.. (ابن ماجه)

ص٢٣١ – من أراد أن يحبه الله فليزهد فى الدنيا.. (الدارمى)

ص٢٣٢ – لا يكون أحدكم كالعبد السوء، إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء، إن لم يُعط أجرًا لم يعمل.. (الدارمى)

ص٢٣٨ – أخوف ما أخاف على أمتى الشهوة الخفية والنغمة الملهية.. (ابن ماجه)

ص٢٥٧ – إن الله عز وجل أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى، وأعطانى مثل إيمان كل من آمن بى من ولد آدم.. (البخارى)

- إن لله تعالى ثلاثمئة خلق، من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة.. (مسلم)

- رأيت ميزانًا دلى من السماء فوضعت فى كفة فرجحت بهم.. (أبو داود)

ص٢٧٩ - لا ينظر الله تعالى إلى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود.. (ابن حنبل)

ص٢٨٣ - إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين.. (السيوطى)

ص٢٩٠ - الصلاة عماد الدين، من تركها فقد كفر.. (السيوطى)

- بين الكفر والإيمان ترك الصلاة.. (ابن حنبل)

ص٢٩٣ - من تشعبت به الهموم لم يبال فى أى أوديتها هلك... (السيوطى)

ص٢٩٤ - من صلى كما أمر غفر الله له ما تقدم من ذنبه.. (السيوطى)

ص٢٩٧ - المؤمن القوى أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف.. (البخارى)

- ليس فى المال حق سوى الزكاة.. (مسلم)

ص٣٠٩ - خمس يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة و النظر بشهوة. (ابن حنبل)

ص٣١١ - من كرم الرجل طيب زاده فى سفر... (أبو داود)

ص٣١١ - الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.. (مسلم)

ص٣١٢ - خذوا عنى مناسككم.. (مسلم)

ص٣١٤ - لا تأخذ على الأذان أجرًا.. (البخارى)

ص٣١٤ - كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام.. (السيوطى)

ص٣١٥ - ما عمل آدمى يوم النحر عملاً أحب إلى الله عز وجل من إهراق الدم.. (السيوطى)

ص٣١٧ - ينزل الله على هذا البيت.. (أبو داود)

ص٣١٨ - من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق.. (أبو داود)

ص٣٢١ - أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتى البقيع فيحشرون معى.. (ابن ماجه)

ص٣٢٢ - صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه.. (الترمذى)

- يقول الله تعالى إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتى فخربته.. (الدارمى)

ص٣٢٤ - ما تقرب العبد إلى الله تعالى بأفضل من شئ خرج منه وهو كلامه.. (البخارى)

ص٣٢٦ - الخلافة بعدى ثلاثون سنة... (الدارمى)

ص٣٢٦ - إن الله عز وجل أختار أصحابى على العالمين... (النسائى)

ص٣٢٧ - يكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله تعالى بهم أكثر.. (ابن حنبل)

ص٣٢٨ - من وعده الله تعالى على عمل ثوابا فهو منجزه له.. (السيوطي)

ص٣٣٠ - الشيطان مع الواحد، وهو من اثنين أبعد.. (السيوطى)

- إن الله عز وجل ضمن لى أن لا تجتمع أمتى على ضلالة.. (البخارى)

ص٣٣٢ - بنى الإسلام على خمس.. (البخارى)

ص٣٣٤ - الإسلام علانية.. (مسلم)

ص٣٣٧ - إنى لأعطى قوما وأمنع.. (السيوطى)

- إن لم أعدل فمن يعدل.. (ابن حنبل)

ص٣٤١ - يحمل هذا العلم من كل خلق عدو له.. (السيوطى)

ص٣٤٢ - صنفان لا نصيب لهما فى الإسلام: القدرية والمرجئة.. (أبو داود)

ص٣٤٤ - أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن.. (البخارى)

- القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن.. (الترمذى)

ص٣٤٧ - من كان ذا لسانين فى الدنيا جعل له لسانان من نار فى الآخرة.. (الترمذى)

ص ٣٤٩- أربع لايوجدن إلا بعجب... (أبو داود)

ص٣٥٠ - لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم.. (السيوطى)

ص٣٥١ - رفع القلم عن المجنون حتى يعقل.. (مسلم)

ص٣٥١ - اتق المحارم تكن من أعبد الناس.. (مسلم)

ص٣٥٣ - والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه.. (مسلم)

ص٣٥٤ - أربع من حق المسلم عليك.. (مسلم)

ص٣٥٥ - أربع من حق المسلم: أن تعين محسنهم، وأن تستغفر لمذنبهم، وأن تدعو لمدبرهم.. (البخارى)

ص٣٥٦ - من أعطى حظه من الرفق أعطى من خير الدنيا والآخرة.. (السيوطى)

ص٣٥٨ - حفوا الشوارب واعفو اللحى.. (البخارى)

ص٣٥٩ - يكون فى آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة.. (ابن حنبل)

ص٣٦٢ - من شر الناس منزلة من يقتدى بسيئة المؤمن ويترك حسنته.. (الترمذى)

ص٣٦٥ - الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن لمن اجتنب الكبائر.. (أبو داود)

ص٣٧٣ - إن العبد ليوافى القيامة.. (البخارى)

ص٣٧٧ - لكل حق حقيقة.. (السيوطى)

ص٣٨٠ - ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم:إخلاص العمل لله تعالى.. (الدارمى)

ص٣٩٢ - البسوا الصوف وشمروا.. (البغوى)

ص٣٩٧ - أعوذ بك من شر سمعى وبصرى ولسانى وقلبى.. (ابن ماجه)

ص٣٩٧ - لكل شئ باب، وباب العبادة الصوم.. (مسلم)

- صوموا تصحوا.. (البخارى)

ص٤٠٤ - وإذا وضع الطعام وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء قبل الصلاة.. (النسائى)

- أفضل الطعام ما كثرت عليه الأيدى.. (الترمذى)

ص٤٠٦ - من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه.. (مسلم)

ص٤٠٧ - إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم.. (الدارمى)

ص٤١٥ - إن آل جعفر شغلوا بميتهم عن صنيع طعامهم فاحملوا إليهم ما يأكلون.. (أبو داود)

ص٤١٥ - خير هذه الأمة فقراؤها.. (السيوطى)

ص٤١٦ - للسائل حق وإن جاء على فرس.. (البخارى)

ص٤١٨ - يا معشر الفقراء اعطوا الله عز وجل الرضا من قلوبكم.. (مسلم)

ص٤١٨ - أسالك الطيبات وفعل الخيرات وحب المساكين.. (الترمذى)

ص٤٢١ - يد المعطى هى العليا، ويد االمعطى هى السفلى.. (السيوطى)

ص٤٢٤ - استعينوا على أموركم بالكتمان.. (السيوطى)

ص٤٢٣ - إذا أنعم الله عز وجل على عبد نعمة أحب أن تُرى عليه.. (مسلم)

ص٤٢٤ - من أسدى إليه معروف فليكافئ عليه.. (مسلم)

ص٤٢٨ - ليلة الضيف واجبة.. الضيافة حق.. (البخارى)

ص٤٢٩ - الضيافة ثلاثة فما زاد فهو صدقة.. (البخارى)

ص٤٣٥ - الثلاثة نفر.. إذا كنتم فى سفر فامروا أحدكم.. (مسلم)

ص٤٣٧ - الأذان إلى المؤذن، والإقامة إلى الإمام.. (السيوطى)

ص٤٣٨ - الإمام أمير.. (السيوطى)

ص٤٣٨ - لاتقوموا حتى ترونى.. (مسلم)

ص٤٤١ - أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقًا.. (مسلم)

ص٤٤٢ - كونوا مؤلفين ولا تكونوا منفرين.. إن أحبكم إلى الله عز وجل الذين يألفون ويؤلفون.. (البخارى)

ص٤٤٣ - يا من أظهر الجميل وستر القبيح.. (أبو داود)

ص٤٤٢ - لا تمار أخًا لك ولا تمازحه.. (الترمذى)

ص٤٤٧ - شرارراء عباد الله المشاؤن بالنميمة.. (ابن ماجه)

ص٤٥٠ - إن من البيان سحرًا.. (السيوطى)

ص٤٥١ - لاتباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا.. (السيوطى)

ص٤٥٦ – من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم.. (البخارى)

ص٤٥٣ – ثلاثة من المروءة فى الحضر: تلاوة كتاب الله عز وجل، وعمارة مساجده، واتخاذ الإخوان فى الله.. (السيوطى)

ص ٤٦٨ – وإذا أتاكم من ترضون دينه.. (أبو داود)

ص٤٦٨ – من ترك التزويج مخافة العيلة.. (الترمذى)

ص٤٧٩ – ما أفلح قوم تملكهم امرأة.. (السيوطى)

ص٤٧٤ – تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة.. (ابن حنبل)

ص٤٧٥ – خير نسائكم الودود الولود.. (أبو داود)

– ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجة مؤمنة تعينه على آخرته.. (الترمذى)

ص٤٧٦ – فضلت على آدم بخصلتين.. (مسلم)

ص٤٧٦ – خير نسائكم التى إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته.. (مسلم)

ص٤٨٢ – ما أنفق الرجل على أهله فهو له صدقة، وإن الرجل ليؤجر فى رفع اللقمة إلى فىّ امرأته.. (مسلم)

صص٤٨٣ – من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله.. /(البخارى)

ص٤٨٣ – تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسنها ودينها، فعليك بذات الدين.. (أبو داود)

ص٤٨٥ – تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم.. (الترمذى)

ص٤٨٦ – اطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها النساء.. (الترمذى)

ص٤٨٧ – من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها على نفسها وهى على ظهر بعير أن لا تمنعه.. (أبو داود)

ص٤٨٩ – لاتمنعوا إماء الله مساجد الله.. (ابن ماجه)

ص٤٨٩ إذن لكن أن تخرجن فى حوائجكن.. (السيوطى)

ص٤٩٠ – والله الله فى النساء عوار فى أيديكم.. (السيوطى)

– لو أمرت أحدًا أن يسجد لشئ سوى الله تعالى لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها.. (السيوطى)

ص٤٩٣ – تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة.. (ابن ماجه)

– خير نسائكم الولود الودود.. (الترمذى)

– سوداء ولود خير من حسناء لاتلد.. (الترمذى)

ص٤٩٧ – دخول الحمام على النساء حرام وعلى الرجال إلا بمئزر.. (السيوطى)

ص٤٩٨ – من الذنوب ذنوب لايكفرها إلا الهمّ بطلب المعاش.. (ابن حنبل)

– أحل ما أكل المرء من كسب يده.. (أبو داود)

– لاتقولوا هذا إن كان يسعى على نفسه.. (النسائى)

ص٥٠٠ – إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لاناكل إلا طيباً... (أبو داود)

ص٥٠٤ – لاتأخذ على الأذان أجراً.. (ابن ماجه)

ص٥٠٤ – من احتكر طعام المسلمين فليس منا.. (ابن حنبل)

ص٥٠٦ – من سن سنة سيئة.. (أبو داود)

ص٥٠٧ – اسمح يُسمح لك.. (السيوطى)

ص٥٠٩ – من غشى فليس منى.. (السيوطى)

ص٥١٠ – ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: عبد متكبر، ومنان بعطيته، ومنفق سلعته بيمينه.. (أبو داود)

ص٥١٢ – من جلب إلى مصر من أمصار المسلمين.. (أبو داود)

– لايدخل الجنة صاحب مكس.. (أبو داود)

– من أقال نادما فى بيع أقاله الله عز وجل.. (النسائى)

– خير مال المسلم سكة مابورة.. (الترمذى)

ص٥١٦ – يأتى زمان على الناس ما يبقى فيه أحد إلا أكل الربا.. (البخارى)

ص٥١٧ – طلب الحلال فريضة بعد الفريضة.. (البخارى)

ص٥١٨ – طلب العلم فريضة على كل مسلم.. (البخارى)

ص٥١٩ - جسم غذى بحرام لايدخل الجنة.. (ابن حنبل)

ص٥١٩ - ياسعد أطب طعمتك تستجب دعوتك.. (ابن حنبل)

ص٥١٩ - كم من صائم حظه من صيامه الجوع.. (أبو داود)

- رُبّ أشعث أغبر مشرد فى الآفاق.. (مسلم)

- إن الله عز وجل ملكا على بيت المقدس ينادى فى كل ليلة.. (مسلم)

ص٥٢٠ - من اكتسب مالاً من حرام وإن تصدق به لم يقبل منه.. (البخارى)

ص٥٢٣ - إنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فاقضى له على ما أسمع.. (ابن حنبل)

ص٥٢٧ - وان كان لابد فاعلفه ناضحك وأطعمة رقيقك... (ابن حنبل)

ص٥٢٩ - دعها.. وكيف وقد زعمت أنها قد ارضعتكما.. . (ابن ماجه)

ص٥٣٤ - من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه.. (ابن حنبل)

ص٥٣٤ - لا يكون الرجل من المتقين حتى يترك ما لا بأس به حذرًا مما به البأس.. (ابن حنبل)

ص٥٣٦ - لا تتخذوا الضيعة فترغبوا فى الدنيا.. (النسائى)

ص٥١٩ - يا سعد أطب طعمتك تستجب دعوتك.. (النسائى)

ص٥١٩ - كم من صائم خطه من صيامه الجوع.. (أبو داود)

★★★

فهرس الجزء الثالث

الموضوع	الصفحة

تابع الفصل الثالث والثلاثون :

الفصل الرابع والثلاثون :

الفصل الخامس والثلاثون :

الفصل السادس والثلاثون :

الفصل السابع والثلاثون :

هوامش قوت القلوب

★★★

هذا الكتاب

كتاب قوت القلوب من أروع الكتب في التراث الإسلامي، والمكيُّ مؤلفه إمام، وعالم، ومُربٍّ كبير، وصوفي قدوة.

والكتاب موسوعة كاملة في علم الإسلام، وفي التربية الصوفية، وفي تاريخ وتطور الفكر الديني والصوفي خصوصاً.

ثم إن هذا الكتاب هو أصل كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، فالغزالي استنبط كتابه الإحياء منه، ونهج على منواله. وقد نصح أبو الحسن الشاذلي شيخ طائفة الشاذلية مريديه أن يتخذوا من الإمام أبي حامد الغزالي قدوة، ومن كتاب القوت لأبي طالب المكي نبراساً. وقال: إذا عرضتْ لكم حاجة إلى الله فتوسلوا إليه بالإمام الغزالي. وقال: كتاب الإحياء للغزالي يورث العلم، وكتاب قوت القلوب للمكي يورث النور.

والدكتور الحفني حقق الكتاب، فقام بمراجعته، وصحَّح متنه، وأكمل الناقص، ورفع الحواشي والحشو وما لا يناسب العصر، ووضع الفقرات والشكل، وقدَّم بدراسة وافية بين فيها فكر المكي ومكانته، وقارن بينه وبين الغزالي صاحب الإحياء.

وتنشر دار الرشاد الكتاب على أجزاء، بإذن الله، والله ولي التوفيق.

الناشر

